2020
30.12.2019

برام ستوكر

دراكولا

ترجمة: مهدي سليمان



مرايا | منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING



برام ستوكر

دراكولا

ترجمة

مهدي سليمان





دراكولا

الكاتب: برام ستوكر

عنوان الكتاب: دراكولا

ترجمة: مهدي سليمان

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-22-9

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019

3000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com takweenkw

www.takweenkw.com @takweenKw

لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: 683 345 1 961+ / 980 541 1 961+

بغداد - العراق/ شارع المتنبي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07810001005 / 07830070045

daralrafidain@yahoo.com Dar alrafidain

info@daralrafidain.com Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com @Dar alrafidain

إلى صديقي العزيز
هومي-بِغْ[1]

(١) هو لقب السيرْ تومَس هنري هول كين (١٨٥٣ - ١٩٣١) المعروف باسم هول كين. وهو كاتب بريطاني كان صديقًا لبرام ستوكر.

المحتويات

دراكولا

الفصل الأول

يوميَّات جوناثان هاركَر

(مكتوبةٌ بأسلوب الاختزال)

٣ *مايو. بسْتْرِتْز*[1]– غادَرْتُ ميونخ في الساعة ٨:٣٥ مساءً، في الأول من مايو، ووصلتُ إلى ڤيينا صباح اليوم التالي. كان من المفترض أن أصل في الساعة ٦:٤٦، ولكن القطار تأخَّر ساعةً عنْ موعده. تبدو بودا-بست مكانًا رائعًا، بناء على ما لمحْتُه منها من مناظر أثناء رحلتي في القطار أو بما تيسر لي رؤيته في جولتي القصيرة سيرًا في شوارعها. خشيتُ أن أبتعد كثيرًا عن المحطَّة، إذ أننا وصلنا متأخِّرين وسنتابع رحلتنا في وقت قريب. تشكل لدي انطباع بأننا نغادر الغرب وندخل الشرق؛ فقد قادتنا الجسور البهية التي تعكس الحضارة بطابعها الغربي فوق نهر الدانوب، والذي يتميَّز في هذه البقعة بعرضٍ وطولٍ مهيبين، لتلج بنا في تراث الحكم التركي.

غادرنا في وقتٍ مناسبٍ جدًا، ووصلنا بعد حلول الليل إلى كلاوسينبرغ. وهنا توقَّفْتُ لأبيتَ ليلتي في فندق رويال. تناولتُ

(١) وتُعرَفُ أيضًا باسم بيستراتا، وهي بلدة في شمال رومانيا سكنها المهاجرون الألمان في القرن الثاني عشر الميلادي.

على الغداء، بل الأحرى على العشاء، دجاجةً مطهيَّة بطريقة ما بالفلفل الأحمر، كانت وجبةً طيبةً جدًا ولكنها مثيرة للعطش. (تذْكير: أحضر وصفة تحضيرها لمينا). سألتُ النادل عنها، فقال إنَّهَا تُدْعَىْ «پاپريكا هِنْدِل»، وإنني يمكن أن أصادفها في كافة أرجاء منطقة جبال الكارپات. تبيَّنَ لي أن حصيلتي اليسيرة من اللغة الألمانية مفيدة جدًا في هذي البلاد؛ بل في الحقيقة لا أدري ما كنت سأفعل لولاها.

وحيث امتلكت بعض الوقت لأتصرف فيه كما أشاء عندما كنتُ في لندن، فقد زرتُ حينذاك المتحف البريطاني، وبَحَثْتُ في الكتب والخرائط الموجودة في مكتبته مستقصيًا عن ترانسيلڤينيا، وقد أدهشني أن القليل من المعرفة المسبقة بتلك البلاد، لن تخذلك في اكتساب الأمور المهمة في التعامل مع نبيلٍ من نبلائها. وعلمت بأن المقاطعة التي ذكَرَهَا لي تقع في أقصى شرق البلاد، أي بالضبط على حدود الولايات الثلاثة، ترانسيلڤينيا ومولداڤيا وبوكوڤينا، في وسط جبال الكارپات، إحدى أكثر البقاع الموحشة وأقلها شهرة في أوروبا. لم أستطع العثور على أي خريطة أو كتاب يحدِّد الموقع الدقيق لقلعة دراكولا، نظرًا لأنه لا توجد حتى الآن خرائط لهذه البلاد لمقارنتها مع خرائطنا الصادرة عن هيئة المساحة البريطانية، ولكنني وجدت أنَّ بِسْتِرْتز، البلدة التي ذكرَها الكونت دراكولا، هي مكان معروفٌ نوعًا ما. سأدوِّن هنا بعضًا من ملحوظاتي، إذ من شأنها أن تنعش ذاكرتي عندما أقص أخبار رحلتي على مسامع مينا.

يضمُّ سكان ترانسيلڤينيا أربعَ جنسيات متمايزة: السكسونيون في الجنوب، وقد اختلط بهم الوَلْشيون، الذين ينحدرون من الداشيين، والمجريون في الغرب، والسيكيُّون في الشرق والشمال. أنا الآن في أراضي السيكيِّين، الذين يزعمون أنهم ينحدرون من أتيلا وسلالة الهون. وربما يكون ذلك صحيحًا، فعندما غزا المجريون البلاد في القرن الحادي عشر وجدوا الهون مستقرين فيها. كما قرأتُ بأن كل خرافةٍ معروفةٍ في العالم موطنها جبال الكاراپات التي تأخذ شكل حذوة الحصان، وكأنها كانت مركزًا لما يشبه دوَّامة مائية متخيَّلة، وإنْ كان الأمر كذلك فإن إقامتي ربما تنطوي على متعة كبيرة. (تذْكير: يجب أن أسأل الكونت عن كل تلك الخرافات).

لم أحظَ بنوم هانئ رغم أن فراشي كان مريحاً بما يكفي، إذ راودتني أحلام غريبة من كل الأنواع. ما انفك كلبٌ ينبحُ طوال الليل تحت نافذة غرفتي، وربما يكون نباحُه سببَ مجافاة النوم لي، أو ربما كان سبب ذلك وجبة الپاپريكا، إذ اضطررت إلى شرب كل الماء الموجود في الإبريق، ولم يبارحني العطش. استيقظت قبيل الصبح على صوت قرع مستمر على بابي، لذا لا ريب أني كنت أغط في نوم عميق. تناولتُ المزيد من الپاپريكا على الفطور، ومعها نوعٌ من عصيدة من طحين الذُّرَة يسمونها «ماماليغا» بالإضافة إلى طبق رائع يدعى «إمپليتاتا» وهو عبارة عن باذنجان محشو بلحم مفروم (تذْكير: لا تنسى أن تأتي بوصفة تحضيرها أيضًا). اضطررتُ إلى الإسراع في الفطور، لأن القطار ينطلق قبل الثامنة بقليل؛ أو بالأحرى يجب عليه فعل ذلك. بعد أن هرعت إلى المحطة في الساعة

٧:٣٠ اضطررت للجلوس في عربة القطار لأكثر من ساعة قبل أن ينطلق. يبدو لي أَنَّهُ كلَّما توغَّلْتَ شرقًا قلَّت دقة مواعيد القطارات. على هذه الحال، ترى كيف ستكون مواعيدها في الصين؟

قضينا اليوم بأكمله نتوغل في بلد يزخر بكل ضروب الجمال. أحيانًا رأينا بلداتٍ أو قلاعًا صغيرة تتربَّع على ذرى تلال منحدرة، كتلك التي نراها في كُتُبِ صلوات القدَّاس العتيقة؛ ومرَّرْنا أحيانًا بأنهارٍ وجداول بدت من خلال حوافها الصخرية الواسعة من كلا الجانبين وكأنَّها تعرَّضت لفيضانات عظيمة. إذْ يتطلب الأمر الكثير من الماء المندفع بقوة، لجرف الحافة الخارجية لنهر من الأنهار. كان هناك مجاميع من البشر في كل محطة، أو حشود أحيانًا، يرتدون شتَّى أشكال الملابس. بعضهم يشبه تمامًا فلَّاحي بلادنا أو يشبه الفلَّاحين الذين رأيتهم يسيرون على دروب فرنسا وألمانيا، بستراتٍ قصيرةٍ وقبَّعَاتٍ مستديرة وبنطلونات محلِّيَّة الصنع، ولكن بعضهم الآخر بدا بمظهرٍ بديع. تبدو النساء جميلات، لكن إذا ما اقتربْت منهنَّ ستجدهن يفتقدن إلى التناسق في المنطقة المحيطة بخصورهن. لملابسهن أكمامٌ بيضاء طويلة من هذا القماش أو غيره، وتزنّر معظمهن بزنانير كبيرة يتدلى منها الكثير من الطيّات كما لو كانت شبيهة بفساتين راقصات الباليه، ولكنهن ارتدين تحتها تنانير تحتانيَّة بالطبع. أَغْرَبُ خلقٍ رأيناهم هم السلوفاك، وهُمْ أكثر بربرية من البقية، يعتمرون قبَّعات رعاة بقر كبيرة، وبناطيل فضفاضة بيضاء متسخة، وقمصانًا من الكتان الأبيض، وأحزمة جلدية ثقيلة ضخمة، يصل عرضها نحو قدم واحدة، مرصَّعة بأكملها بمسامير نحاسية.

ينتعلون أحذية عالية دسوا بناطيلهم داخلها، شعورهم سوداء طويلة وشواربهم سوداء كثيفة. تحيط بهم الألوان من كل جانب، ولكن النفس تنفر منهم. ولو ظهروا على خشبة المسرح لبَدَوْا على الفور مثل فرقة شرقية قديمة من قُطَّاع الطرق. على أي حال، قيل لي بأنهم لا يؤذون نملةً وتتنازعهم رغبة غريزية في الاعتداد بالنفس.

كان الغسق أقرب إلى حلكة الليل عندما وصلنا إلى بِستْرِتْز، وهي موضعٌ قديمٌ مذهلٌ جدًا. فنظرًا لكونها عمليًا على الحدود – لأن معبر بورغو الحدودي يصل بينها وبين بوكوڤينا – فقد شهدت أحداثًا مضطربة جدًا، لا تزال آثارها ماثلةً بكل تأكيد. قبل خمسين عامًا خَلَتْ اندلعت سلسلة من الحرائق العظيمة في خمس مناسبات منفصلة، وقد أنزَلتْ خرابًا هائلًا. ومع بدايات القرن السابع عشر تعرَّضت لحصارٍ دَامَ ثلاثة أسابيع وفقدت ١٣٠٠٠ من الأرواح، وهو عدد الضحايا الناجم عن الحصار إضافة إلى من مات بفعل المجاعة والأمراض.

كان الكونت دراكولا قد وجَّهَني بالذهاب إلى فندق غولْدِن كرونا، الذي تبيَّن لي أنه فندقٌ قديم الطراز مما أثلج صدري، لأنني بالطبع أردْتُ أن أرى كل ما أستطيع رؤيته من عادات البلد. كان واضحًا أنَّ القائمين على الفندق توقَّعُوا وصولي، فما إنْ وصلتُ الباب إلَّا وتلقتني عجوزٌ طَلْقَةُ المحيًا ترتدي فستان الفلَّاحات المعتاد؛ ثوبٌ تحتاني بمئزرين طويلين، أمامي وخلفي، من قماش محشو ملوَّن يكاد يكون مشدودًا بقوة لستر أعضاء الجسد إظهارًا للحشمة. حين اقتربْتُ منها انحنت وقالت: «أأنتَ السيِّد

الإنجليزي؟» قلتُ لها: «نعم، واسمي جوناثان هاركر». ابتسمَتْ وأوعْزَت برسالةٍ ما إلى عجوزٍ يرتدي قميصًا بأكمامٍ بيضاء، فما كان منه إلَّا وتبعها صوب الباب. ذهب، ولكنه ما لبث أن عاد فورًا ومعه رسالة مكتوب فيها:

«أهلًا وسهلًا بكَ يا صديقي في جبال الكاراپات. أنا أنتظرك بفارغ الصبر. نم جيدًا هذه الليلة. في الثالثة غدًا ستنطلق العربة صوب بوكوڤينا، وقد حجزنا لكَ مقعدًا فيها. وعند معبر بورغو ستكون عربتي بانتظارك لتأتي بكَ إليَّ. واثق أن رحلتك من لندن كانت رحلةً هانئة جدًا، وبأن الإقامة ستطيبُ في أرضي الجميلة.

صديقُك،

دراكولا»

٤ مايو– تبيَّن لي بأن صاحب الفندق تلقَّى رسالةً من الكونت، توجِّهُهُ بأن يحجز لي أفضل مقعدٍ في العربة، ولكن عندما استفسرتُ عن التفاصيل بدا عليه شيء من التكتم، وادَّعى عدم استطاعته فهم حديثي بالألمانية. وهذا ما لا يمكن أن يكون صحيحًا، لأنه وحتى تلك اللحظة، كان يفهمها بطريقة مثالية، على الأقل أجاب عن أسئلتي بدقة تشي بأنه يفهمني بوضوح. تبادل العجوز وزوجته التي استقبلتني نظراتٍ مذعورة. غَمْغَمَ قائلًا بأنَّ المال بُعِثَ في رسالة، وأن ذلك كل ما يعرفه. عندما سألتُه ما إذا كان يعرف الكونت دراكولا، وإن كان بإمكانه أن يفيدني بأي معلومات عن قلعته، رسم هو وزوجته إشارة الصليب، وقالا إنَّهما لا يعرفان

أي شيء على الإطلاق، رافضين ببساطة أن يضيفا أي معلومات أخرى. اقترب كثيرًا موعد الانطلاق وما عاد أمامي متسع من الوقت كي أستفسر من أي شخص آخر حيث كان الوضع غامضًا جدًا ولا يبعث على الراحة.

قبيل مغادرتي بلحظات، صعدتْ العجوز إلى غرفتي وقالت بطريقة هستيرية جدًا:

«أيجب أن تذهب؟ أوه! أيها السيِّد الشاب، أيجب أن تذهب؟» كانت في حالة اهتياج كبيرة إلى درجةٍ بدا عليها وكأنها فقدت ناصية الحديث بما تعرفه من مفردات اللغة الألمانية، وخلطتها بلغة أخرى لا أعرفها على الإطلاق. لم يكن أمامي سبيلٌ لفهم ما تقول سوى من خلال طرح عدة أسئلة عليها. وحين قلتُ لها بأنه يجب عليَّ الذهاب فورًا، وبأنَّ لدي أعمالًا مهمة أنجزها، سألتني مرة ثانية:

«أتعرف ما اليوم؟» أجبتها بأنه الرابع من مايو. هزَّتْ رأسها وهي تقول مرة أخرى:

«أوه، نعم! أعرف ذلك! أعرف ذلك، ولكن أتعرف أي حدثٍ يصادف الرابعَ من مايو؟» عندما قلتُ لها إنني لا أفهم ما تقصد، تابعت قائلة:

«إنَّه اليوم الذي يسبق عيد القدِّيس جورج. أتعرفُ أنه في هذه الليلة، وعندما تدقُّ عقاربُ السَّاعة معلنةً حلول منتصف الليل، فإن كل شرور الأرض ستجتاح العالم. أتعرف إلى أين أنت ذاهب؟ وأيَّ مصيرٍ ستلاقي؟» انتابَهَا قلقٌ واضحٌ حتى إنني حاولت أن

أهدِّئَ من روعها، ولكن دون جدوى. أخيرًا جثتْ على ركبتيها وتوسَّلت إليَّ ألَّا أذهب؛ أو على الأقل أنْ أنتظر يومًا أو يومين قبل الذهاب. كان الأمر برمته سخيفًا ولكني لم أشعر بالطمأنينة. على كل حال، أمامي عملٌ يجب القيام به، وما كنت لأسمح لأي عارضٍ أن يمنعني من إنجازه. حاولتُ أن أرفَعَهَا عن الأرض، وقلتُ لها بكل ملامح الجدية التي استطعت إبرازها، بأنني أشكر لها اهتمامها، ولكن لدي مهمة ضرورية ولهذا عليَّ الذهاب. نَهَضَتْ بعدئذٍ ومسحت دموعها، ونزَعَتْ صليبًا عن رقبتها وأعطتني إيَّاه. لم أعرف ماذا أفعل، لأنني بصفتي إنجليزيًا مسيحيًا، تربيت على أن أعتبر مثل هذه الأشياء وثنية على نحو ما. ومع ذلك بدا من الفجاجة أن أرد عجوزًا حسنة النية، وهي بهذه الحالة الذهنية. أحسبُ أنها رأت الشكَّ يرتسم على محيَّاي، لأنها وضعتْ مسبحة الصليب حول عنقي وقالت: «كُرْمَىْ لعيني أمِّك» وخرَجَتْ من الغرفة. إنني أكتب هذا الجزء من المذكَّرات منتظرًا قدوم عربة الركاب التي تأخَّرَتْ بالطبع، ولا يزال الصليب يحيط برقبتي. سواءٌ أكان سبب ذلك خوف العجوز، أو التقاليد الغيبية العديدة التي تكتنف هذه الدِّيار، أو بسبب الصليب نفسه، لا أعرف، لكنني وعلى خلاف عادتي لا أشعر براحة بال. إنْ حَدَثَ ووصل هذا الكتاب إلى يدي مينا قبل أن أراها، فهو بمثابة رسالتي الوداعية لها. ها هي العربة قد وصلت!

٥ *مايو، القلعة*- زَالَتْ ظلمة الفجر الخفيفة وانبلج الصبح، وارتفعت الشمس فوق الأفق البعيد، الذي بدا مثلَّمًا، ولا أعرف أكان

ذلك بسبب الأشجار أم التلال، نظرًا لأنه أفقٌ بعيدٌ جدًا واختلطت الأجسام الكبيرة فيه بالصغيرة. لستُ نعسانًا، وحيث أنه لن يُرْسَلَ في طلبي حتى أستيقظ، فمن الطبيعي أن أكتب حتى يداهمني النوم. هناك الكثير من الغرائب التي ينبغي كتابتها، ولئلا يتصوَّرُ من يقرأ ما أكتبه بأنني تناولت عشاءً دسمًا قبل مغادرة بيسترِتْز، دعوني أدوِّن عشائي بالتفصيل. تناولت وجبةً تدعى «شرائح اللص» -وهي قِطَعٌ من لحم الخنزير المقدَّد والبصل واللحم البقري، وقد تُبِّلَتْ بالفلفل الأحمر، وشُكَّتْ في أسياخ وحُمِّرَتْ فوق النار، بنفس الطريقة البسيطة التي تُحَضَّر فيها اللحوم التي ترمى للقطط في لندن! أما النبيذ فنبيذ غولدِنْ ميدياش، الذي يُحْدِثُ شرْبُه لذعةً غريبةً في اللسان، وهو ليس بالأمر المزعج على كل حال. لم أشرب سوى بضع كؤوس، ولا شيء سوى ذلك.

عندما صعدُت إلى العربة، لم يكن السائق قد جلس على مقعده بعد. رأيته يتحدَّث مع صاحبة الفندق وواضحٌ أنهما كانا يتحدَّثان في أمري، لأنهما كانا ينظران إليَّ بين الفينة والأخرى. جاء بعض الأشخاص ممن كانوا يجلسون على المقعد خارج باب الفندق -وهؤلاء تُطْلَقُ عليهم تسميةٌ تعني «ناقلو الكلام»- وأصغَوْا إلى حديثهما، ومن ثمَّ رمقوني بنظرات يطغى عليها الإشفاق. استطعتُ أن أسمع الكثير من الكلمات الغريبة، التي كُرِّرَت غالبًا، نظرًا لوجود العديد من الجنسيات بين حشد الجالسين، ولذا أخرجتُ المعجم المتعدد اللغات بهدوء من حقيبتي وبحثْتُ في معانيها. يجب أن أقرَّ بأنها لم تكن كلمات مبهجة بالنسبة لي، فمن بينها كلمات من قبيل «أوردُغ»

ومعناها الشيطان، و«پوكول» ومعناها «الجحيم»، و«ستريجويكا» ومعناها السَّاحر، ناهيك عن كلمتي «ڤرولوك» و«ڤلوكوسلاك» وكلاهما تعنيان المعنى ذاته، فالكلمة الأولى سلوڤاكية والثانية صِرْڤية وتعنيان مخلوقًا إما مستذئبًا أو مصَّاصَ دِّماء. (تذكير: يجب أن أسال الكونت عن هذه الخرافات).

عندما انطلقت بنا العربة، رسم جميع أفراد الحشد المتجمعين حول باب الفندق إشارةَ الصليب وأشاروا بإصبعين نحوي، وكان قد تضاعف عددهم حينئذٍ. استطعت بشقِّ الأنفُس أن أسأل أحد المسافرين معي في العربة ماذا يقصدون بتلك الإشارة. لم يرغب في الإجابة على سؤالي أول الأمر، ولكن عندما علم بأني إنجليزي، أوْضَحَ لي أنها تعويذة أو حِرْزٌ ضد العين الشرِّيرة. إن مجرَّد السفر إلى مكانٍ مجهول للقاء إنسان لا أعرفه ما كان ليدخل السرور على قلبي، ولكن الجميع بدوا في قمة الطِّيبة، وشعروا بالأسف الشديد لحالي، وتعاطفوا معي كثيرًا آملين ألَّا يمسسني سوء. ولن أنسى ما حييتْ نظرتي الأخيرة التي ألقيتها على ساحة الفندق والشخصيات البديعة المتجمهرة فيه، يرسمون إشارة الصليب وقد وقفوا متحلِّقين حول الممشى المقنطر، ومن ورائهم منظرُ أوراق نباتات الدفلى وأشجار البرتقال في أحواضٍ خضراء متجمِّعة وسط ساحة الكنيسة. ومن على مقعده الذي غطَّته الأدراج القماشية الواسعة والمعروفة هنا باسم «غوتزا»، أطلق سائقنا العنان لسوطِه الضخم ضاربًا جيادَه الأربعة الصغيرة التي جرَت جنبًا إلى جنب، وانطلقنا في رحلتنا.

سرعان ما تخلَّيْتُ عن التفكير بالمخاوف المرعبة واستحضارها

في ذاكرتي بسبب جمالية المنظر الممتد ونحن نمضي في طريقنا، رغم أنه لو قيِّضَ لي معرفة اللغة، أو اللغات بالأحْرَى، التي كان يتحدَّث بها رفاقي في السفر، لربما ما كنت سأقدر على منع نفسي من مشاركتهم الحديث بسهولة. امتدت أمامنا أرضٌ منحدرة خضراء مليئة بالغابات والشجر، تبرز فيها تلالٌ منحدرة هنا وهناك، وتعلوها أجَمَاتُ الأشجار أو المزارع ببيوتها الريفية، ورؤوسها الجملونية الخالية من الزخرفة مطلة على الطريق. تنتشر بكل صوب مجموعة مذهلة من زهور أشجار الفاكهة؛ تفاحٍ وخوخٍ وكُمَثرَّى وكرز. وحين مررنا قربها، رأيتُ العشبَ الأخضر تحتَ الأشجار وقد ائتلقت حولها بتلات الزهور المتساقطة. امتد الطريق صعودًا وهبوطًا بين هذه التلال الخضراء؛ تلال أرضٍ يسمونها هنا «أرض ميتيل»، لتنمحي آثاره وهو ينعطف مع المنعطف المعشوشب، أو تخفي معالمَه الأطراف المتشابكة لغابات الصنوبرالمنتشرة هنا وهناك على سفوح التلال كألسنة اللهب. كان الطريق وعرًا، ولكننا مع ذلك كنا وكأننا نحلق فوقه بسرعة محمومة. لم أستطع أن أفهم حينها ما الغرض من السرعة، ولكن من الواضح أن سائق العربة مصرٌّ على ألَّا يضيِّعَ أي وقت للوصول إلى بورغو پرَنْد. قيل لي إنَّ هذا الطريق ممتاز في الصيف، لكن لم تتم تهيئته حتى الآن بعد تساقط ثلوج الشتاء. ومن هذه الناحية فإن هذا الطريق يختلف عن الفكرة العامة عن الطرق في جبال الكاراپات، إذ أنه كما لو كان تقليداً متعارفاً ألا تكون الطريق في حالة جيدة. فمنذ غابر الأيام دأب الهوسباداريّون على عدم إصلاح الطرق، لئلا يظن الأتراك بأنهم

كانوا يصلحونها بغية استدعاء جيوش أجنبية، وبالتالي يسرِّعُ ذلك من اندلاع الحرب التي كانت دائمًا على مرمى حجرٍ.

وراء التلال الخضراء الضخمة لأرض ميتيل، شمخت السفوحُ الهائلة للغابة المؤدية إلى المنحدرات المرتفعة لجبال الكاراپات ذاتها. فعلى يميننا وشمالنا ارتفعت تلك الجبال، وشمس الظهيرة تسقط كاملة عليها كاشفة عن كافة الألوان الرائعة لهذه السلسلة الجبلية البديعة؛ ألوان زرقاء وأرجوانية غامقة في ظلال القمم الجبلية، وخضراء وبنية في مواضع تداخلِ العشب والصخور، ومنظرٌ لا نهاية له من الجروف الصخرية المثلَّمة والمدبَّبَة، إلى أن تتلاشى هذه مع امتداد المسافة، حيث ترتفع القمم الثلجية شامخة. ظهرت صدوعٌ مهولة في الجبال هنا وهناك، رأينا من خلالها البريق الأبيض للماء المتساقط ما إن بدأت الشمس بالغروب. وبينما كنا نمضي في طريقنا الملتفة كالأفعى، نجتاز بسرعة قاعدة إحدى التلال لتظهر أمامنا قمةُ جبل مرتفعة مكسوة بالثلوج، لمس أحدُ المسافرين ذراعي وقال:

- «انظر! إستِن زيك» -أي «كرسي الرب!»- ورسم إشارة الصليب بوقار. بينما تعرَّجَتْ بنا العربة على طريقنا الذي لا نهاية له، وغابت الشمس تدريجيًا وراءنا، بدأت ظلال المساء تتسلَّلُ حوالينا. وزاد من بهاء المنظر مشهدُ قمة الجبل الثلجية وهي تعانق الشمس الغاربة، فبدت متوهجة بلونٍ وردي هادئ رقيق. مررنا بين الفينة والأخرى بأقوامٍ من التشيك والسلوفاك، وقد ارتدوا جميعهم ملابس بهية، ولكنني لاحظتُ انتشار تضخم الغدة الدرقية فيما بينهم على نحوٍ يبعث على الأسى. توزعت على جانبي الطريق

عدَّة صلبان، وبينما مررنا بها مسرعين، رسم جميع الركاب إشارة الصليب. هنا وهناك ظهر فلَّاحٌ أو فلَّاحةٌ راكعين أمام ضريح، ولم يكلف أحدهم نفسه حتى بالالتفات إلى الوراء ونحن نقترب منهم، فقد بدت عليهم حالة من الخشوع والورع أعمت عيونهم وصمَّت آذانهم عن العالم المحيط بهم. العديد من الأمور كانت جديدة بالنسبة لي: فعلى سبيل المثال، رأيتُ كداديس قش في الأشجار، كما انتشرَتْ هنا وهناك كتلٌ جميلة جدًا من شجيرات البتولة المتهدِّلَة الأغصان، وسيقانها البيضاء تلتمع مثل الفضة عبر الخضرة الباهتة للأوراق. مررنا بين الفينة والأخرى بعربة زراعية -عربة الفلاحين العادية- بهيكلها الطويل، شبه الأفعواني، وقد صُنِعَتْ خصيصًا لملائمة وعورة الطريق. في هذه العربة جلَسَتْ كالمعتاد مجموعة كاملة من الفلَّاحين الراجعين إلى بيوتهم؛ منهم التشيك بجلود الأغنام البيضاء، ومنهم السلوفاك بجلود الأغنام الملوَّنة، وقد حملوا عصيهم الطويلة المزوَّدة بفؤوسٍ في نهايتها كمن يحمل الرماح. عندما حلَّ المساء ازدادت برودة الجو على نحو كبير، وبدا الغسق الصاعد وقد دَمَجَ على شكل سديم مظلم عتمةَ الأشجار؛ أشجار البلوط والزَّان والصنوبر، رغم أنه في الأودية التي تجري عميقةً بين نتوءات التلال، وبينما كنا نصعد عبر المعبر، انتصبت أشجار التنُّوب الداكنة هنا وهناك أمام الثلج المتساقط في خلفية المنظر. أحيانًا، ومع دخول الطريق غابات الصنوبر التي بدت في الظلام وكأنها تطبق الخناق علينا، شكَّلَتْ كتلٌ عظيمة من السديم الرمادي التي غطَّتْ الأشجار، تأثيرًا استثنائيًا وغريبًا على نحو يثير العجب، تأثيرٌ استمر

في إثارة الأفكار والخيالات الموحشة التي تولَّدَتْ مسبقًا في ذلك المساء. حينما حل الغروب برزت السحب الشبيهة بالأشباح، والتي بدت وسط جبال الكاراپات وكأنها تموج دون توقف عبر الوديان. كانت التلال أحيانًا تنحدر بشدة حتى أن الخيل لم تستطع إلا السير ببطء رغم استعجال سائق عربتنا. تمَنَّيْتُ لو أنزل من العربة وأمشِّيْ الخيل، كما نفعل في بلادنا، ولكن السائق رفض قائلًا: «لا، لا، يجب ألَّا تَمْشِي هنا، فالكلاب شرسة جدًا» ومن ثم أضاف بنبرة تهكمية -حيث نظر حواليه باحثًا عن ابتسامة موافقة من بقية الركَّاب- «ربما يكون لديك ما يكفيك من مثل هذه المسائل المخيفة قبل أن تخلد إلى النوم». المرة الوحيدة التي توقف فيها وللحظة قصيرة، كانت لكي ينير مصابيح عربته.

عندما زادت حلكة الظلام، بدا أن هناك حالة من الهياج تتغلغل بين الركاب، استمروا بالحديث مع السائق واحدًا تلو الآخر، وكأنهم يستحثونه على زيادة سرعته. انهال على الخيلِ دونما رحمة بسوطه الطويل، وحثَّهَا على بذل مزيدٍ من الجهد بصيحات تشجيعٍ مجنونة. ومن ثم وعبر الظلمة، رأيت ما بدا أنها بقعة ضوء رماديٍ أمامنا، وكأن هناك صدع في التلال. تهيج الركاب أكثر، وتهزهزت العربة المجنونة على نوابضها الجلدية القويَّة، وتأرجَحَتْ مثل مركبٍ رمته الأقدار في بحر عاصف. اضطررت للتمسك جيدًا. صار الطريق أكثر استواءً، فانطلقنا بسرعة وكأننا نحلق فوق الأرض. بعد ذلك بدَتْ الجبال وكأنَّها تقترب منا من كلا الجانبين وتعبس في وجوهنا؛ ها نحن ندخل معبر بورغو. عرض عليَّ

مجموعة من الركاب هداياهم الواحد إثر الآخر، قدموها لي بحماسة وإصرار لا يفيد معها الرفض، وكانت بلا شك هدايا من نوعٍ غريب ومتنوِّع، ولكنها أُهْدِيَتْ إلي بنوايا طيبة متواضعة، مشفوعة بكلمةٍ لطيفة، وبالدعاء بالبركة، مترافقة مع ذلك المزيج الغريب من الحركات المحملة بدلالات الخوف كالتي رأيتها خارج الفندق في بيسترِتْز؛ علامات الصليب واتقاء أذى العين الشريرة. ومن ثم، انحنى السائق إلى الأمام بينما انطلقت العربة بسرعة، وعلى كلا الجانبين مد الركاب رؤوسهم فوق حافة العربة وحدقوا بحماسة إلى الظلام. كان جليًا بأنَّ شيئًا مثيرًا جدًا كان إما يحصل حينئذٍ أو متوقع أن يحصل، ورغم أنني سألت كل واحد منهم عن الأمر، لم ينطق أحد ولو بكلمة ليوضح لي ما يجري. استمرَّت هذه الحالة من الهياج لبرهة قصيرة من الوقت، وأخيرًا رأينا أمامنا المعبر مفتوحًا على الجانب الشرقي. كانت هناك غيومٌ داكنة تسير فوقنا، وساد في الجو الإحساس الثقيل الوطأة القابض للصدر المصاحب للرَّعد. بدا وكأن السلسلة الجبلية تفصل بين عالمين، وأننا الآن ولجنا إلى عالم الرعود. كنتُ وقتها أبحث عن وسيلة النقل التي ستقلُّنِي إلى الكونت. توقَّعْتُ أن أرى تلألؤ مصابيحها في السواد في أي لحظة؛ ولكن لم يكن هنالك غير العتمة. الضوء الوحيد في المكان كان ضوء مصابيح عربتنا، الذي ارتفعت خلاله بخار أنفاس خيلنا المنهكة كغيمة بيضاء. يمكننا الآن أن نرى الطريق الرملية تبدو بيضاء أمامنا، ولكن لم يكن عليها أثر لأي عربة. أرجَعَ الركاب رؤوسهم بتنهيدة من السرور، بدَتْ وكأنها تسخر من خيبة أملي. كنت قد

شرعت بالتفكير فيما يجب علي فعله، عندها تحدث السائق للركاب وهو ينظر إلى ساعته بكلماتٍ بالكاد استطعت سماعها، لأنه تلفَّظ بها بهدوءٍ شديد وبنبرة خافتة جدًا. أظنه قال لهم: «وصلنا قبل الوقت المعتاد بساعة». ومن ثمَّ قال وهو يلتفت نحوي بلغة ألمانية أسوأ من الألمانية التي أتحدَّثُها:

«ما من عربة هنا. إذْ لم يتوقع أحدٌ مجيء السيِّد في نهاية الأمر. سيأتي الآن إلى بوكوفينا، ويعود غدًا أو بعد غد، والأرجح أنه سيأتي بعد غد». بينما كان يتكلَّم بدأَتْ الخيل بالصهيل والنخير وغرست قوائمها في الأرض بجموح، حتى إن السائق لم يجد بُدًّا من لجمها وإيقافها. إذَّاك، وفي خضم جلبةٍ من صرخات الفلَّاحين وقيامهم جميعًا برسم إشارة الصليب، وإذا بعربة منخفضة ذات غطاء تجرُّها أربعة جياد تقف وراءَنا، ثم تجاوزتنا وتوقفت بجانب عربتنا. استطعت أن أرى في وميض مصابيح عربتنا وقد سقطت أشعتها على الخيل، أنها سوداء فاحمة اللون وعظيمة. يقودها رجل طويل، ذو لحية بنية طويلة ويعتمر قبَّعَةً سوداءَ كبيرة ليخفي وجهه من خلالها عنًّا. لم أستطع أن أرى منه سوى بريق عينين لامعتين جدًا، بدتا حمراوين في ضوء المصباح حين التَفَتَ إلينا. قال للسائق:

«وصلتَ باكرًا الليلة يا صديقي». تلعثم السائق قائلًا:

«السيِّد الإنجليزي في عجلة من أمره»، فرد عليه الرجل الغريب:

«أظن أن هذا هو السبب الذي حدى بك أن تتمنى منه الذهاب إلى بوكوفينا. لا يمكنك أن تخدعني يا صديقي، فأنا أعرف

كل صغيرة وكبيرة، كما أن خيلي سريعة». ابتسم وهو يتحدَّث، وسقط ضوء المصباح على فمٍ قاسي الملامح، بشفتين شديدتي الحمرة وأسنانٍ بيضاء مثل العاج حادَّة المنظر. همس أحد الركاب إلى راكب آخر بشطر من قصيدة «لينور» للشاعر برجر:

Denn die Todten reiten schnell

«لأن الموتى يرحلون بسرعة».

سمع السائقُ الغريبُ على نحو واضح تلك الكلمات المهموسة، لأنه نظر بابتسامة بشوشة. أشاح المسافر بوجهه، وفي الوقت نفسه ضم إصبعيه ورسم علامة الصليب. «أعطني أمتعة السيِّد»، قال السائق. وبخفة بالغة سُلِّمَتْ حقائبي ووضعت في العربة. ومن ثم نزَلْتُ من جانب عربتنا، نظرًا لأن العربة الأخرى كانت قريبة بجانبنا، ساعدني السائق وأمسك ذراعي بيده، كان يمتلك قبضة قوية كالفولاذ. ودون أن ينطق بكلمة، هز أعنَّة الخيل، فما كان منها إلَّا واستدارت وانطلقنا بسرعة في عتمة المعبر. حين نظرت ورائي رأيت بخار لهاث خيل عربة المسافرين في ضوء المصابيح، وانعكست من خلالها أشكال رفاق سفري السابقين وهم يرسمون إشارة الصليب. بعدها أطلق السائق سوطَه مقرقعًا وحثَّ خيله التي انطلقت بسرعة في طريقها إلى بوكوفينا. بينما غاصت الخيل في العتمة، شعرتُ ببرودة شديدة غريبة، واجتاحني إحساسٌ بالوحدة، لكن عباءةً رميت فوق أكتافي، ووُضِعَ دثار سميك على ركبتي، وقال السائق بلغة ألمانية ممتازة:

«الليلة شديدة البرودة يا سيِّدي، وقد أمرَني سيِّدي الكونت أن

أوليك كل الرعاية. هناك قنينة سليفوفتز (وهي براندي البرقوق في هذي الديار) تحت المقعد، إذا ما خطر في بالك أن تشرب منها». لم أشرب منها شيئًا، ولكن كان من المريح أن أعرف أنها كانت هناك. شعرتُ بقليل من الاضطراب، وكثير من الخوف. أظن بأنه لو كان هناك أي بديل لكان يجب عليَّ أن أسلكه، بدلًا من استئناف تلك الرحلة الليلية المجهولة. مضت بنا العربة على وتيرة صعبة في خطٍ مستقيم، ثم انعطفنا انعطافة كاملة وسرنا عبر طريق مستقيم آخر. بدا لي أننا كنا ببساطة نعبرالتضاريس نفسها المرة تلو الأخرى، ولذا ركزت انتباهي على علامة بارزة، وتبيَّنَ لي أنَّ الحال كان فعلًا كذلك. كم وددتُ أن أسأل السائق عن معنى كل هذا، ولكني خشيتُ حقًا أن أسأله، لأنني ظننت، وأنا في الوضع الذي كنت فيه، أنَّ أي اعتراض لن يكون ذا جدوى في حال كان السائق يتعمد تأخير وصولنا. في آخر الأمر على أي حال، ولأن الفضول عصف بي لأعرف كم مضى من الوقت، أشعلتُ عود ثقاب، وفي ضوء لهبه نظرت إلى ساعتي، أشارت عقاربها إلى قبيل منتصف الليل ببضع دقائق. أصابني ذلك بنوعٍ من الصدمة، وأحسب أن الخرافة الشائعة المتعلقة بحلول منتصف الليل تعاظم تأثيرها من خلال ما شهدته من تجاربي في الآونة الأخيرة. انتظرت وشعورُ هياجٍ مقيت يعصف بي.

ومن ثم، ومن مكانٍ ما في بيتٍ ريفي بعيد على الطريق أمامنا، بدأ أحد الكلاب بالنباح، نباح كعويل ممتد موجوع، وكأنه ناتج من خوفٍ. لفَّ صوتَ النباحِ نباحُ كلب آخر، ومن ثم تلاه كلبٌ

ثالثٌ ورابعٌ، حتى بدأت جولة نباحٍ مهتاجة حملَتْها إلينا الريح التي باتت الآن تصفر بنعومة عبر المعبر، وبدا النباحُ وكأنه قادمٌ من كافة أنحاء البلاد، بقدر ما يستطيع الخيال أن يشطح عبر ظلمة الليل. مع جولة النباح الأولى بدأت الخيل تجفل وتتراجع، ولكن السائق خاطبها مهدِّئًا من روعها، فهدأت، ولكنها ظلت ترتجف متعرقة وكأنها للتو استراحت من هروب من رعب مفاجئ. بعدها، وعلى مبعدة منا، من الجبال المنتشرة على جانبينا بدأت جولة عواءٍ أعلى نبرة وأكثر حدة، عواء ذئاب، مما أثر على الخيل وعليَّ بنفس الطريقة، وحدَّثَتْنِي نفسي بالقفز من العربة والركض بينما تراجعت الخيل مرة أخرى وغرست قوائمها في الأرض بجنون، حتى أنَّ السائق اضطر لاستخدام كل قوته العظيمة لمنعها من الانطلاق مذعورة. لم تكن سوى بضع دقائق، إلَّا واعتادت أذناي الصوت على أي حال، وهدأتْ الخيل بعد أن تمكن السائق من النزول والوقوف أمامها. ربَّتَ على ظهورها وهدَّأ من روعها، وهمس في آذانها مثلما يفعل مروِّضو الخيل حسبما سمعت عنهم، لأنه بسبب مداعبته لها أمكن له السيطرة عليها تمامًا وبجهد استثنائي، رغم أنها ما زالت ترتجف. جلس السائق في مقعده مرة أخرى، وهز سوطه فانطلقنا بسرعة رهيبة. هذه المرة، وبعد الذهاب إلى الجانب البعيد من المعبر الحدودي، انعطف فجأة في درب ضيقة تسير بحدِّة إلى اليمين.

سرعان ما أحاطت بنا الأشجار التي غطَّت قارعة الطريق بكاملها في بعض المواضع إلى أن عبرنا ما يشبه النفق، ومن ثم مرة أخرى واكتبتنا صخورٌ ضخمةٌ موحشة شديدة الانحدار من

الجانبين. ورغم أن العربة كانت تقينا، إلا أننا سمعنا صوت الريح المرتفعة، إذ كانت تهدر وتصفر بين الصخور، وقد ارتطمت أغصان الشجر ببعضها ونحن نمضي بسرعة تحتها. ما زال الجو يغدو أبرد وأبرد، وبدأ الثلج الناعم بالتساقط. وهكذا سرعان ما اكتسينا برداءٍ أبيض غطّى كل ما حولنا. وما زالت الريح العنيدة تحمل أصوت نباح الكلاب، رغم أن الصوت خفتَ ونحن نتابع طريقنا. بدا عواء الذئاب يقترب شيئًا فشيئًا، وكأنها كانت تطبق علينا من كافة الجهات. ملأ الخوف أوصالي على نحو مرعب، وشاركتني الخيل خوفي. أما السائق، فلم يهتز له رمش رغم كل هذا. تابع التَلَفُّتَ برأسه يمنة ويسرة، ولكنني لم أستطع رؤية أي شيء في الظلام.

فجأة، بعيدًا وعلى يسارنا، رأيتُ لهبًا أزرق يومض خافتًا. رآه السائق في اللحظة ذاتها فتفحَّص الخيل على الفور، ومن ثم قفز إلى الأرض وغاب في الظلمة. لم أعرف ماذا أفعل، سيَّما وأن عواء الذئاب بات أقرب. وبَيْنَما كنْتُ في حيرة من أمري ظهر السائق فجأة مرَّة ثانية، ودون أن ينطق بكلمة جلس على مقعده وتابَعْنَا رحلتنا. لا بد من أنني استغرقت في النوم وصرت أحلم بالحادث، فقد بدا كما لو أنه يتكرر إلى ما لا نهاية. الآن وبينما أستذكره، يبدو لي مثل ضرب من ضروب الكوابيس المفزعة. ما إن أصبح اللهب قريبًا جدًا من الطريق حتى صار من الممكن أن أرى حركات السائق رغم الظلمة المحيطة بنا. مضى بسرعة إلى مصدر اللهب الأزرق وجمَّع بضعة أحجار، وشكَّلَهَا وفقَ نموذجٍ معينٍ. لا بد أنه كان لهبًا خافتًا جدًا، إذ لم يضىء المكان المحيط به على الإطلاق. حدث أن

ظهر على الفور تأثير بصري غريب: فعندما وقف الرجل بيني وبين اللهب لم يحجبه عني، لأنني استطعت أن أرى وهج اللهب الطيفي وكأنَّ لا أحد يحول بيني وبينه. أفزعني ذلك، ولكن طالما أن التأثير كان للحظات خاطفة وحسب، افترضت أنَّ عيناي تخدعانني وقد أرهقتهما الظلمة. وبعد ذلك ببرهة قصيرة اختفت أضواء اللهب الأزرق، وأسرعنا بالعربة مخترقين الظلمة وعواء الذئاب يحيط بنا، وكأنها كانت تتبَعُنَا في حلقة متحركة.

أخيرًا جاءت اللحظة التي ذهب فيها السائق مسافةً تجاوزت المسافة التي سارها في المرة الماضية، وأثناء غيابه، بدأت الخيل ترتجف أسوأ من ذي قبل وتنخر وتصهل مذعورة. لم أرَ أي داعٍ لكل هذا الذعر، لأن عواء الذئاب توقَّفَ دفعة واحدة، ولم يظهر حينها سوى القمر، مبحرًا عبر السحب السوداء، وراء قمة مثلَّمة لصخرة ناتئة نبتت منها أشجار الصنوبر. وفي ضوئه رأيتُ حولنا قطيعًا من الذئاب تحيط بنا بأسنانها البيضاء وألسنتها الحمراء المتهدِّلة، وأطرافها الطويلة القوية وشعرها الأشعث. كانت، وهي في صمتها الموحش، أشد رعبًا بمئة مرة مما لو كانت تعوي. بالنسبة لي، خلق الرعب في أوصالي ما يشبه الشلل. فالمرء لا يستطيع أن يفهم الفحوى الحقيقي للخوف إلَّا عندما يجد نفسه وجهًا لوجه مع مثل هذه الأهوال.

وفجأةً بدأت الذئاب تعوي، وكأن لضوء القمر تأثير غريب عليها. تقافزَت الخيل وتراجعت، ونظرت حواليها عاجزة، بعيونٍ خائفة بطريقة توجع قلب الناظر إليها. ولكن طوق الذئاب المرعبة أحاط بها من كل جانب، واضطرت مقهورة أن تبقى داخله. ناديتُ

على صاحب العربة حتى يأتي، حيث بدا لي بأن فرصتنا الوحيدة هي أن أحاول كسر الطَّوق لأعينه في طريقته للتخلص من الذئاب. صرختُ وطرقتُ على جانب العربة، آملًا من خلال الجَلَبَة أن أخيف الذئاب المحيطة بنا من تلك الجهة، وكذلك لأمنحه الفرصة لتنفيذ حيلته. لا أعرف كيف وصل إلى هناك، ولكني سمعت صوته مرتفعًا في نبرة آمرة متغطرسة، وعندما نظرت نحو مصدر الصوت، رأيتُه واقفًا في قارعة الطريق. بينما لوَّح بذراعيه الطويلتين، وكأنه يزيح عن طريقه عائقًا غير محسوس، تراجعت الذئاب مسافة قصيرة، ثم تراجعت أكثر. مرَّت آنئذٍ غيمة كثيفة حَجَبَتْ وجه القمر، وأحاطت بنا الظلمة مُجَدَّدًا.

عندما استطعت أخيرًا رؤية السائقَ، كان وقتها يصعد إلى العربة وكانت الذئاب قد اختفت. كل ذلك كان غريبًا وغامضًا جدًا حتى إنه اجتاحني خوف شديد، ومنعني الخوف من أن أتكلَّم أو أتحرَّك. بدا الوقت أبديًا ونحن نتابع طريقنا، وقد صرنا الآن في ظلام دامس تقريبًا، لأن الغيوم السائرة حجبت القمر. تابعنا الصعود، مع فترات أحيانًا من الهبوط السريع، ولكننا بشكل عام كنا في حالة صعود. فجأة، أدركْتُ بأن السائق كان على وشك إيقاف الخيل في فناء قلعة خَرِبَة واسعة، لا يصدر أي شعاع ضوء من نوافذها السوداء الطويلة، وأظْهَرَتْ شرُفَاتُها الدفاعية المحطمة خطًا مثلَّمًا منعكسًا في السماء التي أضاءها القمر.

الفصل الثاني

تتمة يوميَّات جوناثان هاركر

٥ مايو- لا بدَّ أنني كنتُ نائمًا، فلو كنتُ مستيقظًا للاحظتُ بالتأكيد اقترابَنا من مثل هذا المكان العجيب. بدِا فناء القلعة في العتمة ذا مساحةٍ هائلة، ولولا وجود عدَّة طرق مظلمة تؤدِّي إليه تظلِّلُها قناطر مستديرة عظيمة، لربَّما بدا أكبر مما هو عليه في الواقع. فالفرصة لم تُتَح لي بعد لمشاهدته في ضوء النهار.

عندما توقَّفَت العربة، وثب السائق ومدَّ لي يده ليساعدني على النزول. ولم يغب عن بالي مرَّة أخرى أن ألاحظ قوَّتَه الرهيبة. كانت يده فعليًا مثل مِلْزَمةٍ فولاذية يمكنها أن تهشِّم يدي لو أراد ذلك. أنزل حقائبي، ووضعها قربي على الأرض بينما كنت واقفًا بمحاذاة بابٍ ضخم؛ بابٍ عتيق مُرَصَّعٍ بمسامير حديدية كبيرة، وقد ثُبِّتَ في مدخل باب ناتئٍ مبني من حجارةٍ عملاقة. ورغم الضوء الباهت استطعتُ أن أرى بأن الحجرَ منقوشٌ نقشًا ضخمًا، بيد أنَّه نقشٌ أبلاه الزَّمن وعوامل الطقس على نحو كبير. بينما كنت واقفًا، وثَبَ السائقُ مرة أخرى إلى مقعده وهزَّ أعنة الخيل التي ما

لبثتْ أن انطلقت نحو الأمام، وتوارت العربة بأكملها في إحدى المداخل المعتمة.

وقفتُ صامتًا في مكاني إذ لم أعرف ماذا أفعل. ولم يكن هناك ما يدل على وجود جرسٍ أو مقرعة، ومن غير المرجَّح أن يخترق صوتي الجدران المتجهمة وفتحات النوافذ المعتمة. انتظرت لوقت بدا لا نهاية له، وشعرتُ بالوساوس والمخاوف تجتاحني. أيُّ صنف من الأماكن هذا الذي جئت إليه، وأي قومٍ هؤلاء الذين حللت في ديارهم؟ وأيُّ ضربٍ من المغامرات المروِّعة ذلك الذي أقدمْتُ عليه؟ أهذه حادثة اعتيادية في حياة موظَّف يعمل لدى محامٍ ويُرْسَلُ إلى خارج بلاده ليوضِّح كيفية شراء منزل في لندن لشخصٍ أجنبي؟ موظفٌ لدى محامٍ! ما كانت مينا لتحب هذه التسمية. بل إنها تَعدُّني محاميًا، فقبيل مغادرة لندن بقليل بلغني نبأ نجاحي في اختبار المحاماة، وأني صِرْتُ الآن محاميًا، وأقول محاميًا بالفم المليان! شرعتُ أفرك عيناي وأقرص نفسي لأرى ما إذا كنتُ في حلمٍ أم في يقظة. بدا الأمر مثل كابوس مخيف يجثم على صدري، وتخيَّلتُ بأنه ينبغي لي أن أستيقظ فجأة، وأجد نفسي في دياري، وخيوط الفجر تتململ عبر النوافذ، وهو الشعور الذي ما كان ليبارحني من حينٍ لآخر في الصباح بعد يومٍ من العمل المُجْهِد. ولكن بشرتي استجابت لاختبار القَرْص، وما كانت عيناي لِتُخْدَع هكذا. كنتُ مستيقظًا فعليًا وأنا هنا بين جبال الكاراپات. كل ما أستطيع فعله الآن التحلي بالصبر، وانتظار انبلاج الصُّبح.

ما إنْ أوصلني تفكيري إلى هذا الاستنتاج إلَّا وسمعتُ وقع

خطوات ثقيلة تقترب من وراء الباب الضخم، ورأيتُ عبر الشقوق وميضَ ضوء قادم. تبع ذلك صلصلة السلاسل وقعقعة المزاليج العملاقة وهي تُسْحَبُ إلى الخلف. أدار أحدُهم مفتاحًا صدر معه ضجيج هادر مرتفع ناجمٌ عن عدم فتح الباب مدة طويلة، وتأرجَح الباب الضخم مفتوحًا إلى الوراء.

وقف في المدخل عجوزٌ طويل القامة، حليق الوجه ما خلا شاربين طويلين أبيضين، يرتدي ثيابًا سوداء تجلله بأكمله. أمسك بيده مصباحًا فضيًا عتيق الطراز ليس عليه زجاجة أو غطاء من أي نوع، يشتعل فيه اللهب مرسلًا ظلالًا مرتعشة طويلة وهو يتوهج في مجرى هواء الباب المفتوح. أشار لي العجوز إشارة مهذبة بيمينه، قائلًا بلغة إنجليزية ممتازة، ولكنها ذاتُ نبرٍ غريب:

«أهلًا بكَ في منزلي! ادخله طواعيةً وبإرادتك الحرَّة!» لم يتحرَّك أي خطوة لكي يستقبلني، بل وقف مثل تمثال، وكأنَّ لفتَة الترحيب التي أطلقها حوَّلَته إلى حجرٍ. وعلى أي حال، ما إنْ خطوتُ فوق عتبة الباب، إلَّا وتحرَّك مندفعًا إلى الأمام، ورفع يده ممسكًا يدي بقوة أفزعتني، وقد ضاعفت برودة يده من هذا الفزع إذ كانت باردةً كالجليد؛ أشبه ما تكون بيدِ إنسان ميِّت. ثم أعاد مقالتَه مرَّة أخرى:

«أهلًا بكَ في منزلي. ادخله طواعية. وغادره آمنًا، واترك فيه أثرًا من السعادة التي جلبتها معك!» كانت قوة مصافحته أشبه ما تكون بالقوَّة التي لاحظتها لدى السائق الذي لم أرَ وجهه، حتى

إنني شككتُ لوهلة أن السائق هو الرجل ذاته الذي أتحدَّث معه الآن، ولكي أتيقَّن من ظنوني، قلتُ له مستفسرًا:

«أأنتَ الكونت دراكولا؟» انحنَى انحناءةً مهذَّبة وهو يجيب:

«أنا دراكولا.. ويسرُّني أن أرحِّب بكَ في منزلي يا سيِّد هاركر. تفضَّل بالدخول، فهواء الليل قارس، ولا بدَّ لك من تناول الطعام والتنعُّم بالراحة». بينما كان يتكلم، وضع المصباح على رفٍ في الجدار، ثم خطا إلى الأمام. رفع حقائبي وحملها قبل أن أستطيع منعه من فعل ذلك. اعترضتُ على تصرفه ولكنه أصرَّ قائلًا:

«لا يا سيِّدي، فأنت ضيفي. لقد تأخَّر الوقت، وما من أحدٍ من خدمي موجودٌ. لذا دعني أُشْرِفُ بنفسي على راحتك». أصرَّ على حمل حقائبي سائرًا بها عبر الممر، ومن ثم صعدنا درَجًا دائريًا ضخمًا، واجتزنا بعده ممرًا ضخمًا آخر، حيث طرَقتْ أقدامنا على أرضيته الحجرية بقوة. ألفينا في نهاية الممر بابًا ثقيلًا، وفرحتُ إذ رأيت عبره غرفةً حسنة الإضاءة أعدَّتْ فيها طاولة العشاء وتتوهج في موقدها نار عظيمة، وقد ألقِمَتْ حطبًا منذ لحظات.

توقَّفَ الكونت وأنزل حقائبي، ثم أغلق الباب. سار عبر الغرفة، وفتح بابًا آخر يفضي إلى غرفةٍ صغيرةٍ ثمانية الشكل يضيئها مصباحٌ واحد، ولا يبدو أنها تحوي نافذةً من أي نوع كان. ما إنْ عبر هذه الغرفة، إلَّا وفتح بابًا آخر، وأشار إليَّ بالدخول. كان منظرًا يشي بالترحاب، فها هي ذي غرفة نوم كبيرة ينتشر الضوء في أرجائها ويبثُّ الدفءَ فيها موقد حطبٍ آخر، وقد ألقِمَتْ بالحطب منذ

مدة وجيزة أيضًا، حيث كانت قطع الحطب التي في الأعلى نضرة، وأرسلتْ أجيجًا أجوفَ صاعدًا المدخنة العريضة. ترك الكونت حقائبي في الداخل وخرج، قائلًا، قبل أن يغلق الباب:

«بعد رحلتك هذه، أنتَ بحاجة لأنْ تريح نفسك بالدخول إلى الحَمَّام. وأنا واثق بأنك ستجد كل ما ترغب فيه. وعندما تفرَغُ من إعداد نفسك، تعال إلى الغرفة الأخرى، حيث ستجد عشاءك بانتظارك».

يبدو أن الضوء والدفء والترحيب المهذب الذي استقبلني به الكونت بدَّد كل شكوكي ومخاوفي. فما إنْ عادت إلي حالتي الطبيعية إلَّا واكتشفتُ أنَّ الجوع يكاد يفتك بي، ولذا مضيتُ مسرعًا إلى الحَمَّام، واتجهت بعدها إلى الغرفة الأخرى.

وَجَدْتُ العشاء وقد أُعد سَلَفًا. أشار لي مضيفي، الذي وقف على أحد جانبي الموقد الضخم مستندًا إلى هيكله الحجري، بتلويحةٍ رشيقة من يده صوب المائدة وقال:

«أرجوك أن تتفضَّل بالجلوس وأنْ تتناول عشاءك كما يطيب لك. أنا واثق من أنك ستعذر لي عدم مشاركتك العشاء. فقد تناولت غدائي سلفًا، كما أنني لا أتعشَّى».

سلَّمْتُه الرسالة المختومة التي ائتمنني السيِّد هوكِنز على إيصالها له. فما كان منه إلَّا وفتَحَهَا وقرأها باهتمام، ومن ثَمَّ، وبابتسامة ساحرة، أعادها لي لكي أقرأَها. واحدة من فقراتها على الأقل، أسبغت علي موجةً من السرور:

«أجد لزامًا عليَّ أن أبدي أسفي لأنَّ هجمة من النقرس، وهو داءٌ ما فتئتُ أعاني منه باستمرار، منعتْنِي من إتيان أي سفر بنفسي لبعض الأيام القادمة؛ ولكني سعيد إذْ أقول بأني أستطيع إرسال بديل عني هو أهلٌ لما كلِّف به، والذي أثق فيه كل الثقة الممكنة. إنه شاب وينضح حيوية، وموهوب بأسلوبه الخاص، كما يتميَّز بالوفاء الشديد. وهو فطن ومتكتم، حيث أفنى شبابه وبلغ مبلغ الرجولة وهو يعمل معي. سيكون جاهزًا طوع أمرك متى شئت أثناء إقامته عندك، وسينفذ كافة تعليماتك».

تقدَّم الكونت بنفسه وأزاح الغطاء عن أحد الأطباق فوقعتْ عيناي من فوري على دجاج مشوي شهي. بالإضافة إلى بعض الجبن والسلطة وقنينة من نبيذ توكاي العتيق، والتي شربتُ منها كأسين. بينما كنت آكل سألني الكونت عدَّةَ أسئلةٍ عن رحلتي، وحكيتُ له تدريجيًا كل ما مرَّ برأسي.

في ذلك الحين كنت قد فرغتُ من عشائي، وبناءً على رغبة مضيفي سحبْتُ كرسيًا إلى جانب الموقد وشرعت أدخِّن سيجارًا أعطانياه، بينما اعتذر عن عدم التدخين. أتيحت لي الفرصة الآن للتمعُّن فيه من كثب، وتبيَّن لي بأنه يتميَّز بقسمات وجه مميزة جدًا.

كان وجهه معقوفًا بشدة، ولأنفه الرفيع عظمة مرتفعةٌ ومنخران مقوَّسان بصورة غريبة، وجبهة مقبَّبة مرتفعة، وشعرٌ ينتشر بشكل خفيف حول الصدغين وكثيف جدًا فيما عدا ذلك. حاجباه كبيران جدًا، يلتقيان تقريبًا فوق الأنف، ولهما شعر كثٌّ بدا مموجًا من

فرط كثافته. أما الفم، ووفق ما تيسَّر لي أن أرى منه تحت الشاربين الكثيفين، فكان ثابت الهيئة وقاسي الملامح، بأسنانَ بيضاء حادة على نحوٍ غريب، بارزةً فوق الشفتين. وأظهرتْ حمرة شفتيه الواضحة حيويةً مذهلة في رجلٍ في مثل سنه. أما بالنسبة لباقي ملامحه؛ فأذناه شاحبتان، ومدببتان بشكل حاد من الأعلى، وذقنه عريضة وصلبة، ووجنتاه ثابتتان رغم نحافتهما. الانطباع العام لوجهه أنه شاحب بصورة غير عادية.

حتى ما قبل هذه اللحظة كنت قد لاحظتُ ظاهر يديه وهما موضوعتان على ركبتيه في ضوء الموقد. بدتا بيضاوين وناعمتين بدرجةٍ ما، ولكن وأنا أراهما الآن عن قرب، لم يسعني سوى أن ألاحظ خشونتهما، وهما عريضتان نوعًا ما، بأصابع قصيرة وثخينة. من الغريب القول بأنه يوجد شعيراتٌ في وسط راحة يده. أظافره طويلة وناعمة، ومقصوصةٌ حادة الأطراف. بينما انحنى الكونت فوقي ولمستني يداه، لم أستطع أن أمنع القشعريرة التي هزت جسدي. ربما يكون مرد ذلك إلى أنَّ نَفَسَه كان زنخًا، بَيْدَ أن شعورًا رهيبًا بالغثيان اجتاحني، وهو شعور لم أستطع إخفاءه رغم كل محاولاتي. تراجعَ الكونت إلى الوراء إذ تنبَّهَ لردَّة فعلي على نحو واضح. وبابتسامة من ذلك النمط المتجهم، بانت معها أسنانه أكثر من أي وقت مضى، أسندَ نفسه مرة أخرى إلى جانب الموقد الذي كان يستند إليه قبلًا. لذنا كلانا بالصمت برهةً، وبينما نظرتُ صوب النافذة رأيت أول خيوط الفجر الخافتة. بدا أنَّ سكونًا غريبًا يكتنف كل شيء. ولكن، وبينما أصخت السمع،

سمعت وكأنَّ هناك عواء ذئاب كثيرة قادم من الوادي في الأسفل. لمعتْ عينا الكونت وقال:

«أصغِ إليها، أصغِ إلى أبناء الليل. يا للموسيقا التي تعزفها!» وما إنْ رأى، حسبما أظن، بعضًا من التعابير غير المألوفة بالنسبة له وقد ارتسمت على وجهي، إلَّا وأضاف:

«آهٍ يا سيدي! أنتم يا سكَّان المدن لا تستطيعون الولوج إلى مشاعر الذئاب». ومن ثمَّ نهض وقال:

«ولكنك لا شك متعب. غرفة نومك جاهزة ولا ينقصها شيء، ولكَ أن تنام غدًا حتى وقت متأخر كما يحلو لك. ينبغي لي أن أغيب حتى الظهيرة، ولذا نمْ نومًا هانئًا واحلم أحلامًا سعيدة!» بانحناءة مؤدَّبة، فتح لي بنفسه باب الغرفة الثمانيَّة، ودخلتُ إلى غرفة نومي.

ها أنا بكل جوارحي أخوض في بحرٍ من العجائب. خامرني الشك، واجتاحني الخوف، وخطرت في بالي أمورٌ غريبة، أمورٌ لا أجرؤ على الاعتراف بها لنفسي. فليحفظني الله وليحمني كرمى لعيني أولئك الأعزَّاء على قلبي!

٧ مايو – هو ذا الصباح الباكر ينبلج مرَّة أخرى، ولكني استرحت واستمتعت خلال الأربع وعشرين ساعة المنصرمة. نمتُ حتى وقت متأخر من النهار، واستيقظت على راحتي. بعد أن ارتديت ثيابي اتجهت إلى الغرفة التي تناولنا فيها العشاء، ووجدتُ إفطارًا باردًا موضوعًا فيها، وقد وُضِعَ إبريق القهوة على أرضية الموقد لإبقائه ساخنًا. هناك بطاقة على الطاولة مكتوب عليها الملحوظة التالية:

«سأضطر للتغيُّب برهة. لا تنتظرني. د». باشرتُ الطعام بشغفٍ واستمتعت بوجبة مشبعة. عندما فرغت من الأكل، بحثت عن جرسٍ لأبلغ الخدم بأني فرغت من طعامي ولكني لم أجد واحدًا. هنالك أوجه قصور غريبة في المنزل إذا ما أخذنا بعين الاعتبار كل الدلائل التي تشير إلى حالة الثراء المحيطة بي. فأدوات المائدة من الذهب، وهي مصنوعة على نحو بديع ولا بدَّ أنها غالية الثمن. وكذا الستائرُ وستائر السرير ومفارش الكراسي والأرائك، كلها مصنوعة من أغلى الأقمشة وأجملها، ولا بد أنها كانت ذات قيمة عظيمة في زمن صناعتها حيث أنها ترجع لقرونٍ خلت، ومع ذلك ما تزال في حالة ممتازة. وقد رأيتُ مثلها في هامبتُن كورت، ولكنَّ التي رأيتُها هناك كانت بالية ومنسلة الخيوط وأكلها العثُّ. ورغم كل هذا إلا أنه لا يوجد أي مرآة في أي غرفة من الغرف. لا يوجد حتى مرآة صغيرة على طاولتي، واضطررت أن أخرج مرآة حلاقتي الصغيرة من حقيبتي لكي أتمكَّن من الحلاقة أو تمشيط شعري. لم أرَ بعد أي خادمٍ في أي مكان، ولم أسمع صوتًا قرب القلعة ما خلا عواء الذئاب. وفي وقتٍ ما بعد أن فرغت من طعامي –ولا أدري إن كان عليَّ أن أسميه عشاء أم إفطارًا، إذ تناولته بين الخامسة والسادسة– بحثتُ عن كتابٍ أقرؤه، لأني لم أرغب في التجول في أرجاء القلعة إلَّا بعد استئذان الكونت. لم يكن هناك شيء على الإطلاق في الغرفة، لا كتاب، ولا جريدة، ولا حتى قرطاسية أكتب بها، ولذا فتحتُ بابًا آخر في الغرفة ووجدتُ ما يشبه المكتبة. جرَّبْتُ فتح الباب المقابل لبابي، ولكني وجدته موصدًا.

سرَّني أنْ وجدتُ في المكتبة عددًا كبيرًا من الكتب الإنجليزية، أرففًا كاملةً مليئة بها، وأعدادًا مجلَّدة من مجلات وجرائد. كما تناثرت على طاولة في وسط المكتبة مجلاتٌ وجرائدَ إنجليزية، رغم أن أيًا منها لم يكن صادرًا في تاريخ قريب العهد بي. كانت الكتب في شتَّى المواضيع؛ كتب التاريخ، والجغرافية، والسياسة، والاقتصاد السياسي، وعلم النبات، والجيولوجيا والقانون، وكلها كتبٌ عن إنجلترا والحياة والعادات والتقاليد الإنجليزية. لا بل إنَّ في المكتبة مراجعَ من قبيل دليل مدينة لندن[1]، والكتب «الحمراء» و«الزرقاء»[2]، ومناخ ويتيكر، وجداول الجيش والبحرية[3]، كما سرَّ قلبي نوعًا ما إذ رأيتُ بين الكتب الدليل القانوني.

بينما كنتُ أنظر إلى الكتب، فُتِحَ البابُ، ودخل الكونت. حيَّانِي بأسلوبٍ ودود، مبديًا أمانيه في أن أكون قد قضيت ليلة مريحة هانئة. ثم أردف قائلًا:

«أنا سعيدٌ أنك اهتديت إلى المكتبة، لأني متأكد من وجود الكثير من الكتب التي ستسرُّ خاطرك. فهؤلاء الجُلَساء...» ثم وضع يده فوق بعض الكتب وأضاف: «ما فتئوا يشكِّلون أصدقاء حميمين لي، وقد منحتني الكتب في سنواتي الماضية ساعات كثيرة من البهجة، مذ أن راودتني فكرة الانتقال إلى لندن. فمن خلالها استطعت أن

---

(١) دليل تردُ فيه أسماء المتاجر والمحلات والمصانع.

(٢) الكتب الحمراء هي الكتب التي تعد دليلاً بأسماء طبقة النبلاء، فيما يشير مصطلح الكتب الزرقاء إلى المنشورات الحكومية وهي في العادة تقارير اللجان الحكومية.

(٣) جداول بأسماء الضباط العاملين وضباط الاحتياط في الجيش والبحرية.

أتعرَّف على بلادكم العظيمة إنجلترا، ومعرفة المرء إنجلترا تعني أن يقع في غرامها. إنني أتوق للسير عبر الشوارع المزدحمة في مدينتكم العظيمة؛ مدينة لندن، أتوق لأن أكون في معمعة أهلها واندفاعهم، وأن أكون جزءًا من حياتهم وتغيرهم وفنائهم، وكل تلك الصفات التي تجعل منهم ما هم عليه. ولكن وأسفاه! فحتى الآن أنا لا أعرف لغتكم سوى من خلال الكتب. ويظهر لك يا صديقي، أنني أعرف كيف أتحدث بالإنجليزية».

«ولكنك، أيها الكونت، تعرف الإنجليزية وتتحدَّث بها كأحسن ما يكون!» قلتُ له. ثمَّ انحنى بوقار وقال:

«أشكرك، يا صديقي، على كل تقديرك المفرط في الإطراء، ولكني مع ذلك أخشى بأني ما أزال في أول الطريق الذي أرغب في سلوكه لتعلمها. صحيح أني أعرف النحو والمفردات، ولكني رغم ذلك لا أعرف كيفية الحديث بها».

قلت له: «أنتَ تتكلَّمُها بطريقة ممتازة فعلًا».

أجاب: «الأمر ليس على ذلك النحو. لا بأس، فأنا أعرف ذلك، وإذا رحلتُ وتحدَّثتُ الإنجليزية في مدينتك لندن، فما من أحدٍ فيها إلَّا وسيعرف بأنني غريب عنها. وهذا لا يلبِّي طموحاتي. فأنا من النبلاء في بلادي؛ أنا *بويار*[1] والناس العاديون يعرفون أنني سيِّد في بلدي. ولكن لا قيمة لغريبٍ في أرضٍ غريبة؛ إذْ لا يعرفه الناس، وإذا لم يعرفه أحدٌ فلن يهتم بشأنه أحد. سيكون من دواعي سروري

(١) أحد أفراد طبقة النبلاء في رومانيا.

أن أكون مثل بقيَّة الناس، بحيث لا يمكن لإنسانٍ أن يتوقف إذا ما رآني، أو يقطع كلامه إذا ما سمعني أتكلَّم الإنجليزية فيبادرني قائلًا: «ها، ها! أنتَ غريبٌ عن هذه الديار!» لقد عشتُ سيِّدًا طوال حياتي وسأبقى سيِّدًا ما حييت، أو على الأقل لن يكون أحد سيدًا علي. وأنتَ لم تأتِ إليَّ فقط بصفتك وكيلٌ لصديقي پيتر هوكِنْز من مدينة إكْسِتَر، لتحيطني علمًا بكل صغيرة وكبيرة عن منزلي الجديد في لندن. إذْ إنِّي آملُ بأنك ستقيم معي هنا لبرهة من الوقت، ولذا ومن خلال حديثنا معًا يمكنني أن أتعلَّم إيقاع الحديث بالإنجليزية، كما أني أرغب منك أن تنبِّهني عندما أرتكب خطأً أثناء حديثي معك، حتى لو كان خطأً صغيرًا. أعتذر منك لأني اضطررتُ للتغيُّب عن القلعة مدة طويلة اليوم، ولكني أعرف بأنك ما كنتَ إلَّا لتلتمس العذر لرجلٍ لديه الكثير من المسائل المهمة التي ينظر بها».

بالطبع قلتُ كل ما خطر في بالي تعبيرًا عن رغبتي في الإقامة، وسألتُه إذا ما كان يمكنني المجيء إلى تلك الغرفة متى أشاء، أجابني: «نعم بالتأكيد». ثم أضاف:

«يمكنك أن تذهب حيثما تشاء في القلعة، باستثناء الأماكن الموصدة، وهي الأماكن التي لا تتمنَّى بالطبع الذهاب إليها. فثمة سببٌ وراء جعل كل الأشياء على ما هي عليه، وإذا ما نظرتَ إلى الأمر كما أراه وعرفته كما أعرف، فربما تفهم ذلك على نحو أفضل».
قلتُ له بأني أوافقه على ذلك تمامًا، ومن ثم تابع حديثه:

«نحن في ترانسلڤينيا؛ وترانسلڤينيا ليست إنجلترا. عاداتنا ليست

عاداتكم، وستصادف العديد من الأمور الغريبة عليك. بلادنا ليست كبلادكم، ومما أخبرتَنْي به عن تجاربك سلفًا، أنت تعرف شيئًا مما قد تكونه تلك الأمور الغريبة».

تمخَّض عن ذلك المزيد من الحديث؛ وبينما بدا جليًا أنه أراد أن يتحدَّث، حتى لو لمجرد الرغبة في الحديث لا غير، فقد سألته عدَّة أسئلة عن الأمور التي حدثت معي سلفًا أو لفتت انتباهي. حاد أحيانًا عن الموضوع، أو غيَّر مجرى الحديث مُدَّعيًا عدم الفهم، ولكنه أجاب عمومًا عن كل ما سألته إيَّاه بأعلى درجات الصِّدق. ومن ثم وبمرور الوقت، وإذ اكتسبت جرأة أكبر نوعا ما، سألته عن بعض الحوادث الغريبة التي حصلت في الليلة السالفة؛ سألتُه على سبيل المثال، عن سبب ذهاب سائق العربة إلى المواضع التي رأى فيها ألسنة اللهب الزرقاء. ثم شرح لي أنَّه يُعْتَقَد على نطاق واسع بأنه وفي ليلة معينة من السنة -صَدَفَ أنها الليلة الماضية، حيث يفترض بأنَّ كل الأرواح الشريرة تنفَلِت من عقالها -يظهر لهب أزرق فوق أي مكان خُبِّئ فيه كنزٌ. «وذلك الكنز خُبِّئ في المنطقة التي مررتَ بها الليلة الماضية -ويمكن أن يعتري ذلك الاعتقاد قليل من الشك وحسب- فهذه الأرض تحارَب عليها لقرون الولشيون والسكسونيون والأتراك. واعجباه! بالكاد تجد موضع قدم من التراب في كل هذه المنطقة ولم تروه دماء البشر، سواءً دماء الذائدين عن حمى أوطانهم أو دماء الغزاة. مرَّت في غابر الأيام أوقاتٌ ملأت الحماسةُ فيها النفوس، عندما جاء النمساويون والهنغاريون بأعدادٍ هائلة، وخرج أبناء البلد بحميَّتهم لمقارعتهم -رجالًا ونساء، شيبًا

وأطفالا- وانتظروا قدومهم جالسين على الصخور فوق المعابر، عساهم يلحِقُون بهم الدمار عن طريق ردمهم بانهياراتٍ جبليةٍ اصطنعوها. وعندما انتصر الغزاة لم يجدوا سوى القليل منهم، لأن كل من كان هناك اتخذ ملجأه في ثرى الوطن الحاني».

قلتُ له: «ولكن كيف لها أن تبقى كل هذه المدة الطويلة غائبة عن الأنظار، في ظل وجود مؤشر أكيد عليها إذ لم يكلِّف البشر أنفسهم عناء البحث عنها؟» ابتسم الكونت، وبينما تراجعت شفتاه إلى الوراء فوق لثته، بانت أسنانه الطويلة، الحادة، النابيَّة على نحوٍ غريب وأجاب:

«لأن الفلاح الذي ساق العربة التي جاءت بك إلى هنا جبانٌ وأحمق في الصميم! فألسنة اللهب تلك تظهر فقط في ليلة واحدة. وفي تلك الليلة لا يمكن لبشر من سكان هذه البلاد، إذا غلبته شجاعته، أن يخرج خارج أبواب بيته. ثم إنَّه يا سيِّدي العزيز، حتى لو برح بيته ما كان له أن يعرف ما يفعل. واعجباه! فحتى الفلاح الذي أخبرتني عنه، الفلاح الذي علَّم موضع اللهب، ما كان ليعرف أين يبحث في ضوء النهار عن الموضع الذي علَّمه بنفسه. وحتى أنتَ لن تستطيع أن تجد تلك المواضع مرة أخرى، وإني لأقسم على ما أقول أغلظ الأيمان».

قلتُ: «أنتَ محقٌّ في ذلك. فعلمي بمواضعها مثل علم الأموات بها». ومن ثمَّ انتقلنا للخوض في مسائل أخرى.

قال أخيرًا: «تعال وحدِّثني عن لندن وعن المنزل الذي اشتريتَه

بالنيابة عني». ذهبتُ إلى غرفتي لأحضر الأوراق من حقيبتي معتذرًا له عن تقصيري. وبينما كنت أوظِّب الأوراق سمعت خشخشةَ خزف صيني وأوانٍ فضية في الغرفة المجاورة، وحين مررت منها، لاحظتُ أن الطاولة قد نظفت وأضيء المصباح، لأن العتمة المدلهمة كان قد حلَّت حينئذٍ. أضيئت المصابيح أيضًا في غرفة القراءة أو المكتبة، ووجدتُ الكونت مسترخيًا على الأريكة وهو يقرأ، وقد وقع اختياره من بين كل كتب العالم، على دليل برادشو باللغة الإنجليزية[1]. حين دخلتُ أزاح الكتب والأوراق عن الطاولة، ثم شرعنا نبحث في المخططات والسنَدَات والأرقام بشتَّى أنواعها. كان شغوفًا بكل شيء، وانهال عليَّ بوابلٍ من الأسئلة عن المنزل والمنطقة المحيطة به. لقد درس سلفًا على نحو واضح كل ما وقع عليه عن موضوع الحي الذي يوجد فيه المنزل، لأنه كان من الواضح في النهاية بأنه يعرف من المعلومات أكثر مما كنت أعرف. عندما أشرت إلى ذلك، أجابني:

«حسنًا، ولكن يا صديقي، أليس من الضروري أن أعرف كل صغيرة وكبيرة عن المكان؟ فعندما أذهب إلى هناك سأغدو وحدي، ولن يكون صديقي هاركر جوناثان -لا، المعذرة، فأنا لا أبارح العادة المتبعة في بلادي من وضع كنيتك قبل اسمك - لن يكون صديقي جوناثان هاركر بجانبي ليصحح لي ويمد لي يد العون. سيكون في إكْسِتَر، بعيدًا عدَّة أميال، وهو منهمكٌ على الأرجح في أوراق المعاملات القانونية مع صديقي الآخر بيتر هوكنز. هو ذا الحال!».

---

(١) وهو دليل كان يطبع سنويًا ويحوي مواعيد رحلات القطارات البريطانية، وصدر بين عامي ١٨٣٩ و١٩٦١.

بحثنا بحثًا مستفيضًا مسألة شراء المنزل في پِرْفليْت. وعندما زوَّدته بالمعلومات الخاصة بالمنزل وحصلت منه على توقيعه على الأوراق الضرورية، وكتبتُ رسالةً لتكون جاهزة لأرسلها بالبريد مع الأوراق إلى السيِّد هوكنز، بدأ يسألني عن الكيفية التي اهتديت بها لمثل هذا المكان الملائم تمامًا له. قرأتُ عليه الملحوظات التي دوَّنْتُها ذلك الحين، وهي كالآتي:

«في پِرْفليْت، وعلى طريق فرعي، صادفتُ مكانًا بدا أنه المكان المطلوب، حيث عُرِضَتْ لافتةٌ متداعيةٌ تعلن بأنَّ المنزل معروضٌ للبيع. المنزل محاطٌ بجدارٍ عالٍ، وله هيئة معمارية قديمة، مبني بحجارة ثقيلة، ولم تتعهده يد الإصلاح لسنين طويلة. بوَّاباته المغلقة مصنوعة من خشب البلوط والحديد العتيقين الثقيلين، وقد نال منها الصدأ في كل شبرٍ منها».

«كارفاكس هو اسم العقار الذي يوجد فيه المنزل، وهي بلا شك تحويرٌ لكلمة *كاتر فيس*، لأن المنزل يطل على أربع جهات، متوافقًا مع جهات البوصلة الأساسية. مساحة العقار إجمالًا حوالي عشرين دونمًا، وهو محاط من كافة الجهات بالجدار الحجري المتين المذكور أعلاه. وفيه العديد من الأشجار، مما يجعله في بعض الأماكن معتمًا، كما يوجد فيه بركة عميقة داكنة أو بحيرة صغيرة، من الواضح أنها تتغذَّى من بعض الينابيع، نظرًا لأن الماء صافٍ وينساب مبتعدًا في جدولٍ كبير جدًا. المنزل كبير جدًا ويرجع تاريخيًا، إذا ما جاز لي القول، إلى العصور الوسطى، إذ يوجد صف واحد من الحجارة السميكة جدًا، وله فقط بضع نوافذ عالية ومشبَّكة على نحو كثيف

بقضبان حديدية. يبدو كجزءٍ من حصنٍ، وأقرب ما يكون إلى مصلًى أو كنيسة قديمة. لم أستطع الدخول إلى العقار، لأنه لم يكن معي مفتاح الباب المفضي إليه من المنزل، ولكني التقطت بكامرتي الكوداك لقطاتٍ له من مواضع مختلفة. لقد أُلْحِقَ المنزل بالأرض لكن بطريقة معقدة للغاية، وبإمكاني فقط أن أحزر مساحة الأرض التي يغطيها، وهي مساحة لا شك كبيرة جدًا. ليس هناك إلا بضعة منازل قريبة منه، وأحدها منزل ضخم جدًا أضيف فقط مؤخرًا وصُمِّم على شكل مشفى أمراض عقلية خاص. ولا يمكن، على أي حال، رؤيته من الأرض المحيطة بالمنزل».

قال عندما فرغت من قراءة الملحوظات:

«أنا سعيد لأنه قديم وكبير. فأنا نفسي أنتمي إلى أسرة قديمة، ومن شأن العيش في منزلٍ جديد أن يقتلني. لا يمكن لمنزلٍ أن يصير صالحًا للحياة في يوم واحد، وفي نهاية المطاف يمضي الزمن يومًا تلو يوم وإذا بقرن قد مر! أنا مبتهج أيضًا لوجود مدفنٍ كنسي يعود إلى العصور السالفة. فنحن، النبلاء الترانسلڤينيون، لا تروق لنا فكرة احتمالية أن ترقد عظامنا بين عظام الموتى العاديين. لست أسعى وراء البهجة ولا السرور، ولا التلذذ المشرق بأشعة الشمس والمياه المترقرقة التي تسر خاطر الشباب والساعين وراء الملذَّات. فقد ولَّى عهد الشباب، وما عاد قلبي خبيرًا بالفرح بعد مرور السنوات المرهقة المليئة بالبكاء على الأموات. زد على ذلك أن جدران قلعتي محطَّمة؛ والظلال كثيرة، والريح تصفر عبر الشرفات والشبابيك المحطَّمة ذات المصراعين. أنا أحب الظل والظلال، وأرغب في أن

أكون وحيدًا صحبة أفكاري متى ما أشاء». لم يبد هناك، نوعًا ما، تناغمٌ بين كلماته ونظرته، أو أنَّ قالب وجهه جعل ابتسامتَه تبدو ابتسامة خبيثة وكئيبة.

غادرني في تلك اللحظة معتذرًا، وطلب مني أن أجمِّع كل أوراقي مع بعضها. ما إنْ مرَّ بعض الوقت على ذهابه، إلَّا وبدأتُ النظر في بعض الكتب المنتشرة حولي. أحدها كان أطلسًا جغرافيًا، وعندما فتحته كيفما اتفق، ألفيته وقد فُتِحَ على خريطة إنجلترا، وكأنَّ تلك الخريطة استخدمت مرارًا وتكرارًا. ما إن نظرت إلى الخريطة إلَّا وجدتُ في مواضع محددة منها دوائر صغيرة معلَّمة، وعند التمعن فيها لاحظتُ أن إحداها كانت قريبة من لندن من جهة الشرق، وواضح جدًا أنها في الموضع الذي يقع فيه منزله الجديد؛ أما الدائرتان الأخريان فكانتا في إكْسِتَر ووِتْبي على ساحل يوركشير.

انقضى ما يقارب الساعة عندما عاد الكونت وقال لي: «عجبًا! لا تزال منكبًا على كتبك؟ جيِّد! ولكن يجب عليك ألَّا تعمل دائمًا. تعال، فقد بَلَغَنِي أنَّ عشاءك بات جاهزًا». تأبَّط ذراعي، ومضينا إلى الغرفة المجاورة، حيث وجدتُ عشاءً فخمًا جاهزًا على المائدة. اعتذر الكونت مرَّة أخرى متذرِّعًا بأنه تناول الغداء عندما كان خارج المنزل. ولكنه جلس كما فعل البارحة، ودردش معي بينما كنت آكل. دخَّنْتُ بعد العشاء، كما فعلت في الليلة السالفة، وبقي الكونت معي وهو يدردش ويسأل أسئلةً عن كل موضوع يخطر في البال، والوقت يمضي ساعة إثر ساعة. شعرتُ بأن الوقت تأخَّر بالفعل،

ولكني لم أنبس ببنت شفة، لأني شعرت أنَّه من باب الالتزام أن ألبِّي رغبات مضيفي بكل السبُل. لم أكن نعسانًا، فنوم البارحة الطويل حصَّنَنْي ضد النُّعاس، ولكني لم أستطع تحمل تجريب ذلك البرد القارس الذي يجتاح المرء مع انبلاج الفجر، وهو برد يشبه انحسار المد. يقولون بأنَّ الناس الموشكين على الموت يموتون عمومًا عند انبلاج الفجر أو مع انحسار المد، فأي شخص يشهد هذا التغيير أو الانحسار في الجو وهو متعب، ولا يستطيع أن يبرح مكانه كما كان حالي، يمكنه أن يصدِّق حدوثه على نحو لا جدال فيه. سمعنا من فورنا صياح الدِّيك يصعد صوبنا بحدة عالية عجيبة عبر هواء الصباح الصافي. قال الكونت دراكولا، إذ وثب واقفًا على قدميه:

«يا ويْلي! هو ذا الصبح يطلع مرَّة أخرى! يا لي من غافلٍ لأني تركْتُكَ تسهر حتى وقتٍ متأخِّر جدًا. عليك أن تجعل حديثك عن بلادي الجديدة العزيزة إنجلترا أقل إمتاعًا، بحيث يتسنَّى لي أن أتنبَّه لمرور الوقت الذي تدارَكنا بسرعة»، وما كان منه إلا أن غادرني مسرعا، بانحناءة مهذَّبة.

ذهبتُ إلى غرفتي وفتحت الستائر، ولكن لم يكن هناك سوى القليل من المناظر الجديرة بالمشاهدة، فنافذتي تطل على الفناء، وكل ما استطعت رؤيته هو الغيوم الرمادية اللطيفة اللاهثة في السماء. أغلقت الستائر مرة أخرى، ودوَّنْتُ ما حصل معي هذا اليوم.

٨ *مايو*– بدأ الخوف يتسلل إلى صدري إذْ كتبت في هذه اليوميات أني بتُّ مشتتًا جدًا، ولكني الآن سعيد لأنني وجدت في

التفاصيل منذ البداية، فهناك شيء غريب جدًا يكتنف هذا المكان وكل ما فيه بحيث لا يمكنني أن أشعر إلا بالقلق. ليتني أخرج منه بأمان، أو ليتني ما جئت قط. ربما تكون هذه الحياة الليلية الغريبة هي ما يؤرِّقُنِي، ولكن أيكون ذلك كل شيء! لو قدِّرَ لي أن أتحدَّث مع أي إنسان لتحمَّلْتُ عبء وجودي هنا، ولكن ما من أحدٍ أتحدَّث معه سوى الكونت! أخشى أنني الكائن الحي الوحيد في هذا المكان. يجب أن أكون واقعيًا، واقعيًا مثلما ينبغي للحقائق أن تكون، ولا أترك الخيال يسيطر علي وإلا حكمت على نفسي بالضياع. سأصف من فوري كيف هي أموري، أو الحال الذي تبدو عليه.

لم أخلد إلى النوم سوى بضع سويعات، وعندما شعرت بعجزي عن النوم أكثر من ذلك نهضت من سريري. كنت قد علَّقْت مرآة حلاقتي على النافذة وأوشكت على البدأ. فجأة شعرتُ بيدٍ على كتفي، وسمعت صوت الكونت وهو يقول لي: «صباح الخير». ارتجفتُ خوفًا، فقد أدهشني أنني لم أره، نظرًا لأن المرآة عكست كامل الغرفة من ورائي. لحظة ارتجافي جرحتُ نفسي جرحًا طفيفًا، ولكني لم ألاحظه حين وقوعه. بعد أن أجبتُ تحية الكونت، التفتُّ إلى المرآة مرة أخرى لأرى إن كنت قد أخطأت الظن. هذه المرة لم يكن هناك مجال للخطأ، لأن الرجل كان قريبًا مني، واستطعت أن أراه وقد صار فوق كتفي. ولكن لم يكن هناك أي انعكاس له في المرآة! ظهرت في المرآة الغرفة ورائي بكاملها، ولكن ما من أثر لانعكاس صورة رجلٍ فيها، باستثناء صورتي أنا. بثَّ ذلك الرعبُ في أوصالي، واحتل ذلك الحدث رأس قائمة الأشياء الغريبة العديدة، وبدأ ذلك الشعور

الغامض بالقلق يزداد؛ ذلك الشعور الذي يخامرني دومًا عندما يكون الكونت قريبًا مني. انتبهت من فوري بأن الجرح قد نزف قليلًا، وكان الدم يقطُر قليلًا فوق ذقني. وضعت الموسى من يدي، والتفتُّ نصف التفاتة وأنا أفعل ذلك باحثًا عن بعض الضمادات اللاصقة. عندما رأى الكونت وجهي، التمعت عيناه بنوعٍ من الغضب الشيطاني، وقبض فجأة على حنجرتي. سحبْتُ جسدي، فلمستْ يده خيط الخرز الذي يحمل الصليب. سبَّبَ ذلك تغيرًا فوريًا فيه، وزال الغضب سريعًا جدًا حتى أنني بالكاد استطعت أن أصدِّقَ أنه كان هناك أساسًا.

قال: «حذارِ! حذارِ من جرح أي عضو في جسدك. فالأمر أخطر بكثير مما تظن في هذه البلاد». ومن ثم أردف وهو يحمل مرآة الحلاقة: «وهذه هي الأداة الشريرة التي ألحقت بك الأذى. المرآة ليست سوى بهرجة فارغة قذرة لتلبية غرور البشر. فلنتخلَّص منها!» فتح النافذة الثقيلة بمسكةٍ واحدةٍ من يده الرهيبة، ورمى بالمرآة، التي تشظَّت إلى ألف قطعةٍ على حجارة الفناء البعيد في الأسفل. ومن ثمَّ انسحب دون أن يتفوه بكلمة. ذلك مقلق جدًا، فلم أكن أعرف كيف سأحلق، إلا أن أستخدم غطاء ساعتي أو قعر إناء الحلاقة، والذي كان من المعدن لحسن الحظ.

عندما ذهبتُ إلى غرفة الطعام وجدت الفطور جاهزًا، ولكني لم أجد للكونت أثرًا في أي مكان. لذا أفطرت وحدي. من الغريب أنني لم أرَ الكونت يأكل أو يشرب حتى الآن. لا بُدَّ أنه إنسانٌ غريبٌ جدًا! بعد الفطور أجريتُ قليلًا من الاستكشاف في القلعة. خرجت

صاعدًا الدرج ووجدتُ غرفةً تطل على الجنوب. كان المنظر مهيبًا، ومن المكان الذي وقفت فيه سنحت لي الفرصة لمشاهدة المنظر. تقع القلعة بالضبط على حافة هاوية سحيقة. وإذا ما أسقط المرء حجرًا من النافذة فإنه سيسقط مسافة ألف قدم دون أن يصطدم بأي شيء! ووفقًا لما تستطيع العين المجردة رؤيته، هناك بحر من قمم الأشجار الخضراء، مع وجود صدع عميق أحيانًا حيثما يوجد هاوية. انتشرت هنا وهناك خيوط فضية في المواقع التي تتلوى فيها الأنهار في الأودية العميقة عبر الغابات.

ولكني لستُ في مزاجٍ يسمح لي بوصف الجَمال، لأنني عندما رأيت المنظر استكشفتُ المَزيد والمزيد من الأماكن؛ أبوابٌ فأبوابٌ، أبوابٌ في كل مكان، وكلها مقفلة وموصدة بالمزاليج. لا يوجد أي مخرج متاح في أي مكان باستثناء النوافذ في جدران القلعة.

القلعة سجن حقيقي، وأنا السجين!

الفصل الثالث

تتمَّة يوميات جوناثان هاركر

عندما تبيَّن لي أنِّي بتُّ سجينًا اجتاحني نوعٌ من الشعور الموحش. اندفعت على الأدراج صعودًا ونزولًا، محاولًا فتح كل باب ومحدقًا من كل نافذة استطعت أن أجدها، ولكن بعد برهة قصيرة، تغلَّب يقيني بعجزي على كل المشاعر الأخرى. حين تأملت المسألةَ بعد بضع ساعات حسبتُ أنني لا بد كنتُ مجنونًا حينها، لأنني سلكت مسلكًا يشبه إلى حد كبير مسلك جرذٍ وقع في مصيدة. وعلى أي حال، حين تيقنت بأنّي صرتُ بلا حولٍ ولا قوة جلستُ بهدوء –يماثل الهدوء الذي ما فتئت ألجأ إليه عند قيامي بأي شيء في حياتي– وبدأتُ التفكير بأفضل حلٍّ يمكن عمله. ما زلت أفكِّر، ولم أصل إلى أي نتيجةٍ حاسمة حتى الآن. بيدَ أني متأكِّدٌ من أمر واحد؛ وهو أنه لا فائدة من البوح بأفكاري للكونت. إنه يعرف تمامًا أني مسجون، وحيث أنه هو من حبسني بنفسه، ولديه بلا شك دوافعه الخاصة وراء ذلك، فإنه سيخدعني فقط إذا ما أفشيت له كل ما في جعبتي من معلومات. ووفق ما أرى حتى الآن، تقتضي خطتي الوحيدة أنْ أحتفظ بما أعرفه وبالمخاوف التي تعتريني بيني

وبين نفسي، وأن أبقى متيقظًا. أنا مدرك أنني إما خُدِعْتُ كطفلٍ بسبب مخاوفي، أو أن اليأس أحكم قبضته علي. وإذا كان الاعتقاد الثاني هو واقع الحال، فإنني بلا شك سأحتاج إلى كامل قواي الذهنية حتى أخرج مما أنا فيه.

ما إن توصَّلتُ إلى هذا الاستنتاج إلا وسمعت صوت الباب الضخم في الأسفل يغلق، وعرفتُ أن الكونت قد عاد. لم يأتِ إلى المكتبة من فوره، ولذا ذهبتُ بحذر إلى غرفتي ووجدته يرتِّبُ السرير. كان هذا غريبًا، ولكنه أكدَّ فقط كل ما كان يجول في بالي؛ ليس هناك خدم في المنزل. عندما رأيته لاحقًا عبر شقوق مفاصل الباب يجهِّز المائدة في غرفة الطعام، تأكَّدَتْ تلك الشكوك بصورة لا تشوبها شائبة. فإذا كان هو نفسه يقوم بهذه الأعمال التي لا يقوم بها سوى الخدم، فهذا بلا شك دليلٌ على عدم وجود أي شخص آخر يقوم بها. بثَّ ذلك الرعبَ في أوصالي، فإذا لم يكن هناك أحد آخر في القلعة، فلا بد أن الكونت ذاته هو سائق العربة التي أوصلتني إلى هنا. يا لها من فكرة رهيبة! لأنه لو كان الأمر كذلك، فما معنى أنه يستطيع السيطرة على الذئاب مثلما فعل من خلال الاكتفاء برفع يده لها بصمت؟ وما السر الكامن في أن الناس كافة في بِسترتز وكذا ركَّاب العربة خالجهم بعض الخوف الرهيب علي؟ ماذا يعني إعطائي الصليب، والثوم، والوردة البرية، ورماد الجبل؟ فليبارك الربُّ تلك المرأة الطيِّبة التي علَّقت الصليب حول عنقي! فكلَّما لمستُه شعرتُ بالطمأنينة والقوة. من الغريب أن نظرتي إلى الصليب -الذي تربيت وأنا

أنظر إليه بقلة اهتمام وكنت أعده رمزًا وثنيًا- قد تغيرت، وبات في وقت الوحدة والاضطراب بمثابة سندٍ مؤازرٍ لي. أسبب ذلك أنه يوجد شيء ما في جوهر الصليب ذاته، أو أنه وسيلة؛ أداة عون محسوسة، في مدِّي بذكريات العاطفة والطمأنينة؟ في وقت ما، إذا أتيحت لي الفرصة، علي أن أمعن النظر في هذه المسألة وأحاول اتخاذ قرارٍ بشأنها. أما في الوقت الحالي فعليَّ أن أكتشف كل ما أستطيعه عن الكونت دراكولا، فربَّما يساعدني ذلك على فهم الأمور. لربما يحكي الليلة عن نفسه، إذا ما حوَّرْتُ الحديث في ذلك الاتجاه. وعليَّ أن أكون حذرًا جدًا على أي حال، حتى لا أثيرَ شكوكه.

منتصف الليل- خضتُ في حديث طويل مع الكونت. سألتُه بضعَ أسئلةٍ عن تاريخ ترانسلڤينيا، وتحمَّس للخوض في الموضوع بشكل مذهل. ففي حديثه عن أحداثها وناسِها، وخصوصًا عن المعارك، تحدَّث وكأنه كان حاضرًا فيها كلها. وقد شرح ذلك لاحقًا بقوله بأنَّ شرف البويار من شرف أسرته وكرامته من كرامة اسمها، وبأن مجد أسرته واسمها هو مجده، ومصيرهما مصيره. وكلَّما تحدَّث عن أسرته قال دائمًا «نحن» وتحدَّث في معظم الأحيان بصيغة الجمع مثلما يتحدَّث الملوك. أتمنى لو أنني استطعت أن أكتب كل ما قاله بالضبط بذات الطريقة التي قالها، فذلك أمرٌ في غاية الروعة من وجهة نظري. بدا حديثه بمثابة سرد تاريخ كامل للبلاد. ازدادت حماسته وهو يتحدَّث، وجال في أرجاء الغرفة يفتِلُ شاربيه الأبيضين الكثيفين ممسكًا بأي شيء وقعت يداه عليه وكأنه أراد أن

يهشِّمه بقوَّته الجسدية. هناك أمرٌ واحد سأكتبه مثلما قاله تقريبًا قدر ما أستطيع، لأنه يحكي في مضامينه قصة عِرْقِه:

«يحق لنا نحن السيكيُّون الفخرَ، إذ تجري في عروقنا دماء العديد من الأعراق الشجاعة التي حاربت كما يحارب الأسود للظفر بلقب السيادة. فها هنا، في الدوامة التي تعج بالأعراق الأوروبية، حَمَلَتْ قبيلة الأُغرِك معها من آيسلاند الروح القتالية التي منحها إيَّاها ثور وودن، والتي أظهرها أتباعهما من المحاربين النورديين فتحوَّلت إلى قَدْرٍ من النوايا الغاضبة على سواحل أوروبا، أيْ نعم، وكذلك على سواحل آسيا وإفريقيا أيضًا، حتى إن الشعوب ظنَّت بأن المستذئبين ذاتهم هم من قدموا عليهم. وجدوا هنا أيضًا، عندما جاء الهونُ الذين اجتاح غضبُهم الملتاث بالحرب الأرضَ مثل نيرانٍ مستعرة، إلى أن ظنَّت الشعوب البائدة بأنه يجري في عروقهم دماء الساحرات القديمات اللاتي وبعد أن طردن من سيذيا تزاوجن مع الشياطين في الصحراء. يا للحمقى، يا للحمقى! أي شيطان أو أي ساحر بلغ العظمة التي بلغها أتيلا الذي تجري دماؤه في هاتيك العروق؟» ثم رفع ذراعيه وأضاف: «أوليسَ عجيبًا أننا كنا عِرْقًا غازيًا، وأننا كنَّا فخورين بأننا دحرنا ألوفًا من الجنود الذين أرسلهم المجريون، واللومبارديون، والآفاريون، والبلغار، أو الأتراك إلى حدودنا؟ أوليسَ من الغريب أنه عندما اجتاح أرباد وكتائبه الأراضي الهنغارية قد وجَدَنا هنا عندما وصل الحدود، وبأنَّ الهونفوغلالاس اكتمل هناك؟ وعندما اتجه الطوفان الهنغاري شرقًا، ادَّعى المجريون المنتصرون بأنَّ السيكيِّيْن كانوا أقاربهم، وأوكلت

لنا لقرون حراسة حدود الأرض التركية، إي نعم، والأدهى من ذلك، أوْكِل لنا الواجب الأبدي في حراسة الحدود، لأنَّ «المياه تنام، والعدو لا ينام» كما يقول الأتراك. مَنْ مِنْ بين الأمم الأربع استقبل «السيف الدموي» بسعادة أكبر من سعادتنا؟ أو مَنْ هرع عند نداء الحرب إلى الانضواء تحت راية الملك؟ ومتى غُسِلَ ذلك العار العظيم الذي لحق بأمتي، عار كاسوڤا[1] عندما سُحِقَت رايات الولشيين والمجريين تحت رايات الهلال؟ ومن سوى ذلك القائد من أبناء جلدتي الذي عبر الدانوب وهزم الأتراك بكل ثقة؟ ذلك كان من أسلاف دراكولا بالفعل! وداهمته الخشية من أنه إذا ما هزم فإنَّ أخاه الحقير سيبيع شعبه للأتراك ويجلب لهم عار العبودية! ألم يكن هذا الفرد من أسرة دراكولا بالفعل، هو الذي ألهم فردًا آخر من بني جلدته ليقود، في عصر لاحق، قواته مرة بعد أخرى فوق النهر العظيم إلى الأراضي التركية، ذلك الفرد الذي ما انفك يهجم، بعد أن رُدَّ على أعقابه، مرة، تلو مرة، تلو مرة، رغم أنه اضطر للمجيء وحيدًا من الميدان الدموي الذي ذُبِحَتْ فيه قواته، لأنه عرف بأنه وحده يمكن أن ينتصر في النهاية! قالوا إنه فكَّر في نفسه فقط. يا للعار! ما فائدة فلاحين بلا قائد؟ ما عاقبة حربٍ دون عقلٍ وقلبٍ يديرانها؟ وصرنا نحن، أبناء سلالة دراكولا، من بين أسيادهم مرة أخرى، عندما دحرنا الهنغاريين عشيَّة معركة موهاكس، فأرواحنا لا تأبى سوى أن نكون أحرارًا. بلى، يا سيدي الشاب، فالسيكيُّون

---

(١) المعركة الثانية في كوسوڤو پولجي في عام ١٤٤٨؛ أعقبها استيلاء أسرة دراكولا على الحكم لمدة وجيزة بمساعدة الأتراك.

-وأسرة دراكولا دم قلبهم، وعقولهم، وسيوفهم- يمكنهم أن يفخروا بتاريخٍ لا يمكن أن تصله قط أسرٌ ذات عدة وعديد من أمثال أسرتي هاپسبورغ ورومانوف. وقد ولَّتْ أيام الحروب. والدم غالٍ جدًا في هذه الأيام التي ينتشر فيها السلام المذل، ولم تعد أمجاد الأعراق العظيمة سوى حكايةٍ تحكى».

اقترب الصُّبح كثيرًا في هذه اللحظة وخلدنا إلى النوم. *(تذكير: تبدو هذه المذكرات على نحوٍ فظيع مثل بداية «ألف ليلة وليلة»، لأنَّ كل شيءٍ فيها ينتهي مع صياح الديك، أو مع ظهور شبح والد هاملت)*[1].

١٢ مايو- دعوني أبدأ بسرد الحقائق -حقائق قليلة مجرَّدَة، تُثبِتُ صحتها الكتُب والأرقام، حقائق لا مجال للبس فيها. وعلي ألَّا أخلطها بالتجارب التي ينبغي أن تستند على ملاحظاتي، أو ما أتذكره عنها. في الليلة الماضية، عندما جاء الكونت من غرفته بدأ يسألني أسئلة عن قضايا قانونية وعن إجراء أنواع معينة من الأعمال التجارية. كنت قد أمضيت النهار بسأمٍ منكبًا على الكتب، وحتى أحافظَ، بكل بساطة، على إبقاء جذوة فكري متقدة، راجعتُ بعض المسائل التي كنت قد أمعنت النظر فيها عندما كنتُ في فندق لِنْكُنْ إنْ. ثمة أسلوبٌ معيَّن في استفسارات الكونت، ولذا سأحاول أن

---

(١) إشارة إلى مسرحية وليم شكسپير (هاملت) الذي يظهر طيف أبيه عند الفجر وهو يحثُّه على الانتقام.

أسردها بشكل متسلسل، فمعرفتها ربما تنطوي، بطريقة ما أو في وقت ما، على الفائدة لي.

سألني أولًا إذا كان من الجائز للمرء في إنجلترا أن يوكِّل محاميين أو أكثر. فقلت له بأنه يجوز له أن يتَّخذ دستة من المحامين إذا شاء، بيد أنه من غير الحكمة تكليف أكثر من محامٍ واحد للنظر في معاملة واحدة، نظرًا لأنه لا يمكن إلَّا لمحامٍ واحدٍ أن يوكَّل في معاملة واحدة في الوقت نفسه، وبأنَّه من المؤكد بأنَّ تغيير المحامي لن يصب في مصلحة المرء. بدا أنه فهم ذلك فهمًا وافيًا، ومضى يسأل ما إذا كانت هناك أي صعوبة عملية في جعل محام واحد يشرف، فلنقل، على أمورك المصرفية، وآخر ينظر في أمور الشحن، في حالة كانت هناك ثمة حاجة للحصول على مساعدة محلية في مكان بعيد عن موطن المحامي الموكَّل بأمر القضايا المصرفية. طلبتُ منه أن يوضح مبتغاه من السؤال باستفاضة أكبر، بحيث لا يكون هناك مجالٌ لإعطائه معلومات خاطئة بالصدفة، ولذلك قال:

«عليَّ أن أوضح لكَ أمرًا. فصديقك وصديقي السيِّد پيتر هوكِنز، المتنعم بظلال كاتدرائيتكم الجميلة في إكْسِتَر، المدينة البعيدة عن لندن، يشتري لي عن طريقك أيها الرجل الطيِّب منزلًا في لندن. جيِّد! وأظنك مستغربًا من رغبتي في الحصول على خدمات شخصٍ بعيد جدًا عن لندن بدلًا من شخص مقيم فيها! وسأقول لك بصراحة بأن دافعي لفعل ذلك نابعٌ من فكرة أنَّ المصالح قد تتعارض، وما من جهة محلية يمكنها أن تقدم خدماتها فيما يصب لصالح رغباتي أنا فقط، ونظرًا لأنَّه ربما يكون لشخص من سكان

لندن، وأقول ربما، هدفٌ ما لنفسه أو لصديق يخدمه. وبناءً على ذلك اخترت مكانًا بعيدًا عن لندن لتوكيل محامٍ منه، حيث ستنصب جهوده فقط لتحقيق مصلحتي. والآن، هبْ أني، أنا الذي عندي الكثير من الأعمال التجارية، أرغب في شحن البضائع، فلنقل، إلى نيوكاسل، أو دورِم، أو هارويتش، أو دوفر، أليس من الأسهل القيام بذلك من خلال توكيل محام واحد في هذه الموانئ؟» أجبتُ بأن ذلك سيكون أسهل بكثير، ولكننا، معشر المحامين، نتبع نظامًا في توكيل أحدنا الآخر، بحيث يمكن إنجاز الأعمال المحلية داخل المكان المقصود بناءً على توجيهات أي محام، وهكذا يمكن للزبون من خلال وضع نفسه ببساطة بين يدي محام واحد، أن ينفذ ما يرغب فيه عن طريق ذلك المحامي دون مزيد من المتاعب.

ثم قال: «ولكن يمكن أن يكون لي مطلق الحرية في إدارة أعمالي التجارية. أليس الأمر على ذلك النحو؟».

أجبته: «بالطبع، فهذا ما يقدم عليه غالبًا التُجَّار الذين لا يحبون أن يعرف أي إنسان مجمل أعمالهم التجارية».

«جيد» قال، ومن ثم مضى يسأل عن آليات إجراء التكليفات والأوراق التي ينبغي تقديمها، وشتَّى ضروب الصعاب التي قد تعترض سبيل ذلك، ولكن يمكن تذليلها من خلال التدبُّر فيها سلفًا. شرحتُ كل هذه الأشياء له بأفضل ما أستطيع من قدرة على الشرح، وقد ترك فيَّ انطباعًا بأنه من الممكن أن يكون محاميًا بارعًا، إذْ لم تكن هناك أي شاردة أو واردة إلَّا وفكَّر فيها أو أخذها

في الحسبان. معرفته وفطنته مدهشتان، خصوصًا وأنه رجل لم يعش في إنجلترا قط، ومن الواضح عدم امتلاكه خبرة كبيرة في أمور التجارة. عندما نال مراده من الأجوبة على هذه النقاط التي تكلَّم عنها، وتَحقَّقْتُ له منها كافة، إضافة إلى ما استطعت فعله عن طريق الكتب المتاحة، وقف فجأة وقال:

«أكتبْتَ رسالةً لصديقنا السيِّد بيتر هوكنز، أو لأحد غيره بعد رسالتك الأولى ؟»أصيب قلبي بشيء من المرارة عندما أجبته أني لم أرسل، وبأنني لم أحظَ بعدُ بفرصة لإرسال رسائل لأي كان.

«إذن اكتب الآن يا صديقي الشاب» قال واضعًا يده الثقيلة على كتفي ثم أضاف: «اكتب إلى صديقنا وإلى أي شخص آخر، وقل، إذا ما راق لك ذلك، بأنك ستمكث معي لمدة شهر ابتداءً من الآن».

«أترغب مني أن أمكث مدة طويلة جدًا؟» سألتُه وقد امتلأ قلبي كمدًا ما إن فكَّرْت بذلك.

«أرغب في ذلك كثيرًا، لا، لن أقبل منك أي رفض. عندما أبلغني سيِّدُك، أو ربُّ عملك، أو ما تشاء أن تسمِّيه، بقدوم شخص بالنيابة عنه، فقد فُهِمَ من ذلك بأن احتياجاتي هي فقط التي ينبغي النظر في أمرها. وبأني لن أبْخَل عليكم. أليس الأمر على ذلك النحو؟».

ماذا عساي أفعل سوى القبول؟ فتلك مصلحة السيد هوكنز وليست مصلحتي، وعليَّ أن أفكر به وليس بنفسي، زد على ذلك أنه بينما كان الكونت دراكولا يتحدَّث، بدا في عينيه وفي هيئته ما جعلني أتذكر أنني كنت سجينًا، وأنه إذا تمنيت خلاف ذلك فلا

خيار أمامي. رأى الكونت انتصاره في خضوعي، وأدرك امتلاكه ناصية أمري في الارتباك الذي اعترى وجهي، لأنه بدأ من فوره استغلالها، ولكن بأسلوبه الخاص الناعم الذي لا يقاوم:

«أرجو، يا صديقي الشاب الطيِّب، ألَّا تتطرَّق في رسائلك إلى أي موضوع ما خلا الأمور التجارية. فمما لا شك فيه أنَّ معرفة أصدقائك بأنك في أحسن حال سيدخل الطمأنينة في قلوبهم، وبأنك تتوق للعودة إلى الوطن للقياهم. أليس الأمر على هذا النحو؟» بينما كان يتحدَّث أعطاني ثلاث ورقات من أوراق الرسائل وثلاثة مظاريف. كلها من مظاريف البريد الدولي الرقيقة. لما نظرتُ إليها، ومن ثمَّ نظرت إليه، وإذْ لاحظت ابتسامته الهادئة، وأسنانه الحادة النابيَّة المتموضعة فوق شفته السفلية الحمراء، أدركت، وكأنه يقول لي بأن أكون حذرًا فيما أكتب، لأنه سيكون قادرًا على قراءة ما أكتب. لذا عزمتُ الآن على كتابة ملحوظات رسمية فقط، وأن أكتب بإسهابٍ إلى السيد هوكنز بصورة سرية، وكذلك إلى مينا، لأنني أستطيع أن أكتب لها بطريقة الاختزال، التي يعجز الكونت عن فهمها إذا وقعت بين يديه. بعد أن كتبتُ رسالتيَّ جلستُ هادئًا، وأنا أقرأ كتابًا بينما دوَّن الكونت عدة ملحوظات، مراجعًا، وهو يكتبها، بعض الكتب على طاولته. ثم أخذَ رسالتيَّ ووضعهما مع رسائله وقرطاسيته. وبعد ذلك، في اللحظة التي أغلق فيها الباب خلفه، انحنيتُ ونظرت إلى الرسائل، التي كان وجهها مقلوبًا على الطاولة. لم أشعر بتأنيب الضمير وأنا أفعل ذلك، فقد شعرت بأنه ينبغي لي حماية نفسي بأي وسيلة أستطيعها في ظل الظروف التي أنا فيها.

كانت إحدى الرسائل موجَّهَة إلى صاموئيل إف. بيلنغتُن. رقم. ٧، ذا كريسنت، في وِتْبِي، وأخرى إلى السيِّد ليوتنر. في ڤارنا؛ والثالثة إلى كوتس آند كو، في لندن، والرابعة إلى هيرين كلوپستُك آند بيلريوث للأعمال المصرفية في بودابست. الرسالتان الثانية والرابعة غير مختومتين. كنت على وشك النظر إلى محتواهما عندما رأيت مقبض الباب يتحرَّك. رجعت من فوري إلى كرسيي، ولم يسعني الوقت إلا لإعادة وضع الرسائل كما كانت ومتابعة القراءة في كتابي قبل أن يدخل الكونت الغرفةَ حاملًا رسالة أخرى في يده. رفع الرسائل عن الطاولة وختمها بعناية وحرص، ثم قال وهو يلتفت صوبي:

«أنا واثقٌ من أنك ستعذرني، فعندي الكثير من العمل الذي ينبغي القيام به على انفراد هذا المساء. وآمل بأن تجد كل الأمور مثلما تتمنى». التَفَتَ عند الباب، وبعد توقف لحظةٍ قال:

«دعني أسدي لكَ نصيحةً يا صديقي الشاب العزيز، لا، بل دعني أحذرك بكل جدية، بأنه في حالة غادرتَ هذه الغرف فيجب عليك مهما حصل، ألا تذهب للنوم في أي ركن آخر من القلعة. القلعة قديمة، وفيها العديد من الذكريات، وهناك أحلام سيئة تأتي إلى أولئك الذين ينامون بطريقة رعناء. فإيَّاك ثم إيَّاك! إذا أردت النوم الآن أو إذا ما غالبك النعاس أو اقتربَ من جفونك، فعليك إذن أن تسرع إلى حجرتك أو إلى تلك الغرف، لأن راحتك ستكون حينئذٍ في مأمن. ولكن إذا لم تتوخَّ الحذر في هذا الجانب، فعندئذٍ...» ختم حديثه بأسلوبٍ مرعبٍ، فقد حرَّك يديه وكأنه كان يغسلهما.

فهمت حديثه جيدًا، وقلقي الوحيد تلخص بالتفكير في إمكانية وجود حلم أفظع من شبكة الغم والغموض الغريبة المرعبة التي بدا أنها تحيط بي.

فيما بعد- ظهَّرْتُ الكلمات الأخيرة المكتوبة، ولكن هذه المرة ما من شك في الأمر. لن أخشى النوم في أي مكانٍ لا يكون هو فيه. وضعتُ الصليب فوق رأس سريري، وخلتُ أنَّ نومي بناءً على ذلك سيكون خاليًا من الأحلام، وسيبقى الصليب ملازمًا لذلك المكان.

ذهبْتُ إلى غرفتي بعد أن رحل. وبعد برهة قصيرة، عندما خيَّم الصمت وهجعت الأصوات، خرجتُ من الغرفة وذهبت إلى الدَّرَج الحجري حيث يمكنني النظر نحو الجنوب. ساورني هناك شيء من الإحساس بالحرية وأنا أنظر في الامتداد الشاسع، رغم أنه كان يستحيل عليَّ رؤية ما فيه مقارنة بالعتمة الخفيفة في فناء القلعة. بينما كنت أنظر من الدَّرج عبر الفناء، شعرت أني في السجن بالفعل، وبدوتُ كمن يطلب جرعة من هواءٍ منعش، رغم أنه هواء الليل. بدأت أشعر بهذه الحياة الليلية تفرض سطوتها عليَّ. وباتت تحطم أعصابي. ارتعدت فرائصي من خيالي، وأنا ممتلئ بشتى صنوف التخيُّلات المرعبة. يعلم الله أن لدي مسوِّغًا لخوفي الرهيب في هذا المكان الملعون! نظرت صوب الامتداد الجميل المستحم بالضوء الناعم الأصفر للقمر والذي بدا رقيقًا مثل ضوء النهار. اندمجت التلال البعيدة في الضوء الناعم، واكتست الظلال في الشعاب

والأودية سوادًا مخمليًا. بدا الجمال المجرَّد وقد أبهجني، فهناك سلام وطمأنينة في كل نَفَسٍ تنفستُه. لما انحنيت من النافذة لَفَتَ نظري جسمٌ يتحرَّك في طابق من الطوابق السفلية، إلى يساري نوعًا ما، حيث افترضتُ من خلال ترتيب الغرف، بأن نوافذ غرفة الكونت الخاصة تطلُّ من هذا الجانب. كانت النافذة التي وقفتُ عندها طويلة وعميقة وفيها قواطع حجرية، ورغم أنها بَلِيَتْ بسبب عوامل الجو، كانت ما تزال كاملة نظرًا لأن نقوشها الحجرية لا تزال في مكانها، ولكن من الواضح أنها قديمة جدًا. أرجعتُ جسدي خلف حجارة النافذة، ونظرت منها إلى الخارج بحذر.

رأيتُ رأس الكونت بارزًا من النافذة. لم أرَ الوجه، ولكني عرفت الرجل من رقبته وحركة ظهره وذراعيه. وما كنت لأخطئ بأي حال من الأحوال هاتين اليدين اللتين سنحت لي الفرصة لتأملهما أكثر من مرة. كنت في البداية شغوفًا ومبتهجًا نوعًا ما، لأنه من المدهش مدى صغر المسائل التي تشغف وتبهج إنسانًا عندما يكون سجينًا. لكن مشاعري تحوَّلَتْ مباشرة إلى مشاعر اشمئزازٍ ورعبٍ إذْ رأيتُ الرجل بكامله يبرز ببطء من النافذة ويبدأ الزحف إلى الأسفل على جدار القلعة فوق تلك الهاوية المرعبة، وجهه *للأسفل* ورداؤه يمتد حواليه مثل جناحين عظيمين. في البداية لم أصدِّق ما رأته عيناي. حسبتُ الأمر خدعة بسبب ضوء القمر، أو ربما يكون تأثيرًا غريبًا أحدثته الظلال، ولكني تابعت النظر، ولا يمكن أن يكون ما رأيته وهمًا. رأيتُ أصابع يديه ورجليه تقبض على زوايا الحجارة التي زال عنها الملاط بسبب تقادم السنين، واستفاد

من كل نتوء أو بروز ليتحرك نحو الأسفل بسرعة كبيرة، تمامًا مثلما تتحرك سحليَّة على جدار.

أي جنسٍ من بني البشر هذا الرجل، أو أي جنسٍ من المخلوقات تسكن هيئة هذا المخلوق الذي على صورة إنسان؟ أشعر برعبٍ هذا المكان المخيف وقد استبدَّ بي، الخوف والرعب يكتنفاني ولا مهرب أمامي، وأنا محاصر بشتَّى صنوف الخوف التي لا أجرؤ على التفكير بها...

١٥ مايو- رأيتُ الكونت مرة أخرى يخرج زاحفًا على ذلك النحو الذي يشبه زحف السحلية. تحرَّك إلى الأسفل بصورةٍ مائلة نازلًا حوالي مئة قدم ومتجهًا بدرجة كبيرة إلى اليسار. ثم توارى في فجوة أو نافذة. عندما اختفى رأسه، انحنيت إلى الأمام لأتبيَّن الأمر وأستقصي المزيد عنه ولكن دون جدوى، فالمسافة بعيدة جدًا ولم يتح لي ذلك زاويةً مناسبة للرؤية. أعرف أنه غادر القلعة الآن، وفكَّرت باغتنام الفرصة لاستكشاف خبايا أكثر من تلك التي جرؤت على استكشافها حتى الآن. عدت إلى الغرفة وأحضرتُ منها مصباحًا، وجرَّبْتُ فتح الأبواب كافة. كانت كلها مغلقة كما توقَّعْت، ولها أقفالٌ جديدة نسبيًا. ولكني نزلتُ الدَّرَج الحجري إلى القاعة التي دخلت منها أوَّل وصولي إلى القلعة. وتبيَّنَ لي أنه يمكنني أن أسحب المزلاج بسهولة كافية وأحرِّر السلاسل الضخمة. ولكن الباب كان مقفلًا، والمفتاح غير موجود! لا بد أن ذلك المفتاح موجود في غرفة الكونت؛ وعليَّ أن أتحرَّى إذا كان باب غرفته غير مقفل، بحيث يتسنى لي أن أظفر بالمفتاح وأهرب.

تابعتُ سيري لإجراء مزيد من التفحُّص المستفيض للأدراج والممرات المختلفة، ولمحاولة فتح الأبواب الموجودة فيها. غرفة أو غرفتان من الغرف الصغيرة قرب القاعة كانتا مفتوحتين، ولكني لم أرَ فيها شيئًا سوى الأثاث العتيق الذي أكله العث وعلاه الغبار بفعل الزمن. وجدتُ أخيرًا بابًا في أعلى الدَّرَج، ورغم أنه بدا مغلقًا، فقد تحرَّك قليلًا بالضغط عليه. حاولتُ فتحه ببذل جهد أكبر، ووجدتُ أنه لم يكن فعلًا مقفلًا، ولكن مقاومته للفتح ناجمة عن سقوط مفاصله نوعًا ما، فيما استند الباب الثقيل على الأرض. هي ذي فرصة تلوح أمامي قد لا أحظى بها مرَّة أخرى، ولذلك بذلت أقصى ما أستطيع، ونجحتُ بجهود كبيرة في إرجاع الباب إلى الخلف حتى أستطيع الدخول. وصلت الآن إلى جناحٍ في القلعة بعيدٍ إلى اليمين أكثر من الغرف التي عرفتها وأَخْفَضُ بطابق واحدٍ عنها. رأيتُ عبر النوافذ بأنَّ جناح الغرف يقع في جنوبي القلعة، وبأن نوافذ الغرفة الأخيرة تطل على جهتي الغرب والجنوب. أما من الجهة الجنوبية وكذلك الغربية، فكان هناك هوَّةٌ سحيقةٌ. كانت القلعة مبنية على زاوية صخرة عظيمة، ولذا فهي حصينةٌ تمامًا من ثلاث جهات، وأُنْشِئَتْ هنا نوافذ عظيمة حيث لا يمكن لمقلاعٍ أو قوسٍ أو مدفعٍ أن يصل إليها، وبالتالي فالضوء والأمان متوفِّران فيها، وهما ركنان يستحيل الاستغناء عنهما في موقعٍ ينبغي حراسته حراسةً مشدَّدَة. ثمة وادٍ عظيم جهة الغرب، ومن خلفه ترتفع بعيدًا مناطق جبلية مثلَّمَة عملاقة، قمَّة تعلو فوق قمَّة، وقد رصَّعَتْ أشجار رماد الجبل وشجيرات الشوك

الصخورَ الشديدة الانحدار، وتشبَّثَتْ جذورها داخل صدوع الحجارة وشقوقها وفراغاتها. من الواضح أن هذا الجزء من القلعة هو القسم الذي أقامت فيه النساء في العصور السالفة، فالأثاث ينطوي على مسحة من الراحة أكثر من أي أثاث رأيته سَلَفًا. كانت النوافذ بلا ستائر، وضوء القمر الأصفر المنسكب عبر مشابك النوافذ الألماسية الشكل، يتيح للمرء رؤية حتى الألوان، بينما خفَّفَ من كثافة الغبار المنتشر فوق كل شيء وأخفى بمقدارٍ ما قسوة الزمن وأثر العث. بدا مصباحي ذا فعالية قليلة في ضوء القمر الوضَّاء، ولكني كنت سعيدًا لأني أحضرته معي، فالمكان موحش بصورة مرعبة جمَّدَتْ قلبي وجعلت أعصابي ترتجف. مع ذلك، فهذا الوضع أفضل من المكوث وحيدًا في الغرف التي بدأتُ أكرهها بسبب وجود الكونت. بعد محاولةٍ بسيطةٍ لضبط أعصابي، أحسست بطمأنينة ناعمة تلقي بظلالها علي. وهذه طاولة صغيرة من خشب البلوط حيث من الممكن أن تكون قد جلست هنا في غابر الأزمان سيِّدةٌ جميلةٌ ممسكةً بقلمها، تملؤها الأفكار وتتورد وجناتها خجلًا، تخط رسالة غرام بكتابة ضعيفة التهجئة. وأنا جالس مكانها الآن أكتب في مفكرتي بأسلوب الاختزال كل ما جرى معي منذ أن أغلقتها آخر مرة. الكتابة بأسلوب الاختزال آخر صرعات القرن التاسع عشر والتي انتشرت بحماسة شديدة. ومع ذلك، وما لم تخدعني حواسي، فإن القرون السالفة امتلكت، وما تزال، نقاط قوىً متميزة لا يمكن لما يسمى «بالحداثة» المجرَّدَة أن تقتلها.

فيما بعد، صباح ١٦ مايو - فليحفظ الله سلامة عقلي، وقد بَلَغَتْ بي الأماني مبلغًا بتُّ فيه لا أرجو سوى ذلك. فالأمان والطمأنينة التي يبثُّها في النفس، باتتا من ذكريات الماضي. فبينما أقيم هنا لم يبق لي سوى شيء واحد أمنِّي به النفس، وهو ألَّا أصاب بالجنون، هذا إنْ لم أكن قد جُنِنْتُ سلفًا بالفعل. لو ظل عقلي سليمًا، لما فكرت للحظة بأن الكونت أقل خطرًا علي من بين كل الأشياء البشعة التي ترتع في هذا المكان البغيض، ولَمَا تطلعت إليه وحده لنيل الأمان، رغم أن ذلك لا يتحقق إلا من خلال تنفيذي لرغباته. أيها الربُّ العظيم! أيها الربُّ الرحيم! أدخل على قلبي السكينة، فبدون درب السكينة ليس أمامي سوى الجنون حقًا. بدأتُ أستنير بأضواء جديدة أسلِّطُها على أمورٍ معينة حيَّرتني. فحتى هذه اللحظة لم أكن أفهم قط ما الذي عناه شكسبير عندما قال على لسان هاملت:

«أين مفكرتي حتى أسجل فيها أن المرء قد يبتسم،

ثم يبتسم، وهو لئيم خبيث، أمر جدير بالتسجيل»[1] إلخ.

فالآن، وبينما أشعر وكأن دماغي انفصل عن رأسي، أو كأنَّ الصدمة جاءت ولا بد أن تزول قبل أن تنال مني، التفتُّ إلى كتابة مذكراتي لأنعم بالسَّكينة. فممارسة الكتابة بلا شك ستساعد في تهدئة روعي.

فزعت حين تذكرت التحذير الغامض الذي أطلقه الكونت، وصار يفزعني أكثر وأكثر كلما فكرت فيه. من الآن وصاعدًا

(١) هاملت، وليم شكسبير، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، دار المعارف، الطبعة الثالثة.

سيسيطر عليَّ بشكل مخيف. وينبغي لي أن أخاف حتى من الشك فيما يمكن أن يقوله!

بعدما فرغت من كتابة مذكراتي، وأعدْتُ، لحسن الحظ، الكتاب والقلم إلى جيبي، شعرت بالنعاس. نقر تحذير الكونت مخيلتي، ولكني استمتعت بعدم الاكتراث به. سيطر عليَّ سلطان النوم، وجفوني ظلت تعانده. هدَّأ ضوء القمر الناعم من روعي، ومنحني الامتداد الواسع في الخارج شعورًا بالحرية والانتعاش. عزمتُ على ألَّا أعود الليلة إلى الغرف المسكونة بالكآبة، بل سأنام هنا، في هذا المكان الذي جَلَسَتْ فيه في سالف الأيام، السيِّدات وهن يغنِّيْنَ ويعشن حياتهن الرغيدة بينما كانت صدورهن حزينة على فراق رجالهنَّ الذين مضوا بعيدًا في أتون حروبٍ ظالمة لا رحمة فيها. سحبتُ أريكةً كبيرةً من مكانها الذي كانت فيه قرب الزاوية، بحيث يتسنَّى لي وأنا مضطجع أن أتأمَّل المنظر البديع في الشرق والجنوب، ودون أن أكترث بالغبار، هيَّأتُ نفسي للنوم. أظنني كنتُ نائمًا بلا شك، آمل ذلك، ولكن الخوف اعتراني؛ فكل ما تلا ذلك كان حقيقيًا بصورة مفزعة، حقيقيًا جدًا حتى إنني الآن وأنا جالسٌ هنا في ضوء الشمس الساطع الممتد مع تباشير الصباح، لا أستطيع في أضعف الإيمان أن أحسب أنَّ كل ما جرى معي كان منامًا.

لم أكن وحيدًا. والغرفة كانت ذاتها، لم تتغيَّر بأي طريقة منذ مجيئي إليها، ويمكنني أن أرى على طول الأرضية، في ضوء القمر البديع، طبعات أقدامي التي أثارت الغبار المتراكم على مرِّ الزمن. في ضوء القمر، رأيت أمامي ثلاث نساء شابات، سيِّدات من هيئة

ملابسهن وسلوكهن. حين رأيتهن لحظتها، ظننت بأنني أحلم، إذ لم يسقط لهن ظِلّ على الأرض برغم ضوء القمر المشع من ورائهن. اقتربن مني، ونظرن إلي بعض الوقت، ومن ثم تهامسن. اثنتان منهن سمراوان، لهما أنفان معقوفان طويلان مثل الكونت، وعينان داكنتان كبيرتان ثاقبتان، وبدا لونُهُما أحمرَ تقريبًا في تباينه مع ضوء القمر الأصفر الشاحب. أما الثالثة فشقراء، كما يجدر بالشقرة أن تكون، ولها خُصَلُ شعرٍ ذهبية عظيمة متموِّجة وعينان بلونٍ أصفرَ فاتحٍ مثل ياقوتتين. بدا وجهها مألوفًا لي بطريقة ما وكأنه تربطني به ذكرى خوف غامضة، لكن في هذه اللحظة لم أستطع أن أتذكر متى كان ذلك أو كيف حصل. لثلاثتهن أسنان بيضاء ناصعة تبرق مثل لآلئ محاطة بياقوتةِ شفاههن الشهوانية. أربكنني، واختلطت علي مشاعري ما بين الرغبة والتوق وفي الوقت نفسه شعور بخوف مهلِك. شعرتُ في قلبي برغبة آثمة متأججة بأنهنَّ سيقبِّلْنَنِي بهاتيك الشفاه الحمراء. ليس من الجيِّد كتابةُ ذلك، أخشى أن تقعَ عليه عينا مينا يومًا ما ويسبِّب لها الألم، ولكن لا محيدَ عن الحقيقة. تهامَسْنَ، ومن ثم ضحِكْنَ ثلاثتهن ضحكة صافية ذات إيقاعٍ موسيقي، لكنها مشوبة برنين ممتد لا يمكن أن يصدر عن شفاهٍ بشرية ناعمة ألبتة. كان صوتًا كانسجامٍ وخَّازٍ لا يطاق لكؤوس الماء عندما تطرُقُ عليها يدٌ بارعة. هزَّت الشقراء منهنَّ رأسها بغنجٍ، وحثتها الأخريان على التقدُّم وقالت لها إحداهما:

«هيَّا! أنتِ أولًا، وسنتبَعُك نحن، أنت من يحق لكِ أن تبدأي».

ثم أضافت الأخرى:

«إنه شاب وقوي؛ وسنشْبَعُ منه ثلاثتنا تقبيلًا». اضطجعتُ بهدوء، ناظرًا من خلال رموشي في ألمٍ مشوبٍ بترقب مبتهج. تقدَّمت الشقراء وانحنت فوقي حتى شعرتُ بانبعاث نفَسِها فوقي. نفسُها حلو كالعسل، وبث الشعور الوخَّاز ذاتَه في أعصابي مثلما فعلَ صوتها، ولكنها حلاوة تكتنفها مرارة، مرارة كالتي يشتمها المرء في رائحة الدم.

توجَّسْتُ خيفةً من فتح جفوني، ولكني نظرتُ ورأيتُ المشهد كاملًا من بين رموشي. جثت الصبيَّة على ركبتيها، وانحنت فوقي وهي تتأملني بغبطة بكل بساطة. كان هناك شهوانيةٌ متعمَّدَة، شهوانيةٌ مثيرة ومنفِّرَة على حدٍّ سواء، وبينما حنَت رقبتها لعقت شفتيها فعليًا مثلما يلعق حيوانٌ شفتيه، حتى استطعتُ أن أرى في ضوء القمر الرطوبة تلتمع فوق الشفاه القرمزية واللسان الأحمر وهو يلحس الأسنان البيضاء الحادَّة. خَفَضَتْ رأسها رويدًا رويدًا بينما نزلت شفتاها تحت مستوى فمي وذقني وبدت على وشك الإطباق على حنجرتي. ومن ثمَّ توقَّفَتْ، واستطعتُ سماع صوت المخض الصادر عن لسانها وهو يلعق أسنانها وشفتيها، واستطعت أن أشعر بالنفَس الحار على رقبتي. بَدَأَتْ بشرة حنجرتي تنمل مثلما ينمل لحم المرء عندما تقترب منه يدٌ لدغدغته. شَعرتُ باللمسة الناعمة المرتعشة للشفتين على بشرة حنجرتي الفائقة الحساسية، والغرزات القاسية للنابين الحادين، وهما فقط يلمسان ذلك الموضع ويتوقفا هناك. ثم أغمضتُ عيناي في نشوة واهنة وانتظرتُ بقلب واجف.

ولكن في تلك اللحظة، سرى شعورٌ آخر في جسدي سريعًا كالبرق. أدركتُ مجيء الكونت، الذي بدا وكأنَّ عاصفة غضبٍ اجتاحته. لما فَتَحْتُ عيناي لا إراديًا رأيتُ يده القوية تقبض على الرقبة الرفيعة للمرأة الشقراء وتسحبها بقوةٍ جبَّارة إلى الخلف. ماجت عيناها الزرقاوان بالغضب، واصطكت أسنانها البيضاء غيظًا، والوجنتان الشقراوان تألقتا بحمرة العاطفة. أما الكونت!! لم أتخيَّل أبدًا أن يصدر مثل هذا المقدار من السخط والغضب حتى من شياطين الجحيم. كانت عيناه مشتعلتين. والضوء الأحمر متوهج فيهما وكأن نيران الجحيم تستعر خلفهما. وجهُه شاحبٌ كالموت، وتجاعيده قاسية مثل أسلاك مسحوبة، وبدا الحاجبان السميكان اللذان يلتقيان فوق الأنف في تلك اللحظة وكأنَّهما عارضة ثقيلة من المعدن الساخن-الأبيض. بحركة سريعة عنيفة من ذراعه، أبعدَ المرأة عنه، ومن ثم أشار لرفيقتيها، وكأنه يزيحهما للوراء، مستخدمًا الإشارة المستبدَّة ذاتها التي رأيتُه يشير بها إلى الذئاب. وبصوت بدا وكأنه يخترق الهواء ومن ثم يرن في أرجاء الغرفة، رغم أنه صوت خافت ويكاد يكون شبه مهموس، قال:

«كيف تجرؤ أيٌّ منكنَّ على لمسه؟ كيف تجرؤن على النظر إليه وقد منَعْتُ ذلك؟ ارجعن، أقول لكنَّ ارجعن جميعكن! هذا الرجل يخصُّني! إياكنَّ والتطفل عليه، وإلا ستضطرنَّ لمواجهتي». التفتت الفتاة السمراء بضحكة مشوبةٍ بالغنج السافل لتردَّ عليه قائلة:

«أنتَ نفسك لم تحبَّ قط؛ إنك لا تحب أبدًا!» ما إن أنهَتْ مقالتها إلَّا وانضمَّت إليها المرأتان الأخريان، وجلجلت ضحكة كئيبة،

قميئة، لا حياة فيها في أرجاء الغرفة لدرجةٍ جعلتني تقريبًا عاجزًا عن الاستماع، بدا الأمر مثل متعةٍ للأبالسة. ثم التفت الكونت، وقال بهمسة ناعمة بعد أن نظر إلى وجهي بتمعُّن:

«بلى. أنا أستطيع أن أحبَّ أيضًا، وأنتن أنفسكن تشهدن على ذلك مما حصل في الماضي. أليس الأمر على ذلك النحو؟ حسنًا، والآن أعدُكُنَّ بأنَّكنَّ ستقبِّلنَه كما تشأن بعد أن أفرغ من أمره. والآن اذهبن! اذهبن! عليَّ أن أوقظه، فهناك عمل ينبغي إنجازه».

«ألن نحظى بشيء الليلة؟» قالت إحداهنَّ، بضحكة خافتة وهي تشير إلى الكيس الذي رماه فوق الأرض، والذي تحرَّك وكأنَّ فيه كائنًا حيًا. أجابها بإيماءة من رأسه. فوثبت إحدى النساء إلى الأمام وفتحته. إذا لم تكن أذناي قد خدعتني فقد سمعت شهقةً وعويلًا خافتًا، كأنه صوت طفلٍ شبه مخنوق. تحلَّقَت النساء حوله، بينما كنت مذعورًا من شدة الرعب، ولكن عندما نظرتُ اختفين، واختفى معهن الكيس المرعب. لم يكن هناك باب قريبٌ منهن، وما كان لهن أن يمررن بجانبي دون أن أنتبه لهن. بدا أنهن اختفين ببساطة في أشعة ضوء القمر وخرجن عبر النافذة، لأني استطعت أن أرى في الخارج أشكال الظلال المعتمة لحظة قبل أن يختفين تمامًا.

بعد ذلك غلبني الرُّعبُ، وسقطتُ مغشيًا عليَّ.

الفصل الرابع

تتمة يوميات جوناثان هاركر

استيقظت لأجد نفسي في سريري. إذا لم يكن ما حصل حلمًا، فلا بدَّ أن الكونت هو من حملني إلى هنا. حاولتُ أن أهدئ من روعي إزاء الموضوع، بيد أني لم أستطع الوصول إلى أي نتيجة حتمية. وهناك بعض الدلائل الواضحة تؤكد أن ما حصل ليس حلمًا؛ فملابسي كانت مطوية ومرتَّبَة بطريقة لم أعتد القيام بها. كما أن ساعتي لا تزال في يدي، وأنا معتاد بصورة صارمةٍ على خلعها من يدي كآخر خطوة أقوم بها قبل أن أخلد إلى النوم، والعديد من القرائن من أمثال هذه التفاصيل. لكن هذه التفاصيل ليست دليلًا دامغًا، لأنها ربما تكون أدلة على أن عقلي لا يعمل بطريقته المعتادة، وقد كنت حانقًا بشدة، لهذا السبب أو غيره. عليَّ البحث عن دليل. أمرٌ واحدٌ سرني وهو أنَّه إذا كان الكونت قد حملني إلى هنا ونزع ملابسي، فلا بدَّ أنه فعل تلك المهمة في عجالة من أمره، فجيوبي لم يمسسها أحد. وأنا على يقين أنَّ هذه المفكَّرة كانت ستشكل لغزًا له وما كان ليطيق صبرًا على ذلك. كان سيأخذُها أو يمزِّقها. وبينما أنظر في أرجاء هذه الغرفة، والتي صارت بالنسبة لي مكانًا يملؤه

الخوف، أدركت بأنها باتت الآن بمثابة الحبس، فلا شيء يمكن أن ينطوي في جنباته على الرعب أكثر من هاتيك النساء المرعبات، اللاتي كنَّ -وما يزلن- ينتظر الفرصة لمص دمي.

١٨ مايو- نزلتُ إلى الأسفل لأنظر داخل الغرفة مرَّة ثانية في ضوء النهار، *فلزامٌ* عليَّ أن أعرف الحقيقة. عندما وصلتُ إلى مدخل الباب في أعلى الدَّرَج ألفيته مغلقًا. وقد دُفِعَت عضادة الباب بقوة حتى أن قسمًا من زخرفتها الخشبية تكَّسَر إلى شظايا. رأيتُ مزلاج القفل مفتوحًا، ولكنَّ البابَ مثبَّتٌ من الداخل. خشيتُ ألا يكون ذلك حلمًا، وعليَّ أن أتصرَّف بناءً على هذا الظن.

١٩ مايو- وقعتُ في الشَّرَك بالتأكيد. فقد طلب مني الكونت الليلة الماضية بأكثر النبرات تهذيبًا أن أكتب ثلاث رسائل؛ أقول في الأولى بأنَّ مهمَّتي هنا باتت على وشك الانتهاء، وبأنه ينبغي لي العودة إلى الوطن خلال بضعة أيام. ورسالة ثانية أقول فيها إنني سأنطلق في الصباح التالي للحظة كتابتها. ورسالة ثالثة أقول فيها إنني غادرتُ القلعة ووصلتُ بِستْرِتز. كنتُ سأعترض على ذلك عن طيب خاطر، ولكني شعرت بأنه في ظل الظروف الحالية فإنَّه من الجنون أن أتورط في صراع صريح مع الكونت بينما يحكم قبضته عليَّ كليًا، فالرفض يعني إثارة شكوكه وتأجيج غضبه. إنه مدرك أنني بتُّ أعرف الكثير عنه، وأنه لا ينبغي لي أن أظل حيًّا، وإلَّا فإني سأشكِّل خطرًا عليه، وفرصتي الوحيدة تتمثَّل في إطالة فُرَص بقائي على قيد الحياة. فربما يحدث حادثٌ ما يمنحني فرصة

النجاة. رأيتُ في عينيه ذلك السخط المتجمِّع الذي كان جليًا عندما دفع تلك المرأة الشقراء عنه. لقد شرح لي بأن مكاتب البريد قليلة وغير مضمونة، وبأنَّ كتابتي الرسائل الآن ستضمن طمأنينة البال لأصدقائي. وأكدَّ لي بمقدارٍ كبيرٍ من الإعجاب بأنه سيلغي مسألة إرسال الرسائل الأخيرة، التي ستبقى في بِسْترِتز حتى الوقت المحدَّد في حال كانت هناك فرصة لتمديد إقامتي، وبأن معارضتي له لن تجدي سوى في إثارة شكوك جديدة. لذلك تظاهرتُ بأني أوافقه الرأي، وسألته عن التواريخ التي ينبغي لي تدوينها على الرسائل. استغرق دقيقة يحسب ثمَّ قال:

«ينبغي للرسالة الأولى أن تكون بتاريخ ١٢ يونيو، والثانية بتاريخ ١٩ يونيو، والثالثة بتاريخ ٢٩ يونيو».

بتُّ أعرفُ الآن عدد الأيام المتبقية في حياتي. فليكن الربُّ في عوني!

٢٨ *مايو*– ثمَّة فرصةٌ للنجاة، أو فرصة لإرسال رسالة إلى الوطن على أي حال. فقد حدَث أن جاءت مجموعة من الزَّغاني إلى القلعة، ونصبوا خيامهم في فنائها. والزَّغاني أقوام من الغجر؛ وقد دوَّنْتُ عنهم ملحوظاتٍ في مفكَّرتي. إنهم غرباء عن هذه البقعة من العالم، رغم أنَّهُم مرتبطون بالغجر العاديين المنتشرين في كافة أنحاء العالم. يوجد آلافٌ منهم في هنغاريا وترانسلڤينيا، وهم تقريبًا لا يخضعون لأي قانون. فهم يربطون أنفسهم كتابعِيْن لنبيل أو *بويارٍ* عظيم، ويتسمَّون باسمه. شجعانٌ ولا يعتنقون دينًا ما خلا

الخرافات، ويتحدَّثون فقط لغة الروماني[1] بلهجاتهم المختلفة التي تميِّز كلًا منهم.

ينبغي لي أن أكتب بعض الرسائل إلى إنجلترا، كما ينبغي أن أحاول إقناعهم بأن يرسلوها في البريد. وقد تحدَّثْتُ سلفًا معهم عبر نافذتي لأبدأ بالتعرُّف بهم. ما كان منهم إلَّا ونزعوا قبَّعاتهم وانحنوا انحناءاتِ احترام وأشاروا بعدَّة إشارات لم أفهمها مثلما لم أفهم لغتهم المحكيَّة...

كتبتُ الرسائل. رسالة مينا مكتوبة بأسلوب الاختزال، وطلبتُ ببساطة من السيِّد هوكِنز أن يتواصل معها. شرحتُ لها وضعي، ولكن دون ذكر للفظائع التي ربما أتخيَّلُها وحدي فقط. ستصابُ بالصَّدمة والذعر حدَّ الموت إذا ما عبَّرْتُ لها عن مكنونات قلبي. ولو قدِّرَ للرسائل ألَّا تصل، فإن الكونت لن يعرف حينئذٍ سرِّي أو مقدار ما أعرفه عنه من معلومات...

أعطيتُهم الرسائل؛ رميتُها عبر قضبان نافذتي ومعها قطعة ذهبية، وأشرت بالإشارات التي استطعت لكي يرسلوها بالبريد. ما كان من الرجل الذي أمسك بها إلَّا وضغَطَها على قلبه وانحنى، ومن ثم وضعها في قبعته. لم يكن بوسعي فعل أكثر من ذلك. تسلَّلْتُ راجعًا إلى المكتبة، وبدأت القراءة. ولأن الكونت لم يأتِ، فقد كتبتُ مذكراتي هنا...

---

(١) لغة من اللغات الهندو-آرية يتكلَّمُها الغجر، وتنقسم إلى لهجاتٍ مختلفة وفقًا للدول التي يقطنون فيها.

هو ذا الكونت. جاء وجلس بجانبي، وقال بصوته الناعم وهو يفتح رسالتين:

«أعطاني الغجريُّ هاتين الرسالتين، وينبغي لي بالطبع أن أهتمَّ بهما رغم أني لا أعرف من أين جاءتا. أترَى!» -لا بدَّ أنه قرأ العنوان المكتوب عليها- «إحداهُما مُرْسَلةٌ منكَ إلى صديقي بيتر هوكنز، أما الأخرى» -وهنا وقَعَتْ عيناه على الرموز الغريبة وهو يفتح المظروف، فاظلمَّ وجهه، وتطاير الشَّرَرُ من عينيه- «الأخرى فعلة دنيئة، وانتهاكٌ شنيع للصداقة وحسن الضيافة! إنها ليست موقَّعة. حسنًا! ولذا فلا يمكنها أن تهزَّ فينا ولو شعرة». ووضعَ الرسالة ومظروفها بهدوءٍ في لهب المصباح حتى أتت عليهما النيران. ثم تابع قائلًا:

«أما الرسالة الموجَّهة إلى هوكنز، فهي رسالةٌ ينبغي لي بالطبع أن أرسلها، لأنها منك. فرسائلُك عزيزة عليَّ. والمعذرة يا صديقي، لأني نزعت الختم عنها دون أن أدري. ألن تُظرِّفَهَا مرة أخرى؟» أعطاني الرسالة، وبانحناءة مهذَّبة أعطاني مظروفًا جديدًا. لم يكن بوسعي سوى إعادة توجيهها وإعطائها له بصمت. عندما خرج من الغرفة سمعت صوت المفتاح يدور في القفل برفق. بعد دقيقة ذهبت إلى الباب وجرَّبْت أن أفتحه، ولكنه كان موصدًا.

بعد ساعة أو اثنتين، عندما دخل الكونت بهدوء إلى الغرفة، أيقظَنِي قدومه، إذ كنت قد خلدت إلى النوم على الأريكة. كان في قمة التهذيب والابتهاج في طريقة دخوله، وإذْ رأى أنني كنت نائمًا، قال:

«هكذا إذن يا صديقي، فأنت متعب؟ اخلد إلى النوم. ففيه الراحة الأكيدة. وربما ليست لديَّ الرغبة في الحديث الليلة، نظرًا لوجود الكثير من الأعمال الملقاة على كاهلي، ولكني أتمنى لكَ أن تنام». توجَّهْتُ إلى غرفتي ودلفت إلى السرير، ومن الغريب القول بأني نِمتُ بلا أحلام. فلليأسُ أثرُه في تهدئة خواطر المرء.

٣١ *مايو*- عندما استيقظت صباح اليوم فكَّرتُ بأن أتزوَّد ببعض الأوراق والمظاريف من حقيبتي وأن أحتفظ بها في جيبي حتى تتسنَّى لي الكتابةُ إذا واتتني الفرصة، ولكن ها هي مفاجأة أخرى تنتظرني وصدمة جديدة!

لقد اختَفَتْ كل قصاصة من قصاصات الورق واختفت معها كل ملحوظاتي وما دوَّنتُه في مفكِّرتي المخصَّصَة من معلوماتٍ عن خطوط القطارات والسفر ورسالة الائتمان الخاصة بي. في الواقع اختفى كل ما يمكن أن يكون مفيدًا لي حالما أصير خارج القلعة. جلستُ وتأمَّلتُ في الأمر برهة، ومن ثم خطرت في بالي بعض الأفكار، وبحثتُ في حقيبة سفري وفي الخزانة التي وضعت فيها ملابسي.

اختفت البدلةُ التي سافرتُ بها، وكذا معطفي ودثاري الصوفي، ولم أستطع أن أعثر على أثر لأي منها في أي مكان. بدا هذا مثل فصلٍ جديد من فصول النذالة...

١٧ *يونيو*- في صباح اليوم، وبينما كنتُ جالسًا على طرف سريري أحاول لمام شتات أفكاري، سمعتُ في الخارج قرقعة السياط وطَرْقَ حوافر الخيل وجلجلتها فوق الممر الوَعِر الواقع خلف الفناء.

أسرعتُ فَرِحًا صوب النافذة، ورأيتُ عربَتَيْ تحميلٍ ضخمتين تسيران إلى الفناء، كل عربة تجرها ثمانية جياد قوية، وعلى رياسة كل زوجٍ من الخيل سلوڤاكي معتمرًا قبَّعته العريضة، ومُزنَّرًا بزنَّاره العريض المرصَّع بالمسامير، ومرتديًا جلد خروف قذر وجزمة طويلة، ممسكًا عصاته الطويلة بيده. ركضتُ إلى الباب، عازمًا على النزول والمحاولة والانضمام إليهم عبر القاعة الرئيسة، إذْ إنني حسبتُ أن ذلك الطريق ربما يكون مفتوحًا لهم. هي ذي صدمة أخرى تصعقني؛ فبابي موصدٌ من الخارج.

بعد ذلك ركضتُ إلى النافذة وصحتُ بهم. نظروا إليَّ نظرة بلهاء وأشاروا بأيديهم، ولكن لحظة ذاك ظهر «زعيم» الزَّغاني، وحين رآهم يفعلون ذلك قال لهم شيئًا ما، جعلهم يضحكون، ثم أشاحوا بوجوههم عني بحزم. ومذ تلك اللحظة، ما كان لأي جهد مني، أو لصيحة مثيرة للشفقة أو لتوسل مفجوع أن يجعلهم يهموا حتَّى بالنظر إلي. حَوَتْ العربتان صناديق مربعة كبيرة، لها مقابضُ من حبالٍ سميكة، ومن الواضح أنها فارغة، واستنتجت هذا من السهولة التي عاملها بها السلوڤاك، وكذا من خلال الرنين الصادر عنها وهي تُحْمَل كيفما اتَّفَق. بعد أن أنزلت الصناديق من العربتين ورُتِّبَتْ في كومة كبيرة في إحدى زوايا الفناء، أعطى الزَّغاني بعض المال للسلوڤاك، وبعد أن بصق كلٌّ واحد منهم على المال استجلابًا للبَرَكة، مضوا بتكاسلٍ يقودُ كلٌّ منهم حصانه. بعد ذلك بمدة قصيرة، سمعت قرقعة سياطهم تتلاشى أثناء ابتعادِهم.

٢٤ يونيو، قبل انبلاج الصباح- غادرني الكونت في الليلة الفائتة مبكِّرًا وأغلق على نفسهِ بابَ غرفته. وحالما امتلكتُ الجرأة ركضتُ صاعدًا الدَّرَج الملتوي، ونظرتُ من النافذة المطلة على الجنوب. حسبتُ أنني سأراقب الكونت، لأن هناك حدثًا وشيك الوقوع. فالزَّغَاني متوزِّعون في مكان ما في القلعة ويقومون بعمل من طبيعة معينة. عرفت ذلك من الصوت الذي كان يصلني بين الحين والآخر، صوت مكبوت بعيد وكأنه صوت معولٍ ورفش. ومهما يكن ذلك العمل الذي يقومون به، فلا بد أنه نهايةُ نذالة قميئة من نوع ما.

كان قد مرَّ على وجودي قرب النافذة أقلُّ من نصف ساعة تقريبًا، عندما رأيت شيئًا يخرج من نافذة الكونت. تراجعتُ إلى الخلف وراقبت بحذر، ورأيتُه يبرز منها بكامل جسمه. هالَتْنِي صدمةٌ جديدة إذ رأيتُ أنه ارتدى البدلة التي ارتديتُها أثناء سفري إلى هنا، كما علق فوق كتفه الكيس الرهيب الذي رأيت النسوة يأخذنه معهن. لم يبقَ مجال للشك في ما يرمي إليه، وسيفعل ذلك مرتديًا ملابسي أيضًا! هذا إذن مخططه الشرير الجديد: سيوهم الآخرين بأنهم رأوني، وبذلك قد يترك دليلًا على أن أحدهم رآني في البلدات أو القرى وأنا أرسل رسائلي بالبريد، وسينسب السكَّانُ المحليون إليَّ أيَّ شر قد يرتكبه.

جعلني ذلك أستشيط غضبًا وأنا أفكر أن تلك المكيدة يمكن لها أن تنجح بينما أنا سجينٌ هنا بكل معنى الكلمة، ولكن دونما توفيرٍ للحماية التي يكفلها القانون، والتي تعدُّ في أهون الأحوال حقًا من حقوق المجرم ومبعثَ سلوان له.

قررت أن أترقَّب عودة الكونت، ولذا جلستُ مدة طويلة بإصرار قرب النافذة. وبعد حين، بدأت ألاحظ وجود بعض الذرَّات الصغيرة الغريبة السابحة في أشعة ضوء القمر. كانت مثل ذرات الغبار المتناهية الصغر، وكانت تدور وتتجمَّع بصورة مجموعات بطريقة سديمية نوعًا ما. راقبْتُها بشعورٍ من الطمأنينة واجتاحني نوعٌ من السكينة. ثم استرخيت في طاقة النافذة في وضعية أكثر راحة، بحيث يمكنني أن أمتِّع ناظريَّ أكثر بهذا التقافز المرح لذرَّات الهواء.

شيء ما جعلني أنهض من فوري؛ صوت خافت لنباح بائس يأتي من جهة الوادي البعيد في الأسفل، والذي تتعذر علي رؤيته. ارتفع الصوت وصار يرنُّ في أذناي، وبدت ذرَّات الغبار السابحة وكأنَّها تتَّخذُ أشكالًا جديدة تتوافق مع الصوت كما لو كانت تتراقص في ضوء القمر. شعرتُ بنفسي وهي تغالب لتستفيق استجابةً لنداء أطلقته غرائزي. لا، بل إن روحي ذاتها كانت تكابد، ومشاعري شبه الساهية تبذل جهدها لتلبية النداء. صرتُ كالمنوم مغناطيسيًا! الغبار يتراقص أسرع وأسرع، وأشعة القمر مرت بي مرتعشة وهي تتجه صوب كتلة من العتمة ورائي. زاد عددها أكثر وتجمَّعَتْ حتى بدت وكأنها تتخذ أشكالًا شبحية معتمة. بعد ذلك هرعتُ من فوري، وأنا في كامل وعيي وقواي العقلية، وركضت صارخًا من المكان. كانت الأشكال الشبحية، التي صارت تتبلور تدريجيًا متحولة إلى أجسام مادية من أشعة القمر، أشكالًا للنساء الثلاث الشبحية اللاتي صار مصيري بين أيديهن. هرَبْتُ، وشعرتُ بشيء من الأمان في غرفتي، حيث لا ضوء للقمر فيها وحيث المصباح يتوهج ناشرًا ضوءه.

بعد مرور بضع ساعات سمعتُ جلبة في غرفة الكونت، شيئًا مثل عويلٍ حاد ما لبث أن أخمد بسرعة، ومن ثم أطبق صمتٌ مرعب بثَّ في أوصالي الذعر. بقلبٍ تتسابق ضرباته، جرَّبت أن أفتح الباب، ولكني كنت محبوسًا في سجني، وما كان باليد حيلة. جلستُ وبكل بساطة بكيت.

أثناء جلوسي، سمعتُ في الفناء الخارجي صوت نحيب امرأة. هرعتُ إلى النافذة ورفعتها بقوة إلى الأعلى، وحدقت من بين القضبان. وبالفعل، كانت هنالك امرأة شعثاء الشعر، تضع يديها فوق قلبها كمن أنهكه الجري. كانت تستند إلى زاويةٍ من زوايا مدخل البوابة. وعندما رأت وجهي قرب النافذة دفعت جسدها إلى الأمام وصرخت بصوتٍ مشوبٍ بالوعيد:

«أيها الوحش، أعد إليَّ طفلي!».

ألقت بنفسها جاثيةً على ركبتيها، رفَعَت يديها، وبكت وهي تصيح الكلمات ذاتها وفق نغماتٍ قطَّعَت قلبي. ومن ثمَّ نتَّفَت شعرها ولطمت صدرها، مسلّمة نفسها لكل أنواع العنف المفرط. في آخر الأمر، ألقت بجسدها إلى الأمام، ورغم أني لم أستطع رؤيتها، فقد سمعتُها وهي تخبط الباب بيديها العاريتين.

في مكان ما في الأعلى، على الأرجح في البرج، سمعت صوت الكونت ينادي بهمساته الخشنة الرنَّانة. بدا أن الذئاب لبَّت نداءه بعوائها من كل حدب وصوب. وما هي سوى دقائق، ومثل اندفاع المياه المحبوسة في السد، تدفَّق قطيعٌ منها إلى الفناء عبر المدخل الواسع.

همد صوت بكاء المرأة، ولم يدم عواء الذئاب سوى مدة قصيرة قبل أن تتفرق وهي تلعق شفاهها.

لم يكن بمقدوري أن أشفق عليها، فأنا أعرف الآن المصير الذي آل إليه طفلها، والموت أفضل لها ألف مرة.

ماذا ينبغي لي أن أفعل؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ كيف لي أن أنجو من هذا المزيج المرعب من الليل والعتمة والخوف؟

صباح ٢٥ يونيو- لا يدرك المرء قيمة الصباح ومعزته على قلبه وعينيه إلَّا بعد أن يعاني من وطأة الليل. عندما ارتفعت الشمس عاليًا في هذا الصباح وتعامدت مع قمَّة مدخل البوابة الكبيرة مقابل نافذتي، بدت لي البقعة العالية التي لمستها الشمس مثل الحمامة التي رجعت إلى سفينة نوح محمَّلة بالأمل. زال خوفي وكأنَّه رداء متبخِّر أذابه دفء الشمس. عليَّ أن أتصرف الآن وقد انهالت عليَّ الشجاعةُ التي بثَّها فيَّ طلوع النهار. في الليلة الماضية أُرْسِلَتْ إحدى رسائلي المؤرَّخة في تاريخ لاحقٍ إلى البريد، وهي الأولى في سلسلة الرسائل المهلكة التي ستمحي آثار وجودي من الأرض.

عليَّ ألا أشغل بالي بذلك. ولأتصرف!

كان الليلُ هوالوقت الذي أتعرَّض فيه دائماً للمضايقة أو التهديد، أو كان بدرجة ما، الوقتَ الذي أكون فيه عرضةً للخطر أو الخوف. فأنا لم أرَ الكونت في ضوء النهار حتى الآن. أمعقولٌ أنَّه ينام عندما يستيقظ الآخرون؟ أو أنه ربَّما يكون مستيقظًا وهم نيام؟

ليتني فقط أستطيع الدخول إلى غرفته! لكن ما من وسيلة ممكنة. فالباب موصدٌ دائمًا، ولا سبيل لي بالدخول.

أجلْ، هناك طريقة لذلك إذا ما تجرأ المرء وخاض غمارها. ألا يمكن لشخص آخر أن يسلك نفس الطريق الذي سلكه؟ فقد رأيته بنفسي يزحف من نافذته. فلماذا لا أنحو نحوه، وأدخل إلى غرفته عبر نافذته؟ إنَّ الفرص المتاحة تبعث على اليأس، ولكن حاجتي لفعل ذلك تبعث فيَّ يأسًا أشد. ينبغي لي أن أخاطر. وفي أسوأ الأحوال إنه الموت وحسب. وموت الرجل ليس كموت العِجْل، وقد تكون أبواب الآخرة التي يهابها الناس لا تزال مشرعة لي. ليساعدني الربُّ في مهمتي! وإذا فشلت في مهمتي فوداعًا يا مينا؛ وداعًا، يا صديقي الوفي والرجل الذي أعدُّه في مقام والدي؛ وداعًا، جميعًا، ووداعٌ أخيرٌ لكِ يا مينا!

لاحقًا في اليوم ذاته- بعد أن بذلتُ الجهدَ المطلوب، وصلتُ بأمانٍ وبعونٍ من الرب إلى غرفته. عليَّ أن أكتب كل تفصيل بالترتيب. لقد ذهبتُ وشجاعتي في أوجها مباشرة إلى النافذة الواقعة في الجهة الجنوبية، وخرجتُ من فوري على الحافة الناتئة الضيقة للحجارة الممتدة حول المبنى من هذه الجهة. الحجارة كبيرة ومقصوصة بصورة خشنة، وقد تساقط الملاط الفاصل بينها بفعل مرور الزمن. نزَعتُ جزمتي، وخرجت مغامرًا على الطريق اليائسة. نظرت إلى الأسفل مرَّة، حتى أتيقن من أن نظرة مفاجئة إلى العمق المرعب لن تنال مني، ولم أعد النظر بعدها. كنتُ أعرف جيدًا اتجاه نافذة الكونت والمسافة التي تفصلني عنها، فبذلتُ جهدي في

التوجه إليها قدر استطاعتي، آخذًا بعين الاعتبار الفرص المتوافرة. لم أشعر بالدُّوار -إذْ أحسب أني كنتُ في قمة الحماسة- وبدت المدة التي استغرقْتُها قصيرةً على نحو يستدعي السخرية إلى أن وجدت نفسي واقفًا بعتبة النافذة ومحاولًا أن أرفع إطارها. كان الاضطراب يغمرني عندما انحنيت ودسستُ قدمي أولًا عبر النافذة. ومن ثم نظرت حولي باحثًا عن الكونت، ولكنني اكتشفت اكتشافًا فاجأني وبثَّ فيَّ السرور. لا أحدَ في الغرفة! وبالكاد كانت مفروشة بأشياء غريبة بدت أنها لم تستخدم قط؛ فالأثاث كان على الطراز ذاته الموجود في الغرف الجنوبية وقد غطَّاه الغبار. بحثتُ عن المفتاح، ولكنه لم يكن في القفل، ولم أستطع العثور عليه في أي مكان. الشيء الوحيد الذي عثرت عليه كومة عظيمة من الذهب في زاوية واحدة - ذهب من شتَّى العملات؛ رومانية وبريطانية ونمساوية وهنغارية ويونانية وتركية، مغطاة بطبقة من الغبار، وكأنها وضعت هناك منذ زمن طويل على الأرض. كما لاحظتُ أن أي عملة منها لا يقل عمرها عن ثلاثمئة سنة. هناك أيضًا سلاسل وحلي، بعضها مكسو بالجواهر، ولكنها قديمة وملطخة بمادة ما.

انتصب باب ثقيل في إحدى زوايا الغرفة. حاولت فتحه، نظرًا لأني لم أستطع أن أجد مفتاح الغرفة أو مفتاح الباب الخارجي -وهو الهدف الرئيس من عملية البحث التي أجريتها- ولا بدَّ لي أن أقوم بالمزيد من البحث وإلَّا ستذهب كل جهودي سدى. كان الباب مفتوحًا، ويفضي من خلال ممر حجري إلى درجٍ دائري ينزل إلى الأسفل منحدرًا بشدة. نزلتُ منتبهًا بحذر

إلى موطئ قدميَّ، لأن الدَّرَج كان مظلمًا لا تضيئه سوى فجوات في الحجارة الثقيلة. في الأسفل ممر معتم يشبه النفق، فاحت عبره رائحة مريعةٌ، مميتة، رائحة التراب القديم المقلوب حديثًا. أثناء عبوري الممر اقتربَتْ الرائحة وثقلت على الأنف. فتحتُ أخيرًا بابًا ثقيلًا انتصب مواربًا، ووجدتُ نفسي في كنيسة صغيرة قديمة متهدِّمة، ومن الواضح أنها استخدمت كمقبرة. السقف محطم، ويوجد في موضعين درجات تفضي إلى سراديب، ولكن الأرض حُفِرَت حديثًا، والتراب قد وضع في صناديق خشبية ضخمة، واضحٌ أنها الصناديق التي أحضرها السلوفاك. لم يكن هناك أحد، فبحثتُ عن وجود أي مخرج إضافي، ولكني لم أجد أيًا منها. ثم بحثتُ في كل إنشٍ من التراب، حتى لا أفقد أي فرصة. بل إني نزلتُ حتى إلى السراديب، حيث يشح الضوء المشوب بالعتمة، على الرغم من أن فعل ذلك ينطوي على ذعرٍ يصيبني في الصميم. دخلتُ إلى سردابين منها، ولكني لم أرَ شيئًا سوى أجزاء محطمة من صناديق قديمة وأكوام من الغبار. أما في السرداب الثالث، فقد كان الاكتشاف!

هناك، في أحد الصناديق الكبيرة، والتي يوجد منها خمسون واحدًا بالإجمال، وعلى كومةٍ من التراب المحفور حديثًا، استلقى الكونت! لم أستطع أن أحدد ما إذا كان ميتًا أم نائمًا، فعيناه مفتوحتان ومروِّعتان، ولكنهما ليستا كعيني ميت، ولخدوده دفء الحياة رغم كل الشحوب الذي فيهما، والشفتان حمراوان كعادتهما. ولكن ما من أثر يدل على الحركة؛ لا نبض، لا نَفَس ولا ضربات قلب. انحنيتُ

فوقَه، وحاولتُ أن أعثر على أي علامة من علامات الحياة، ولكن بلا جدوى. لا يمكن أن يكون قد استلقى هناك منذ مدة طويلة، لأن رائحة التراب كان لها أن تختفي في بضع ساعات. وُضِعَ غطاءُ الصندوق قربه على الأرض، وقد اخترقته الثقوب هنا وهناك. حسبتُ أنَّ المفاتيح ربما تكون معه، وحين هممت بالبحث التقت عيناي بعينيه اللتين تلتمعان بنظرة من الكراهية رغم كل ما فيهما من موت. أعلم أنه ليس واعيًا بي أو بوجودي، إلا أني هربت من المكان. وبعد أن تركتُ غرفة الكونت عبر النافذة، زحفتُ مرة أخرى صاعدًا جدار القلعة. ما إن وصلت غرفتي إلا ورميت نفسي بقوة على السرير محاولًا التفكير...

٢٩ يونيو- اليوم موعد رسالتي الأخيرة، اتَّخَذَ الكونت بعض الإجراءات لكي يثبت أنها رسالة حقيقية؛ رأيته مرة أخرى يغادر القلعة عبر النافذة ذاتها مرتديًا ثيابي. أثناء نزوله الجدار زاحفًا كالسحلية، تمنَّيتُ لو كانت بحوزتي بندقية أو سلاح قاتل، لربما قُدِّرَ لي أن أقتله، ولكني أخشى بأنه ما من سلاح ابتكرَتْه يدُ إنسان يمكن أن يؤثر فيه. لم أجرؤ على انتظار رؤيته عائدًا، إذ خشيت أن أرى تلك الأخوات الغريبات. عدتُ إلى المكتبة، وقرأتُ فيها حتى أدركني النوم.

أيقظني الكونت، الذي نظر إليَّ متجهِّمًا بأقسى ما يمكن لإنسان أن ينظر وهو يقول:

«غدًا يا صديقي، علينا أن نفترق. تعود أنت إلى بلادك، إلى

إنجلترا الجميلة، وأعود أنا لأداء بعض الأعمال والتي قد تؤدي في النهاية إلى عدم التقائنا مرة أخرى. رسالتك قد أُرْسِلَتْ إلى إنجلترا. غدًا لن أكون هنا، لكن كل شيء سيكون جاهزًا من أجل سفرك. في الصباح سيأتي الزَّغَاني، الذين يقومون ببعض الأعمال الخاصة بهم هنا، وسيأتي أيضًا بعض السلوڤاك. بعد أن يغادروا، ستأتي عربتي إليك وستقلك إلى معبر بورغو لتلتقي عربة تقلك من بوكوڤينا إلى بِسترِتز. ولكني آملُ أن أراك مجدَّدًا في قلعة دراكولا». ساورني الشك فيما قاله، وعزمت على اختبار صدقه. وأيُّ صدقٍ هذا! إذ تبدو كتابة هذه الكلمة تدنيسًا لها لوصف هكذا وحش، ولذا سألْتُه مباشرة:

«ولماذا لا أغادر الليلة؟».

«السبب، يا سيِّدي العزيز، أنَّ سائق العربة والخيل ليسوا في القلعة، فقد ذهبوا لأداء مهمة».

«لكن يطيب لي أن أمشي. وأريد أن أمضي في سبيلي من فوري». ابتسم، تلك الابتسامة الناعمة، اللطيفة، الشيطانية التي أعرف أن وراء لطافتها مكيدة ما. قال:

«وماذا عن أمتعتك؟».

«لا أكترث بها. يمكنني أن أرسل في طلبها في وقت لاحق».

وقف الكونت، وقال بتهذيب لطيف جعلني أفرك عيناي، حتى أنه بدا تهذيبًا حقيقيًا:

«عندكم أيها الإنجليز قول أثيرٌ على قلبي، لأن روحه هي النهج الذي يسير عليه بوياراتنا: (مرحبًا بالقادمين، وليسرع الضيوف المغادرين). تعالَ معي، يا صديقي الشاب العزيز. لن تنتظر ساعة في منزلي بخلاف رغبتك، رغم أني حزين على ذهابك، وحزين لأنك ترغب في المغادرة على نحو مفاجئ جدًا. تعال!» تقدَّمَني بجدية مهيبة ومعه المصباح، ماشيًا الدَّرَج ومجتازًا القاعة. توقَّفَ فجأة وقال:

«أصغِ!».

سمعتُ عواء عدَّة ذئاب وقد باتَ قريبًا منَّا. وبدا الصوت وكأنه صدر تقريبًا عندما رفع يده، تمامًا مثلما تبدو موسيقا أوركسترا عظيمة وهي تنطلق لحظة إشارة عصا المايسترو. بعد توقف دام لحظة، تابع سيره بطريقته المهيبة صوب الباب، وسحب المزاليج الثقيلة الحركة، وأرخى السلاسل الضخمة، وبدأ يسحب الباب فاتحًا إيَّاه.

ما أثار دهشتي العظيمة أنَّ الباب لم يكن موصدًا. ثمَّ نظرت حولي، وقد ساورتني الشكوك، ولكني لم أرَ أي مفتاحٍ من أي نوع.

بينما بدأ الباب ينفتح، زاد عواء الذئاب في الخارج حدَّةً وغضبًا، وبرزت فكوكها الحمراء، وأسنانها الصارَّة، وأقدامها ذات المخالب المُثلَّمَة وهي تقفز من خلال الباب المفتوح. عَرَفتُ آنئذٍ بعدم جدوى معاندتي للكونت. في ظل وجود مناصرين من مثل هذه الذئاب طوع أمره، لا يمكنني فعل شيء. ولكن مع ذلك تابع الباب انفتاحه ببطء، ولم يقف في فتحة الباب سوى جسد الكونت. صعقني هول المفاجأة وجال في خاطري بأنَّ هذه اللحظة

لحظة هلاكي بين أنياب الذئاب، إذ سيُلْقَى بي إلى الذئاب بناءً على رغبتي الجامحة في المغادرة. كان هناك شرٌّ شيطاني في الفكرة، شرٌّ هائلٌ كافٍ لإرضاء الكونت، فما كان مني إلَّا وصرَخْتُ كمحاولة أخيرة للنجاة:

«أغلق الباب؛ سأنتظر حتى الصباح!» وغطَّيتُ وجهي بيديَّ لأخفي دموع خيبة الأمل المرَّة. وبحركة واحدة من ذراعه الجبَّارة، أغلق الكونت الباب، وقرقعت المزاليج الضخمة وجلجل صداها عبر القاعة وهي ترجع إلى مواضعها.

رجعنا بصمتٍ إلى المكتبة، وبعد دقيقة أو نحوها ذهبتُ إلى غرفتي. وآخر ما رأيته من الكونت دراكولا كان منظره وهو يقبِّل يده ويحييني، مع ومضةِ نصرٍ حمراء تلتمع في عينيه، وابتسامةٍ ربما كان ليهوذا وهو في الجحيم أن يفخر بها أشدَّ الفخر.

بعد أن دخلتُ غرفتي وأوشكت على النوم، حسبْتُ أنني سمعت همسًا بباب غرفتي. ذهبتُ إليه برفق وأصغيت. ما لم تكن أذناي تخدعانني، فقد سمعت صوت الكونت يقول:

«ارجعن، ارجعن إلى مكانكن! لم يحن دوركنَّ بعد! انتظرن! وتحلّيْن بالصبر! فالليلة ليلتي. وليلة الغد ليلتكن!» كان هناك تموُّجُ ضحكةٍ خافتة وحلوة، فتحتُ الباب بغضب، ورأيتُ في الخارج النسوة الثلاثة المرعبات يلعقن شفاههن. ما إنْ ظهرتُ إلَّا وانفجرن جميعهن في ضحكة مخيفة ومضيْن راكضات.

عدتُ إلى غرفتي وجثوتُ على ركبتيَّ. هل اقتربت النهاية إذن؟

غدًا! غدًا! كنْ في عوني أيها الربُّ، وكنْ في عون هؤلاء الذين يكنون لي المَعزَّة في قلوبهم!

صباح ٣٠ يونيو- قد تكون هذه الكلمات آخر ما أكتبه في هذه المفكَّرة. نمت حتى قبيل الفجر، وعندما استيقظت جثوت على ركبتيَّ، لأني عقدتُ العزم على أن يجدني الموت مستعدًا له إذا ما داهمني.

شعرتُ أخيرًا بذلك التغيُّر الطفيف الحاصل في الجو، وعرفت بأن الصبح قد طلع. ثم تلاه صياح الديك مُرحِّبًا، فشعرت بالأمان. بقلب مليء بالسرور، فتحتُ باب غرفتي وركضت نازلًا صوب القاعة. لاحظتُ أنَّ الباب لم يكن موصدًا، وها هو سبيل النجاة يلوح أمام ناظري الآن. بيدين مرتجفتين بسبب الحماسة، أرخيت السلاسل وأرجعتُ المزاليج العملاقة إلى الخلف.

لكن الباب ما كان ليتحرك. أحاط بي اليأس. سحبْتُ الباب المرة تلو الأخرى، وهززته إلى أنْ تَرَجْرَج في إطاره بكل ضخامته. ها أنا أرى المزلاج مغلقًا. لقد أوصده الكونت بعد أن تركته.

اجتاحتني رغبةٌ عارمة في الحصول على ذلك المفتاح مهما عظم خطر ذلك، وعزمت من فوري على تسلق الجدار مرة ثانية والدخول إلى غرفة الكونت. ربما يقتلني، ولكن الموت يبدو الآن أسعد خيارات الشر المتاحة. هرعت صاعدًا إلى النافذة الشرقية دون توقف، وزحفت نازلًا على الجدار إلى غرفة الكونت كما فعلتُ من قبل. وجدتُها فارغة كما توقعت. لم أرَ مفتاحًا في أي مكان، ولكن

كومة الذهب ما تزال مكانها. ثم دخلتُ عبر الباب الذي في الزاوية ونزلت عبر الدرج الملتوي واجتزت الممر المعتم صوب الكنيسة الصغيزة العتيقية. أعرف الآن جيدًا أين أجد الوحش الذي كنتُ أبحث عنه.

كان الصندوق الضخم في المكان ذاته، قريبًا من الجدار، ولكن غطاءَه ملقىً عليه دون تثبيت، والمسامير جاهزة في مواضعها ومهيأة للطرق. أعرف أنه عليَّ الوصول إلى جسده لأظفر بالمفتاح، لذا رفعت الغطاء وأسندته إلى الجدار، ومن ثم رأيت منظرًا بثَّ في نفسي الرعب. هو ذا الكونت نائمًا، ولكنه يبدو وكأن شبابه شبه متجدد، فقد اختفى بياض الشعر والشاربين وحل مكانه لونٌ أشهبٌ داكن، وامتلأ الخدَّان أكثر من قبل، وبدت البشرة البيضاء حمراء بلون الياقوت، والفم أشد حمرة مما كان، إذ يوجد على الشفتين قطرات دمٍ نضر تقاطرت من زوايا الفم وسالت فوق الذقن والعنق. حتى إنَّ العينين الغائرتين الشديدتي الاحمرار بدتا متموضعتين في لحم منتفخ، فالجفون والهالتان تحتهما منتفخة. بدا وكأن المخلوق المرعب برمته كان ببساطة مغمورًا بالدماء. وقد استلقى مثل علقةٍ طفيلية قذرة، مرهقة بسبب تخمتها. ارتجفتُ وأنا أنحني لألمسه، وانتفضت كل أحاسيسي لحظة رؤيتي له، ولكني مضطر للبحث عن المفتاح وإلَّا خسرت حياتي. ربما تشهد الليلة القادمة جسدي وقد باتَ وليمة بطريقة مماثلة لهاتيك النسوة الثلاثة البغيضات. تحسَّستُ كامل جسده، ولكني لم أجد أثرًا للمفتاح. ثم توقَّفْتُ ونظرت إلى الكونت. ارتسمتْ ابتسامةٌ ساخرةٌ على وجهه

المتفخ أصابتني بالجنون. هو ذا الكائن الذي كنتُ أساعده للانتقال إلى لندن، حيث قد يتسنى له ولقرون قادمة، أن يُشْبع شهوته للدم من ملايينها الغفيرة، ويخلق دائرة جديدة ودائمة التوسع من أشباه الشياطين الذين سيحكمون الخناق على الضعفاء. تلك الفكرة بالذات أصابتني بمسٍّ من جنون. اجتاحتني رغبة رهيبة في تخليص العالم من هذا الوحش. لم يكن في متناول يدي سلاح قاتل، ولكني حملتُ رفشًا كان العمال يستخدمونه لملء الصناديق، فما كان مني إلَّا ورفعته عاليًا، وهويتُ به، وحافته نحو الأسفل، على الوجه الكريه. لكن في تلك الأثناء أدار وجهه، وحملقت عيناه فيّ بنظرة يقدح منها الرعب كنظرة الباسيليسك[1]. بدا المنظر وكأنَّه سيصيبني بالشلل، وتأرجح الرفش في يدي وضرب الوجه، محدثًا جرحًا غائرًا فوق الجبهة لا أكثر. سقط الرفش من يدي فوق الصندوق، وعندما سحبْتُه أصابت الحافة الناتئة للشفرة طرف غطاء الصندوق الذي سقط مرة ثانية، وحجب المخلوق الشنيع عن عيناي. آخر ما رأيته منه كان الوجه المنتفخ، ملطخًا بالدماء وثابتًا بنظرة عابسة خبيثة من شأنها أن تدفع عنه لظى الجحيم.

أعملتُ فكري بعمق في الخطوة التي ينبغي لي أن أتخذها بعدئذٍ، ولكني أحسست وكأن نارًا تشتعل برأسي، وانتظرتُ وشعور باليأس يبتلعني. بينما كنت أنتظر، سمعتُ على مبعدة أغنية غجرية تشدو بها أصواتٌ مرحة تقترب مني، ومع أغنيتهم سمعت

(١) وحش أسطوري يشبه التنين قادرٌ على قتل كل من ينظر إليه من أول وهلة.

صوت دحرجة الدواليب الثقيلة وقرقعة السياط، فالغجر الزَّغاني والسلوفاك الذين تحدَّث عنهم الكونت قادمون. ألقيت نظرة أخيرة حولي نحو الصندوق الذي يحوي الجسد الحقير. ركضت من المكان ودخلت غرفة الكونت، عازمًا على الانطلاق في اللحظة التي سيفتح فيها الباب. بأذنين متوترتين، أصغيت، وسمعت في الأسفل طقطقة المفتاح في القفل الضخم ورجوع الباب الثقيل إلى الخلف. لا بد أن هناك بعض الوسائل الأخرى للدخول، أو أن أحدهم معه مفتاح لباب من الأبواب الموصدة. بعد ذلك جاء صوت أقدام كثيرة تطأ الأرض ومن ثم تخفت مبتعدة في أحد الممرات مصدرة صدى رنان. التفتُّ لكي أركض إلى الأسفل مرة ثانية جهة السرداب، حيث يمكن لي أن أجد المدخل الجديد، ولكن في تلك اللحظة بدا وكأن ريحًا عنيفة هبت فأطبقت الباب المؤدي إلى الدَّرج بقوة جعلت الغبار يتطاير عن عارضته. عندما ركضت لأفتحه، أرتج سريعًا دونما أمل في فتحه. بتُّ سجينًا مرة أخرى، وها هو شرَكُ القدر البائس يحيط بي ويضيِّق علي الخناق.

بينما أكتب الآن تصلني من الممر في الأسفل أصوات أقدام عديدة تطأ الأرض، وصوت ارتطام أثقال وهي توضع بعنف، ولا شك أنها الصناديق بما تحويه من تراب. ها أنا أسمع صوت طرق المسامير وهي تدق في الصندوق. وأسمع الآن وقع الأقدام الثقيلة مرة أخرى تقطع القاعة، يرافقها العديد من وقع الأقدام الخافتة الأخرى وراءها.

أُغْلِقَ الباب، وقعقعت السلاسل. أستمع لقرقعة مفتاح في

القفل. وها هو المفتاح وقد سحب من القفل، ومن ثم فتح باب آخر ثم أغلق، وأسمع الآن صرير القفل والمزلاج.

أصغيت! في الفناء وعلى الطريق الحجري صوت تدحرج الدواليب الثقيلة، وقرقعة السياط، وكورال غناء الزَّغاني وهم يمضون مبتعدين.

أنا وحيد في القلعة مع تلك النسوة المرعبات. هل يصح حتى أن نطلق عليهن نساء؟ إن مينا امرأة، ولا شيء يجمع بينهن وبينها! لسن سوى شيطانات من شياطين جهنَّم!

ينبغي لي ألَّا أبقى وحيدًا معهن، ينبغي لي تسلق جدار القلعة لمسافة أبعد من المسافة التي تسلَّقتُها حتى الآن. وينبغي لي أن آخذ معي بعض الذهب في حال احتجته لاحقًا. ولربما أجد سبيلًا ينقذني من هذا المكان المرعب.

ومن ثم أنطلق إلى الوطن! أنطلق صوب أسرع وأقرب قطار! أهرب من هذه البقعة الملعونة، من هذه الأرض الملعونة، حيث لا يزال الشيطان وأبناؤه يمشون بأقدامٍ بشرية!

فعلى الأقل رحمة الله أفضل من المكوث بين هؤلاء الوحوش. ورغم أن الهاوية منحدرة وعالية، لكن عند سفحها ربما يتمكن المرء أن ينام كما ينام البشر. وداعًا جميعًا، وداعًا يا مينا!

الفصل الخامس

رسالة من الآنسة مينا موراي إلى الآنسة لوسي ويستينرا

٩ مايو

عزيزتي لوسي،

سامحيني على تأخري كثيرًا في مراسلتك، ولكني كنتُ غارقة في العمل. حياة مساعدة مديرة المدرسة تغدو أحيانًا حياةً شاقة. كم أتوق لأكون بصحبتك، وصحبة البحر، حيث يمكن لنا أن نتحدَّث معًا بحرية ونرسم خطط المستقبل الحالمة. كنت أعمل بجدٍّ مؤخَّرًا، لأني أريد أن أواكب معارف جوناثان الدراسية، كما أنني أتدرب على ممارسة الكتابة بأسلوب الاختزال بمثابرةٍ كبيرة. عندما نتزوَّج سأكون ذات فائدة لجوناثان، وإذا ما تمكَّنْتُ من إتقان الاختزال على نحوٍ وافٍ فيمكنني أن أكتب ما يريد أن يقوله بهذه الطريقة وأطبعه له على الآلة الكاتبة، التي أتمرَّن عليها أيضًا بجدٍ كبير. كلينا نكتب أحيانًا الرسائل بطريقة الاختزال، كما أنه يواظب على كتابة يومياته بهذه الطريقة في أسفاره في الخارج. عندما ألتقيك سأكتب في المفكَّرة بالطريقة نفسها. ولا أعني بها ذلك النوع من المفكَّرات التي

يخصِّصُ فيها كاتبها صفحتين لسرد أحداث أسبوع كامل مع بقاء عبارة «يوم الأحد» محشورة في زاويتها، ولكنها نوع من المفكَّرات التي أستطيع أن أكتب فيها كلَّما شعرت برغبةٍ في ذلك. ولا أحسب أنَّها ستلقى الكثير من الاهتمام من الآخرين، ولكنَّها ليست مكتوبة لهم ليقرؤوها. ربما أعرضها على جوناثان يومًا ما إذا كان فيها أي شيء يستحق المشاركة، ولكنها حقًا دفترٌ للتمرين. عليَّ أن أحاول أن أفعل ما تفعله الصحفيَّات من النساء: إجراء المقابلات وكتابة المقالات الوصفية ومحاولة تذكر الحوارات. لقد قيل لي بأنه يمكن للمرء، وبقليلٍ من الممارسة، أن يتذكر كل مجريات الأحداث أو ما يسمعه أمامه أثناء يوم كامل. على أي حال، سنرى صحة ذلك. سأُنبئكِ بخططي الصغيرة عندما نلتقي. لقد تلقيتُ للتو رسالةً من جوناثان من ترانسلفينيا، وقد خُطَّت سطورها القليلة على عجل. قال فيها إنه بخير، وسيعود في غضون أسبوع. أنا أتوق لسماع كل أخباره. لا بد أن رؤية المرء بلدانًا غريبةً أمرٌ ظريف جدًا. أتساءل إنْ كان ينبغي لنا -أقصد أنا وجوناثان- أن نزور تلك البلدان معًا مرة أخرى. هي ذي الساعة تدق معلنةً العاشرة. إلى اللقاء.

صديقتك المحبَّة

مينا

احكي لي كل الأخبار عندما ترسلين ردَّك على رسالتي. فأنت لم تُبْلِغِيني أيَّ أخبار منذ مدة طويلة. وقد وصلتني بعض الإشاعات، وعلى وجه الخصوص إشاعاتٍ عن رجل طويل، وسيم، مجعَّد الشعر؟؟؟

رسالة من لوسي ويستينرا إلى مينا موراي

١٧، شارع شاتَمْ
الأربعاء

عزيزتي مينا،

عليَّ القول إنَّك تحمِّليني ما لا طاقة لي به لتقصيرك في مراسلتي. لقد راسلتُكِ مرَّتين منذ افترقنا، ورسالتُك الأخيرة لم تكن سوى رسالتك *الثانية* التي ترسلينها. بالإضافة إلى ذلك، ليس لدي ما أخبرك به. ليس هناك حقًا ما يثير اهتمامك. لندن بلدة بهيجة الآن بالذات، ونحن نذهب مرَّات كثيرة إلى المعارض الفنية كما نتمشَّى ونمضي في جولاتٍ في العربات في المتنزَّه. أما بخصوص الرجل الطويل المجَّعد الشعر، فأحسب أنه الرجل الذي كان معي في الحفلة الموسيقية الأخيرة. واضحٌ أن أحدَهم أفشى السر. اسمه السيِّد هولمُود. وهو غالبًا ما يأتي لزيارتنا، وهو وماما على انسجامٍ تام؛ تجمعهما العديد من المواضيع المشتركة التي يخوضان فيها. التقينا منذ مدة ليست بالطويلة رجلًا *يناسبك كزوجٍ*، لو لم تكوني سلفًا مخطوبة لجوناثان. يحتمل أن يمثل شريكًا جيدًا، فهو وسيم، وميسور الحال، وشريف النسب. وهو طبيب وذكي بحق. لك تخيَّل ذلك! عمره فقط تسعة وعشرون عامًا، ولديه مصح أمراض عقلية كامل تحت إشرافه. عرَّفني به السيِّد هولمُود، إذ جاء إلى هنا ليزورنا، وهو غالبًا ما يأتي في هذه الأيام. أظنه واحدًا من أكثر الرجال عزمًا ممن رأيتهم في حياتي، كما أنه أكثرهم هدوءًا. يبدو رابط الجأش على نحو كبير. وبإمكاني أن أتخيَّل تأثيره المدهش على مرضاه. لديه عادة

فضولية تتمثل في النظر إلى الشخص في وجهه مباشرة، وكأنه يحاول قراءة أفكاره. وهو يجرِّب ذلك الأسلوب كثيرًا جدًا معي، ولكني سأكون مدَّاحة نفسي إذا ما قلتُ إنَّه يتعامل مع امرأة صعبة المراس. أعرف ذلك من النظر إلى نفسي في المرآة. هل حاولتِ أن تقرأي تعابير وجهك في المرآة من قبل؟ أنا فعلتُ، وأستطيع أن أقول لكِ بأن ذلك لم يكن أمرًا سيئًا، وعدم تجريبه قد يتسبَّب لك بمشاكل أكبر مما تتصورين. يقول بأني أشكِّل له موضوع دراسة نفسية تثير الفضول، وأحسب أني كذلك بكل تواضع. فأنا، كما تعلمين، ليس عندي اهتمامٌ كافٍ بالملابس حتى أكون قادرة على وصف الموضات الجديدة. الملابس ليست سوى مجلبةٍ للهم. تلك عبارة عاميَّة مرَّة أخرى، ولكن لا يهم، فأرثر يتفوَّه بعبَارات عامية كل يوم. فهناك، العامية تحكى على الملأ. مينا، لقد أفشتْ كل واحدة منَّا كافة أسرارها للأخرى مذ كنا *طفلتين*؛ فقد نمنا جنبًا إلى جنب وأكلنا معًا، وضحكنا وبكينا معًا؛ والآن، رغم أني حكيت لكِ عن قصة الرجل، فإني أرغب في الحديث عنه بتفصيل أكثر. أوه، يا مينا، أيمكنك أن تخمِّني ما يدور في بالي؟ أنا أحبُّه. ووجنتاي تتورَّدان بينما أكتب لكِ الآن، ورغم أني *أظنُّ أنَّهُ* يحبُّني، فهو لم يتلفظ بذلك حتى الآن. ولكن أوه، يا مينا، أنا أحبُّه؛ أحبُّه، أحبُّه.. أوه كم يريحني قول ذلك! عزيزتي، كم أتمنى أن أكون معك، عاريتين قرب الموقد كما اعتدنا أن نجلس، لكنت حاولتُ أن أشرح لكِ شعوري. ولا أدري حتى كيف أكتب لكِ هذه الرسالة الآن. فأنا أخشى التوقُّف عن الكتابة، لئلا أمزِّق الرسالة، ولا أرغب بالتوقف لأني أريد أن

أخبرك بكل شيء. أرجو منك الردَّ من فورك، وأخبريني برأيَك في الموضوع. عليَّ أن أتوقَّف عن الكتابة يا مينا. تصبحين على خير. ادعي لي في صلواتك، ادعي لي في صلاتك بالسَّعادة يا مينا.

لوسي

ملحوظة: نسيتُ أن أخبرك أن هذا سر. تصبحين على خير، مرَّة أخرى.

ل.

رسالة من لوسي ويستينرا إلى مينا موراي

٢٤ مايو

عزيزتي مينا،

شكرًا.. شكرًا.. شكرًا على رسالتك العذبة. فقد سرَّني أنِّي استطعت البوح لكِ ونيل تعاطفك.

يا عزيزتي، تأبَىْ المصائب أن تأتي فرادى. يا لحكمة الأجداد في أمثالهم! ها أنا ذي، أنا التي سأبلغ العشرين في سبتمبر، ومع ذلك لم يتقدَّم أحدٌ لخطبتي حتى اليوم، أقصد لم يتقدَّم أحدٌ لخطبتي بشكل فعلي، وهذا اليوم تلقَّيْت ثلاثة عروضٍ بالزواج. تخيَّلي ذلك فحسب! ثلاثة عروض زواج في يوم واحد! أليس ذلك رهيبًا! أشعر بالأسف، أشعر بأسف حقيقي وفعلي، على اثنين من الخطَّاب المساكين. أوه، يا مينا، لقد بلغتُ من السعادة مبلغًا جعلني لا أعرف ماذا أفعل. ماذا أفعل بثلاثة عروض زواج! ولكن أستحلفك بالله،

لا تخبري أيًا من الفتيات، وإلَّا فإنه ستجول في خواطرهن شتَّى صنوف الأفكار المغالية ويتخيلن أنفسهن مجروحات الكرامة ومهانات إذا لم يحظين في يومهن الأول في البيت بست عروض زواج على الأقل. بعض الفتيات مغروراتٍ جدًا! يمكننا أنت وأنا، يا عزيزتي مينا، أن نزدري الغرور. نحن المخطوبتان وعلى وشك التحول قريبًا بصورة رزينة إلى نساء متزوِّجات. حسنًا، لا بدَّ أن أحكي لكِ عن الخطَّاب الثلاثة، ولكن عليك أن تبقي ذلك سرًا عزيزتي عن مسامع الجميع، باستثناء جوناثان بالطبع. ستخبريه بالأمر، لأني كنت سأخبر أرثر بالتأكيد لو كنْتُ مكانك. ينبغي للمرأة أن تخبر زوجها بكل شيء -ألا توافقينني الرأي في ذلك يا عزيزتي؟- ويجب أن أكون منصفة. فالرجال يحبُّون أن تكون النساءُ، وأقصد بالنساءِ زوجاتهم بالتأكيد، مُنصِفَات مثلهم تمامًا؛ ولكني أخشى أن النساء لسن منصفات على الدوام كما ينبغي لهنَّ أن يكن. حسنًا، يا عزيزتي، جاء الخاطب الأول قبيل الغداء بلحظات. لقد حكيتُ لكِ عنه، اسمه د. جون سيوُرْد، صاحب مشفى الأمراض العقلية، الرجل ذو الفك القوي والجبهة الجميلة. كان يبدو عليه الهدوء ظاهريًا، ولكنه مرتبك في الوقت ذاته. ومن الواضح أنَّه كان يدرِّبُ نفسه على كافة التفاصيل الصغيرة وتذكُّرِها، ولكنه كاد يجلس على قبَّعَته الموشَّاة بالحرير، وهو تصرُّف لا يقدم عليه الرجال عمومًا إذا كانوا هادئين. ومن ثمَّ، وعندما أراد أن يبدو بمظهر المطمئن البال ما انفك يلعب بمبضع جراحة بطريقة جعلتني أوشك على الصراخ. لقد تحدَّث معي يا مينا بكل صراحة. وقال

إنه يكنُّ لي محبة عظيمة، رغم أنه لم يعرفني سوى منذ مدة قصيرة، وأخبرني كيف ستكون حياته معي إذا ما ساعدته وأدخلت السرورَ على قلبه. كان سيصف لي مدى تعاسته إذا لم أهتم بأمره، ولكن عندما رآني أبكي قال إنه قاسي القلب ولن يزيد مآسيَّ الحالية. ومن ثم توقَّفَ بغتة عن الكلام وسألني إذا كنت أستطيع أن أحبَّه مع مرور الوقت. وعندما هززتُ رأسي ارتجفت يداه، ومن ثم سألني، ببعض التردد، إذا كنت قد أحببتُ سلفًا أي رجل آخر. قالها بلطف شديد، لأنه لا يريد أن يزعزع ثقتي بنفسي، ولكن فقط ليعرف، لأنه إذا كان قلب المرأة خاليًا من حب أي رجل فرُبَّما يكون هناك أمل لرجلٍ كي يحبها. وبعدها، يا مينا، شعرت بأنَّ الواجب يملي عليَّ أن أخبره بأنه يوجد رجلٌ في قلبي. قلتُ له ذلك ولم أزد عليه شيئًا. ومن ثمَّ وقف، وبدا في قمة القوة والجدية وهو يمسك كلتا يدي بيديه وقال بأنه يتمنَّى لي السَّعادة، وأنه إذا ما خطر في بالي يومًا ما أن يكون لي صديق فعليَّ أن أعدَّه واحدًا من أفضل أصدقائي. أوه يا مينا العزيزة، لا أستطيع منع نفسي من البكاء، وأنت ستعذرينني على إرسال هذه الرسالة وقد جاءتك ملطَّخة بالدموع بكاملها. فأنْ يعرض عليك أحدهم الزواج يعدُّ مسألة لطيفة جدًا وما إلى ذلك.. ولكنه ليس على الإطلاق حدثًا سعيدًا إذا ما جعلك تضطرين لمشاهدة رجلٍ مسكين تعرفين بأنه يحبُّك بصدقٍ، يمضي في سبيله ويبدو محطم القلب، وأن تعرفي، بصرف النظر عمَّا قد يقوله الآن، بأنك خرجت تمامًا من حياته. عليَّ أن أتوقف عن الكتابة الآن يا عزيزتي، فأنا أشعر بتعاسة شديدة، رغم أنني في قمَّة السعادة.

مساء الخير

لقد ذهب أرثر للتو، وأشعر أني في حالة معنوية أفضل مما كنت أشعر لحظة توقفي عن كتابة هذه الرسالة، لذا يمكنني أن أتابع سرد أحداث ذلك اليوم لكِ. حسنًا يا عزيزتي، جاء الخاطب الثاني بعد الغداء. وهو شخص لطيف جدًا، أمريكي من تكسَسْ، ويبدو يافعًا وغضًا حتى وكأنه من شبه المستحيل أنَّ يكون قد رأى العالم أو خاض المغامرات. إني لأتعاطَف مع دِزْدَمُونا المسكينة عندما انهال ذلك السيل من حكايا المغامرات الخطرة على مسامعها، حتى ولو من رجلٍ أسود[1]. أظننا معشر النساء جبانات جدًا إذْ نظن أن الرجال سينقذونا من المخاوف، ولذا نتزوجهم. وأنا أعرف الآن ما كنت سأفعله لو كنت رجلًا وأردت أن أجعل فتاة تحبني. لا، لن أحكي لها الحكايا، لأن السيِّد مورِس يحكي لنا الحكايا، وأرثر لم يحكِ قط، ومع ذلك... يا عزيزتي، لقد استبقتُ الحديث قبل أوانه نوعًا ما. لقد وجدَني السيد كوينسي پ. مورِس وحيدة. يبدو أن الرجل دائمًا يجد المرأة وحيدة. لا، لم يحكِ أي حكايا، لأن أرثر حاول مرَّتين أن يحظى بالفرصة لفعل ذلك، وساعَدْتُه بكل ما استطعت، ولست خجلة من قولها الآن. وعليَّ أن أخبرك قبل ذلك بأن السيد مورِس لا يتحدَّث دائمًا كلمات عامية -أقصد القول، أنه لا يفعل ذلك قط مع الغرباء أو أمامهم، لأنه بحق رجلٌ متعلِّمٌ وذو أخلاق عالية- ولكن تبيَّن له بأنني سررتُ وأنا أسمعه يتحدَّث العاميَّة الأمريكية،

---

(١) الإشارة هنا إلى مسرحية وليم شكسبير (عطيل) إذا اعتاد عطيل، وكان أسودَ البشرة، سرد حكايا مغامراته على مسامع زوجته دزدمونا التي افتتنت بها.

وكلَّما رآني، ولم يكن هناك أي شخص قد تعتريه الصدمة، تلفَّظَ بعبارات مضحكة منها. أخشى ما أخشاه، يا عزيزتي، أنه يضطر لاختراعها كلها، لأنها تناسب بالضبط ما كان موشكًا على قوله. لكن العامية تتحلَّى بهذه السمة. ولا أعرف إذا ما كنت سأتكلم العامية، ولا أعرف إذا كان أرثر يحبها، لأني لم أسمعه قط يستخدم أي كلمات عامية حتى الآن. دعكِ من ذلك الآن، جلس السيِّد مورِس بجانبي وبدا في منتهى السعادة والفرح، ولكني استطعت أن ألاحظ كم هو متوتر بقدر ما يبديه من سعادة. بعد ذلك أمسك بيدي وقال بأسلوبٍ يفيض عذوبةً:

«آنسة لوسي، أعرف أني لست جيدًا بما يكفي لربط خيوط حذائك الصغير، ولكني أحسبُ أنه إذا انتظرتِ حتى تجدي رجلًا فإنك ستنضمين إلى النساء الشابات السَّبْع اللاتي حملن المصابيح وتنسين أمر العريس[1]. هلاَّ شمَّرتِ عن ساقيك بجانبي ولننطلق عبر الطريق الطويل معًا، ونركب في عربة الزواج؟».

لا بأس، بدا أنَّه مرح جدًا وذو حسٍّ فكاهي عالٍ حتى أن رفضه لم يكن بنصف صعوبة رفض د. سيوُرْد المسكين؛ لذا قلتُ بكل ما أوتيت من لطف، إني لا أعرف أي شيء عن تشمير الساقين، وإني لستُ مستقتلة على الزواج على الإطلاق حتى الآن. ثم قال لي إنَّه

---

(١) «حِينَئِذٍ يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ عَشْرَ عَذَارَى، أَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَخَرَجْنَ لِلِقَاءِ الْعَرِيسِ. وَكَانَ خَمْسٌ مِنْهُنَّ حَكِيمَاتٍ، وَخَمْسٌ جَاهِلاَتٍ. أَمَّا الْجَاهِلاَتُ فَأَخَذْنَ مَصَابِيحَهُنَّ وَلَمْ يَأْخُذْنَ مَعَهُنَّ زَيْتًا. وَأَمَّا الْحَكِيمَاتُ فَأَخَذْنَ زَيْتًا فِي آنِيَتِهِنَّ مَعَ مَصَابِيحِهِنَّ. وَفِيمَا أَبْطَأَ الْعَرِيسُ نَعَسْنَ جَمِيعُهُنَّ وَنِمْنَ». (إنجيل متَّى ٢٥: ١ – ٥).

تحدَّث بأسلوب مَرِح، وإنه يأمل أنْ أغفر له إذا ما ارتكب خطأ في فعل ذلك في مثل هذا الموقف الجاد الذي يحدِّد مصيره. وقد بدا في قمة الجدية وهو يقول ذلك، ولم يكن مني إلَّا وشعرتُ بقليلٍ من الجدية أيضًا -وأعرف، يا مينا، بأنك ستخالينني شنيعةً في الغَزَل -رغم أني لم أستطع مقاومة الشعور بنوعٍ من الغبطة لأنَّه الخاطب الثاني الذي يطرق بابي في يوم واحد. ومن ثمَّ يا عزيزتي، وقبل أن أنطق بكلمة انهمر من لسانه سيل من الغَزَل، واضعًا قلبه وروحه تحت قدميَّ. بدا في غاية الحماسة وهو منهمك في سكب كلمات الغزل حتى قلتُ لنفسي بأنه لا ينبغي لي أن أظنَّ أبدًا مرة أخرى بأنه لزامٌ على الرجل أن يكونَ لعوبًا دائمًا ولا تعوزه الحماسة قط، لأن المرح يعتريه أحيانًا. وأحسبُه رأى شيئًا ما في وجهي كبح جماح حديثه، لأنه توقف عن الكلام بغتة، وقال بنوعٍ من الحماسة المتأججة التي كنت سأحبُّه بسببها لو لم أكن مرتبطة:

«لوسي، أعرف أنَّك فتاة طيبة السريرة. ولا ينبغي لي أن أكون في مقامي هذا متحدِّثًا إليك لو لم أجدك ذات عزم وصفاء، وأصيلة حتى أعماق روحك. قولي لي، كما يبوح صديقٌ مخلص لصاحبه، أيوجد رجل آخر في حياتك؟ وإن كان الجواب نعم فلن أزعجك مرة أخرى مقدار ذرَّة، ولكنني سأكون لك، إذا سمحت بذلك، نعمَ الصديق الوفي».

يا عزيزتي مينا، لماذا يكون الرِّجال في قمة النبل عندما نكون نحن، معشر النساء، في مرتبةٍ أدنى من أن نستحقهم؟ في هذه اللحظة كنت أكتب شبه ساخرة من هذا الرجل الحقيقي الطيِّب القلب جدًا.

انفجرتُ باكية -وأخشى، يا صديقتي، بأنك ستحسبين أن رسالتي هذه نالتها القذارة الكبيرة بأكثر من طريقة -وانتابني بحق شعورٌ سيءٌ جدًا. لماذا لا يسمحون للفتاة بالزواج بثلاثة رجال، أو بأيٍّ عدد من الرجال الراغبين فيها وتجنُّب كل هذا العَنَاء؟ لكن هذه هرطقة، ولا ينبغي لي قول ذلك. وتتملكني السعادة لأن أقول لك، رغم بكائي، إلا أنِّي كنت قادرة على النظر إلى عيني السيد مورِس الشجاعتين، وقلت له بصريح العبارة:

«بلى، هناك رجل أحبُّه، رغم أنه لم يقل لي حتى الآن إنَّه يحبني». كنتُ محقة إذ تحدَّثت معه في منتهى الصدق، فقد اجتاح وجهه بريقٌ وضَّاء، ومدَّ كلتا يديه وأمسك بيديَّ -وأظنني أنا من وضعتُ يديَّ في يديه- وقال بطريقة حميمية:

«تلك هي فتاتي الشجاعة. من الأفضل أن يتأخر المرء على فرصة الظفر بكِ بدل أن يظفر في الوقت المناسب بأي فتاة أخرى في العالم. لاتبكي يا عزيزتي. فمن ناحيتي، أنا رجلٌ صعب المراس عصيٌّ على الكسر؛ وأواجه البلايا شامخ الرأس. إذا لم يعرف ذلك الرجل الآخر موضع سعادته، فلا بأس، الأفضل له أن يبحث عنها قريبًا، وإلَّا فإنه سيضطر للتعامل معي. يا صغيرتي، إن صدقك وجرأتكِ قد جعلتاني لكِ صديقًا، والصديق أندَرُ من العاشق، وهو أقل أنانية على أي حال. يا عزيزتي، سأقضي رحلتي وحيدًا نوعًا ما في هذه الحياة الدنيا وحتى انتقالي إلى العالم الآخر. ألن تتفضَّلي عليَّ بقبلة واحدة؟ ستكون شيئًا يقيني الظلمة بين الفينة والأخرى. تستطيعين أن تقبِّليني، كما تعلمين، إذا شئتِ، لأن ذلك الرجل

الطيِّب الآخر -فلا بد أنه رجل طيب يا عزيزتي، ورجل ظريف، وإلَّا ما أحببتيه -لم يبح لكِ بحبه بعد». مقولته تلك سلبتني عقلي يا مينا، لأن ذلك موقفٌ شجاعٌ ولطيفٌ، ونبيلٌ أيضًا، من غريم من تحبين -أليس كذلك؟- كان حزينًا جدًا، لذا انحنيت فوقه وقبَّلتُه. ثم وقَفَ ويداي في يديه، وبينما نظر إلى وجهي -أخشى أنَّ الخجل نال مني مبلغًا عظيما- قال لي:

«أيتها الفتاة الصغيرة، ها أنا أمسك يدك، وأنتِ قبَّلتِني، وإذا لم يكن لهذين الحدثين أن يجعلا منَّا أصدقاء فلا يمكن لما عداهما أن يفعل ذلك. شكرًا لكِ على صدقك اللطيف معي، وإلى اللقاء».

ضغط على يدي، وأخذ قبعته، وخرج مباشرة من الغرفة دونما نظرة وراءه، دونما دمعة أو ارتعاشة أو توقف، وأنا أبكي مثل طفلة. أوه، لماذا ينبغي لرجل مثله أن يكون تعيسًا بينما يوجد العديد من الفتيات اللاتي سيعبدن الأرضَ التي يطؤها بقدميه بكل معنى الكلمة؟ أعرف أنني كنت سأحذو حذوهن لو لم يسكن قلبي حبُّ رجل آخر، فكل ما في الأمر أنَّي راغبةٌ في الارتباط برجل. يا عزيزتي، إن هذا الأمر يقض مضجعي، وأشعر أني لا أستطيع أن أكتب عن السعادة ولو مرَّة واحدة فقط بعد أنْ أخبرتك بالأمر، ولا رغبة لي بالحديث عن الخاطب الثالث حتى تكتمل السعادة.

صديقتك المحبَّة إلى الأبد

لوسي

ملحوظة: أوه، فيما يخص الخاطب الثالث؛ فلا حاجة بي للحديث

لكِ عن الخاطب الثالث، أليس كذلك؟ بالإضافة إلى ذلك، كان الأمر كله مربكًا جدًا، وبدا الزمن مثل لحظة واحدة فقط منذ دخوله إلى الغرفة وحتى اللحظة التي باتت فيها ذراعاه تحيطان بي وصار يقبِّلُني. أنا سعيدة، جدًا، جدًا، ولا أعرف ما الذي فعلته لأحظى بهذه السعادة. عليَّ فقط أن أجرِّب في المستقبل أن أظهر بأنني ممتنة للربِّ على كل نعمائه المتمثلة في إرسال هذا العاشق لي، وهذا الزوج، وهذا الصديق.

إلى اللقاء

مذكَّرات د. سيوُرْد

(مسجَّلة على الفونوغراف)

٢٥ *مايو*- انخفاض في الشهيَّة اليوم. لا أستطيع الأكل، ولا الركون إلى الراحة، ولذا سألجأ عوضًا عن ذلك إلى تسجيل المذكرات. منذ الصدِّ الذي مُنِيْتُ به البارحة انتابني ضربٌ من المشاعر الجوفاء؛ لا شيء في العالم يبدو جديرًا بأن يقوم به المرء. ... ونظرًا لأني أعرف أن الشفاء الوحيد من هذا الضرب من المشاعر هو العمل، فقد مضيت أجول بين المرضى. انتقيتُ مريضًا شكَّلتْ لي حالته دراسة ذات فائدة عظيمة. كان غريبًا لدرجة جعلتني أصمم على فهم حالته بقدر ما أستطيع. يبدو أنني اقتربت اليوم أكثر من قبل من جوهر الغموض الذي يكتنفه.

طرحتُ عليه أسئلةً أكثر استفاضة مما فعلتُ قبلًا، فقد غلبتني

فكرة أنه عليَّ أن أعرف حقائق هذيانه. إنني أدرك الآن أنه كان في الأسلوبُ الذي اتبعته لفعل ذلك شيء من القسوة، وبدوت راغبًا بدفعه إلى ذروة جنونه، وهو شيء أتجنَّب فعله مع المرضى مثلما أتجنَّب الاقتراب من بوابَّة الجحيم.

(تذكير: ما الظروف التي لن أتجنب فيها بوابة الجحيم؟) (Omnia Romcs venalia sunt)[1]، فالجحيم له ثمنه! وإذا كان هناك أي شيء كامن وراء هذه الفطرة فمن المهم متابعته بعد ذلك *متابعة دقيقة*، ولذا يفضَّل لي أن أبدأ بالقيام بذلك، وبناءً عليه أوردُ ما يلي:

آر. إم. رينفيلد، العمر ٥٩ -لديه مزاج متفائل، وقوة بدنية هائلة، وهو انفعالي على نحوٍ كبيرٍ ويمرُّ بنوبات من الكآبة، ينتهي به الأمر مصرًا على فكرة لا تبارحه ولا أستطيع أن أفهم كنهها. أظن بأن المزاج المتفائل ذاته والتأثير المربِك سينتهي بهما الحال نهاية مبهرة عقليًا. قد يكون شخصًا خطرًا، أقول ربَّما، في حال تخلت عنه الأنانية. إذ يغدو الحذر عند الأنانيين درعًا آمنًا يقيهم شرور أعدائهم كما يقيهم شرور أنفسهم. ما أفكر فيه بخصوص هذه النقطة هو أنه، عندما تكون ذات المرء هي النقطة الثابتة فإن القوة الجاذبة تتوازن مع القوة النابذة. وعندما يكون الواجب، أو العلة، أو غيرهما، النقطةَ الثابتة، فإن الغلبة تكون من نصيب القوة النابذة، ولا يمكن سوى لحادثٍ أو سلسلة من الحوادث أن تحقق لها التوازن.

---

(١) «في روما كل شيء قابل للبيع». كتبَهَا باللاتينية.

رسالة من كوينسي پ. مورِسْ إلى المبجَّل أرثر هولمُود

٢٥ مايو

عزيزي أرثْ،

لقد حكينا الحكايا ونحن متحلِّقون حول موقد المخيَّم في البراري، وضمَّد أحدنا جراح الآخر بعد محاولة النزول في جزر الماركيساس، وتبادلنا شرب الأنخاب على شاطئ تيتكاكا. هناك مزيد من الحكايا لنحكيها، وجروح أخرى نضمِّدُها لتشفى، وأنخاب أخرى نشربها. ما رأيك أن نفعل ذلك ونحن متحلِّقُون حول الموقد الذي أقيمه في مخيمي ليلة الغد؟ لا يردعني أي تردُّدٍ عن دعوتك إلى الحضور، فأنا أعرف سيِّدة بعينها مدعوَّة إلى حفلة عشاء، وأعرف أنك غير مرتبط. سيكون هناك شخص واحد آخر فقط، وأعني به صديقنا القديم منذ أيام كوريا، جاك سيوُرْد. فهو قادم أيضًا، ويريد كلانا أن نتشارك أحزاننا ونحن نحتسي كوؤس الخمر، وأن نشرب نخبًا من صميم قلوبنا تحيَّةً إلى أسعد إنسانٍ على وجه هذه المعمورة الشاسعة، الإنسان الذي ظفر بأنبل قلب خلقه الله وكسب أهنأ غنيمة. نعدك بأن نستقبلك استقبالًا حميًا، وأن نرحِّب بك ترحيبًا مفعمًا بالحب، وأن نشرب نخبًا نقيًا كنقاءِ يُمْناك. ونقسم كلانا بأن نتركك في البيت إذا ما أسرفت في الشرب في عهدة شخص آخر يتعهدك بالرعاية. هلمَّ تعال!

صديقك الدائم

كوينسي پ. مورِسْ

برقية من أرثر هولمُود إلى كوينسي پ. مورِسْ

٢٦ مايو

عُدَّني ممن يقبلون دعوتَك في كل وقت وحين. في جعبتي رسائل ستجعل أذناك ترتعشان.

أرث.

الفصل السادس

يوميّات مينا موراي

٢٤ *يوليو. وِتْبي*- استقبَلَتْنِي لوسي في المحطة وقد بدت أحلى وأبهى من قبل، ثم انطَلَقْنَا في العربة صوب المنزل الواقع في حي كريسنت حيث تتوفر الغُرَف. وِتْبِي هذه مكانٌ رائع. فنهر إِسْك الصغير يجري عبر وادٍ عميق، حتى يأخذ في الاتساع عند اقترابه من الميناء. وفوق النهر جسرٌ عظيم، له ركائزُ عالية، يبدو المنظرُ من خلاله أبعد مما هو عليه فعليًا نوعًا ما. الوادي أخضرٌ خلاب، ينحدر بشدَّة حتى إنَّكَ عندما تكون على الأرض المرتفعة في أي من جهتيه فإنك تنظر عبره مباشرة، ما لم تكن قريبًا بما يكفي لترى ما في الأسفل. منازلُ البلدة العتيقة -على الجانب البعيد عنَّا- كلها ذاتُ سطوحٍ حمراء، وتبدو متكدِّسةً بعضُها فوق بعض بطريقة ما، مثل الصوَرِ التي نراها لنورمبرغ. وفي أعالي البلدة تمامًا تقع خرائب دَّير وِتْبِي، الذي نهبَه الدِّنْماركيُّون، ودارَ بين أروقته جزء من قصة «مارميون»[1]، حيث طمرت الفتاة حيَّة داخل جداره. والدَّير فخمٌ

---

(١) قصيدة ملحميَّة نشرت عام ١٨٠٨ من تأليف الشاعر والمسرحي وكاتب الروايات التاريخية السكوتلاندي والتر سكوت ويحكي فيها عن معركة فلودِن.

جدًا، ذو حجم هائل، تكتنفه شذرات جميلة ورومانسية؛ وثمَّة أسطورة عن سيِّدة بيضاء[1] شوهدت في إحدى النوافذ. بين الدَّير والبلدة كنيسةُ أخرى، كنيسة الأبرشية، تحيط بها مقبرةٌ كبيرة، مليئة عن بكرة أبيها بشواهد القبور. والمقبرة في رأيي، أجمل مكانٍ في وِتْبِي، لأنَّها تقع مباشرة في أعالي البلدة، ولها إطلالة كاملة على الميناء وعلى الخليج كلِّه وصولًا إلى الموضع الذي يمتد فيه الرأس المسمَّى كِيْتِلْنِسْ داخل البحر. وهي تنحدر بشدة فوق الميناء حتى أن جزءًا من الضفة التي تتكئ عليها قد انهار، ولحق الدَّمار بعض القبور. امتد جزءٌ من حجارة القبور في موضع واحدٍ فوق الممرِّ الرملي الواقع على مَبْعَدَةٍ في الأسفل. كما تنتشر عبر ساحة الكنيسة ممرات للمشي، ذات مقاعد على جانبها، حيث يذهب الناس ويجلسون هناك طوال النهار وهم يشاهدون المنظر الجميل ويستمتعون بالنسيم العليل. يجب أن آتي إلى هنا كثيرًا لأجلس وأكتب. وبالفعل، إنني أكتبُ الآن بالفعل ودفتر يوميَّاتِي على رُكْبَتِي، مصغية إلى حديث ثلاثة مسنين جالسين قربي. يبدو أنهم لا يفعلون شيئًا طوال اليوم سوى الجلوس هنا والحديث.

يقعُ الميناء أسفل الموضع الذي أقف فيه، ويوجد في طرفه البعيد جدارٌ غرانيتي طويل يمتد داخل البحر، وله انحناءٌ باتجاه الخارج عند نهايته، وفي منتصف الانحناء منارةٌ. يمتد خارجها

---

(١) الحديث هنا عن طيف القدِّيسة هيلدا، ابنة مؤسس الدَّير. فوفق تلك الأسطورة، تظهر القدِّيسة هيلدا في الليالي العاصفة في النوافذ الشمالية من الدَّير ومعها مصباح تنير به طريق البحَّارة التائهين حتى يصلوا إلى برِّ الأمان على الشاطئ.

كاسرُ أمواج بحريٍ قوي. وفي الطرف القريب، يتَّخِذُ الكاسر شكلَ مرفقٍ معقوفٍ على نحوٍ معكوس، ويوجد في نهايته منارةٌ أيضًا. وبين الركيزتين فتحةٌ ضيقةٌ تفضي إلى الميناء حيث تتَّسِعَ فجأة.

الفتحة بديعة عند ارتفاع أمواج المد، ولكنها تصير عند انحساره ضحلةً إلى أنْ تختفي منها المياه ولا يبقى سوى جدول مياه نهر إِسْك، جاريًا بين الضفتين الرمليتين اللتين تتناثر عليهما الصخور هنا وهناك. خارج الميناء في هذه الجهة يرتفع حيِّدٌ عظيم لمسافةٍ تقارب نصف ميل، تنساب حافته الحادة بشكل مستقيم من وراء المنارة الجنوبية. وفي نهايته عوَّامةٌ ذات جرس، تتأرجَح في الطقس السيء، وتطلقُ صوتًا ناحبًا مع الريح. يتداول القومُ هنا أسطورةً تقول إنَّه عندما تضلُّ سفينةٌ طريقَها فإن رنين الأجراس يُسْمَعُ في البحر. عليَّ أن أسأل العجوزَ عن هذا؛ إنه قادمٌ من هذا الطريق...

يا له من عجوز مضحك! ولا بدَّ أنه طاعنٌ في السن، إذ ملأت التجاعيد والانثناءات وجهه مثل لحاء شجرة. أخبرني أنَّ عمره شارَف على المئة، وأنَّه كان بحَّارًا في أسطول صيد غرينلاند إبَّان اندلاع معركة واترلو. أخشى أنَّه شخص مرتاب جدًا، لأني عندما سألته عن الأجراس في البحر وعن السيِّدة البيضاء في الدير قال بفظاظة شديدة:

«ما كنْتُ لأزعج نفسي بهذه القصص يا آنسة. فتلك أشياءٌ عفا عليها الزمن كلها. تذكَّري كلماتي، فأنا لم أقل إنها لم تحدث قط، ولكني أقول إنَّها لم تحدث في زماني. قد تكون قصصًا ممتعة جدًا

للزائرين والرحَّالة، ومَنْ على شاكلتهم، ولكن ليس لسيِّدة شابة لطيفةٍ مثلك. أما السيَّاح القادمون من يورك وليدز، الذين دائما ما يأكلون أسماك الرنجة المحفوظة في الملح ويشربون الشاي ويبحثون عن شراء قارٍ رخيص فإنهم سيصدِّقون أي شيء. وأنا أستغرب من امرئٍ يكلِّف نفسه عناء سرد الأكاذيب عليهم؛ فالصحف مليئة بالكلام الفارغ». حسبتُ أنه سيكون شخصًا مناسبًا ليتعلَّم منه المرء أشياء رائعة، ولذا سألته إذا لم يكن يمانع في أن يحكي لي شيئًا عن صيد الحيتان في الأيام الخوالي. وما إنْ بدأ يهيئ نفسه ليهم بالحديث إلَّا ودقَّت الساعة مشيرةً إلى السادسة، ونتيجةً لذلك بذل جهدًا لكي ينهض وقال:

«عليَّ العودة إلى المنزل الآن يا آنسة. حفيدتي لا تحبِّذُ أن تنتظر عندما يكون الشاي جاهزًا، لأني أحتاج وقتًا وأنا أعرُجُ بين القبور لكثرة عددها، كما أنَّ الساعة يا آنسة، تذكِّرني بأنني جائع جدًا».

ابتعدَ وهو يعرُج، ورأيتُه يحثُّ الخطى قدر ما استطاع نازلًا الدَّرجات. هذه الدَّرجات من العلامات الجميلة في وِتْبِي. فهي تفضي من البلدة إلى الكنيسة، وهناك المئات منها -ولا أعرف كم عددها- ومن ثمَّ تلتوي بصورةٍ انحناءٍ رفيع، ويغدو انحدارُها خفيفًا جدًا لدرجةٍ يمكن فيها لحصانٍ أن يصعدها وينزلها بسهولة. أظن أنها لا بدَّ كانت درجاتٍ مخصَّصَة أساسًا لخدمة الدَّير. عليَّ العودة إلى البيت أنا أيضًا. فقد خَرَجَت لوسي في زيارةٍ مع أمها، ونظرًا لأنهما ذاهبتان فقط كتأدية واجب، فلم أذهب معهما. ستكونان قد وصلتا البيت في هذا الوقت.

١ أغسطس- صعدتُ إلى هنا منذ ساعة مع لوسي، وخضنا حديثًا ماتعًا جدًا مع صديقي القديم والشخصين الآخرين اللذين يأتيان عادةً ويجالسانه. مما لا شك فيه أنه يحسب نفسه منبع الوحي الإلهي، وأحسبه لا شك كان في زمانه أكثر الناس ديكتاتورية. فهو لم يكن ليقبل برأي أحد، وما انفكَّ يناكفُ الجميع. فإذا لم يستطع مقارعتهم الحجة بالحجة، تنمر عليهم، ومن ثمَّ يعدُّ صمْتَهُم موافقةً له على آرائه. كانت لوسي تبدو جميلة في فستانها القطني الأبيض الرقيق، وقد اكتسبت لونَ بشرة جميل مذ جاءت إلى هنا. لاحَظْتُ بأن المسنين الثلاثة لم يضيعوا أي لحظة في الصعود إلى هنا والجلوس قربها عندما كنا جالستين. فهي لطيفة جدًا مع كبار السن، وأحسبهم جميعًا وقعوا في غرامها. بل حتى صديقي العجوز رضَخَ لها ولم يخالفها، ولكنه انهال عليَّ بمقدار مضاعف من العناد ومخالفة الرأي بدلًا من ذلك. فما إنْ فاتحتُه في موضوع الأساطير إلَّا وباشر الحديث من فوره وكأنه يلقي موعظة. عليَّ أن أحاول أن أتذكر ما قاله وأكتبه:

«ما تلك الأساطير سوى حكاية حمقاء من أولها إلى آخرها، فهي ليست سوى حديثٍ عن قفل، وماشية، وبرميل وليست سوى ذلك. هذه اللعنات والأشباح والأطياف والأرواح والكلاب المتوحشة والأرواح الشريرة وكل ما شابهها تنفع فقط للتسبب في عويل الأطفال والنساء الدائخات. فما هي إلا فقاعاتٍ هوائية! حالها حال الأشباح وعلامات الشؤم والتطير، اخترعها القساوسةُ والمتحذلقون عديمو الأدب وسماسرة محطات القطارات لإخافة

الصبيان الصغار وإثارة اشمئزازهم، ولكي يجبروا الناس على فعل أشياءَ لا يريدون فعلها. إنَّ مجرد التفكير فيها يغضبني. عَجَبًا! فهؤلاء الذين يسوؤهم نشر الأكاذيب في الصحف أو وعظها على رؤوس المنابر، هم نفسهم يحفرونها على شواهد القبور. انظري هنا حواليكِ في أي اتجاه تشائين؛ كل تلك الشواهد رافعة رؤوسها بفخر، مائلة نحو الأسفل، ترزح تحت ثقل الأكاذيب المكتوبة عليها: «هنا يرقد الجثمان» أو «فلتتقدَّس ذكراه»، ومع ذلك فإن ما يقارب نصفها فارغ من أي جثةٍ على الإطلاق. وما من أحدٍ يكترث بذكراهم مقدار اكتراثه بسَحْبَةِ تبغٍ من غليون، فما بالكِ بأن يقدِّسوا ذكراها. ما تلك إلَّا أكاذيب! أكاذيب من هنا ومن هناك! يا إلهي! ولكن سيقع هرجٌ ومرجٌ غريبٌ يوم القيامة عندما يُبْعَثُونَ من قبورهم وهم يتعثَّرُون هنا في أكفانهم ويحاولون أن يسحبوا شواهد قبورهم معهم لتكون شاهدًا وقرينةً على مدى طيبَتِهم، بعضهم يرتجف ويرتعش، وأيديهم ضامرة جدًا وزَلِقَة من جرَّاء رقودِهم في مياه البحر لدرجة أنهم غير قادرين على إحكام قبضاتهم على الشواهد».

استنتجتُ من تعابير العجوز المعتد بنفسه والطريقة التي نظر بها حواليه ليحظى بموافقة نديميه بأنه كان «يتباهى»، ولذا أضفْتُ إلى ما قالَه لأحثَّه على متابعة حديثه:

«أوه، يا سيِّد سويلز، لا يمكن أن تكون جادًا فيما تقول. فبالتأكيد لا يمكن أن يكون كل ما كتب على شواهد هذه القبور خاطئًا؟».

«هراء! ربما يكون هناك القليل مما كتب على قبور هؤلاء الفقراء

صحيحًا، أما تلك الكتابات التي تمجِّد الناس وتضعهم في مكانة أعلى مما كانوا عليها فكلها أكاذيب، فقد تبلغ الحماقة بأحدهم أن يحسب الصحن كالبحر، فقط إذا كان الصحن صحنه. والآن انظري إلى هنا، فأنتِ غريبة عن هذه الديار، أترين ساحة الكنيسة هذه؟». أومأتُ برأسي بالإيجاب، فقد حسبت أنه من الأفضل أن أوافقه الرأي، رغم أني لم أفهم تمامًا لهْجَتَهُ لكني أعلم أنه قال شيئًا له علاقة بالكنيسة. ثم مضى يقول: «أنتِ تظنين بأن كل هذه الشواهد تخصُّ الناس الذين دفنوا دفنًا وثيرًا مرتبًا تحتَها؟» وافقتُه فيما قاله مرة أخرى، ثم أضاف: «وهنا إذن تكمن الكذبة بالذات. عجبًا! فهناك العشرات من هذه القبور الخاوية مثل علبة تبغٍ من ماركة دَنْ العجوز في ليلة جمعة». وهنا لَكَزَ واحدًا من صاحبيه، وضحكوا ثلاثتُهم. ثمَّ أضاف: «يا إلهي! وكيف يمكن ألا تكون سوى ذلك؟ انظري إلى ذلك القبر؛ أبعد قبر بعد الحافة، واقرأي ما كُتِبَ على شاهدته!» مضيتُ إلى هناك وقرأتُ:

«إدوارد سبينسلاه، قبطان السفينة، قتَله القراصنة قبالة ساحل أندريه، في إبريل عام ١٨٥٤، وعمره ٣٠». وعندما عدت إلى مكاني تابع السيِّد سويلز حديثه قائلًا:

«أستغربُ مَن الذي عاد بجثمانه إلى إنجلترا ليدفنه هنا؟ قُتِلَ قبالة ساحل أندريه! وأنتِ تحسبين أن جثمانه يرقد تحت هذه الشاهدة! عجبًا، يمكنني أن أسمِّي لك العشرات من أولئك الذين ترقد عظامهم هناك في بحار غرينلاند» -وأشار صوب الشمال- «أو إلى المكان الذي ربما جرفتهم إليه التيارات. هي ذي الشواهد

حولك. ويمكنك، بعينيك الفتيتين، أن تقرأَي ما كتب عليها من أكاذيب بخط صغير وأنتِ جالسة هنا. فهذا المسمَّى بريثويت لوري، وأنا أعرف أباه، وقد فُقِدَ أثره في غرق سفينة ليڤلي قبالة غرينلاند في العشرينيات من عمره، أو أندرو وُدْهاوس، الذي غرق في البحر نفسه سنة ١٧٧٧، أو جون پاكستُن، الذي غرق قبالة رأس فِيْرْوِل في السنة التي تلتها، أو جون رولنغز العزيز، الذي أبحر جدُّه معي، وقد غرق في خليج فنلندا في الخمسينيات من عمره. أوتظنين أنَّ كل هؤلاء الرجال مضطرون لأن يسارعوا إلى وِتْبِي عندما يقبض ملك الموت أرواحهم؟ تساورني شكوكي إزاء ذلك! وأقول لكِ إنهم عندما وصلوا إلى هنا حصل ضرب وتدافعٌ حتى بدا الأمر مثل قتال على الجليد كما كان يفعل القوم في الأيام الخوالي، عندما كان لزامًا علينا أن نكون معًا من طلوع النهار وحتى حلول العتمة، وأن نحاول أن نجعل جروحنا تلتئم في ضوء الشفق القطبي الشمالي». من الواضح أنَّ هذه نكتة بلدية، لأنَّ العجوز قهْقَهَ ضاحكًا عليها، وشاركه صاحباه بحماسة شديدة.

قلتُ: «ولكنك بالتأكيد لستَ مصيبًا تمامًا، لأنَّك بدأت بافتراض مفاده أن كل الفقراء، أو أرواحهم، مضطرون لأخذ شواهدِ قبورهم معهم يوم القيامة. أتظن أن ذلك سيكون ضروريًا حقًا؟».

«طيِّب، ولأي غرض غير هذا توضع الشواهد على القبور؟ أجيبي على سؤالي هذا يا آنسة!».

«أظنها توضع لإدخال السرور على قلوب أقاربهم».

«توضع لإدخال السرور على قلوب أقاربهم، وتظنين!» قال جملته بازدراء عظيم، ثم أضاف: «كيف سيدْخُلُ السرور على قلوب أقاربهم وهم يعرفون تلك الأكاذيب المكتوبة عليها، وبأن كل إنسان في البلدة يعرف بأنها أكاذيب؟». أشار إلى شاهدة قبر قرب أقدامنا وقد سندت بصورة لوحٍ حجري، حيث انتصب فوقها المقعد الذي نجلس عليه، قريبًا من حافة الجرف. ثم قال: «اقرأي الأكاذيب المكتوبة على شاهدة القبر تلك». ظهرت حروف الكتابة مقلوبة رأسًا على عقب من الموضع الذي كنتُ أجلس فيه، ولكن لوسي كانت في موضعٍ مواجهٍ لها، ولذا فقد انحنَت وقرأت:

«فلتتقدَّس ذكرى جورج كانُنْ، الذي مات وهو يأمل أن ينال الخلاص المجيد، في ٢٩ يوليو سنة ١٨٧٣، بعد أن سقط عن الصخور في كِيْتِلْنِس. وقد نصبت أمه المفجوعة هذا القبر لابنها الحبيب الغالي. *كان وحيد أمه، التي كانت أرملة*. حقًا، يا سيِّد سويلز، لا أرى ما يدعو للضحك الشديد في ذلك!». أدلت بتعليقها بجدية بالغة ونبرة حادة نوعًا ما.

«لا ترين أي شيء مضحك في ذلك! ها! ها! ولكن سبب ذلك أنكِ لا تعرفين أن الأم المفجوعة كانت امرأة حقود وكانت تكن له الكره لأنه كان كسيحًا -فقد كان مصابًا بعَرَجٍ دائمٍ- وكان يكرهها، ولذلك أقدم على الانتحار حتى لا تحصل على مبلغ التأمين الذي كانت قد أمَّنَت به على حياته. أطْلَقَ على موضعٍ قريبٍ من قمة رأسه طلقةً من بندقية قديمة كانوا يستخدمونها لإخافة الغربان. لم تكن البندقية لإخافة الغربان عندئذٍ، لأنها جلبت إليه الغربان

والذباب. تلك هي الطريقة التي سقط بها عن الصخور. أما فيما يخص الآمال بنيل الخلاص المجيد، فغالبًا ما سمعته بنفسي وهو يقول إنَّه يتمنَّى الذهاب إلى النار، لأن أمه كانت تقيَّة جدًا حيث من الأكيد أنها ستذهب إلى الجنة، ولم يكن يريد أن يؤرِّقَ باله في مكانٍ تكون هي فيه. ثم قال وهو يطرق بعصاه على شاهدة قبر: «والآن أليست شاهدة القبر تلك على أي حال مجموعة من الأكاذيب؟ ولن تجعل غابرييل يقهقه ضاحكًا عندما يعود جيوردي لاهثًا فوق العشب حاملًا تلك الشاهدة وقد وازنها على حدبته، ويطلب أن تؤخذ كقرينةٍ على صلاحه!».

لم أعرف ماذا أقول، ولكن لوسي غيَّرت مجرى الحديث وقالت وهي تنهض:

«أوه، ولماذا أخبَرْتَنَا بذلك؟ فهذا مقعدي المفضل ولا أستطيع تركه. والآن أكتشف أنه عليَّ الاستمرار في الجلوس على قبر شخص منتحر».

«ما في ذلك ضرر لكِ يا جميلتي، وربما لذلك أن يجعل جيوردي المسكين مسرورًا بأن تجلس في حضنه صبية ممشوقة القدِّ كثيرًا. ما في ذلك ضرر لكِ. عجبًا! فما فتأت آتي وأروح لأجلس هنا لحوالي عشرين سنة خلت، ولم يتسبب لي ذلك في أي ضرر. ولا تكترثي بخصوص الأكاذيب التي تحت قدميك، فما من أحدٍ راقدٍ في القبر أيضًا! سيأتي الوقت ليملأك الفزع عندما ترين الموتى وقد هرعوا راكضين كل يحمِلُ شاهدة قبره، وسترَيْنَ المكانَ خاويًا

مثل حقلٍ لم يبقَ فيه سوى الجُذَامَة. هي ذي الساعة تدق، وعليَّ الذهاب. وأنا في خدمتكما يا سيدتيَّ!». مضى في سبيله وهو يعرج بين القبور.

جلستُ ولوسي برهةً، وكان المنظر بأكمله جميلًا جدًا أمامنا حتى أنَّ إحدانا أمسكت بيدي الأخرى ونحن جالستان، وحكَتْ لوسي لي كل شيء مرة أخرى عن أرثر وزواجهما الوشيك. جعلني ذلك منفطرة القلب قليلًا وحسب، لأني لم أتلقَّ أخبارًا من جوناثان مدة شهر كامل.

في اليوم ذاته. صعدتُ هنا وحدي، لأني حزينة جدًا. لم تصلني أي رسالة. وآمل ألا يكون قد حصل أي مكروهٍ لجوناثان. دقَّت الساعة للتو معلنة التاسعة. ها أنا أرى الأضواء متناثرة في كل أرجاء البلدة، أحيانًا بشكل صفوف حيث تمتد الشوارع، وأحيانًا بصورة أضواءٍ مفردة تسير في محاذاة نهر إِسْك لتتوارى مع انعطافة الوادي. قطع المنظرَ إلى يساري خطٌّ أسود من سطح المنزل العتيق المجاور للدَّير. الأغنام والخرافُ تثغو في الحقول البعيدة الواقعة خلفي، وهناك قرقعة حوافر حمار تطرق فوق الطريق المرصوف في الأسفل. الفرقة تعزف على الرصيف البحري موسيقى ڤالس بأنغامٍ جشة في موائَمَةٍ جيدة، وعلى مبعدة فوق رصيف الميناء اجتماعٌ تعقده جماعة جيش الخلاص في أحد الشوارع الخلفية. لم تكن أيٌّ من الجماعتين تسمع الأخرى، ولكنني هنا في الأعلى أسمعهما وأراهما معًا. أتساءل أين يكون جوناثان يا ترى، وهل يفكر بي! يا ليته كان هنا!

٥ *يونيو*- تزداد حالة رينفيلد إثارةً كلما ازداد اقترابي من فهم الرجل. فهو يتمتع بمزايا محدَّدَة تطوَّرت تطورًا هائلًا جدًا؛ الأنانية، والتكتم، وامتلاك الغاية. ويا ليتني أفهم ما هدف الميزة الأخيرة. إذ يبدو أن لديه خطة ثابتة يسير عليها، ولكني لا أعلم ما هي. ميزته التي تشفع له هي حبه للحيوانات، رغم أنه بالفعل يمر بانعطافات غريبة حتى إني أحسبه أحيانًا قاسيًا على نحو غير اعتيادي لا أكثر. حيواناته الأليفة تنتمي إلى أنواع غريبة. هوايته في الوقت الحالي هي صيد الذباب. ولديه الآن كمية منه حتى إني وجدت نفسي مضطرًا لمعاتبته على ذلك. ما أثار دهشتي أنه لم ينفجر غاضبًا كما توقَّعْت، بل أخذ المسألة في جدية بسيطة. فكَّر لحظةً، ثم قال: «هلَّا أمْهَلْتَنِي ثلاثة أيام؟ سأتخلَّص منها». بالطبع، قلتُ له إنها مدة كافية. يجب عليَّ أن أراقبه.

١٨ *يونيو*- حوَّل اهتمامه الآن إلى صيد العناكب، وجَمَعَ عدة عناكب كبيرة جدًا في علبة. وهو لا يتوقف عن إطعامها ذباباته التي جمعها، وقد تضاءل عددها بصورة محسوسة، رغم أنه يستخدم نصف طعامه لجذب المزيد من الذباب من الخارج إلى غرفته.

١ *يوليو*- أصبحت عناكبه الآن مصدر إزعاج كبير مثل ذباباته، وقلتُ له اليوم إنَّ عليه أن يتخلَّص منها. بدا حزينًا جدًا بسبب هذا الطلب، ولذا قلتُ له إنَّ عليه التخلُّص من بعضها مهما يكن الأمر. استسلم مبتهجًا إذ منحته الوقتَ ذاته الذي أعطيته

إياه من قبل لكي يتخلص من بعضها. وقد أثار اشمئزازي كثيرًا بينما كنت معه، لأنه حدث أنْ طنَّت ذبابةٌ زرقاء داخلة إلى الحجرة، متخمةً ببعض الطعام المتعفن، فاصطادها، وأمسكها لبضع دقائق بين سبابته وإبهامه ووجهه يتهلل فرحًا، وقبل أن أعرف ماذا كان ينوي أن يفعل بها، وضَعَهَا في فمه وأكَلَهَا. وبَّخْتُه على ذلك، ولكنه حاججني بهدوء أنها ذبابة ممتلئة وصحية جدًا، وأنها تعني الحياة، الحياة القوية، وهي تمنحه الحياة. أوحى لي ذلك بفكرة، أو لنقل تصورًا أوليًا لفكرة. عليَّ أن أراقب طريقته في التخلص من العناكب. لا شك أنه يعاني من مشكلة عميقة في عقله، لأنه يحتفظ بدفتر ملحوظات صغير دائمًا ما يخط فيه على عجل شيئًا ما. صفحات كاملة منه ممتلئة بكميات كبيرة من الأرقام، وهي عمومًا أرقام مفردة مضافة في مجموعات، ومن ثم تمَّت إضافة الناتج الإجمالي في مجموعات ثانية، وكأنه كان «يركِّز» على إجراء حسابٍ معين، كما يقول مدقِّقُو الحسابات.

٨ *يوليو*- هناك نمطٌ ممنهج في جنونه، وبدا التصور الأولي للفكرة ينمو في عقلي. ستكون فكرة مكتملة قريبًا، ومن ثم، أوه، سأصل إلى مرحلة اللاوعي! عليَّ أن أمنحه مساحة من الأمان عندما يكون واعيًا بأفعاله. ابتعدت عن صديقي المريض لبضعة أيام، حتى يتسنى لي أن ألاحظ حصول أي تغيُّر. بقيت الأمور على حالها ما خلا أنه تخلى عن بعض من حشراته الأليفة وحظي بصحبة حيوان جديد. فقد استطاع الحصول على عصفور، وقد روَّضَه سلفًا بصورة جزئية. وَسَائِلُه في الترويض بسيطة، لأن العناكب قد

تضاءل عددها سلفًا. أما ما تبقى منها فهي عناكب حسنة التغذية جدًا، إذ أنه ما يزال يصيد الذباب عن طريق إغرائه بطعامه.

١٩ *يوليو*- بات صاحبنا ينتقل من حيوان صغير إلى آخر أكبر منه. لديه الآن مستعمرة كاملة من العصافير، وذباباته وعناكبه لم يبق لها أثر تقريبًا. عندما دخلتُ ركَضَ صوبي وقال إنه يريد أن يطلب مني أن أسدي له معروفًا؛ معروفًا كبيرًا جدًا جدًا، وكان يتزلَّف إلي مثل كلب وهو يحدثني. سألته ما الأمر وقال، بنوع من النشوة في صوته وهيئته:

«أريد قطة، قطة صغيرة مرحة ناعمة لطيفة، أستطيع أن ألعب معها، وأربِّيْها، وأطْعِمَهَا -وأطْعِمَهَا- وأطْعِمَها!». كنت مستعدًا لهذا الطلب، إذ لاحظتُ كيف كبرت حيواناته الأليفة حجمًا وزادت حيَّوية، ولكني لم أكترث بأن عائلة عصافيره الجميلة المروضة ينبغي التخلص منها بالطريقة ذاتها التي تم التخلص فيها من الذباب والعناكب، ولذا قلتُ له إني سأنظر في الأمر، وسألته إذا ما أراد أن يقتني قطة بالغة بدلًا من قطة صغيرة. إلا أن حماسته خانته عندما أجاب:

«أوه، نعم، أحبِّذُ أن أربي قطة بالغة! فقد طلبتُ فقط الحصول على قطة صغيرة لئلا ترفض طلبي إذا ما أردت قطة بالغة. فلا أحد سيعارض أن أحصل على قطة صغيرة، أليس كذلك؟» هززت رأسي، وقلت له إنني أخشى في الوقت الحاضر أن ذلك لن يكون ممكنًا، ولكني سأنظر في الأمر. امتقع وجهُه، ورأيت نذير خطر في

ملامحه، إذ لاحت عليه فجأة نظرة جانبية شرسة توحي بالقتل. الرجل معتوهٌ ميَّال إلى القتل ومختل. ينبغي لي أن أختبره وهو يعيش توقَه الحالي لاقتناء قطة وأرى ما هي نتيجة ذلك، وعندها سأعرف المزيد من أسراره.

الساعة العاشرة ليلا- عُدْتُه مرَّة أخرى ووجدُته جالسًا في إحدى الزوايا يفكِّر واجمًا مهمومًا. حين دخلت ألقى بنفسه جاثيًا على ركبتيه أمامي وتوسل إليَّ أن أدعه يقتني قطة، وبأن خلاصَه يعتمد عليها. كنتُ حازمًا، وأخبرته بأنه لا يمكن له ذلك، فما كان منه إذ ذاك إلَّا ومضى دون أن ينطق بكلمة، وجلس وهو يقضم أظافره في الزاوية التي ألفيته فيها سابقًا. يجب أن أراه في الصباح باكرًا.

٢٠ *يوليو*- عُدْتُ رينفيلد في وقت مبكر جدًا، قبل أن يبدأ المساعد جولاته. وجدتُه واقفًا يدندن لحنًا وهو ينثر السكر الذي ادَّخره على النافذة، وكان واضحًا أنه بدأ صيد الذباب مرة أخرى، بدأ ذلك بفرح وكياسة. نظرتُ باحثًا عن عصافيره، وعندما لم أرَها، سألته أين هي. أجاب دون أن يلتفت، بأنها طارَت جميعها. كان هناك شيء من الريش في أرجاء الغرفة ونقطة دم على وسادته. لم أقل ولا كلمة، ولكني ذهبتُ وأبلغت الحارسَ أن يوافيني بالأخبار في حال حصول أي شيء غريب بخصوصه أثناء النهار.

الساعة الحادية عشر صباحًا- جاء المساعدُ للتو إليَّ ليبلغني بأن رينفيلد مريض جدًا وتقيَّأ مجموعة كاملة من الريش. وقال:

«أعتقد يا دكتور أنه أكَل عصافيره، وأنه أمسك بها وأكلها وهي نيئة وحسب!».

الساعة الحادية عشرة ليلا - أعطيتُ رينفيلد مُخَدِّرًا قويًا الليلة يكفي ليجعله ينام، وأخذت منه دفتر ملحوظاته حتى أطَّلِعَ عليه. الفكرة التي ظلت تحوم حول رأسي مؤخرًا قد اكتملت، وثَبُتَت النظرية. هذا المعتوه الميَّال إلى القتل ينتمي إلى صنفٍ غريب. وينبغي لي أن أخترع تصنيفًا جديدًا له، وأدعوه المعتوه آكل الحيوانات (آكل الحيوانات الحية)، فما يتمناه هو أن يأكل أكبر عدد يستطيعه من الحيوانات الحية، وبذل وسعه لكي يحقق ذلك بترتيب تصاعدي. فقد أطعم عدة ذبابات لعنكبوت واحد ومن ثمَّ عدة عناكب لعصفور واحد، ومن ثم أراد قطة بالغة لتأكل العديد من العصافير. ماذا ستكون خطواته التالية؟ سيكون من المفيد تقريبًا إتمام التجربة. ويمكن لها أن تتم فقط إذا كان هناك دافع كاف. استهزأ الناس بمسألة تشريح الحيوانات، ولكن انظروا مع ذلك إلى نتائجها اليوم! لم لا يتقدَّم العلم في أصعب مجالٍ من مجالاته وأكثرها حيوية، وأعني به علم الدماغ؟ أحصَّلتُ حتى على سرِّ عقل مثل عقل هذا المجنون -وهل معي المفتاح الذي يفتح مزاج حتى مجنونٍ واحدٍ- ربما عليَّ أن أحرز تقدمًا في الفرع الذي أنا متخصِّصٌ فيه من فروع العلم إلى درجةٍ تفوق بكثير ما أنجزه بوردون-ساندرسُن[1]

(١) السِّيرْ جون بوردون-ساندرسُن (١٨٢٨ - ١٩٠٥): عالم فيزيولوجيا إنجليزي. وهو أول من قاس، مع جي. آر. پيج، النبضات الكهربائية الصادرة عن القلب.

في الفيزيولوجيا أو فيريير[1] في علم الدماغ، وسيغدو ما فعله هؤلاء لا يقارن بها سأكتشفه. لو أنَّ هناك فقط دافعًا كافيًا! عليَّ ألَّا أمعن التفكير كثيرًا في الأمر، وإلَّا فإني سأشعر بإغواءٍ شديد، بإمكان دافع مقنع أن يقلب الموازين معي، فلم لا أكون صاحب دماغ استثنائي منذ الولادة؟

يا لقدرة الإنسان على التفكير، فالمجانين دائمًا يفكِّرون ضمن نطاقهم الخاص. أتساءل كم حياة تعادل قيمة إنسانٍ بالنسبة له، أم أنها واحدة فقط. لقد أنهى الحساب بدقة عالية، وبدأ اليوم بسجلٍّ جديد. كم منا يبدؤون سجلًا جديدًا في كل يوم من حياتنا؟

يبدو لي أن البارحة فقط قد انتهت حياتي بنهاية أمل جديد، وأنني بالفعل قد بدأت حسابًا جديدًا فيها. إذًا ليكن الأمر كذلك حتى يختتم المسجِّل الأعظم حياتي ويغلق دفتر حساباتي بموازنة الربح والخسارة. أوه لوسي لوسي، لا يمكنني أن أغضب منك، ولا يمكنني أن أغضب من صديقي الذي سعادته سعادتكِ، ولكن عليَّ أن أنتظر بلا أمل وأكتفي بالعمل. أعمل! وأعمل!

ليتني أقع على دافع قوي كالذي لدى صديقي المجنون المسكين القابع هناك -دافع غير أناني ومنطقي يجعلني أعمل- فذلك سيكون السعادة بعينها حقًا.

(١) جيمس فيريير (١٨٠٨ - ١٨٦٤): عالم سكوتلندي بحث في الماورائيات.

٢٦ يوليو- أنا قلقة، والتعبير هنا عن نفسي يخفف عني الهم؛ الأمر يشبه أن يهمس المرء مخاطبًا نفسه ويصغي لها في الوقت ذاته. كما أن هناك أيضًا متعة تتعلق برموز الكتابة المختزلة التي تجعلها مختلفة عن الكتابة العادية. لستُ سعيدةً بخصوص أخبار لوسي وكذلك جوناثان. لم تصلني أخبار من جوناثان منذ بعض الوقت وينتابني قلق شديد، لكن البارحة أرسل لي العزيز السيِّد هوكنز، اللطيف دائمًا، رسالةً وصلته من جوناثان. وكنتُ قد أرسلتُ له أسأله إذا ما تلقَّى أخبارًا منه، وقال إنَّه تلقَّى منه للتو الرسالة المرفقة. وهي فقط عبارة عن سطر وكتابتها مؤرَّخَة في قلعة دراكولا، ويقول فيها إنه انطلق للتو عائدًا إلى إنجلترا. ليس من عادة جوناثان الكتابة على هذا النحو، أنا لا أفهم ذلك، وهذا ما يقلقني. وعلاوة على ذلك، فقد عادت لوسي مؤخرًا إلى عادتها القديمة في المشي أثناء نومها، رغم كونها بصحة جيدة. وقد تكلَّمَتْ معي أمُّهُا بخصوص ذلك، وقرَّرْنا أنني سأقفل باب حجرتنا كل ليلة. تعتقد السيدة ويستينرا أنَّ السائرين وهم نيام يخرجون دائمًا على سطوح المنازل ومن ثم يمشون على حواف الجروف ليضعفوا فجأة ويسقطوا مطلقين صرخةً يائسةً يتردَّد صداها في كل أرجاء البلدة. يا لعزيزتي المسكينة! فهي بطبعها قلقةٌ على لوسي، وقالت لي إنَّ زوجها، والد لوسي، كانت له العادة نفسها، وإنه كان ينهض في الليل ويرتدي ثيابه ويخرج ما لم يوقفه أحد. ستتزوج لوسي في الخريف، وقد فصَّلت فساتينها سلفًا وخططت كيف سيكون ترتيب منزلها. إني

أتعاطف معها، لأني أفعل الشيء ذاته، الفرق الوحيد أني وجوناثان سنبدأ حياتنا بطريقة بسيطة جدًا، وينبغي لنا محاولة كسب المال الذي يسدُّ حاجاتنا الأساسية. السيد هولمُود - الفاضل أرثر هولمُود، الابن الوحيد للورد غودالمنغ- قادم إلى هنا في غضون مدة قصيرة جدًا، حالما يستطيع مغادرة لندن، لأنه والده ليس في صحة جيدة، وأحسب أن العزيزة لوسي تعد اللحظات ترقبًا لوصوله. إنها تريد أن تصطحبه إلى المقعد الواقع على جرف ساحة الكنيسة وتدهشه بجمال وِتْبِي. وأحسب أن الانتظار هو سبب قلقها، وستكون على خير ما يرام عندما يصل.

٢٧ *يوليو*- ما من أخبار من جوناثان. إنني أزداد قلقًا عليه إلى درجةٍ كبيرةٍ، رغم أنه لا يوجد سبب وراء قلقي، ولكني أتمنى بشدة أن يرسل لي رسالة، حتى لو كان فيها سطرٌ واحد فقط. باتت لوسي تمشي أثناء نومها أكثر من قبل، وكل ليلة توقظني حركتها في الحجرة. لحسن الحظ أن الطقس حار جدًا حتى لا تصاب بالبرد، لكن ومع ذلك بدأ القلق والاستيقاظ الدائم يلقيان بظلالهما السيئة عليَّ، بدأتْ أعصابي تثور وأصبت بالأرق. الحمد لله، صحة لوسي تتحسن. استدعي السيد هولمود على حين غرة للحضور إلى رنغ ليعودَ أباه الذي سقط صريع المرض بصورة تهدد حياته. تضايقتْ لوسي من تأجُّل لقائها به، ولكن ذلك لم يؤثر على مظهرها. باتت أقوى بنيةً بمقدار ضئيل، ووجنتاها متورِّدتان بشكل جميل. لم تعد تلازمها تلك النظرة الشاحبة التي كانت عليها. وأدعو الله أن كل ذلك سيدوم على حاله.

٣ أغسطس- هو ذا أسبوع آخر يمرُّ وما من أخبارٍ من جوناثان، ولا حتى من السيد هوكنز الذي تلقيت منه الرسالة الأخيرة. أوه، آمل أنه ليس مريضًا. وإلّا لكان راسلني بالتأكيد. أعاود النظر إلى تلك الرسالة الأخيرة التي وصلتني منه، ولكن بها شيء يثير ارتيابي. فأسلوب كتابتها لا يبدو مثل أسلوبه، ومع ذلك فهي مكتوبةٌ بخط يده. لا مجالَ للخطأ في ذلك. لم تمش لوسي كثيرًا في نومها الأسبوع الماضي، ولكنْ هناك أمر غريب يكتنفها ولا أستطيع فهمه، فهي تبدو حتى أثناء نومها وكأنها تراقبني. كانت تجرِّب فتح الباب، وعندما تجده موصدًا تجول في أرجاء الحجرة باحثة عن المفتاح.

٦ أغسطس- مرَّت ثلاثة أيام أخرى، ولا أخبار من جوناثان. بات هذا الترقُّبُ القَلِقُ مخيفًا. ليتني أعرف فقط مكانه حتى أراسله أو أذهب إليه، لشعرتُ حينها بالطمأنينة أكثر، ولكن لم يتلقَّ أحدٌ أيَّ خبر من جوناثان منذ تلك الرسالة الأخيرة. عليَّ فقط أن أدعو الله أن يلهمني الصبر. باتت لوسي أسرع انفعالًا من قبل، ولكنها على ما يرام خلاف ذلك. الليلة الماضية كانت ليلة خطرة جدًا، يقول الصيادون إنَّ ثمة عاصفة قادمة. عليَّ محاولة مراقبتها ومعرفة علامات الطقس. اليوم يوم رمادي، وبينما أكتبُ اختفت الشمس بين الغيوم السميكة، السابحة عاليًا فوق كِيتْلِنِس. كل شيء رمادي، باستثناء العشب الأخضر الذي يبدو كالزمرد بين باقي الأشياء؛ صخورٌ رمادية، غيوم رمادية تتخللها أشعة الشمس على الحافة البعيدة، معلقة فوق البحر الرمادي الذي تمتد فيه حبات الرمل مثل أصابع رمادية. البحر يتدحرج فوق المواضع الضحلة

والسطوح الرملية بهديرٍ، بكتمه الضباب البحري المندفع إلى داخل اليابسة. الأفق اختفى في ضبابٍ رمادي. كل شيء ضخمٍ ومهول؛ الغيوم متكدِّسة مثل صخورٍ عملاقة، وثمَّةَ «همهمةٌ خافتةٌ» فوق البحر تبدو مثل نذير شؤم. تناثرت أشكال البشر المعتمة على الشاطئ هنا وهناك يحجبها الضباب أحيانًا، وبدا «الناس كأشجار يمشون»[١]. قوارب الصيد تتسابق عائدة إلى المرسى، وهي ترتفع وتهبط في معمعة الأمواج الهوجاء مندفعة إلى الميناء، وقد مالت من جهة ميازيبها. هو ذا السيد سويلز قادم مباشرة صوبي، ويظهر من الطريقة التي يرفع بها قبعته بأنه يريد الحديث...

تأثَّرْتُ كثيرًا بالتغيُّر الذي طرأ على العجوز. عندما جلس قربي قال بطريقة لطيفة جدًا:

«أريد أن أقول لكِ شيئًا، يا آنسة». رأيتُ أنه لم يكن مرتاحًا، ولذا أمسكت يده المجعَّدة الهزيلة الشائخة ووضعْتُها في يدي وطلبت منه أن يتحدث بما يشاء؛ ولذا فقد قال، تاركًا يده في يدي:

«أخشى يا عزيزتي، أني صدمتك بكل الأشياء الشريرة التي قلتها عن الأموات وما شابه ذلك قبل أسابيع مضت، ولكني لم أقصد ما قلته، وأريدك أن تتذكري ذلك عندما أرحل. نحن العجائز الذين

---

(١) «وجاء إلى بيت صيدا، فقدَّموا إليه أعمى وطلبوا إليه أن يلمسه. فأخذ بيد الأعمى وأخرجه إلى خارج القرية، وتفل في عينيه، ووضع يديه عليه وسأله: هل أبصر شيئًا؟ فتطلَّع وقال: أبصر الناس كأشجار يمشون. ثم وضع يديه أيضًا على عينيه، وجعله يتطلع. فعاد صحيحًا وأبصر كل إنسان جليًا» (إنجيل مرقس: الإصحاح الثامن ٢٢ - ٢٥).

وصلنا إلى أرذل العمر وأقدامنا فوق حافة قبرنا، لا نحبِّذ أن نفكر في الموت على الإطلاق، ولا نريد أن نشعر بالخوف منه، وذلك هو السبب الذي جعلني ألقي الضوء في حديثي على الموت حتى يتسنى لي أن أدخل البهجة على قلبي قليلًا. ولكن، وليمنحك الرب محبته يا آنسة، أنا لا أخشى الموت، لا أخشاه ولو مقدار ذرة. كل ما أريده هو أن أحيا قدر ما أستطيع. ميعاد موتي لا شك قريب الآن، فأنا عجوز، ومئة عام عمرٌ طويل جدًا إذا ما توقع المرء أن يصله، وأنا على شفا حفرة منه حتى إنَّ ملك الموت قد شحذ منجله سلفًا. وكما ترين، لا أستطيع أن أبارح عادة التذمر منه دفعة واحدة. سيهتز فكَّاي بالكلام كما اعتادا على ذلك. ذات يوم قريب سينفخ ملك الموت في بوقه. ولكن لا تحزني ولا تندبي، يا عزيزتي!» -لأنه رآني أبكي- «وإذا ما قُدِّرَ له أن يأتي هذه الليلة بالذات فلن أرفض تلبية ندائه. فما الحياة في نهاية المطاف سوى انتظار شيء آخر غير الذي نفعله، والموت هو الشي الوحيد الذي لا يتخلف عن المجيء. لكني سعيد لأنه قادم إلي يا عزيزتي، قادم بسرعة. ربما يكون في طريقه إلى هنا ونحن ننظر ونتساءل. ربما يكون في تلك الريح الجاثمة فوق البحر والتي تجلب معها الخسائر والدمار والكرب الشديد والقلوب الحزينة. انظري! انظري!» صاحَ فجأةً، ثم أردف: «هناك شيء ما في تلك الريح وفي الصوت الذي معها، شيء يبدو في شكله ومظهره وطعمه ورائحته مثل الموت. إنه في الهواء، أشعر به قادمًا. أيها الرب! دعني ألبِّي النداء والفرح يغمرني عندما يحين ميعادي!». رفع ذراعيه بصورة التقي الورع، ورفع قبعته. تحركت شفتاه وكأنه

كان يلهج بدعاء. بعد صمت استمر بضع دقائق، نهض وصافحني ودعا لي بالبركة، وودَّعني وانطلق يعرج. تأَثَّرْتُ بذلك كثيرًا، كما سبب لي قلقًا شديدًا في الوقت نفسه.

سررتُ عندما جاء خفير الساحل متأبطًا منظارَه. توقف لكي يتكلَّم معي، كما يفعل دائمًا، ولكن نظره لم يحد طوال الوقت عن سفينة غريبة وقال:

«لا أستطيع أن أميِّزَها، تبدو من منظرها سفينة روسيَّة، ولكنها تهيم على وجهها على نحوٍ غريب جدًا. يبدو أنها لا تدري ما تفعل بعض الشيء، ويبدو أنها تعرف أن العاصفة آتية ولكنها لا تستطيع أن تقرر أن تسرع شمالًا صوب البحر المفتوح، أو أن ترسو هنا. انظري هناك مرة أخرى! إنها تسير على نحو غريب جدًا، وهي غير خاضعة لليد التي تسيِّر الدفة، إذ تغير مسارها مع كل هبَّة ريح. سنسمع مزيدًا من الأخبار عنها في مثل هذا الوقت في الغد».

الفصل السابع

قصاصةٌ مُقْتَطَعَة من صحيفة «ذا ديليغراف»، ٨ أغسطس

(مُلْصَقة في يوميَّات مينا موراي)

من أحدِ مراسِلينا

وِتْبي

شَهِدَتْ وِتْبي للتوّ عاصفةً من أعتى العواصف المسجَّلة وأشدِّها مُبَاغَتَةً، والتي أوقَعَتْ نتائجَ غريبة ولا نظيرَ لها. كان الجو قبل هبوب العاصفة حارًا ثقيلَ الوطأة نوعًا ما، ولكنَّه لم يصل حدًا تجاوز المألوف في شهر أغسطس. كان مساء السبت لطيفًا كعهده دائمًا، فانتشرت أمس مجاميع المصطافين الضخمة في زيارات إلى غابات ملغريف، وخليج روبن هود، ورِغْ مِلْ، ورَنْسوِك، وستيثز، كما قاموا بنزهاتٍ شتَّى في أحياء وِتْبي. انطَلَقَت العبَّارَتان البخاريتان *إيما* و*سكاربورو* في رحلات ذهاب وعودة على طول الساحل، وكان عدد الرحلات الذاهبة إلى وِتْبي والعائدة منها غير اعتيادي. كان النهار جميلًا على نحو غير اعتيادي حتى ما بعد الظهيرة، إلى أن سرت بعض الأقاويل التي تنتشر عادة في ساحة كنيسة الجرف

الشرقي، من ذلك المرصد البارز المشرف على الانحدار الواسع للبحر الواضح للعيان في الشمال والشرق، استرعت هذه الأقاويل انتباه الناس إلى ظهور تشكلات من السحب المعروفة بـ ذيل الحصان» فجأة في كبدِ السَّماء في الجهة الشمالية الغربية. كانت الريح حينئذٍ تهب من الجهة الجنوبية الغربية بدرجةٍ خفيفةٍ تُصنَّف تبعًا للمصطلحات الباروميتريَّة على «الدرجة رقم ٢: أي درجة النسيم الخفيف». بلَّغ خَفِير السواحل المناوب من فوره الجهاتَ المختصة، بينما تنبَّأ صيَّادٌ عجوزٌ -ظل لأكثر من نصف قرن يراقب علامات الطقس من الجرف الشرقي- بصورةٍ جازمةٍ بمجيء عاصفة مفاجئة. كان مشهد الغروب في غاية الجمال بعد أن تجمعت الغيوم بصورة مهيبة عاكسة ألوانًا مذهلة، ما أدَّى إلى تجمهر حشدٍ غفيرٍ في الممشى على طول الجرف في ساحة الكنيسة العتيقة ليستمتعوا بجمالِ المشهد. قبل أن تغيب الشمس وراء كتلة كيتِلْنِس السوداء المنتصبة بجرأة في وجه السماء من الجهة الغربية، كانت رحلتها نحو الأسفل محفوفةً بعدد من الغيوم التي صبغت السماء بمختلف ألوان الغروب؛ أرجوانية، ووردية، وخضراء، وبنفسجية، وكافة تدرجات اللون الذهبي. علاوة على كتل غير كبيرة حالكة السواد من شتَّى الأشكال، متناثرة هنا وهناك كصُورٍ ظلية ضخمة. لم تمرَّ هذه الظاهرة على الرسَّامين مرور الكرام، وما من شك في أن بعض الرسومات التي ستتخذ عنوان «مُقدِّمة إلى العاصفة العظيمة» ستزيِّن جدران الأكاديمية الملكية والمعهد الملكي في مايو القادم. حَزَمَ أكثرُ من قبطانٍ رأيَهُ من فورِه على إبقاء «دُمْلِجَه» أو «بَغْلَتَه»

-وهي الألقاب التي يطلقونها على الأنواع المختلفة من المراكب- في الميناء حتى تنجلي العاصفة. خفَّت حدَّة الرياح كليَّة أثناء المساء، وعند منتصف الليل خيَّم هدوءٌ مُطْبِقٌ وحرارةٌ شديدة الوطأة، إضافة إلى تلك الكثافة الشديدة المصاحبة لقدوم الرعد، والتي تؤثِّرُ على الأشخاص ذوي الطَّبيعة الحسَّاسة. لم يكن هناك سوى بضعة أضواء تُرَى في البحر، لأنه حتَّى العبَّارات البخاريَّة الشاطئية، التي عادة ما «تعانق» الساحل بحميمية، بقيت في مواضعها مواجهةً البحر، ولم تظهر في المشهد سوى بضعة قوارب صيد. المركب الوحيد المشاهَد كانت شَوْنَةً[1] أجنبية وقد أطلقت أشرعتها كافة للريح، وكانت على ما يبدو متجهةً غربًا. صار تهوُّر بحَّارَتها أو جهلُهم موضوعًا غنيًا للتعليقات بينما كانت لا تزال في مرمى النظر، وقد بُذِلَت الجهود لتنبيهها لإنزال أشرعتها في وجه الخطر المحدق بها. وقبل أن يرخي الليل سدوله شوهدت الشَّونَة بأشرعتها وهي تخفق بتكاسل متهاوية برفقٍ فوق أمواج البحر.

«متكاسلًا مثل سفينة بهية الألوان فوق محيط بهي الألوان»[2].

قبيل الساعة العاشرة بقليل صار سكُون الهواء خانقًا إلى حد كبير، وكان الصمت ملحوظًا لدرجة أنه يمكن بوضوح سماع ثغاء خروف قادمٍ من البر أو نباح كلب في البلدة. كانت الفرقة على رصيف الميناء، بأسلوبها الفرنسي الحيوي، مثل نشازٍ وسط التناغم

---

(١) مركب شراعي حربي قديم.

(٢) من قصيدة الملاّح القديم للشاعر الإنجليزي صموئيل تايلر كوليردج (١٧٧٢ – ١٨٣٤).

العظيم لصمت الطبيعة. بُعيدَ منتصف الليل بلحظات حمل الهواء العالي صوتًا غريبًا من جانب البحر؛ هديرًا غريبًا خافتًا وأجوف.

ومن ثمَّ، دونما إنذار، هبَّت العاصفة. هبَّت بسرعةٍ هائلة كان من المستحيل توقعها في ذلك الحين، أو حتى بعد ذلك، فقد غدت الطبيعة كلها هائجَة من فورها. تأججت الأمواج بوتيرة متصاعدة، كل موجة تعلو فوق الأخرى، ولم تمض سوى دقائق قليلة جدًا إلَّا وبات البحر، الذي كان قبل لحظاتٍ صقيلًا كالبللور، مثل وحشٍ مزمجرٍ فاغرٍ فيه. ضربت الأمواج ذات القمم البيضاء الرمالَ المستوية بجنونٍ، واندفعت بعنفٍ صوب الجروف المنحدرة، فيما تكَّسَرَت أمواجٌ أخرى على أرصفة الميناء، ومسحت بزَبَدِهَا مصابيح المنائر البحرية البارزة من طرفي رصيف ميناء وِتْبي. زأرَت الريح بصوت كالرَّعد، وهبَّت بجبروتٍ شق فيه حتى على الأشدَّاء من الرجال الصمود واقفين على أقدامهم، فتشبَّثُوا بإحكامٍ شديدٍ بالدعامات الحديدية. تبيَّن أنه من الضروري إخلاء أرصفة الميناء جميعها من حشد المتفرجين، وإلَّا فإنَّ عدد الضحايا في الليل سيتضاعف. انجَرَفَتْ كتلٌ من ضباب البحر باتجاه اليابسة مما زاد من صعوبة الأمر وخطورته، سحبٌ بيضاء شديدة الرطوبة والنداوة والبرودة، اندفعت سريعةً كأشباحٍ عابرة، حتى إن القليل من الخيال كافٍ ليجعلك تعتقد بأن أرواح أولئك المفقودين في البحر كانت تلمس إخوانهم الأحياء بأيدي الموت الدبقة، وقد تراجف العديد لحظة مرور ضباب البحر بهم. انقشع الضباب أحيانًا، وباتت رؤية البحر ممكنة من مسافة ما في لمعان البرق الذي يقصف الآن سميكًا وسريعًا،

متبوعًا بدويٍّ مفاجئ من الرعد، حتى بدت السماء بأكملها ترتجف في الأعالي تحت صدمة وقع أقدام العاصفة.

كانت بعض المشاهد التي انكشفت نتيجة لذلك ذات عظمة هائلة ودهشة تأسر القلوب، إذ قذف البحر السائر كالجبال، كتلًا هائلة من الزَّبَد الأبيض نحو السماء مع كل موجة يرسلها. والعاصفة بدت وكأنها تحاول الإمساك بها وتدوِّرُها في الفضاء. تخبط مركب صيد وبه خرقة من شراع، وهو يسرع بجنونٍ طلبًا للمأوى قبل أن تضربه العاصفة. ومن حينٍ لآخر كانت تلوح أجنحة بيضاء لطائر بحري أطاحت به العاصفة. في قمة الجرف الشرقي كان ضوء الكشَّاف الجديد جاهزًا للتجريب، ولكنَّه لم يُشغَّل حتى الآن. شغَّلَه الموظَّفُون الموكلون به بطريقة سليمة، ومسحوا بضوئه سطح البحر في فترات توقف الضباب المتدفق فجأة. مرَّة أو اثنتين كان استخدامه ذا فعالية كبيرة؛ عندما اندفع إلى الميناء مركب صيدٍ وطرف مؤخرته العلوي تحت الماء، وتمكَّنَ بتوجيه من ضوء الكشَّاف أن يتجنب خطر الاصطدام بأرصفة الميناء. كلَّما وصل قاربٌ إلى برِّ الأمان في الميناء أطلقَ الحشد المتجمهر على الشاطئ صيحةَ ابتهاج، صيحةً بدت لحظةً وكأنَّها تفلق الريح الهوجاء وبعد ذلك تنجرف معها في اندفاعها.

لم تمضِ مدة طويلة إلَّا وأسفَرَ ضوء الكشَّاف على مسافة ليست ببعيدة عن شَونةٍ أطلقت كل أشرعتها للريح، وعلى ما يبدو أنها المركب نفسه الذي رآه القوم سابقًا في المساء. تقهقرت الريح في هذه الأثناء نحو الشرق، وسادت ارتعاشةٌ بين المشاهدين على

الجرف إذْ أدركوا الخطر الرهيب الذي كان يحيق بالشونة حينها. فبينها وبين الميناء يقع الحيِّد المستوي العظيم الذي عانى في لجَّتِه بين الفينة والأخرى عددٌ غفيرٌ من السفن القوية، ومع الريح التي تهب من موقعها الحالي، سيكون من المستحيل تمامًا عليها أن تهتدي إلى مدخل الميناء. حانت الآن تقريبًا ساعة المدِّ العالي، بيد أن الأمواج كانت هائجة جدًا حتى إن المواقع الضحلة للشاطئ كانت شبه واضحة عبر الفتحات الفاصلة بين موجة وأخرى. كانت الشونة بأشرعتها المرفوعة، تندفع بسرعة كبيرة حتى إنها، وكما يقول بحَّار مخضرم: «لا بدَّ لها أن تتوقف في مكانٍ ما، حتى لو لم يكن ذلك المكان سوى الجحيم». وما لبثت أن جاءت موجة عارمة أخرى من ضباب البحر، أكبر من أي موجة أخرى حتى الآن؛ كتلة من ضباب رطب، بدت وكأنها ستطبق على كل الأشياء مثل سحابة كثيفة رمادية، ولم تترك لدى القوم سوى آذانهم ليسمعوا بها، إذ جاء هدير العاصفة، وهزيم الرعد، وزئير الأمواج العارمة الجبَّارة أعلى من قبل. ثُبِّتَتْ أشعة ضوء الكشَّاف على مدخل الميناء على طول الرصيف الشرقي، حيث من المتوقع حدوث الضربة، وانتظر الناس بأنفاسٍ محبوسة. تبدَّلَ اتجاه الريح فجأة إلى الشمال الشرقي، وتماهَت بقايا الضباب البحري في الهواء العاصف؛ ومن ثمَّ، *وياللعجب!*[1] تقافزت الشونة الغريبة من موجة إلى أخرى بين أرصفة الميناء أثناء اندفاعها بسرعة متهورة، اقتحمت المياه وكل أشرعتها مرفوعة،

(١) كتبها باللاتينية في الأصل (mirabile dictu).

لتصل إلى برِّ الأمان في الميناء. لاحقها ضوءُ الكشَّاف، وسرت رجفة على كل المتفرجين إذ رأوا جثة مربوطة بالدفة ورأسها متدلٍّ، كانت تتأرجح جيئة وذهابًا مع كل حركة من حركات المركب. لا أثر لأي شيء آخر على السفينة نهائيًا. استبدَّ بالجميع ذعرٌ هائل إذ أدركوا بأن الشَّوْنَة، وكأنَّما ذلك حصل بفعل معجزة، اهتدَت إلى الميناء لا تقود دفتها سوى يدِ رجلٍ ميِّت! على أي حال، حدث كل ذلك بصورة أسرع من الوقت اللازم لكتابة هذه الكلمات. لم تتوقف الشَّوْنَة، ولكنها اندفعت عبر الميناء، وقذَفَت بنفسها على تلك الكومة المتراكمة من الرمل والحصى والتي جرفتها موجات المدِّ والعواصف إلى الزاوية الجنوبية الشرقية من الرصيف الناتئ تحت الجُرْف الشرقي، وهو الرصيف الذي يسمِّيه السكان المحليون باسم رصيف تيت هِلْ.

حدث بالطبع ارتجاجٍ هائل عندما اندفعت الشَّوْنَة في طريقها إلى كومة الرَّمل. كانت كلُّ عارضة فيها وكل حبالها، في حالةٍ يرثى لها، كما تهاوى بعضٌ من أجزائها العلوية. ولكن ما هو أغرب من كل ما عداه، أنه في اللحظة ذاتها التي لمست فيها الشونة الشاطئ، وثَبَ كلبٌ ضخمٌ إلى سطحها صاعدًا من الأسفل وكأنه قُذِفَ به بفعل الارتجاج، وجرى إلى الأمام قافزًا من مقدم السفينة إلى الرِّمال. اتجه مباشرة صوب الجرف المنحدِر، حيث تطل ساحة الكنيسة على الدرب المؤدي إلى الرصيف الشرقي. كان الدرب شديد الانحدار حتى إن بعض شواهد القبور المستوية -تلك التي تسمَّى «العضائد» أو «ركائز الجدران» في اللهجة العامية في وِتْبِي- تبرز فعليًا فوق

الموضع الذي ينحدر فيه الجرف الداعم. توارَى الكلب في العتمة التي بدت حالكة بعد مجرَّد مسافة قصيرة وراء بؤرة ضوء الكشَّاف.

حدث للصدفة البحتة أنه لم يكن هناك أحدٌ في تلك اللحظة على رصيف تيت هل، نظرًا لأن كل أولئك القوم الذين تقع منازلهم في الجوار القريب كانوا إما نائمين أو خرجوا منها إلى المرتفعات في الأعلى. وهكذا فإن خفير الساحل المناوب في الناحية الشرقية من الميناء، والذي هرع من فوره إلى الرصيف الصغير، كان أول من اعتلى سطح الشَّوْنَة. وبعد أن أجال الرجال الموكَّلون بالكشَّاف ضوءهم على مدخل الميناء دون أن يروا شيئًا، سلَّطُوا الضوء على المركب المهجور وأبقوه مثبَّتًا عليه. ركض الخفير إلى مؤخرة الشَّوْنَة، وعندما صار بجانب الدفَّة، انحنى لكي يتفحَّصَها، وارتدَّ من فوره وكأن شيئًا فاجأه. بدا أن ذلك أثارَ الفضول العام، فشرع عدد كبير من الناس في الركض. والمسافة طويلة من الجِرف الغربي مرورًا بدروبريدج وصولًا إلى رصيف تيت هل. ولكنَّ مراسِلَكُم عدَّاء لا يشقُّ له غبار إلى حدٍّ ما، فما كان مني إلَّا وتقدَّمت الجَمع. عندما وصلتُ وجدتُ جمعًا وقد احتشد سلفًا على الرصيف، وقد رفض الخفير والشرطة السماح لأفراده بصعود المركب. وبفضل النوتي، أُذِنَ لي، بصفتي مراسلًا لكم، بالصعود على ظهر المركب. وكنت واحدًا من مجموعة صغيرة ممن رأوا البحَّارَ الميِّت وهو مربوطٌ فعليًا إلى الدَّفَّة.

لا عجب إذن أن الخفير هالته المفاجأة، أو حتى الذعر، إذ لا يتيسر للمرء في الغالب أن يقع ناظراه على مثل هذا المشهد. فقد

كان البحَّار ببساطة مثبتًا عن طريق يديه، إذْ ربطت إحداهما فوق الأخرى إلى الدَّفَّة. بين يده والخشب كان هناك صليب، وكانت مجموعة الخرزات التي ثبت عليها مربوطة حول معصمي البحَّار والدَّفة معًا، وقد رُبِطَ كل شيء بحبال على عجالة. ربما يكون البحَّار المسكين قد أُجْلِسَ في وقتٍ ما سابقًا، ولكن رفرفة الأشرعة وتلاطمها فعلت فعلها في الدفَّة وجرجرته جيئة وذهابًا، ما أدى إلى جروحٍ وصلت إلى العظام أحدثتها الحبال التي ربط بها. وُضِعَت الأمور تحت المراقبة الدقيقة، وأعْلَنَ طبيبٌ -وهو الجرَّاح جي. إم. كافِن، المقيم في الشارع ٣٣ في إيست إليوت پليس وهو الذي صعد بعدي إلى المركب فورًا- بعد إجراء الفحص، بأنَّ البحَّار لا بدَّ مات منذ يومين بالضبط. في جيبه قنينة مسدودة جيدًا بفلينة، فارغة ما خلا لفافة صغيرة من الورق، تبين أنها ورقة ملحَقَةٌ بسجل بيانات المركب. قال الخفير بأن الرجل لا بدَّ ربط يديه، مثبتًا العُقَد بأسنانه. وربما كان لصعود الخفير أولًا إلى المركب أن يسبب بعضَ التعقيدات لاحقًا في المحكمة الأميرالية؛ لأن خفراء السواحل لا يستطيعون أن يطالبوا بالحصول على ما يتم إنقاذه من ظهر المركب الذي يعد حقًا لأول شخص مدني يدخل في مركبٍ مهجور. وعلى أي حال، تسارع المتخصصون في القانون كل يدلي بدلوه. أكَّدَ طالبٌ شاب يدرس القانون متحدثًا بصوت عال بأنَّ حقوق مالك المركب زالت منه بصورة كاملة سلفًا، وبات المركب الذي يملكه مخالفًا لبنود حق الملكية الموقوفة، نظرًا لأن ذراع الدفة، باعتباره شعارًا بحريًا، إن لم يكن دليلًا على الملكية المفوضة، موجود في حوزة *يدِ شخص متوفى*.

ولا حاجة للقول أن جثمان البحار الميِّت قد حُمِل باحترام من المكان الذي حافظ فيه على مهمة الخفارة المشرِّفَة بلا انقطاعٍ حتى الموت -وهو صمودٌ نبيلٌ يشبه صمود الشاب كاسابيانكا[1]- ووُضِعَ في مَحْفَظِ الجثث المجهولة بانتظار التحقيق القضائي.

عدَّت العاصفة المفاجِئَة، وها هي شدَّتُها تتراجع، وحشود البشر ينتشرون عائدين إلى بيوتهم، وبدأت السماء تحمرُّ فوق تلال يوركشير. سأرسل في الوقت المناسب لعددكم القادم، تفاصيل إضافية عن المركب المهجور الذي اهتدى سبيله في العاصفة إلى الميناء بصورة إعجازية.

وِتْبِي

٩ *أغسطس*- إن تتمة حادثة الوصول الغريب للمركب المهجور في عاصفة الليلة الفائتة تعد تقريبًا أكثر إفزاعًا من حادثة الوصول نفسها. تبيَّن أن الشَّونَة سفينةٌ روسية قادمة من ڤارنا[2]، وتدعى ديميتر[3]. والسفينة بصورة شبه كاملة مملوءة بأثقال من رملٍ فضي، وليس فيها سوى كمية صغيرة من الحمولة؛ عددٌ من الصناديق الخشبية الضخمة يفوح منها العَفَنْ. هذه الحمولة مرسلة

---

(١) عنوان قصيدة للشاعرة الإنجليزية فيلشيا دوروثي هيمانز (١٧٩٣ - ١٨٣٥) ونشرت للمرة الأولى سنة ١٨٢٦.

(٢) ميناء على البحر الأسود في شمال شرقي بلغاريا.

(٣) إلهة الزراعة والخصوبة وحامية الزواج والنساء حسب الأساطير اليونانية. في واقع الحال، الاسم يستند إلى قصة حقيقية عن تحطم سفينة روسية تدعى ديمتري في وتبي في ٢٤ أكتوبر عام ١٨٨٥.

إلى محامٍ في وِتْبِي، اسمه السيد إس. إف. بيلِنْغْتُن، يقيم في شارع رقم ٧، حي كريسنت، الذي صعد على متن المركب صباح اليوم واستلم رسميًا البضاعة المُرْسَلة إليه. كما استلم القنصل الروسي أيضًا، بصفته ممثلًا عن الطرف المستأجر للمركب، السفينة رسميًا، ودفع رسوم الميناء كافة، إلخ. ما من سيرة على ألسنة القوم هنا اليوم سوى المصادفة الغريبة، واتَّبَع مسؤولو مجلس إدارة التجارة أعلى درجات الدقة في التحقق من أنَّ كل بنود الامتثال للقوانين قد أجريت وفقًا للأنظمة المعمول بها. وحيث أن المسألة تعد «أعجوبةً يزول أثرها سريعًا» فقد كانوا مصمِّمين بصورة واضحة على أنه لن يكون هناك أي قضية تعقب التحقق من المركب. سرَى مِقدارٌ كبير من الاهتمام في كل مكان بخصوص الكلب الذي وثب إلى الأرض عند اصطدام السفينة بالرمال والحصى، وحاول عددٌ لا يستهان به من أعضاء جمعية (إس. پي. سي. إ.)، وهي الجمعيَّة القوية جدًا للرفق بالحيوان في وِتْبِي، أن تناصر الكلب. وعلى أي حال، الأمرِ الذي خلف وراءه خيبة أمل عامة هو أن الكلب لم يعثر على أثر له، ويبدو أنه اختفى تمامًا من البلدة. قد يفسَّر اختفاؤه بأنه كان خائفًا وشقَّ طريقه صوب الأراضي الجرداء، حيث لا يزال مختبئًا مذعورًا. وهناك بعض الناس قد نظروا بارتياع إلى مثل هذا الاحتمال، وإلّا فإن الكلب لاحقًا سيصير بحد ذاته خَطَرًا، فمن الواضح أنه حيوان شرس. عُثِرَ في الصباح الباكر هذا اليوم على كلب حراسة هجين ضخم، يملكه تاجر فحم يسكن قريبًا من رصيف تيت هِل، وقد وُجِد ميتًا في الدرب المقابل لفناء منزل صاحبه. لقي الكلب مصرعه

بعد معركة، وواضحٌ أن من قَتَلَه خصمٌ متوحشٌ، لأن حنجرته مقلوعة، وبطنه مبقور وكأنّما اخترقه مخلب وحشٍ ضارٍ.

لاحقًا- بلغت لطافةُ محقِّق لجنة إدارة التجارة مبلغًا أَذِنَ لي فيه بالاطلاع على سجل بيانات رحلة السفينة ديميتر، الذي يحوي سردًا منتظمًا لبياناتٍ تشمل ثلاثة أيام، ولكنه لم يحتوِ معلومات ذات أهمية خاصة ما عدا وقائع عن البحَّارة المفقودين. وعلى أيٍّ حال، أكثر ما يلفت الانتباه هو الورقة التي عثر عليها في القنينة، والتي قُدِّمَت اليوم أثناء التحقيق. وهناك رواية أشد غرابة من بين روايتين تكشف أنه لم يكن يحق لي أن أطلع عليهما. وحيث أنه لا يوجد دافع للتستر على المعلومات، فقد أذن لي أن أستفيد منها، وبناء على ذلك أرسل لكم إعادة تنقيحٍ لما فيها، وقد حذَفْتُ منها ببساطة التفاصيل التقنية التي تخص فنَّ المِلَاحة ومسؤول الحمولة. يبدو على وجه التقريب وكأنَّ القبطان أصابه ضرب من الجنون قبل أن يبحر في المياه الزرقاء، وأنَّ ذلك الجنون ازداد باستمرار أثناء الرحلة. وبالطبع لا ينبغي النظر في هذا الكشف بصورة حرفية جدًا، لأنني أكتب بناءً على ما أملاه عليَّ موظفٌ من موظفي القنصلية الروسي، الذي تكرَّم بلطفٍ بترجمتها لي، نظرًا لضيق الوقت.

سجّل بيانات السفينة «ديميتر»

أثناء رحلتها من فارنا إلى وِتبِي

دوّن هذا السجل بتاريخ ١٨ يوليو، هناك أمور غريبة جدًا

تحصل، ولذا سأضطر إلى كتابة كل شيء بدقة منذ هذه اللحظة وحتى وصولنا.

في ٦ يوليو أنهينا تجهيز الحمولة، وهي رمل فضي وصناديق تراب. رفعنا الأشرعة ظهرًا. الرياح شرقية ومنعشة. الطاقم مكوَّنٌ من خمسة بحَّارة... ومساعِدَي قبطان، وطبَّاخ، وأنا (القبطان).

في ١١ يوليو دخلنا البوسفور فجرًا. صعد ضباط الجمارك الأتراك إلى السفينة. دفَعْنَا البقشيش. كل شي سليم. انطلقنا في الساعة الرابعة عصرًا.

في ١٢ يوليو عبرنا الدردنيل. المزيد من ضباط الجمارك وقارب القيادة الذي يحوي سرية الحراسة. دفعنا البقشيش مرَّة أخرى. كان عمل الضباط دقيقًا ولكنهم أنجزوه بسرعة. أرادوا أن ننطلق من فورنا. عبرنا مع هبوط الليل ودخلنا في الأرخبيل.

في ١٣ يوليو عبرنا رأس ماتاپان. أفراد الطاقم منزعجون من أمر ما. بدوا خائفين، ولكنهم لم يعبِّروا عن ذلك صراحة.

في ١٤ يوليو اعتراني القلق نوعًا ما على الطاقم. فهم جميعهم بحَّارةٌ يعتمد عليهم، وقد أبحروا معي من قبل. لم يستطع مساعد القبطان معرفة ما خطبهم، اكتفوا بإخباره بأنَّ هناك شيئًا ما، ورسموا إشارة الصليب. فَقَدَ مساعد القبطان أعصابه مع واحد منهم ذلك اليوم وضربه. توقعتُ نشوب شجار شرس، ولكن كل شيء كان هادئًا.

في ١٦ يوليو أبلَغَنِي مساعد القبطان صباحًا بفقدان أحد أفراد

الطاقم، واسمه پيتروفسكي. لم أستطع تفسير الأمر. فقد استَلَم نوبة الحراسة في ميسرة السفينة مدَّة ثمانية أجراس الليلة الفائتة، وحلَّ محله أبراموف، ولكنه لم يذهب للنوم في سريره. بات الرجال أكثر إحباطًا من قبل. قالوا جميعًا إنَّهم يتوقعون مصيرًا مماثلًا، ولكنهم لم يزيدوا في ما قالوه على أكثر من أنَّ هناك شيئًا ما على ظهر المركب. نفد صبرُ مساعد القبطان منهم؛ وخشي وقوع بعض الاضطرابات الموشكة على الانفلات من عقالها.

في ١٧ يوليو، البارحة جاء أحد البحَّارة واسمه أولغارين إلى قمرتي، وبطريقة مرتاعة أسرَّ لي بأنه يظن بأن هناك رجل غريب على سطح السفينة. قال إنَّه أثناء نوبة حراسته كان يأوي خلف غرفة سطح السفينة بسبب وجود عاصفة مطرية، عندما رأى رجلًا طويلًا، نحيفًا، لم يكن يشبه أيًا من أفراد الطاقم، يصعد السلَّم من الطابق السفلي إلى الأعلى ويسير على سطح السفينة نحو الأمام، ومن ثم اختفى. ما كان منه إلَّا أن تَبِعَه بحذرٍ، ولكن عندما وصل إلى مُقَدَّم السفينة لم يجد أحدًا، وكانت أبواب أرضية السفينة مغلقة جميعها. كان في حالة من الذعر لأسباب متعلقة بالخرافات، وأخشى أن الذعر ربما سينتشر. لكي أخفف من حدته، ينبغي لي اليوم أن أبحَث في السفينة كاملة بتأنٍ من مقدمها إلى مؤخرها.

لاحقًا في النهار جمعتُ كافة أفراد الطاقم، وقلتُ لهم إننا سنفتش المركب بأكمله، إذ كان من الواضح بأنهم يعتقدون بوجود شخص ما على سطح المركب. استشاط مساعد القبطان الأول غاضبًا وقال إن ذلك لحماقة، وإن الاستسلام لمثل هذه الأفكار الحمقاء من

شأنه إضعاف معنويات البحَّارة. وقال إنَّه سيلتزم بالحفاظ عليهم بعيدًا عن المشاكل. سلَّمْتُه دفَّة السفينة، بينما بدأ البقية بحثًا دقيقًا وكلهم يمشون جنبًا إلى جنب ومعهم فوانيسهم، لم نترك زاويةً إلَّا وبحثنا فيها. ونظرًا لوجود الصناديق الخشبية الكبيرة فقط، لم يكن هناك زوايا غريبة يمكن لإنسان أن يختبئ فيها. ارتسمت ملامح الطمأنينة على وجوه الرجال عند انتهاء البحث، وعادوا مبتهجين إلى العمل. عبس مساعد القبطان، ولكنه لم ينطق بكلمة.

٢٢ *يوليو*- استمر الطقس السيء ثلاثة أيام، والبحَّارة جميعهم مشغولون بالأشرعة.. لا وقت لدينا للخوف. بدا أنهم نسوا ذعرهم. عاد مساعد القبطان فرحًا مرة أخرى، وكان الجميع على وفاق تام. أثنيتُ على الرجال على ما أنجزوه من عملٍ في الطقس السيء. عبَرْنا جبل طارق وانطلقنا عبر المضائق. كل شي في أحسن حال.

٢٤ *يوليو*- يبدو أنَّ مصيرًا مشؤومًا يخيِّم على هذه السفينة. ونحن ناقصو العدد سلفًا، فبينما دخلنا خليج بسكي وكان ينتظرنا طقس هائج، فقَدْنا بحَّارًا آخرَ الليلة الماضية؛ اختفى. ومثلما حصل مع البحَّار الأول، رجع من نوبة حراسته ولم يره أحدٌ مرَّة أخرى. بات البحارة جميعهم في موجة هلع وذعر، وتقدَّمُوا بطلبٍ جماعي يرجون فيه مضاعفة عدد الحُرَّاس في النوبة، لأنهم كانوا يخشون أن يكونوا وحدهم. غضب مساعد القبطان. انتابه الخوف من أنه سيكون هناك بعض الاضطرابات، فواحدٌ من اثنين قد يلجأ إلى العنف؛ إما هو أو البحَّارة.

٢٨ *يوليو*- أربعة أيام كأنَّها في الجحيم، ضربتنا ما تشبه دوَّامة بحرية، وثارت رياح عاصفة. لم يغمض لأحد جفن. ونال الإرهاق الشديد من الرجال جميعهم. بصعوبة كلَّفَنَا أحدًا بنوبة الحراسة، إذ لا يوجد أحدٍ قادر على ذلك. تطوَّع مساعد القبطان الثاني لقيادة الدفَّة والحراسة، وترَكَ البحَّارة يسترقون بضع ساعات من النوم. خفَّت الريح وما يزال البحر هائجًا، ولكننا لم نعد نشعر بخطورة أمواجه نظرًا لاستقرار حركة السفينة أكثر من قبل.

٢٩ *يوليو*- وقعت مأساة أخرى. فقد استلم نوبة الحراسة حارسٌ واحد الليلة، إذ منع التعب أفراد الطاقم من أن يضاعفوا عدد الحراس. وعندما صعد حارس النوبة الصباحية إلى سطح السفينة ليحل محل رفيقه لم يجد أحدًا سوى مسيِّر دفة السفينة. أطلق صرخة عالية، وجاء الجميع إلى سطح السفينة. بحثنا بحثًا دقيقًا، ولكننا لم نجد أحدًا. فقد الآن مساعد القبطان الثاني، ودبَّ الرعب في أوصال أفراد الطاقم. اتفقتُ ومساعد القبطان على أن نسلِّح أنفسنا ابتداءً من هذه اللحظة وتأهبنا منتظرين أي علامة على وجود شيء.

٣٠ *يوليو*- الليلة الماضية. غمرتنا البهجة إذ أصبحنا على مشارف إنجلترا. الطقس جيد وكافة الأشرعة مرفوعة. ارتحتُ وقد بلغ التعب بي مبلغًا كبيرًا، ونمت نومًا عميقًا. أيقظني مساعد القبطان وأبلغني باختفاء الحارس ومسيِّر الدفة. لم يبقَ لقيادة السفينة معي سوى المساعد وبحَّارَان آخَران.

١ *أغسطس*- يومان من الضباب، ولم نلمح ولو سفينةً واحدة.

أملت حين نقترب من القنال الإنجليزي أن أتمكن من إرسال إشارة طلب للنجدة أو أن نبلغ مكانًا ما. وإذ فقدنا القدرة على تحريك الأشرعة، اضطررنا لترك سفينتنا في مهب الريح. لم نجرؤ على إنزال الأشرعة، لأننا قد لا نستطيع رفعها مرة ثانية. يبدو أننا ننجرف إلى مصير مرعب. هبطت معنويات مساعد القبطان أكثر من أي من البحَّارَين الآخرين. يبدو أن طبيعته القوية انعكست نفسيًا ضده. فيما تفوَّق البحَّاران على خوفهما، وهما يعملان بحسٍّ متبلِّد وبصبر وأناة، وقد حزما أمرهما استعدادًا للأسوأ. البحَّاران روسيَّان، وهو روماني.

٢ *أغسطس، منتصف الليل*- أيقظتني صرخة من نومٍ دام بضع دقائق، على ما يبدو أنها قادمة من خارج ميسرة السفينة حيث كنت أنام. لم أستطع أن أرى شيئًا في الضباب. هرعت إلى سطح السفينة، وركضت صوب مساعد القبطان. أخبرني بأنه سمع صرخة وركَضَ، ولكنه لم يعثر على أي أثر للبحَّار الذي كان يتولَّى الحراسة. ها قد اختفى بحَّار آخر. يا الله، كن في عوننا! قال مساعد القبطان إننا لا بد تجاوزنا مضائق دوڤر، لأنه رأى نورث فورلاند في لحظة انقشع فيها الضباب، حينما سمع صرخة البحَّار. إذا كان الأمر كذلك فنحن الآن بعيدون في عرض بحر الشمال والله وحده قادرٌ على أن يرشدنا في الضباب الذي بدا أنه يتحرَّك معنا. يبدو أن الله قد تخلَّى عنَّا وتركنا لمصيرنا.

٣ *أغسطس*- عند منتصف الليل ذهبت لكي أحل محل البحَّار الذي يوجه الدفَّة، وعندما وصلت هناك لم أجد أحدًا. الريح

مستقرة، ونحن نسير أمامها بسرعة دون أي ميلان. لم أجرؤ على ترك الدفة، ولذا صرخت بالمساعد. بعد بضع ثوانٍ هرع صاعدًا إلى سطح السفينة وهو مرتدٍ ملابسه الداخلية. بدا حاد العينين وشاحب الوجه، وخشيت بشدة أن يكون الرجل فقد صوابه. اقترب مني وهمس بصوت أجش، وفمه على أذني، وكأنه كان يخشى من الهواء ذاته أن يسمع ما يقول: «إنه هنا؛ وأنا أعرف أنه هنا الآن. أثناء نوبة الحراسة في الليلة المنصرمة رأيتُه، يبدو مثل رجُل، طويل ونحيل، وشاحب شحوبًا مفزعًا. كان في مقدم السفينة، وينظر منه خارجًا. تسللتُ زاحفًا خلفه، وغرست سكيني في جسده؛ ولكن السكين مرَّت عبره، مثلما تمر في الهواء الفارغ». بينما كان المساعد يتكلَّم أخذ سكينه ورماها بوحشية في الهواء. ثم تابع حديثه قائلًا: «لكنه هنا، وسأجده. إنه في عنبر السفينة، ربما في صندوق من تلك الصناديق. سأفكها صندوقًا صندوقًا وأرى ما فيها. استلِم أنتَ دفَّة السفينة». ومن ثم مضى إلى الأسفل بنظرة تحذيرية واضعًا إصبعه على شفته. هبَّت فجأة ريح متقلبة ولم أستطع ترك الدفَّة. رأيته يصعد سطح السفينة مرَّة أخرى ومعه صندوق معدَّات وفانوس، ونزل عبر الباب الأمامي لأرضية السفينة. إنه مجنون، لقد فقد عقله تمامًا وبلغ من الجنون حد الهذيان، ولا جدوى من محاولتي منعه. لن يستطيع أن يخرِّب تلك الصناديق الكبيرة، فقد سُجِّل في الفاتورة أنها تحوي «صلصالًا»، والتعامل معها بخشونة لن يلحق بها أي ضرر. لذا بقيت في مكاني، منتبهًا إلى الدفَّة وأدون هذه الملحوظات. لا أستطيع أن أثق إلَّا بالله وأنتظر حتى انقشاع الضباب. وعندها

إذا لم أستطع توجيه السفينة إلى أي ميناء بمساعدة الريح المتاحة، سأقطِّع الأشرعة وجلس مرتاحًا لا أفعل أي شيء، وأرسل إشارة طلبًا للنجدة.

قضي الأمر كله تقريبًا الآن. فبينما بدأت آمل أن يصعد المساعد سالمًا -لأني سمعته يتابع الضرب على شيء ما في العنبر، والكفة تميل لصالحه- هي ذي صرخة مفاجئة فزعة تخرج عبر الباب الأرضي في السفينة، صرخة جعلت الدم يتجمَّد في عروقي، برز إلى سطح المركب وكأنه تلقى طلقة بندقية؛ مثل مجنون هائج، عيناه جاحظتان ووجهه ينتفض من شدة الخوف. «أنقذني! أنقذني!» صاح، ومن ثم نظر حواليه صوب حجاب الضباب. تحوَّل رعبه إلى يأس، وقال بصوتٍ متوازن: «الأفضل لك أن تأتي أنتَ أيضًا أيها القبطان قبل فوات الأوان. إنه هناك. لقد عرفت السرَّ الآن. سينقذني البحر منه، هو ذا الحل الوحيد الباقي أمامي». وقبل أن أقول كلمة واحدة، أو أتحرَّك إلى الأمام لأمسك به، وثب فوق سور السفينة وقذف بنفسه في البحر. أحسب أنني عرفت السرَّ الآن. هذا المجنون هو الذي تخلَّص من البحَّارة واحدًا إثر آخر، وها هو الآن يلحق بهم هو نفسُه. فليكن الله في عوني! أنَّى لي أن أفسِّر هذه الأهوال كافة عندما أبلغ الميناء؟ عندما أبلغ الميناء! أسيحصل ذلك حقًا؟

٤ أغسطس- لم ينقشع الضباب بعد، ولم تستطع أشعة الشمس الطالعة اختراقه. أعرف أن الشمس طلعت لأني بحَّار، وما كنت سأعرف لأي سبب آخر سوى ذلك. لم أجرؤ على النزول إلى

الأسفل، لم أجرؤ على ترك الدفة، ولذا بقيت هنا طوال الليل، وفي عتمة الليل رأيته؛ هو ذا! فليسامحني الله، ولكن مساعد القبطان كان محقًا إذْ قفز من ظهر السفينة. فالأفضل أن تموت كرجل.. أن تموت كبحار في المياه الزرقاء، فلا أحد يستنكر ذلك. ولكني قبطان، وعليَّ ألَّا أغادر السفينة. لكن ينبغي لي أيضًا أن أصدَّ هذا الشيطان أو الوحش، لأني سأربط يداي بالدفة عندما تبدأ قواي تخور، ومع يدي سأربط ذلك الصليب الذي لا يجرؤ -هذا المخلوق- على لمسه، ومن ثمَّ ستأتي ريح مواتية أو عاصفة، وسأنقذ نفسي، وسأنقذ كرامتي كقبطان. يزداد ضعفي تدريجيًا، وهو ذا الليل يطبق. إذا نظر إلى وجهي مرة أخرى، فربما لا يكون أمامي الوقت الكافي لأفعل أي شيء.... وإذا حصل وتحطَّمَت السفينة، فعسى أن يجد أحدهم هذه القنينة، ولربما سيَفْهَمُ من يجدها ما جرى. وإذا لم يجدها أحد.. فلا بأس، عندها فليعرف الجميع أنني كنت أهلًا للثقة. فليكن الله والعذراء المباركة والقديسون في عون عبدٍ جاهل فقير يحاول أن يقوم بواجبه....

بالطبع كان الحكم مفتوحًا على جميع التأويلات. فما من دليل يمكن تقديمه؛ كما لا يوجد الآن أي دليل على أن القبطان نفسه هو من ارتكب الجرائم أم لا. اتفق الجميع تقريبًا على أن القبطان بطل بكل بساطة، وينبغي له أن يحظى بجنازة يشارك فيها الجميع. وقد رتبت الأمور سلفًا بأن يؤخذ جثمانه مع قافلة من المراكب إلى إيسك لبعض الوقت ومن ثم يُرْجَعُ به إلى رصيف تيت هِلْ ومنه صعودًا على درجات الدير، حيث سيوارى الثرى في ساحة الكنيسة الواقعة

على الجرف. أكثر من مئة مركبٍ تقدّم ملّاكهم معلنين رغبتهم في السير في جنازته حتى مثواه الأخير.

لم يُعْثَر إطلاقًا على أي أثرٍ للكلب الضخم الذي ساد حزن كبير عليه، وبناء على الرأي العام، فإنِّي أعتقد أن الكلب ستتبناه البلدة. غدًا يوم الجنازة؛ وهكذا سيسدل الستار على لغز آخر من «ألغاز البحر».

يوميات مينا موراي

٨ أغسطس- كانت لوسي مضطربة جدًا طوال الليل، وأنا كذلك لم أستطع النوم. كانت العاصفة مخيفة، وكنت أرتجِفُ رعبًا إذا ما هدرت بصخبٍ بين أعمدة المداخن. كلما صفقت الريح بدت وكأنها صوت مدفع بعيد. ومن الغريب جدًا أن لوسي لم تستيقظ! لكنها نهضت مرتين وارتدت ثيابها. لحسن الحظ، في كلتا المرتين استيقظتُ في اللحظة المناسبة واستطعت نزع ملابسها عنها دون إيقاظها، وأرجعتها إلى السرير. إن هذا المشي أثناء النوم لأمرٌ غريب جدًا! فحالما يعيق رغبتها في المشي أي معيق فيزيائي، فإن إرادتها، إن كان لديها إرادة، تختفي وتسلِّم نفسها تمامًا إلى روتين حياتها.

في الصباح الباكر، استيقظنا وذهبنا إلى الميناء لنرى ما إذا حدث شيء في الليل. كان هناك عدد قليلٌ جدًا من الناس، ورغم أنَّ الشمس كانت مشرقة والهواء صافٍ وعليل، فإن الأمواج الكبيرة المتجهِّمة، والتي بدت داكنة لشدة بياض الزَّبد الذي يعلو قممها،

أقحمت نفسها في المدخل الضيِّق للميناء مثلما يخترقُ متنمرٌ حشدًا من الناس. شعرتُ نوعًا ما بالسعادة لأنَّ جوناثان لم يكن في البحر الليلة الفائتة إنما على اليابسة. أفي البحر هو أم على الأرض؟ أين هو، وكيف أحواله؟ إني قلقة بشدة عليه. ليتني أعرف ماذا أفعل، لكنت فعلت أي شيء من أجله!

١٠ أغسطس - كانت جنازة القبطان المسكين مؤثرة جدًا اليوم. بدا أن كل مراكب الميناء حضرت الجنازة، وحمل القباطنة التابوت طوال المسافة الواصلة بين رصيف تيت هِلْ وحتى ساحة الكنيسة. جاءت لوسي معي، وذهبنا مبكرتين إلى مقعدنا العتيق، بينما مضى موكب المراكب عبر النهر إلى الجسر وعاد مرة أخرى. كان منظرًا بديعًا، وقد شاهدنا الموكب طوال الطريق تقريبًا. دُفِنَ القبطان المسكين في موضعٍ قريب إلى حد ما من مقعدنا، لذا وقفنا فوق المقعد عندما حان الوقت ورأينا كل تفاصيل المشهد. بدت لوسي مستاءة جدًا. كانت مضطربة ومتوترة طوال الوقت، ولم أستطع إلا أن أظن بأن أحلامها في الليل تؤرِّقها. إنها غريبة جدًا في أمر واحد؛ فهي لن تعترف لي بوجود أي سبب لاضطرابها، وحتى إذا كان هناك سبب، فهي ذاتها لا تفهمه. ها هو سبب إضافي يضاف إلى اضطرابها يتمثل في العجوز المسكين السيد سويلز الذي عُثِرَ عليه ميتًا صباح اليوم على المقعد الذي نجلس عليه، ورقبته مكسورة. وكما قال الطبيب، من الواضح جدًا أنه سقط على ظهره عن المقعد كنوع من الخوف، لأنه كانت هناك نظرة خوف ورعب مرتسمة على وجهه حتى إن الرجال قالوا إنها جعلتهم يرتجفون. يا للعجوز المسكين

الطيب! ربَّما رأى الموت بعينيه المحتضرتين! لوسي لطيفة وحساسة جدًا فكان تأثرها بذلك أكثر حدة من الآخرين. الآن بالتحديد كانت متوترة جدًا بسبب أمر صغير لم ألقِ له بالًا، رغم أنني مغرمة جدًا بالحيوانات. جاء أحد الرجال الذين يأتون إلى هنا في الغالب لينتظر قدوم المراكب وقد تبعه كلبُه. هذا الكلب دائمًا معه. كلاهما هادئان؛ لم أرَ الرجل غاضبًا قط، كما لم أسمع الكلب ينبح. أثناء مراسم الدفن لم يأتِ الكلب إلى صاحبه، الذي كان جالسًا على المقعد معنا، بل بقي بعيدًا بضع ياردات نابحًا مزمجرًا. تحدَّث معه صاحبه بلطف، ومن ثم بغلظة، ومن ثم بغضب.. ولكنه لم يكن ليأتي إليه أو يكف عن إحداث الضجة. أصابه نوع من الهياج، نظرته شرسة، وشعره منتصب مثل ذيل قطة تستعد لخوض شجار. في الأخير، ألمَّ الغضب بالرجل أيضًا، فوثب من مقعده ورفس الكلب، ومن ثم سحبه من قفا رقبته، وما بين جرجرة ورمي، قذفه على شاهدة القبر التي ثبت فوقها المقعد. وفي اللحظة التي لمس فيها الكلب المسكين حجر الشاهدة هدأ روعه واجتاحته ارتجافةٌ في كل أوصاله. لم يحاول أن يهرب، ولكنه تقرفص مرتجفًا ومنكمشًا، وكان في حالة رعب تثير الشفقة. حتى إنني حاولت، رغم عدم جدوى محاولتي، أن أهدئ من روعه. كانت لوسي تفيض بالشفقة أيضًا، ولكنها لم تحاول أن تلمس الكلب، بل نظرت إليه بطريقة مشوبة بالألم. خشيت بشدة من أنها ذات طبيعة حساسة جدًا لن تستطيع معها العيش في هذا العالم دون مشاكل. ستحلم بذلك الليلة، أنا متأكدة من ذلك. فاجتماع كافة الأشياء -توجيه قبطانٍ ميت السفينة

إلى الميناء، وهيئته؛ مربوطًا إلى الدفة بصليب وخرز، الجنازة المؤثرة، والكلب الذي يجتاحه الهياج تارة والرعب تارة أخرى- كلها ستوفر مادة خصبة لأحلامها.

أرى أنه من الأفضل لها الخلود إلى النوم وقد أضناها التعب البدني، ولذا سآخذها في جولة طويلة بمحاذاة الجروف ذهابًا وإيابًا من خليج روبن هود. ولا ينبغي لنزعة المشي أثناء النوم أن تخالجها بعدئذٍ.

الفصل الثامن

يوميَّات مينا موراي

الساعة ١١ ليلًا في اليوم نفسه- آه، كم أنا متعبة! ولو لم أتخذ من الكتابة واجبًا ألزمت نفسي فيه لما فتحت المذكرة الليلة. لقد قضَّينا مشوارًا رائعًا. بعد برهة باتت لوسي مبتهجة الروح، ويرجع الفضل في ذلك كما أظن، إلى بعض الأبقار اللطيفة في أحد الحقول القريبة من المنارة البحرية، بعد أن تقدَّمت نحوَنا ببطءٍ وأثارت الرعب فينا على حين غرة. أظن خوفنا الشخصي أنسانا كل شيء آخر، وبدا كما لو أنه أزال عنَّا الكَدَر ومنَحَنا بدايةً جديدةً. شربنا «شايًا ثقيلًا» ممتازًا في خليج روبن هود في خانٍ جميل صغير قديم الطراز، لَهُ شبَّاكٌ ناتئ مقوَّسٌ يقع تمامًا فوق صخور الشطِّ المغطَّاة بأعشاب البحر. أعتقد أننا قد دمرنا صورة «المرأة الجديدة»[1] بشهيَّتنا للأكل. إن الرجال، باركهم الله، أكثر تسامحًا! بعدها سرنا نحو المنزل، وتوقَّفنا بضع مرات، أو بالأحرى عدة مرات، لنرتاح، وقلوبنا يملؤها ذعر

(١) مصطلحٌ شاعَ في أواخر القرن التاسع عشر لوصف النساء اللاتي تحدَّين قيود مجتمعاتهن وعاداتها. وتطوَّر المصطلح لاحقًا ليصبح «النساء المتحرِّرات».

متواصل بسبب الثيران البرية. كانت لوسي متعبةً حقًا، وعزمنا أن نندس في السرير ما إن تسنح الفرصة. وعلى أي حال، جاء مساعد القسِّيس الشاب، وطلَبَت منه السيِّدة ويستينرا أن يبقى لتناول العشاء. خُضْنَا كلانا صراعًا مع رجل الرِّمال[1] حتى نستطيع النوم. أعلم أن الصراع من جانبي كان شرسًا، وقد قاومت فيه بشجاعة. أظن أنَّه من الواجب على الأساقفة أن يجتمعوا ذات يومٍ ويبحثوا في مسألة استيلاد صنفٍ جديدٍ من مساعدي القساوسة الذين لا يتناولون العشاء، بصرف النظر عن درجة الإلحاح الذي يتعرَّضون له، ويقدِّرون متى تكون النساء متعبات. هي ذي لوسي نائمة وتتنفس برفقٍ. خدودها محمرَّة أكثر من المعتاد، رباه كم هي جميلة! إن كان السيد هولمُود قد وقع في عشقها بمجرَّد رؤيتها في صالة الضيوف، أتساءل ما كان سيقول لو رآها الآن؟ ذات يوم ستطلق بعض الكاتبات من «النساء الجديدات» فكرةً مفادُها أنه ينبغي السماح للرِّجال والنساء بأن يرى أحدُهم الآخر وهم نيامٌ قبل الخطبة أو الموافقة على الزواج. ولكني أحسب أن المرأة الجديدة لن تتكرَّم في المستقبل بالموافقة على الخُطَّاب، بل إنما هي من ستتقدَّم لخطبتهم. وستقوم بذلك على نحو بارعٍ أيضًا! قد يكون بهذا بعض السلوى. إنني في قمة السعادة هذه الليلة، لأن لوسي العزيزة تبدو في حالٍ أفضل. أظنها تجاوزت أزمتها فعليًا، وأننا انتهينا من مشاكل أحلامها. سأكون في قمة السعادة لو عرفت فقط أنَّ جوناثان... فليباركه الله ويحفظه.

---

(١) شخصية أسطورية في تراث أوروبا الشمالية والغربية حيث يقوم بتنويم الناعسين ويرسل لهم أحلامًا حلوة من خلال ذرِّ الرمال السحرية في عيونهم.

١١ أغسطس، الثالثة فجرًا- عدتُ إلى الكتابة في المذكَّرات مرَّة أخرى. اضطراب شديد يمنعني من النوم، لذا سأكتب طالما أنني متيقظة. لقد خضنا مغامرة فريدة، خضنا تجربةً مؤلمةً. خلدتُ إلى النوم حالما أغلقْتُ مفكرتي.. وفجأة استيقظت، ثم استويتُ في سريري، يكتنفني شعور بشيء من الخواء. الحجرة مظلمة، ولم أستطع رؤية سرير لوسي. تسلَّلتُ عبر العتمة أتلمَّس وجودها في سريرها.. كان فارغًا. أشعلتُ عود ثقاب واكتشفت أنها ليست في الحجرة. الباب مغلقٌ ولكنه غير موصدٍ، تمامًا مثلما تركتُه. خشيتُ أن أوقظَ أمها والتي تدهورت صحتها بصورة بالغةٍ مؤخَّرًا، ولذا ارتديتُ على عجل بعض الثياب وتهيَّأتُ للبحث عنها. بينما كنت أغادر الحجرة خطر في بالي أنَّ الثياب التي ارتَدَتْهَا ربما تقدِّم لي دليلًا على نوايا أحلامها. لو كانت برداء البيت فهذا يعني أنَّها لم تغادر، أما الفستان فيعني أنها خرجت. كان رداء البيت والفستان في موضعيهما. قلتُ لنفسي: «الحمد لله، لا يمكن أن تكون قد ابتعدت وهي لا ترتدي سوى منامَتِها. ركضتُ نازلةً إلى الأسفل وبحثتُ عنها في غرفة الجلوس. ليست هناك! بحثت بعد ذلك في كل غرف المنزل الأخرى والخوف يتنامى في قلبي. في الأخير وصلت بابَ الصالة ووجدته مفتوحًا. لم يكن مفتوحًا على مصراعيه، ولكنّه ليس مقفلًا. سكَّانُ المنزل حريصون على إقفال البابِ كل ليلة.. أخشى أن تكونَ لوسي خَرَجَتْ من المنزلِ مرتديةً مَنَامَتها. لم يكن هناك وقت للتفكير في احتمالات ما حصل، وكأن خوفًا غامضًا مستبدًا قد حجب التفاصيل كافة. وضعتُ شالًا كبيرًا سميكًا وركضتُ

خارجةً. دقَّت الساعة معلنةً الواحدة ليلًا وأنا قربَ مبنى كريسنت، لا أحد هناك. ثم ركضتُ عبر شارع نورث تيريس، خابت توقعاتي ولم أعثر على أي أثر لِطَيْفٍ أبيض. عند حافة الجرف الغربي وفوق رصيف الميناء، لست أدري أكان خوفًا أم أملاً ذلك الشعور الذي راودني حين نظرتُ عبر الميناء إلى الجرف الشرقي لأرى إن كانت لوسي جالسةً على مقعدنا المفضل. البدرُ مشرقٌ، وثمَّةَ غيوم كثيفة سوداء تعبر السماء وقد أحالت المنظر برمته إلى منظر ديورامي يتناوبه الضوء والظل وهي تمرُّ سابحةً عبر السماء. لوهلة لم أستطع رؤية شيء، إذ حجب ظلُّ غيمةٍ كنيسةَ سينت ميري وكل ما يحيط بها. بعد ذلك، وحين مرت الغيمة رأيتُ آثار الدَّير وقد بانت في المشهد. وعندما تحرَّكَتْ حزمة ضوء حادَّة كالسيف، بانت الكنيسة وساحتُها تدريجيًا. أيًا كان ما توقعت فلم يخب أملي، إذ رأيتُ هناك، على مقعدنا المفضل، نورَ القمر الفضي ساقطًا على شخصٍ شبه مستلقٍ، أبيضَ كالثلج. مرت الغيمة بسرعة، وأطبق الظل على الضوء، فلم أتمكن من إمعان النظر. لكنْ بدا لي وكأنَّ شيئًا أسودَ واقفٌ وراء المقعد وقد انحنى فوق الشخص الأبيض. أبشرٌ هذا أم وحش؟ لا أدري ولم أنتظر لاقتناص نظرة أخرى، هرعت مسرعةً عبر الدرجات المنحدرة إلى رصيف الميناء ومررْتُ بجوار سوق السمك وصولًا إلى الجسر الذي كان السبيل الوحيد للوصول إلى الجرف الشرقي. بدت البلدة وكأنها ميتة، لم أرَ ولو شخصًا واحدًا، وقد سرني ذلك، إذ لا أريد أي شهود على حالة لوسي المسكينة. بدا الزمان والمسافة لا متناهيان. ارتعشت ركبتاي وتَقَطَّعت أنفَاسِي

أثناء معاناتي بصعود الدَّرَجات المؤدية إلى الدَّير. لا بدَّ أني انطلقت بسرعة كبيرة، ومع ذلك بدا لي وكأن قدماي مثقلتَان بالرصاص، وكأنَّ كلَّ مفصل في جسدي علاه الصدأ. عندما اقتربتُ من القمَّة رأيت المقعد والشخص الأبيض، لأني بتُّ الآن قريبة بها يكفي لتمييزه حتى أثناء سقوط الظل عليه. كان هناك كائن ما بلا أدنى شك، طويل وأسود، منحنيًا فوق الشخص الأبيض شبه المستلقي. صحتُ مذعورةً: «لوسي! لوسي!» رفع ذلك الشيء رأسَه، ومن المكان الذي كنتُ فيه رأيتُ وجهًا أبيضَ وعينين برَّاقتين حمراوين. لم تجبني لوسي، فركضتُ إلى مدخل ساحة الكنيسة. حين دخلتُ، صارت الكنيسة تفصل بيني وبين المقعد، مرت دقيقة دون أن أرى لوسي. عندما عدت للمشهد مرة أخرى بعد مرور الغيمة، سَطَع نورُ القمر ببهاءٍ حتى إني استطعت رؤية لوسي شبه مستلقية ورأسها مرتخٍ فوق مسند ظهر المقعد. كانت وحدها تمامًا، لا وجود لأي أثر لكائنٍ حيٍّ قربها.

عندما انحنيتُ فوقها وجدتُها ما تزال نائمة. شفتاها متباعدتان، تتنفَّس، ولكن على خلاف عادتها، كانت تلهث أثناء تنفسها، وكأنها كانت تصارع لملء رئتيها بالهواء مع كل نفس تسْحَبُه. لما اقتربت منها، رفَعَتْ يدَها وهي نائمة وشدَّتْ ياقة منامَتِهَا حول رقبتها. لما فعَلَت ذلك انتابَتْها رعشةٌ خفيفةٌ وكأنها شعرت بالبرد. ألقيتُ بالشال الدافئ عليها، وشددت أطرافه بإحكام حول رقبتها، إذ خشيت أن يصيبها هواء الليل ببرد قاتل، فقد كانت شبه متجرِّدةٍ من ثيابها. لم أرغب أن أوقظها فجأة.. ولكي تكون يداي خاليتين

حتى أتمكن من مساعدتها، ربطتُ الشال حول رقبتها وثبتّه بمشبكٍ إنجليزي كبيرٍ. ولكن لا بدَّ أني كنتُ خرقاء بسبب قلقي فوخزتها به، لأنها بعد ذلك، عندما هَدَأ تنفُّسُها، وَضَعَتْ يدَها على رقبتها مرَّة أخرى وتأوَّهَتْ. بعد أن لففتها بالشال بعنايةٍ وحرصٍ ألبَسْتُها حذائي، ومن ثمَّ بدأتُ إيقاظها برفقٍ شديد. لم تستجب في أول الأمر، وازداد اضطرابها تدريجيًا خلال نومها، فصارت تتأوه وتتنهد بين الفينة والأخرى. في الأخير، لأن الوقت كان يمرُّ سريعًا، ولعدة أسباب أخرى، تمنَّيْتُ أن أصل بها المنزلَ من فوري، فهززتها بقوة أكبر حتى فتَحَت عينيها واستيقَظَت أخيرًا. لم تبدُ متفاجئةً برؤيتي، لأنَّهَا بالطبع لم تدركعلى الفور أين كانت في تلك اللحظة. دائمًا ما كانت لوسي تستيقظ بهيئة فائقة الجمال، وحتى في ظل هذه الظروف، في الوقت الذي يفترض أن يكون فيه جسدها قد تجمَّد من البرد، وعقلها مرتاع نوعًا ما بسبب استيقاظها شبه عارية في ساحة كنيسة في الليل، إلا أنها لم تفقد بهاءها. ارتجفَتْ قليلًا وتشبَّثَتْ بي، وعندما طلبتُ منها أن تأتي من فورها معي إلى البيت نَهَضَت مُطيعةً مثل طفلة دون أن تنطق بكلمة. أثناء سيرنا آذَت الحصى قدميَّ، ولاحَظَتْنِي لوسي وأنا أنتَفِضُ ألمًا. فتوقَّفَتْ وألحَّتْ عليَّ حتى آخذ حذائي، ولكني ما كنت لأقبَل. عندما وصلنا إلى المعبر الواقع خارج ساحة الكنيسة، حيث كانت هناك بقعة ماء متبقية من بعد العاصفة لوَّثت قدماي بالطِّين، فسرت إلىِ المنزل طوال طريق العودة واضعةً قدمًا تلو أخرى حتى لا يلاحظها أحدٌ.

خدَمَنَا الحظ ووصلنا البيت دون أن نلتقي بأحد. صدَف مرة أن

رأينا رجلًا، بدا غير صاحٍ من سكره تمامًا، يعبُر أحد الشوارع أمامنا. دق قلبي بسرعة لدرجة أنني شعرت أنه سيغمى علي لشدة الخوف. اختبئنا داخل بابٍ حتى توارَى الرجل في فتحة مثل الفتحات الموجودة هنا، وهي نهايات صغيرة منحدرة، أو (حارَات)، كما يسمونها في سكوتلندا. ملأني القلق على لوسي، لم أكن قلقةً فقط على صحَّتها وما قد تعانيه بعد الذي واجهته اليوم، ولكني أخشى على سمعتها في حال افتضح أمر قصتها. عندما دخلنا المنزل، وبعد أن غسلنا أقدامنا، وصلَّينا معًا صلاة شكرٍ لله، أرقَدْتُها في السرير. قبل أن تخلد إلى النوم طلَبَتْ مني -بل توسلت إلي- ألَّا أقول كلمةً لأيٍّ كان، ولا حتى لأمها، عن حادثة مشيها أثناء نومها. تردَّدْتُ في البداية، ولكنْ عندما فكَّرتُ في حالة أمها الصحيَّة وكيف يمكن أن تضايقها معرفة هذا الأمر، وعندما فكَّرتُ أيضًا كيف يمكن للألسن أن تحرِّفَ قصةً مثل هذه لو تسرَّبت، رأيت أنه من الحكمة عدم البوح بها لأحدٍ. آمل أنني فعلت الصواب. أقفلتُ الباب، والمفتاح مربوط بمعصمي، عسى ألا تزعجني مرَّة أخرى. هي ذي لوسي تنام الآن نومًا عميقًا، وقد علا انعكاس أضواء الفجر البعيدة فوق البحر...

في اليوم نفسه عند الظهر - كل شيء على ما يرام. نامت لوسي إلى أنْ أيقظْتُها وبدا أنها حتى لم تنقلب أثناء نومها. لا يبدو أن واقعةَ الليل آذتْهَا، بل على العكس نفعتها كثيرًا، لأنها تبدو أفضل هذا الصباح مما كانت عليه طوال أسابيع. شعرتُ بالأسف إذْ لاحظتُ أن رعونتي في تثبيت المشبك قد آذتها. كان يمكن لتلك الوخزة

أن تكون فعلًا خطرة، لأن بشرة رقبتها كانت مثقوبة. ولا بد أنني وخزت موضعًا من البشرة الطرية وخرقْتُه، نظرًا لوجود نقطتين صغيرتين حمراوين مثل شكَّتي دبوس، وعلى رِبَاط منامتها نقطة من دم. عندما اعتذرتُ وأبديتُ انشغال بالي بسبب ذلك، ضَحِكَتْ وربَّتَتْ على كتفي، وقالت إنَّها لم تشعر بها حتى. ولحسن الحظ أنها لن تتركَ ندبة، لأنها صغيرة جدًا.

اليوم ذاته، ليلا - قضَّينا يومًا سعيدًا. كان الهواء صافيًا، والشمس مشرقة، وهبَّ نسيم عليل. حملنا غداءنا إلى غابة ملغريف، قادت السيِّدة ويستينرا العربة بجانب الطريق، بينما مشيت مع لوسي ناحية الجرف، ثم التقينا جميعًا عند البوَّابة. شعرتُ بقليل من الحزن، إذ كنت أفكر كيف ستكون سعادتي غامرة لو كان جوناثان معي. كفى! ينبغي لي أن أكون صبورة. تمشَّيْنا في المساء في شارع كاسينو تيريس، واستمعنا لبعض الموسيقى الجميلة من أعمال سپور[(١)] وماكنزي[(٢)]، وخلدنا إلى النوم باكرًا. تبدو لوسي مرتاحة أكثر مما كانت عليه لبعض الوقت، خَلدتْ إلى النوم من فورها. ينبغي لي أن أوصدَ الباب وأخفي المفتاح بذات الطريقة التي فعَلْتُها من قبل، رغم أني لا أتوقع حصول أي مشاكل الليلة.

١٢ أغسطس - خابت توقُّعَاتي، لأني استيقظت مرَّتين أثناء الليل على صوت لوسي وهي تحاول الخروج. بَدَتْ حتى أثناء نومها غير

---

(١) لويس سپور (١٧٨٤ - ١٨٥٩): موسيقي وعازف كمان ألماني.

(٢) ألكساندر ماكنزي (١٨٤٧ - ١٩٣٥): موسيقي وعازف سكوتلندي.

صبورة بعض الشيء، لأنها وجدت الباب مغلقًا فعادت إلى السرير يظهر عليها شيء من الاعتراض. استيقظتُ مع خيوط الفجر، وسمعتُ العصافير تغرد خارج النافذة. استفاقتْ لوسي أيضًا، وسرَّني أنْ رأيتُها أفضل حالًا مما كانت عليه حتى في صباح اليوم الفائت. يبدو أن كل سلوكها البهيج الذي لازمها في السابق قد عاد إليها، فما كان منها إلَّا وجاءت قربي وحكَت لي كل شيء عن أرثر. وعندما بثثتُها بمدى القلق الذي يعتريني على جوناثان، حاوَلت أن تطمئنَني. لا بأس، فقد نجَحَت بدرجةٍ ما، لأن التعاطف وإن كان عاجزًا عن تغيير الحقائق، إلا أنه يجعلها قابلة للاحتمال.

١٣ *أغسطس*- يوم هادئ آخر، أمضي إلى النوم والمفتاح مربوط بمعصمي كما فعلت مسبقًا. استيقظتُ مرَّة أخرى في الليل، ووجدتُ لوسي جالسةً في السرير تشير صوب النافذة وهي لا تزال نائمة. نهضتُ بهدوءٍ وأزحتُ ستارة النافذة جانبًا، ونظرتُ إلى الخارج. كان القمر مذهلًا، تعجز الكلمات عن وصف جماله، ينتشر نوره الرقيق فوق البحر وفي السماء وقد اندمجا بغموضٍ مهيب. وفجأة، بيني وبين نور القمر رفرف وطواطٌ ضخم ظل يحلق جيئة وذهابًا بطريقة دائرية. اقترب مني لمرة أو مرتين بصورة كبيرة، ولكنه ربما خاف حين رآني فطار مبتعدًا عبر الميناء صوب الدَّيْر. حين تركت النافذة كانت لوسي قد اضطجَعَتْ نائمة بهناء مرة أخرى. لم تتحرَّك طوال الليل.

١٤ *أغسطس*- على الجرف الشرقي، جلسنا طوال اليوم منهمكتين في القراءة والكتابة. يبدو أن لوسي باتت مغرَمَةً بالمكان

مثلي، وصار من الصعب جعلها تغادره عندما يحين موعد العودة إلى البيت لتناول الغداء أو العشاء أو لشرب الشاي. أبدَتْ ظهيرةَ اليوم ملاحظةً مضحكةً، كنَّا عائدتين إلى البيت لتناول العشاء، وقد بلغنا آخر الدَّرَجات الواقعة أعلى رصيف الميناء الغربي، وتوقَّفْنا لكي نستمتع بالمنظر كما نفعل عمومًا. كانت الشمس الغاربة المنخفضة في السماء تهبط للتو وراء كِيْتِلْنِسْ، والضوء الأحمر منتشرٌ على الجرف الشرقي والدَّير العتيق، وبدا أنه يحمِّم كل شيء في وهجٍ وردي جميل. صمَتْنَا برهة، وفجأة هَمْهَمَت لوسي وكأنَّها كانت تحكي مع نفسها:

«عيناه الحمراوان مرَّة أخرى! العينان ذاتهما تمامًا». كانت جملةً غريبة جدًا، غير مرتبطة بأي سياق، حتى إنها أجفَلَتْنِي تمامًا. دُرْتُ قليلًا كي يتسنَّى لي رؤية لوسي جيدًا دون أن يبدو عليَّ أنني أحدق بها، ووجدتها في حالةٍ شبه حالمةٍ، وقد ارتسمت على محيَّاها نظرةٌ غريبةٌ لم أستطع تفسيرها بدقة، لذا لُذْتُ بالصمت ولكني تتبَّعْت نظَرَات عينيها. بدا أنها كانت تنظر إلى مقعدنا حيث جلس عليه شخص مجلَّلٌ بالسَّواد وحيدًا. انتابَني الذعر قليلًا، إذ بدا للحظةٍ وكأن ذلك الغريب له عينان كبيرتان متأججتان كالنيران، ولكن الوهم زال عني بعد النظرة الثانية. كان ضوءُ الشمس الأحمر يشرق على نوافذ كنيسة سِينت ميري خلف مقعدنا، وبينما انحدرت الشمس في غروبها حدَث تغيُّر كافٍ في انكسار الضوء وانعكاسه مما جعله يبدو وكأنه يتحرَّك. لَفَتُّ انتباه لوسي إلى التأثير الغريب، واعتَرَتْها الدهشة هي أيضًا، ولكنها بدت حزينةً في الوقت ذاته،

وربما سبب ذلك أنها كانت تفكر بتلك الليلة الرهيبة التي قضّتها هناك. لم نأتِ على ذكر تلك الليلة قط، لذا لم أقل شيئًا. عدنا إلى البيت لتناول العشاء. أصيبت لوسي بصداعٍ فذهبت إلى النوم باكرًا. رأيتُها نائمة فخرجت أتمشّى وحدي قليلًا، سرتُ على الجروف الواقعة جهة الغرب وشعور جميل بالحزن يغمرني، إذ كنت أفكّر في جوناثان. وعندما رجعتُ إلى البيت وكان ضوء القمر المشرق حينئذٍ ينشر بريقَه فأنار كل شيء، لدرجة أننا برغم وقوع واجهتنا من مبنى كريسنت ناحية الظل إلا أن الرؤية كانت كأوضح ما يكون. ألقيتُ نظرةً خاطفة إلى الأعلى صوب نافذتنا، فرأيتُ رأس لوسي يتدلى خارجًا منها. حسبتُ أنّها ربما كانت تطل برأسها بحثًا عني، ولذا فتحتُ منديلي ولوّحْتُ لها به. لم تلاحظ أو تبدي أي حركة مهما كانت. وفي تلك اللحظة بالذات زحف نور القمر حول زاوية من زوايا المبنى، وسقطَ النور على النافذة. بانت لوسي بشكل واضحٍ مسندة رأسها على طرف عتبة النافذة وعيناها مغمضتان. غارقةً في النوم، ويربض بجانبها على عتبة النافذة شيءٌ بدا مثل طائر كبير الحجم. خِفْتُ عليها أن تصاب بالبرد الشديد، ولذا هرعتُ راكضةً إلى الأعلى، ولكن عندما دخلتُ الحجرة وجدتها وقد عادت إلى سريرها، غارقة في النوم، وهي تتنفس بشدة وكانت ترفع يدها إلى رقبتها وكأنها تدرأ عنها البرد.

لم أوقظها، ولكني أرقَدْتُها في السرير وأحكمتُ تغطيتها عساها تنعم بالدفء، وتأكدتُ أنَّ الباب موصدٌ والنافذة مغلقة بإحكام.

تبدو رقيقة أثناء نومها ولكنها أشد شحوبًا من المعتاد، وهناك

علامات داكنة أسفل عينيها. لم يعجبني ذلك، وأخشى أن شيئًا ما يؤرقها. ليتني أستطيع أنا أعرف ما هو!

١٥ أغسطس– استيقظنا متأخرين أكثر من المعتاد. كانت لوسي ذابلة ومتعبة، فعادت إلى النوم بعدما نودي علينا لتناول الإفطار. كانت بانتظارنا مفاجأةٌ سارَّة على الإفطار. فوالد أرثر صار أفضل حالًا، ويريد للزواج أن يتمَّ قريبًا. كانت لوسي سعيدة لكن بهدوء. أما والدتها فقد اختلط عليها الحزن والسعادة في الآن ذاته. وقد أخبرتني بالسبب في وقت لاحق من ذلك اليوم. فهي حزينة جدًا على فقدان لوسي، ابنتها المقربة، ولكنها سعيدة لأنها ستحظى قريبًا بزوجٍ يحميها. يا للسيِّدة اللطيفة المسكينة! أسرَّت لي بأنها أُبْلِغَتْ بأنها ميتة لا محالة. لم تخبر لوسي بذلك، وأخذت مني الوعود لإبقاءِ الأمر سرًا بيننا، فقد قال لها طبيبُها إنَّها ستموت بصورة مؤكدة في غضون بضعة أشهرٍ على أكثر تقدير، لأن قلبها يزداد ضعفًا. ومن شبه المؤكد أن أي صدمةٍ مفاجئة في أي وقت من الممكن أن تقضي عليها نهائيًا، حتى لو كان ذلك الآن. آهٍ، كم كنا حكماء إذْ أخفينا عنها حكاية الليلة المرعبة التي مشت فيها لوسي أثناء نومها!

١٧ أغسطس– لم أكتب سطرًا في مذكَّراتي مدَّةَ يومين كاملين. لم أمتلك الشجاعة لأكتب. ويبدو أن سحابة من الغم ستلقي بظلالها على سعادتنا. لا أخبار من جوناثان، ويبدو أن لوسي تزداد ضعفًا، بينما باتت ساعات أمها في هذا العالم معدودة وقد اقتربت نهايتها. لم أفهم سبب الذبول الذي حل بلوسي. فهي تأكل جيدًا وتنام جيدًا، وتستمتع بالهواء العليل. ولكن بهاء وجنتيها يذوي

مع الوقت، وهي تضعف وتزداد وهنًا يومًا بعد يوم، وكل ليلة أسمعُها تتنفس بصعوبة بالغة. صرت أبقي مفتاح باب غرفتنا مربوطًا بمعصمي في الليل دائمًا، ولكنها ظلت تنهض وتمشي في أرجاء الحجرة، أو تجلس ناظرةً من النافذة المفتوحة. عندما استيقظت الليلة الماضية وجدتها وقد مدَّت رأسها نحو الخارج، ولما حاولتُ إيقاظَها لم أستطع إذ كانت مغشيًّا عليها. حين تمكَّنْتُ من إفاقتها كانت هشَّة كالماء. بكَت بصمتٍ بين محاولاتها الموجعة لالتقاط أنفاسها. حين سألتُها كيف وصلت إلى النافذة هزَّت رأسها وأشاحت بوجهها عني. أنا واثقةٌ أن شعورها بالمرض قد لا يكون له علاقة بتلك الوخزة المنحوسة التي تسبَّب بها المشبك. نظرتُ إلى رقبتها في هذه اللحظة بالذات وهي تستلقي نائمة، ويبدو أنَّ الجرحين الصغيرين لم يُشْفَيَا بعد ولم يلتئما. لا بل إنهما أكبر حجمًا من قبل، ولهما حواف بيضاء بدرجة خفيفة. كأنهما نقاط بيضاءَ صغيرة ذات مراكز حمراء. وما لم يلتئما خلال يومٍ أو يومين، فإني سأصرُّ على أن يفحصهما الطبيب.

رسالة من مؤسسة صموئيل إف. بيلنغْتُن أند صَنْ للمحاماة في وِتْبِي إلى السَّادة في شركة كارتر وبيترسُن أند كو في لندن

١٧ أغسطس

السادة الأعزاء،

نرجو منكم أن تستلموا مع هذه الرسالة فاتورةَ البضائع المرسلة

عن طريق شركة غريت نورثرن ريلواي. ينبغي تسليم البضاعة إلى منزل كارفاكس قرب بيورفليت مباشرةً بعد استلامها في محطة شحن بضائع كنغز كروس. ونحيطكم علمًا أن المنزل فارغ حاليًا، ولكننا نرجوكم بالتفضُّل باستلام المفاتيح المرفَقَة، والتي تحمل جميعها أرقام الأبواب الخاصة بكل واحد.

كما نرجو منكم وضع الصناديق، وعددها خمسون صندوقًا تشكِّل كامل محتوى الشحنة، في المبنى المتهدِّم جزئيًا وهو قسم من المنزل يشار له بالرمز «أ» على المخطَّط البياني التقريبي المُرْفَق. سيعرفه وكيل شركتكم بسهولةٍ ويُسر، فالمكان المشار إليه هو الكنيسة العتيقة في المنزل الكبير. البضاعةُ سترسل في القطار المنطلق في الساعة ٩:٣٠ الليلة، وستصل محطة كنغز كروس في الساعة ٤:٣٠ عصر الغد. وحيث أن زبوننا يأمل أن يتم تسليم البضاعة بأسرع ما يمكن، فإننا نجد أنفسنا ملزمين بأن نطلب منكم أن تكون طواقم عملكم جاهزة في محطة كنغز كروس في الوقت المحدَّد وأن ينقلوا البضاعة إلى وجهتها من فورهم. ولكي نتلافى أي حالات تأخير ممكنة خلال أي إجراءات روتينية لازمة فيما يخص الدفع في مكاتب شركتكم، نرفق لكم شيكًا بقيمة عشرة جنيهات استرلينية (١٠ ج)، ونرجو منكم إبلاغنا باستلامكم المبلغ. وفي حال قلَّت الأجرة عن قيمة هذا المبلغ، يمكنكم إعادة الباقي، وإذا زادت الأجرة عن القيمة، فسوف نرسل لكم في الحال شيكًا بقيمة الفرق حالما يتم إبلاغنا بذلك منكم. يجب أن تتركوا المفاتيح عند مغادرتكم في الصالة الرئيسة في المنزل، حيث يمكن

لصاحب المنزل أن يجدها لحظة دخوله المنزل مستخدمًا نسخةً إضافية معه من المفتاح.

ونرجو ألَّا نضطر لتجاوز حدود أعراف التجارة في الضغط عليكم بكافة الطرق للجوء إلى أقصى درجات الاستعجال.

مع خالص تحياتنا لكم أيها السَّادة

مؤسسة صموئيل إف. بيلنغْتُن أند صَنْ

رسالة من السَّادة في شركة كارتر وپاترسُن أند كو في لندن إلى السَّادة في مؤسسة بيلنغْتُن أند صَنْ في وِتْبِي

٢١ أغسطس

السَّادة الأعزاء،

نودُّ إبلاغكم باستلامنا مبلغ ١٠ جنيهات استرلينية ونعيدُ لكم شيكًا بقيمة جنيه واحد وسبعة عشر شلنًا وتسعة بنسات، وهو المبلغ الزائد عن المبلغ المطلوب وفق ما هو موضَّح في الحساب المرفق في الفاتورة. وقد سُلِّمت البضاعة وفق التزامنا الدقيق بتعليماتكم، وتُرِكَت المفاتيحُ في طردٍ في الصالة الرئيسة، حسب توجيهاتكم.

وتفضَّلوا بقبول فائق الاحترام

مؤسسة كارتر وپاترسُن أند كو

١٨ أغسطس- أنا سعيدة اليوم، أكتب وأنا جالسة على المقعد في ساحة الكنيسة. لوسي في أحسن حالاتها على الإطلاق. فقد نامت البارحة جيدًا طوال الليل، ولم تزعجني ولو مرة واحدة. يبدو أن التورُّدَ عاد إلى وجنتيها، رغم أنها ما تزال شاحبة وخائرة القوى على نحوٍ يبعث الحزن في النفس. لو أنَّها بأي حال من الأحوال مصابة بفقر الدم لتفهَّمْتُ الأمر، ولكنها ليست كذلك. فمعنوياتها عالية وهي مفعمة بالحياة والبهجة. ويبدو أن كل التكتم الرهيب قد زال عنها، وقد ذكَّرَتْنِي للتو، وكأنني أحتاج من يذكرني، بتلك الليلة، حيث وجدتها نائمة هنا على هذا المقعد بالذات. وهي تقول لي ذلك داعبت، مازحةً، كعب جزمتها ببلاطة الشاهدة الحجرية، ثم قالت:

«لم تُحْدِث قدمايَ الصغيرتان الهزيلتان الكثير من الفوضى إذن! أحسب أنَّ العجوز المسكين السيد سويلز كان سيقول لي ذلك لأنِّي لم أرد أن أوقظ جيوردي». ونظرًا لكونها في هذا المزاج الميَّال إلى الكلام، سألتُها إذا كانت قد رأت أي أحلامٍ تلك الليلة. قبل أن تجيب، علت جبينَها تجعيدة لطيفة، تلك التي يقول أرثر إنَّه يحبها فيها، ولا أستغرب ذلك أبدًا -وأنا أدعوه أرثر مثلما تفعل هي-. ثم تابعت حديثَها بأسلوبٍ شبه حالم، وكأنَّها تحاول أن تستدعي الحلم إلى ذاكرتها:

«لم أحلم بمعنى الحلم، إذ بدا كل شيء واقعيًا. أردت فقط أن أكون هنا في هذا المكان، ولا أعرف السبب، لأني كنتُ خائفةً من

شيء ما لا أعرف ما هو. أتذكَّر، رغم أنه يفترض أني كنتُ نائمة، أني عبَرْتُ الشوارع ومن ثم مررت فوق الجسر. وحدث أن قَفَزَت سمكةٌ وأنا أجتاز الجسر، فاتكأتُ مطلَّةً برأسي كي أنظر إليها، وسمعتُ العديد من الكلاب وهي تنبحُ مزمجرةً بينما كنت أصعدُ الدَّرَجات، وبدا أنَّ البلدة عن بكرة أبيها تعج بالكلاب التي همَّت بالنباح في وقتٍ واحدٍ. بعد ذلك حلت بذهني ذكرى غامضة لشيء ما طويل وأسود بعينين حمراوين، حمرة تشبه تمامًا اللون الذي رأيناه أثناء الغروب. أحاط بي شيء ما، شديد الحلاوة بقدر ما هو شديد المرارة، بعدها شعرت أني أغرق في مياه خضراء عميقة، وكان هناك غناءٌ يصدح في أذناي وكأنه غناء لرجال يغرقون، ومن ثم بدا أن كل شيء يزول مبتعدًا عنِّي، وبدت روحي وكأنها تخرج من جسدي وتطفو في الهواء. يبدو أني أتذكر أنه في إحدى اللحظات كانت المنارة الغربية تحتي تمامًا، ومن ثم تلا ذلك نوعٌ من الشعور المؤلم، وكأني كنتُ في زلزال، ورجعتُ وألفيتكِ تهزِّين جسدي. رأيتُكِ تفعلين ذلك قبل أن أشعر بكِ».

ثم بدأت تضحك. كنت أصغي إليها بأنفاسٍ متقطِّعَة إذ كان ذلك غريبًا عليَّ بعض الشيء. لم يرق لي ذلك تمامًا، وحسبتُ أنه من الأفضل ألَّا أشغل تفكيرها بالموضوع، ولذا وجَّهْنَا الحديث للخوض في مواضيع أخرى، وعادت لوسي إلى طبيعتها مرَّة أخرى. عندما وصلنا البيت شدَّ النسيمُ العليلُ من أزْرِها، وزادَ بالفعل تورُّدُ وجنتيها الشاحبتين. ابتَهجَتْ أمُّها لرؤياها على ذي الحال، وقضَّينا ليلةً سعيدة جدًا معًا.

١٩ أغسطس- وافرحتاه! وافرحتاه! وافرحتاه! على أنها ليست بالفرحة الكاملة. أخيرًا، ها هي أخبارٌ تصل من جوناثان. فالحبيب الغالي مريض، وهذا هو السبب الذي منعه من إرسال الرسائل. ولستُ خائفةً من التفكير فيها أو قولها، بعد أن عرفت ذلك الآن. لقد أرسل لي السيد هوكنز الرسالة التي وصلته منه، وأرسل معها عباراتٍ كتبها بنفسه. آه ما ألطفه هذا الهوكنز! سأغادر في الصباح لألتقي جوناثان، وسأساعد في العناية به إذا لزم الأمر، ثم أعيده إلى إنجلترا. يقول السيد هوكنز إنَّها ليست بالفكرة السيئة إذا ما تزوَّجنا هناك خارج إنجلترا. لقد ذرفتُ الدموع باكيةً على رسالة الأخت الطيِّبة حتى شعرتُ بالبلل يتسرَّب إلى صدري ووصلت الدموع إلى حيث وضعت الرسالة. إنها رسالة من جوناثان ويجب أن تظل قريبةً من قلبي، حيث يسكن هو. طريق رحلتي واضح على خريطة، وأمتعتي جاهزة. سآخذُ معي ثوبًا واحدًا فقط أبدِّله مع الثوب الذي أرتديه، وستُحْضِر لوسي حقيبةَ أغراضي إلى لندن وتبقِيها عندها حتَّى أرسل في طلبها، إذ من الممكن أنــ... عليَّ ألَّا أكتب أكثر من هذا القدر؛ وعليَّ أن أحتفظ بها في قلبي حتى أقوله لجوناثان، زوجي. فالرسالة التي رآها بعينيه ولمسها بيديه لا بد ستبعث فيَّ الطمأنينةَ حتى موعد لقائنا.

رسالة من الأخت أغاثا من مستشفى القدِّيس جوزف والقدِّيسة ميري في بودابست إلى الآنسة ويلهلمينا موراي

١٢ أغسطس

سيِّدتي العزيزة،

أكتبُ لكِ هذه الرسالة بناءً على رغبة السيِّد جوناثان هاركر، فهو ليس قادر على الكتابة بنفسه، رغم أنه يتحسَّنُ تحسُّنًا جيِّدًا، والشكر على ذلك لله وللقدِّيس جوزيف وللقدِّيسة ميري. لا يزال تحت رعايتنا منذ حوالي ستة أسابيع، إذ يعاني من حمًّى دماغية شديدة. وهو يرجوني أن أبلغكِ حبَّه، ويريد أن يقول في هذه الرسالة التي أكتبها بالنيابة عنه إلى السيِّد بيتر هوكنز في إكسِتَر، مع ما يمليه عليه واجبه من احترام، يريد أن يقول إنَّه متأسفٌ على تأخره، وإنَّ مهمَّته كلها قد أنجزت كاملة. وهو يطلب الراحة لبضعة أسابيع في مصحَّتنا الواقعة بين التلال، ولكنه سيعود بعد ذلك. كما يرجو أن أخبركم بأنَّه ما عاد يمتلك ما يكفي من المال، وإنَّه يرغب في سداد أجور إقامته هنا، وهكذا سيتسنَّى لَمَنْ بهم حاجةٍ ألَّا يكونوا في حاجة للمساعدة.

وتقبَّلي مني الودَّ والبركات

الأخت أغاثا

ملحوظة: نظرًا لأنَّ مريضي نائم الآن، فقد فتحتُ هذه الرسالة لأبلغك بمعلومةٍ إضافيةٍ. لقد حكى لي كل شيء عنكِ، وأنَّك ستكونين قريبًا زوجته. كل التهاني لكُما! لقد أصيبَ بصدمةٍ مخيفةٍ

-كما يقول طبيبنا- وفي خضم هلوسته كان يهذي بأمور مرعبة؛ عن الذِّئاب والسمِّ والدَّم، عن الأشباح والشياطين، وأرتعب من إكمال الباقي. اهتمي به دائمًا وإيَّاكِ أن يعترض سبيله أي شيء قد يهيِّجُه من تلك الأشياء في الفترة القادمة، فآثار هذا المرض الذي ألمَّ به لا تزولُ بسرعةٍ. كان ينبغي لنا أن نراسلك منذ مدة طويلة، ولكننا لم نكن نعرف أي معلوماتٍ عن أصدقائه، ولم يكن معه أي شيء يمكن لأي شخص أن يفهمه. فقد جاء بالقطار من كلوسنبرغ، وقال رئيس المحطَّة هناك للحارس إنَّه اندفع إلى المحطة وهو يصرخ طالبًا تذكرةً للعودة إلى بلاده. وما إنْ عرفوا من سلوكه العنيف أنه إنجليزي إلَّا وأعطوه تذكرةً إلى أقرب محطة يصلها القطار على الطريق إلى إنجلترا.

اطمأنِّي أنَّنا نوليه الرعاية على أكملِ وجه. وقد ظفر بمحبَّة الجميع بسبب رقيّه ولطفِه. وهو يتعافى بصورة جيدة بالفعل، وما من شكٍّ يساورني بأنه سيتسعيد كامل عافيته في غضون بضعة أسابيع. ولكن احذريه توخيًا للسلامة. فهناك، بمشيئة الله والقدِّيس جوزيف والقدِّيسة ميري، العديد العديد من السنوات السعيدة التي تنتظركما معًا.

مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

١٩ أغسطس- اعترَى رينفيلد تغيُّرٌ غريبٌ ومفاجئٌ الليلة الفائتة. فقد بدأ في حوالي الساعة الثامنة يهتاجُ ويشمشم حواليه

مثلَما يفعل كلبٌ يتأهب للانقضاض. صُعِقَ المساعدُ من سلوكِه، ونظرًا لأنه يعرف مدى شغَفِي بحالته، فقد شجَّعه على الكلام. إنه في العادة محترمٌ مع المساعِدِ وخنوعٌ أحيانًا، ولكنه الليلة حسبما قال لي المساعد، كان متعجرفًا تمامًا. لم يتنازل للحديث معه على الإطلاق، وكل ما قاله له هو:

«لا أريد أن أتحدَّث معك.. أنت بلا قيمة الآن، فالسيِّد بات قريبًا».

يظنُّ المساعد أن ذلك شكلٌ مفاجئ من أشكال الهوس الديني قد سيطر عليه. وإذا كان الحال كذلك، فيجب علينا أن نتنبَّه إذا صدرت عنه زعقات، لأنه يمكن لرجلٍ قوي مصاب بهوس الميل إلى القتل والهوس الديني في الوقت نفسه أن يصير خَطِرًا. فما بالك إذا كان مصابًا بخليطٍ منهما كليهما! خليطٍ مرعب! في الساعة التاسعة عدتُه بنفسي. سلك معي نفس السلوك الذي اتبعه مع المساعد، وبدا في شعورهِ المتعالي أن الفروقات بيني وبين المساعد لا تعني شيئًا له. يبدو وكأنَّه مصابٌ بهوسٍ ديني، وسيحسب نفسَه الله في القريب العاجل. فما هذه الفروقات الضئيلة جدًا بين إنسانٍ وآخر سوى فروقاتٍ تافهة بالنسبة لربٍّ قديرٍ. كيف يُظْهِرُ هؤلاء المجانين حقيقَتَهم! فالله الحقيقي يهتمُّ لأمر عصفورٍ كي لا يسقط. ولكنَّ الله الذي ابتدعه غرور البشر لا يرى فرقًا بين صقر وعصفور. أوه، يا ليت البشر يعلمون وحسب!

لنصف ساعة أو تزيد بقي رينفيلد يزداد هيجانًا بدرجةٍ أكبر

وأكبر. تظاهرتُ بأنني لا أراقبه، ولكن بنفس الوقت لم أزح نظراتي اللصيقة عنه. وعلى حين غرة اجتاحت تلك النظرة الماكرة عينيه؛ النظرةُ التي نراها دائمًا عندما تستولي فكرةٌ ما على امرءٍ مجنون، وتزامنت مع الحركة الماكرة للرأس والظهر التي يعرفها العاملون في المصحَّة النفسية خيرَ المعرفة. ثم هدأ تمامًا، وذهب إلى سريره وجلس على حافته بإذعان، ناظرًا في الفراغ بعينين معتمتين. حسبت أنه عليَّ أن أكتشف إذا كانت لامبالاته حقيقية أم أنَّها مفتعلةٌ فقط، وحاولتُ أن أستدرِجَه ليتحدَّث عن حيواناته الأليفة، وهو موضوعٌ لم يفشل قَطُّ في إثارة انتباهه. لم يُجِبْ في بادئ الأمر، ولكنَّه قالَ، بعد انتظار، بنزقٍ:

«تبًا لها جميعها! فأنا لا أكترث بها قَيْدَ أنملة».

قلتُ: «ماذا؟ لا تقصد أنك تقول لي إنَّك لا تكترث بالعناكب؟» (فالعناكب حاليًا هوايته ودفترُه يفيض بصفوفٍ من الأرقام الصغيرة). وردًا على سؤالي أجابَ بصورةٍ محيِّرة:

«الوصيفاتِ يبهجن العيونَ التي تترقب قدوم العروس، وما إن تطل العروس إلا وتزول كل قيمة لجمال الوصيفات في تلك العيون».

ما كان ليشرح ما قاله، ولكنه بقي جالسًا بعنادِه على سريره طوال الوقت الذي بقيتُ فيه معه.

أنا مُرْهَقٌ الليلة ومعنويَّاتي منخفضة. لم يفارقني التفكير بلوسي، والمصير الذي آلَتْ إليه أحوالها. فإذا لم أنم من فوري، فالحل يكمن

في الكلورال[1]، مورفيوس[2] العصر الحديث: (C_2HCl_3 O. H_2 O)!
وعليَّ توخِّي الحذر لكيلا يتحوَّل ذلك إلى عادة. لا، لن أشرب شيئًا منه الليلة! فذكرى ا،رسي تعصف بذاكرتي، ولن ألحق بها العار بمزج ذكراها بالكلورال. إذا كان لا بدَّ فلتكن الليلة بلا نوم...

لاحقًا- سعيدٌ أن اتَّخذْتُ قراري، وأسعد أنني التزمت به. كنتُ قد استلقيتُ لا ألوي على شيء، وسمعتُ الساعةَ تدقُّ مرَّتين فقط، عندما جاءني الحارسُ الليلي، وقد أرسلوه من جناح المرضى، ليبلغني بهروبِ رينفيلد. ارتديتُ ملابسي كيفما اتفق ونزلتُ راكضًا في الحال. رينفيلد شخصٌ خطر جدًا ولا يجب أن يترك ليتجوَّل كيفما يشاء. فتلك الأفكار التي يحملها قد تؤول إلى سلوك خطرٍ مع الغرباء. كان المساعد ينتظرني. وقال إنه رآه قبل مدَّةٍ لا تزيد عن عشر دقائق، فقد كان على ما يبدو نائمًا في سريره، عندما نظر إليه عبر فتحة المراقبة الموجودة في الباب. ومن ثمَّ أثار انتباهه صوتُ النافذة وهي تُخْلَعُ بعنفٍ. عاد راكضًا ورأى قدميه تتواريان عبر النافذة، وأرسل من فوره في طلبي. لم يكن يرتدي سوى ملابس نومه، ولا يمكنه أن يكون قد ابتعد. يعتقد المساعد أنه سيكون من المفيد أكثر أن يراقب المكانَ الذي سيذهب إليه بدلًا من ملاحقته، نظرًا لأنه قد يضيِّعه وهو خارجٌ من المبنى عبر الباب. المساعد ضخم الجثة، ولا يمكن له أن يمرَّ عبر النافذة. أما أنا فنحيف، لذا خرجْتُ بمساعدته

---
(١) مسكِّن ومنوِّم.
(٢) إله الأحلام في الميثولوجيا اليونانية.

وهبطت على قدميَّ، ونظرًا لأن النافذة لا ترتفع سوى بضعة أقدام عن الأرض، فقد نزلنا دون أن نُصَابَ بأذى. قال لي المساعد إنَّ المريض اتجه إلى اليسار وذهب في خط مستقيم، لذا ركضتُ بأسرع ما استطعت. وما إن مررتُ عبر صف الأشجار إلَّا ورأيتُ طيفًا أبيضَ يتسلَّق الجدار العالي الذي يفصل ساحة مصحَّتنا عن ساحة المنزل المهجور.

رجعتُ راكضًا في الحال، وأبلغتُ الحارس أن يأتي بثلاثة رجال أو أربعة على الفور وأن يتبعني إلى داخل أرض منزل كارفاكس، تحسبًا من أن ينتهجَ صاحبُنا سلوكًا خَطِرًا. أحضرتُ سلمًا وعبرت به فوق الجدار، ثم أنزلته على الجهة الأخرى. رأيت طيفَ رينفيلد لحظتها يختفي وراء زاوية المنزل، فركضتُ خلفه. في الناحية البعيدة من المنزل وجدتُه ضاغطًا جسده على باب الكنيسة الصغيرة العتيق المصنوع من خشب البلوط والمزنَّر بالحديد. كان يتحدَّث على ما يبدو إلى شخصٍ ما، ولكني خشيتُ الاقتراب منه بما يكفي كي لا أخيفه فيهرب، لذا لم أستطع أن أسمع ما كان يقول. إنَّ مطاردة سربِ نحلٍ تائهٍ لا تساوي شيئًا مقارنةً بملاحقةِ مجنونٍ عارٍ تسيطر عليه نوبة الهرب! بعد بضع دقائق، وجدته غير منتبه لأي شيء حوله، ولذا غامرتُ بالاقتراب منه، واقتربت منه أكثر إذْ رأيتُ مساعِدِيَّ اجتازوا الجدار وحاصروه. سمعْتُه يقول:

«أنا هنا طوعُ أمرك يا سيِّدي. فأنا عبدُك وسوف تجزل لي العطاء، لأني سأكون مخلصًا لكَ. فما فتئتُ أعبدُك منذ زمنٍ طويل رغم بُعْدِ المسافات بيننا. والآن وحيث أنَّك قريب، فأنا أنتظر

أوامرك، ولن تتجاوزني بالمنح، أو ستفعلُ ذلك يا سيِّدي العزيز في توزيعك للعطايا الجيِّدة؟».

ما هو إلَّا شحَّاذٍ أنانيٍّ على أي حال. إنه لا يتورَّعُ عن التفكير في أرغفة الخبز والسمك حتَّى عندما يظن نفسه في حضرة التجسُّد الحقيقي للمسيح. حالات هوسه تشكل خليطًا مفزعًا. وعندما حصرْناه قاوَمَنا مثل نمر. فهو شديد البأس، أشبه ما يكون بوحشٍ بري أكثر من كونه إنسانًا. لم أرَ قطُّ مجنونًا تنتابه مثل هذه النوبة الشديدة من الغضب من قبل، وآملُ ألَّا أرى مثلها مرَّة أخرى. إنه لَبَابٌ من أبواب الرحمة أننا اكتشفنا قوَّته وخطرَه في الوقت المناسب. فبمثل هذه القوة والعزيمة، لربما قام بأفعالٍ عنيفة قبل أن يعاد إلى الحبس. إنه ليس خطرًا الآن على أي حال. حتى جاك شيپارد[1] بعظمته لا يستطيع أن يفلت من الصدرية الضيقة التي تبقيه مقيَّدًا، كما أنَّه مربوط بالسلاسل إلى الجدار في الغرفة المبطَّنة. صرخاته مرعبة أحيانًا، بيدَ أن فترات الصمت التي تعقبها تبقى أكثرُ إرعابًا، فقد يرتكب جريمةً مع كل التفاتةٍ يلتفتها وفي كل حركة يتحرَّكُها.

والآن فقط هو ذا ينطق كلماتٍ مترابطة للمرَّة الأولى:

«سأتحلَّى بالصبر يا سيدي. فهي آتية؛ آتية؛ آتية!».

---

(١) لص إنجليزي اشتهر في لندن في مطلع القرن الثامن عشر، اعتُقِلَ وسُجِنَ خمس مرَّات في عام ١٧٢٤، ولكنه فرَّ من السجن في أربعٍ منها.

ولذا عملت بتلك الإشارة، أنا آت أيضًا. حالَ الاهتياج الشديد بيني وبين النوم، ولكنَّ كتابة هذه المذكَّرات هدَّأَتْ من روعي، وأشعرُ بأنه ينبغي لي أن أنام قليلًا الليلة.

الفصل التاسع

رسالة من مينا هاركر إلى لوسي ويستينرا

بودابست، ٢٤ أغسطس،

عزيزتي لوسي،

أعرف بأنك قلقة وتودين سماع كل ما حدث منذ أنْ تَوَادَعْنَا في محطة القطار في وِتْبِي. حسنًا يا عزيزتي، وصلتُ إلى هَلْ كما يَجِب، ولحقتُ بالمركب المتجه إلى هامْبُرْغ، ومن ثمَّ استقلَّيْتُ القطارَ قادمةً إلى هنا. أشعر بأني بالكاد أستطيع تذكُّر أي شيء عن الرحلة سوى أنني قادمة للقاء جوناثان، ونظرًا لأنه ينبغي لي السهر على تقديم الرعاية له، فالأفضل لي أن أنام قدر ما أستطيع... وجدتُ حبيبَ قلبي، نحيفًا شاحبًا وذابل الملامح. زال كلُّ العزم من عينيه الغاليتين، وتلاشى ذلك الكبرياء الهادئ الذي طالما أخبرتك أنه يميِّزُ وجهَه. باتَ مجرد حُطَام لما كان عليه، ولم يتذكَّر أي شيء مما حدَث معه خلال مدة طويلة مضت. إنه يريدني، أن أصدِّق ذلك على الأقل، وأنا من ناحيتي لن أسأله أبدًا. فقد مرَّ بصدمةٍ فظيعةٍ، وأخشى أن محاولة تذكرها قد ترهق ذاكرته الضعيفة. تقول لي الأخت أغاثا،

وهي إنسانة طيبة وممرضةٌ بارعة، بأنه هذَى بأشياء مرعبة حينما كان فاقدًا للذاكرة. طلبت منها أن تقول لي ما هي تلك الأشياء، ولكنها كانت تكتفي برسم إشارة الصليب، وتقول إنَّها لن تبوح بذلك أبدًا، فالأشياء التي يهذي به المرضى هي أسرار الله، وإنَّه إذا قدِّر لممرضةٍ أن تسمع تلك الهذيانات أثناء أدائها لوظيفتها، فينبغي لها ألَّا تخونَ الأمانةَ وتفشيها. إنها إنسانة طيبة ولطيفة، عندما رأت اضطرابي في اليوم التالي، عاودَت فتح الموضوع مرة أخرى، وبعد أن قالت إنَّها ما كانت لتقول أبدًا ما الذي كان يهذي به حبيبي المسكين، أضافت: «يمكنني أن أخبرك يا عزيزتي بهذا القدر مما قاله فقط: لم يكن هذيانُه متعلقًا بأي شيء أخطأ فيه هو ذاته، وأنتِ بصفتك زوجته المستقبلية، ما من سببٍ يدعوك للقلق. فهو لم ينساكِ ولم ينسَ ما يكن لكِ من حب واحترام. كان خوفُهُ نابعًا من أمورٍ عظيمة ورهيبة، وهي أمورٌ ليس بمقدور بشر التعامل معها». أعتقد بأنَّ الممرِّضةَ الطيِّبة حسبت أني ربما أصاب بالغيرة من احتمال أن يكون خطيبي الغالي قد وقع في غرام أي فتاة أخرى. يا لعجبي من فكرة أن أكون أنا غيورة على جوناثان! ومع ذلك يا عزيزتي، سأُسِر لك بهذا؛ لقد شعرتُ بفرحٍ عارمٍ يجتاحني عندما عرفت أنَّ سبب ما كان فيه من ويلٍ لم يكن امرأةً أخرى. أنا أجلس الآن بجانب سريره، حتى يتسنَّى لي أن أرى وجهه وهو نائم. ها هو يستيقظ!...

عندما استيقَظَ طلب مني أن أعطيه معطفه، لأنه أراد أن يُخْرِج شيئًا من جيبه، سألت الأخت أغاثا، فأحضرت كل أغراضه. رأيت دفتر ملحوظاته كان بينها، وكنت على وشك أن أطلب منه أن

يسمح لي بقراءة ما فيه -لأني عرفت آنئذٍ أني قد أجد دليلًا يرشدني إلى سبب اضطرابه- ولكني أحسبُه أدرك ذلك بمجرد نظره إلى عيني، إذ طلب مني الذهاب صوبَ النافذة قائلًا إنَّه يريد أن يبقى وحده تمامًا للحظة. ومن ثم طلب مني الرجوع، وعندما عدُت كان يضع يده فوق الدفتر وقال لي بجدية كبيرة:

«يا ويلهلْمِينا» عرفتُ حينئذٍ أنه كان في غاية الجدِّية، لأنه لم ينادي عليَّ بهذا الاسم قطُّ مذ طلب يدي زوجةً له، ثم أضاف: «تعرفين يا عزيزتي أفكاري عن الثقة بين الزوج وزوجته؛ إذ لا ينبغي أن يكون بينهما أي أسرار، ولا كتمانٌ لأي سر. لقد تعرَّضتُ لصدمةٍ كبيرةٍ، وعندما أحاول أن أفكر بماهيتها أشعر بأن رأسي يدور، ولا أعرف إذا كان ما جرى حقيقيًا كله أو أنه أضغاث أحلام رجلٍ مجنون. تعرفين أنني أصبتُ بحمَّى دماغية، وأن ذلك ضرب من ضروب الجنون. فالسر يكمن هنا، ولا أريد أن أعرفه. أريد أن أبدأ حياتي من جديد، أبدؤها بزواجنا». ولذا قرَّرَنا، يا عزيزتي، أن نتزوج حالما نستكمل الإجراءات. ثم تابع جوناثان قائلًا: «أأنتِ راغبةٌ يا ويلهلمينا، أن تشاركيني جهلي؟ إليك الكتاب. خذيه واحتفظي به، واقرأيه إذا شئتِ، ولكن لا تدعيني أعرف ذلك أبدًا إلا إذا ما ألحت حاجة أو ضرورة أو غاية نبيلة تستدعي مني قراءة ما حصل في تلك الساعات المريرة، سواء كنت نائمًا فيها أم مستيقظًا، مجنونًا أم عاقلًا.. كل ذلك مسجل هنا ». ارتمى على ظهره مُنْهَكًا، ووضعتُ الكتاب تحت وسادته ثم قبَّلَته. طلبتُ من الأخت أغاثا أن ترجو من أبينا القسِّيس أن يقيمَ زواجنا ظهيرة اليوم، وأنني أنتظر ردَّها...

جاءتْ وأبلغتني بأنه أُرْسِلَ في طلب قسّيسِ كنيسة الإرسالية الإنجليزية. وسيعْلَن زواجنا في غضون ساعة، أو حالما يستيقظ جوناثان...

تمر الأيام وتمضي يا لوسي. أشعر بمهابة عظيمة، ولكنني سعيدة جدًا جدًا. استيقظ جوناثان بعد الساعة التي نامها بقليل، وكان بكامل استعداده. استوى جالسًا في السرير، متكئًا على الوسائد، وحين عرض عليه القسيس عهوده ومواثيقه أجاب «قبلت» بنبرةٍ حازمةٍ وقويةٍ. أما أنا فبالكاد استطعت أن أنطق، كان قلبي مفعمًا بالفرح لدرجة أن حتى هذه الكلمة البسيطة بدت وكأنها تخنقني. كانت الأخوات العزيزات لطيفات جدًا. وأرجو من الله ألا أنساهن ما حييت أبدًا، ولا أنسى المسؤوليات الجسيمة واللطيفة التي تعهَّدْتُ بها. لابد أن أخبرك عن هدية زواجي. فبعد أن تركني القسِّيسُ والأخوات وحدي مع زوجي -أوه يا لوسي، هذه أول مرة أكتب فيها كلمة «زوجي»- بعد أن تركوني وحدي مع زوجي، أخرجتُ الكتابَ من تحت وسادته، ولففته بورقٍ أبيض، وربطته بقطعة صغيرةٍ من رباطٍ أزرق فاتح كان ملفوفًا حول رقبتي، وختمته فوق العقدة بشمع الأختام الأحمر، واستخدمتُ خاتم زواجي لأختم به على الشمع. ثم قبَّلتُه وعرضته على زوجي، وقلت له إني سأحتفظ به على هذه الحال، وسيكون بعدئذٍ علامةً بارزةً وواضحةً لنا طوال حياتنا على ثقة أحدِنا بالآخر، وأني لن أفتحه أبدًا ما لم يكن ذلك لأجله أو لأجل أداء واجب أو ضرورة. بعدها أمسكَ يدي بيده.. أوه، يا لوسي، هذه هي المرَّة الأولى التي يمسك

فيها يدَ زوجته، وقال إنها أغلى شيء عليه في هذا العالم الواسع كله، وإنه سيخوض الماضي كله مرَّة أخرى ليظفر بهذه اليد إذا استدعى الأمر. قصد حبيبي المسكين أن يقول جزءًا من الماضي، ولكنه لا يستطيع أن يفكر في الزمن بعد، ولا ينبغي لي أن أستغرب إذا ما قام في البداية بالخلط ليس بين الشهور فحسب، ولكن بين السنوات حتى.

حسنًا يا عزيزتي، ماذا عساي أن أقول؟ لم أستطع سوى أن أقول له إنني أسعد امرأة في هذا العالم الواسع بأكمله، وإنه ما من شيء أمنحه إياه أغلى من نفسي، وحياتي، وثقتي، ومع هذه الأشياء أمنحه إخلاصي طوال أيام عمري. عندما قبَّلَنِي يا عزيزتي، وجذبني إليه بيديه الضعيفتين الهزيلتين، كان ذلك بمثابة تَعَهُّدٍ رسمي جدًا بيننا...

لوسي العزيزة، أتعلمين لما أخبرك بكل هذه التفاصيل؟ لا يقتصر السبب فقط على أنها تشكِّل مصدرَ سعادةٍ لي، ولكن لأنك كنتِ دائمًا، ومَا زلتِ، عزيزةً جدًا عليَّ. وكان شرفًا كبيرًا لي أن أكون صديقتك ومرشدتك عندما انتقلتِ من الدراسة لتتهيَّأي لمواجهة العالم والحياة. وأريدك أن تري الآن، وبعيون زوجةٍ سعيدة جدًا، إلى أين قادني إخلاصي لزوجي، بحيث يتسنى لك في حياتك الزوجية أن تحوزي كل السعادة التي أنا فيها. يا عزيزتي، أرجو من الله القدير أن تكون حياتُك تجسيدًا لكل أمانيكِ؛ حياةٌ مثلَ يوم طويل تشرق الشمس على امتداده، لا تهب فيه ريح عاصفة، ولا يغيب فيه الإخلاص، ولا موضع فيه لسوء لظن. ولا يمكنني أن

أدعو لكِ بأن تكون حياتك خالية من أي ألم، لأن ذلك لا يمكن أن يحصل أبدًا، ولكني أتمنَّى أن تكوني دائمًا سعيدة مثلما أنا سعيدة الآن. إلى اللقاء، يا عزيزتي. وسأرسل لك هذه الرسالة من فوري، وربَّما أرسلُ لكِ رسالةً أخرى في القريبِ العاجلِ مرَّةً أخرى. عليَّ أن أتوقف عن الكتابة، فها هو جوناثان يستيقظ. عليَّ أن أعتني بزوجي!

صديقتك المُحبَّة إلى الأبد

مينا هاركر

رسالة من لوسي ويستينرا إلى مينا هاركر

وِتبِي، ٣٠ أغسطس

عزيزتي مينا،

أهديك محيطات من الحبِّ وملايين القُبَل، وأتمنَّى لك أن تقري عينًا في وطنك قريبًا مع زوجك. كما أتمنى أن تتمكني من العودة إلى الوطن قريبًا بما يكفي حتى تمكثي هنا معنا. فللهواء القوي أن يعيد لجوناثان عافيته على الفور، كما أعاد لي عافيتي تمامًا. باتت شهيتي للطعام كشهيَّة طائر الغاق، تملؤني الحيوية وأنام قريرةَ العين. ستسرين إذا عرفتِ أنني توقفت تمامًا عن المشي أثناء نومي. وأظنني لم أتحرَّك من سريري مدَّة أسبوع. يقول أرثر إنني أزداد سمنة. بالمناسبة، نسيتُ أن أقول لكِ إنَّ أرثر هنا. لقد استمتعنا بالرحلات، وركوب الدرَّاجَات الهوائية، وركوب العربات التي تجرُّها الجِيَاد،

والتجديف، والتنس، وصيد الأسماك سوية، أنا أحبُّه أكثر من قبل. ويقول لي إنَّه يحبني أكثر، ولكنني أشك في ذلك، لأنه في البداية قال لي إنه لا يستطيع أن يحبني أكثر مما أحبني حينئذٍ. لكن ذلك هراء. ها هو ذا، يناديني. ولذا ستكفُّ صديقتك المحبة عن الكتابة حاليًا.

لوسي

ملحوظة: تهديك أمي تحياتها القلبية. وتبدو حبيبتي المسكينة أفضل حالًا.

ملحوظة إضافية: من المقرَّر أن نتزوَّج بتاريخ ٢٨ سبتمبر.

مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

٢٠ *أغسطس*- تزدادُ حالة رينفيلد حتَّى من حيث إثارتها للاهتمام. التزم جانب الهدوء حتى الآن لدرجة أن هناك نوبات انقطاع عن ثورة غضبه الشديدة. غدا عنيفًا بصورةٍ مستمرة طوال الأسبوع الأول الذي تلا هجومه. ومن ثمَّ وذات ليلة لحظةَ طلوع القمر، هَدَأَ وبقي يهمهم لنفسه قائلًا: «الآن أستطيع أن أنتظر، الآن أستطيع أن أنتظر». أتى المساعد ليبلِّغَنِي، فنزلتُ راكضًا من فوري لأطَّلِعَ على حاله. كان لا يزال مرتديًا الصدرية المشدودة مقيدًا في الغرفة المبطَّنَة، ولكن النظرة التي تكتسح وجهه زالت عنه، واستعادَتْ عيناه شيئًا من انكسارهما القديم، أو بالأحرى سأقول شيئا من رقتهما «المتذللة». شعرت بالرضا من وضعه الحالي، فأمرْتُ بتخفيفِ قيده. تردَّد المساعدون، ولكنَّهم في آخر المطاف نفَّذُوا

رغبتي دون اعتراض. ومن الغريب أنَّه كان بمزاج استطاع معه أن يلاحظ ريبتهم. إذ همس لي وهو يقترب مني، بينما كان يسترق النظر إليهم طوال ذلك الوقت:

«يحسبون أنني يمكن أن أؤذيك! تخيل! أنا أؤذيك! يا للحمقى!».

كان من المريح بدرجةٍ ما، أن أجد نفسي متميزًا عن الآخرين حتى في عقل هذا المجنون المسكين، ولكن ومع ذلك لم أتبع فكرته تلك. أعليَّ أن أقر بوجود شيء مشترك بيننا حتى بتنا في نفس الصف، أو هل سيظفر مني ببعض المكاسب الهائلة بحيث ترتبط سعادتي به؟ عليَّ أن أتبيَّن ذلك لاحقًا. لن يتكلم الليلة. ولن يغريه حتى تقديم قطة صغيرةٍ أو بالغةٍ له. سيكتفي بالقول: «لست أبالي بالقطط. فلدي أمورٌ أهم أفكِّر فيها الآن، ويمكنني أن أنتظر، يمكنني أن أنتظر».

غادرتُه بعد برهة. أخبرني المساعد إنَّه التزم الهدوء إلى ما قبل الفجر، ثم بدأت حالته تضطربُ، وصار عنيفًا في آخر الأمر، حتى أصيبَ في نهاية المطاف بنوبة اختلاج أرْهَقَتْهُ إلى أن خرَّ مغشيًا عليه ودَخَلَ في نوعٍ من الغيبوبة.

... تكرر الأمر بحذافيره لمدة ثلاث ليالٍ؛ عنيفًا طوال النهار وهادئًا من طلوع القمر حتى شروق الشمس. ليتَني أجد شيئًا يعينني على فهم ذلك. يبدو الأمر وكأن هنالك مؤثرًا ما يأتي ويزول. خطرت لي فكرة مذهلة! سنلعب الليلة لعبة العقلاء والمجانين. لقد هرَبَ من قبل دون مساعدتنا، والليلة سيهربُ بمساعدتنا. سنمنَحُه

فرصةً للهرب، ونضع المساعِدِين على أهبة الاستعداد للحاق به إذا لزم الأمر...

٢٣ *أغسطس*- «ما لا نتوقعه، هو الذي يحدث دائمًا». لقد أدرك دِزرائيلي[1] كُنْه الحياة. فعصفورنا لم يطر عندما وجد القفَصَ مفتوحًا، وذهبَت كل ترتيباتنا الدقيقة أدراج الرياح. على أي حال، لقد أثبتنا شيئًا واحدًا؛ تستمر نوبات الهدوء معه مدةً معقولة. ينبغي لنا في المستقبل أن نكون قادرين على فك قيوده بضع ساعات كل يوم. ولذا أصدرتُ أوامري للمساعد المناوب في الليل أن يقوم بإغلاق الباب عليه في الغرفة المبطَّنَة، عندما يكون في حالة من الهدوء فقط، وأن يبقيه هناك حتى ما قبل طلوع الشمس بساعة. سيستمتع جسد المريض المسكين بإطلاقه حتى لو لم يستطع عقْلُه تقدير هذه المبادرة. اسمعوا! حدَثَ ما لم يكن في الحسبان مرَّة أخرى! ها هم يرسلون في طلبي؛ فقد هربَ المريضُ مرَّةً أخرى.

لاحقًا- مغامرة ليلية أخرى. انتظَرَ رينفيلد بمكرٍ ودهاء اللحظة التي دخل فيها المساعدُ الغرفةَ ليتحرَّى الوضع. ومن ثم اندفع أمامه وأطلق ساقيه للريح عابرًا الممر. أبلغتُ المساعدين أن يتبعوه. ذهب مرة أخرى إلى أرض المنزل المهجور، ووجدناه في المكان نفسه، يضغط جسده إلى باب الكنيسة الصغيرة العتيق. عندما رآني استشاط غضبًا، ولو لم يمسك به المساعدون في اللحظة المناسبة لحاوَلَ قتلي. بينما كنا نمسك به حدَثَت واقعةٌ غريبةٌ. فقد ضاعف

---

(١) بنيامين دِزرائيلي (١٨٠٤ - ١٨٨١): إيرل بيكونسفيلد الأول؛ سياسي وروائي بريطاني تقلَّد رياسة الوزارة. وينسب له هذا القول: «ما لا نتوقعه، هو الذي يحدث دائمًا».

جهودَه فجأة، ومن ثم هدَأ فجأةً أيضًا. نظرتُ حولي بصورة غريزية، ولكني لم أرَ شيئًا. بعدها انتبهت لعيني المريض وتَعَقَّبْتُ نظراتهما، كان ينظر إلى السماء وقد أنارها القمر، لم أجد شيئًا سوى خفَّاش كبير، كان يرفرف شاقًا الأفق الصامت والموحش متجهًا إلى الغرب. عادة ما تدورُ الخفافيش وترفرف، ولكن هذا الخفَّاش كان يطير في خط مستقيم، بدا وكأنَّه يعلم إلى أين يتجه أو كأن لديه نيَّةً في الذهاب إلى مكان ما. كان المريض يهدأ أكثر مع مرور الوقت، قال لي لحظتها:

«لا حاجة لك بتقييدي؛ سأذهب بهدوء!». رجعنا إلى المصحة دون مشاكل. أشعر بوجود شيء مشؤوم في هدوئه، ولن أنسى هذه الليلة...

مذكَّرات لوسي ويستينرا

هيلينغَمْ، ٢٤ أغسطس- عليَّ أن أقلِّد مينا، وأواظب على كتابة مذكراتي. ومن ثم يمكننا أن نخوض في أحاديث طويلة حين نلتقي. أتساءَل متى سنلتقي. يا ليتها تكون معي مرة أخرى، إذ أشعر بتعاسةٍ مريرةٍ. في الليلة المنصرمة بدا أنَّ الأحلام عاودَتْني مثلما حصل معي في وِتْبِي. وربما سبب ذلك تغيُّر الجو، أو العودة إلى إنجلترا مرَّة أخرى. أحلامٌ كلها مظلمة ومرعبة بالنسبة لي، لأني لا أستطيع أن أتذكَّر شيئًا، ولكني مملوءة بخوفٍ غامض، وأشعر بضعف وإنهاكٍ شديدين. عندما جاء أرثر إلى تناول الغداء تضايق كثيرًا لما رآني، ولم تكن معنوياتي تسمح لي أن أحاول تصنع الفرح. أتساءل إن كنت

أستطيع النوم في حجرة أمي الليلة. ينبغي لي اختلاق مسوِّغٍ ومحاولة النوم هناك.

٢٥ أغسطس- ليلةٌ سيئة أخرى. والدتي لم تقبل اقتراحي. إنها لا تبدو في صحَّةٍ جيدة، وما من شك في أنها تخشى أن يستبد بي القلق عليها. حاولتُ البقاء مستيقظة، ونجحت في ذلك برهةً، ولكنْ عندما دقَّت الساعة معلنةً منتصف الليل أيقظتني دقَّاتها من غفوة، لذا لا بد أنني كنت نائمة. سمعتُ ما يشبه الخربشة أو الرفرفة قرب النافذة، ولكنِّي لم أكترث بذلك، وحيث أني لا أتذكر أكثر من ذلك، أحسب أنني لا بد نمت بعدها. حلمتُ بالمزيد من الأحلام السيئة. ليتَنِي أستطيع أن أتذكَّر ما رأيتُ من أحلام. أنا ضعيفة بصورة فظيعة هذا الصباح. وجهي شاحب شحوبًا مروعًا، ورقبتي توجعني. لا بدَّ أنَّ هناكَ خطبٌ ما في رئتيَّ، يبدو أنني لا أحصل على ما يكفيني من الهواء. ينبغي لي محاولة إظهار الفرح عندما يأتي أرثر، وإلَّا فأنا أعرف أن التعاسة ستكتنفه إذا ما رآني على هذه الحال.

رسالة من أرثر هولمود إلى الدكتور سيوِرْد

فندق ألبيمارل، ٣١ أغسطس،

عزيزي جاك،

أريدكَ أن تسديَ لي معروفًا. إنَّ لوسي مريضة، لا أعني أنها مصابة بمرضٍ محدَّد، ولكنها تبدو في حالٍ مزريةٍ، وحالتُها تسوءُ يومًا إثر يوم. لقد سألتُها إذا ما كان هناك سببٌ لذلك، وما بي جرأة

على سؤال أمها، لأن إقلاق بال السيِّدة المسكينة بخصوص ابنتها، سيَّما والأم في وضعها الصحي الراهن، سيكون مسألةً قاتلةً. لقد أسرَّت لي أمُّهَا، السيِّدة ويستينرا، إنَّها باتت تعرف مصيرَها المحتوم -فهي مصابة بمرضٍ في القلب- رغم أن لوسي المسكينة لا تعرف ذلك بعد. وأنا على يقينٍ أنَّ هناكَ خطبًا يقلقُ بَالَ فتاتي العزيزة. يكادُ عقَلِي يتشتَّتُ عندما أفكر بها، كما أنَّ النظر إليها يترك في نفسي غُصَّة. قلتُ لها إنَّه ينبغي لي أن أطلبَ منكَ أن تفحَص حالتَها، ورغم رفضها في بادئ الأمر -وأنا أعرف سبب اعتراضها يا صاحبي- إلا أنها وافقت في الأخير. أعرفُ أنها ستكون مهمة شاقة عليك يا صاحبي، ولكن ذلك كرمى لعينيها. لا ينبغي أن أتردد في طلب ذلك منك، كما لا ينبغي أن تتردد في إجابتي. عليكَ أن تأتي لتناول الغداء في هيلينغَمْ غدًا، في الساعة الثانية، حتى لا نثير أيَّ شكٍّ لدى أمِّهَا السيدة ويستينرا، وبعد الغداء ستنتهز لوسي فرصة لتكونا على انفراد. سآتي لشرب الشاي، ثم يمكننا أن نغادر معًا، فالقلق يستبد بي، وأريد أن أستشيرك على انفراد حالما تفرغ من الاطلاع على حالتها. أرجو ألَّا تتخلَّف عن الموعد!

أرثر

برقية من أرثر هولمود إلى سيوِرْد

١ سبتمبر

لقد أُرْسِلَ في طلبي للاطلاع على أحوال والدي الذي ساءت

أحواله. سأوافيك برسالة. أرسل لي رسالةً وافيةً في بريد الليلة إلى رِنْغ. أو ابعث لي برقية إن استدعى الأمر.

رسالة من الدكتور سيوِرْد إلى أرثر هولمُود

٢ سبتمبر

صديقي العزيز،

فيما يخص صحة الآنسة لوسي ويستينرا فإني أتعجَّل في إبلاغك بأنها حسب رأيي لا تعاني من أي اضطراب وظيفي أو أيِّ داءٍ أعرفه. وفي الوقت نفسه، لستُ مسرورًا بأي حال من الأحوال من منظرِها؛ فهي مختلفة بصورة يرثى لها عمَّا كانته في آخر مرة رأيتها فيها. وبالطبع عليك أن تأخذ في الحسبان أنني لم أحظَ بفرصة كاملة لفحصها كما أشاء، فصداقتنا الحميمة تشكل عقبةً بسيطة لا يمكن حتى لعلوم الطب أو أعرافه أن تتخطَّاها. وأحبِّذُ أن أروي لك ما حَصَل بالضبط، وأترك لكَ المجال لكي تصل إلى استنتاجاتك. لذا ينبغي لي أن أبلغك بما فعَلْتُه وما أقترح فعله.

لقد وجدتُ الآنسة لوسي ويستينرا في معنويات منخفضة فيما يبدو. كانت أمها حاضرة، وفي بضع ثوانٍ استنتجت أنها كانت تحاول أن تضلِّل أمَّها وتدرأ عنها مشاعر القلق بشتى الطرق التي تعرفها. ليس لدي شك أنها تظن، هذا إذا لم تكن تعرف، مدى الحاجة إلى توخِّي الحذر. تغدَّينا وحدَنا، وحيث حاولنا جميعنا أن نجهد أنفسنا ليبدو علينا الفرح، فقد ساد بيننا بعضُ الفرح كنوعٍ

من المكافأة. بعد ذلك ذهبت أمها لتضطجع، وبَقِيَتْ لوسي معي. قصدنا غرفتها، وقد ظل الفرح ملازمها إلى أن وصلنا، حيث كان الخَدَم يتجولون في المكان. وعلى أي حال، ما إن أُغْلِقَ باب غرفتها، إلَّا وسقط قناع الفرح عن وجهها، وألْقَتْ بجسدها في كرسي وهي تتنهَّد تنهيدة عظيمة، بينما تخفي عينيها بيدِها. عندما رأيتُ انخفاض معنوياتها، استغليت مباشرةً ردَّة فعلها لأقوم بتشخيصِ حالتها. قالت لي بصورةٍ بالغةِ اللطف:

«لا أستطيع أن أعبِّر لكَ عن مقدار كرهي الحديثَ عن نفسي». ذكَّرْتُها بأنَّ أمانة الطبيب واجبٌ مقدَّس، ولكنَّكَ كنتَ قلقًا بصورة محزنةٍ عليها. فَهِمَتْ المعنى الذي قَصَدْتُه من فورها، وحسَمَت تلك المسألة بها قلَّ ودلَّ قائلة: «أبلغ أرثر بكل ما تشاء. لست أعبأ بنفسي، ولا يهمني شيء سواه!» ولذا فأنا حرٌّ تمامًا في البوح لك بحالتها.

لاحظت بسهولةٍ أنَّها كانت شاحبةً نوعًا ما، ولكني لم أرَ عليها العلامات المعروفة التي تترافق مع فقر الدم. واستطعت بمحض الصدفة أن أفحص دمها، فقد حصل أن إحدى النوافذ التي كانت مستعصية على الفتح، تهشمت بعد أن افتلت أحد أسلاكها وأنا أحاول رفعها، مما أدى إلى جرح يد لوسي جرحًا طفيفًا نتيجة الزجاج المكسور. كانت حادثة بسيطةً في حدِّ ذاتها، ولكنها وفرت لي الفرصة المناسبة، فجمعْتُ بضع قطرات من الدَّم وقمتُ بتحليلِها. وقد أسفَرَت نتيجة التحليل النوعي عن حالة طبيعية تمامًا، وأظهرت كما ينبغي لي أن أستنتج، مؤشرات على الصحة الجيدة. وفي المسائل

البدنية الأخرى كنت مسرورًا تمامًا بأنه ما من حاجة للقلق بشأنها، ولكن ونظرًا لحتمية وجود سبب ما لحالتها، فقد استنتجت أنه لا بدَّ سببٌ عقلي. فهي تشتكي أحيانًا من صعوبة في التنفس بصورة مريعة، كما تشتكي من نوم ثقيل، وأحلامٍ تخيفها وتبث الرعب في نفسها، ولكنها لا تستطيع أن تتذكر أي شيء من تلك الأحلام. تقول إنها اعتادت المشي أثناء نومها عندما كانت طفلة، وقد عاودَتْها تلك العادة حين كانت في وِتْبِي؛ إذ مَشَتْ في تلك المرَّة أثناء الليل ومضت إلى الجرف الشرقي، حيث وجَدَتْها الآنسة موراي، ولكنها طمْأَنَتْنِي بأن تلك العادة لم تعد إليها مؤخرًا. ساورتني الريبة، ولذلك تصرفت بأفضل طريقة ممكنة؛ أرسلتُ رسالةً إلى صديقي وأستاذي القديم، البروفسور ڤان هيلسنغ في أمستردام، الذي يعرف عن الأمراض الغامضة أكثر من أيٍّ شخصٍ في العالم. طلبتُ منه القدوم إلينا، ونظرًا لأنَّكَ قلْتَ لي إنَّ الأمور كافة ستكون على نفقتك الخاصة، فقد ذكرتُ له مَنْ تكون وما هي صلاتك بالآنسة لوسي ويستينرا. وتلك يا صاحبي العزيز استجابة لرغباتك، فحسبي أني في قمة الفخر والسعادة لأن أفعل أي شيء أستطيعه من أجلها. أعرفُ أنَّ ڤان هيلسنغ سيفعل أي شيء من أجلي لسببٍ شخصي، ولذا، وبصرف النظر عن سبب مجيئه، علينا أن نلبِّي رغباته. فهو على ما يبدو رجلٌ متعسف فيما يطلقه من أحكام، ولكنَّ مرد ذلك إلى أنَّه يعرف الموضوع الذي يتحدَّث فيه أفضل من أي شخص آخر. إنه فيلسوفٌ وعالمٌ في الماورائيات، وأحدُ أكثر العلماء تقدُّمًا في زمانه، وأظنُّ أنه يتميَّز بعقل منفتحٍ. ومع هذا العقل المنفتح حاز

أعصابًا حديدية، ومزاجًا جامدًا كنهرٍ جليدي، وعزيمةً لا تلين، وضبطًا للنفس، وتسامحًا يسمو من الفضائل ليصل إلى النعم، كما أنه صاحب أطيب وألطف قلب في العالم، وتشكل هذه الخصال عدته اللازمة للعمل النبيل الذي يضطلع به خدمة للبشر على الصعيدين النظري والعملي، فوجهات نظره شاملة شأنُها في ذلك شأن عاطفته الكبيرة. إنني أخبركَ بهذه الحقائق عساك تعرف سرَّ ثقتي فيه. وقد طلبتُ منه أن يأتي في الحال. سأرى الآنسة لوسي ويستينرا غدًا مرة أخرى. ومن المقرر أن تقابلني قرب شارع ستورز، بحيث لا أثير انتباه أمها من خلال التكرار المبكر جدًا لزيارتي لها.

صديقُكَ الدَّائم

جون سيوِرْد

رسالة من أبراهام ڤان هيلسنغ، الطبيب والحاصل على دكتوراه الفلسفة ودكتوراه الآداب، إلخ، إلخ إلى الدكتور سيوِرْد

٢ سپتمبر،

صديقي الطيِّب،

عندما وصَلَتْنِي رسالتُكَ كنْتُ سلفًا في طريقي إليكَ. ولحسن الحظ أستطيع المغادرة من فوري دون أن أبخس حق أحد من أولئك الذين وثقوا فيَّ. ولولا ذلك، لكان من سوء حظ أولئك الذين ائتمنوني، لأنِّي سألبي دعوة صديقي لمساعدة أشخاص أعزَّاء على نفسه. احكِ لصديقكَ تلك الحادثة التي مصَصْتَ فيها سُمَّ

الغنغرينا من جرحي بسرعةٍ كبيرةٍ بعد أن افتلتت السكين من يد صديقنا الآخر بسبب توتره. وليعلم صديقك أنني إنما لبيت دعوتك حين طلبتني لمساعدته، بسبب موقفك ذاك، والذي لا تعادله ثروته الضخمة كلها. ولكنَّ يسعدنا أيضًا أن نقدم هذه الخدمة لصديقك، وذلك من أجلك أنت. احجز لي إذن في فندق غريت إسترن، لأكونُ بالقرب. وأرجو أن ترتب الأمور بحيث يمكننا أن نفحص السيِّدة الشابة في وقت لا يكون متأخرًا جدًا يوم الغد، فمن المرجح أني قد أضطر للعودة إلى هنا في تلك الليلة. ولكن إذا دَعَت الحاجة سأعودُ مرة أخرى في غضون ثلاثة أيام، وأمكثُ مدة أطول لو اضطررت لذلك. إلى اللقاء حتى ذلك الحين يا صديقي جون.

ڤان هيلسنغ

رسالة من الدكتور سيوِرْد إلى الفاضل أرثر هولمُود

٣ سبتمبر،

عزيزي أرث،

لقد جاء ڤان هيلسنغ وذهب. جاء معي إلى هيلنغَمْ، وقد تسنَّى لنا أن نجلس وحدَنا مع لوسي دون وجود أمِّها، إذ أحسنت تدبير أمرها وتركتها تتغدى في الهواء الطلق. فَحَصَها ڤان هيلسنغ فحصًا دقيقًا جدًا. سوف يوافيني بالنتائج، وبعد ذلك سأنصحك ماذا تفعل، لأني بالطبع لم أكن موجودًا طوال مدة الفحص. أخشى أنَّه قَلِقٌ جدًا، ولكنه يقول إنَّه يحتاج للتدبر في حالتها. وعندما حكيتُ

له عن صداقتنا ومقدار ثقتك بي في المسألة، قال لي: «عليكَ أن تقول له كل ما يجول في بالك. وأبلغه بما يجول في بالي، إذا استطعت أن تحزر ما يجول في بالي، لا، فأنا لا أمزح. فهذه ليست مزحة، بل مسألةُ حياةٍ أو موت، وربما أكثر من ذلك». سألتُه ماذا قصد بقوله ذاك، لأنَّه كان في منتهى الجدِّيَّة. وقد حصل هذا بعد أن عدنا إلى لندن، وكان يحتسي كوبًا من الشَّاي قبل أن ينطلق برحلة عودته إلى أمستردام. لم يزد على ما قاله لي. عليك ألَّا تغضب مني يا أرث، لأن تكتُّمَه الشديد يعني أنَّه يصبُّ عصارةَ فكره على العمل لما فيه خيرها. وسيتكلم بصراحة كافية عندما يحين الوقت، كُنْ على يقينٍ من ذلك. ولذلك قلتُ له إني ببساطة سأكتب تقريرًا عن زيارتنا، وكأني أكتب بالضبط مقالةً وصفيَّةً خاصَّة لصحيفة *الديلي تيلغراف*. وبدا أنه لم ينتبه لما قُلْتُه، ولكنه قال إنَّ التلوث في لندن ليس بذلك القدر من السوء مثلما كان في فترة دراسته هنا. سيصلني تقريره في الغد إذا أمكنه إتمامه. وسيرسل لي رسالةً في كل الأحوال.

حسنًا، أما بخصوص ما حصل أثناء الزيارة، فقد كانَت لوسي أكثر فرحًا مما كانت في اليوم الذي فحصتُها فيه أول مرَّة، وبدت بالتأكيد في حالٍ أفضل. ذهبَ عنها شيءٌ من تلك الملامح المرعبة التي قضَّت مضجعك على نحوٍ كبيرٍ، وكان تنفُّسُها طبيعيًا. كانت لطيفة جدًا مع البروفسور (كعادتها دائمًا)، وحاوَلَت أن تُشْعِرَه بالطمأنينة، رغم أني رأيتُ أنَّ المسكينة كانت تكابد بشدة لفعل ذلك. أظن أنَّ ڤان هيلسنغ لاحظ ذلك أيضًا لأني رأيتُ تلك النظرةَ السريعة تحت حاجبيه الكثيفين، النظرةَ التي أعرفها منذ

زمنٍ بعيدٍ. ثم شرع يُدَرْدِشُ في المواضيع كافة باستثناء الحديث عن أنفسنا وأمراضنا وبتلك الدرجة من البشاشة غير المحدودة حتى إنِّي لاحظت أن تظاهر لوسي المسكينة بالحيوية تحوّل إلى أمرٍ واقع. ومن ثمَّ، ودونما أيِّ تغيُّر ظاهر، حرَف سير الحديث بلطف ليتطرَّق إلى زيارته، وقال بصورة مهذَّبة:

«آنستي الشابَّة العزيزة، يسعدني أن أراكِ تحظين بهذا القدر الكبير من الحبِّ. إنه حبٌّ عظيمٌ يا عزيزتي، لم أرَ مثله من قبل. أخبروني أن معنوياتك منخفضة، وإنَّك شاحبة شحوبًا مرعبًا. فما كان مني إلَّا أن قلتُ لهم: «ويحَكُم!» وطَقطَقَ بأصابعِه مشيرًا إليَّ وتابع قائلًا: «ولكننا سنبيِّن لهم أنا وأنتِ أنَّهم مخطؤون. فكيف يمكن له أن...» -وأشار صوبي بذاتِ النظرة والإيماءة اللتين أشار بهما إليَّ ذات يوم لأخرج من محاضرته، أو بالأحرى، بعد واقعةٍ معيَّنةٍ لا يكف ألبتة عن تذكيري بها -كيف يمكن له أن يعرف أي شيء عن الشابات؟ فلديه سيداته ليلهوَ معهنَّ، ويجعلهن سعيدات، ويعيدهن إلى أولئك الذين يحبونهن. يا له من جهد كبير لفعل هذا، ولكن بالطبع هنالك مكافأة مقابل ذلك، وفي سبيل ذلك يمكننا أن نَهَبَ مثل هذه السعادة. ولكن عن أي سيِّدات شابات نتحدَّث! فليس عنده زوجة ولا ابنة، والصبايا لا يبحن بأسرارهن للشباب، ولكن للمسنين من أمثالي، الذين ما انفكوا يعرفون الكثير من الأحزان وأسباب وقوعها. ولذا يا عزيزتي، سنطلب منه الخروج من هنا ليدخِّن سيجارةً في الحديقة، بينما نتحادث أنا وأنتِ محادثةً قصيرة على انفراد. فهمتُ الإشارةَ وسِرْتُ خارجًا من الحجرة،

وبعد مدة قصيرةٍ أطلَّ البروفسور من النافذة وناداني للدخول. بدا متجهمًا، ولكنه قال: «لقد فحصتُها فحصًا دقيقًا، ولكن لا يوجد سببٌ وظيفي لحالتها. وأتفق معكَ أنَّها فقدت الكثير من الدم، حَصَل ذلك، ولكنه ليس سبب حالتها. بيدَ أنَّ أعراض حالتها لا علاقة لها بفقر الدم بأي حالٍ من الأحوال. لقد طَلَبْتُ منها أن ترسل لي خادمتها، حتى يتسنَّى لي أن أسألها سؤالًا أو اثنين، وبذلك لن أدع مجالًا للصدفة في أن أغفل شيئًا. أنا أعرف تمام المعرفة ماذا ستقول. ومع ذلك فهنالك سببٌ، دائما ما يكون هنالك سبب لكل شيء. يجب أن أعود إلى بلادي وأتحرَّى في حالتها. ويجب عليك أن ترسل لي برقيةً كل يوم، وإذا كان هناك داعٍ سآتي مرة أخرى. فالمرض -وسأدعوه مرضًا لأنه عندما لا يكون المرء على ما يرام فذلك يعني أنه مصاب بمرض- يثير اهتمامي، كما أن لوسي العزيزة الغالية اللطيفة، تثير اهتمامي أيضًا. فقد سَحَرَتْنِي، وسوف آتي، إن لم يكن من أجل خاطرك أو لعلاج المرض، فمن أجلها هي».

وكما أقول لك، لم يُضِفْ ڤان هيلسنغ كلمةً واحدةً على ما قاله، حتى عندما كنَّا وحدَنا. لذا فأنت تعرف الآن كل ما أعرف يا أرث. سأراقبها بحزم. وإني أدعو لوالدك المريض بالشفاء العاجل. فلا بدَّ أنه أمر فظيع بالنسبة لك يا صاحبي العزيز، أن تكون في موقفٍ تُخَيَّرُ فيه بين الوقوف بجانب واحدٍ من شخصين عزيزين جدًا عليك. وأنا أعرف إيمانك بواجبك تجاه أبيك، وأنت محق في الالتزام بذلك، ولكن إذا لزم الأمر، سأرسل في طلبك لكي تأتي من فورِك للنظر في حالة لوسي، لذا لا تبالغ في قَلَقِكَ عليها ما لم أرسل إليك خبرًا.

٤ سبتمبر- لا يزال اهتمامنا منصبًا نحو المريض آكل الحيوانات الحيَّة. فقد مرَّ بنوبة هيجانٍ واحدة فقط وحصل ذلك البارحة في وقتٍ غير اعتيادي. بدأ يضطرب قبيل الظهيرة بقليلٍ. وحيث كان المساعد على دراية بالأعراض، فقد طلب العون والمساندة من فوره. لحسن الحظ أقبَل المساعدون راكضين، ووصلوا في الوقت المناسب، إذ أنه بات عنيفًا جدًا حين حل الظهر، حتى إنَّهم اضطروا إلى استخدام كامل قوتهم للإمساك به. وعلى أي حال، بعد حوالي خمس دقائق، بدأ يهدأ تدريجيًا، ثم غرق أخيرًا في نوعٍ من الكآبة وبقيت تلك الحالة ملازمةً له حتى الآن. أخبرني المساعد إنَّ صرخاته أثناء هيجانه مرعبةٌ حقًا، وقد وجدت نفسي غارقًا في العمل حين وصلت بعد أن قضيت وقتًا في الاهتمام ببعض المرضى الآخرين الذين كانوا خائفين منه. أستطيع فعلًا أن أتفهم تأثير ذلك عليهم، لأن الأصوات أزعجتني حتى أنا رغم وجودي بعيدًا بمسافة لا بأس بها. انقضت الساعة المخصَّصة للعشاء في المصحَّة، وحتى الآن لا يزال مريضي جالسًا في إحدى الزوايا واجمًا مهمومًا، وقد ارتسمَت على محيَّاه نظرةٌ بالغة الحزن، كئيبة، وباهتة؛ نظرةٌ تلّمح أكثر مما تصرح. تلمح بشيءٍ لا أستطيع أن أفهمه بتاتًا.

لاحقًا- طرأ تغيُّر آخر على المريض رينفيلد. ففي الخامسة عُدْتُه لأتفقَّد أحواله، ووجدْتُه يبدو سعيدًا ومسرورًا كما اعتاد أن يكون. كان يصيد الذباب ويأكله، وكان يدوِّن ملحوظاتٍ عن حَبْسِه من خلال علامات حفرها بأظافره بين حواف بطانة طرف الباب.

ما إن رآني إلَّا وأقبل مسرعًا واعتذر عن سلوكه السيء، وطلب مني بخنوع وتواضع شديدين أن نعيده إلى حجرته الخاصة وأن يُعْطَى دفتر ملاحظاته مرَّة أخرى. فكَّرْتُ في الأمر مليًا لكي أدخل المرح على نفسه، ولذا أعدناه إلى حجرته وأبقينا النافذة مفتوحة. نثَرَ السُكَّر من كوبه الذي يشرب به الشاي على عتبة النافذة، وهو يجمع صيدًا وافرًا من الذباب. إنه لا يأكلها حاليًا، إنما يضعها في علبة مثلما فعل في السابق، وقد شرع فعليًا بتفحص زوايا حجرته باحثًا عن عنكبوت. حاولْتُ أن أستدرجه إلى الحديث عن الأيام القليلة الماضية، فأي دليل في أفكاره سيقدِّمُ لي عونًا كبيرًا، ولكنه لم يستجب. لوهلة بدا حزينًا جدًا، وقال بنبرة يشوبها الذهول، وكأنه يكلم نفسه بَدَلًا من أن يكلِّمَني:

«انتهى كل شيء! انتهى كل شيء! لقد تخلَّى عني. ولا أمل لدي الآن سوى أن أفعلها بنفسي!». ثم التفت صوبي فجأة وقال بحزم: « دكتور، هلَّا كنت طيبًا جدًا معي وسمَحْتَ لي بالحصول على القليل من السكر الإضافي؟ أظن السكَّر سيكون مفيدًا لي».

«وماذا عن الذباب؟» قُلْتُ له.

«نعم! فالذباب يحبُّ السكَّر أيضًا، وأنا أحبُّ الذباب، ونتيجة لذلك أنا أحبُّ السكَّر». ويأتيك أناسٌ لا يعرفون سوى القليلِ ليظنوا أنَّ المجانين لا يملكون الحجة. أحضرتُ له ضعفَ ما طَلَبَ من السكر، وتركتُه كأي إنسانٍ سعيدٍ في العالم. ليتني أستطيع أن أسبر أغوار عقله.

منتصف الليل- طرأ تغيُّر آخر على حالته. كنتُ قد ذهبت لفحص الآنسة لوسي ويستينرا، والتي وجدتُها أفضل حالًا بكثير، وقد عدت للتو وكنت واقفًا قرب بوابة المصحَّة ناظرًا إلى الغروب، عندما سمعْتُه يصرخ مرَّةً أخرى. ونظرًا لأن حجرته تقع في هذا الجانب من المصحَّة، فقد استطعت أن أسمعه بصورة أفضل مما لو سمعته في الصباح. كان الغروب فوق لندن مذهلًا بأضوائه المتوهجة وظلاله القاتمة وكل الألوان الخفيفة المتدرِّجة التي لونّت الغيوم العاصفة مثلما لونّت المياه المتعكرة. كانت صدمة لي أن أترك جمال هذا المنظر، لأستوعب فجأة كمية البؤس التي يبثها مبنى المصحَّة الحجري البارد بكل ما يحويه من تعاسة. كما ذهلت من قدرة قلبي البائس على تحمل ذلك كله. وصلتُ إليه في اللحظة التي كانت الشمس تغيب فيها، ومن نافذته رأيت قرصَ الشمس الأحمر يتوارى في غيابه. قلّ هيجانه تدريجيًا مع غياب الشمس، وما إن غربت تمامًا إلا وانسل من أيدي المساعدين الممسكين به، كتلة هامدة على الأرض. كم هي مذهلة، الطاقة الفكرية التي يملكها المجانين لاستعادة عافيتهم، فخلال بضع ثوانٍ وقَفَ بهدوء تام ونظر حواليه. أشرت إلى المساعدين ألا يمسكوه، لأني كنت متلهفًا لأرى ماذا سيفعل. ذهبَ مباشرة إلى النافذة ومَسَحَ فتات حبَّات السكر؛ ثم أخذ علبته التي يضع فيها الذباب، أفرغها مما فيها خارج النافذة، رماها، ومن ثم أغلق النافذة، وسار عبر الحجرة، حتى جلس على سريره. فاجئني كل هذا، فسألته: «ألن تحتفظ بالذباب بعد الآن؟». قال لي: «لا، فقد ضقتُ ذرعًا بكل تلك القذارة!» إنه

يشكل بالتأكيد موضوع دراسةٍ مثيرة على نحو يدعو إلى العجب. ليتني أستطيع الإلمام بشيء من طريقة تفكيره أو أن أعرف سبب عاطفته المفاجئة. تمهل؛ ربما هناك دليل في نهاية المطاف إذا استطعنا أن نعرف لماذا اهتاج اليوم في عز الظهر وعند الغروب. أيمكن أن يكون للشمس تأثير مؤذ على بعض الأشخاص من طبائع معينة في فترات محددة، مثلما يؤثِّرُ القمر أحيانًا في أصحاب طباعٍ أخرى؟ سنرى..

برقية من سيوِرْد في لندن إلى ڤان هيلسنغ في أمستردام

٤ سبتمبر- لا يزال المريض يتحسن اليوم.

برقية من سيوِرْد في لندن إلى ڤان هيلسنغ في أمستردام

٥ سبتمبر- تحسَّنَت أحوال المريض تحسنًا كبيرًا. شهيته جيدة، وينام نومًا طبيعيًا، ومعنوياته عالية، وزال عنه الشحوب.

برقية من سيوِرْد في لندن إلى ڤان هيلسنغ في أمستردام

٦ سبتمبر- طرأ تغيُّر رهيب زاد من أحواله سوءًا. تعالَ فورًا، ولا تتأخَّر ساعةً واحدة وسأؤجل إرسال برقيةٍ إلى هولمود حتى تصل إلى هنا.

الفصل العاشر

رسالة من الدكتور سيوِرْد إلى الفاضل أرثر هولمود

٦ سبتمبر

عزيزي أرث،

إن الأخبار التي أنقلها إليك اليوم ليست بالأخبار السارَّة. لقد تراجعت حالة لوسي قليلًا صباح اليوم. وهناك على أي حال، أمر جيِّد واحدٌ نجم عن ذلك؛ فالسيِّدة ويستينرا كانت قلقة عليها، ولذا طلبت مشورتي الطبية في حالتها. وقد انتهزْتُ الفرصةَ، وقلتُ لها إنَّ أستاذي السابق، ڤان هيلسنغ، الأخصائي العظيم، في طريقه لزيارتي والإقامة في ضيافتي، وإني سأضعها تحت إشرافنا كلينا، بحيث يمكننا الآن المجيء والذهاب دون إقلاقها أكثر من اللازم، إذ أن أيَّ صدمةٍ تتعرض لها ستؤدي لموتها، وسيكون هذا بمثابة الكارثة للوسي خصوصًا في ظل وضعها الراهن.

إنَّ الصعاب تحدق بنا جميعنا من كل جانب يا صاحبي العزيز، ولكن بمشيئة الله، سنتجاوزها بالتأكيد. سأراسلك إذا لزم الأمر،

وإن لم تصلك مني أي رسالة، فسلِّم بأني ببساطة أنتظر الأخبار حتى أبلغك بها، في أسرعِ وقت.

صديقُكَ المخلص

جون سيوِرْد

مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

٧ سبتمبر- هذا أول ما قاله لي ڤان هيلسنغ عندما التقينا في شارع ليڤربول:

«هل قُلْتَ أي شيء لصديقنا الشاب حبيب لوسي؟».

قُلْتُ: «لا. فقد انتظرتُ حتى آراك، كما قُلْتُ في برقيتي. وقد أرسلتُ له رسالة أبلغته فيها بأنَّك قادم وحسب، لأنَّ والدة لوسي لم تكن على ما يرام، وإني سأعْلِمُه إذا لزم الأمر».

قال: «صحيح يا صديقي، صحيح تمامًا! فالأفضل له ألَّا يعرف حتى هذه اللحظة، وربما لن يعرف أبدًا. آمل ذلك.. ولكن إذا لزم الأمر، فعندها ينبغي له أن يعرف كل شيء. دعني أنبِّهُك يا صديقي الطيِّب جون. فأنت تتعامل مع المجانين. كل الناس مجانين بطريقة أو بأخرى، ونظرًا لأنك تتعامل بتكتم مع مجانينك، فعليكَ التعامل بالأسلوب ذاته مع مجانين الله أيضًا؛ وأقصد بهم بقيَّة الخلق. لا تَقُل لمجانينك ماذا أنت فاعل أو سبب قيامك به، لا تقل لهم ما يجول في بالك. ولذا ينبغي عليك أن تبقي المعرفة في موضعها، حيث يمكن

لها أن تستقر، وحيث يمكنها أن تجتمع مع نظيراتها ثم تنمو وتزداد. فأنا وأنتَ سنحتفظ بما نعرفه حتى الآن هُنَا.. وهُنَا..». لمسني على قلبي وجبهتي، ومن ثم لمس قلبه وجبهته بالطريقة ذاتها، وأردف: «إني أحتفظ لنفسي بأفكارٍ بعينها حاليًا. وسأفضي لكَ بها لاحقًا».

سألتُه: «ولم لا تفعل ذلك الآن؟ فقد يكون فيها بعض الفائدة، وربما نتوصل إلى قرار ما». إذ ذاك، توقَّف ونظر إليَّ وقال:

«يا صديقي جون، عند زراعةِ كوزِ الذرة، وحتَّى ما قبيل نضوجه، وبينما لا يزال ماء الأرض فيه، ولم تكن أشعة الشمس قد بدأَتْ بَعْدُ في صبغه بلونه الذهبي، فإن المزارع يسحب الكوزَ ويفركه بيديه الخشنتين، وينزع عنه قشوره الخضراء، ويقولُ لكَ: «انظر! إنه كوز ذرة سليم، وسينتج محصولًا جيدًا عندما يحين وقت الحصاد». لم أفهم المغزى، وأطلعته على ذلك. وكي يجيب تساؤلي، مدَّ يدَه وأمسك بأُذُنِي وشدَّها ممازحًا، كما اعتاد أن يفعل منذ زمن بعيدٍ في المحاضرات، وقال: «إن المزارع الماهر يخبرك بذلك في تلك اللحظة بالتحديد لأنه صار يعرف حينها، ولكنه لم يكن ليعرف قبل تلك اللحظة. ولذلك لن تجد المزارع الماهر ينبش التراب عن ذرته المزروعة ليرى إذا كانت تنمو، فلا يفعل ذلك سوى الأطفال الذين يتخذون الزراعة لهوًا، أما الذين يعتبرون الزراعة عملهم ومصدر الرزق في حياتهم فلن تجدهم يفعلون ذلك. أترى الآن، يا صديقي جون؟ لقد زرعتُ كوزَ ذرتي، وللطبيعة عملها الذي ستقوم به في جعله يورق. هذا إذا أورقَ بكل الأحوال، لكن يوجد ما يبشِّر

بذلك، وسأنتظر حتى يبدأ الكوز بالنمو». توقف عن الكلام بغتةً، لأنه رأى بصورة جليَّة أني فهمت. ومن ثمَّ تابع حديثه، وبهيئة واجمة جدًا:

«لطالما كُنْتَ طالبًا نبيهًا، وكان دفتر ملاحظاتك الطبيَّة مملوءًا أكثر بكثير من دفاتر بقية الطلاب. كُنْتَ آنئذٍ طالبًا وحسب، والآن بتَّ مُعَلِّمًا في الطب، وأنا واثقٌ أنَّ تلك العادة الحسنة لم تفارقك. تذكَّر يا صديقي أنَّ المعرفة أقوى من الذاكرة، ولا ينبغي لنا أن نثق بما هو ضعيف. وحتى إذا لم تواظب على الممارسة الجيدة، فدعني أخبرك بأن هذه الحالة التي نحن بصددها، حالة آنستنا العزيزة هي حالةٌ رُبَّما -وانتبه إلى أنني قُلْتُ رُبَّما- تنطوي على أهميَّةٍ لنا وللآخرين إلى درجة لا يُلقي لها بقيَّة الناس بالًا، كما يقول أهل بلادكم. دوّن ملاحظاتك بأفضل طريقة ممكنة. فلا شيء مما أشير به عليك ليس ذا أهمية، بل سجِّل في دفتر ملاحظاتك حتى شكوكك وتخميناتك. وقد يكون في ذلك فائدةً لكَ فيما بعد لكي ترى مدى صدق حدسك. فنحن نتعلَّم من الفشل، لا من النجاح!».

عندما وصفتُ أعراضَ حالة لوسي -وهي الأعراض ذاتها التي كانت قبلًا، ولكنها أكثر وضوحًا بالتأكيد- بدا عليه الوجوم الشديد، ولكنه لم ينطق بكلمة. بل أخَذَ معه حقيبةً فيها العديد من الأدوات والعقاقير «المعدَّات المروعة لمهنتنا المفيدة»، كما سمَّاها ذات مرة في إحدى محاضراته، معدَّات أستاذٍ يمارس حرفة إبراء الناس. عندما وصَلْنَا، استقبلتنا أمُّ لوسي. كانت قلقة، ولكن بدرجة أقل مما توقَّعْتُ أن أجدها عليها، فطبيعة مزاجها الخيِّر ترى أن حتى الموت

لديه ترياق ضدَّ أهواله ذاتها. إننا هنا أمام حالةٍ يمكن فيها لأي صدمة أن تهلك صاحبتها. وقد رُتِّبَت الأمور ترتيبًا متقنًا، لسبب أو لآخر، بحيث أنه لا يجب أن يصل إلى مسامعها أي شيء لا يخصها شخصيًا، ولا حتى التغيُّر الرهيب في ابنتها المتعلقة فيها بشدة. إنه شيء يشبه الطريقة التي تنتهجها الطبيعة عندما تغطي جسمًا غريباً بأنسجة شديدة لتحميها من الشر الذي كان من الممكن أن يسبب له الأذى بمجرد لمسه. وإذا كان هذا النوع من الأنانية محمود، فعندها ينبغي لنا أن نمتنع عن إدانة أي شخصٍ بمثلبة حب الذات، إذ قد يكون هناك جذْورٌ أعمقُ لأسباب تفوق ما لدينا من معرفة.

قررت في هذه المرحلة بناء على معرفتي بعلم الأمراض الروحاني، أن أضع قاعدةً تنص على أنه لا ينبغي للأمِّ أن تكون حاضرةً مع لوسي أو أن تفكِّر في مرضها أكثر مما هو مطلوب على الإطلاق. وافقَتْ عن طيب خاطر، وبسهولة كبيرة حتَّى إني رأيتُ مرَّة أخرى يدَ الطبيعة تصارع من أجل الحياة. وصلتُ مع ڤان هيلسنغ إلى حجرة لوسي. إن كنتُ قد شعرتُ بالصدمة عندما رأيتها البارحة، فقد ذُعرت حين رأيتها اليوم. كانت شاحبةً شحوبًا باهتًا ومخيفًا، وبدا أن الحُمْرَةَ اختفت حتى من شفتيها ولثتها، وبرزت عظام وجهها بصورة ناتئة، وباتَ نَفَسُهَا يوجع قلب الناظر إليها أو السامع لحشرجته. تصلّب وجهُ ڤان هيلسنغ مثل الرخام، وتقارَبَ حاجبَاه حتى كادا يلامسا أنفه. استلقَتْ لوسي دون حراكٍ، ولم يبدُ أنها قادرة على الكلام، ولذا لذنا جميعنا بالصمت برهة. ومن ثم أومأ لي ڤان هيلسنغ، فخرَجْنَا بهدوءٍ من الحجرة. وفي اللحظة

التي أعقبت إغلاقنا الباب خطى بسرعة عبر الممر صوب الباب المجاور، والذي كان مفتوحًا. ثم شدَّنِي بسرعة إليه وأغلق الباب وقال: «يا إلهي! هذا مرعبٌ. ما من وقتٍ نضيِّعه. فهي ستموت بسبب حاجتها الماسَّة للدَّم لكي تحافظ على نشاط قلبها كما ينبغي. علينا أنْ نجري لها نقلًا للدم في الحال. أننقل لها من دمكَ أم من دمي؟».

«أنا أكثر منك شبابًا وأوفر قوَّة أيها البروفسور. لا بدَّ أن تنقل لها الدم مني».

«تهيَّأ من فورِك إذن. سأحضر حقيبتي. فأنا مهيَّأ لمثل هذه الحالات».

نزلتُ معه إلى الطابق السفلي، وبينما كنَّا ذاهبَيْن إلى هناك سمعنا صوتَ قرعٍ على باب الصالة. لما وصلنا الصالةَ كانت الخادمة قد فتحت البابَ للتو، وأرثر يدخل مسرعًا. اندفع صوبي مسرعًا، وهو يهمس بلهفة:

«جاك، لقد استبد بي القلق كثيرًا. فقد قرأتُ المعاني الكامنة بين سطور رسالتك، وأصابني كربٌ عظيم. لقد تحسَّنَت صحة أبي، ولذا هرعت قادمًا إلى هنا لأتبيَّن الأمر بنفسي. أوليسَ ذلك الرجل المحترم الدكتور ڤان هيلسنغ؟ أنا ممتنٌّ لك كثيرًا على مجيئك يا سيِّدي». عندما وقَعَتْ عليه عينُ البروفسور في بادئ الأمر كان غاضبًا بسبب مقاطعته في مثل هذا الوقت، ولكن الآن، وهو يتفرَّسُ أعضاء جسده القوي البُنْيَة ويلاحظ رجولة الشباب الناضحة التي

بدا أنها تنبعث منه، تهلَّلَت عيناه فرحًا. ودون توقُّفٍ قال له بوجوم وهو يرفع يده:

«سيِّدي، لقد جئتَ في الوقت المناسب. فأنت حبيبُ آنستنا العزيزة. وهي في وضعٍ سيءٍ، سيءٍ جدًا جدًا. لا يا بني، لا تفعل ذلك!». قال له ذلك بعد أن شحب فجأةً وجلس في كرسي شبه مغشي عليه. أردف البروفسور: «فأنت ستمدُّ لها يدَ العون. يمكنك أن تفعل ذلك أكثر من أي إنسانٍ آخر، وشجاعتك أفضل عونٍ تقدِّمه لها».

سأله أرثر ببُحَّة: «ماذا يمكنني أن أفعل؟ قل لي، وسأفعل ذلك. حياتي فداها، وسأعطيها آخر قطرة من الدم في جسدي كرمى لها». يمتلك البروفسور جانبًا تهكُّميًا مفرطًا في شخصيته، واستطعتُ من معرفتي القديمة أن ألمح أثرًا لأصل ذلك الجانب عندما أجابه:

«يا سيِّدي الشاب، لم أطلب منك أن تعطيها آخر قطرة من دمك، ليس إلى ذلك الحد!».

«ما الذي ينبغي لي فعله؟» كانت هناك نار متأججة في عينيه، وارتعش منخارَاه المفتوحان بالعزم. لطَمَه ڤان هيلسنغ على كتفه قائلًا: «هلُّم! أنتَ رجلٌ قوي، وهذا ما نريده. وأنتَ أنسبُ مني، وأنسبُ من صديقي جون». بدت أمارات الدهشة على أرثر، وتابع البروفسور حديثه بالشرح بأسلوبٍ لطيفٍ:

«الآنسة الشابة في حالةٍ سيئةٍ، سيئةٍ جدًا. وهي بحاجة إلى دم، ولا بد من إعطائها الدَّم وإلَّا ستموت. وقد تشاورنا أنا وصديقي جون في الأمر، ونحن على وشك إجراء ما نسمِّيه نقلًا للدم؛ أي أن

نتقل من العروق الممتلئة لشخصٍ إلى العروق الخاوية التي ذبلت حزنًا عليه. كان جون سيعطيها دمه، لأنَّه أكثر شبابًا وقوَّةً مني» وفي هذه اللحظة أمسك أرثر يدي ولواها بقوةٍ بصمت بينما تابع البروفسور حديثه «ولكن، ونظرًا لأنك جئت، فأنت أنسبُ منا كلينا، أنا الكبير المسن وصديقي الشاب، نحن الذين نفني عقولنا في عالم الفكر. وأعصابنا ليست بهدوءِ أعصابك الشديد، ودماؤنا ليست بنقاء دمكَ الصافي!» التفَتَ أرثر نحوه وقال:

«لو تعرف فقط أنني سأموت بسرور من أجل خاطرها لكنْتَ فهمتَ...».

عجز عن إكمال كلامه، والعبرة تخنق صوته.

قال ڤان هيلسنغ: «نِعْمَ الرَّجلُ أنت! في القريب العاجل سيملأ السرورُ قلبَكَ لأنك فَعَلْتَ كلَّ ما تستطيع للمرأة التي تحب. تعال معي الآن والتزم الصمت. ستقبِّلها مرَّة واحدة قبل أن نجري لها نقل الدم، ولكن بعد ذلك يجب عليك أن تغادر عندما أشير لك. ولا تبحْ بأي كلمة لوالدتها، فأنتَ أدرى بأحوالها! فمعرفتها بهذا ستكون صدمة لا ينبغي أن نعرضها لها. تعال معي!».

صعدنا جميعنا إلى حجرة لوسي. وبقي أرثر خارجها بناءً على تعليمات البروفسور. التفَتَتْ لوسي برأسها ونظرَت إلينا، ولكنها لم تقل شيئًا. لم تكن نائمة، ولكنها كانت ببساطة ضعيفة جدًا وغير قادرةٍ على بذلِ أيِّ جهدٍ. باحت لنا عيناها بأحوالها، كان ذلك كل شيء. أخرج ڤان هيلسنغ بعض الأدوات من حقيبته ووضعها على

طاولة صغيرة بعيدًا عن الأنظار. ثم خلط مادة مخدِّرة، وقال مبتهجًا وهو يتجه صوب السرير:

«والآن يا آنستي الصغيرة، هو ذا دواؤكِ. فاشربيه، مثل طفلة طيِّبة. أترين، لقد رفعتُ جسمك بحيث يمكنك أن تبلعيه بسهولة. نعم». بَذَلَتْ لوسي جهدًا لتشربه وقد أفْلَحَتْ في ذلك.

استغربت من المدة الطويلة التي احتاجها الدواء ليأخذ مفعوله. فذلك في الواقع يدلُّ على مقدارِ ضعفها الشديد. بدا وكأن دهرًا مرَّ حتى بدأ النوم يختلج في أجفانها. أظهر المخدر فعاليَّته أخيرًا على أي حال، وغطَّتْ في نومٍ عميقٍ. عندما اطمأنَّ البروفسور إلى سريان مفعوله نادى على أرثر ليدخل الغرفة وطَلَبَ منه نزع معطفه. ومن ثم قال له: «يمكنُكَ أنْ تقبِّلَها قبلةً صغيرةً بينما أُحْضِرُ الطاولةَ إلى هنا. يا صديقي جون، ساعدني في حملها!». وهكذا لم ينظر أي منا بينما انحنى فوقها ليقبِّلها.

قال ڤان هيلسنغ وهو يلتفت إليَّ:

«إنَّه في أوج الشباب والقوة ودمُه نقي حتى إننا لسنا بحاجة إلى نزع الفيبرين منه».

وبسرعة بعد ذلك، لكن بمهارة، أجرى ڤان هيلسنغ العمليَّة. بينما كان الدم ينقل إليها، بدأ أن شيئًا يشبه الحياة صار يسري في وجنتي لوسي المسكينة، وقد أشرقت بهجة عظيمة في وجه أرثر بعدما كان الشحوب يكتسحه. بعد برهة قصيرة بدأ قلقي يزداد، لأن فقدان الدم كان يفعل فعله في أرثر رغم أنه رجل قوي. أعطاني

ذلك فكرة عن مدى فظاعة المجهود الذي لا بد مرَّ به جسد لوسي لدرجة أنَّ ما أضعف أرثر إضعافًا جزئيًا فقط أعاد لها عافيتها. ولكن وجه البروفسور بقي متجهمًا، ووقف وساعته في يده وعيناه مثبتتان تارة على لوسي وتارة على أرثر. ارتفعت ضربات قلبي. ثم قال في الحال بنبرة ناعمة: «لا تتحرَّك ولو لحظة. هذا يكفي. اعتنِ أنتَ به، وسأعتني أنا بها». عندما انتهى كل شيء رأيتُ مقدار الضعف الكبير الذي لحق بأرثر. ضمَّدْتُ له الجرحَ وأمسكتُ ذراعه حتى أخرجه من الحجرة، عندما قال ڤان هيلسنغ دون أن يلتفت إلى الخلف، إذ بدا كمن له عينين في قفا رأسه:

«أعتقد أن العاشق المقدام يستحق أن يحظى بقبلةٍ أخرى، قبلةٍ سيحظى بها في الحال». وحيث أنه أنهى عملية نقل الدم، سوَّى الوسادة تحت رأس لوسي. وحين فعل ذلك ارتفع إلى الأعلى قليلًا الرباطُ المخملي الأسود الرفيع الذي يبدو أنها ترتديه دائمًا حول رقبتها، وهو مثبَّتٌ بعقدة جواهر قديمة كان حبيبها أرثر قد أهداها إيَّاها، وبانت مكانه علامةٌ حمراء على رقبتها. لم يلاحظها أرثر، ولكني استطعت أن أسمع صوت شهقته المهموسة والتي تعد إحدى طرق ڤان هيلسنغ في تضليل مشاعره. لم يقل شيئًا في تلك اللحظة، ولكنه التفتَ إليَّ، قائلًا:

«والآن أنزِل معك عاشقنا الشاب المقدام، واسقِه نبيذًا مستوردًا فاخرًا، واجعله يستلقي برهةً. عليه أن يذهب بعد ذاك إلى البيت ليرتاح، وينام كثيرًا ويأكل كثيرًا، بحيث يمكن له أن يعوِّض كمية الدم التي أعطاها لحبيبته. عليه ألَّا يبقى هنا. تمهل لحظة! قد

أفهم يا سيِّدي بأنك قَلِقٌ من النتيجة. لتعلَمَ إذن أنَّ العملية نجحت بكافة المقاييس. لقد أنقذْتَ حياتهَا هذه المرَّة، ويمكنك أن تذهب إلى البيت وترتاح مطمئن البال بأننا فعلنا لها كل ما يمكن فعله. سأخبرها بكل شيء عندما تستعيد عافيتها، وسيتضاعف حبُّها لك لقاءَ ما عملته لها. إلى اللقاء».

بعد أن ذهب أرثر رجعتُ إلى الحجرة حيث كانت لوسي تنام بهدوء، ولكنَّ تنفُّسَهَا بات أشد، ورأيتُ ملاءة السرير تتحرَّك مع تموجِ صدرها صعودًا وهبوطًا. جلس ڤان هيلسنغ بجانب السرير، ناظرًا إليها بإمعان. كان الرباط المخملي يغطِّي العلامة الحمراء مرة أخرى. سألتُ البروفسور هامسًا:

«ما تفسيرك لتلك العلامة على رقبتها؟».

«ما تفسيرك أنتَ لها؟».

«لم أفحصها بعد» أجبْتُه، وتقدَّمت فورًا لأرخي الرباط. وفوق الوريد الوداجي بالضبط كان هناك ثقبان، ليسا كبيرين، ولكن لا يبدو أنهما يعكسان حالةً صحيةً سليمة. لم يكونا علامة تدل على مرض، ولكنَّ حوافَهُما بيضاوان ومنظرهما متفسِّخ، وكأنهما دُقَّا دقًا. خطرَ في بالي على الفور بأن الجرح، أو أيًا كان هذا الشيء، ربما يكون سبب فقدان الدم، ولكني استبعدْتُ الفكرةَ ما إن تشكَّلت في ذهني، لأنه لا يمكن لذلك أن يكون صحيحًا. فلو صحَّ ذلك لتخضب السرير بكامله بلونٍ قرمزي نتيجة الدم الذي لا بد فقدته لوسي وترك في ملامحها ذلك الشحوب الذي لازَمها قبل نقل الدم.

«ما رأيكَ؟» قال ڤان هيلسنغ.

قلتُ: «حسنًا، لا يمكنني أن أعطي أي تفسير لذلك».

وقفَ البروفسور وقال: «عليَّ أن أعود إلى أمستردام الليلة. فهناك كتبٌ وأشياءَ أريدها. وعليك أن تبقى هنا طوال الليل، ويجب ألَّا يغيبَ نظرُك عنها».

«أينبغي لي أن أستعين بممرضة؟».

«نحنُ، أنا وأنتَ، أفضل الممرِّضين. راقِبْها طوال الليل، واحرص على أن تتغذَّى أحسن ما يكون، ولا تسمح لأي شيء أن يزعجها. عليك ألَّا تنام الليل كله. إذ يمكننا، أنا وأنت، النوم فيما بعد. سأعود إلى هنا في أسرعِ وقتٍ ممكنٍ. وربما نبدأ بعد ذلك».

قلتُ: «ربَّما نبدأ؟ ماذا تعني بالله عليك؟».

«سنرى ما نحن فاعلان!» أجابني، وهو يخرج مسرعًا. وما لبث أن عاد لحظةً فيما بعد ومدَّ رأسه داخل الباب وقال، وهو يرفع إصبعه منبِّهًا:

«تذكَّر، إنها أمانة في عنقك. إذا تركتَها وحدَث لها مكروه، فلن تنام قريرَ العين بعد ذلك!».

تتمة مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

٨ سبتمبر- راقبتُ لوسي طوال الليل. زال عنها أثر المخدِّر قبيل الغسق، وصَحَتْ بصورةٍ طبيعية، بدت شخصًا مختلفًا عمَّا

كانته قبل العملية. حتى إنَّ معنوياتها تحسنت وامتلأت بالحيوية والسعادة، لكني رأيتُ علاماتٍ على الإعياء الشديد الذي عانت منه. عندما أبلغتُ أمَّها بأن الدكتور ڤان هيلسنغ كان قد وجَّه بأنه ينبغي لي السهر معها كانت أقرب ما تكون إلى الاستخفاف بالفكرة، مشيرةً إلى قوة ابنتها المتجدِّدة ومعنوياتها الممتازة. كُنتُ حازمًا على أي حال، وأجريتُ الاستعدادات اللازمة لنوبة حراستي الطويلة. بعد أن جَهَّزَتْهَا خادمتُها استعدادًا للنوم دخلتُ الحجرة، وقد تناولتُ العشاء أثناء انشغال الخادمة، واتخذت مجلسي قرب سريرها. لم تعترض بأي طريقة على ذلك، ولكنَّها نظرت إليَّ نظرةَ امتنانٍ كلَّما تلاقت أعيننا. بعد مدَّة طويلة بدا أنها ستغط في النوم، ولكنها كانت تبذل جهدًا وكأنها تستجمع قوَّتَها كاملة لتطرد النوم. تكرَّر ذلك المشهد عدة مرَّات، لكن بمشقة أكبر ولحظات توقف أقصر. كان واضحًا أنها لا تريد النوم، ولذلك بادرت بمعالجة الموضوع في الحال بقولي:

«لا تريدين أن تنامي؟».

«لا؛ فأنا خائفة».

«خائفة من النوم! ولم الخوف؟ فالنوم هو النعمة التي نتوق إليها جميعًا».

«آه، ولكن ليس إذا كنتَ مثلي، ليس عندما يكون النوم نذير رعبٍ لك!».

«نذير رعب! ماذا تعنين بالله عليكِ؟».

«لا أعرف، أوه، لا أعرف. وعدم معرفتي هي ما يزيد الأمر سوءًا. فكل هذا الضعف يأتيني أثناء النوم، حتى بتُّ أخشى مجرد التفكير في النوم».

«ولكن يا فتاتي العزيزة، ربما تنامين هذه الليلة. فأنا هنا لأسهر على راحتك، ويمكنني أن أعدك بأنه ما من شيء سيحدث».

«آه، أستطيع أن أثق فيك!». اغتنمتُ هذه الفرصة وقلتُ لها: «أعدكِ أن أوقظك من فوري إذا ما لاحظتُ علامةً على أحلام سيئة».

«أوستفعل؟ أوه، أوستفعلُ ذلك حقًا؟ يا لطيب معاملتك لي! سأنام إذن!». ما إنْ لفَظَت آخر كلمة إلَّا وأطلقت تنهيدة اطمئنان عميقة، وخرَّت نائمة.

لم تغب أنظاري عنها طوال الليل. لم تتحرك قط، ولكنها استغرقت بنوم عميق هادئ، يبعث النشاط ويهب الصحة والعافية. شفتاها متباعدتان قليلًا، وصدرها مُنْتَظِمٌ في ارتفاعه وهبوطه مثل بندول الساعة. ارتسمت على وجهها ابتسامة، وكان جليًا أنَّ الأحلام السيئة لم تزرها لتعكِّر راحةَ بالها.

جاءت خادمتها في الصباح الباكر، أَوْدَعْتُهَا في رعايتها وجرجرت نفسي إلى البيت، إذ كنت قلقًا بخصوص عدة أمور. أرسلتُ برقيةً قصيرةً إلى ڤان هيلسنغ وأخرى إلى أرثر، وأعلمتهما بالنتيجة الممتازة التي أثمرتها العملية. قضَّيْتُ يومي بأكمله أنجز أعمالي التي تراكمت بكثرة، وكان الظلام قد حلَّ عندما تفرَّغْتُ

للاستفسار عن أحوال مريضي آكل الذباب. كانت حالته جيدة، فقد التزم الهدوء خلال اليوم والليلة المنصرمين. وصَلتْني برقيةٌ من ڤان هيلسنغ من أمستردام بينما كنتُ أتناول عشائي، يقترح فيها عليَّ أن أذهبَ إلى هيلنغَم الليلة، لأنه ربما يكون أمرًا حسنًا أن أكون قريبًا، وقال إنه سيغادر قادمًا مع بريد الليل وسيصل إلى حيث أكون مع طلوع الصباح.

٩ سپتمبر- كان التعب والإجهاد قد نالا منِّي عندما وصلتُ إلى هيلنغَم. طوال ليلتين لم يغمض لي جفن، وبدأ رأسي يشعر بذلك الخدر الذي يميِّز الإجهاد الدماغي. كانت لوسي مستيقظة ومعنوياتها عالية. عندما صافَحَتْنِي نظرَتْ إلى وجهي بتمعُّنٍ وقالت:

«لن تَسْهَرَ معي هذه الليلة. فأنتَ منهك. وأنا في صحة جيدة مرَّة أخرى، أنا كذلك بالفعل، وإذا كانت هناك أي حاجة للسهر، فأنا من سيسهر على راحتِكَ». ما كنتُ لأجادلها في الأمر، ولكني ذهْبتُ وتناولت عشَائي. جاءت لوسي معي، وحيث أن الحياة انبعثت في أوصالي بسبب حضورها الساحر، فقد أكلتُ حدَّ الشبَع وشربتُ بضع كؤوسٍ من النبيذ البرتغالي المستورَد الذي كان أكثر من ممتاز. أخذتني لوسي إلى الطابق العلوي، وأرتني حجرةً تجاورُ حجرتَها، فيها موقدٌ دافئ اضطرَمَت نيرانه. وقالت لي: «والآن عليك أن تبقى هنا. سأترك باب حجرتك مفتوحًا وباب حجرتي أيضًا. يمكنك أن تضطجع على الأريكة لأني أعرف أنه لا يمكن لشيء أن يغريكم أنتم الأطباء بالخلود إلى النوم وقربكم مريضٌ

قد تشتد حالته في أي وقت. وإذا أردتُ أي شيء فسأنادي عليك، ويمكنك أن تلبي النداء في الحال». لم يكن في يدي حيلةٌ سوى الطاعة، فقد كنت «مُرْهَقًا جدًا» وما كنت لأستطيع السهر وأنا متعب. وهكذا، وهي تجدِّد وعدها بأن تناديني إذا ما احتاجت أي شيء، استلقيتُ على الأريكة، ونسيتُ كلَّ ما في العالم.

مذكَّرات لوسي ويستينرا

٩ سپتمبر–أشعر بسعادةٍ غامرةٍ الليلة. فقد مررتُ بفترة ضعفٍ فظيعة، حتى باتت القدرة على التفكير والحركة تشبه الشعور بإشراقة الشمس بعد مدة طويلة من هبوب ريح شرقية في سماءٍ قاسية. يشعر أرثر نوعًا ما بأنه قريب جدًا مني. ويبدو أني أشعر بحضوره وقد بثَّ الدفء في جوارحي. أظنُّ أن المرض والضعف ما هي إلا أمور أنانية توجه بصائرنا وتعاطفنا نحو ذواتنا، بينما الصحةُ والقوةُ يسلما الحبَّ زمام الأمور، وفي الفكر والشعور يمكن للحب أن يتجول حيثما شاء. أنا أعرف أين تجول أفكاري. يا ليت أرثر يعرف ذلك وحسب! يا عزيزي، يا عزيزي، لا بد أن أذنيك تطنَّان وأنتَ نائم، كما تطن أذناي وأنا يقظة. أوه، يا لروعة ما تبقى من راحة الليلة الماضية! وكيف نمتُ، والدكتور سيورْد الطيِّب العزيز يسهر على راحتي. الليلة لن أهاب النوم، لأنه قريبٌ مني يلبِّي ندائي. فالشكر للجميع على طيبتهم معي! والشكر لله! طابَتْ ليلتُك يا أرثر.

١٠ سبتمبر- أحسستُ بيد البروفسور إذ وضَعَها على رأسي، واستيقظتُ في ثانيةٍ. وما تلك إلَّا إحدى الأمور التي يتعلَّمُها المرء عندما يعمل في مصحَّة للمرضى، بطبيعة الحال.

«وكيف حال مريضتنا؟».

«كانت في أحسن حال عندما تركْتُها، أو بالأحرى عندما تَركَتْني هي». أجبْتُه.

قال لي: «تعال، فلنطمئن عليها». ودخلنا الحجرة سويةً.

ستارة النافذة مسدلة. ذهبتُ لأرفعها برفق، بينما خطا ڤان هيلسنغ صوب السرير، وهو يطأ الأرض بخطوات ناعمة مثل القطط.

ما إنْ رفَعْتُ الستارة، وغَمَرَ ضوء شمس الصباح الحجرةَ إلَّا وسمعتُ شهقة البروفسور المهموسة، وعلى أني أعرف أنه نادرًا ما يفعل ذلك، فقد اخترق قلبي خوفٌ رهيبٌ. بينما تقدَّمْتُ إلى الأمام تراجَعَ إلى الوراء، ولم تحتج صيحته المذعورة «يا إله السموات!» إلى ما يدعمها من علامات الكرب على وجهه. رفع يدَه وأشار بها نحو السرير، وجهُه القاسي شاحبٌ وأبيضَ كالرَّماد. شعرتُ بركبتي وقد بدأتا ترتجفان.

هناك على السرير، وهي في غيبوبةٍ على ما يبدو، استلقت لوسي المسكينة مكتسية لونًا أبيضًا وشاحبًا بصورة مرعبة أكثر

من قبل على الإطلاق. وحتى شفتاها كانتا بيضاوين، وبدا أن لثتها قد انكمَشَتْ راجعةً إلى الخلف عن أسنانها، كما نرى أحيانًا في جثة إنسان بعد ملازمة المرض له مدةً طويلة. رفَعَ ڤان هيلسنغ قدَمَه ليضرب الأرض غاضبًا، ولكن غريزته وكل تلك السنوات الطويلة من معايشة المرضى انتصبت ماثلةً أمام عينيه، فأنزل يده برفقٍ مرَّة أخرى، وقال: «أسرع! إليَّ بالبراندي». هرعت مسرعًا إلى حجرة الطعام، وعدتُ ومعي آنية الخمر. رطَّبَ الشفتين البيضاوين البائستين به، وفركنا معًا راحةَ يديها ومعصميها وقلبَها. ثم تحسَّسَ قلبَها، وبعد بضع لحظات من القلق الذي يغم النفس قال:

«لم يفت الأوان. فقلبها ينبض، رغم أنها نبضات واهنة. ذهبَتْ كل جهودنا هباءً، وعلينا أن نعيد الكرَّة مرة ثانية. وأرثر الشاب ليس هنا الآن، وعليَّ أن أطلبَ ذلك منك أنتَ هذه المرة يا صديقي جون». بينما قال ذلك، كان يدس يدَه داخل حقيبته ويُخْرِجُ أدوات عملية نقل الدم، نزعتُ معطفي وثنيت كمَّ قميصي إلى الأعلى. لم يكن هناك إمكانية لإعطائها مخدرًا في الوقت الحالي بالذات، وما من حاجة له، ولذلك ودون تأخير ولو لحظة واحدة، بدأنا إجراءَ العملية. وبعد مدة -لم يبد أنها مدة قصيرة أيضًا، لأن خروج الدم من جسد المرء، بصرف النظر عن رغبة صاحبه بالتبرع به، يعد شعورًا رهيبًا- رفع ڤان هيلسنغ إصبعه منبِّهًا وقال: «لا تتحرَّك، ولكني أخشى أنه ومع زيادة قوتها قد تستيقظ وذلك سيشكِّل خطرًا، أوه، خطرًا كبيرًا جدًا. ولكن ينبغي لي توخِّي الحذر. ينبغي لي أن أعطيها حقنة تحت الجلد من المورفين». تقدَّم بعدئذ بسرعة

ومهارة، لينفِّذ ما عزم عليه. لم يكن أثر ذلك على لوسي سيئًا، لأن حالة الإغماء بدت وكأنَّها اندمجت بدرجةٍ لا تكاد تُذْرَك في حالة نومٍ خَدِر. وبشعور من الفخر الشخصي، رأيتُ أثرًا خفيفًا من اللونَ الأحمر ينسل راجعًا إلى الوجنتين والشفتين الشاحبة. لا يمكن للمرء أن يعرف، حتى يجرِّب ذلك، ما هو الشعور الذي يحس به عندما يكون الدم ذاته الذي يحبيه ينتقل إلى عروق المرأة التي يحب.

راقبَني البروفسور بصورة جدية وقال: «سيفي ذلك بالغرض». قُلْتُ معترضًا: «أذلك يكفي؟ فقد سحبْتَ من أرث مقدارًا أكبر من الدم». وقد ابتسم لمقالتي تلك ابتسامةً حزينةً وهو يرد عليَّ قائلًا:

«إنه حبيبها وخطيبها. وأنت أمامك الكثير من العمل لتقوم به من أجلها ومن أجل الآخرين، وكميَّة الدَّم الحالية كافية».

عند انتهاء العملية، تولَّى هو العناية بلوسي، بينما ضغطتُ بإصبعي على موضع الجرح في جسدي. استلقيتُ، وفي أثناء ذلك انتظرته حتى يفرغ منها ليوليني الرعاية، لأني شعرتُ بدوخةٍ وغثيانٍ خفيفين. بعدَ وقتٍ قصير، ضمَّد جرحي وأرسلني إلى الطابق السفلي لأحتسي كأس نبيذ أريح به نفسي. بينما كنت أغادر الحجرة تبعني، وقال لي شبه هامسٍ:

«تذكَّر، لا تبح بأي شيء مما جرى. فإذا حصل وأن جاء العاشق الشاب على نحو غير متوقع، فافعل كما فعلنا سابقًا، لا تبح له ولو بكلمة. سيخيفه ذلك من فوره ويزرع فيه بذوة الغيرة أيضًا. علينا ألا نفسح المجال لا للخوف ولا للغيرة. الأمر على هذا النحو!».

عندما رجعتُ نظر إلي بتمعن، ومن ثم قال لي:

«أنتَ لستَ أسوأ حال بكثير. اذهب إلى الحجرة، واستلقِ على الأريكة، وانعم بقسطٍ من الراحة برهة، ثم تناول فطورًا دسمًا وارجع إليَّ هنا».

اتَّبَعتُ تعليماته، لأني أعرف أنها تعليمات صحيحة وحكيمة. قمت بما هو مطلوب مني، ومهمتي القادمة الآن هي الحفاظ على قوتي. شعرتُ بضعف شديد، وفي خضم الضعف فقدتُ شيئًا ما من الدهشة التي اعترتني بسبب ما حدث. خررتُ نائمًا على الأريكة وأنا أستغربُ مرارًا وتكرارًا، كيف انتكست لوسي هكذا، وكيف أمكن لها أن تفقد تلك الكمية الكبيرة من الدم دون وجود علامة في أي مكان على خروجه من جسدها. أحسب أنني لا بدَّ تابعتُ استغرابي في أحلامي، لأنه ما بين النوم واليقظة، عادَت أفكاري دائمًا إلى الثقبين الصغيرين في رقبتها ومنظر حوافهما المثلَّمة المنهكة، رغم صغر حجميهما.

نامت لوسي نومًا هانئًا استمر حتى وقتٍ لا بأس به من النهار، وعندما استيقَظَتْ كانت بصحة وقوة نوعًا ما، رغم أنها لا تقارب درجة صحتها وقوتها كما كانت في اليوم الماضي. بعد أن رآها ڤان هيلسنغ، خرج ليتمشَّى، وتركها في عهدتي، مع تعليماتٍ مشدَّدة بعدم تركها ولو للحظة. وصلني صوتُه من الصالة، وهو يسأل عن الطريق التي توصله إلى أقرب مكتبٍ لإرسال البرقيَّات.

تجاذَبَتْ لوسي معي أطراف الحديث باسترسال، وبدت غير

واعية تمامًا بأيِّ شيءٍ مما جرى. حاولتُ أن أبقيها منشرحة الصدر ومستمتعةً بالحديث. وعندما صعَدَت أمُّها لرؤيتها، لم يبدُ عليها أنها لاحظت أي تغيُّر، ولكنها قالت لي بامتنان:

«إنَّا ندينُ لكَ بفضلٍ عظيمٍ يا دكتور سيوِرْد لقاء كل ما فَعَلْتَهُ، ولكن عليكَ الآن فعلًا أن تنتبه لنفسك حتى لا تفرط في العمل. فأنتَ نفسُك تبدو شاحبًا. إنك بحاجةٍ لزوجةٍ تشرف على صحتك وتعتني بك قليلًا، فذلك ما تفعله أنتَ للآخرين!». بينما كانت أم لوسي تقول مقالتها، صار وجه لوسي قرمزيًا، رغم أن ذلك حصل للحظات، لأن عروقها الضامرة الهزيلة لم تستطع أن تحتمل لمدة طويلة ذلك الاستنزاف غير المعتاد في الدم الذي حصل في رأسها. وجاءت ردة الفعل بصورةٍ شحوب شديد وهي تلتَفِتُ بعينيها المتوسلتين صوبي. ابتسمتُ وأومأتُ لها برأسي، واضعًا إصبعي على شفتيَّ، تنهَّدَتْ وهي تسترخي وسط وسادتها.

عاد ڤان هيلسنغ في بضع ساعات، وقال لي على الفور: «والآن عُدْ إلى البيت وأكثر من الأكل ونَلْ من الشرب كفايتك. قوِّ جسدك. سأبقى هنا الليلة، وسأسهر على صحة الآنسة الصغيرة بنفسي. يجب أن نراقب الحالة أنا وأنت، ويجب ألا يعرف أحدٌ آخر بالأمر. فلدي أسباب وجيهة لذلك. وإيَّاك، إيَّاك أن تسألني ما هي، بل فكِّر كما يحلو لك. ولا تخشَ حتَّى من التفكير بأكثر الأشياء التي لا تخطر في البال. طابت ليلتك».

وأنا في الصالة جاءت إلَّي خادمتان، وسألتا إذا كان يجب على

واحدة منهما أو كليهما معًا أن تسهرا على صحة الآنسة لوسي. توسَّلتا إليَّ لكي أسمح لهما بذلك، وعندما قلتُ لهما إنَّ رغبة الدكتور ڤان هيلسنغ تقضي بأن يسهر على راحتها إما هو أو أنا، طلبتَا مني بصورة مثيرة للشفقة تمامًا أن أتوسَّط لدى «السيِّد الأجنبي المحترم». تأثَّرْتُ تأثرًا شديدًا بلطفهما. وربما يعود سبب ذلك إلى أنني ضعيف في الوقت الحالي، وربما إلى معاملة لوسي لهما، حيث تجلَّى وفاؤهما لها، لأني ما فتأت أرى المرة تلو الأخرى نماذج مشابهة لهذه تدل على لطفها. رجعتُ إلى هنا في الوقت المناسب لتناول عشاءٍ متأخر، وجُلْتُ أتفقَّدُ أحوال المرضى؛ كلهم بخير، فجلستُ أكتب في هذه المفكرة منتظرًا النوم. ها هو قادم.

١١ سپتمبر- ذهبتُ ظهيرة اليوم إلى هيلنغَم. ووجدتُ ڤان هيلسنغ في معنويات ممتازة، ووجدت لوسي أفضل بكثير. لم تمر مدة قصيرة على وصولي، إلَّا ووصل من خارج إنجلترا طردٌ كبيرٌ مُرْسَلٌ إلى البروفسور. فتَحَه بإكراهٍ كبير -إكراهٍ متصَنع بالطبع- وأخْرَجَ منه باقةً كبيرةً من ورودٍ بيضاء.

قال البروفسور: «هذه لكِ يا آنسة لوسي».

«لي أنا؟ أوه، يا دكتور ڤان هيلسنغ!».

«نعم، يا عزيزتي، ولكنها ليست لكِ لتلعبي بها. فهذه أدوية». وهنا ارتسمت على محيَّا لوسي علامات الاستياء. ثم أردف قائلًا: «لا، ولكنها ليست أدوية تُشرَب إثر غليها أو بطريقة تصيب المرء بالغثيان، لذا فلستِ بحاجة لأن تزدري هذا الأنف الفاتن، وإلا فإني

سأنبه صديقي أرثر إلى كل المتاعب التي قد يقاسيها وهو يرى هذا القدر الهائل جدًا من الجمال وقد تشوّه. نعم يا آنستي الجميلة، فهذا الدواء سيعيد ذلك الأنف الجميل جدًا إلى أحسن حالٍ مرة أخرى. باقة الزهور هذه علاجية، ولكنَّك لا تعرفين كيف. لقد وضعتُها في نافذة حجرتك، وصنعت منها إكليلًا بديعًا لأعلقه حول رقبتك حتى تنامي نومًا هانئًا. أوه نعم! فهذه الزهرة مثل زهرة اللوتس، تنسيكِ همومك. رائحتها تشبه كثيرًا رائحة مياه نهر لِيثِيْ[1]، ورائحة نبع الشباب الذي بحث عنه الفاتحون في ذا فلوريداس ووجدوه جميعًا ولكن بعد فوات الأوان».

أثناء حديثه، كانت لوسي تتأمل الزهور وتشمُّها. وها هي الآن ترميها من يدها قائلة، نصف ضاحكة، ونصف مشمئزة:

«أوه، أيها البروفسور، أظنُّك تمزح معي وحسب. يا ويلي! فهذه الزهور ليست سوى زهور الثوم المعروفة».

ما أثار دهشتي أنَّ ڤان هيلسنغ نهض وقال بكل التجهُّم الذي يميِّزه، وقد التقى هيكل فكِّه الصلد وحاجباه الكثيفان:

«لستُ ممَّن يحبون الدعابات! وليس من طبعي المزاح ألبتة! فهناك غاية عظيمة تقف وراء كل ما أفعل، وإيَّاكِ أن تحبطي مسعاي. كوني حذرة لما فيه خير الآخرين إنْ لم يكن من أجل خيركِ أنتِ». وعندما رأى حينها لوسي وقد تلبَّسَها الوجل، إذ بدا أنها

---

(١) نهر النسيان وأحد الأنهار الخمسة في مملكة هاديس؛ مملكة العالم السفلي في الميثولوجيا الإغريقية.

خافت فعلًا، تابَعَ حديثَه بنبرة ألطف: «أوه، يا آنستي الصغيرة، لا تخيفيني يا عزيزتي. فأنا أفعل ذلك فقط لما فيه مصلحتك، ولكن هناك الكثير من الآثار الحَسَنَة التي ستجلبها لكِ هذي الزهور والتي يعرِفُها الناس جيدًا. ها أنا ذا أضعها بنفسي في حجرتك. وقد حبكتُ بنفسي الإكليل الذي سترتدينه. ولكن اشش! لا تفشي الأمر لأحدٍ حتى لا يسألونك أسئلة فضولية جدًا. عليك أن تمتثلي للأوامر، والصمتُ جزء مهم من الامتثال، ومن شأن امتثالك أن يردك قوية معافاة إلى أحضان حبيبك الذي ينتظرك. والآن اجلسي هادئة برهةً. أما أنت يا صديقي جون، فتعال معي، ينبغي لكَ أن تساعدني على فرش الحجرة بالثوم، الذي جاء من مسافة طويلة من هارْلِم، حيث يَزرَعُ صديقي ڤاندرپول الأعشاب في بيوته الزجاجية على مدار السنة. وقد اضطررت أن أرسلَ له برقيَّةً البارحة، ولولا ذلك لما كانت زهور الثوم هنا».

دَخَلْنَا الحجرةَ وقد أخذنا معنا الزهور. كانت تصرُّفات البروفسور غريبة بالتأكيد ولا يمكن أن توجد في أي موسوعة للأدوية قد سمعت بها من قبل. أول خطوة قام بها كانت إغلاق النوافذ ومن ثم إيصادها بإحكام، بعد ذلك أخذ حفنةً من الزهور، وفرك بها فوق أطر زجاج النوافذ كلِّها، وكأنه أراد أن يضمن أن تُحمَّلَ أي نفحة من الهواء قد تدخل إلى الحجرة برائحةِ الثوم. ومن ثم مسحَ حول إطار الباب، في الأعلى، والأسفل، وعلى كلا الجانبين مستخدمًا حزمة الثوم، وفعل الأمر نفسه حول الموقد. بدا كلُّ ذلك غريبًا علي، فقلتُ في الحال:

«حسنًا أيُّهَا البروفسور، أعرف أنَّ في جعبتك دائمًا سبب لما تفعله، ولكن ما فعلْتَه الآن أصابني بالحيرة بالتأكيد. من حسن الأمور أنه لا يوجد متشكك هنا، وإلَّا لقال بأنك تحضِّر تعويذة لطرد روحٍ من الأرواح الشريرة».

«ربما أكون أفعل ذلك!» أجاب بهدوءٍ وهو يبدأ في حبك الإكليل الذي من المقرر أن تضعه لوسي حول رقبتها.

انتظرنا بينما مضت لوسي إلى دورة المياه قبل أن تخلد إلى النوم، وعندما صارت في السرير جاء ووضع بنفسِه إكليل زهور الثوم حول رقَبَتِهَا. وكانت آخرُ الكلمات التي قالها لها:

«حذار من أن تفسدي ما فعلناه، وحتى لو شعرتِ بأن الحجرة صارت خانقة، فلا تفتحي النافذة أو الباب هذه الليلة».

قالت لوسي: «أعدك بذلك، وشكرًا لكما جزيل الشكر على لطفكما معي! أوه، ما الذي فعلته حتى يمنَّ الله عليَّ بصديقين مثلكما؟».

وبينما غادرنا المنزل في عربتي السريعة التي كانت بانتظارنا، قال ڤان هيلسنغ:

«الليلة يمكنني أن أنام مطمئن البال، كل ما أريده هو النوم، فقد قضيتُ ليلتين مرتحلًا، وقرأت العديد من الكتب في النهار الفاصل بينهما، وانتابني الكثير من القلق في نهار اليوم التالي، وسهرتُ ليلةً بكاملها دون أن يرف لي جفن. وغدًا في الصباح الباكر مُرَّ بي، وسنأتي معًا لرؤية آنستنا الجميلة، وقد صارت أقوى بكثير بسبب «تعويذتي» التي حضَّرْتُها. هُوْ! هُوْ!».

بدا في قمة الثقة، حتى إنَّني شعرتُ بالخوف والرعب الغامض، بعد أن تذكَّرتُ ثقتي بنفسي قبل ليلتين ونظرت إلى نتيجة ما حصل وقد كانت كارثية. لا بدَّ أن ضعفي جعلني أتردَّد لأقول ذلك لصديقي، ولكني شعرتُ بتلك المشاعر أكثر وأكثر، مثل دموعٍ حبيسةٍ في الجفون.

الفصل الحادي عشر

مذكَّرات لوسي ويستينرا

١٢ سبتمبر- كَمْ هما طيِّبان في تعاملهما معي! وكَمْ أُحِبُّ ذلك العزيز الدكتور ڤان هيلسنغ، وأستغربُ قلقَه الشديد على تلك الزهور. لقد أخافني بالتأكيد، فقد كان قاسيًا جدًا. ومع ذلك لا بدَّ أنه محق، لأنني فعلًا أشعر بالطمأنينة لوجودها. لست أخشى البقاء وحيدةً الليلة نوعًا ما، وأستطيع الخلود إلى النوم دون خوفٍ. لا ينبغي لي أنْ ألقيْ بالًا لأيِّ رفرفةِ أجنحةٍ أسمَعُها خارج النافذة. يا إلهي! ما أصْعَبَ ذلك الصراع الرهيب الذي كنت أخوضه ضد النوم في أغلب الأحيان مؤخَّرًا، ما أشد آلام الأرق، ما أقسى ألم الخوف من النوم، وما أصْعَبَ تلك الأهوال الغامضة التي حصلت معي! ويا لها من نعمةٍ تلك التي يحظى بها بعضُ الناس، الذين تخلو حياتهم من المخاوف والأهوال! أولئك الذين يُعَدُّ النوم لهم نعمةً تأتيهم كل ليلة، ولا تجلب معها سوى الأحلام السعيدة. لا بأس إذن، ها أنا الليلة آملُ أن أنام مثل أوفيليا[1] في المسرحية، مستلقية

(١) إحدى الشخصيات في مسرحية «هاملِتْ» للكاتب الإنجليزي وليم شكسبير.

«بأكاليل العذارى وزهور الصبايا». ما أحببتُ الثومَ من قبل قط، ولكنه الليلةَ يَسرُّ القلب! ففي رائحته طمأنينةٌ، وها أنا ذا أشعرُ بالنَّوم وقد داهمني. طابت ليلتكم، جميعًا.

مذكَّرات الدكتور سيوُرد

١٣ سبتمبر- أُستُدْعِيتُ للذهاب إلى فندق بيركلي ووجدتُ ڤان هيلسنغ وقد جاءَ قبل الموعد كعادته. كانت العربةُ التي طلبناها من الفندق تنتظر. جاء البروفسور بحقيبتِهِ التي باتت الآن ترافقُه دائمًا أينمَا حلَّ.

فلأدوِّن كلَّ الأحداث كما وقَعَت بالضبط. وصلتُ مع ڤان هيلسنغ إلى هيلنغَمْ في الساعة الثامنة. كان صباحًا رائعًا، صباحًا يزهو بأشعة الشمس المشرقة والشعور المنعش بحلول الخريف قبل أوانه. وهي أشياء بدت كإتمام لعمل الطبيعة السنوي. تَحوَّلت أوراق الشجر إلى مختلف الألوان الجميلة، ولكنها لم تبدأ بعد بالتساقط من الغصون. عندما دَخَلنَا التقينا السيِّدة ويستينرا خارجةً من حجرةِ الاستقبال الصباحية. فهي تنهض دائمًا في وقت مبكر. ألقَتْ علينا التحيَّة بحرارةٍ وقالت:

«ستسرَّان إذا ما عرفتُما أنَّ لوسي في حال أفضل. فابنتي العزيزة ما تزال نائمة. وقد نظرتُ إلى حجرتِها وشاهدتها، ولكني لم أدخل إلى داخل الحجرة كي لا أوقظها». ابتسم البروفسور، وبدا في قمَّة البهجة. فرَكَ إحدى يديه بالأخرى، وقال:

«إذن أظن أنه بات بمقدوري تشخيص حالتها. فعلاجي يفعل مفعوله»، وما كان منها إلَّا أنْ أجابته على ما قال:

«عليك ألَّا تنسبَ كلَّ الفضل في شفائها لنفسك يا دكتور. فأنا السبب بصورة جزئية في تحسن حالتها هذا الصباح».

«ماذا تقصدين، يا سيدتي؟» سألها البروفسور.

«حسنًا، لقد انتابني القلق على ابنتي العزيزة في الليل، وذهبتُ إلى حجرتِها فوجدتُها تنام نومًا عميقًا، حتَّى إنَّ دخولي عليها لم يوقظها. ولكن الحجرةَ كانت خانقةً بصورة مهولة. انتشرت في كل مكان كميات كبيرة من تلك الزهور الرهيبة الفوَّاحة، وكانت لوسي تضع فعليًا حزمةً منها حول رقبتها. خشيتُ أن تكون الرائحة الشديدة عبئًا ثقيلًا جدًا على ابنتي العزيزة وهي على هذه الحال من الضعف، ولذا أَخْرَجْتُ الزهور كافة وفتحتُ جزءًا صغيرًا من النافذة لأسمح لقليلٍ من الهواء المنعش بالدخول. ستسرُّك حالتها، أنا متأكدة».

مَضَت الأمُّ نحو غرفتها حيث كانت تتناول فطورها عادة في وقتٍ مبكرٍ. بعد أن فرَغت من كلامها، تفرَّسْتُ وجه البروفسور، ورأيته شاحبًا كالرماد. استطاع الاحتفاظ بضبط نفسه أثناء وجود السيِّدة المسكينة، لأنه أدرى بحالِها ومقدار الأذى الذي سيصيبها من جرَّاء تعرضها لصدمةٍ ما، فما كان منه إلَّا أن ابتسم لها فعليًا وهو يمسك لها الباب فاتحًا إياه لتدخل إلى غرفتها. ولكن في اللحظة التي توارَت فيها سحَبَني فجأة وبقوة إلى غرفة الطعام وأغلقَ الباب.

ومن ثم ولأول مرَّة في حياتي، رأيت ڤان هيلسنغ مُنْهَارًا. رفَعَ

يديه فوق رأسه في حالة من اليأس الصامت، ومن ثمَّ ضرب راحَتَي كفَّيْه ببعضهما بهيئة المغلوب على أمره، وجلس أخيرًا في الكرسي، واضعًا يديه أمام وجهه وراح ينشج ويتأوه لكن دون دموع، وبدا نشيجه وكأنه خارج من أعماق قلبه المعذب. ثم رفع ذراعيه مرة أخرى، وكأنه يتوسَّل الكونَ كله وقال: «يا الله! يا الله! يا الله! ما الذي فعلناه، ما الذي فعَلَتْهُ هذه الفتاة المسكينة، حتى يُحْدِق بنا هذا الكَرْب الشديد؟ أما يزال القضاءُ والقدر يحكمنا؟ ويأتي إلينا من العالم الوثني القديم ليخبرنا بأن مثل هذه الأشياء حتمية الحدوث، وأنَّها ستحدث بهذه الطريقة؟ فهذه الأم المسكينة، وفي جهل تام منها، وكل ذلك من أجل مصلحة ابنتها كما توهمت، أقدمت على هذا الفعل الذي أفقد ابنتَها جسدَها وروحَها، وعلينا أن نخفي الأمر عنها، بل حتى علينا ألَّا ننبهَهَا إلى ذلك، وإلَّا ماتت وسنفقد الاثنتين. أوه، يا لشدَّة ما حوصرنا به من أهوال! كيف تألَّبَت ضدنا كل قوى الشياطين!». انتَفَضَ فجأة واقفًا على قدميه، وقال: «تعال، تعال، يجب أن ننظر في الأمر ونفعل شيئًا ما. سواء كان الشيطان خصمنا أم غيره، حتى ولو كانت الشياطين كلها مجتمعة فالأمر لا يهم، وسنجابِهُ خصمَنَا كائنًا من كان». مضى إلى باب الصالة ليُحْضِرَ حقيبته، ثم صعدنا معًا إلى حجرة لوسي.

رفعتُ الستارة مرَّة أخرى، بينما اتجه ڤان هيلسنغ نحو السرير. هذه المرة لم يحدق وهو ينظر إلى الوجه البائس بذات النظرة الشاحبة المريعة الباهتة كما فعل من قبل. بل اتَّشَح بنظرةٍ من حزن قاسٍ وشفقةٍ لا حدودَ لها.

«كما توقَّعْت» تمتَم قائلًا، ونفَسُه المهموس يبوح بمعانٍ كثيرة. ودون أن ينطق بكلمة ذهب وأوصد الباب، ومن ثم بدأ يوزع على الطاولة الصغيرة الأدوات الخاصة بعملية أخرى لنقل الدم. كنْتُ قد أدركت منذ مدة لا بأس بها ضرورةَ إجراء العملية، فشرعتُ أنزع معطفي، ولكنه زجَرَني بيدٍ محذِّرة وقال: «لا، فاليوم عليك أنتَ أن تجري العملية، وأنا من سيعطيها الدم. فقد نال الضعف منك سلفًا». بينما قال ذلك نزَع معطفه ورَفَعَ كُمَّ قميصه.

عملية نقل دم مرَّة أخرى، المخدِّر مرَّة أخرى، ومرَّة أخرى بعضٌ من إعادة البريق إلى الوجنتين الشاحبتين، حتى يعود إليها التنفس المنتظم الذي يتنفسه النائم نومًا سليمًا. هذه المرَّة راقبتُ لوسي بينما استعاد هيلسنغ همته وارتاح.

لم يفوِّت البروفسور الفرصة وأبلغ السيدة ويستينرا من فوره بأنه عليها ألَّا تزيلَ أي شيء من حجرة لوسي دون استشارته، وأنَّ الزهورَ ذاتُ فائدة علاجية، وأنَّ استنشاق عبيرِها جزء من خطة العلاج. ومن ثمَّ تولَّى بنفسه رعاية حالتِها، قائلًا إنَّه سيراقبها هذه الليلة والليلة التالية وإنَّه سيبلغني بالوقت الذي ينبغي أن أعود فيه إليه.

استفاقَتْ لوسي من نومها بعد ساعةٍ أخرى، نَضِرَةً ومشرقةً ولم يبد أن حالتها كانت سيئة جدًا قياسًا بمدى محنتها الفظيعة.

ماذا يعني ذلك كله؟ بدأتُ أتساءل إذا ما كان تعوُّدي الطويل على العيش بين المجانين قد بدأ يترُك أثرَه في عقلي.

١٧ سبتمبر- مرَّت أربعةُ أيام بلياليها من الهدوء. بدأت قوتي تزدادُ بدرجةٍ كبيرةٍ جدًا حتى إني أكاد لا أعرف نفسي. بدا الأمرُ وكأني مررت بكابوسٍ طويلٍ، واستيقظتُ للتو لأرى شروق الشمس الجميل وأشعر بهواء الصباح المنعش من حولي. تَجُوْلُ في مخيِّلتي ملامح ذكرى باهتة، أوقات طويلة من قلق الانتظار والخوف، ظلامٌ فقدت فيه حتى ذلك الشعور بالألم الذي يبثه الأمل في النفس، ما جعل تعاستي أكثر شجىً، تعقبه فترات طويلة من النسيان أعود بعدها إلى الحياة مثل غوَّاصٍ يصعد مجتازًا ضغطًا مهولًا جثم على جسده بفعل المياه. وعلى أي حال، ونظرًا لأن الدكتور ڤان هيلسنغ لم يفارقني، فقد بدا كل هذا الحلم السيء وقد ولَّى دون رجعة، ولَّت أصوات الضجيج التي ما فتئت ترعبني وتخرجني عن أطواري. وتوقَّفَت جميع تلك الأشياء؛ الرفرفة على النوافذ، الأصوات البشرية البعيدة التي بدت قريبة جدًا مني، والأصوات الغليظة التي لم أعرف من أين كانت تأتي وتأمرني أن أفعل أشياء لا أدري ما هي. بتُّ أخلد إلى سريري الآن دون أي خوف من النوم. لم أعد أحاول حتَّى أن أبقى مستيقظة، وبتُّ مغرمةً إلى حدٍّ كبيرٍ بالثوم. يصلني منه صندوقٌ كل يوم من هارْلِم. هذه الليلة سيرحل الدكتور ڤان هيلسنغ، إذ عليه أن يمكث يومًا في أمستردام. ولكن لا حاجة بي لأحد حتى يراقب حالتي، فأنا في صحة جيدة تكفي لأن أبقى وحدي. وأحمد الله كرمى لخاطر أمي، وخاطر أرثر العزيز، وخاطر كل أصدقائنا الذين كانوا في غاية اللطافة! لا ينبغي لي حتى أن أشعر بالفرق لعدم وجود

أحد معي، ففي الليلة الفائتة نام الدكتور ڤان هيلسنغ في كرسيِّه معظم الوقت الذي قضاه بجانب سريري. وجدتُه نائمًا مرَّتين عندما استيقظت، ولكني لم أخشَ أن أعود إلى النوم مرَّة أخرى، رغم أنَّ أغصان الشجر أو الخفافيش أو شيئًا ما رفرف على نحو شبه غاضب على قضبان النافذة.

صحيفة پول مول غازيت، ١٨ سپتمبر

الذئبُ الهارب

مغامرةٌ محفوفةٌ بالمخاطر يخوضها مُرَاسِلُنا في مقابلة أجراها مع حارس حديقة حيوانات زولوجيكَل غاردنز

بعد تقديم عدد كبير من الطلبات التي قوبلت بعدد يقاربه من حالات الرفض، وبعد الاستخدام المتكرر لاسم صحيفة «پول مول غازيت» كتعويذةٍ سحرية، تمكَّنْتُ من العثور على الحارس المسؤول عن القسم الذي يحوي أقفاص الذئاب في حديقة حيوانات زولوجيكَل غاردِنْز. إذ يعيش الحارسُ، واسمه تومَسْ بيلدَر، في أحد الأكواخ في الساحة المُسوَّرَة الواقعة وراء أجَمَة الفيلة، وعندما وجدتُه كان قد جلس للتو لشرب الشاي. يمتاز تومَس وزوجته بكرم الضيافة، كبرا في السن ولم يرزقا بأبناء، وإذا ما كان هذا النموذج من كرم الضيافة الذي حظيت به يعد حالة اعتيادية بالنسبة لهما، فلا بد أن حياتهما هانئة جدًا. لم يكن الحارس ليباشر مناقشة مسائل ما يسمِّيه «الشغل» إلَّا بعد انتهاء العشاء، وبعد أن

يملأنا السرور جميعنا. ومن ثمَّ، وبعد أن رُفِعَتِ الأواني عن المائدة، وأشعَل التِّبغ في غليونه، قال:

«والآن، يا سيِّدي، يمكنكَ أن تتابع حديثك وتسألني ما تشاء. وسوفَ تعذر لي رفضي الحديث في مواضيع مهنية قبل الطعام. فأنا نفسي أسقي الشاي لكل الذئاب وبنات أوى والضباع الموجودة في أقفاصها قبل أن أبدأ بطرح الأسئلة عليها».

«ماذا تقصد بقولك إنك تطرح عليها الأسئلة؟» استفسرتُ، وكلي أملٌ أن أستدرجه إلى مزاجٍ لا يتوقَّف فيه عن الكلام.

«أول طريقةٍ لفعل ذلك تتمثَّل بضربها بعصًا كبيرة على الرأس، أما الطريقة الثانية فهي خرمشة آذانها، وذلك عندما يرغب الرجال الخجلون ببعض التباهي أمام صاحباتهن. ولا أمانع كثيرًا اللجوء إلى الطريقة الأولى؛ أي ضربها بعصا قبل أن أجهز عشاءها، ولكني أنتظرها حتى تتناول كرَزِها وقهوتها، إذا ما جاز لي القول، قبل أن أجرب طريقة خرمشة الأذن. ودعني أذكِّرُكَ...» وهنا أضاف بنبرةٍ فلسفيةٍ: «إننا نمتلك بعضًا من الطباع الموجودة في تلك الحيوانات. فها أنتَ ذا تأتي وتسألني أسئلةً عن عملي، ورغم طبعي الحاد -لولا أن رأيت نصف جنيهك اللعين- وجدتك تبدأ بطرح الأسئلة قبل أن أبدي رغبتي بالإجابة، ولا حتَّى عندما سألتَنِي بطريقةٍ ساخرةٍ إذا ما كنْتُ أرغب منك أن تستأذن مشرف الجناح لرغبتك في طرح الأسئلة عليَّ. ولا تعبرها إهانة.. لكن هل طلبتُ منكَ أن تذهب إلى الجحيم؟»

«لقد فعلتَ ذلك».

«وعندما قُلْتَ لي إنَّك ستشتكي عليَّ لتلفظي بكلامٍ بذيء كان ذلك بمثابةِ ضربةٍ على أمِّ رأسي، ولكن نصف الجنيه وَضَعَ الأمور في نصابها الصحيح. لم أكن راغبًا في الشجار، ولذا انتظرتُ الطعام، وفعلتُ مع طعامي كله مثلما تفعل الذئاب والأسود والنمور. ولكن، أشكر إلهك من كل قلبك، وحيث أنَّ العجوز قد حشَرَت قطعةً من كعكتها في فمي، وسَقَتْني من إبريق شايها العتيق اللعين، وقد انشرحت أساريري، يمكنك أن تخرمش أذني كما تشاء وتشتهي، ولن تسمع مني حتى ولو زمجرة واحدة. فامض واطرح أسئلتك. فأنا أعرف سبب مجيئك، جئتَ لتسألَ عن الذئب الهارب».

«بالضبط. أريدك أن تعطيني رأيكَ في الحادثة. قُلِّي فقط كيف حَصَلَت، وعندما أعرف حيثياتها سأطلبُ منك أن تقول لي ما سبب هروبه في رأيك، وما تصوُّرُك لنهاية القضيَّة برمتها».

«حسنٌ جدًا، يا أخ. سأحكي لك القصَّة من أولها إلى آخرها. لدينا ذئبٌ اسمه بيرسيكر، وهو أحد ثلاثة ذئاب قدمت من النرويج إلى متجر جامراش، لقد اشتريناه منه قبل أربع سنوات. كان ذئبًا حسَنَ السلوك، ولم يسبِّب قط مشاكل تستحق الذِّكْر. وأنا متفاجئٌ من رغبته في الهرب أكثرَ من أي حيوان آخر في الحديقة. ولكن، يا صاحبي، لا يمكنك أن تثق لا في الذئاب ولا النساء».

«لا تلقِ بالًا لما قاله يا سيِّدي!» قاطعته زوجته السيِّدة توم بضحكة مرحة، ثم أردفت: «لقد ظل يعتني بالحيوانات منذ مدة

طويلة، ملعونٌ إن لم يكن صار هو نفسه مثل ذئبٍ هَرِمٍ! ولكنه غيرُ مؤذٍ».

«حسنًا، يا سيِّدي، حَصَلت الحادثة بعد ساعتين من تناوله الطعام يوم البارحة عندما سمعتُ أول شرارةٍ للفوضى التي حصلت. كنتُ أنظف القمامة في أجَمَةَ القرود حتَّى أرعى فيها كوجرًا صغيرًا مريضًا، ولكن عندما سمعتُ العواء والعويل جئتُ من فوري، ورأيتُ بيرسيكر يزمجرُ مثل مجنونٍ خلف القضبان وكأنَّه يريد الخروج. لم يكن هناك الكثير من زوَّارِ الحديقةَ في ذلك اليوم، ولم يكن قربي سوى رجلٍ واحدٍ فقط، رجلٍ طويلٍ، نحيفٍ، ذي أنفٍ معقوفٍ ولحية مُدبَّبَة، يجري فيها قليلٌ من الشَّعر الأبيض. نظرته باردة قاسية وعيناه حمراوان، اشمأزيت منه إذ بدا وكأنَّه هو السبب في اهتياج الذئاب. ارتدى قفَّازات أطفال بيضاء في يديه، وأشار إلى الذئاب وهو يقول لي: «أيُّها الحارس، هذه الذئاب مهتاجة بسبب خطبٍ ما».

«رُبَّما أنتَ سبب اهتياجه» قلتُ، لأني لم أحب الطريقة التي قدَّم بها نفسه. لم يغضب، كما توقَّعْتُ منه أن يفعل، ولكنه ابتسم كالسفيه بفمٍ مليء بأسنان بيضاء حادة وقال: «أوه لا، فالذئاب لن تحبني».

«أوه نعم، بل تحبك» قلتُ مقلِّدًا أسلوبه في الكلام. وأردَفْتُ: «فهي تحبُّ أن تنظف أسنانها بعظمةٍ أو اثنتين عندما يحين وقت الشاي، وأنت لديك من العظام الشيء الكثير».

لا بأس، لقد كان أمرًا غريبًا، ولكن عندما رأتنا الذئاب نتحدَّث

استلقت، وعندما ذهبْتُ إلى بيرسيكر سمَحَ لي أن أربِّتَ على أذنيه مثلما اعتاد أن يفعل دومًا. ثم جاء ذلك الرجل، وكانت الأمور بخير لو لم يضع يده ويربِّت على أذني الذئب أيضًا!».

«كن حذرًا، فبيرسيكر سريع الانقضاض» قلتُ له.

قال لي: «لا يهم، فأنا معتادٌ على الذئاب».

«أوتعملُ أنتَ أيضًا في مهنة تربية الحيوانات» قلتُ له وأنا أنزع قبعتي، فرجل يعمل في تربية الذئاب هو في النهاية صديقٌ جيد لحرَّاس حدائق الحيوانات».

قال: «لا، أنا لا أعمل بالضبط في هذه المهنة، ولكني اقتنيت العديدَ منها كحيواناتٍ أليفة». أنهى جملته تلك ورفع قبعته بأناقةِ مثل لوردٍ، ومضى في سبيله. تابَعَ بيرسيكر النظر إليه إلى أن توارى عن الأنظار، ومن ثمَّ ذهَبَ واستلقى في إحدى الزوايا ولم يبرحها طوال الليل. حسنًا، في الليلة الفائتة، وحالما طلع القمر، بدأت الذئاب هنا كلها بالعواء. لم يكن هناك أي سببٍ يدعوها لذلك. إذ لم يكن هناك أحدٌ قربها ما خلا شخص من الواضح أنه كان ينادي على كلبٍ في مكانٍ ما في الخارج خلف الحدائق في طريق پارك. خرجتُ مرَّة أو مرتين لأطمئن أن كل شيء على ما يرام، وقد كان كان كذلك.. ثم توقَّفَ العواء. قبيل منتصف الليل بلحظات ألقيتُ نظرةً خاطفة حولي قبل أن أعود إلى مكاني، والكُمْنِي إذا كنت كاذبًا، ولكن عندما جئتُ قبالةَ قفص بيرسيكر العجوز رأيتُ القضبان مكسورة ومثنية والقفص فارغًا. هذا كل ما أعرفه على وجه اليقين».

«وهل رأى أحدٌ غيرك أي شيء؟».

«كان أحدُ البستانيِّين الذين يعملون معنا راجعًا إلى بيته في حدود ذلك الوقت من حفلة كان يحضرها، عندما رأى كلبًا رماديًا كبيرًا يخرج من أطراف الحديقة. هذا أقلُّ ما قالَه، ولكنني لا أقيم بالًا لما قاله، لأنه لم يقل ولو كلمة واحدة قط عن الأمر لزوجته عندما وصل البيت، ولم يتطرَّق إلى الحادثة إلَّا بعد الإعلان عن هروب الذئب، فبعد أن سهرنا طوال الليل نجوب في أرجاء طريق پارك بحثًا عن بيرسيكر تذكَّر أنه رأى شيئًا ما. وأنا أعتقد أنَّ أثر الحفلة ألقى بظلاله على ذاكرته».

«والآن يا سيِّد بيلدر، أيمكنكَ أن تفسِّر لي كيف كانت طريقة هروب الذئب؟».

«حسنًا، يا سيِّدي» قال الحارس بتواضعٍ مريب، ثم أضاف: «أظنني أستطيع تفسير الأمر، ولكني لا أدري مدى اقتناعك بنظريتي إزاء ذلك».

«سأقتنع بها بالتأكيد. فإذا لم يخاطر رجلٌ مثلك يمتلك درايةً وخبرةً بالحيوانات، بتقديم تخمينٍ صحيح على أي حال، فمَنْ غيرُك سيحاول ذلك؟».

«لا بأسَ إذن، يا سيِّدي، إني أرى الأمر على هذا النحو؛ يبدو لي أن الذئب هرب ببساطة لأنه أراد الخروج».

من الطريقة النابعة من القلب التي ضحك فيها تومَس وزوجته

على النكتة رأيْتُ أنها قد أدَّت وظيفَتها سلفًا، وأنَّ التفسير كليَّةً كان ببساطةٍ حيلةً محكمةً. لم أستطع مجاراة هزل تومَسْ الضليع في ذلك، ولكني حسبت أني أعرف طريقة أكيدة للوصول إلى قلبه، ولذا قلتُ له:

«والآن يا سيد بيلْدَر، سننسى أمر تلك القطعة النقدية الأولى، فهذه أختُها تنتظرك لتظفر بها بعد أن تقول لي ماذا تتوقع أن يحصل».

«أنت محق يا سيِّدي» قال بهمة وخفة، ثم أردف: «وأنا أعرف أنك ستعذرني، كنت أمازحك، ولكن زوجتي العجوز غمَزَتني، وكأنها تقول لي أن أتابع حديثي».

«ما خطبُك؟ فأنا لم أفعل ذلك قط!» قالت زوجته العجوز.

«هذا رأيي: أعتقد أن الذئب مختبئٌ في مكانٍ ما. قال البستاني الذي لم يتذكَّر التفاصيل، إنَّ الذئب كان يعدو متجهًا شمالًا أسرع من الحصان، ولكني لا أصدِّقه، فكما تعلم يا سيِّدي، لا يمكن للذئاب والكلاب أن تعدو كالجياد، فهي لم تُخْلَق لتعدو على النحو الذي وصفه البستاني. تبدو الذئاب مخلوقاتٍ لطيفةٍ في كتب القصص والحكايات، ومن ثم، وعندما تتجمَّع في قطعان وتطارد مخلوقًا خائفًا منها فيمكنها أن تصدر ضجيجًا مرعبًا وتقطعه إربًا إربًا، إيًا كان ذلك المخلوق. ولكن، وليباركك الربُّ، في الحياة الحقيقية ما الذئب سوى مخلوقٍ لم يبلغ من التطوُّر مبلغًا كبيرًا، ولا يبلغ به المقامُ نصف ذكاء كلب وفيٍّ أو شجاعته، ولا يبلغ نصف ربع قدرة الكلاب على القتال. وهذا الذئب غير معتادٍ على الشجار

أو حتَّى الأكل بنفسه، وعلى الأرجح أنه في مكان ما في محيط طريق پارك مختبئًا ومرتعدًا من الخوف، وإذا استطاع أن يفكِّر، فإنَّك ستجده وقد احتار من أين يحصلُ على فطوره. وقد يكون نزل في منطقة ما واختبأ في مخزن فحم تحت الأرض. يا ويلاه! فلن يستطيع طبَّاخٌ تحضير مشروب الرَّم عندما يرى عينيه الخضراوين وهما تبرقان بينما ينظر إليها في العتمة! إن لم يستطع الحصول على الطعام فلا بدَّ أنَّه سيبحث عنه، وعسى أن تتاح له الفرصة لكي يلاحظ فجأةً دكان لحَّامٍ في الوقت المناسب. وإذا لم يجد، ورأى مربِّيَة أطفال وقد ظفرت بصحبة جندي وتركت الطفل في عربته، لا بأس، فلن أتفاجأ حينئذٍ إذا نَقَصَ عدد السكَّان طفلًا واحدًا. ذلك جل ما في المسألة».

كنتُ أدسُّ في يده قطعة النقد الذهبية، عندما اندفع شيء ما مصطدمًا بالنافذة، وقد تضاعف طول وجه السيِّد بيلدَر الطبيعي من هول المفاجأة، وقال:

«فليباركني الله! إذا لم يكن هذا بيرسيكر العجوز وقد عاد بنفسه!».

قام إلى الباب وفتحه، وبدا لي ذلك إجراء غير ضروري ألبتة. دائما ما اعتقدت بأن الحيوانات المفترسة لا تبدو بتلك اللطافة مثلما لو كان بينك وبينها حاجز واضح المتانة، وقد عزَّزَت تجربتي الشخصية تلك الفكرة بدلًا من أن تستبعدها.

فالطبع يغلب التطبع في نهاية المطاف على أي حال، ولم يلقِ

بيلدر أو زوجته بالّا للذئب، وتعاملا معه كما أتعامل أنا مع كلب. الذئب نفسُه كان وديعًا وحَسَن السلوك ويشبه في ذلك صورة ذاك الذئب الذي يعد أبًا لكل الذئاب التي في القصص؛ وأعني الصديق السابق لذات الرداء الأحمر، الذي هزَّ ثقتها بتنكُّره.

كان المشهد برمَّتِه خليطًا لا يوصف من الكوميديا والشَّجَن. فالذئب الشرِّير الذي أصاب لندن بالشلل لنصف نهار وجَعَل كل الأطفال في المدينة يتراجفون في أحذيتهم، جاثمٌ هناك تكتنفه حالة من الندم، وقد استُقْبِلَ وحظي بالرعاية وكأنَّه طفل ماكر ضل من والديه. تفحَّص بيلدر العجوز كافة أنحاء جسد الذئب بحنان ولطف عظيمين، وعندما فرغ من تأمُّل ذئبه النادم قال:

«كنتُ أعرف أن الذئب العجوز المسكين سيتورَّط في المشاكل، ألم أقل ذلك طوال الوقت؟ هو ذا رأسُه مجروحٌ بكامله وقد امتلأ بالزجاج المكسور. لا بدَّ أنه وثب فوق جدارٍ لعينٍ أو ما شابَه ذلك. إنَّه لمن العار أن يُسْمَحُ للبشر بوضع قنانٍ مكسورة فوق أسوار بيوتهم. هذا نتيجة ذلك. تعال إليَّ يا بيرسيكر».

ثم أخذ الذئب وحَبَسَه في قفصٍ، وأعطاه قطعةَ لحمٍ تكفي كميتها لجرو ذئب سمين، ومضى إلى عمله.

ها قد نجحت أيضًا في أن أرسل لكم المعلومات الحصرية الوحيدة التي كُشِفَت اليوم بخصوص الهروب الغريب للذئب من حديقة الحيوان.

١٧ سبتمبر- انهمكتُ بعد العشاء في مكتبي في المنزل بتنظيم دفاترِ حساباتي، والتي تأخَّر تسديد مستحقاتها بصورة مؤسفة بسبب ضغط الأعمال الأخرى والزيارات العديدة إلى لوسي، فُتِحَ الباب بقوةٍ فجأة، واندفع منه المريض رينفيلد، وقد امتقع وجهُهُ غضبًا. صُعِقْتُ من ذلك بشدة، لأنه لم يحدث من قبل تقريبًا أن دخَل مريض طواعيةً إلى مكتب مشرف المصحَّة. ودون أن يتوقف ولو للحظة اتجه مباشرة نحوي. كان يمسك سكين المطبخ في يده. وإذ أدركت مدى خطورته، حاولتُ إبقاء الطاولة حاجزًا بيننا. بَيْدَ أنَّه كان أسرع وأقوى مني بكثير، فقبل أن أستطيع أن أقف متوازنًا ضَرَبَنِي بسكينه وجرح معصمي الأيسر جرحًا بالغًا. وقبل أن يتمكَّنَ من الضرب مرة أخرى، استخدمت يدي اليمنى فأوقعته أرضًا على ظهره. نزف معصمي بغزارة، وسالت منه بركة دم صغيرة جدًّا انهمرت فوق السجَّادة. وعندما رأيتُ أن صاحبي لم يكن ينوي شنَّ هجوم إضافي، شغلت نفسي بتضميد الجرح في معصمي، ولكن ظلت عيناي تراقبانه وهو خار على وجهه. وصل المساعدون فحوَّلْنَا انتباهنا عليه بدلًا من الانشغال بجرحي، أثارت حالته اشمئزازي. فقد كان مستلقيًا على بطنه على الأرض وهو يلعق الدَّمَ الذي سال من معصمي المجروح وكأنه كلب. تمكنَّا من السيطرة عليه بسهولة، وقد أثار دهشتي عندما مضى مع المساعِدِين بكلِّ وداعة، ويردد بكل بساطة: «الدم هو الحياة! الدم هو الحياة!».

لن أحتمل فقدان المزيد من الدم في الوقت الراهن بالذات، فقد فقدتُ مقدارًا كبيرًا جدًا منه مؤخَّرًا ما سيؤثر على قوتي البدنية، بالإضافة إلى أن الإجهاد المستمر بسبب مرض لوسي وأطوارِه الرهيبة لا يزال يفعلُ فعلَه فيّ. أشعر بإرهاق شديد واستثارة مفرطة، وكم أحتاج إلى الراحة والراحة والراحة. ولحسن الحظ أنَّ ڤان هيلسنغ لم يرسل في طلبي، لذا لا حاجة لي بالتخلِّي عن نومي. الليلة لن أكون بخير إن لم أنم.

برقية من ڤان هيلسنغ في أنتويرب إلى سيوِرْد في كارفاكس

(أُرْسِلَت إلى كارفاكس في سَسِكس نظرًا لعدم وجود اسم مقاطعة واضح في المنطقة؛ ولذا وصلت متأخِّرَةً اثنتين وعشرين ساعة).

١٧ سبتمبر- لا تتأخَّر في المجيء إلى هيلنغَمْ الليلة. وإذا لم تستطع مراقبة لوسي طوال الوقت، فزرْهَا مرارًا وتكرارًا واطمأنَّ إلى أنَّ الزهور في موضعها كما كانت، هذا أمر مهم جدًا.. لا تنسى فعل ذلك. سأكون عندك في أقرب وقت ممكن بعد وصولي.

مُذكَّرات الدكتور سيوِرْد

١٨ سبتمبر- غادرتُ للتو منطلقًا صوبَ القطار الذي سيقلني إلى لندن. أفزعتني برقية ڤان هيلسنغ. ضاعت ليلةٌ بكاملها، وأنا أعرف من تجربتي المريرة ما يمكن أن يحصل في ليلةٍ واحدةٍ. ومن الممكن بالطبع أن يكون كل شيء على ما يرام، ولكن ماذا حَدَثَ

يا ترى؟ بالتأكيد هناك مصير مرعب يحوم فوق رؤوسنا حتَّى إن أي حادثةٍ محتملة من شأنها أن تحبط كل جهودنا التي نسعى لبذلها. ينبغي لي أن آخذ معي هذه الأسطوانة، وبعدها يمكنني أن أكمل تسجيل مذكَّراتي على فونوغراف لوسي.

مذكَّرة تركتها لوسي ويستينرا

١٧ سپتمبر، في الليل - أكتبُ هذه الرسالة وأتركها لكم لتطَّلِعُوا عليها، حتى لا يكون هناك أي احتمال بسيط لأن يقع أحدهم في ورطة بسببي. هذه رواية دقيقة لما حَدَث الليلة. أشعر بأني أموت من الضعف، وبالكاد لدي أي قدرة على الكتابة، ولكن عليَّ أن أسرد ما جرى تحسبًا من أنَّ الموت قد يدركني في أي لحظة.

ذهبْتُ إلى النوم كالعادة، وتأكَّدتُ أن الزهور في مواضعها وفق ما وجَّه به الدكتور ڤان هيلسنغ، وخررتُ نائمة من فوري.

أيقَظَني صوت الرفرفةِ قرب النافذة؛ الرفرفةِ التي بدأت أسمعها بعد أن مشيتُ وأنا نائمةٌ على الجرف في وِتْبي عندما أنقَذَتْنِي مينا، الرفرفةِ التي بت أعرفها جيدًا. لم أشعر بالخوف، ولكني تمنَّيتُ لو كان الدكتور سيوِرْد في الحجرة المجاورة -نظرًا لأنَّ الدكتور ڤان هيلسنغ قال إنَّه سيكون هناك- بحيث يمكن لي أن أناديه. حاولتُ النوم، ولكني لم أستطع. وها هو الخوف القديم من النوم يعاودني، فعزمتُ على البقاء مستيقظة. وخلاف ذلك، سيحاول النوم أن يأتي عندما لا أكون راغبةً فيه، لذا، ونظرًا لأني خفت البقاء وحيدة،

فتحتُ باب حجرتي وصحتُ: «أيوجد أحد هناك؟» ولكن ما من جواب. خفتُ أن أوقظ أمي، فأغلقتُ باب حجرتي مرَّة أخرى. بعدها سمعتُ في الخارج عواء يأتي من بين الشجيرات، كأنه نباح كلب ولكنه أخفَضُ وأشد ضراوةً. ذهبتُ إلى النافذة ونظرتُ منها، ولكني لم أرَ شيئًا باستثناء خفَّاشٍ كبير، وبدا لي جليًا أنه كان يضرب بجناحيه على النافذة. لذا رجعتُ إلى السرير مرة أخرى، ولكني عزمت ألا أعود إلى النوم. فُتِحَ الباب في الحال، وأطَّلَتْ منه أمي وقد استنتجَتْ من حركتي أنِّي لم أكن نائمة، فدخَلَتْ وجلست قربي. ثم قالت لي بصورةٍ أكثر لطافة ونعومة مما اعتادت:

«كنتُ قلقةً عليك يا عزيزتي، وجئتُ لأرى إذا ما كنتِ في حال جيدة».

خشيتُ أنْ تُصَابَ بالبرد من جرَّاء جلوسها هناك، وطلبتُ منها أن تأتي وتنام قربي، ولذا صعَدَت إلى السَّرير، واضطَجَعَتْ قربي دون أن تخلع رداء المنزل، إذ قالت إنَّها ستبقى قليلًا ومن ثمَّ ستعود إلى سريرها. بينما كانت مستلقية بين ذراعيَّ وأنا مستلقية بين ذراعيها، عاد قرع الرفرفة إلى النافذة مرَّة أخرى. ذهلت وألمَّ بها شيء من الخوف وصاحت: «ما هذا الصوت؟» حاولتُ أن أهدِّئ من روعها، ونجحتُ بعد جُهدٍ. استلْقَت هادئة، ولكني سمعتُ قلبها العزيزَ الواهن وهو ما يزال يدق بطريقة مرعبَة. بعد برهة عاد صوت العواء الخفيضِ مرة أخرى في الخارج بين الشجيرات، تلاه بعد مدة قصيرة ارتطامٌ بالنافذة تطاير بإثره الزجاج المتهشم على الأرض. تراجعت ستارة النافذة إلى الوراء بفعل الريح التي

اندفعت إلى الداخل، وظهر من فتحة قضبان النافذة المكسورة رأس ذئبٍ رمادي شاحب ضخم. صرَخت أمي مذعورة، وبذلت جهدها لكي تتخذ وضعية الجلوس، متشبثة باهتياج بأي شيء يمكن له أن يساعدها في الجلوس. ومن الأشياء التي حاولت التشبث بها إكليل الزهور الذي أصرَّ الدكتور ڤان هيلسنغ على أنْ أضعه حول رقبتي، فنزَعَتْه عن رقبتي وتمزَّق. وقفت لثانية أو ثانيتين تشير صوب الذئب، ثم صدر صوت قرقرة غريبة ومرعبة من حنجرتها، وسقطت كمَنْ صعقَه البرق. ارتطم رأسُها بجبيني فشعرت بالدوار للحظة. بدت الحجرة وكل ما حولي وكأنه يدور. أبقيتُ نظري مثبتًا على النافذة، ولكن الذئب سحب رأسه إلى الوراء، وبدا أن عددًا هائلًا من ذرَّاتٍ صغيرةٍ كانت تهبُّ عبر النافذة المكسورة، وظلت تدور وتلف مثل دوَّامة الغبار التي يصفها الرحَّالة عندما تهب عليهم ريح السموم في الصحراء. حاوَلْتُ أن أتحرَّك، ولكن شيئًا كالتعويذة منعني، بالإضافة إلى ثقل جثة أمي العزيزة المسكينة والتي بدا أنها ازدادت برودة، فقلبها العزيز توقَّف عن الحركة، ولم أعد أتذكَّرُ شيئًا مدة من الزمن.

لم يبدُ الوقتُ طويلًا، إنما فظيع جدًا جدًا، حتى استعدتُ وعْيي مجدَّدًا. من مكان قريب، سمعتُ قرع ناقوسٍ جنائزي، ونباح كلاب في أنحاء الحي، وتغريد بلبلٍ في شجيرات بيتنا. أصابني الذهول والدهشة وألمَّ بي الألم والرعب والضعف. بدا لي صوت البلبل وكأنه صوت أمي الميتة قد عاد ليواسيني. ولا بد أنَّ الأصوات أيقظت الخادمات أيضًا، إذ سمعت وقع أقدامهن العارية تطرق

الأرض خارج باب حجرتي. ناديتهن، فدَخَلْنَ، وعندما رأين ما حدث، ورأينَ جُثَّة أمي المستلقية فوقي على السرير، صرخْنَ خائفات. اندفعت الريح بقوة عبر النافذة المكسورة وصفق الباب. رفعن جثة أمي العزيزة ومددنها، وغطَّيْنَها بملاءة فوق السرير بعد أن نهضتُ. كنَّ جميعهن خائفات ومتوترات جدًا حتى إني أمرتُهنَّ بالذهاب إلى حجرة الطعام وأن تشرب كل واحدة منهن كأس نبيذ. فُتِحَ البابُ بقوة لحظةً وأُغْلِقَ مرَّةً أخرى. زعقت الخادمات، ومن ثم مضين متراصَّاتٍ إلى حجرة الطعام. وضعتُ ما معي من زهورٍ على صدر أمي الحبيبة. وما إنْ وضعتُ الزهور على صدرها إلَّا وتذكَّرتُ ما قاله لي الدكتور ڤان هيلسنغ، ولكني لم أرغب أن أنحِّيها عن صدرها. وقد رغبت بأن تسهر بعض الخادمات معي الآن، لكني تفاجئتُ أنهن لم يرجعن. ناديتهن ولكن ما من مجيب، ولذا ذهبتُ إلى غرفة الطعام لكي أبحثَ عنهنَّ.

طار قلبي ذُعْرًا لهول المنظر الذي رأيته. فقد كنَّ أربعتهن مستلقيات بلا حول ولا قوة على الأرض ويتنفسنَ بمشقة. وكان إناء الشِّرْي[1] على الطاولة نصف ملآن، ولكنَّ رائحةً غريبةً لاذعةً عَبَقَتْ في المكان. ساورتني الشكوك، وتفحَّصتُ الإناء. كانت تفوح منه رائحة محلول الأفيون، وإذْ نظرتُ إلى خزانة أدوات المطبخ، وجدتُ بأنَّ القنينة التي يستخدمها طبيب أمي لعلاجها -أوه! أقصد التي كان يستخدمها- فارغة. ماذا عليَّ أن أفعل؟

(١) نبيذ إسباني قوي.

ماذا عليَّ أن أفعل؟ رجعت إلى الحجرة لأبقى مع أمي، فلا أستطيع أن أتركها. أنا وحدي، ما خلا الخادمات النائمات، اللاتي خَدَّرَهُنَّ شخصٌ ما. وحدي مع الموتى! لم أجرؤ على الخروج، لأني أسمع العواء الخافت للذئب يجتاز النافذة المكسورة.

يبدو الجو ممتلئًا بالذرَّات، تسبح وتدور في المجرى الهوائي الداخل من النافذة، والأضواء تتوهج زرقاء ومعتمة. ماذا عليَّ أن أفعل؟ احمني يا الله من هذا الشر هذه الليلة! عليَّ أن أخفي هذه الورقة في صدري، حيث سيعثرون عليها عندما يشرعون في تكفيني. لقد رحَلَتْ أمي العزيزة! وآن الأوان لأرحل أنا أيضًا. الوداع، يا عزيزي أرثر إذا مِتُّ في ليلتي هذه. وليحفظكَ الله يا عزيزي، وليكن الله في عوني!

الفصل الثاني عشر

مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

١٨ سبتمبر- توجَّهْتُ من فوري صوب هيلنغَمْ ووصلتُها باكرًا. تركْتُ عرَبَتِي قرب البوَّابة، وصعدتُ الجادَّة وحدي. ثمَّ طرقت الباب برفقٍ وقرعتُ المدقَّ بأهدأ صوتٍ ممكن، إذ خشيت أن أزعج لوسي أو أمها، ورجوت فقط أن تأتي خادمةٌ لتفتح الباب. بعد برهة، ونظرًا لأنَّ أحدًا لم يأت، أعدت طرق الباب ومع ذلك ما من مجيب. لعنتُ كسل الخادمات واستغراقهن في النوم حتى هذه الساعة -فالساعة الآن العاشرة- ولذا طرقتُ الباب وقرعت المدقَّ مرة أخرى، ولكن بنفادِ صبرٍ أكثر هذه المرة، وما من جواب رغم ذلك. حتى هذه اللحظة كنت ألوم الخادمات وحسب، ولكن الآن بدأ خوفٌ رهيبٌ يجتاحني. هل هذه حلقة أخرى من سلسلة القدر التعيس المحيط بنا؟ أحقًا هذا المنزل هو منزل الموت، وقد وصلته متأخرًا؟ أعرف أنَّ التأخر لدقائق، بل حتى ثوانٍ، قد تساوي ساعات من الخطر على حياة لوسي إذا ما تعرضَّت مرَّة أخرى لواحدة من هذه النكسات المخيفة، ولذا جُلْتُ حول المنزل عساى أن أجد، ولو صدفة، مدخلًا في مكان ما.

لم أستطع العثور على أي سبيلٍ للدخول. كل النوافذ موصدة وكل الأبواب مغلقة، فرجعت خائبًا إلى شرفة المنزل الأمامية. وبينما أنا عائدٌ، سمعتُ وقع حوافر حصانٍ مسرع. توقَّف الصوت عند البوَّابة، وما كانت إلا ثوانٍ حتى التقيت بڤان هيلسنغ يركض صاعدًا الجادَّة. قال لاهثًا إذ رآني:

«هذا أنتَ إذن وقد وصلتَ للتو! كيف حالُها؟ هل فات الآوان على قدومنا؟ ألم تصلك برقيتي؟».

أجبت بأكبر قدر ممكن من السرعة والتماسك، بأنني لم أتلق البرقية إلا هذا الصباح ولم أضيِّع دقيقة واحدة في سبيل المجيء إلى هنا، ولم أتوقَّف عن طرق الباب والقرع عليه ولكن لم يستجب أحدٌ في المنزل. فما كان منه إلَّا وتوقَّف ورفع قبعته وهو يقول بصورة جدية:

«أخشى إذن أنَّ الأوان قد فات. وأن أمر الله قضي!» ثم أردَفَ بطاقته المعتادة التي استعادها إثر تعافيه: «هيا بنا. إذا لم يكن هناك من سبيل للدخول، فعلينا أن نصنع واحدًا. الوقت هو كل شيء بالنسبة لنا الآن».

اتجهنا صوب مؤخرة المنزل، حيث نافذة المطبخ. أخرج البروفسور من حقيبته منشارًا صغيرًا يستعمله في العمليات الجراحية، أعطاني إياه مشيرًا إلى القضبان الحديدية التي تحمي النافذة. انقضضتُ عليها من فوري وما هي سوى لحظات إلَّا وقطَعْتُ ثلاثة قضبانٍ منها. وباستخدام سكين طويلة رفعنا قفل النافذة وفتحناها.

ساعدتُ البروفسور في الدخول ثم دخلتُ وراءَه. لم يكن هناك أحدٌ في المطبخ أو في حجرات الخادمات التي كانت قربنا. بحثنا في كافة غرف المنزل إلى أن وصلنا غرفة الطعام التي انتشر فيها ضوءٌ خفيفٌ بفعل أشعة الضوء المتسللة عبر الستائر، وجدنا أربعَ خادمات مستلقياتٍ على الأرض. ما من سبب جعلنا نعتقد أنهن ميتات، إذ أن شخيرهن بالإضافة إلى رائحة محلول الأفيون اللاذعة في الغرفة لم يتركا مجالًا للشك في حالتهن. تبادلتُ النظرات مع ڤان هيلسنغ، وبينما تابعنا طريقنا قال لي: «يمكننا أن نهتمَّ بأمرهنَّ لاحقًا». صعدنا إلى حجرة لوسي. وقفنا برهة قرب الباب وأصخنا السمع، ولكننا لم نسمع أي صوت. بوجوهٍ شاحبة وأيدٍ مرتجفة، فتَحْنَا الباب برفق، ودخلنا الحجرةَ.

كيف لي أن أصفَ ما رأيناه؟ استلقت على السرير امرأتان؛ لوسي وأمها. الأم مستلقية في الطرف البعيد، مغطاةً بملاءة بيضاء يتطاير طرفها بفعل تيَّار الهواء الداخل عبر النافذة المكسورة، كاشفًا عن وجهها الأبيض الشاحب وقد ارتسمت عليه نظرة رعب. وإلى جانبها استلقت لوسي بوجهٍ أبيض وأكثر شحوبًا. أما الزهورَ التي كانت قد وُضِعَتْ حول رقبتها فقد وجدناها ملقاةً فوق صدر أمها. رقبتها مكشوفة، وقد بان فيها الجرحان الصغيران اللَّذان لاحظناهما من قبل، ولكنهما يبدوان أبيضين ومشوَّهين بصورةٍ مرعبةٍ. ودون أن ينطق بكلمة، انحنى البروفسور فوق السرير ورأسه يكاد يلامسُ صدر لوسي المسكينة، ثمَّ استدار برأسه استدارةً سريعةً كمن يصغي إلى شيء ما، وصاح فيَّ وهو يثب واقفًا على قدميه:

«لم يفت الأوان كثيرًا بعد! أسرع! أسرع! وإليَّ بالبراندي!».
نزلتُ بسرعة هائلة إلى الطابق السفلي وعدت ومعي البراندي، شممتها وتذوقتها، تحسبًا من أن تكون مخدِّرَة مثل إناء الشِّرِي الذي وجدتُه على الطاولة. الخادمات لا زلن يتنفسن لكن بضيقٍ أشدُّ من السابق. تهيأ لي أنَّ المخدِّر قد تلاشى أثره، لكنني عُدْتُ إلى ڤان هيلسنغ بدل البقاء والتأكد من ذلك. وكما فعل من قبل، فرك شفتيها ولثتيها ومعصميها وراحتي يديها بالبرداندي، ثم قال:

«هذا كل ما أستطيع فعله في الوقت الحاضر. اذهب وأيقظ هؤلاء الخادمات. امسح بشدة على وجوههنَّ بمنشفةٍ مبلَّلةٍ. ومرهنَّ أن يتدفأن ويوقدن الموقد ويجهزن حمامًا دافئًا. جسد هذه المسكينة باردٌ كبرودة جسد التي بجانبها تقريبًا. إنها بحاجة إلى الدفء قبل أن نقدر على القيام بأي إجراء إضافي».

ذهبْتُ من فوري، وواجهتُ قليلًا من المشقَّة في إيقاظ ثلاثٍ منهن. أما الرابعة فلم تكن سوى فتاةٍ صغيرة، ولا شك أن المخدِّر قد أثَّر فيها بقوة أكبر، ولذا رفعتُها حتى تستلقي فوق الأريكة وتركتُها تنام. كانت الثلاث الأخريات مذهولات أول الأمر، ولكن ما إن استعدْنَ ذاكرتهنَّ إلَّا وانخرطن في البكاء والنشيج بصورة هستيرية. كنتُ صارمًا معهن، وما كنتُ لأسمح لهنَّ بالحديث على أي حال. أخبرتهن بأن خسارة روحٍ واحدةٍ يعدُّ أمرًا جللًا، وإذا تأخَّرن في فعل ما طلبْتُه منهنَّ فإنَّ الآنسة لوسي ستلقى حتفها. وفي حالة من البكاء والنشيج، مضين وهيَّأن الموقد والماء وقد كن شبه عاريات.

من حسن الحظ أنَّ موقد المطبخ والمدفئة كانا ما يزالان متَّقِدَيْن، ولم يكن هناك نقصٌ في الماء السَّاخن. أحضرنا حوضَ استحمام وحملنا لوسي إليه كما هي ووضعناها فيه. وبينما كنا منشغلين بتدفئة أطرافها سمعنا قرعًا على باب الصالة. ركضت إحدى الخادمات وسارعت بارتداء بعض الثياب الإضافية، وفتحت الباب. ومن ثمَّ عادت وهمَسَتْ لنا بأنه يوجد سيِّدٌ بالباب جاء يحمل رسالةً من السيِّد هولمْوُد. أمرتُها ببساطة أن تبلغه أنه عليه الانتظار، لأننا لا نستطيع استقبال أحدٍ الآن. انصرَفَت حاملة الرسالة، وفي خضم انهماكنا بما كنا نفعله، نسيتُ أمر الرجل تمامًا.

في كل التجارب التي مررْتُ بها لم أرَ البروفسورَ يعمل قط بمثل هذه الحماسة المنقطعة النظير. فأنا أعرف -كما يعرف هو- بأن الأمرَ كان صراعًا شرسًا مع الموت، وفي إحدى فترات التوقف قلت له ذلك. أجابني بطريقةٍ لم أفهمها، ولكن بأشدِّ ملامح الجدية التي استطاع وجهه أن يكتسيها:

«إذا كان ذلك كل شيء، فسأتوقف هنا حيث نحن الآن، وأتركها تذوي رويدًا رويدًا مستسلمةً لمصيرها، لأني لا أرى بصيص أملٍ لحياة يلوح في الأفق». واستمر في عمله قدر الإمكان، بطاقة متجدِّدة وهمَّة أكثر تأجُّجًا.

أدركنا كلانا بأنَّ الحرارة بدأت تفعل فعلها بعض الشيء. دقَّ قلب لوسي بمقدارٍ ضئيل كان بالإمكان سماعه أوضح عبر السمَّاعة، وانتابت رئتيها حركةٌ ملحوظة، فتهلَّلَ وجهُ ڤان هيلسنغ

تقريبًا. وبعد أن رفعناها من حوض الاستحمام وبينما كنا نلفها بملاءةٍ دافئة قال لي:

«كسبنا الجولة الأولى! كِشْ مَلِكْ!».

أخذْنَا لوسي إلى حجرةٍ أخرى، حجرةٍ اكتملَ تجهيزُها في هذه اللحظة، ووضعناها في السرير وسكبنا بضع قطرات من البراندي على رقبتها. لاحظتُ أنَّ ڤان هيلسنغ ربط منديلًا حريريًا ناعمًا حول رقبتها. كانت لا تزالُ غائبةً عن الوعي، وفي حالٍ سيئة إلى حدٍّ كبير، إن لم تكن أسوأ من أي مرَّة رأيناها فيها سابقًا.

استدعَى ڤان هيلسنغ إحدى الخادمات، وطلب منها البقاء معها وألَّا تحيدَ أنظارَها عنها حتى نعود، ومن ثم أومأ لي بالخروج من الحجرة.

«علينا أن نتشاور بخصوص ما ينبغي لنا أن نفعل» قال ونحن ننزل الدَّرَج. فَتَحَ باب غرفة الطعام، ودخلناها، ثم أغلقَ الباب وراءه بحذر. كانت النافذة مفتوحة، ولكن الستائر مسدلة وكأنها استسلمت لإتيكيت الموت الذي دائمًا ما تحرص النِّساء البريطانيات من الطبقات الدنيا على مراعاته. غدت الحجرة معتمة قليلًا، ومع ذلك كان هناك من الضوء ما يكفي لحاجتنا. حالة من الحيرة علت وجه ڤان هيلسنغ مما قلل من حدة صرامته. إذ من الواضح أنه كان يعذِّب عقله بشيء ما، ولذا انتظرتُه لحظةً إلى أن قال:

«ماذا نفعل الآن؟ ومن أين نطلب العون؟ علينا أن نُجْرِي عمليةَ نقلِ دمٍ أخرى، وينبغي لنا أن نفعل ذلك من فورنا، وإلا

فإن حياة تلك الفتاة المسكينة لن تحتمل تأخُّر العملية ساعة واحدة. أنتَ مرهقٌ وأنا مرهق. وأتخوف من أن أثق بقدرة وتحمل هاتيك الخادمات، حتى ولو امتلكن الشجاعة ليقدِّمنَ دمائهن. فماذا نفعل لنجد شخصًا مستعدًا لأن يفتح عروقه ليتبرع لها بدمه؟».

«وما المانع إذا ما نقلتُم لها من دمي، على أي حال؟».

جاء الصوت من ناحية الأريكة وتردَّدَ صداه في أرجاء الحجرة، وأدخلتْ نبراته الطمأنينة والفرح في قلبي، لأن صاحب الصوت لم يكن سوى كوينسي مورِس. حدق ڤان هيلسنغ بغضبٍ عند سماعه الصوت أول وهلة، بيد أن ملامح وجهه رقَّتْ واجتاحت عينيه نظرةٌ سرور عندما صِحْتُ: «كوينسي مورِس!» واندفعتُ صوبَه بيدين ممدودتين.

«ما سببُ قدومك إلى هنا؟» صحتُ بينما التقت أيدينا.

«أظن أن أرثر هو السبب».

سلَّمَنِي برقيةً هذا نصُّها:

«لم أتلقَّ أي رسالةٍ من سيوِرْد لثلاثة أيام، وأنا قلقٌ بصورة رهيبة. لا أستطيع المغادرة، فأبي لا يزال على حاله. طمِّني عن أحوال لوسي. ولا تتأخر في ذلك. هولمود».

«أظنني جئتُ في اللحظة الأخيرة. وأنتَ تعرف بأنه ما عليك سوى أن تقول لي ماذا أفعل».

اندفع ڤان هيلسنغ إلى الأمام، أمسك يدَه وقال له وهو ينظر

مباشرة في عينيه: «عندما تكون امرأة في مصيبة، فإن أفضل ما على الأرض هو دم رجلٍ شجاع. وأنت رجل بلا شك. حسنًا، ربما يعمل الشيطان ضدنا بأقصى طاقته، ولكن الله يرسل إلينا رجالًا عندما نريدهم».

مضينا مرة أخرى للقيام بتلك العملية الشنيعة. لم يعد بي قلب يحتمل سرد التفاصيل، لكن صدمة لوسي كانت مروعةٍ أكثر من قبل، فرغم نقل الكثير من الدم إلى عروقها، إلا أن جسدها لم يتجاوب مع العلاج كالسابق. كان منظرها وهي تصارع للعودة إلى الحياة مخيفًا لكل مَنْ يراه أو يسمعه. وعلى أي حال، تحسَّنَ عمل القلب والرئتين، فحَقَنَها ڤان هيلسنغ بحقنة مورفين تحت الجلد، كما فعل سابقًا، وكان لها أثر فعَّال. تحوَّلَت غيبوبتُها إلى سُباتٍ عميق. كان البروفسور يراقب حالتَها بينما نزَلْتُ إلى الطابق السفلي صحبة كوينسي مورِس، وأرسلتُ إحدى الخادمات لكي تدفع الأجرة لأحد الحوذيَّيْن اللَّذَيْن كانا ينتظران. تركتُ كوينسي مستلقيًا بعد أن شرب كأس نبيذ، وأبلغتُ الطبَّاخ أن يحضِّر فطورًا شهيًا. ومن ثم عَصَفَتْ بي فكرةٌ فعدتُ إلى الحجرة التي فيها لوسي. عندما دخلتُ بهدوء، ألفيتُ ڤان هيلسنغ ومعه ورقة أو اثنتين من أوراق دفتر ملحوظاتٍ في يده. كان واضحًا أنه قرأ ما فيها، وظل يمعن التفكير في محتواها وهو جالسٌ واضعًا يده على حاجبه. لاحت منه نظرةُ رضا متجهمة، مثل شخصٍ توصل إلى حلٍّ لمعضلةٍ حيَّرته. أعطاني الورقة مكتفيًا بالقول: «لقد سقَطَتْ من صدرِ لوسي عندما حملناها إلى حوض الاستحمام».

بعد أن قرأتُهَا، وقفتُ ناظرًا إلى البروفسور، وبعد لحظةِ صمتٍ قُلْتُ له: «بالله عليك، ماذا يعني كل هذا؟ أهي مجنونة؟ أم أي نوع من الخطر هذا الذي حل بها؟» كنت في حيرةٍ عظيمةٍ من أمري حتى إنني لم أعرف ماذا أقول أكثر. مدَّ ڤان هيلسنغ يدَه وأخَذَ الورقةَ قائلًا:

«لا تلقِ بالًا للمسألة الآن. انسَ أمرها في الوقت الراهن. وستعرف وتفهم كل شيء في الوقت المناسب، ولكنَّ ذلك سيحصل لاحقًا. أما الآن فقل لي ما الأمر الذي جئتَ لتبلغني به؟» أعادني هذا إلى الواقع، واستجمعت ذاتي مرَّة أخرى.

«جئتُ لأحدثك في أمر شهادة الوفاة. إن لم نتصرَّف على نحوٍ مناسبٍ وحكيمٍ، ربما يجري تحقيقٌ في أسباب الوفاة، ونضطر لتقديم تلك الورقة في التحقيق. آمل ألَّا نحتاج إجراء تحقيقٍ في ملابسات الوفاة، لأنه إذا حصل ذلك فمن شأنِه أن يودي بحياة لوسي بالتأكيد، هذا إنْ لم يودِ بحياتِها سببٌ آخر. فأنا أعرفُ، وأنتَ تعرف، والطبيب الآخر الذي يعالجها يعرف بأنَّ السيِّدة ويستينرا تعاني من مرضٍ في القلب، ويُمْكِنُنَا أن نشهدَ بأنَّها ماتَتْ بسبِبه. فلنستكمل تعبئةَ شهادة الوفاة من فورنا، وسآخُذُهَا بنفسي إلى مسجِّل الأحوال المدنية ومن ثمَّ أمضي في طريقي إلى الحانوتي».

«جيِّد، يا صديقي جون! يا لها من فكرةٍ حسنةٍ! طوبى للآنسة لوسي المخلصة؛ إن أحزَنَهَا الموت المحيط بها، فهي على الأقل سعيدةٌ لوجود الأصدقاء الذين يحبونها. صديقٌ، اثنان، ثلاثة، وجميعهم

فتحوا عُرُوقَهَم لها، إضافة إلى عجوزٍ واحد. آه نعم، أعرف يا صديقي جون، فلستُ أعمى! كم زاد مقدار حبي لكم على فعالكم! والآن اذهب».

في الصالةِ التقيتُ كوينسي مورِس، ومعي برقيَّةٌ مرسلة إلى أرثر نبلغه فيها بوفاة السيدة ويستينرا، وبأن لوسي أيضًا سقطت صريعةً بين براثن المرض، ولكنَّها الآن أحسن حالًا، وأنني بجانبها أنا وڤان هيلسنغ. أخبرته عن مقصدي، فحثَّني على الاستعجال. وإذ هممت بالذهاب استوقفني قائلًا:

«عندما تعود يا جاك، هل لي بحديثٍ قصير معك على انفراد؟» فأومأتُ موافقًا ومضيتُ في سبيلي. لم أجد صعوبةً في تسجيل شهادة الوفاة، ورتَّبْت الأمر مع حانوتي المنطقة حتَّى يحضر في المساء ليقيس أبعاد التابوت ويتخذَّ الترتيبات اللازمة.

عندما عدتُ كان كوينسي بانتظاري، أخبرته إنِّي سأراه حالما أطمئن على لوسي، ثم صعدتُ إلى حجرتها. كانت لا تزال نائمة، ويبدو أنَّ البروفسور لم يتحرَّك من كرسيه بجانبها. ومن وضع إصبعه على شفتيه فهمتُ بأنه يتوقع أن تستيقظ من نفسها في أي لحظة، ولا يريد لشيء أن يوقظها قبل ذلك. ولذا نزلْتُ لأرى كوينسي ثم اصطحبته إلى غرفة الطعام لتناول الفطور، وهي غرفة أبهجُ للنفس بقليل من الغرف الأخرى، أو لنقل أقل نكدًا منها، إذ لم تكن الستائر مسدلة فيها. عندما جلسنا وحدَنَا، قال لي:

«يا جاك سيورْد، لا أريد أن أتدخَّل في أي شأن لا يحقُّ لي

التدخل فيه، ولكن هذه الحالة ليست بعادية. فأنتَ تعرف أنِّي أحببتُ تلك الفتاة وأردْتُ الزواج بها. ورغم أنَّ ذلك كله بات من الماضي وفات أوانه، لكنني لا أستطيع سوى الشعور بالقلق عليها رغم ما حصل. فما خطْبُها؟ لقد قال الهولندي -وهو رجل طيِّبٌ، وذلك واضح وضوح الشمس- في تلك المرة التي دخلتما فيها كلاكما الحجرةَ إنَّه يجب عليكَ أن تجري عملية نقل دم/أخرى، وقد بدت عليكما علامات الإرهاق. والآن أنا أعلم جيدًا بأنكم، يا أهل الطبِّ، تتحدَّثون سرًا، وبأنه لا يجب على المرء أن يتوقَّع معرفة ما يتشاورُ فيه الأطباء خُفْيَةً. ولكن هذه الحالة ليست حالة معروفة، وأيًا تكن، فقد أدَّيْتُ واجبي. أليس الأمر على ذلك النحو؟».

«هو كذلك» قلتُ، ثم تابع قائلًا:

«أستنتج بأنَّك وڤان هيلسنغ قد فعلتما سلفًا ما فعلتُه أنا اليوم. أليس الأمر على ذلك النحو؟».

«هو كذلك».

«وأظنُّ أنَّ أرثر له ضلعٌ في الأمر أيضًا. فعندما رأيتُه قبل أربعة أيام في بيتِه بدا غريب الأطوار. فلم أرَ شيئًا تخور قواه بهذه السرعة الفائقة مذ كنتُ في الپامپاس؛ كان عندي مُهْرةٌ كنتُ معجبًا بها وقد ذَهَبَتْ لترعى العشب ذات ليلة فانقضَّ عليها واحدٌ من تلك الخفافيش الكبيرة التي يسمونها مصَّاصة الدِّماء، وبعد أن أشبع نهَمَه منها وترك شريانها مفتوحًا، لم يبقَ في جسدها ما يكفي من الدم لكي تقف على قوائمها، مما اضطرني إلى أن أطلق عليها

رصاصةً وهي مستلقية. جاك، أرجوك أخبرني ما لم يكن في ذلك خيانة للثقة، لقد سبقَكُما أرثر إلى إعطائها دمه، أليس الأمر على ذلك النحو؟» بان عليه قلق رهيب بينما كان يتحدث. عذبه تلهفه لمعرفة ما أصاب المرأة التي أحبها، وزاد من حدة ألمه جهلُه بما حل بها. كان قلبه ينزف، وكأن رجولته قد سالت منه. لكنه لا يزال يمتلك الكثير منها ومن النبل ما يحفظه من الإنهيار. تمهلتُ قبل أن أجيبه، إذ شعرتُ أنني لا يجب أن أفشي أي سر رغبَ البروفيسور في حفظه، ولكنه يعرف سلفًا العديد من الأمور، وخمَّن بحدسه أشياء كثيرة، فما من سبب يمنعني من إجابته، ولذلك أجبته مستخدمًا العبارة ذاتها التي قالها في آخر سؤاله: «الأمر على ذلك النحو».

«ومنذ متى وهي على هذه الحال؟».

«منذ حوالي عشرة أيام».

«عشرة أيام! أحسب إذن، يا جاك سيوِرْد، أنَّ تلك الإنسانة الجميلة المسكينة التي نحبُّها جميعًا قد جرت في عروقها في تلك المدة دماء أربعة رجال أشدَّاء. يا إله السماء! وما كان لجسدها بأكمله أن يحتفظ بكل تلك الدماء؟». ومن ثمَّ قال، وهو يقترب مني، شبه هامسٍ بصوت أجش: «وما الذي أخْرَجَ الدَّم من جسدها؟».

أومأت برأسي وقلت: «هنا لبُّ القضية. ڤان هيلسنغ قلقٌ حقًا إزاءَ ذلك، وأنا في حيرة من أمري. ولا أستطيع حتَّى أن أخاطر بتخمين ما حصل. فهناك سلسلة من الظروف الصغيرة التي عصفت بكل حساباتنا فيما يخص مراقبة حالة لوسي على نحوٍ مناسب. ولكن

كل هذه الظروف لن تحصل مرَّة أخرى. فنحن باقيان هنا إلى أن يصبح كل شيء في أحسن حال، أو أسوئها». رفع كوينسي يده وقال: «عُدَّنِي شريكًا لكما. قُلِّي أنتَ والهولندي ماذا أفعل، وسألبِّي النداء».

عندما استفاقَت لوسي متأخرة بعد الظهر، كانت أول حركة أتتها هي تَحَسُّسَ صدرها، وذهلتُ حين أخْرَجَت الورقَةَ التي أعطاني إياها ڤان هيلسنغ حتى أقرأَها. لقد أعادها البروفسور الحريص إلى حيث كانت، لكيلا تفزع عندما تستيقظ ولا تجدها. أشرقت عيناها فرحًا لمرأى ڤان هيلسنغ ولمرآي أيضًا. بعد ذلك نظرت حواليها في أرجاء الحجرة، وإذْ أدركت أين كانت، ارتَعَشَتْ وأطلقَتْ صرخة عالية، ووضَعَت يديها الهزيلتين البائستين على وجهها الشاحب. فهمنا كلانا ماذا يعني ذلك؛ لقد أدركت تمامًا وفاة أمها، ولذا حاولنا ما في وسعنا لكي نهدِّئ من روعها. أدخل تعاطُفُنَا الخالصُ السلوانَ على قلبها نوعًا ما، ولكنَّ أفكارَها ومعنوياتها كانت محطمة، فراحت تنتحب بصمتٍ ووهنٍ مدةً طويلة. قلنا لها إنَّ أحدَنا أو كلينا سيبقى معها الآن طوال الوقت، وبدا أن ذلك أدخَل الطمأنينة على نفسها. غفت قبيل حلول الظلام بقليلٍ. وهنا حدث أمرٌ غريبٌ جدًا. فبينما كانت لا تزال نائمة أخرَجَت الورقة من صدرها ومزَّقَتْها إلى جزئين. تقدَّم ڤان هيلسنغ إلى الأمام وأخذَهُمَا منها. ورغم ذلك تابَعَتْ حركات التمزيق وكأنَّ الورقة ما تزال بين يديها، وفي الأخير رفعت يديها وفتحتْهُما وكأنها تنثر القصاصات الممزَّقة. بدَت علامات الدهشة على ڤان هيلسنغ، وتغضَّن حاجباه وكأنه غرق في تفكيرٍ عميق، لكنَّه لم يقل أي شيء.

١٩ سبتمبر- نامت لوسي طوال الليلة الفائتة نومًا متقطعًا. لازَمَها شعورٌ مستمر بالخوف من النوم، وكانت تستيقظ وهي أضعف حالًا. تناوبنا أنا والبروفسور على مراقبتها، ولم نتركها تغيبُ عن أعيننا ولو لحظةً واحدةً. لم يُفْصِح كوينسي مورِس عما يجول في خاطره، ولكني أعرف أنَّه بقي الليل بطوله يَحْرُسُ المنزل ويقوم بجولاتٍ حوله مرَّة إثر أخرى.

عندما طلع النهار، كشف ضوؤه عن مقدار الضرر الذي أصاب قوة لوسي المسكينة. بالكاد استطاعت أن تَلْتَفِتَ برأسها، ولم يبدُ أنَّ الطَّعَام القليل الذي استطاعت تناوُله أفادَها في شيء. نامَتْ بعض الأحيان، وقد لاحظتُ وڤان هيلسنغ الاختلافَ الذي طرأ عليها ما بين النوم واليقظة. أثناء نومِهَا بدَت أقوى، رغم أنَّها بدت أكثر نحولًا، وكان تنفُّسُها أنْعَمُ. كشف فمُهَا المفتوح عن اللثة الشاحبة وقد تراجَعَت عن الأسنان والتي بَدَتْ بلا شك أطولُ وأحدُّ من المعتاد. حين تصحو كان واضحًا أن نعومة عينيها تغير من ملامح وجهها، لأنَّهَا بدَت على صورتها الحقيقية، رغم أنَّها صورة امرأة حضَرَهَا الموت. بعد الظهيرة طلبَتْ أرثر، فأرسلنا له برقيَّة. ومضى كوينسي حتى يستقبله في المحطَّة.

عندما وصل كانت الساعة تقترب من السادسة، وكانت الشمس تغرُب بقرصها المكتمل الدافئ ناشرة الضوء الأحمر عبر النافذة مما أضفى صبغة على خدودِها الشاحبة. ما إنْ رآها أرثر إلَّا واختنق بعاطفته، ولم يكن بمقدور أي منا التحدث. في الساعات

التي مضت، زادت وتيرة نوبات نومها، بحيث قلّت مدة لحظات الصمت التي كان فيها الحديث ممكنًا. بدا أن حضور أرثر كان محفزًا، فقد استجْمَعَت قواها قليلًا، وتحدَّثَت معه بابتهاج أكثر مما فَعَلَت منذ وصولنا. استجْمَعَ هو قواه كذلك، وتحدث ببهجة قدر ما استطاع، بحيث استغلَّ كل جملة للوصول إلى أفضل نتيجة.

الساعة الآن حوالي الواحدة، وهو يجلس معها صحبة ڤان هيلسنغ. سأحلُّ محلهما في غضون ربع ساعة، وأنا الآن أسجِّل هذه المذكَّرات مستخدمًا فونوغراف لوسي. سيحاولا أن ينعما ببعض الراحة حتَّى الساعة السادسة. أخشى أنَّ مراقبَة لوسي ستنتهي غدًا، إذ أن الصدمة كبيرة جدًا، والفتاة المسكينة لا تستطيع أن تستعيد قوتها. فليكن الله في عونِنا جميعًا.

رسالة من مينا هاركر إلى لوسي ويستينرا
(رسالةٌ لم تفتحها لوسي)

١٧ سبتمبر

عزيزتي لوسي،

بدا وكأن دهرًا مرّ منذ آخر مرة راسلتيني بها، أو على الأحرى منذ أن أرسلتُ أنا لكِ آخر رسالة. أعلم أنَّك سوف تلتمسين لي العذر على كلِّ تقصيري عندما تطلعين على كامل مخزوني من الأخبار. حسنًا، لقد استرجعتُ زوجي سالمًا غانمًا، وعندما وصلنا إكسِتَر كانت هناك عربةٌ في انتظارنا، وكان فيها السيِّد هوكنز، رغم

أنه كان يعاني من هجمةٍ من النقرس. أَخَذَنَا إلى منزله، حيث احتوى على عدد من الغُرَفِ الجميلة والمريحة تسعنا كلنا، ثم تناولنا العشاء معًا. بعد العشاء، قال السيد هوكنز:

«يا عزيزيَّ، أريدُ أنْ أشربَ في صحَّتِكُما وسَعْدِكُما، ولتحلَّ كلُّ البركةِ عليكما معًا. أنا أعرِفُكُما منذ نعومة أظفاركما، وبكل حب وفخر رأيتُكُما تكبران. والآن أريدكما أنْ تتخذا منزلي مقامًا لكما هنا معي. لم يبقَ بقربي بنين أو بنات فقد رحلوا جميعًا، وقد تَرَكْتُ لكما في وصيتي كل شيء». بكيتُ يا لوسي العزيزة، بينما شدَّ العجوز وجوناثان أحدُهما على يدي الآخر بقوة. كانت ليلتنا سعيدةً جدًا جدًا.

ها نحن هنا إذن، مقيمان في هذا المنزل العتيق الجميل. حيث يمكنني مشاهدة أشجار الدردار سواء كنت في الغرفة أو في صالة الاستقبال، تلك الأشجار الضخمة في الكاتدرائية القريبة، حيث تنتصب جذوعها السوداء الكبيرة الممتدة بوجه الحجارة الصفراء العتيقة. ويمكنني أن أسمَعَ الغربان في الأعلى تنعقُ وتصدر أصواتًا طوال النهار، وهي بذلك لا تختلف عن البشر. لا حاجة بي لأنْ أقول لكِ إني مشغولة في ترتيب الأمور والاعتناء بالمنزل. جوناثان والسيِّد هوكنز مشغولان طوال اليوم، ولأنَّ جوناثان باتَ الآن شريكه، فإنَّ السيِّد هوكِنز يريد أنْ يمكِّنَه من الإحاطةِ بكل صغيرةٍ وكبيرةٍ عن الزبائن.

طمّئنيني عن أحوالِ أمِّكِ الغالية؟ ليتَنِي أستطيع القدوم

للمدينة ليوم أو يومين حتى أراكِ يا عزيزتي، ولكني لا أجرؤ على الذهاب الآن، فهناك أعباءٌ ثقيلةٌ ملقاة على كاهلي، كما أنَّ جوناثان لا يزال بحاجةٍ إلى مَنْ يرْعَاه. بدأ جسدُه يتعَافى مَرَّةً أخرى بعد هُزالٍ، ولكنَّ المرضَ الطويلَ أوْهَنَه على نحوٍ فظيعٍ، ولا يزال حتَّى الآن ينتفضُ من نومه أحيانًا بطريقةٍ مفاجئةٍ ويستيقظ مرتعدًا بكامله إلى أنْ أستطيع أن أخذه باللين والملاطفة لكي يستعيد سكينَتَه المُعتادة. الحمد لله على أي حال، فهذه الأحداثُ تقلُّ تدريجيًا مع مرور الأيام، وأنا آمل أنَّها سوف تزولُ مع مرور الوقت بصورةٍ كاملةٍ. والآن وبعد أن حكيتُ لكِ أخباري، دعيني أسألكِ عن أخباركِ. فمتى ستتزوجين؟ وأين؟ ومَنْ القسيس الذي سيزوِّجكما؟ وماذا ستلبسين؟ وهل سيكون حفلَ زفافٍ عام أم خاص؟ احكيْ لي كل شيء عن ذلك يا عزيزتي، احكيْ لي التفاصيل كافة، فما من شيءٍ يسعدك إلَّا ويكون عزيزًا على قلبي. وقد طلب مني جوناثان أن أبلغك «تحيَّاتِه المحترمة»، ولكنِّي لا أظن أن ذلك كافٍ من الشريك الأصغر في مؤسسة هوكنز أند هاركر، ولذا، ولأنَّك تحبينني، ولأنَّه يحبني، وأنا أحبُّك بكافة صيغ الفعل «يحب» وأزمنته، فإني أرسل لك ببساطة «حبَّه» بدلًا من ذلك. إلى اللقاء يا لوسي، يا أعز إنسانة على قلبي، ولتحفك كلُّ البركات.

صديقتُك مينا هاركر

تقرير من الدكتور باترك هينيسي، عضو المجمَّع الملكي للجراحين، والمجاز من كلية كنغز آند كوينز للأطباء في آيرلندا؛ إلخ، إلخ إلى الدكتور جون سيوِرْد

٢٠ سبتمبر،

سيِّدي العزيز،

أرفق لكَ بناءً على طلبكَ، تقريرًا بأحوال كلّ ما تركْتَه تحت مسؤوليتي... فيما يخص المريض رينفيلد، هناك مزيدٌ من الأخبار التي أودُّ أن أفيدك بها. أصابته نوبة اهتياج أخرى، نوبةٌ كان يمكن لها أن تؤول إلى نهاية مرعبة، ولكن لحسن الحظ، لم ينجم عنها أي عواقب وخيمة. ظهيرة اليوم وصلت عربةُ نقلٍ فيها رجلان إلى المنزل الفارغ الذي تحدُّ أرضُه أرضَنا، وهو المنزل الذي هرب إليه المريض مرتين، ولا أظن ذلك يغيب عن ذاكرتك. وقَف الرجلان ببوابتنا ليسألا الحاجب عن الطريق لأنهما غريبان. كنتُ أنظر من مكتبي في المصحة وأنا أدخِّن بعد تناول الطعام، ورأيتُ أحدَهما قادمًا صوب المنزل. بينما مرَّ بنافذة رينفيلد، بدأ المريض يتفرَّسه من داخل غرفته، وناداه بأقذر الألقاب التي أمكن للسانِه التفوُّهَ بها. اكتفى الرَّجلُ الذي بدا على قدر من الاحترام بأنْ قال له: «اخرَس أيُّها الشحَّاذ القذر اللسان»، وردًّا على ذلك اتهمه صاحبنا رينفيلد بسرقته والشروع في قتله وقال إنَّه سيمنعه من ذلك حتَّى لو تدلَّى جسده من حبل المشنقة. فتحتُ النافذة وأشرت إلى الرجلِ أن يغضَّ الطرف عنه، ولذلك فقد قرر الهدوءَ بعد أن تمعَّن في المكان وعرَف

أنه مصحة للمرضى النفسيين، وقال: «فليبارِكك الربُّ يا سيِّدي، وما كنتُ لأعترض على ما قيل لي في مصح ملعونٍ يحوي مجانين. وأنا أشفق عليك وعلى صاحب المصح لأنكما مضطران للعيش فيه مع وحشٍ مثل هذا». ثم سأل عن الطريق إلى المنزل بأسلوبٍ مهذب، فدَلَلْتُهُ على بوَّابة المنزل الخاوي. ذهب متبوعًا باللعنات والشتائم والتهديد من صاحبنا. بعدها نزلتُ إلى الأسفل لأرى إن كان يمكنني فهم أي سببٍ لغضبه، لأنه في العادة رجُلٌ حَسَنُ السلوك، وباستثناء نوباته العنيفة لم يحصل شيء من هذا القبيل سابقًا. وجدتُه، وقد هالتني الدهشة، هادئًا إلى حدٍّ كبير وودودًا جدًا في سلوكه. حاولت أن أستدرجه ليتحدَّث عن الواقعة، ولكنه بكل لطفٍ استفسر مني عما قصدته بسؤالي له، مما جعلني أعتقد بأنه كان غير مدرك للمسألة برمتها. ويؤسفني أن أقول بأن ذلك ما كان إلا نموذجًا آخر عن مكرِه، إذ لم تمر نصف ساعة إلَّا وسمِعتُ جلبَتَه مرَّة أخرى. نجح هذه المرة في الهروب من نافذة غرفته وجرى راكضًا عبر الجادَّة. استدعيتُ المساعِدِين لكي يلحقوا بي، وركَضْتُ وراءه إذ خشيتُ أنه كان يضمر بعض الشرِّ في نفسه. وقد كان خوفي في محله حيث رأيتُ عربة النقل ذاتها وهي تعبر الطريق محمَّلةً ببعض الصناديق الخشبية الضخمة. كان الرجلان يمسحان جبينيهما، وقد اكتسى وجهاهما حمرةً كأنهما قد خاضا تمارين قاسية. وقبل أن أتمكن من الإمساك به، اندفع المريض نحوهُما، وسحَبَ أحدَهُما من العربة، وشرع يضرب رأسه بالأرض. أظنه كان سيقتل الرَّجلَ من فوره لو لم أمسك به في اللحظة المناسبة تمامًا. وثب الرجل الثاني وضرَب

رينفيليد على رأسه بعقب مقبض سوطه الثقيل. كانت ضربةً رهيبةً، ولكن لا يبدو أنه اكترث بها، بل أمسكه أيضًا، وجَابَهَنَا ثلاثتنا معًا، وصار يسحبنا ويدفعنا وكأننا قطط صغيرة. وأنتَ تعرفُ أن وزني ليس بالخفيف، كما أنَّ المساعدين الآخرين قويا البنية. في البداية كان صامتًا وهو يقاتل، ولكن ما إن بدأنا نسيطر عليه وأخذ المساعدان يلبسانه عنوةً صدارًا مشدودًا إلا وبدأ يصرخ: «سأفسد عليهم الأمر! لن يسرقوني! لن يقتلوني ولن ينالوا مني شعرة! وسأقاتل من أجل سيِّدي ومعلِّمي!» وكل ما شابه ذلك من ضروب التخاريف غير المترابطة. وقد واجَهَا صعوبةً بالغةً جدًّا في إرجاعه إلى المصحة ووضعه في الغرفة المبطنة. كما أنه كَسَرَ إصبع أحد المساعِدِين، واسمه هاردي. على أي حال لقد جبرته له، وهو في صحة جيدة الآن.

كان الحمَّالان في بادئ الأمر مُلِحَّيْنِ في تهديداتهما باتخاذ إجراءات للتعويض عمَّا لحق بهما من أضرار، وأقسَمَا أغلظ الأيمان على إنزال كل العقوبات التي ينص عليها القانون بحقِّنَا. امتزجت تهديداتهما بنوعٍ من الاعتذار غير المباشر عن الهزيمةِ التي ألحَقَهَا بهما مجنونٌ ضعيف. وقالا إنَّهُ لولا أنَّهما صرَفَا قوَّتَهما على حمل الصناديق الثقيلة ورفعها إلى العربة لنالا منه في لمحِ البصر. كما تذرَّعا بسببٍ آخر وراء هزيمتهما يتمثل في حالة الظمأ غير العادية الذي بلغاه بسبب الطبيعة المغبرة لمهنتهما والبعد البغيض لمكان عملهما عن أي موضعٍ للترفيه العام. فَهِمْتُ إلى حدٍّ كبيرٍ فحوى كلامهما، وبعد كأس قوية من النبيذِ المخلوط بالماء، أو بالأحرى المزيد من النبيذ ذاته، وبعد أن ظفر كل واحد منهما بجنيه ذهبي في يده، استخفَّا

بالهجوم، وأقسَما بأنَّهما مستعدان لمواجهة مجنونٍ أسوأ من هذا في أي يوم للاستمتاع بلقاء شخص كهذا «الإنسان الطيِّب الملعون» من أمثال صاحبك. أخذتُ اسميهما وعنوانيهما، في حال احتجنا لها. وكانت على النحو التالي: الأول اسمه جاك سمولِت، من منطقة دَدِنغز رينتس، طريق الملك جورج، دائرة وُلوِرث الكبرى؛ والثاني اسمه تومَسْ سنيلنغ، من منطقة پيتر فيرليز رو، غايد كورت، بيثنَل غرين. كلاهما موظَّفان في شركة هارِسْ آند صَنْز للنقليات والشحن الواقعة في ساحة أورنج ماسترز في حي سوهو.

سأوافيكَ بأي مسائل مهمة تحدُث هنا، وسأكتب لكَ برقية على الفور في حال حدوثِ أيِّ أمرٍ مُهمٍّ.

وتقبَّل تحياتي يا سيِّدي العزيز

صديقُك المخلص

پاترِكْ هينيسي

رسالة من مينا هاركر إلى لوسي ويستينرا

(رسالة لم تفتحها لوسي)

١٨ سپتمبر،

عزيزتي لوسي:

ألَمَّتْ بنا مصيبةٌ مُحْزِنَة، فقد توفي السيِّد هوكنز بصورة مفاجئة جدًا. قد يحسب البعض أنَّ خبر وفاته لا يحمل في طياته ذلك القدر

من الحزن الكبير لنا، ولكنَّ حبَّنا له بلغ له مبلغًا عظيمًا حتى بدا حالنا كحالِ من فَقَدَ أباه فعلًا. ونظرًا لأني ذُقتُ مرارة اليتم منذ نعومة أظفاري ولم أعرف لا أبًا ولا أمًا، فقد شكَّلت وفاة العجوز الغالي صفعةً حقيقية لي. كما ألمّ بجوناثان أسىً شديدٌ بسبب ذلك. إذ لا يقتصر الأمر على أنه يشعر بالحزن العميق على وفاة الرجل الطيِّب العزيز الذي لازمه صديقًا طوال حياته، وعامله في نهاية حياته كما يعامل الأب ابنه الذي من صلبه وتركَ له ثروةً تعدُّ في نظر أناس من مثل طبقتنا المتواضعة ثروةً تتجاوزُ مسألةَ حلم الطمع بالمال، ولكن جوناثان ينظر إلى الأمر من زاوية أخرى. فهو يقول إنَّ حجم المسؤولية التي يلقيها ذلك على كاهله تصيبه بالتوتر. لقد بدأ يشكُّ في نفسِه. وأنا أحاول أن أدخل السرور عليه، فإيماني به يساعده على معاودة الإيمان بنفسه. ولكن الصدمة القاسية التي مرَّ بها تقض مضجعه أشدُّ من سواها. أوه، فمن الصعوبة البالغة على إنسان ذي معدن قوي، نبيل، بسيط، لطيف مثل معدنه -وهو معدنٌ مكَّنَه وبمساعدة صديقنا الطيِّب العزيز من الارتقاء من رتبة موظَّفٍ إلى مرتبة المعلِّم في بضع سنوات- أن يُجْرَح على هذه الصورة البالغة بحيث تتلاشى صلابة معدنه. سامحيني يا عزيزتي إذا ما أزعجْتُك بالحديث عن مشاكلي في خضم سعادتك، ولكن يا لوسي العزيزة لا بدَّ لي من الفضفضة لشخص ما، لأن الشدَّة التي أعاني منها في سبيل المحافظة على الظهور بمظهر الشجاعة والفرحة أمام جوناثان تفطر قلبي، وما من أحدٍ هنا يمكنني أن أثق به. تفزعني فكرة العودة إلى لندن، لأنه علينا أن نفعل ذلك بعد غدٍ، إذ أن السيِّد هوكنز المسكين

أوصى في وصيته بأن يُدْفَنَ في المقبرة ذاتها إلى جانب أبيه. ونظرًا لأنه ليس لديه أي أقارب على الإطلاق، سيضطر جوناثان إلى أن يكون المشيِّع الرئيس للجنازة. وسأحاول أن أسارع للقائك يا عزيزة قلبي، حتَّى ولو كان ذلك لبضع دقائق. سامحيني على إزعاجك. ولتتنزَّل عليكِ كل البركات.

صديقتك المحبة

مينا هاركر

مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

٢٠ سبتمبر- لا شيء سوى قوة الإرادة وحكم العادة يمكنه أن يجعلني أكتبُ بابًا في مذكراتي هذه الليلة. فأنا في قمَّة التعاسة، ومعنوياتي هابطة. لقد ضِقْتُ ذرعًا بهذا العالم وبكل ما فيه، وحتى في الحياة ذاتها، بل إنِّي لن أكترثَ إذا ما سمِعْتُ في هذه اللحظة رفرفَة أجنحة ملاك الموت. إذ كان يرفرف بأجنحة النحس هذه لغايات أخرى؛ فقد قَبَضَ روحَيْ والدة لوسي ووالدِ أرثر، والآن... اسمحوا لي أن أمضي في كتابة ما عزمت عليه في هذه المذكرات.

حلَلْتُ في الموعد المحدَّد مكان ڤان هيلسنغ في نوبة مراقبته للوسي. كما طلبنا من أرثر أن يذهب ليرتاح أيضًا، ولكنه رفَضَ في البداية. ولم يوافق على الذهاب إلَّا بعد أن قلتُ له إننا نريد منه أن يساعدنا في النهار، وإنَّه لا يجب علينا جميعنا أن ننهار بسبب حاجتنا للراحة، وإلا فإنَّ لوسي ستعاني. عامَلَه ڤان هيلسنغ بمنتهى اللطف

وقال له: «تعالَ يا بنيَّ، تعالَ معي. فأنت مريض وضعيف، وأصابَك الكثير من الحزن والألم النفسي، إضافةً إلى ذلك العبء على قوتك التي نعرفُ مقدارها. عليكَ ألَّا تبقى وحيدًا، فبقاؤك وحيدًا ليس سوى مجلبة للمخاوف والأخطار. تعال إلى صالة الاستقبال، حيث فيها موقدٌ كبيرٌ وأريكتان. استلقِ على إحداهما، وسأستلقي أنا على الأخرى، وسيبثُّ تعاطُف أحدنا الطمأنينة في قلب الآخر حتَّى لو لذنا بالصمت، بل وحتى لو نمنا». انطلق أرثر ملقيًا نظرةَ اشتياقٍ على وجه لوسي الراقد على الوسادة، وهو أشدُّ بياضًا من المروج وقد كساها الثلج. كانت مستلقية في سكونٍ تام، فنَظَرتُ في أرجاء الحجرة لأرى أن كل شيء كان كما ينبغي. واضح أنَّ البروفسور قد نفَّذَ في هذه الحجرة، وفي الحجرة الأخرى، خطته في ملئها بالثوم، فقد فاحَتْ رائحته الكريهة من كل إطارات النافذة، كما وَضَع إكليلًا غليظًا من زهور الثوم الفوَّاحة ذاتها حول رقبة لوسي، فوق المنديل الحريري الذي جعلها ڤان هيلسنغ تواظِب على ارتدائه. كانت لوسي تشخر نوعًا ما، وبات وجهُهَا في أسوأ حالاته، إذ بانت لثتها الشاحبة في فمها المفتوح. وبدت أسنانها في الضوء الخافت، أطولَ وأحدَّ مما كانت عليه في الصباح. وبدت الأنياب على وجه الخصوص أطولَ وأحدَّ من بقية الأسنان بفعل الإيهام الذي تسبَّب به الضوء. جلستُ قربَها، فتحرَّكَت على الفور باضطراب. في اللحظة ذاتها كان هنالك شيء كالرفرفة أو القرع الخفيف على النافذة. ذهبتُ صوب النافذة بهدوء، واختلستُ النظر إلى الخارج من جانب زاوية الستارة. كان البدر مكتملًا، ورأيتُ أنَّ مصدر الضوضاء خفَّاشٌ ضخم يدور

في المكان –وقد جذبَه الضوءُ بلا شك، رغم كونه خافتًا– وكان يضرب النافذةَ بجناحيه المرَّة تلو الأخرى. عندما عدتُ إلى كرسيي، وجدتُ أن لوسي قد تحرَّكت قليلًا وقد مزَّقَتْ زهور الثوم وأبعَدَتْها عن رقبتها. أعدتُ الزهور إلى موضعها قدر استطاعتي، وجلستُ أراقبها.

استيقَظَت في الحال، وأعطيتها الطعام بناءً على تعليمات ڤان هيلسنغ. ولكنَّها لم تتناول سوى القليل منه، وقد تناولته بفتور. تبدو وكأنها ما عادت تخوض حالة الصراع اللاشعوري للتمسك بالحياة والقوة، هذا الصراع الذي يميز مرضها على نحوٍ كبيرٍ حتى الآن. وقد صعقني الفضول إذ رأَيْتُهَا وقد ضمَّت زهور الثوم وأدنتها منها في اللحظة التي استعادت فيها وعيَها. فمما يثير الاستغراب أنَّها كلما دخلت تلك الحالة من الخمول المصحوبة بالشخير، نحَّت الزهور عن رقبتها. ولكن عندما تستيقظ كانت تتشبث بها بقوة. لا مجال لأي احتمال يشكك بهذه الملاحظة بتاتًا؛ فطوال الساعات التي تلت هذا، قضت الوقت ما بين نائمة أو مستيقظة، تبعد الورد تارة وتقربه في الأخرى.

في الساعة السادسة جاء ڤان هيلسنغ ليحل مكاني. كان أرثر قد غفا حينئذٍ، وترَكَه ينام رأفةً ورحمة. وعندما رأى وجه لوسي سمعتُ زفيرَ أنفاسِه المهموسة، وما لبث أنْ قال لي بهمسةٍ حادَّة: «ارفع الستارة؛ أريدُ أن أراها في الضوء!» ثم انحنى، وتفحَّص لوسي بعناية، حتى أوشك وجهه أن يلامس وجهَهَا. ثم أبعَدَ الزهور ورفع المنديل الحريري عن رقَبَتِها. وما إن فعل ذلك إلَّا وانتفض جافلًا

إلى الخلف، وسمعتُ أنفاسَه تشهق وهو يقول: (Mein Gott)[1] وكأنَّها عبَارَةٌ مختنقةٌ تخرُج من حنجرته. انحنيتُ ونظرتُ أيضًا، وما إن رأيتُ منظرها إلَّا واجتاحَتْنِي قشعريرةٌ غريبة.

اختفَى الجرحان اللذان كانَا في الرقبة تمامًا.

لخمسِ دقائق كاملة وقف ڤان هيلسنغ ناظرًا إليها ووجهُه في ذروةِ عبُوسه. ومن ثم التَفَتَ صوبِي وقال بهدوء:

«إنها تَحْتَضِر. لن يطول الأمرُ كثيرًا الآن. وسيكون هناك فرقٌ كبيرٌ، وتذكَّر قولي هذا، بين أن تموت وهي مستيقظة أو أن تموت أثناء نومها. أيقظ ذلك الشاب المسكين، ودَعْهُ يأتي ويراها آخر مرَّة، فقد وثق بنا إذ قطعنا له وعدًا».

ذهبتُ إلى غرفة الطعام وأيقظت أرثر الذي كان قد غفا لوهلة، ولكنَّه حَسَبَ نفسَه تأخَّر في النوم عندما رأى ضوء الشمس يتسلَّل عبر حواف الأباجورات، حيث عبَّر عن خوفه. طمأنته إلى أنَّ لوسي ما تزال نائمة، ولكني قلتُ له بألطف أسلوب استطعته، إنِّي وڤان هيلسنغ نخشى بأن النهاية باتت وشيكة. غطَّى وجهه بيديه، وخرَّ جاثيًا على ركبتيه قرب الأريكة، ظل في مكانه لدقيقة تقريبًا، يدعو ورأسه مطمورٌ بين يديه، بينما ارتجَفَ كتفاه حزنًا. أمسكتُ بيدِه ورفعته قائلًا: «هيَّا يا صاحبي العزيز، استجمع جَلَدَكَ: فذلك أفضل لها وأكثر راحة».

(١) «يا إلهي!» قالها بالألمانية.

عندما دخلنا حجرة لوسي رأيتُ بأن ڤان هيلسنغ، ببعد نظره المعتاد، قد وضع الأمورَ في نصابِها الصحيح وجَعَلَ كل شيء يبدو بهيجًا قدر الإمكان. لا بل حتّى إنَّه مشَّطَ شعر لوسي الذي انسدَلَ على الوسادة بتموجاته المشرقة المعتادة. عندما دخلنا الغرفة فتَحَتْ عينيها، وما إنْ رأته حتى هَمَسَتْ برقَّة:

«أرثر! آهٍ يا حبيبي، يا لسعادتي الغامرة بمجيئك!». همَّ بالانحناءِ ليقبِّلها، لكن ڤان هيلسنغ أشار له بعدم فعل ذلك هامسًا: «لا، ليس الآن! أمسك يدَها، فذلك سيطمئنها أكثر».

وهكذا أمسك أرثر بيدها وجثا قربها، وقد بدت في أجمل حالاتها، وبانت كل الخطوط الناعمة المتوائمة مع جمال عينيها الملائكي. ثم أغْمَضَت عينيها بالتدريج، وغطَّتْ في النوم. لبرهة قصيرةٍ علا صدرُها وانخفضَ برفق، وشَهَقَتْ أنفاسَها وزَفَرَتْها مثلما تفعل طفلةٌ هدَّهَا التعب.

ومن ثمَّ، طرأ رويدًا رويدًا التغيُّر الغريب الذي كنتُ قد لاحظته في الليل. فقد صار تنفسها أكثر شخيرًا، وفغرت فاها، وجَعَلَت اللثَّتان الشاحبتان، وقد رجعتا إلى الخلف، الأسنانَ تبدو أطولَ وأحدَّ من قبل. وفي حالةٍ تُرَاوِحُ مابين النوم واليقظة، والتوهان والغيبوبة، فتَحَت عينيها، التي صارت الآن باهتة وجامدة النظرة في الحال، وقالَتْ بصوتٍ ذي نبرة شهوانية رقيقة، صوتٍ لم أسمع مثله قط يسري على شفتيها:

«أرثر! أوَّه يا حبيبي، كم أنا سعيدة جدًا لأنك جئت! هيَّا

قبِّلني!» انحنى أرثر بحماسة ليقبِّلها، ولكن في تلك اللحظة انقضَّ عليه ڤان هيلسنغ، الذي استبدَّ به الهلع من جراء صوتها مثلما استبدَّ بي، وأمسكَ برقبته بقوة لم أحسب أنه يمكن أن يمتلكها ألبتة، وكاد يطيحُ به فعليًا في الحجرة.

«لا تُقبِّلها خوفًا على حياتك! لا تقبِّلها حفاظًا على حياتك وحياتها!» ومن ثمَّ وقف بينهما مثلَ أسدٍ يذودُ عن عرينِه.

اعترَت أرثر دهشةٌ بالغةٌ حتى إنَّه ظل لوهلة لا يعرف ما يفعل أو يقول، وقبل أن تسيطر عليه أي ردَّة فعلٍ عنيفةٍ أدرَك المكانَ والموقفَ، ووقف صامتًا، منتظرًا.

لم أُزِحْ نظري عن لوسي، وكذا فَعَل ڤان هيلسنغ. رأينا تشنجًا كتشنُّجَ الغضب مرَّ مثل الظل فوق وجهها، وأسنانُها الحادَّة تصطك بعنفٍ بعضُها ببعضٍ. ثم أغمضَت عينيها، وتنفَّسَتْ بشدَّة.

بعد ذلك بمدةٍ قصيرةٍ جدًا فتَحَتَ عينيها بكل ما فيهما من رِقَّة، ومدَّت يدها الهزيلة، الشاحبة، البائسة، وأمسكت بيد ڤان هيلسنغ السمراء الضخمة وسحَبَتَها نحوها، ثم قبَّلَتْها، وقالت بصوتٍ خافت، ولكن بشجىً عَصِيٍّ على الكبت: «يا صديقي الوفي وصديقَه! أوه، اعتنِ به، وامنحني الطمأنينة!».

فقال ڤان هيلسنغ بنبرةٍ جادَّة، وقد جثا قربها ورفع يده، كمن يقطع عهدًا على نفسه: «أقسم على ذلك!». ثم التفَتَ صوب أرثر، وقال له: «هيا، يا بنيَّ، ضع يدَها بين يديك، وقبِّلها على جبينها قبلةً واحدةً فقط».

التَقَتْ عيناهما بَدَلًا من شفاههما، وافترقا وهُمَا على هذه الحال.

أغمضت لوسي عينيها، وأمسك ڤان هيلسنغ، الذي ما انفك يراقب المشهد من كثب، ذراعَ أرثر وسحبه بعيدًا عنها.

بعدها شخرت لوسي مرَّة أخرى، ومن ثم انقطع نفسها فجأةً.

«انتهى كل شيء» قال ڤان هيلسنغ، ثم أردف: «لقد ماتت!».

تأَبَّطْتُ ذراع أرثر وقدته صوب غرفة الطعام، حيث جَلَسَ، وغطَّى وجهه بيديه، وهو ينشجُ بطريقةٍ كادت تصيبني بالانهيار.

رجعت إلى الحجرة وألفيْتُ ڤان هيلسنغ ينظر إلى لوسي المسكينة، ووجهه أشد عبوسًا من قبل. طرأ تغيُّرٌ ما على جسدها. أعاد الموتُ لها نصيبًا من جمالها، واستعادَ حاجباها ووجنتاها بعضًا من خطوطهما المنسجمة، وحتى الشفتين غابَ عنهما شحوبُهما المرعب. بدا الأمر وكأنَّ الدَّم، الذي انتفت الحاجة إليه لبثِّ النبض في القلب، قد ذهب ليجعل قسوة الموت أقل وقاحة قدر الإمكان.

«حسبناها تحتضر بينما كانت نائمة،

وحسبناها نائمةً عندما ماتت»[1]

وقفتُ قرب ڤان هيلسنغ، وقلتُ له:

«آه، لا بأس، يا للفتاة المسكينة! سترتاح أخيرًا. إنها النهاية!».

التَفَتَ صوبي، وقال بجدية متجهمة:

---

(١) من قصيدة «فراش الموت» للشاعر الإنجليزي تومَس هود (١٧٩٩ - ١٨٤٥).

«الأمر ليس كذلك! للأسف ليس كذلك.. فهذه هي البداية وحسب!».

ولما سألتُه ماذا يقصد بذلك، اكتفى بهزِّ رأسه وأجابني:

«لا يمكننا أن نفعل شيئًا الآن. فلننتظر ونرى».

الفصل الثالث عشر

تتمة مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

جُهِّزَت الجنازةُ لتقام في اليوم التالي بحيث يتسنَّى دفن لوسي وأمها معًا. أشرفتُ على كل الإجراءات الفظيعة، وأثبتَ الحانوتي الدمث بأنَّ موظفيه كانوا قد ابتُلوا -أو بُورِكوا- بشيءٍ من تملقه اللطيف. وحتى المرأة التي قامت بآخر الإجراءات لتجهيز الجُثْمَانَيْنِ أبدت لي ملاحظةً بطريقة احترافية أخويَّة وسرِّية، بعد أن خرجت من الحجرة التي ماتتا فيها وقالت:

«يا لجثمانها الجميل جدًا يا سيدي! إنه لشرفٌ عظيمٌ لي أن أشارك في دفنها. فليس في الأمر مبالغةٌ إذا ما قلتُ بأنَّ ذلك مصدرَ فخرٍ لمؤسستنا!».

لاحظْتُ أنَّ ڤان هيلسنغ لم يبتعد قطُّ. وكان هذا ممكنًا نتيجة الحالة المضطربة في العائلة. فلم يكن ثمَّة أقارب يمكن دعوتهم، ونظرًا لأن أرثر كان مضطرًا إلى العودة في اليوم الموالي لحضورِ جنازة أبيه، فلم نكن قادرين على إخطار أي شخص كان ينبغي دعوته إلى الجنازة. وفي ظل هذه الظروف، أخذتُ أنا وڤان هيلسنغ

على عاتقنا تفحُّصَ الأوراق، إلخ. أصرَّ على النظر في أوراق لوسي بنفسه. وقد سألتُه عن السبب، إذ خشيت أنه قد لا يكون ملمّاً إلى حدٍّ كبيرٍ بالقوانين الإنجليزية لأنه أجنبي، ورُبَّما يتسببُ نتيجة جهله بها في بعض المشاكل التي نحن بغنى عنها، فأجابني:

«أعرف، أعرف. أنسيْتَ أنني محامٍ مثلما أنا طبيب؟ ولكن هذه القضية ليست قضية قانونية محضة. وقد أدركت أنت ذلك عندما تجنَّبْتَ استدعاء قاضي تحقيق الوفيات. وعندي أمورٌ أهم منه لأتجنَّبها. وربما يكون هناك المزيد من الأوراق.. أوراقٍ من أمثال هذه».

بينما كان يتكلَّم أخرَج من دفتر جيبه المذكَّرة التي كانت على صدر لوسي من قبل والتي مزَّقَتْها وهي نائمة.

«عندما تعثُر على أيِّ بياناتٍ عن محامي المرحومة السيِّدة ويستينرا، فضع كل أورَاقِها في ظرفٍ مختوم، وأرسِلْهَا إلي هذه الليلة. أما أنا فسأراقب الوضْعَ هنا في الحجرة وفي حجرة الآنسة لوسي القديمة طوال الليل، وسأفتِّش بنفسي عمَّا قد أعثر عليه. فليس من المستحسَن على الإطلاق أن تقع أفكارها بالذات في أيدٍ غريبةٍ».

تابعتُ إنجازَ الجزء المترتِّب عليَّ من العمل، ولم يمر سوى نصف ساعة إلَّا وعثرتُ على اسم محامي السيِّدة ويستينرا وعنوانِه فأرسلتُ له. كانت كل أوراق السيِّدة المسكينة مرتَّبَة، وفيها توجيهات صريحة بخصوص مكان الدفن. وبالكاد كنت قد أغلقتُ الرسالة وختمتُها، عندما تفاجئتُ بدخول ڤان هيلسنغ الحجرةَ وهو يقول:

«أيمكنني مساعدتك يا صديقي جون؟ فلا شيء أفعَلُه الآن، وإذا كان بإمكاني تقديم المساعدة فأنا في خدمتك».

سألتُه: «وهل عثرتَ على ما كنتَ تبحث عنه؟» فأجابني على ذلك قائلًا:

«لم أبحث عن أي شيء محدَّدٍ. فقد كنتُ آمل فقط أن أجدَ كل ما هناك من أوراق، وقد وجدتُها. وجدتُ فقط بعض الرسائل وبضع مذكرات، ودفتر مذكَّرات بدأَتْ كتابتَها مؤخَّرًا. بيد أنها معي هنا، وسنبقي أمرها سرًا في الوقت الحالي. ينبغي لي أن أرى ذلك الشاب المسكين مساءَ الغد، وبناءً على موافقته سأطَّلعُ على بعضها».

عندما فرَغْنَا من العمل الذي بين أيدينا، قال لي:

«والآن يا صديقي جون، أظن أنه علينا الخلود إلى النوم. فكلانا بحاجة إلى النوم والراحة حتى نسترد عافيتنا. ينبغي لنا فعل الكثير من الأشياء في الغد، ولكن ما من حاجة بنا للبقاء هنا هذه الليلة. مع الأسف!».

قبل أن نخلد إلى النوم ذهبنا لنلقي نظرةً على لوسي المسكينة. قام الحانوتي بعملهِ على أكمل وجهٍ بلا شك، لأنَّ الحجرة تحوَّلت إلى *كنيسةٍ صغيرة مؤتلقة*. كان هنالك كميَّةٌ هائلةٌ من الزهور البيضاء الجميلة، وأُظهر الموتُ بصورة أقل اشمئزازا مما هو عليه، وأُسْدِل طرف الكفن على وجهها. وعندما انحنى البروفسور ونحَّاه برفق إلى الوراء، صعقنا كلانا بالجمال الماثل أمامنا، إذ أرْسَلَتِ الشموعُ الطويلةُ ما يكفي من الضوء لنلاحظ جمالها بصورةٍ واضحة. لقد

عادت كل فتنة لوسي إليها وهي ميتة، وبدلًا من أن تترك الساعات التي مرَّت عليها آثارَ «أصابعِ الموت الطامسة» أعادت لها جمالَ الحياة، حتى إني لم أصدق حقًا بأن عينيَّ كانتا تنظران إلى جثمان امرأةٍ ميتةٍ.

بدا البروفسور متجهمًا بشدة، فهو لم يكن قد وقع في غرامها مثلي، ولم يكن هناك من حاجة لترقرق الدموع في عينيه، وقال لي: «ابقَ هنا حتى أعود» ومن ثمَّ غادر الحجرة ليعود حاملًا حفْنَةً من الثوم البري من الصندوق الذي في الصالة والذي لم يكن قد فتح بعد، وضَعَ الزهور بين الزهور الأخرى فوق السرير وحوله. ومن ثمَّ أخرج من رقبته، من داخل ياقته، صليبًا ذهبيًا صغيرًا ووضَعَه على فَمِهَا. وأعادَ طرف الكفن إلى موضعه، ثمَّ مضى كل منَّا في سبيله.

كنتُ أهمُّ بنزع ملابسي في حجرتي عندما طرَقَ الباب طرقة استئذان خفيفة ثم دخل، وبدأ الحديث على الفور:

«أريدُك أن تُحضِرَ لي غدًا، وقبل حلول الليل، مجموعةً من مباضعِ تشريح الجثث».

«أو ينبغي لنا أن نشرِّح الجثة لمعرفة سبب الوفاة؟» سألتُه.

«نعم ولا. فأنا أريد أن أشرِّح الجثة، ولكن ليس التشريح الذي في بالك. سأخبرك بالأمر الآن، ولكن حذارِ من إفشاء السرِّ لأحد. أريد أن أقْطَعَ رأسَها وأستخْرِج قلبها. آه! أنتَ جرَّاح، ومصدومٌ جدًا! أنت الطبيب الذي لم أر قط ارتجافة يده أو رعشة قلبه بينما يجري عمليات الحياة والموت التي ترتعد منها فرائص الآخرين!

أوه، ولكن عليَّ ألَّا أنسى يا صديقي العزيز جون بأنك كنت تحبُّها، وأنا لم أنسَ ذلك حتى الآن، ولذلك فأنا من سيقطع رأس الجثة ويستخرج قلبها، وما عليكَ سوى مدِّ يد العون لي. ويا حبَّذا لو فعلتُ ذلك الليلة، ولكني غير راغبٍ في ذلك كرمى لأرثر، إذ إنَّه سيكون متفرِّغًا بعد جنازة أبيه في الغد، وسيرغب في رؤيتها، أقصد رؤية جثمانها. وبعدئذٍ، عندما تُكَفَّنْ استعدادًا لدفنها في اليوم التالي، سنأتي أنا وأنتَ بينما الجميع نيام. سنفتح غطاء التابوت، ونجري العملية التي عقدنا العزم عليها، ثم نعيد كل شيء إلى موضعه، ولن يعرف بالأمر أحدٌ سوانا».

«ولكن لماذا تقطَع رأسها وتستخرج قلبها من الأساس؟ إنَّ الفتاة ميتة. فلمَ نشوِّه جسدها المسكين دون الحاجة إلى ذلك؟ وإذا لم يكن هناك داعٍ لتشريح الجثة وما من فائدة ترتجى منه -أقصد أنه ما من خير فيه لك أو لها، أو لنا، أو للعلم، أو للمعرفة البشرية- فلم نفعل ذلك؟ فالأمر شنيع في حد ذاته دون تشريح».

فيما همَّ بالإجابة، وضَعَ يده على كتفي، وقال بلطف لا حدود له:

«يا صديقي جون. إنِّي لأشفق على قلبِكَ النازف الكسير، وقد زاد تعاطفي معك إذ رأيتُ قلبك ينفطر على هذا النحو. ولو كان الأمر بيدي، لحملتُ عنك العبء الذي تنوء به، ولكن ثمَّة أمورٌ لا تعرفها، وينبغي لك أن تعرفها، وتدعو لي بالبركة بسببها، رغم أنها لا تبعث السرور في النفس. جون، يا بني، لقد مرَّ على صداقتنا

الآن عدة سنوات، ومع ذلك أعهدْتَنِي أقدم على أي أمر دون سببٍ وجيهٍ؟ لربما أخطئ، فأنا استُ سوى بشر، ولكنني أؤمن بكل ما أفعله. ألم تكن هذه هي الأسباب التي أرسلْتَ من أجلها في طلبي عندما حَصَلت المصيبة العظيمة؟ بلى! حينها لم تعتريك الدهشة أو يصبك الرعب عندما منعتُ أرثر من تقبيل حبيبته -رغم أنها كانت تحتضر- ودفَعْتُه عنها بكل ما أوتيتُ من قوة، أليس كذلك؟ بلى! ومع ذلك رأيتَ كيف شكَرَتْنِي، بعينيها المحتضرتين الجميلتين جدًا، وبصوتها الضعيف جدًا، وقبَّلَتْ يدي الهرمة الخشنة ودعت لي بالبركة؟ بلى! أولم تسمعني وأنا أقسم لها أغلظ الأيمان، حتَّى إنَّهَا أغمضت عينيها شاكرة؟ بلى! قد فعَلْت.

حسنًا، لديَّ الآن سببٌ وجيه لكل ما أريد فعله. وثقت بي لسنوات عدة، وصدَّقتَني في الأسابيع الماضية عندما حَصَلَت أمورٌ غريبة جدًا ولا بدَّ أنَّ الشكوك ساورَتْك حقًا فيها. ولذا صدِّقني الآن قليلًا كذلك يا صديقي جون. وإذا كنت لا تثق بي، فأجد لزامًا عليَّ أن أخبرك بما يجول في خاطري، وربما لا يكون ذلك بالأمر الحسن. وإذا ما قُدِّرَ لي أن أقوم بما عزمْتُ عليه دون ثقة صديقي فيَّ -وهو ما سأفعله، سواءً أوثقت بي أم لا-، فسأعمل ذلك بقلب مثقلٍ بالأسى وسأشعر، أوه! سأشعر بأني وحيد في الوقت الذي أحتاج فيه كل العون والشجاعة الممكنة!» توقف عن الكلام لحظة ثم مضى يقول بجدية: «يا صديقي جون، تنتظرنا أيام غريبة ورهيبة. فلنكن يدًا واحدة، بحيث يمكننا أن نعمل في سبيل غايةٍ نبيلة. أو لن تضع ثقتك فيَّ؟».

أمسكتُ يده، ووعدته أن أثق به. ثم أمسكْتُ بالباب المفتوح بينما خرج في سبيله، وتابعته بنظري يدخل حجرته ويغلق الباب. وبينما وقفتُ دون حراك، رأيتُ إحدى الخادمات تمرُّ بصمتٍ عبر الممر -كان ظهرها باتجاهي فلم ترني- ثم دخَلَت إلى الحجرة التي سُجِّيَتْ فيها لوسي. أذهلني المشهد. فالوفاء نادرٌ جدًا، ونحن في غاية الامتنان لأولئك الذين يظهرونه تجاه من نحب دون أن نطلب منهم ذلك. فها هي ذي خادمة مسكينة تضع جانبًا الأهوال التي تسكنها من الموت بصورة طبيعية وتمضي لتمكث وحيدة قرب نعش السيِّدة التي تحب، وهكذا فإن هذا الجسد المسكين لن يُقَدَّرَ له أن يبقى وحيدًا إلى أنْ يوضع في مكان راحته الأبدي...

لا بدَّ أنني نمتُ نومًا عميقًا وطويلًا، لأنَّ ضوء النهار كان ساطعًا عندما أيقظني ڤان هيلسنغ بدخوله إلى حجرتي. اقترب من جانب سريري وقال:

«لا داعي لأن تشغل نفسك بجلب مباضع التشريح، لن نقوم بالعملية».

«ولم ذلك؟» سألتُه. لأنَّ جديته التي كانت عليه في الليلة الماضية تركَت فيَّ أثرًا عظيمًا.

قال بحزمٍ: «لأنه فاتَ الأوان كثيرا – أو لأنه لم يحن الأوان بعد. أتَرى!» وهنا رفع الصليب الذهبي الصغير وقال: «لقد سُرِقَ هذا في الليل».

سألتُه مندهشًا: «وكيف تقول إنه سُرِقَ وهو معك الآن؟».

«لأني استعدته من السافلة التافهة التي سرقته، استعدْتُه من المرأة التي تنشل الأموات والأحياء. ستنال عقابها بالتأكيد، ولكن ليس عن طريقي، فهي لا تعرف عمومًا ماذا فَعَلَتْ. والآن علينا أن ننتظر».

قال كلمته تلك ومضى، وتركني مع لغزٍ جديدٍ أفكر فيه وأعاني لفكّ طلاسمِه.

قضيت وقتًا مرعبًا في الظهيرة، ولكن مع منتصف النهار جاء المحامي: السيِّد ماركواند، من مؤسسة وولمان، صنز، ماركاند آند ليدرديل. كان ودودًا جدًا إذ قدَّر كثيرًا ما فعلناه، وقد تحمل عنا عبء كافة التفاصيل. أخبرنا على الغداء أنَّ السيِّدة ويستينرا كانت تتوقَّع منذ بعض الوقت موتَها المفاجئ بسبب قلبها، ولذا فقد رتَّبَتْ أمورَها بالكامل، وأعْلَمَنَا بأنها -باستثناء عقار بعينه ورِثَتْه عن والد لوسي، وقد آلت ملكيته الآن بسبب هذه القضية الحالية إلى فرعٍ بعيد من فروع الأسرة- فإنَّ ملكية العزبة كاملة، بما فيها من ممتلكات عقارية ومقتنيات شخصية، آلت بصورة مطلقة إلى أرثر هولمُود. وبعد أن أخبَرَنَا كلَّ هذا القدر من المعلومات تابع قائلًا:

«بصراحة، لقد بذلنا أقصى ما في وسعنا لكي نمنع هذا الترتيب الوارد في الوصية، وأشرنا إلى حالات طارئة معينة من شأنها أن تترك ابنتها إمَّا مفلسةً أو مقيدة الحرية نظرًا لأنه ينبغي لها أن تتصرَّف بموجب ارتباطها الزوجي. وبالفعل، وضعنا ثقلنا في المسألة إلى درجة كدنا نصل فيها إلى صِدَام، لأنها سألَتْنَا إنْ كنا مستعدين لتنفيذ

رغباتها أم لا. وبالطبع، لم يكن في جعبتنا حينئذٍ أي خيار سوى القبول. وكنا محقين من حيث المبدأ، واضطررنا في تسعةٍ وتسعينَ مرَّة من أصل مئة، اعتمادًا على المنطق الكامن في الأحداث، أن نثبت حصافة حُكْمِنَا. بصراحة، عليَّ أن أعترف، أنه في هذه القضية فإن من شأن أي شكلٍ آخر من أشكال التسوية أن يجعل تنفيذَ رغباتها مستحيلًا. فوفاتها قبل ابنتها يجعل من ابنتها وريثةً لأملاكها، حتى ولو عاشت بعد أمها خمس دقائق، فإن أملاكها، في حال عدم وجود وصية أوصت بها - وفي مثل هذه الحالة من المستحيل عمليًا وجود وصية، ستُعَامَل عند وفاتها على أنها أملاك لشخص متوفى دون وصية. وفي هذه الحالة، فإنَّ اللورد غودالمنغ، ورغم أنه صديق عزيز جدًا علي، لن يكون من حقه المطالبة بالميراث أبدًا، كما أنه من غير المرجح للوَرَثة، وهم أقارب بعيدون، أن يتخلوا عن حقهم العادل، لأسبابٍ وجدانية تتعلق بوجود شخصٍ غريبٍ لا يمت إلى أسرتهم بصلة. وأنا أطمئنكما، يا سيديَّ العزيزين، أني فرح بالنتيجة، فرح حتى الثمالة».

كان إنسانًا طيبًا، ولكن فرحته بخصوص هذه الجزئية الصغيرة -التي كان مهتمًا فيها اهتمامًا رسميًا- من هذه المأساة الرهيبة جدًا، كانت درسًا عمليًا في الالتزام بحدود المشاعر الودية.

لم يمكث طويلًا، ولكنه قال إنه سيأتي لاحقًا في ذلك اليوم ويقابل اللورد غودالمنغ. كان مجيئه على أي حال مبعث طمأنينة أكيدة لنا، لأنه طمأننا بأنه لا ينبغي لنا أن نخشى النقد اللاذع فيما يخص أي فعلٍ فعلناه. كان من المتوقع وصول أرثر في الساعة

الخامسة، ولذا زرنا حجرة الموتى قبل ذلك بقليل. كانت اسمًا على مسمًّى بكل ما في الكلمة من معنى، ففيها الآن الأم وابنتها ميتتان. قام الحانوتي المتْقِنُ لعمله، بتجهيز أفضل عرضٍ لمهارته، فاكتنفَ الحجرةَ جوٌّ جنائزي ثبَّطَ معنوياتنا على الفور. أمره ڤان هيلسنغ بالالتزام بالترتيب السابق، موضحًا، ونظرًا لأنَّ اللورد غودالمنغ قادمٌ في القريب العاجل، فإنه سيكون أقل إيلامًا لمشاعره أن يرى أن جثمان خطيبته وحدَه تمامًا. بدا الحانوتي مصدومًا بسبب غبائه وبذل أقصى جهوده لكي يعيد الأشياء إلى الوضعية التي تركها فيها في الليلة الفائتة، بحيث يمكن أن نتجنَّب قدر المستطاع وقوع مثل هذه الصدمات في مشاعر أرثر عندما يصل.

يا للعاشق المسكين! بدا حزينًا ومكسور الخاطر على نحوٍ يبعث اليأسَ في النفس، وحتى رجولته الشديدة البأس بدت وقد ذبلت نوعًا ما تحت إعياء مشاعره التي وضعت على المحك كثيرًا. أعرف أنه متعلق بصدق وإخلاص بأبيه بصورةٍ كبيرةٍ، وسيكون فقدانه في هذا الوقت بالذات، صفعةً مؤلمة له. كان ودودًا معي كما عهدي به، ومهذَّبًا ولطيفًا مع ڤان هيلسنغ، لكني لم أستطع ردع نفسي عن ملاحظة بعض الارتباك الذي أصابه. كما لاحظ البروفسور ذلك، أيضًا، وأشار لي أن أصحبه إلى الطابق العلوي. وهذا ما فعلتُه، تركته قرب باب الحجرة، لأني شعرتُ برغبته في أن يكون وحدَه فقط معها، ولكنه أمسك ذراعي وسار بي إلى الداخل، وقال بصوتٍ أجش:

«وأنتَ أحببتها أيضًا يا صاحبي، فقد حكَت لي كل شيء عن

ذلك، ولم يكن في قلبها موضع حازَه صديقٌ أقرب إليها منك. وأنا لا أعرف كيف أشكرك على كل ما فَعَلْتَه من أجلها. ولا أستطيع أن أتخيَّل مع ذلك أنــ...».

وهنا، ما كان منه إلَّا وانهار فجأة، وأحاط بذراعيه كتفي وأسند رأسه على صدري وهو يبكي ويقول:

«آهٍ يا جاك آه! ماذا ينبغي لي أن أفعل! تبدو الحياة بأكملها قد تخلت عني في لحظة واحدة، لم يبق لي شيء في هذا العالَم أعيش من أجله».

واسيْتُه قدر ما استطعت. في مثل هذه الأحوال لا يحتاج الرِّجال إلى الكثير من العبارات. فإمساك اليد، أو وضع ذراعٍ بقوة على الكتف، أو مشاركة البكاء، تعد من أوجه التعاطف الثمينة على قلب كل رجل. وقَفْتُ جامدًا وصامتًا حتى توقف نحيبه، ومن ثم قلتُ له برقة:

«هلم وألقِ نظرة عليها».

تقدَّمنا قليلًا صوب السرير معًا ورفعتُ الغطاءَ عن وجهها. رباه ما أجمَلَهَا! فقد بدا أن بهاء فتنتها يزداد كل ساعة. أخافني ذلك وأدهشني نوعًا ما، أما أرثر فقط سقط مرتجفًا، وفي الأخير هزَّه الشك وكأنه مصاب بقشعريرة. بعد انتظار، وبعد صمتٍ مديد، قال لي بهمسة خافتة:

«جاك، أهي ميتة حقًا؟».

أكَّدْتُ له، والحزن يعتصر قلبي أنَّهَا ميتة بالفعل، ونظرًا لأنِّي شعرتُ بأن مثل هذا الشك الرهيب يجب ألا يستمر مدة أطول مما أطيق، تابعتُ حديثي قائلًا إنَّ الوجوهَ غالبًا ما تصير بعد الموت طريَّةً، بل حتَّى إنَّها قد تستعيد جمالَهَا المفعم بالشباب، وإنَّ هذا يحصل على وجه الخصوص عندما يسبق الموت أي معاناةٍ شديدةٍ أو طويلة. بدا أن ذلك أزال إلى حدٍّ كبيرٍ كل شك في نفسه. ثم التفتَ التفاتةً جانبية بعد أن جثا بجانب الأريكةِ برهة ونظر إليها طويلًا نظرة حانية. قلتُ له إن رؤيته لها هي الوداع الأخير، لأن التابوت يجب أن يُجهَّز، ولذا عاد وأمسك يدَها الميتة بيدِه وقبَّلَها، ثم انحنى وقبَّل جبينها. ابتعدَ عنها، ناظرًا إليها نظرة غرام وقد ارتسم القلق على محيَّاه وهو يتركها.

تَرَكْتُه في صالة الضيوف، وأبلغتُ ڤان هيلسنغ بأنَّه ودَّعَها. ذهب ڤان هيلسنغ إلى المطبخ ليبلغ مساعدي الحانوتي بأن يستكملوا التحضيرات وأن يحكموا إغلاق التابوت. وعندما خرج من الحجرة مرة أخرى أعلمته بالسؤال الذي طرحه أرثر، فأجاب:

«لستُ متفاجئًا. في هذه اللحظة حتى أنا شخصيًا ساورتني الشكوك!».

تناولنا العشاء معًا، ولاحظتُ أن أرثر المسكين كان يحاول أن يتعامل مع الوضع بأحسن ما استطاع. التزم ڤان هيلسنغ الصمتَ طوال وقت العشاء، ولكن ما إن أشعَلْنَا سيجاراتنا إلَّا وقال:

«أيُّهَا اللورد...»؛ ولكنَّ أرثر قاطعه قائلًا:

«لا، لا، لا تناديني باللورد، كرمى لله! ليس بعد الآن على أي حال. سامحني يا سيِّدي، فأنا لم أقصد أن أتكلَّم بعدوانية، وما سبب ذلك إلَّا أنَّ خسارتي ما تزال حديثة العهد جدًا».

أجابَ البروفسور برقة متناهية:

«لقد استخدمتُ ذلك الاسم فقط لأن الشكَّ راودني. إذ لا يجب عليَّ أن أناديك بلقب «السيِّد أرثر»، وقد زاد مقدار حبي لك، نعم يا بنيَّ العزيز، فمحبتي لك كبيرة، بصفتك أرثر وحسب».

رفع أرثر يدَه، وأمسك يدَ البروفسور العجوز بحنو، ثم قال:

«ناديني كما تشاء. فأنا آمل دائمًا أن تناديني بكلمة «صديقي». واسمح لي القول إنِّي عاجزٌ عن إيجاد الكلمات التي تفيكَ حق شكرك على طيبتك مع خطيبتي المسكينة». توقَّفَ عن الكلام لحظةً ثم أردف: «فأنا أعلم أنها فَهِمَت طيبتك أفضل مني حتَّى، وإذا كنتُ وقحًا أو بَدَرَ منِّي قصور بأي طريقة كانت في ذلك الوقت الذي فعَلْتَ فيه ذلك -فتذكَّر» -وهنا أومأ البروفسور برأسه- «تذكَّر أنه عليك أن تسامحني».

أجابه بلطفٍ تشوبه الجدِّية:

«أعرف أنه شقَّ عليك أن تثق بي إلى حد كبيرٍ حينها، إذ لا يمكن أن نثق في عنف كهذا من دون أن نفهم الأسباب. وأنا أجزم أنك لا تثق بي -ولا تستطيع أن تثق بي الآن- لأنك لم تستوعب المسألة بعد. قد تمر علينا أوقات لن تفهم فيها ما يجري، وسأطلب منك حينها أن تثق بي إذا استطعت -وربما لن تستطيع-. ولكن الأوان

سيأتي عندما تصبح ثقتك بي تامة وكاملة، حينها ستفهم وكأنَّ ضوء الشمس ذاته قد أشرق على الحقيقة. وعندئذٍ ستدعو لي بالبركة من البداية وحتى النهاية من أجل خاطرك، ومن أجل خاطر الآخرين، ومن أجل خاطرها العزيز الذي أقْسَمْتُ على حمايته».

قال أرثر بودٌ: «بالفعل، بالفعل يا سيِّدي، ينبغي لي أن أثق بك بكُل السُّبُل. فأنا أعرف وأثق أنَّكَ صاحبُ قلب نبيل جدًا، وأنَّكَ صديق جاك وصديقَها. وينبغي لك أن تفعل ما تشاء».

تنَحنح البروفسور بضعَ مرَّات، وكأنه يهمُّ بقول شيء ما، ثم قال بعد انتظار:

«أيمكنني أن أطلب منك طلبًا الآن؟».

«بالتأكيد، تفضَّل».

«أتعرف أن السيِّدة ويستينرا تركت لكَ كل ممتلكاتها؟».

«لا، يا عزيزتي المسكينة! لم أفكِّر في ذلك قط».

«ونظرًا لأنَّ ممتلكاتها جميعها صارت ملكك، فلك الحق أنْ تتصرَّف بها كما تشاء. وأريدك أن تمنحني الإذن لقراءة كل أوراق الآنسة لوسي ورسائلها. وهذا ليس فضولًا عبثيًا، صدقني. لدي دافعٌ لفعل ذلك، وكن على يقينٍ أنَّها كانت ستوافق على ذلك. كلُّ أوراقها ورسائلها معي هنا. وقد أخذْتُها قبل أن أعرف بأن ملكية كل شيء قد آلت إليك، حتَّى لا تلمسها يدٌ غريبةٌ، وحتى لا تستطيع عينٌ غريبةٌ أن تلج إلى روحها من خلال الاطلاع على

ما كتَبَتْهُ من كلمات. سأحتفظ بها بعد إذنك، حتَّى وإنْ لم تطَّلع أنتَ عليها بعد، ولكني سأبقيها آمنة. ولن تَضِيْعَ منها حتَّى ولو كلمة واحدة، وسوف أعيدها إليك في الوقت المناسب. أعرف صعوبة ما أطلبُه منك، ولكنك ستلبِّي طلبي، أليس كذلك، من أجل خاطر لوسي؟».

رفع أرثر وتيرة صوته وقال بنبرةٍ صادقةٍ، مثلما اعتاد أن يكون:

«دكتور ڤان هيلسنغ، لكَ أن تفعل ما تشاء. وأنا أشعر وأنا أقول ذلك بأني أفعل ما كانت ستوافق عليه خطيبتي الغالية. ولن أزعجَكَ بالأسئلةِ حتى يحين الوقت».

نهض البروفسور العجوز وهو يقول بنبرة جدية:

«وأنت محقٌّ. الألم ينتظرنا كلنا. ولكنه لن يكون كله ألمًا، كما لن يكون هذا الألم آخر ألمٍ نتألمه. سنضطر نحن وأنتَ أيضًا -وأنتَ أكثر منًّا، يا بني العزيز- إلى خوضِ الأمواج الهائجة قبل أن نصل إلى برِّ الأمان. ولكن علينا أن نتحلَّى بشجاعة القلب وننبذ هوى النفس، وأن نقوم بواجبنا، عندها سيكون كل شيء على ما يرام!».

نمتُ على الأريكةِ في غرفة أرثر تلك الليلة. أما ڤان هيلسنغ فلم يخلد إلى النوم بَتَاتًا. ذرع المنزلَ جيئة وذهابًا، وكأنَّه في دوريةٍ حراسة، ولم تغب عن ناظريه قطُّ الحجرةُ التي رقدت فيها لوسي في تابوتها، وقد تناثَرتْ فوقَه زهور الثوم البري، التي أرْسَلَتْ رائحةً ثقيلةَ الوطأة ولا تُحْتَمَل في جوف الليل، رائحةً ممتزجةً بعبيرِ الزنبق والورد.

٢٢ سبتمبر- في القِطَارِ إلى إِكْسِتَر. وجوناثان نائم.

تبدو لي آخر مرَّة كتبتُ فيها يوميَّاتي وكأنها البارحة فقط، ومع ذلك، ما أطول المدَّة التي تفصلُ بين تلك اللحظة والآن؛ بين اللحظة التي كُنْتُ فيها في وِتْبِي والعالم كلُّه أمام ناظريَّ، وجوناثان بعيدٌ عنِّي ولا أخبار عنه. وبين اللحظة الراهنة حيث؛ تزوَّجْتُ جوناثان، المحامي، والشريك في المؤسسة، والغني، وسيِّد رزقه، وحيث توفي السيِّد هوكنز ووُرِيَ الثرى، وتعرَّض جوناثان إلى نوبةٍ أخرى قد تضرُّ بصحتِه. ربما يسألني ذات يوم عن ذلك. إنَّ الأمورَ تسير من سيء إلى أسوأ. فقد قلَّت كفاءتي في الكتابة بأسلوب الاختزال -انظروا ماذا يفعلُه رغد العيش المفاجئ بنا- ولذا رُبَّما علي أيضًا أن أجدِّد مهارتي فيها مرة أخرى بتمرينٍ في كتابة هذه المذكَّرات على أي حال...

كانت مراسمُ الدَّفن في منتهى البساطة والوقار. لم يحضرها سوانا نحن والخَدَم، وصديقٌ قديمٌ أو اثنان من أصدقائه في إكْسِتَر، ووكيله اللندني، وسيد محترم جاء ممثلًا عن السيْر جون پاكستُن، رئيس الجمعيَّة القانونية المتَّحِدَة. وقفتُ وجوناثان يدًا بيد، وشعرنا بأنَّنا فقدنا أفضلَ وأعزَّ صديق لدينا...

عدنا إلى لندن بهدوءٍ، مستقلين حافلةً إلى منطقة هايد پارك كورنر. حسب جوناثان أنني سَأسَرُّ إذا ما ذهبتُ إلى درب رو برهةً، ولذا جلسنا ولم يكن هناك سوى عدد قليل جدًا من الناس، وكان

محزنًا وموحشًا رؤية هذا الكم الكبير من الكراسي الفارغة. ذكَّرَنا ذلك بالكرسي الفارغ في البيت، ولذا نهضنا ومشينا عبر شارع البيكاديلي. كان جوناثان ممسكًا بي من ذراعي، وهو الأسلوب الذي اعتاد أن يفعله في الأيام الخوالي أثناء ذهابي إلى عملي في المدرسة. كنت أشعر أنه سلوك غير مناسب بتاتًا، إذ أنه من غير المقبول أن تدرِّسي الفتيات الأخريات فن الإتيكيت واللياقة بتحذلق دون أن تلتزمي أنت شخصيًا بذلك، ولكنه جوناثان، وهو زوجي، كما أنه لم يرنا أي شخص نعرفه -ولن نكترث إذا ما رأونا- ولذا تابعنا مشوارَنا. كنتُ أنظر إلى فتاةٍ جميلةٍ جدًا، تعتمرُ قبَّعَةً دائرية كبيرة، جالسةً في عربةٍ تتسع لشخصين خارج محلات مجوهرات جوليانو، عندما شعرتُ بجوناثان يقبض على ذراعي بإحكام شديد حتى إنه آلمني، وقال هامسًا: «يا إلهي!» إني قلقةٌ عليه دومًا، إذ خشيت أن تُصيبه نوبةُ توتُّرٍ أخرى، ولذا التفتُّ إليه بسرعةٍ، وسألتُه عن سببِ اضطرابه.

كان وجهه شاحبًا جدًا، وبدت عيناه جاحظتين وهو يحدق بنظرة نصفها رعبٌ ونصفها الآخر دهشة، في رجلٍ نحيلٍ طويلٍ، ذي أنفٍ معقوفٍ وشاربين أسودين ولحية مدببة، رجلٍ كان ينظر بإمعانٍ أيضًا إلى الفتاة الجميلة. كان ينظر إليها بحدة إلى درجة أنه لم يلاحظ أيًا منا، ولذا تمعنت فيه جيدًا. لم يكن وجهُه سمحًا؛ بل متجهمٌ، قاسٍ، وشهواني، أسنانُه البيضاء الكبيرة، التي بَدَتْ شديدة البياض لأنَّ شفتيه شديدتا الحمرة، مدبَّبَةٌ مثل أنياب حيوان. ظل جوناثان يحدق به حتى خشيت أنه سيلاحظ ذلك. وخفت عليه أن يؤذيه، لأنَّه بدا شرسًا ومقرفًا جدًا. سألتُ جوناثان عن سبب

ارتباكه، وأجاب وهو يظن ظنًا أني أعرف الكثير عن الأمر مثلما يعرف هو:

«أو تعرفين من يكون الرَّجل؟».

قلتُ: «لا يا عزيزي، لا أعرفه، ومن يكون؟» بدا أن جوابه صدمني وأرسل الرعشة في جسدي، لأنه أجابني وكأنه لم يعرف أنه كان يتحدَّث معي، أنا مينا، وهو يقول:

«إنه الرجل ذاته!».

من الواضح أنَّ زوجي العزيز المسكين كان مرعوبًا من شيءٍ ما، مرعوبًا على نحوٍ كبيرٍ جدًا، وأجزم بأنه لو لم أكن معه فيستند عليَّ لسقط أرضًا. واصَلَ تحديقه؛ ثم خرج رجلٌ من المتجر ومعه طردٌ صغير أعطاه للسيِّدة فانطلقت. لم تبارحها نظرات الرجل المتشح بالسواد، وعندما تحرَّكَتْ العربةُ في البيكاديلي تبعَها في الاتجاه ذاته مستوقفًا إحدى العربات. تابع جوناثان النظر إليه وقال وكأنَّه يكلِّم نفْسَه:

«أظن أنَّه الكونت، ولكنه عاد شابًا. يا إلهي! لو كان ذلك صحيحًا! أوه، يا إلهي! يا إلهي! ليتني أعرف فقط! ليتني أعرف فقط!» كان جوناثان يكدِّرُ نفسَه كثيرًا حتَّى إني خشيت أن أسأله سؤالًا فأزيد من تفكيره في الموضوع، لذا بقيتُ صامتة. سَحَبْتُه بهدوء، وطاوعني بسهولة، وهو يمسك ذراعي. مشينا مسافة إضافية قصيرة، ومن ثم دَخَلْنَا متنزَّه غرين پارك وجلسنا برهة. كان يومًا حارًا على غير عادة أيَّام الخريف، وكان هناك مقعد مريح

في بقعةٍ مظللة. بعد التحديق بضع دقائق على غير هدى، أغمض جوناثان عينيه، وغطَّ بهدوءٍ في النوم، ورأسه على كتفي. حسبتُ أنَّ النوم أفضل راحة له، ولذا لم أزعجه. وبعد أن مرَّتْ حوالي عشرين دقيقة استيقظ، وقال مبتهجًا إلى حدٍ ما:

«لماذا نمتُ يا مينا! أوه، سامحيني على وقاحتي الصارخة. تعالي، ولنشرب كأسًا من الشاي في مكانٍ ما». من الواضح أنه نسي كل شيء عن الغريب المتَّشحِ بالسَّواد، مثلما نسي أثناء مرضه كل ما ذكَّرَتْه به هذه الواقعة. لا أَحبُّ هذا السقوط في هاوية النسيان، إذ يمكن لذلك أن يسبِّب بعض الأذى لدماغه. عليَّ ألا أسأله، خشية أن أضره أكثر مما أنفعه، ولكن يجب بطريقة ما أن أعرف وقائع رحلته إلى خارج إنجلترا. وأخشى أنّه قد آن أوان فتح تلك الرزمة من الرسائل والأوراق وأنْ أطَّلِعَ على ما كُتِبَ فيها. أوه، يا جوناثان، أعرف أنك ستسامحني إذا ما أخطَأْت، ولكني أفعل ذلك كرمى لخاطرك الغالي على نفسي.

لاحقًا- عدنا إلى البيت يلفُّنا الحزنُ بكلِّ ما في الكلمة من معنى، فقد بات المنزل خاليًا من الروح العزيزة علينا جميعًا، ولا يزال جوناثان شاحبًا ودائخًا تحت تأثير انتكاسةٍ خفيفةٍ ناجمةٍ عن مرضه، وقد وصلت للتو برقيَّةٌ من ڤان هيلسنغ، بصرف النظر عمَّن يكونه هذا الشخص، ويقول فيها:

«سيحزنكم سماع ذلك؛ توفيت السيدة ويستينرا قبل خمسة أيام، كما توفيت لوسي قبل البارحة. وقد دُفنتا هذا اليوم».

ربَّاه! أيَّة جبالٍ من الحزن العظيم تسكنُ تلك الكلمات القليلة! لقد رحَلَت السيِّدة ويستينرا المسكينة! ورحلت لوسي المسكينة! رَحَلَتَا، ولن ترجعا إلينا أبدًا! يا لحزن أرثر المسكين الغارق في التعاسة! أرثر الذي خسر عذوبة هاتين الغاليتين من حياته! فليعيننا الله جميعًا على مواجهة بلاءاتنا.

مذكَّرات الدكتور سيوَرْد

٢٢ سپتمبر- انتهى كلُّ شيء. عاد أرثر إلى منزل عائلته في رِنْغ، وأخَذَ معه كوينسي مورِس. كم هو مخلص هذا الصديق! إنني أعتقد من صميم قلبي أنَّه عانى كثيرًا بسبب وفاة لوسي مثل ما عانى أي واحدٍ منَّا، ولكنَّه حمَّل نفسه أعباء ذلك مثل رجلٍ من رجال الڤايكنغ الأفاضل. لو قُدِّرَ لأمريكا الاستمرار في إنجاب رجالٍ من معدنه، لصَارَت قوَّة من قوى العالم بالفعل. هيلسنغ مضطجعٌ، يرتاح استعدادًا لرحلته. سيرحل إلى أمستردام الليلة، ولكنه يقول إنه عائدٌ ليلة الغد، إذ يريد فقط القيام ببعض الإجراءات التي لا يمكن إلا أن يقوم بها هو شخصيًا. سيمرُّ بي بعدها إذا استطاع، ويقول إنَّ لديه عملًا يقوم به في لندن وربما يحتاج منه بعض الوقت. يا لصديقي المسكين! أخشى أن يكون إعياء الأسبوع المنصرم قد تسبَّبَ في انهيار قوته الجبَّارة التي لا تلين. فقد رأيتُ أنَّه لم ينفك طوال مدة الجنازة عن وضع قيودٍ فظيعة على كاهله. عندما انتهت كل مراسم الجنازة، كنا نقف

بجانب أرثر المسكين، الذي كان يتحدَّث عن دوره في العملية حيث نُقِلَ دمُه إلى عروق خطيبته لوسي، ورأيتُ وجهَ ڤان هيلسنغ يبْيَضُّ تارة ويَحْمَرُّ أخرى. كان أرثر يقول إنَّه باتَ يشعر منذ ذلك الحين أنهما زُوِّجَا فعلًا وأنها صارَتْ زوجته أمام الله. لم يبح أيٌّ منَّا بكلمة عن عمليات نقل الدم الأخرى، ولن نبوح بذلك. ذهب أرثر وكوينسي في سبيلهما سويةً إلى محطة القطار، وجئتُ أنا وڤان هيلسنغ إلى هنا. في اللحظة التي صرنا فيها وحدنا في العربة أطْلَقَ العنان لنوبةٍ منتظَمَةٍ من التصرفات الهستيرية. وقد أنكر منذ ذلك الحين أنَّهَا نوبات هستيرية، وأصرَّ على أنَّ ذلك لم يكن سوى روح الفكاهة التي تميِّزُه وهي تحاول أن تؤكِّد ذاتَها في ظل ظروفٍ عصيبةٍ جدًا. ضحك حتى بكى، واضطررتُ أن أغلق ستائرَ العربة لكيلا يرانا أحدٌ ويظن بنا سوءا. ثم بكى حتى ضحكَ. ثم ضحك وبكى معًا مثلما تفعل النساء. حاولتُ أن أكونَ حازمًا معه، كما يكون المرء حازمًا مع امرأة في مثل هذه الظروف، ولكن لا جدوى. فالرِّجَال والنساء مختلفون تمامًا في تعبيرهم عن القوة أو الضعف وهم في حالةِ ارتباك! ومن ثمَّ، وعندما تجهَّم وجهُه وعبس مرَّةً أخرى سألْتُه عن سرِّ فرَحِه، ولماذا يفعل ذلك في مثل هذا الوقت. وقد ردَّ بطريقةٍ تُعَدُّ ميزةً من مزاياه، لأنه كان ردًا منطقيًا ومُفْحِمًا وغامضًا. قال لي:

«آه، أنتَ لا تستوعبُ يا صديقي جون. لا تحسبني غير حزينٍ، رغم أنِّي أضحك. لقد رأيت! فقد بكيتُ حتَّى عندما خنقني الضحك. ولكن لا تظننَّ أنني حزينٌ تمامًا عندما أبكي،

لأنَّ الضحك يأتيني بذات الطريقة التي يداهمني فيها البكاء. وتذكَّر دائمًا أنَّ الضِحْكَةَ التي تَطْرُقُ بابَك وتقول لك: «أيمكنني الدخول؟» ليست بضحكةٍ حقيقيةٍ. لا، فالضحك مَلِكٌ، يأتي متى يشاء وكيفما يشاء. لا يطلب الإذنَ من أحدٍ، ولا يختارُ وقتًا مناسبًا. يأتي ويقول: «ها أنا ذا». تأمَّل حالي مثلًا، فقد انفطر قلبي على تلك الصبيَّةِ اللطيفة جدًا، وبذلتُ دمي من أجلها رغم أنني كبير السنِّ ومتعب؛ منَحْتُها وقتي، وأورَدْتُها مهارتي، وضحَّيتُ بساعات نومي، تاركًا تلبية احتياجات مرضاي الآخرين حتَّى أمنحها كل وقتي وجهدي ومهارتي. ومع ذلك أستطيع أن أضحك وأنا جالس قرب قبرها، أضْحَك عندما يُهال التراب على تابوتها وأقول لقلبي: «انبض! انبض!»، حتَّى يعيد إرسال الدم من وجنتيَّ. إنَّ قلبي ينزف على ذلك الشاب المسكين، الذي يبلغ سنُّه سنَّ ابني لو حلَّت عليَّ البركة العظيمة وقُدِّرَ له أن يعيش، ابني الذي يشبهه في شَعْرِه وعينيه. ها أنت يا صديقي تعرف الآن سبب حبِّي له كل هذا الحب. ومع ذلك فعندما يتفوه بأشياء تصيب قلبي كزوج في الصميم، وتجعل قلبي كأبٍ يشتاقُ إليهِ كما لا يشتاق إلى أي إنسان آخر -ولا حتَّى إليك يا صديقي جون، لأننا أبلغُ شأنًا في تجاربنا من أبٍ وابنه- ومع ذلك فحتَّى في مثل هكذا لحظةٍ يأتيني ملك الضحك ويصيح ويجأر في أذني قائلًا: «ها أنا ذا! ها أنا ذا!» حتى يعود الدَّم راقصًا ويحمل معه إشراقة الشمس التي حمَلَها معه إلى وجنتي. آه يا صديقي جون! يا له من عالَمٍ غريب، عالَمٍ حزين، عالَمٍ مليء بالبؤس والأحزان والمشاكل! ومع ذلك عندما يأتي ملك

الضحك يجعل كل تلك الأهوال تتراقص على اللحن الذي يعزفه. القلوب النازفة، والعظام الجافة في ساحة الكنيسة، والدموع التي تحرق الجفون وهي تنهمر؛ جميعُها تتراقَصُ على الموسيقا التي يعزفها بفمه العابس. وصدِّقني يا صديقي جون، كم جيِّدٌ ولطيفٌ أن يأتي ملك الضحك. آهٍ، فنحن معشر الرِّجال والنساء، مثل حبالٍ يشدها الإعياء والإجهاد بشتى الطرق. ثم تأتي الدُّموع، وتفعل بنا كما يفعل المطرُ في الحبال، إلى أن يصبح الإعياءُ شديدًا وننكسر. ولكن ملك الضحك يأتي مثل إشراقة الشمس، ويخفف الإعياءَ مرة أخرى، فنصبر على الاستمرار رغم تعبنا، أيًا كان ذلك التعب».

لم أشَأ أن أجرَحَه بالتظاهر بعدم فهم فكرته، ولكن، ونظرًا لأني لم أفهم بعدُ سبب ضَحِكِهِ، فقد سألته. وبينما أجابَنِي تجهَّم وجهُه أكثر، وقال بنبرةٍ مختلفةٍ إلى حدٍّ ما:

«أوه، لم يكن كل ما قلتُه سوى وليد السخرية القاسية، وليد هذه السيِّدة الجميلة المكلَّلة بالزهور، السيِّدة التي بدت جميلة جدًا كأنَّها الحياة ذاتها، حتى تساءلنا واحدًا تلو آخر إذا كانت ميتة حقًا، وهي راقدةٌ في ذلك القبر الرخامي الجميل في ساحة الكنيسة المنعزلة، حيث يرقد عددٌ كبير جدًا من أقاربها، راقدةٌ هناك مع والدةٍ تبادلت معها الحب، وذلك الناقوس المقدَّس يقرع «طِنْ! طِنْ! طِنْ!» طنَّاتٍ حزينة وبطيئة جدًا، وأولئك الرِّجال المقدَّسون، بثيابِهم البيضاء الملائكية، يتظاهرون بقراءة الكتب، ومع ذلك لم تنظر عيونهم طوال الوقت إلى صفحة الكتاب، وكنا جميعًا مطأطئي

الرؤوس. وكل ذلك من أجل ماذا؟ لقد ماتت فما الفائدة! أليس كذلك؟».

قلتُ: «حسنًا، فحتَّى لو كلَّفَنِي ذلك حياتي أيها البروفسور، فإني لا أستطيع أن أجدَ أي شيء أضحك عليه في كل ذلك. يا ويلي! فشرْحُك يجعله لغزًا أصعب من قبل. ولكن حتَّى ولو كانت مراسم الدفن مضحكة، فماذا عن أرثر المسكين ومعاناته؟ يا ويلي! لقد انكَسَرَ قلبُه بحق».

«الأمر كذلك. ألم يقل هو إنَّ نَقْلَ دمه إلى عروقها قد جعلها عروسَه حقًا؟».

«نعم، وكانت تلك فكرة لطيفة ومُطَمْئِنَة له».

«هذا صحيح قطعًا. ولكن ثمة صعوبة في الأمر يا صديقي جون. فإذا كان الحال كذلك، فماذا إذنْ عن الآخرين؟ هُوو، هُووا إذن فهذه السيدة اللطيفة جدًا متعدِّدَة الأزواج. حتى أنا وزوجتي المتوفية بالنسبة لي ولكنها حيَّة بحسب قانون الكنيسة -رغم عدم وجود منطق في ذلك، فقد غاب كل شيء منها- حتى أنا، الزوج المخلص لهذه الزوجة -التي لم تعد زوجتي- بت الآن متعدِّد الزوجات».

«لا أرى أين النكتة في ذلك أيضًا!» قلتُ، ولم أشعر بالرضا لتلفظه بمثل تلك العبارات. وَضَعَ يده على ذراعي، وقال:

«يا صديقي جون، سامِحْني إذا آلمتكُ بكلامي. ما كنت لأظهر شعوري أمام الآخرين لو أنَّه كان سيجرَحُهم، ولكني لا أفعل ذلك

سوى أمامك يا صديقي القديم الذي أستطيع أن أثق به. فلو قُدِّرَ لكَ أن تنظر إلى أعماق قلبي عندما أريد أن أضحك، لو قُدِّرَ لَكَ أن تنظر إليه عندما تصل الضحكة. لو قُدِّرَ لكَ أن تنظر الآن، عندما يتخلَّى ملك الضحك عن تاجه، وكل الأشياء التي تنتمي له -لأنه يذهب بعيدًا، يذهب بعيدًا عني، ولمدة طويلة جدًا- لربما كُنْتَ أشفقتَ عليَّ أكثر من أي إنسانٍ آخر».

تأثَّرْتُ كثيرًا بحنو نبرته، وسألته عن سرِّ ذلك.

«لأني أعرف!».

هنا افترقنا، ولأيام طويلة ستحلق الوحدة فوق سطوح منازلنا فاردةً أجنحتها. لوسي راقدةٌ في أحد قبور مقبرة عائلتها التي تتخذ شكل مدفنٍ فخمٍ في ساحة كنيسة معزولة بعيدة عن ازدحام لندن؛ حيث الهواء عليل، والشمس تشرق فوق منطقة هامپستِد هِلْ، وحيث تنمو الزهور البرية من تلقاء نفسها.

لذا يمكنني أن أختتم الكتابة في هذه المذكَّرات. والله وحده يعلم إذا ما قُدِّرَ لي أن أشرع في كتابة مذكَّرات غيرها. وإن فعلتُ، أو حتَّى لو فقط فتحت المذكَّرات مرة أخرى، فسيكون ذلك تعاملًا مع أناسٍ مختلفين ومواضيع مختلفة، لأنني أقول هنا في النهاية، حيث حكيتُ رومانْسيات حياتي، وقبل أن أعاود الانهماك في شؤون أعمالي الدنيوية، أقولُ بحزنٍ ودونما أمل:

«النهاية»

صحيفة ذا ويستمينستر غازيت، ٢٥ سبتمبر

لغزُ هامپستِد

يشهد حيُّ هامپستِد في هذه الأيام بالذات سلسلةً من الأحداث التي يبدو أنَّها تسير بصورة مماثلةٍ لتلك الأحداث التي كانت معروفةً بين كُتَّابِ عناوين الصحف بعناوين مثل «رعب كينسنْغْتُن» أو «المرأة القاتلة» أو «المرأة المتشحة بالسواد». فخلال اليومين أو الثلاثة أيام المنصرمة حدَثَت عدَّة حالات لأولادٍ صغارٍ وقد ضلوا الطريق عن بيوتهم أو تجاهلوا العودة لمنازلهم بعد اللعب في المرج. وفي كل هذه الحالات كان الأطفال أصغر من أن يقدروا على تقديم تفسير واضح لحالاتهم، ولكن نقطة الاتفاق بمختلف أعذارهم هو أنهم كانوا مع «سيِّدةٍ جميلة». وقعت هذه الأحداث دائمًا في وقتٍ متأخر من المساء عندما فُقِدُوا، وفي حالتين من الحالات لم يُعْثَر على الأطفال حتى وقِت مبكرٍ من صباح اليوم التالي. تسود الظنون بصورة عامة في الحي بأنه ونظرًا لأن أول طفل فُقِدَ قال أن سبب اختفائه يتمثَّل بأن «سيِّدةً جميلة» طلبت منه الذهاب في مشوارٍ معها، فقد تلقَّفَ بقية الأطفال العبارة واستخدموها كعذر مناسبٍ لما حصل معهم. وهو أمر طبيعي لأن لعبة الصِّغار المفضلة حاليًا هي قيامهم باستدراج بعضهم البعض بعيدًا من خلال الحِيَل. ويقول مراسِلُنا إنَّه من المضحك جدًا أن نرى بعضًا من الأطفال الصغار يدَّعون بأنهم «السيدة الجميلة». وقد علّق أنه يمكن لبعض من رسامي الكاريكاتير في صحيفتنا، أن يتعلَّمُوا درسًا في السخرية المثيرة من خلال مقارنة الصورة بالواقع.

وذلك يتَّسقُ فقط مع المبادئ العامة للطبيعة البشرية التي تقول بأنه ينبغي «للسيدة الجميلة» أن تكون صاحبة الدور الشعبي في هذه العروض التي تُقَام في الهواء الطلق. ويقول مراسلنا بسذاجة إنه لا يمكن حتَّى لإيلين تيري[1] أن تكون جذابة بمثل الطريقة التي يدَّعيها أو حتى يتخيل أنفسهم بها، بعض هؤلاء الأطفال الصغار ذوي الوجوه القذرة.

وهناك، على أي حال، احتمالٌ لجانبٍ خَطِرٍ في المسألة، لأنَّ بعضَ الأطفال، وهم فعليًا كل الأطفال الذي فُقِدُوا في الليل، خُدشوا أو أصيبوا بجروحٍ على نحو خفيف في رقابهم. وتبدو الجروح وكأنَّها حَدَثَتْ بفعلِ جرذٍ أو كلبٍ صغير، وعلى الرغم من أن ذلك ليس بذي أهمية كبيرةٍ على مستوى كل حالة، فإنَّ الجروح تميل لأن تُظْهِرَ بأنَّه كائنًا من يكون الحيوان الذي تسبب بهذه الجروح فإنَّ له نمطًا أو أسلوبًا يسير على منواله. وقد صدرت الأوامر إلى شرطة المنطقة بتشديد الرقابة على الأطفال التائهين، وخصوصًا الصغار جدًا منهم، في مرج هامپستد هيث وفي محيطه، وكذلك على أي كلب ضال قد يكون قريبًا منهم.

---

(١) أَلِسْ إيلين تيري (١٨٤٧ - ١٩٢٨): ممثلة إنجليزية كانت رائدة أدوار الشخصيات النسائية الشكسپيرية في بريطانيا.

صحيفة ويستمينستر غازيت، ٢٥ سبتمبر.

تقرير إضافي خاص

رعب هامپستد

إصابة طفل آخر بجراح

«السيِّدة الجميلة»

تلقينا للتو معلومات سرية تفيد بأن طفلًا آخر، وكان قد فُقِدَ الليلة الماضية، لم يُعْثَر عليه سوى في وقت متأخر في الصباح تحتَ أجمة شجيرات جَوْلَق في منطقة شوترز هِل الواقعة في طرف مرج هامپستد هِلْ، وهو موضع ربما لا يلعب فيه أطفال كثيرون مثل المناطق الأخرى. ووجدوا على رقبة الطفل الجرحَ الصغيرَ ذاتَه الذي لوحظ في الحالات الأخرى. كان الطفل ضعيفًا بصورة رهيبة، وبدا هزيلًا إلى حدٍّ كبير. وعندما تعافَى جزئيًا، حكى أيضًا، القصة المعروفة عن استدراج «السيِّدة الجميلة» له.

الفصل الرابع عشر

يوميَّات مينا هاركر

٢٣ سبتمبر- تحسَّنَتْ حال جوناثان بعد ليلة سيئة مرَّ بها. إنني سعيدة جدًا إذ باتَ لديه الكثير من العمل ليقوم به، فذلك يُشْغِل فكرَه عن الأمور الفظيعة، كما أنني فرِحةٌ لأن مسؤولية منصبه الجديد لا تثقل كاهله الآن. وأنا أعرف أنه سيكون واثقًا من نفسه، ويا لفخري الآن وأنا أرى جوناثان يرتقي إلى ذروة تطوُّرِه ويحافظ على إيقاعٍ ثابتٍ بشتى السبل في ظل الواجبات التي ألقيت على كاهِلِه. سيقضي اليومَ بأكمله في الخارج حتى وقتٍ متأخر، إذ قال إنَّه لن يستطيع تناول الغداء في البيت. لقد فرغْتُ من أعمال المنزل، ولذا سأُخْرِجُ دفتر يوميَّاته التي كتبها أثناء سفره خارج إنجلترا، وسأقفل الباب على نفسي في حجرتي وأقرأ ما فيه...

٢٤ سبتمبر- لم تأتِني الرغبة في الكتابة الليلة الفائتة؛ فتلك اليوميات الرهيبة التي كتبها جوناثان قضَّت مضجعي كثيرًا. يا عزيزي المسكين! ويا لشدَّةِ ما مرَّ به من معاناة! سواءٌ أكانَ ما حصل معه حقيقيًا أو محضَ خيال فحسب. وأستغربُ إذا كان ما

كتبَه في يوميّاتِه صحيحًا أساسًا. أيكون أصيب بحمّى في دماغه، ومن ثمَّ كتب كل هذه اليوميّات المرعبة، أو أنَّ لديه سببًا ما ليكتب كل ما جرى؟ أخال أنني لن أعرف، لأني لا أجرؤُ على مفاتحته في الموضوع... هذا علاوة على ذلك الرجل الذي رأيناه البارحة! فقد بدا جوناثان متأكدًا إلى حدٍّ كبيرٍ أنه يعرفه... مسكين زوجي! أظن أنَّ جنازةَ هوكنز أصابته بالاضطرب وعادَت بذاكرته إلى سلسة أفكار معينة.... إنه يصدِّقها كلَّها. أذكر أنَّه قال لي يوم عرسنا: «إلا إذا ما ألحت حاجة أو ضرورة أو غاية نبيلة تستدعي مني قراءة ما حصل في تلك الساعات المريرة، سواء كنت نائمًا فيها أم مستيقظًا، مجنونًا أم عاقلًا». ويبدو أنَّ تلك الساعات فيها خيطٌ من الاستمرارية... فذلك الكونت المرعب آتٍ إلى لندن... وإنْ حَصَلَ وجاءَ إلى لندن، بملايينها المزدحمة... فربَّما تنتظرنا مهمَّةٌ جسيمة، وإذا ما حصلت فلا ينبغي أن نتملص منها... يجب أن أتهيأ لذلك. سأحْضِرُ آلتي الكاتبة في هذه الساعة وأشرع في نقلِ محتوى يوميّاته عليها. ومن ثمَّ ينبغي لنا الاستعداد لتحرِّي الأمر عند اللزوم. وإذا دعت الحاجة، وإذا ما كنتُ مستعدة، فعندئذ لن يضطرب جوناثان المسكين، لأني أستطيع أن أكون لسانه وألا أدعه يتوتر أو يقلق بسبب ذلك على الإطلاق. وإذا ما حصل وتجاوزَ جوناثان التوتر فقد يرغب في أن يحكي لي قصَّته كاملة، ويمكنني أن أطرح عليه الأسئلة وأصل إلى الاستنتاجات، وأرى كيف يُمكِن لي أن أدخل الطمأنينة على قلبه.

رسالة من ڤان هيلسنغ إلى السيِّدة هاركر

٢٤ سبتمبر (رسالة سرية)

سيِّدَتي العزيزة،

أرجو أن تعذريني على رسالتي هذه، ذلك أنِّي صديقٌ بعيد جدًا وأودُّ أن أبلغك أنباءَ سيئة عن وفاة الآنسة لوسي ويستينرا. ونتيجةً لكياسة اللورد غودالمنغ، فقد فوَّضَنِي بقراءة رسائلها وأوراقها، لأني قلقٌ بشدة على مسائلَ بعينها، مسائلَ تُعدُّ مهمة جدًا. وقد وجدتُ بين رسائلها بعضَ الرسائل منكِ، وهي تُظْهِرُ حميمية صداقتكما ومقدار حبِّك الكبير لها. أوه يا سيِّدة مينا، إني لأتوسل إليك بذلك الحب، أن تمدي لي يد العون. وإني لأطلب منك ذلك لما فيه خير الآخرين -لتصحيح خطأٍ كبيرٍ، ولإزالة الكثير من الأهوال المرعبة- التي قد تكون أعظم بكثير مما يمكنك معرفته. أو يمكنُ أن ألتقيك؟ يمكنك أن تثقي بي. فأنا صديقُ الدكتور جون سيورِدْ واللورد غودالمنغ (أي أرثر خطيب لوسي). عليَّ أن أكتم الأمر عن الجميع في الوقت الحالي. ينبغي لي المجيء إلى إِكْسِتَر لرؤيتكِ من فوري بمجرد أن أحظى بشرف قبولك، وبعد أن تخبريني بمكان اللقاء وموعده. وإنِّي لأستميحكِ عذرًا يا سيدتي، فقد قرأت رسائِلَك المرسلة إلى لوسي المسكينة، وعرفْتُ مقدار طيبتك ومدى معاناة زوجك، ولذا أرجوكِ إذا أمكن ذلك، ألا تخبريه بأمر هذه الرسالة، لكيلا يتسبب ذلك في وقوع ضرر ما. أستميحكِ عذرًا مرة أخرى، راجيًا منك العفو.

ڤان هيلسنغ

برقية من السيِّدة مينا هاركر إلى ڤان هيلسنغ

٢٥ سبتمبر- تعالَ اليوم في قطار الساعة العاشرة والربع إذا استطعتَ اللحاق به. ويمكنني أن أراكَ في أي وقتٍ تصل فيه.

ويلهيلمينا هاركر

يوميَّات مينا هاركر

٢٥ سبتمبر- لا يسعني سوى أن أشعر بحماسةٍ هائلة مع اقتراب موعد زيارة الدكتور ڤان هيلسنغ، لأني أتوقَّع أنَّها ستسلِّطُ الضوء بطريقة ما على تجربة جوناثان المحزنة، ونظرًا لأنه اعتنى بلوسي في لحظات مرضها الأخيرة، فيمكنه أن يحكي لي كل شيء عنها. هذا سبب مجيئه؛ الأمرُ يتعلق بلوسي ومسألة مشيها أثناء النوم، ولم يأتِ لبحث أمر جوناثان. لذا لن أعرف الحقيقة الآن! يا لي من سخيفة! فتلك اليوميَّات الفظيعة تُحكِمُ قبضَتَها على خيالي وتَصبُغُ كلَّ شيءٍ بمسحة من لونها الخاص. إنه قادم بالطبع لبحث أمر لوسي. فقد عاودتْ تلك العادةُ عزيزتي المسكينة، ولا بدَّ أن تلك الليلة المخيفة التي قضتها على الجرف أمرَضَتْهَا. وكدتُ أنسى في خضم انشغالي بأموري الخاصة كيف أنها مرضت بعد تلك الواقعة. لا بدَّ أنها حكت في مذكراتها عن مغامرتها بالمشي أثناء نومها على الجرف، وقالت إنِّي أعرفُ كل صغيرةٍ وكبيرةٍ عن ذلك، وهو يريدني الآن أن أخبره بما تعرفه لوسي علَّه يستطيع استجلاء المسألة. آمل أن أكون قد فعلتُ الصواب في عدم قول أي شيء

عن القضية للسيِّدة ويستينرا، وينبغي لي ألَّا أسامح نفسي أبدًا إذا ما تسبَّب أي تصرف تصرَّفْتُه، حتى ولو كان تصرُّفًا سلبيًا، بالأذى للعزيزة لوسي المسكينة. كما آمل أيضًا، ألَّا يلومني الدكتور ڤان هيلسنغ، فقد مرَرْتُ بكثيرٍ من الاضطراب والقلق مؤخَّرًا حتى بتُّ أشعر بأنه لا طاقة لي بتحمُّل المزيد في الوقت الحالي.

أظن البكاء يفيدنا أحيانًا، فالدموع تنقي الجسدَ كما ينقي المطر الهواء. ربَّما تكون قراءة يوميَّات جوناثان البارحة هي سببُ جزعي، إضافة لذهاب جوناثان هذا الصباح ليبقى بعيدًا عني ليوم كامل وليلة، وهي أول مرة نفترق فيها منذ زواجنا. تغمرني الآمال بأن زوجي العزيز سيعتني بنفسه، ولن يحدث له ما يعكِّر صفوه. الساعة الآن الثانية، وسيصل الدكتور ڤان هيلسنغ إلى هنا في الحال. لا ينبغي أن أذكر أي شيء عن يوميَّات جوناثان إلَّا إذا سألَنِي عنها. أنا مسرورةٌ جدًا لأني كتبتُ يوميَّاتي على الآلة الكاتبة، وهكذا في حال سألَنِي عن لوسي، يمكنني أن أعطيه أوراق يوميَّاتي، وسيوفر ذلك الكثير من الأسئلة.

لاحقًا- جاء الدكتور ورحل. أوه، يا له من لقاءٍ غريبٍ! لقد جعل رأسي يصاب بالدوار! أشعر كما لو كنت في حلم. أيمكن أن يكون كل ذلك ممكنًا، أو حتَّى جزءً منه؟ لو لم أقرأ يوميات جوناثان أساسًا، لما كنتُ قبلت حتَّى احتمالية حدوث ذلك. مسكين، مسكين عزيزي جوناثان! لا بدَّ أنَّه عانى كثيرًا. وأرجو من الله ألَّا يصيبه كل هذا مرَّة أخرى. ينبغي لي محاولة إنقاذه منه، ولكن ربَّما يكون هناك عزاءٌ وعونٌ له -رغم أن ذلك قد يكون رهيبًا وفظيعًا من حيث

العواقب- إذا ما عرف على وجه اليقين بأنَّ عينيه وأذنيه وعقله لم تخدعه، وأن كل ما جرى معه صحيح. ربما يكون سبب ذلك أنَّ الشكَّ يسكنه، وأنه عندما يزول، بصرف النظر عن إمكانية إثبات الحقيقة عن طريق اليقظة أم الحلم، فإنه سيعود أكثر سعادة وأكثر قدرة على تحمل الصدمة. لا بدَّ أنَّ الدكتور ڤان هيلسنغ رجلٌ طيِّب وذكي طالما أنَّه صديقٌ لأرثر وللدكتور سيوِرْد، وطالما أنهما أحضراه كل تلك المسافة من هولندا ليعتني بصحة لوسي. أشعر بعد أن التقيتُه أنَّه رجلٌ طيِّبٌ ولطيف ومن معدنٍ كريم. حين يأتي غدًا سأستفسر منه عن جوناثان، ومن ثمَّ، بمشيئة الله، ربما سينتهي كل هذا الأسى والقلق نهايةً طيبةً. دائما ما فكرت بأنه عليَّ التدرُّب على إجراء المقابلات، فقد قال صديق جوناثان الذي يعمل في صحيفة «ذا إكْسِتَر نيوز» له إنَّ الذاكرة هي كل شيء في مثل هذا العمل، وإنَّ على من يُجْرِي المقابلةَ أن يكون قادرًا على أن يدوِّن تقريبًا كل كلمة يقولها الضيف، حتى لو تطلَّب الأمر منه تهذيب بعضٍ منها بعد ذلك. وهذه مقابلة نادرة توجب علي أن أحاول تسجيلَها حرفيًا.

كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف عندما سمعتُ قرعًا على الباب. شددت من عزيمتي وانتظرت. وما هي إلا بضع دقائق حتى فَتَحَت ميري البابَ قائلة: «إنَّه الدكتور ڤان هيلسنغ».

نهضتُ وانحنيت احترامًا، أقبل نحوي؛ وهو رجلٌ متوسط الوزن، ذو بنية قوية، كتفاه متوضِّعَان فوق صدر غائرٍ عريضٍ ورقبة متوازنة على جذعه مثلما الرأس متوازنٌ على الرقبة. يوحي اتزان الرأس برجاحة الفكر وقوة الشخصية، والرأس يشي بالنبل،

متناسب الحجم، واسع، ويكبر وراء الأذنين. الوجه حليق، بذقن مربَّعَة صلدة، وفمٌ سريعُ الحركة، ثابت وكبيرٌ، وأنفٌ ذو حجمٍ لا بأس به، استقامتُه تغلب ميلانه، ولكن فيه منخاران حساسان سريعا الحركة، يبدوان وأنهما يتوسَّعَان مع انسدال الحاجبين الكثيفين والفم المشدود. جبينُه عريضٌ ناعمٌ، يرتفع في البداية مستقيمًا تقريبًا ومن ثم ينحدِر إلى الوراء فوق نتوئين أو حافتين متباعدتين، وهو جبين لا يمكن للشعر المحمرِّ أن يتدلى فوقَه، بل يهبط بصورة طبيعية إلى الوراء وإلى الجانبين. عيناه الزرقاوان الغامقتان الكبيرتان متباعدتان، وسريعتا الحركة ولطيفتان أو حازمتان حسب تقلُّبَات أهوائه. قال لي:

«أنتِ السيِّدة مينا هاركر، أليس كذلك؟» انحنيتُ بالإيجاب.

«وهي ذاتها التي كانت الآنسة مينا موراي؟» أومأتُ بالإيجاب مرَّة أخرى.

«جئتُ للقاء الآنسة مينا موراي التي كانت صديقة لتلك الفتاة العزيزة المسكينة لوسي ويستينرا. يا سيِّدة مينا، جئتُ بسبب الفقيدة».

قلتُ: «يا سيِّدي، لا يمكنكَ أن تبلغ أسمى منزلة من أنك كنت صديقًا للوسي ويستينرا وعونًا لها». ومدَدْتُ له يدي. فصافحني وقال بلطف:

«أوه، يا سيِّدة مينا، أعرف بأن صديقة تلك الفتاة المسكينة لا بدَّ أن تكون صديقة طيبة، ولكن كان عليَّ أن أعرف ذلك وحسب...»

أنهَى كلامه بانحناءةٍ مُهذَّبَة. ثمَّ سألتُه عن الموضوع الذي أراد أن يلتقيني بسببه، ولذا بادر من فوره قائلًا:

«لقد قرأتُ رسائلَك التي أرسلتها إلى الآنسة لوسي. أرجو أن تسامحيني على ذلك، ولكني اضطررت لأن أبدأ التحرِّي من موضع ما، ولم يكن هناك أحدٌ أسأله عما جرى. أعرف أنَّك كنتِ معها في وِتْبِي. لقد احتَفَظَتْ بمفكرة تكتب فيها مذكَّراتها أحيانًا – ولا حاجة بكِ لأن تتفاجئي يا سيِّدة مينا، فقد شَرَعَت تكتب مذكَّراتها بعد أن غادرتِ وِتْبِي، وكان ذلك تقليدًا لكِ، وقد استدلت في تلك المذكرات على أن حدوث بعض الأمور المحددة كان بسبب مشيها أثناء النوم، حيث كَتَبَتْ أنَّك أنقذْتِ حياتها. ولذا فقد قَصَدْتُك إذن وأنا في حيرةٍ كبيرةٍ من أمري، وأطلب منك بلطفك العظيم جدًا أن تحكي لي كل ما تستطيعين أن تتذكريه».

«أظنني أستطيع يا دكتور هيلسنغ أن أحكي لك كل شيء عن المسألة».

«آه، إذن أنتِ تتمتعين بذاكرة جيدة فيما يخص الحقائق والتفاصيل؟ إذ لا تتمتَّع السيِّدات الشابات دائمًا بذاكرة جيدة».

«كلا يا دكتور، ولكني كتبتُ كل شيء وقت حصوله. وأستطيع أن أريك ما كَتَبْتُه إذا أحببت».

«أوه يا سيِّدة مينا، سأكون ممتنًا لكِ، بهذا ستؤدين لي معروفًا كبيرًا». لم أستطع مقاومَةَ الإغواء بإرباكه بعض الشيء –وأحسب أن مردَّ ذلك يرجع إلى شيء من مذاق التفاحة الأولى الذي ما يزال

باقيًا في أفواهنا معاشر النساء- ولذا أعطيتُه المذكَّرات المكتوبة بأسلوب الاختزال. أخذها بانحناءة امتنانٍ وقال:

«أيمكنني أنْ أقرأها؟».

«لكَ ذلك إنْ شئت»، أجبتُ متصنِّعةً الخجلَ بأقصى ما استطعت. فَتَحَها، وبان الارتباك على وجهه لحظة. ثم وقف وانحنى احترامًا وقال:

«أوه، يا لكِ من امرأةٍ ذكيةٍ جدًا! وأنا أعرف منذ زمن بعيد أنَّ السيِّد جوناثان رجل يستحق الامتنان، ولكن أترين! فزوجته حازت كل الخصال الحسنة. هلَّا شرفتني عظيم الشرف ومددتِ لي يد العون وقرأتِها لي؟ فللأسف! لا أجيد قراءة الكتابة المُختزلة». بقوله ذاك انتهت مزحتي الصغيرة واجتاحني مقدارٌ من خجل، ولذا أخذت النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة من علبة أدوات الخياطة وأعطيته إيَّاها قائلة:

«سامحني، فلم أستطع تحمُّل الأمر، ولكني ظننت أنك أردت السؤال عن لوسي العزيزة، وحيث أنك قد لا تمتلك الوقت الكافي للانتظار -ليس بسبب قلة وقتي، ولكن لأني أعرف أنَّ وقتك لا بدَّ ثمين- فقد طَبَعْتُهَا لك على الآلة الكاتبة».

أخذَها مني وقد ائتلقت عيناه وهو يقول: «أنت طيِّبة جدًا، وهل يمكنني قراءتها الآن؟ فربما أرغب في سؤالكِ بعض الأسئلة بعد أن أقرأها».

«بالتأكيد يمكنك ذلك. اقرأها بينما أطلب إعداد الغداء، ومن

ثم بإمكانك أن تطرح عليَّ الأسئلة ونحن نأكل». انحنى احترامًا ثم استرخى جالسًا في كرسي وظهرُه بعكس اتجاه الضوء وانغمس في قراءة الأوراق، بينما ذهبتُ للإشراف على إعداد الغداء ودافِعِيْ الرئيس في ذلك ألَّا أقلق راحته أثناء القراءة. عندما عدتُ، ألفيته يذرع الغرفة جيئة وذهابًا في عجالة، وجهه متأجج بالحماسة. ثم أسرَع صوبي وأمسك بكلتا يدي.

قال لي: «أوه يا سيِّدة مينا، كيف لي أن أصف مقدار ما أدين لك به من فضل؟ فهذه المذكَّرات كإشراقة الشمس. فهي تفتح لي البوابة على مصراعيها. أنا دائخٌ، بل مذهولٌ، بهذا النور المضيء، ومع ذلك تتدفَّق السُّحُبُ خلف الضوء في كل مرَّةٍ يبزغ فيها. غيرَ أنَّكِ لن تستوعبي، ولن تستطيعي أن تستوعبي ذلك. أوه، ولكني ممتنٌّ لكِ، فأنتِ مرأة ذكية جدًا، يا سيدتي» قال هذا بجدية بالغة، ثم أردف: «وإذا ما قُدِّرَ لأبراهام ڤان هيلسنغ أن يؤدي أي خدمة لكِ أو لأشخاص أعزاء عليك، فأنا واثقٌ أنك ستبلغينني بذلك. وسيكون من فرط سعادتي وسروري إذا ما تيسَّر لي أن أخدمك كصديق، وسأضع كل ما تعلمته في حياتي، وكل ما أملكه من مهارات تحت تصرفك وتصرف من تحبين. فالحياة فيها العتمة مثلما فيها الضوء، وأنت ضوء من تلك الأضواء. ستعيشين حياة سعيدة وحلوة، وستكونين نعمة من النعم التي أُرْسِلَت إلى زوجك».

«ولكنَّك، يا دكتور، تكيل لي المديح الكثير و... وأنت لا تعرفني».

«وكيف لا أعرفك! أنا العجوز أنا الذي أفنيتُ عمري كلَّه في دراسة الرجال والنساء، أنا الذي تخصَّصْتُ في الدِّماغ وكل ما ينتمي إليه وكل ما يتعلق به! أنا الذي قرأتُ مذكراتك التي كتبتِها لي بخط منمق على الآلة الكاتبة، حيث تفوح الحقيقة من كل سطر فيها. أنا الذي قرأتُ رسالتك العذبة جدًا والتي أبلغتِ فيها لوسي المسكينة بزواجك وثقتك بها، وتقولين إنِّي لا أعرفك! أوه يا سيِّدة مينا، فالنساء الطيِّبات يحكين طوال حياتهن، باليوم والساعة والدقيقة، مثل هذه الأشياء التي تستطيع الملائكة قراءتها، ونحن معشر الرِّجال، الذين نمنِّي النفس بمعرفة ما تحكين، فينا شيء من عيون الملائكة. إنَّ زوجك من معدنٍ أصيل، وأنت من معدنٍ أصيل أيضًا، فأنتِ موضع ثقة، ولا يمكن للثقة أن توجد في إنسان من معدنٍ وضيع. وزوجُك، طمئنيني عن زوجك. أهو في صحة جيدة؟ أذهبت عنه كل تلك الحمَّى ورجع قويًا ومعافى؟»
عَدَدْتُ سؤاله فرصةً سانحةً لكي أسأله عن جوناثان ولذا قلت له:

«لقد تعافى تقريبًا، ولكنه تأثَّر تأثرًا شديدًا بسبب وفاة السيد هوكنز» فقاطعني قائلًا:

«أوه، نعم، أعرف، أعرف. فقد قرأتُ رسالتيك الأخيرتين».

ثمَّ تابعتُ قائلة:

«وأحسب أن هذا أصابه بالتوتر، لأننا عندما كنَّا في لندن الخميس الفائت أصيبَ بنوعٍ من الصدمة».

«صدمة! مباشرة بعد أن أصيب بحمى في الدماغ! ذلك ليس بالأمر الحسن. أي نوع من الصدمة كانت؟».

«ظنَّ أنه رأى شخصًا أثار في ذاكرته ذكرى فظيعة، ذكرى أدَّت إلى إصابته بالحمَّى الدماغية». وهنا بدا أن التفاصيل برمتها اكتسحتني على حين غرة. الشفقة على جوناثان، والرعب الذي عاشه، واللغز المخيف برمته الذي يورده في يومياته، والخوف الذي يلفني دون أن يبارحني منذئذٍ؛ كلها سببت لي الاضطراب. وأحسب أنني أُصِبْتُ بنوبةٍ هستيريةٍ، لأني ألقيتُ بنفسي على ركبتي جاثيةً ورفعتُ يديَّ نحوه، وتوسَّلْتُ إليه أن يعيد الصحة إلى زوجي مرة أخرى. فما كان منه إلا وأن أمسك يديَّ وأنْهَضَنِي، وأجلَسني على الأريكة، وجلس بقربي ممسكًا يَدِي بيده وقال لي، أوهِ، قال لي بلطفٍ لا حدود له:

«ما حياتي سوى حياةٍ قاحلةٍ أمضيتها وحيدًا، حياةٍ مليئة بالعمل حتى لم يكن عندي وقتٌ كافٍ لأكون الصداقات، ولكن، ومنذ أن استدعاني صديقي جون سيوِرْد إلى هنا فقد تعرَّفْتُ بعددٍ كبير من الناس الطيِّبين وشهدتُ من النُبل الشيءَ الكثير حتى بتُّ أشعر أكثر من قبل -وقد زاد ذلك مع تقدمي في السن- بالوحدة التي تكتنف حياتي. صدِّقيني، إنني جئت إلى هنا مملوءًا بالاحترام لكِ، وها قد منَحْتِنِي الأمل -ليس أملًا في الغاية التي أسعى إليها، ولكن الأمل بأنه ما تزال هناك نساءٌ طيباتٌ يجعلن الحياة سعيدة- نساء طيبات، ربما لحيواتهن والحقائق التي يمتلكنها أن تكون درسًا مفيدًا للأطفال الذين سيولدون فيما بعد. إني لمسرورٌ، مسرورٌ، لأني

قد أكون ذا فائدة لكِ هنا، لأنه إذا كان زوجك يعاني، فهو يعاني ضمن نطاق ما درسته من معارف وما لدي من خبرات، وأنا أعدك بأني وبكل سرور، سأبذل في سبيله كافة ما أستطيع لجعل حياته قوية ومفعمة بالرجولة، ولأجعل حياتك سعيدة. والآن عليكِ أن تأكلي، فأنت منهكة القوى وربما نال منك القلق الزائد. ولا يُحبِّذ زوجك جوناثان أن يراك شاحبة جدًا، وما لا يحب أن يراه على حبيبته ليس في مصلحته. لذلك عليك أن تأكلي وتتبسمي كرمى لخاطره. لقد حكيتِ لي كل شيء عن لوسي، ولذا فلن نخوض في الأمر الآن كيلا يسبب ذلك التعاسة. سأبقى في إِكْسِتَر الليلة، لأني أريد التفكير مليًا فيما قلتيه لي، وبعد أن أمعن فكري في ذلك سأطرح عليكِ بعض الأسئلة، إذا سمحتِ لي. ومن ثمَّ، ستحكين لي عن مشكلة جوناثان أيضًا قدر ما تستطيعين، ولكن ليس الآن. عليكِ أن تأكلي الآن؛ وبعد ذلك ستحكين لي كل شيء».

بعد الغداء، وعندما عدنا إلى صالة الضيوف، قال لي:

«والآن احكِي لي كل شيء عنه». وعندما وصل بي الأمر لدرجة التحدُّث لهذا الإنسان المتعلم العظيم، بدأتُ أخشى أنه سيظنني حمقاء ضعيفة، وسيظن أن جوناثان مجنون -فتلك اليوميَّات غريبةٌ بأكملها- ولذا تردَّدْتُ في متابعة الحديث. ولكنه كان لطيفًا ومهذبًا جدًا، وكان قد وعد أن يساعدني، ووثقت به، ولذا قلت له:

«يا دكتور ڤان هيلسنغ، إنَّ ما سأخبرك به غريبٌ جدًا، لذا عليك ألَّا تضحك عليَّ أو على زوجي. فمنذ البارحة لم تفارقني

حالةٌ من حمَّى الشك، عليك أن تكون لطيفًا معي، ولا تظننَّ حتى إنني حمقاء لأني شبه مصدقة لبعض الأمور الغريبة جدًا». طمأَنني بسلوكه بالإضافة إلى كلماته عندما قال:

«أوه يا عزيزتي، لو تعلمين فقط مقدار الغرابة التي تكتنف المسألة التي جئت بخصوصها إلى هنا، لكنتِ أنتِ من ستضحكين. تعلَّمْتُ أَلَّا أقلِّل من شأن ما يعتقده أي إنسان، مهما بلغ مقدار غرابته. وقد حاولتُ أن أحافظ على عقل منفتح، وليست الأمور العادية في الحياة هي التي يمكنها أن تصيبه بالانغلاق، ولكن ما يغلقه هي الأمور الغريبة، الأمور الاستثنائية، الأمور التي تجعل المرء يحتار في كونها أمورًا مجنونة أم عاقلة».

«شكرًا لكَ، شكرًا لكَ ألف مرة! لقد أزلتَ حملًا عن دماغي. وإذا ما سمحتَ لي، فسأعطيك أوراقًا تقرؤها. إنها طويلة، ولكنني أعدتُ كتابتها على الآلة الكاتبة. وسوف تنبئك بكربي وكرب جوناثان. إنها نسخة عن يومياته التي كتبها عندما كان خارج إنجلترا، وكل ما حدث له في سفره. ولا أجرؤ على قول أي شيء عما فيها، ستقرؤها أنتَ بنفسك وتحكم. وعندما أراك بعدها، لربما، ستكون لطيفًا جدًا وتقول لي رأيك بما فيها».

«أعدكِ بذلك» قال وأنا أعطيه الأوراق، ثم أردف: «ينبغي لي أن آتي في الصباح، في أقرب فرصة ممكنة، لأراك أنت وزوجك إن سمحتم لي».

«سيكون جوناثان هنا في الساعة الحادية عشرة والنصف،

وعليك أن تتفضل إلى الغداء معنا ورؤيته في ذلك الحين، ويمكنك أن تلحق بقطار الساعة ٣:٣٤، الذي سيوصلك إلى پادنغتُن قبل الثامنة». أصابته الدهشة من معرفتي بمواعيد القطارات على الفور، ولكنه لا يعرف أني بوَّبْتُ مواعيد كافة القطارات الذاهبة إلى إكْسِتر والقادمة منها، بحيث يمكنني أن أساعد جوناثان في حال كان في عجلة من أمره.

وهكذا أخذ الأوراق معه ومضى، وجلستُ هنا أفكِّر؛ ولا أعرف بماذا أفكِّر.

رسالة (مكتوبة بخط اليد) من ڤان هيلسنغ إلى السيِّدة هاركر

٢٥ سپتمبر، الساعة السادسة

عزيزتي السيِّدة مينا،

لقد قرأتُ يوميَّات زوجك العجيبة. ويمكنك أن تنامي دون ريبة. فعلى غرابتها وفظاعتها المكتوبة بها، فهي *صحيحة*! وأقسم بحياتي على ذلك. ربما تكون مذكرات سيئة للآخرين، ولكن لا خوف عليه وعليك منها. إنه إنسان نبيل، ودعيني أخبركِ من واقع تجربة الرجال؛ إن رجلًا يفعل ما فعل من خلال النزول على ذلك الجدار والولوج إلى تلك الغرفة -يا إلهي، ومعاودة الكرَّة مرَّة أخرى- ليس برجلٍ تؤثر به الصدمة إلى الأبد. عقله وقلبه سَلِيمان، وأقسم على ذلك، حتى قبل أن أراه، ولذا فاطمأني بالًا. لدي الكثير من الأسئلة التي أود طرحها عليه بخصوص أمورٍ أخرى. إني

مبارك إذ جئت اليوم للقائك، حيث عرفتُ كل شيء دفعة واحدة حتى بتُّ حائرًا مرة أخرى، حائرًا أكثر من قبل، وعليَّ التمعن في الأمر.

صديقك الوفي

أبراهام ڤان هيلسنغ

رسالة من السيِّدة هاركر إلى ڤان هيلسنغ

٢٥ سبتمبر، الساعة السادسة والنصف مساءً

عزيزي الدكتور ڤان هيلسنغ،

أشكركَ جزيل الشكر على رسالتك اللطيفة التي أزاحت عن كاهلي عبئًا ثقيلًا. ومع ذلك، إذا كان ما ورد في يوميات جوناثان صحيحًا، فيا لهول الأشياء الرهيبة الموجودة في العالم، ويا له من أمر فظيع إذا ما كان ذلك الرجل، ذلك الوحش، قد وصل فعلًا إلى لندن! يخيفني التفكير بذلك. ولقد تلقيت هذه اللحظة، وأنا أكتب رسالتي هذه، برقيةً من جوناثان، يقول فيها إنه سيغادر في الساعة ٦:٢٥ الليلة من لونسِسْتُن وسيصل إلى هنا في الساعة ١٠:١٨، ولذلك لا ينبغي لي أن أخاف هذه الليلة. هلَّا تفضلت في ضوء ذلك، وبدلًا من المجيء لتناول الغداء معنا، أن تتفضل رجاءً بالمجيء على الفطور في الساعة الثامنة، إذا لم يكن هذا الوقت مبكرًا جدًا بالنسبة لك؟ ويمكنك أن تذهب، إذا كنت مستعجلًا، في قطار الساعة ١٠:٣٠، الذي سيوصلك إلى پادنغتُنْ في الساعة ٢:٣٥.

لا داعي للردِّ على رسالتي هذه، لأني إن لم أستلم منك ردًا عليها فسأفهم أنك ستأتي لتناول الفطور.

يطيب لي أن أحييك مرة أخرى

صديقتك المخلصة والممتنة لكَ

مينا هاركر

يوميَّات جوناثان هاركر

٢٦ سبتمبر- لم أفكِّر قط في أن أكتب في هذه اليوميات مرَّة أخرى، ولكن آن الأوان لأفعل ذلك. عندما وصلتُ البيت في الليلة الماضية كانت مينا قد أعدَّت العشاء، وبعد أن فرغنا من الأكل أخبرتني بزيارة ڤان هيلسنغ، وبقيامها بإعطائه دفْتَرَيْ المذكرات مطبوعين على الآلة الكاتبة، ومقدار القلق الكبير الذي اعتراها عليَّ. كما أرتني رسالة الدكتور ڤان التي يقول فيها إنَّ كل ما كَتَبْتُه في يوميَّاتي كان صحيحًا. يبدو أن ذلك خَلَقَ مني إنسانًا جديدًا. لقد كان الشك الذي يكتنف واقعية القصة برمتها هو ما أنشب براثن القلق فيَّ. فقد شعرتُ بالعجز، والكآبة، والضِّيق. لكن الآن وبعد أن عرفت، لم أعد خائفًا حتى من الكونت. لقد نجح في نهاية المطاف في مخططه للمجيء إلى لندن، وهو إذن الشخص ذاته الذي رأيته. صار أكثر شبابًا، كيف ذلك؟ ڤان هيلسنغ هو من سيميط اللثام عنه ويكشف سرَّه، لو كان حقًا بالصفات التي وصَفَتْه بها مينا. جلَسْنَا حتى وقت متأخر، وتحدثنا في المسألة على وجوهها كافة. ها هي مينا

ترتدي ثيابها، وما هي إلَّا بضع دقائق وأذهب إلى الفندق وأحضره معي...

أظنه تفاجأ برؤيتي. فعندما دخَلْتُ الغرفةَ التي كان فيها وعرَّفْتُه بنفسي، أمسكَني من كتفي، وأدار وجهي صوب الضوء وقال بعد تمعُّنٍ دقيق:

«ولكن السيِّدة مينا قالت لي إنَّك مريض، وبأنك أُصِبْتَ بصدمة». كان من المضحك جدًا أن أسمع هذا العجوز ذا الوجه الحاد الملامح الحليم الطباع وهو يطلق على زوجتي لقب «السيِّدة مينا». ابتسمتُ، وقلتُ:

«كنتُ مريضًا نعم، فقد أصبتُ بصدمة، ولكنَّك شفيتني سلفًا».

«وكيف ذلك؟».

«برسالتك التي أرسلْتَها إلى مينا الليلة الفائتة. لقد كنت في شك من أمري، وحينها صُبغَ كل شيء بصبغة من اللاواقعية، ولم أعرف ماذا أصدِّق، فلم أصدِّق حتى بالبرهان الذي منحتني إياه حواسي. ونظرًا لعدم معرفتي ماذا أصدِّق، لم أعرف ماذا أفعل، ولذا لم يكن أمامي من خيارٍ سوى الاستمرار في العمل الذي أصبح الآن روتين حياتي. ثم توقَّفَ الروتين عن جلب المنفعة لي، وفقدتُ الثقة بنفسي. يا دكتور، أنتَ لا تعرف ماذا يعني أن تشك في كل شيء، وحتى في نفسك. لا، أنتَ لا تشك، لا يمكنك أن تشك وأنتَ في هذا السن الذي بات فيه حاجباك على هذه الشاكلة». بدا مسرورًا، وضحك وهو يقول:

«هكذا إذن! فأنتَ ضليع في الفرَاسة. ها أنا أتعلم المزيد من وجودي هنا بمرور كل ساعة. وإنَّه لشرفٌ عظيم لي أن آتي لتناول الفطور. أوه يا سيدي، ستغفر لعجوزٍ إطراءَه، ولكن زوجَتَك نعمةٌ من نِعَم السماء». ما كنتُ سأمانع الإنصاتَ له يومًا بطوله وهو يمضي في كيلِ المديح لمينا، ولذا فإنَّ كلَّ ما فَعَلْتُه ببساطة الإيماء له برأسي موافقًا والإنصات لما قاله: «إنَّها امرأةٌ من نساءِ الله، وقد أبدَعَها بيدِه ليرينا نحن الرجال، وكذا النساء الأخريات، أنَّه يوجد جنَّةٌ يمكننا أن نَدْخُلَهَا، وأنَّ نورَها يمكن أن يكون هنا على الأرض. امرأةٌ صادقةٌ جدًا، لطيفةٌ جدًا، نبيلةٌ جدًا، وفيها شيء من حب الذات؛ ويحصُل ذلك، حتى أكون صادقًا معك، بدرجةٍ كبيرةٍ في مَنْ هُنَّ في مثلِ سنِّها، فهنَّ متشككات وأنانيات جدًا. أما بالنسبة لك يا سيِّدي، فقد قرأتُ كل الرسائل المُرْسَلَةِ إلى الآنسة لوسي المسكينة، وبعضها يتحدَّث عنك، لذا فأنا أعرِفك منذ بعض الأيام من خلال معرفة الآخرين بك، ولكني رأيتُ شخصيتك الحقيقية منذ الليلة الماضية. سوف تمد لي يدك، أليس كذلك؟ ولنبقى صديقين طوال حياتنا».

تصافَحْنَا، وكان متحمِّسًا ولطيفًا جدًا مما جعلني أكاد أشعر بالاختناق إلى حد ما.

ثم قال: «والآن، أيمكنني أن أطلب منك بعض المساعدة الإضافية؟ فأمامي مهمَّة عظيمة أؤدِّيها، وفي البدء يجب معرفة التفاصيل. يمكنك أن تساعدني في هذا الشأن. أيمكنكَ أن تقول لي ما الذي جرى قبل سفركَ إلى ترانسلفينيا؟ وربَّما أطلب منك لاحقًا

المزيد من العون، مساعدة من طبيعة مختلفة، ولكن في البداية هذا سيفي بالغرض».

قلت له: «انظر إليَّ يا سيِّدي، هل لما يجب عليكَ فعله علاقة بالكونت؟».

«هو كذلك» قال بجدية.

«أنا معك في ذلك إذن بكل جوارحي. ونظرًا لأنك ستسافر في قطار الساعة ١٠:٣٠، فلن يكون لديك وقت لقراءتها، ولكن ينبغي لي أن أحْضِرَ لك رزمة الأوراق. ويمكنك أن تأخذها معك وتقرأها في القطار».

بعد الفطور، رافقتُه إلى المحطَّة. وعندما افترقنا قال لي:

«ربما ستأتي إلى لندن إذا أرسلتُ في طلبك، وستصطحب معك السيِّدة مينا أيضًا».

«سنأتي كلانا عندما تُريد» قلتُ له.

كنتُ قد أحضرْتُ له صحف الصباح والصحف اللندنية الصادرة في الليلة الماضية، وكان يقلِّب الصحف بينما كنَّا نتحدَّثُ قرب شبَّاك العربة منتظرين انطلاق القطار. ثمَّ بدا على نحوٍ مفاجئٍ أنَّه لَمح خبرًا ما في صحيفةٍ منها، صحيفة «ذا ويستمينستر غازيت» -أعرفها من لونها- مما أصابه بشحوبٍ مطبق. فقد قرأ بإمعان أحد أخبارها، ثم زفر قائلًا لنفسه: «يا إلهي! يا إلهي![1] أبهذه السرعة!

---

(١) قالها بالألمانية: «Mein Gott».

أبهذه السرعة!» ولا أظنُّه انتبه لوجودي في تلك اللحظة. وما هي سوى لحظات بعدها إلَّا وصفر القطار منطلقًا في رحلته. أعادَه ذلك إلى صوابه، فمدَّ جسده خارج النافذة ولوَّح بيده، وهو يصيح: «بلِّغ تحيَّاتي القلبية للسيِّدة مينا، سأراسلك في أقرب فرصة ممكنة».

مذكَّرات الدكتور سيورد

٢٦ سبتمبر- في الحقيقة لا يوجد شيء اسمُه النهاية. لم يمضِ أسبوع عندما كتبتُ في مذكراتي «النهاية»، ومع ذلك ها أنا الآن أبدأ الكتابة من جديد مرَّة أخرى، أو بالأحرى سأتابع الكتابة من حيث انتهيتُ آخر مرَّة. فحتى ظهيرة اليوم لم يكن لدي سببٌ للتفكير بما جرى. لقد عادَ رينفيلد، في واقع الأمر، سليمَ العقل مثلما كان من قبل. عاد مجددًا لأكلِ الذُّباب، وكان قد بدأ للتو أكلَ العناكب أيضًا، ولذا لم يكن مصدر أي إزعاجٍ لي. تلقَّيْتُ رسالةً من أرثر، كَتَبَها يوم الأحد، واستنتجتُ منها أنَّه حافظ على رباطة جأشه على نحو مدهش، ويشدُّ من أزره كوينسي مورِس، وفي ذلك فائدة عظيمة جدًا، لأنَّ كوينسي ذاته بئرٌ فائضة من المعنويات العالية. كما أرسلَ لي كوينسي رسالة أيضًا، وأبلغَني فيها أنَّ أرثر بدأ يستعيد شيئًا ما من ابتهاجه الذي كان يلازمه في السابق، ولذا فقد ارتاح فكري بخصوصها. أما فيما يخصني، فقد كنتُ أباشر عملي بالحماسة التي اعتدتُ أن أعمل بها، بحيث يمكنني أن أقول إلى حدٍّ ما إنَّ الجرح الذي تركته لوسي المسكينة في نفسي بات مثل ندبةٍ لا تندمل. وعلى أي حال، فُتِحَت الآن الملفات كلها مرة أخرى،

والله وحده يعلم كيف ستكون النهاية. أظن أنَّ ڤان هيلسنغ يحسب نفسه يعرف أيضًا، ولكنه سيفشي السرَّ فقط في الوقت المناسب بما يكفي لشحذ الفضول. ذَهَبَ إلى إِكْسِتَر البارحة، وبقي هناك طوال الليل. وعاد اليوم، ودخل عليَّ الحجرة في حوالي الساعة الخامسة والنصف، ورمى عدد الليلة الفائتة من صحيفة «ويستمينستر غازيت» في يدي.

«ما رأيكَ في ما هو مكتوب فيها؟» سألَنِي ووقف شابكًا ذراعيه.

جُلتُ بنظري في الصحيفة لأني لم أعرف فعلًا ماذا يقصد، ولكنَّه أخذها مني وأشارَ إلى خبرٍ يتحدَّث عن أطفال استدرجوا بعيدًا عن منازلهم في هامپستد. ولم يحمل ذلك أي معانٍ مهمَّة لي إلى أنْ وصلتُ إلى نصٍّ يصف جروحًا وخْزيَّة صغيرة على رقابهم. فعصَفَت ببالي فكرة، ورفعتُ نظري صوبه. «ما رأيك؟» قال لي.

«تشبه الجروح التي على رقبة لوسي المسكينة».

«وماذا تستنتج من ذلك؟».

«أستنتجُ ببساطةٍ أنَّ هناك سببًا مشتركًا بين الحالتين. فأيًا يكن الشيء الذي جرَحَها فقد جرَحَهم». لم أفهم تمامًا جوابه إذ قال:

«ذلك صحيحٌ بصورة غير مباشرة، ولكنه غير صحيح بصورة مباشرة».

«ماذا تعني أيها البروفسور؟» سألتُه. فقد كنتُ أَمْيَلُ قليلًا إلى التعامل مع جديته باستخفاف -لأنَّه، في نهاية المطاف، يمكن لأربعة

أيَّام من الراحة والتحرُّر من القلق المتأجج الذي يقبض الصدر أن تساعد المرء في استعادة معنوياته- ولكن حين رأيتُ وجهَه كنت كمن أفاق من سكره. إذ لم يسبق أنْ بدا في مثل ذلك التجهُّم قط، ولا حتى في خضم يأسنا إبَّان بحث قضية لوسي المسكينة.

قلتُ له: «قل لي أنت! لا يمكنني المجازفة بإبداء رأيي. فلا أعرف من أي زاويةٍ أنظر إلى المسألة، وليس عندي معطيات أبني عليها حدسًا».

«أتقصد أن تقول لي يا صديقي جون، إنَّه لا يساورك أيُّ شكٍّ في السبب الذي أودى بحياة لوسي، ولا حتى بعد كل القرائن التي قدَّمْتُها أنا وليس فقط تلك التي وَضَعَتْهَا الأحداث بين أيدينا؟».

«ماتَتْ بسبب الإعياءِ العصبي الذي يعقب الخسارة الكبيرة في الدَّم أو فقْدانه».

«وكيف حصلت خسارة الدم أو فقدانه؟» هززت رأسي نافيًا عِلْمِي. فتقدَّم إلى الأمام وجلس قربي، وأردف قائلًا:

«إنك إنسانٌ ذكي يا صديقي جون وتزن الأمور بميزان العقل، وفطنتك لا تُجارَى، ولكنك مقيد بأحكامك المسبقة. إنك لا تسمح لعينيك أن تريا ولا لأذنيك أن تسمعا، وأي شيء خارج نطاق حياتك اليومية لا أهمية له. ألا تعتقد أن هناك أمورًا لا تستطيع فهمَهَا، ومع ذلك فهي موجودة، وأنَّ بعض الناس يرون أشياءَ لا يستطيع غيرهم رؤيتها؟ ولكن هناك أمور قديمة وجديدة لا يجب أن يتأملها البشر بعيونِهم، لأنهم يعرفون -أو يخالون أنهم يعرفون- بعضَ الأمور

التي حدَّثَهُم بها غيرهم من البشر. آه، إنه ذنب علمنا، إذ أنه يريد تفسير كل شيء، وإذا عجز عن ذلك، فإنه سيقول حينها بأنه ما من شيء ليُفسر. لكن ومع ذلك، نشاهد كل يوم نمو معتقدات جديدة، تتوهم نفسها جديدة، وهي في الواقع قديمة تدعي أنها جديدة، مثل السيِّدات اللطيفات في الأوبرا. وأظنك الآنَ لا تؤمن بانتقال الجسد. أليس كذلك؟ ولا تؤمن بالتجسُّد؟ أليس كذلك؟ ولا تؤمن بالأشباح؟ أليس كذلك؟ ولا بقراءة الأفكار. أليس كذلك؟ ولا بالتنويم المغناطيسي...».

قلتُ: «بل أؤمن، فقد أثبت شَارْكُوْ[1] ذلك على وجهٍ بينٍّ». ابتسم وتَابَعَ حديثه قائلًا: «إذن أنتَ مقتنع بذلك. صحيح؟ وبالطبع إذن، فأنت تفهم كيف يعمل التنويم المغناطيسي، ويمكنك أن تتبع فكر شاركو العظيم -وأسفاه أنه رحل عن عالمنا!- وتلج إلى داخل جوهر روح المريض الذي يؤثر عليه. أليس كذلك؟ إذن، يا صديقي جون، هل أفهم أنَّك ببساطة تقبل الحقيقة، ويرضيك أن تجعل من المسافة الفاصلة بين المقدمة المنطقية والاستنتاج مسافة فارغة؟ أليس كذلك؟ أخبرني إذن -فأنا تلميذ من تلامذة العقل- كيف لك أن تقبَل بالتنويم المغناطيسي وترفض قراءة الأفكار. دعني أقل لكَ يا صديقي، إنَّه توجد اليوم اكتشافات في علوم الكهرباء ما كانت لتحظى بتقدير الأشخاص ذاتهم الذين اكتشفوا

---

(١) جان-مارتن شاركو (١٨٢٥ - ١٨٩٣): طبيب فرنسي متخصص في الأمراض العصبية وأستاذ علم الأمراض التشريحي. واشتهر بمنجزاته في مجالي التنويم المغناطيسي والهستيريا.

الكهرباء، الأشخاص ذاتهم الذين كانوا سيُحْرَقون بتهمة الشعوذة قبل مدة زمنية ليست طويلة. إن الحياة مليئة بالألغاز دائمًا. فلماذا عاش متوشالح[١] تسعمئة عام، ولماذا عاش پار العجوز[٢] مئة وتسعة وستين عامًا، ومع ذلك لم تستطع تلك الفتاة المسكينة لوسي، أن تعيش حتَّى يومًا واحدًا وقد وهَبَها أربعةُ رجالٍ دماءَهم لتسري في عروقها الواهنة؟ إذ أنها لو عاشت يومًا واحدًا إضافيًا لأنقَذْنَا حياتَها. أوتعرفُ كل أسرار الحياة والموت؟ أوتعرفُ مجامع التشريح المقارَن برمتها وتستطيع أن تفسِّر سبب وجود خصال البهيمية في بعض البشر، وانعدامها لدى غيرهم؟ أيمكنك أن تفسِّر لي لماذا عاش ذلك العنكبوت الضخم قرونًا في برج الكنيسة الإسبانية العتيقة وكبر يومًا بعد يوم حتى استطاع، وهو نازل، أن يشرب زيت مصابيح الكنيسة كافة في الوقت الذي تموت فيه العناكب الأخرى وهي صغيرة وعلى الفور؟ أيمكنك أن تفسِّر لي لماذا في الپامپاس، نعم في الپامپاس وغيرها، ثمَّةَ خفافيشٌ تأتي في الليل وتفتح عروق الماشية والجياد وتمص دمها حتى تنشف؟ وهل يمكنك أن تفسر لي كيف توجد في بعض جزر البحار الغربية خفافيشٌ تتدلَّى من الأشجار طوال النهار، ويصفها أولئك الذين رأوها كأنها حبَّات جوزٍ عملاقة، وعندما ينام البحَّارة على ظهر المركب بسبب حرارة الجو، فإنها ترفرف مُنْقضَّةً عليهم، ومن ثمَّ

---

(١) رجلٌ ورد اسمه في التوراة وقيل إنه عاش ٩٦٩ عام.

(٢) تومَس پار (١٤٨٣ - ١٦٣٥): رجل إنجليزي قيل إنه عاش ١٥٢ سنة و٩ أشهر. وعاصر حكم عشرة ملوك وقد أمر الملك تشارلز الأول بدفنه في دير ويستمينستر.

يُعْثَرَ عليهم ميتين في الصباح وقد اجتاحهم البياض مثلما اجتاح الآنسة لوسي؟».

قلتُ، وقد أصابني الذعر: «يا الله العظيم، يا بروفسور! أتقصد أن تقول لي إنَّ لوسي عَضَّهَا خفَّاشٌ من أمثال تلك الخفافيش، وأنَّ ذلك الخفَّاش موجود بيننا هنا في لندن في القرن التاسع عشر؟» أشاح بيده طالبًا مني الصَّمْت، ثم أرْدَفَ قائلًا:

«أيمكنكَ أن تُفَسِّر لي لماذا تعيش السلحفاة عُمرًا أطول من أعمار أجيالٍ من البشر، ولماذا يبلغ الفيل من العمر حتى يرى سلالاتٍ وسلالاتٍ من ذريته، ولماذا لا يموت الببغاء فقط من عضَّة قطةٍ أو كلبٍ أو بسبب علة أخرى؟ أيمكنك أن تفسِّر لي لماذا يؤمن البشر في العصور والأماكن كافة بأنه توجد قلة قليلة من الناس الذي يعيشون عمرًا مديدًا دائمًا إذا ما واتَتَهُم الظروف، وبأن هناك رجالًا ونساءً لا يمكن أن يموتوا؟ إننا نعلم جميعًا -لأنَّ العلم يَضْمَنُ الحقيقة- أنه كان هناك ضفادع حُبِسَت في الصخور آلاف السنين، حُبِسَتْ في فجوة صغيرة جدًا تتسع لضفدعٍ فقط منذ كان العالم في ريعان شبابه. أوتستطيعُ أن تفسِّر لي كيف يمكن لدرويشٍ هندي فقير أن يجعل نفسه ميتًا وأن يدفنه قومه، ويُغْلَقَ قبره وتنمو حقول الذرة عليه، وتُجْنَى الذُّرة وتُقطَّع ثم تُزْرَعُ وتُجْنَى وتُقَطَّع مرَّة أخرى، ومن ثمَّ يأتي قومه ويزيلون الغطاء غير المكسور ويجدون الدرويش الهندي الفقير مستلقيًا هناك، حيًا غير ميت، بل إنه يقوم ويسير بينهم كما كان من قبل؟». وهنا قاطَعْتُه، فقد بتُّ في حيرةٍ من أمري، وها هو يُزْحِم عقلي بقائمته التي تضم كل الاحتمالات

الممكنة من غرائب الطبيعة مما أَهَبَ خيالي. دارت في بالي فكرة مواربة بأنه كان يعلِّمني درسًا ما، مثلما اعتاد ذلك في مكتبه في أمستردام، ولكنه اعتاد حينها أن يقول لي الشيء الذي كان يتحدَّث عنه، بحيث يمكن لي أن أحتفظ بالغاية من الفكرة في عقلي طوال الوقت. ولكنه الآن يُبْهِمُ عليَّ الأمر دون أن يخبرني ما هو ذلك الشيء، ومع ذلك أردت أن أتابعه، ولذا قلتُ:

«أيها البروفسور، دعني أكنْ تلميذك المدلَّل مرة أخرى. أعطني الفرضية بحيث يتسنى لي أن أطبِّق معرفتك وأنت تتابع حديثك. ففي الوقت الحالي أنا أجول بعقلي من فكرةٍ إلى أخرى مثل مجنون، وليس كما يتبع عاقلٌ فكرة بعينها. وأشعر وكأني مبتدئٌ يمشي متثاقلًا عبر مستنقع وسط الضباب، قافزًا من كتَّة عشبٍ إلى أخرى وأنا أبذل مجرَّد جهد أعمى للتحرك دون أن أعرف إلى أين أنا ذاهب».

قال: «يا لها من صورة بليغة! حسنًا، سأخبرك. إن فرضيَّتي تقوم على ما يلي: أريدُك أن تقتنع».

«أقتنع بماذا؟».

«تقتنع بأشياءَ لا تستطيع أن تقتنع بها. دعني أوضح الأمر. لقد سمعتُ ذات يومٍ بأمريكي عرَّف الإيمان قائلًا: «هو تلك المَلَكَةُ التي تمكننا من تصديقِ أشياء نعرف أنها غير صحيحة». وأنا عن نفسي، أتبع مذهب ذلك الرجل. فهو قَصَدَ من تعريفه أنه ينبغي لنا أن نملك عقلًا منفتحًا، وألا نجعل مقدارًا زهيدًا من الحقيقة يعرقل انتشار حقيقة أكبر، مثلما تعيقُ صخرةٌ صغيرةٌ عربةَ قطار. نحن

نصل إلى الحقيقة الصغرى أولًا. حسنًا! ونحتفظ بها ونقدرها حق قدرها، ولكن في الوقت نفسه يجب علينا ألَّا نجعلها تظن نفسَها الحقيقةَ المطلقةَ في الكون».

«إذن فأنت لا تريدني أن أسمح لبعض القناعات المسبقة أن تؤثر على تقبُّل عقلي لبعض المسائل الغريبة. هل فهمتُ الدرسَ على نحو صحيح؟».

«آه، فأنتَ لا تزال تلميذي المفضل، وكم هو مُجدٍ تعليمك. وحيث أنك راغب الآن في الفهم، فقد خطوتَ الخطوة الأولى نحو بلوغه. أنت تظن إذن أنَّ تلك الجروح الصغيرة جدًا في رقاب الأطفال أحدَثَها الكائن ذاته الذي أحدث الجروح في رقبة الآنسة لوسي؟».

«أظن ذلك». وقَفَ ثم قال بجدية:

«أنت مخطئ إذن. أوه، كان يمكن للأمر أن يكون على ذلك النحو! ولكن وأسفاه! الأمر ليس كذلك. بل هو أسوأ، أسوأ بمراحل بعيدة جدًا».

«ناشدتك بالله يا بروفسور ڤان هيلسنغ، ماذا تعني؟» صِحْتُ.

أَلقَى بجسده بحركةٍ يائسةٍ في الكرسي، ووضع مرفقيه على الطاولة، وغطَّى وجهه بيديه وهو يقول:

«تلكَ الجروح في رقاب الأطفال من فعل الآنسة لوسي!».

الفصل الخامس عشر

تتمة مذكَّرَات الدكتور سيوِرْد

لبرهة من الوقت استبد بي غضبٌ مستطير، إذ بدا ما قالَه وكأنَّه ضرَب لوسي على وجهها وهي حيَّة. ضربتُ الطاولة بعنفٍ ونهضتُ واقفًا وأنا أقول له:

«دكتور ڤان هيلسنغ، أمجنونٌ أنت؟» فرَفَع رأسه ونظر إليَّ، وهدَّأتْ سماحةُ وجهه من غضبي نوعًا ما على الفور، ثمَّ قال: «ليتَنِي كنتُ مجنونًا! فاحتمال الجنون أسهلُ من احتمال حقيقة مثل هذه. أوه يا صديقي، ولماذا تظن أنني سلَكْتُ تلك الدرب الطويلة، ولماذا استغرق الأمر منِّي وقتًا طويلًا جدًا حتى أخبرك بمثل هذا الأمر البسيط؟ أكان سببُ ذلك أنِّي أكرهك ولم ينقطع كرهي لكَ طوال حياتي؟ أكان سبب ذلك أني تمنيت أن أسبب لك الألم؟ أكان سبب ذلك أني أردتُ، وقد فات الأوان الآن، الانتقام منك لأنك أنقذتَ حياتي ذات مرَّة، وأنقذتني من ماذا؟ من موتٍ مرعب؟ لا وألف لا!».

«سامِحْنِي» قلتُ له، وتابعَ حديثه قائلًا:

«يا صديقي، سببُ ذلك أني تمنيت أن أكون لطيفًا في نقل الخبر لك، فأنا أعرف أنك كنتَ تحب تلك السيدة اللطيفة جدًا. ولكن حتى الآن لا أتوقع منك أن تصدِّق ما أقول. من الصعوبة البالغة أن يقبل المرء من فوره أي حقيقةٍ مجرَّدة، بحيث يمكن أن نشك في إمكانية حدوثها طالما آمنًّا على الدوام باستحالة حدوثها، كما أنه من الصعوبة البالغة أكثر أن تقبل حقيقةً ملموسةً مُحْزِنةً جدًا، وخصوصًا إذا كانت تمسُّ إنسانةً مثل الآنسة لوسي. سأذهب الليلةَ لإثباتها. أتجرؤ على المجيء معي؟».

أفزَعَنِي ذلك. إذ لا يحبِّذ المرء أن يُثْبِتَ حقيقة مثل هذه. وقد استثنى بايرُن الغيرةَ من هذا النصف من الحقائق عندما قال:

«ويُثْبِتَ الحقيقةَ الدامغةَ التي يبغضها أشدَّ البغض»[1].

قال إذ رأى تردُّدِي:

«إن المنطقَ الكامن وراء ذلك بسيط، وهو ليس بمنطقِ امرءٍ مجنونٍ هذه المرة؛ مجنونٍ يتقافز من كتَّة عشبٍ إلى أخرى في مستنقعٍ يكتنفه الضَّبَاب. وإذا لم يكن الأمر صحيحًا، ففي البرهان راحةٌ، ولا ضررَ منه في أسوأ الأحوال. وإذا كان صحيحًا! آه، فهنا الخوف، ومع ذلك فالخوف الشديد ينبغي له أن يدعّم حجتي، لأن فيه

(١) هذا البيت من قصيدة «دون جوان» للشاعر الإنجليزي لورد بايرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) حيث يصور هذا البيت مشهد الزوج الغاضب ومعه «المشاعل، والأصدقاء، والخدم بأعداد كبيرة» وقد اندفعوا إلى مخدع زوجته دونا جوليا حتى يثبت لنفسه الشيء الذي يبغضه أشد البغض؛ وهو ارتكابها للخيانة.

حاجة إلى التصديق. تعالَ أخبرك ماذا أقترح أن نفعل: أولًا، علينا أن ننطلق من فورنا الآن ونطَّلِعَ على حالة ذلك الطفل في المستشفى. الدكتور ڤينسنت، في مستشفى نورث هوسپتال، وهو المستشفى الذي تقول الصحف إنَّ الطفلَ موجود فيه، هو صديقي، وأظنه صديقك منذ أيام دراسَتِكَ في أمستردام. سيجعل عالِمَيْن يطَّلِعَان على حالة الطفل، إذا لم يسمح بذلك لنا كصديقين. ولن نقول له أي شيء، لا شيء سوى أنَّنَا راغبان في التعلُّم فقط. ومن ثمَّ...».

«ومن ثمَّ؟» أخرج مفتاحًا من جيبه وقال وهو يرفعه: «ومن ثمَّ سنقضي الليلة، أنا وأنتَ، في ساحة الكنيسة حيث ترقد لوسي. فهذا مفتاح قفل قبرها. وقد أخذته من الحانوتي حتى أعطيه لأرثر». جَفَ قلبي بين ضلوعي، إذ شعرتُ بأنَّ محنة قاسية مخيفة تنتظرنا. وعلى أي حال ليس باستطاعتي فعل شيء، لذا استجمعتُ ما تبقى لي من شجاعة وقلتُ له إنَّه من الأفضل لنا أن نسرع بالذهاب، إذ كان الوقت يمر وستنقضي فترة ما بعد الظهر...

وجدنا الطفل مستيقظًا. كان قد نام وتناول بعض الطعام وبدأ يتعافى كليَّة. أزاح الدكتور ڤينسنت الضماد عن رقبته وأرَانَا الجروح. لا يمكن للعين أن تخطئ تشابهها مع الجروح التي كانت على رقبة لوسي. ما خلا أنها كانت جروحًا أصغر، وبدت حوافها أنضر، هذا كل ما في الأمر. سألْنَا ڤينسنت عن رأيه في سبب تلك الجروح، وأجاب بأنها لا بدَّ عضَّة حيوان ما، ربما جرذًا، ولكن من وجهة نظره هو، فقد كان أمْيَل للظنِّ بأنها عضَّة خفَّاش من الخفافيش المنتشرة بأعدادٍ هائلة في المرتفعات الشمالية في لندن. إذ قال: «من

بين عددٍ كبيرٍ من الخفافيش غير الضارَّة، ربما يوجد نوعٌ متوحِّشٌ جاء من الجنوب يضم صنفًا أكثر شرًا. وربما يكون بعض البحَّارة قد جلبوه معهم إلى إنجلترا، وتمكَّنَ من الهرب. أو ربما يكون خفَّاشٌ صغيرٌ هرب من حديقة حيوان زولوجيكَل غاردنز، أو ربَّما توالَد أحدُها هناك من خفَّاشٍ مصاص للدماء. وهذه الأحداث تقع، كما تعلمان. فمنذ عشرة أيام فقط هرَبَ منها ذئبٌ، وأظنُّ أنهم اقتفوا أثره في هذا الاتجاه. لأنه وبعد أسبوع من ذلك، لم يكن الأطفال يلعبون أي لعبة سوى لعبة ليلى والذئب على المرج وفي كل زقاق من أزقة المنطقة إلى أن حلَّ رعب هذه «السيدة الجميلة» في المكان، ومنذ ذلك الحين باتت تأتي إليهم لتقضي معهم وقتًا سعيدًا. فحتى هذا الطفل الصغير المسكين، عندما استيقظ اليوم، سأل الممرضةَ إذا كان يمكنه الذهاب. وعندما سألَتْهُ عن سبب رغبته في الذهاب، قال إنَّه يريد اللعب مع «السيدة الجميلة»».

قال ڤان هيلسنغ: «أرجو منكَ أن تُحذِّرَ والدي الطفل عندما ترسله إلى بيته لكي يتَّخذا أقصى درجات الحيطة والحذر ويبقيانِه تحتَ أنظارِهما. فرغبتهم هذه في أن يهيموا على وجوههم هي أخطر ما في المسألة، وإذا ما بقي الطفل خارج البيت ليلةً أخرى، فسيكون الأمر مُهْلِكًا على الأرجح. ولكن في كل الأحوال أفترض بأنك لن تتركه يخرج من المستشفى لبعض الأيام؟».

«لا بالتأكيد، ليس قبل أسبوع على أقل تقدير، وستطول المدَّة إذا لم يُشفَ الجرح».

استغرَقَت زيارتنا إلى المستشفى وقتًا أطول مما توقَّعنا، وكانت الشمس قد غابت قبل أن نغادره. عندما رأى ڤان هيلسنغ مقدار الظلام الذي حلَّ، قال:

«لا داعي للعجلة. فجلُّ ما في المسألةِ أنَّ الوقت تأخَّر أكثر مما ظننت. تعال ودعنا نبحث عن مكان نأكل فيه، بعدها ينبغي لنا أن نتابع طريقنا».

تعشَّيْنا في مطعم نُزُلِ «جاك ستروز كَسِلْ» وكان معنا حشدٌ صغير من راكبي الدرَّاجات الهوائية وغيرهم ممن أحدثوا ضجيجًا بثَّ الأُنْسَ في المطعم. غادرنا في حوالي العاشرة. كان الظلام دامسًا وقتها، وزادت المصابيح المتناثرة من حلكة الليل حالما صرنا خارج نطاق إضاءتها. وكان البروفسور قد استطلع بصورةٍ واضحةٍ الطريق الذي سنسلكه، فقد مضى دون تردُّدٍ، ولكني كنتُ مرتبكًا إلى حدٍّ كبيرٍ في هذه الناحية من لندن. وبينما أوغلْنَا في سيرِنا، قلَّ عددُ من صادفناهم تدريجيًا، حتى تفاجأنا نوعًا ما حين صادَفْنَا دوريَّة خيَّالة الشرطة وهي تقوم بجولتها المعتادة في ضواحي لندن. وصلنا أخيرًا جدار سور ساحة الكنيسة وتسلَّقْناه. وبشيء من الصعوبة وجدنا مدفنَ أسرة ويستينرا، إذ كانت عتمة الليل حالكة، وبدا المكان برمَّتِه غريبًا جدًا علينا. أخرج البروفسور المفتاح وفتح به الباب الذي أحدَث صريرًا، تراجع إلى الوراء بأدبٍ، ولكن بطريقة لا إرادية إلى حدٍّ كبيرٍ، وأشار لي بالسير أمامه. ثمَّةَ سخريةٌ لطيفة في العرض الذي قدمه لي، إذ يجاملك المرء بإعطائك الأفضلية في مثل هذه المناسبة المخيفة. تَبِعَنِي بسرعةٍ، وسحَبَ الباب بحذر، بعد

أن تيقَّنَ بصورة متأنية أنَّ القفل من النوع الذي ينزلق إلى الأسفل وليس قفلًا ذا نابضٍ. فلو كان القفل ذا نابضٍ لكنَّا في ورطةٍ كبيرة. ومن ثمَّ بحث في حقيبته، وأخرَج منها علبة عيدان ثقاب وبقايا شمعة، وباشر إشعالها ليتخذ منها ضوءًا. كان القبر قد بدا في يوم الجنازة، وقد كُلِّلَ بالزهور النضرة، موحشًا ومرعبًا بما يكفي. ولكن الآن بعد مرورِ بضعة أيام، وقد تدلَّت الزهور طويلةً هزيلةً ذابلةً، وتحول بياضُها إلى لون الصدأ وخضرتها إلى البني، وبعد أن استأنَفَت العناكبِ والخنافس هيمنتهما المعتادة، وبعد أن عكس الحديد الصَّدِئ الشديد الرطوبة، والنحاس الباهت اللمعة، البريقَ الخافت للشمعة، صار القبر أشد بؤسًا وشحوبًا مما تخيَّلنَا. ويعكس ذلك فكرة أن الحياة -حياة الكائنات- لم تكن الشيء الوحيد الذي يمكن له أنْ يذوي.

انهمك ڤان هيلسنغ في عمله بصورة مدروسة ومرتبة، ممسكًا شمعته حتى يتسنَّى له قراءة لوحات التابوت، وظل ممسكًا بها على ذلك النحو حتى سال الشمع السائل في بقع بيضاء تصلَّبَت عندما لامست المعدن، وتأكَّد أنه تابوت لوسي. ثم بحث مرَّة أخرى في حقيبته، وأخرج منها مفكًّا.

«ماذا ستفعل؟» سألتُه.

«سأفتح التابوت. وستَقْتَنِعُ إثر ذلك بما قُلْتُه لكَ». شرع من فورِه يفكُّ البراغي، وأخيرًا رفعَ غطاء التابوت، وبان تحته الغلاف المصنوع من الرصاص. كان المشهد تقريبًا ذا وطأةٍ ثقيلة جدًا عليَّ.

وبدا أنَّه إهانة متعمدة بالغة للميتة وكأنك تُعرِّيهَا من ملابسها أثناء نومها وهي حيَّة. وقد أمسكتُ فعليًا بيده حتى أوقفه. لكنه اكتفى بالقول: «سترى»، ومن ثم بَحَثَ في حقيبته، وأخرجَ منشارًا صغيرًا. طرقَ بالمفكِّ على الرصاص نحو الأسفل طرقةً سريعة أفزَعَتني، وأحْدَث فجوةً صغيرةً لكنها كافية لتتسع لدخول رأس المنشار. توقَّعْتُ اندفاعَ موجة غازٍ من الجثَّة التي مرَّ أسبوعٌ على وفاةِ صاحِبَتها. فنحن الأطبَّاء، الذين يتوجب علينا نتوقع المخاطر، يجب أن نصبح معتادين على مثل هذه الأمور، فتراجعتُ إلى الخلف صوب الباب. لكن البروفسور لم يتوقف ولو لحظةً؛ نَشَرَ بالمنشار مسافةَ بضعة أقدامٍ على جهةٍ واحدة من التابوت، ومن ثم نَشَرَ بشكل عرضي، بعدها نَشَرَ نزولًا من الطرف الآخر. ثم أخذ طرف الحافة الناتئة المرتخية، وأعادها إلى الخلف نحو أسفل التابوت، وبينما رفع الشمعة وأدخلها في فتحة التابوت، أشار لي بأن أنظر داخله.

اقتربتُ ونظرتُ. كان التابوتُ فارغًا.

فاجئني ذلك بكل تأكيد وأصابني بصدمةٍ هائلةٍ، ولكنَّ ڤان هيلسنغ لم تهتز له شعرةٌ بسبب ما رآه. بل بات الآن متيقنًا أكثر من ظنونه، وجَسُورًا جدًا ليمضي في مهمته. قال لي: «أأنتَ مقتنعٌ الآن يا صديقي جون؟».

شعرتُ بأن كل ملكتي الطبيعية وقدرتي على الحجاج تستيقظ داخلي وأنا أجيبه:

«أنا مقتنعٌ أنَّ جثمان لوسي ليس موجودًا في ذلك التابوت، ولكن ذلك لا يثبت سوى أمرٍ واحد».

«وما هو ذاك يا صديقي جون؟».

«أنَّ الجثمانَ ليس في التابوت».

«ذلك منطقٌ سليمٌ، حسب المعطيات التي بين أيدينا حتى الآن. ولكن كيف لكَ -بل كيف تستطيع- أن تفسِّر عدم وجودِ جثمانها في التابوت؟».

قلتُ مقترحًا: «ربَّما سرَقَهُ نابشو القبور. وربَّما سرَقَه بعضٌ من جماعة الحانوتي». شعرتُ بحماقةِ ما قلتُه، ولكنه مع ذلك السبب الواقعي الوحيد الذي خَطَرَ في بالي. تنهَّدَ البروفسور وقال: «آه حسنًا! علينا أن نبحثَ عن قرائن أكثر. تعالَ معي».

وضَعَ غطاء التابوت في مكانِهِ مرَّةً أخرى، ثم لَمْلَمَ كلَّ أدواته في الحقيبة، وأطفأ ضوء الشمعة، ووضَعَهَا في الحقيبة أيضًا. فتَحنَا الباب، وخرجنا بعد أن أغلقَه وراءَنا وأوصدَه بالقفل. أعطاني المفتاح قائلًا: «هلَّا احتفظْتَ به؟ عسى أن يطمئنَّ قلبك». ضحكتُ - لم تكن ضحكة فرح ولا مناص لي من قول ذلك - وأنا أشير له أنْ يحتفظ به معه وقلتُ: «المفتاح لا أهمية له. فربما يكون هناك نسخٌ عنه، وعلى أي حال ليس من الصعب العثور على قفلٍ من ذلك النوع». لم ينطق بكلمة، واكتفى بوضع المفتاح في جيبه. ثم طلب مني أن أراقب أحدَ جانبي ساحة الكنيسة بينما سيراقب هو الجانب الآخر. اتَّخَذْتُ لي موضعًا وراء شجرة طقسوس، ورأيت عتمة

جسده تتحرَّك إلى أن حَجَبَتْه عن ناظري شواهد القبور والأشجار المتداخلة.

وهكذا سهرُت وحدي مراقبًا. وبُعيد أنْ اتَّخَذْتُ موضعي سمعتُ صوت ساعة بعيدة تدق معلنة منتصف الليل، ثم صارت الساعة الواحدة فالثانية. نَهَشَنِي البرد وثبطت همَّتِي فاستشطتُ غضبًا من البروفسور لاصطحابي في مثل هذه المهمة، وغضبًا من نفسي لأنِّي وافقْتُه على المجيء إلى هنا. منعني البرد والنعاس الشديدين من المراقبة الحثيثة، لكنه ليس نعاسًا شديدًا لدرجة أن أخون أمانة المهمة التي كلفت بها، ولذلك قضيتُ وقتًا تعيسًا ومرعبًا من أول المراقبة إلى آخرها.

فجأة، وبينما التفتُّ، حسبْتُ أني رأيتُ شيئًا ما مثل خطٍ أبيض يتحرك بين شجرتي طقسوس معتمتين في ناحية ساحة الكنيسة البعيدة عن القبر، وفي الوقت نفسه تحرَّكَت كتلةٌ سوداء من ناحية الأرض التي يراقب فيها البروفسور، وأسرَعَتْ صوبَ الخط الأبيض. بعدها تحرَّكتُ أنا أيضًا ولكني اضطررت للالتفاف حول الشواهد والمرور بينها وسرْتُ متعثرًا بالقبور. السماء ملبَّدةٌ بالغيوم، وثمَّةَ ديكٌ بكَّر في صياحِه في مكانٍ بعيد. وعلى مسافةٍ قريبة، وخلف صفٍّ من أشجار العرعر المتناثرة، التي تُعلِّم الدَّرَب إلى الكنيسة، رفرف كائنٌ أبيض خافتٌ ناحيةَ القبر. كان القبر ذاته غير ظاهرٍ بسبب الأشجار، ولم أستطع أن أتبيَّنَ أين اختفى الكائن. ثم سمعتُ حفيفَ حركة فعلية في الموضع الذي رأيتُ فيه الكائن الأبيض أول مرَّة، وإذِ اقتربْتُ من المكان،

وجدتُ البروفسور يحمل بين ذراعيه طفلًا صغيرًا. وعندما رآني رفَعَه صوبي وقال:

«أأنتَ مقتنعٌ الآن؟».

«لا» قلتُ بأسلوبٍ أحسبه بدا عدوانيًا.

«ألا ترى الطفل؟».

«نعم أراه، ولكن مَنْ جاء به إلى هنا؟ وهل هو مجروح؟» سألتُ.

«سنرى إن كان مجروحًا» قال البروفسور، وباندفاعة واحدة شقَقَنا طريقَنا خارجَيْنِ من ساحة الكنيسة، وهو يحمل الطفل النائم.

بعد أن ابتعدْنَا مسافةً قصيرة، دخلنا إلى أجمة أشجار وأشعلنا عود ثقاب، ونظرنا إلى رقبة الطفل. لم يكن فيها أي خدشٍ أو ندبةٍ من أي نوع.

«ألم أكنْ على حق؟» سألتُه بنبرةٍ منتشيةٍ بالانتصار.

«جئنا في الوقت المناسب ليس إلَّا» قال البروفسور بنبرةٍ حامدةٍ.

علينا الآن أن نقرِّر ما نحن فاعلان بالطفل، ولذا تشاوَرْنَا في أمره. فإذا أخذناه إلى مخفرٍ للشرطة ينبغي لنا إعطاء بعض المعلومات عن تحرُّكَاتنا أثناء الليل، أو على الأقل ينبغي لنا أن نرتِّبَ ما سنقوله عن كيفية عثورنا عليه. قرَّرنا في نهاية المطاف أن نأخذه إلى المرج، وإذا سمعنا صوتَ شرطي قادمٍ، سنتركه في موضعٍ يسهل على الشرطي أن يعثر فيه عليه، ومن ثمَّ سنمضي في طريقنا إلى البيت بأسرع ما نستطيع. وقد جرى كل ما عزمنا عليه على خير ما يرام.

عند طرف مرج هامپستِدْ سمِعْنَا وقع خطوات ثقيلة لشرطي، وضعنا الطفل على الدرب، ثم انتظرْنا وراقَبْنَا حتى رآه وهو يومض بمصباحه جيئةً وذهابًا. سمِعْنَا صوت استغرابه مندهشًا، ثمَّ مضينا في سبيلنا بصمتٍ. لحسن الحظ وجَدْنَا عربةً قرب «ذا سپانياردس»، وعدنا فيها إلى لندن.

لا أستطيع النوم، لذا أضفتُ هذا البابَ إلى المذكَّرات. ولكن عليَّ أن أحاول أن أنام بضع ساعات، حيث سيرسل ڤان هيلسنغ في طلبي عند الظهر. إنه يصرُّ عليَّ حتى أذهب معه في رحلة استكشافٍ أخرى إلى المقبرة.

٢٧ سپتمبر- أشارتْ عقارب الساعة إلى الثانية قبل أن تواتينا الفرصة السانحة للقيام بما عزمنا عليه. فقد استُكْمِلَت مراسم جنازةٍ جرت طوال فترة الظهر، وكان آخر من تبقى ممن تخلَّف عن الركب من المشيِّعِين يجرجرون أنفسهم بكسل، عندما رأينا خادم الكنيسة يوصد البوابة وهو خارجٌ من المقبرة، ونحن ننظر إليه بحذر من وراء أجمةٍ من أشجار الحَوْرِ الرومي. عرَفْنَا حينها بأننا في مأمنٍ بحيث يمكننا البقاء حتى الصباح إذا رغبنا في ذلك، ولكن البروفسور قال لي إننا لن نحتاج أكثر من ساعةٍ في أقصى حد. راوَدَني مرَّةً أخرى ذلك الإحساس المرعب بواقعيَّة الأشياء، والذي يبدو فيه أي جهد للتخيُّل خارجًا عن المكان، وأدركتُ جليًا مخاطر القانون التي سنتعرض لها في عملنا الفاسق. زد على ذلك أني شعرتُ بعدم فائدة ما نقوم به على الإطلاق من أوَّلِه إلى آخره. فمن المشين فتحُ تابوتٍ، للتأكُّد من موت امرأة كانت قد ماتت منذ حوالي أسبوعٍ، وبدت مسألة فتح القبر مرة

أخرى في قمة الحماقة، بعد أن عرفنا بدليل ما شاهدناه بأمِّ أعيننا، من أنَّ التابوت كان فارغًا. هززتُ كتفيَّ محتارًا ولذتُ بالصمت على كل حال، إذ كان لڤان هيلسنغ أسلوبه الخاص في فعل ما يريد، بصرف النظر عمَّن يعترض عليه. أخرج المفتاح وفتح السرداب، وأشار لي مرة أخرى بأدبٍ أن أتقدَّمه في الدخول. لم يكن المكان مرعبًا جدًا كحاله في الليلة الفائتة، ولكن أوه، كم كان منظره بائسًا إلى حدٍّ يفوق الوصف عندما تدخله أشعة الشمس! اتجه ڤان هيلسنغ صوب تابوت لوسي فتبعتُه. انحنَى ودفع مرة أخرى حافة التابوت المصنوعة من الرصاص، ومن ثمَّ صعقت بصدمة من الذهول والهلع.

هي ذي لوسي راقدة، وتبدو بذات الهيئة التي رأيناها عليها في الليلة التي سبقت جنازتها. كانت، إن جاز قول ذلك، أبهى جمالًا من قبل، ولم أستطع أن أصدِّق أنها ميتة. فشفتاها حمراوان، لا بل أشدُّ حمرةً من قبل، وعلى وجنتيها نضارةٌ ناعمة.

«أهذه شعوذةٌ؟» سألتُه.

«أأنتَ مقتنعٌ الآن؟» قال البروفسور في ردِّه على سؤالي، وبينما كان يتكلَّم رفَعَ يده، وباعَدَ بين الشفتين المائتتين وكشف عن الأسنان البيضاء بطريقة أرسلت الرعشة في جسدي.

«انظر» تابع قائلًا: «انظر إلى أسنانها، فهي حتى أحدُّ من قبل. إذ يمكن لها بهذا وهذا...» -ولمس أحدَ النابين والناب الذي تحته- «أن تعضَّ الأطفال الصغار. هل اقْتَنَعتَ الآن يا صديقي جون؟» ومرَّة أخرى، اضطرَمَ سلوك الحجاج العدواني داخلي. لم أستطع

أن أقبل بمثل هذه الفكرة الطاغية كما اقترحها هو، ولذا حاولت محاججته وقد كنتُ حتّى في هذه اللحظة أشعر بالخجل، فقلتُ:

«رُبَّما وُضِعَتْ هنا منذ الليلة الفائتة».

«حقًا؟ إذا كان الحال كذلك، فمن وضعها؟».

«لا أدري. أحدُهم فعلها».

«ومع ذلك فقد مرَّ أسبوعٌ على وفاتها. ولن تبدو هيئة معظم الناس مثل هيئتها بعد مرور أسبوع من وفاتهم». لم يكن لدي جوابٌ على هذا، لذا لذتُ بالصمت. لم يبدُ أن ڤان هيلسنغ لاحَظَ صمتي، لأنه لم يُظْهِر حسرةً ولا انتصارًا. بل كان ينظر بإمعانٍ شديد إلى وجه المرأة الميتة، رافعًا جفونَها وناظرًا إلى عينيها، ومرَّة أخرى فاتحًا شفتيها ومتفحِّصًا أسنانَها. ومن ثمَّ التفتَ إليَّ وقال:

«في هذه الحالة، يوجدُ شيءٌ واحدٌ مختلف عن كافة الحالات المسجَّلة، فنحن هنا أمام نمطٍ من حياة مزدوجة تشذُّ عن المألوف. لقد عضَّها مصَّاصُ الدِّماء عندما كانت تسير أثناء نومها بحالة غيبوبة.. أوه، ها أنت تُذهل، إنك تجهل ذلك يا صديقي جون، ولكنك ستعرف لاحقًا، فالغيبوبة هي أفضل توقيتٍ يستطيع أن يأتي فيه ليمصَّ المزيد من الدم. في الغيبوبة ماتت، وفي الغيبوبة تحولت إلى واحدة من الموتى-الأحياء[1]، أيضًا. ولذلك فهي تختلف عن الحالات الأخرى كافة. فعندما ينام الموتى-الأحياء

---

(١) UN-DEAD

عادةً في البيت» -وأثناء كلامه لوَّح تلويحةً شاملة بذراعه ليشير إلى ما تعنيه كلمة «بيت» بالنسبة إلى مصَّاص دماء- «فإن وجوهُهم تُظْهِرُ حقيقتهم، ولكن هذه الآنسة الجميلة جدًا قد عادت إلى الحالة العدمية التي تميِّز الموتى العاديين عندما لم تكن في حالة الموتى- الأحياء. إنها لا تشكل خطرًا بهذه الحالة كما ترى، ولذا تشقُّ علي ضرورة قتلها وهي نائمة». برد الدم في عروقي، وبدأ يتضح لي بأنَّي صرت أقبل نظريات ڤان هيلسنغ، فإذا كانت ميتة حقًا، أين الرعب إذن في فكرة قتلها؟ رفَعَ بصره ناظرًا إلي، ومن الواضح أنه رأى تغيُّرَ ملامح وجهي، لأنه قال بسرورٍ موارِبٍ:

«آه، أنتَ تصدِّقني الآن؟».

أجَبْتُ: «لا تضغط عليَّ بهذه القوة دفعةً واحدةً. ليس أمامي سوى التصديق. وكيف ستقوم بهذا العمل الدموي؟».

«سأقطع رأسَها وأملأ فمَها بالثوم، وسوف أُدْخِلُ وتدًا عبر جسدها». ارتعشتُ وأنا أتخيَّل تشويه جسد المرأة التي أحبَبْت. ومع ذلك لم يكن الشعورُ بقدر القسوة التي توقعتها. بدأت فعليًا أرتعشُ من وجود هذه المخلوقة، هذه الميتة-الحية، كما سمَّاها ڤان هيلسنغ، وبدأت أبغضها. أيمكن أن يكون الحبُّ ذاتيًا خالصًا، أم أنَّه موضوعيٌّ خالصٌ؟

انتظرتُ مدةً طويلة لكي يبدأ ڤان هيلسنغ، ولكنه وقفَ وكأنَّ الأفكار تلفُّه لفًا. ثم أغلق في الحال قبضة حقيبته مصدرًا طقطقةً وقال:

«كنت أفكِّرُ بالأمر، وقد اتَّخَذْتُ قراري بخصوص أفضل حلٍّ يمكننا أن نلجأ إليه. فلو اتَّبَعْتُ ببساطةٍ ما تميل إليه نفسي لأقدمتُ الآن، في هذه اللحظة بالذات، وأنهيت ما ينبغي عمله. ولكن هناك سُبُلًا أخرى يمكن اتِّبَاعُهَا، وسُبُلًا أصعبُ بألف مرَّة لأننا لا نعرفها. فهذا أمر بسيط. لأنها لم تقتل أي شخص بعد، رغم أن ذلك مسألة وقت، والقيام بذلك الآن يعني إزالة خطرها إلى الأبد. لكن بعدها قد نضطر لإبلاغ أرثر بالأمر، وكيف سنبلغه بهذه الحالة؟ فإذا كنتَ أنتَ الذي رأيتَ الجروح على رقبة لوسي، ورأيتَ الجروح المماثلة لها جدًا على رقبة الطفل في المستشفى، إذا كنتَ أنتَ الذي رأيتَ التابوتَ فارغًا الليلة الفائتة ورأيت اليوم فيه جثمانُ امرأةٍ لم يطرأ عليه أي تغيير سوى أنَّها صارَتْ أبهى وأجمل في أسبوع كامل بعد وفاتها. وإذا كنتَ تعرف بهذا وتعرف بأمر الكائن الأبيض الليلة الفائتة الذي أحضر الطفل إلى ساحة الكنيسة، ورغم كل ذلك لم تصدِّق بحواسك ما جرى، فكيف يمكن لي إذن، أن أتوقَّع أن يصدِّق أرثر هذه الأحداث التي لم يشهد أيًا منها؟ لقد شكَّ فيَّ عندما أبعدْتُه عن تقبيلها وهي تحتضر. أعلم أنه سامحَنِي لأني، بفكرة فُهِمَتْ خطأً، فَعَلْتُ أشياءَ مَنَعَتْهُ من توديعها كما أراد، وربما يعتقد بسوء ظن أكبر، أنَّ هذه المرأة دُفِنَت حيَّة وأننا ارتكبنا أكبر الأخطاء وقَتَلْنَاهَا. سيجادلني حينئذٍ قائلًا إننا نحن، المخطئان، قد قتلناها بأفكارنا، ولذا سيصبح أشد تعاسة إلى الأبد. ومع ذلك لا يمكنه أن يكون متأكدًا أبدًا، وذلك أسوأ الاحتمالات. سيظن أحيانًا أن حبيبته دُفِنَتَ حيَّةً، وسيصبغ

ذلك أحلامه بأهوال المعاناة التي لا بدَّ عانت منها، ومرَّة أخرى، سيظن أننا ربما كنا على حق، وأن حبيبته الغالية كانت، بعد كل ما جرى، واحدة من الموتى-الأحياء. لا! قلتُ له مرَّة، ومنذ ذلك الحين عرفتُ الكثير من التفاصيل. والآن، ونظرًا لأني أعرف أن كل شيء صحيح، فأنا أعرف أكثر بمئة ألف مرَّة أنه يجب عليه أن يخوض الأمواج الهائجة حتى يصل إلى برِّ الأمان. فهو، أي صديقي المسكين، لا بدَّ سيمرُّ بساعة واحدة تجعل السماء تَظْلَمُّ في وجهه، ومن ثمَّ يمكننا التصرف لما فيه مصلحة الجميع ونُدْخِل السَّكينة على قلبه. لقد اتَّخَذْتُ قراري. فلنذهب. ارجع أنتَ إلى مصحتك، واطمأن إلى أن كل شيء على ما يرام هناك. أمَّا أنا، فينبغي لي أن أقضي الليلة هنا في ساحة هذه الكنيسة بطريقتي الخاصة. ستوافيني ليلة الغد في فندق بيركلي في الساعة العاشرة. ينبغي لي أن أرسل في طلب أرثر حتى يأتي أيضًا، وكذلك سأرسل في طلب ذلك الشاب الأمريكي اللطيف الذي أعطاها دمه. كما يوجدُ أمامنا عملٌ نقوم به لاحقًا. سآتي معك صوب البيكاديلي ونتناول الغداء هناك، لأنه يجب عليَّ العودة إلى هنا قبل الغروب».

وهكذا أقفلنا القبرَ ومضينا في سبيلنا. قفَزْنَا فوق سورِ ساحة الكنيسة، وهي مهمة لم تكن بالصعبة، وعدنا راجعين بالعربة إلى البيكاديلي.

ملحوظةٌ تركَها ڤان هيلسنغ في حقيبة سفره، في فندق بيركلي، وموجَّهَة إلى الدكتور جون سيورد

(رسالة لم تصل إلى الدكتور)

٢٧ سبتمبر

صديقي جون،

أكتب لكَ هذه الملحوظة في حالِ حَصَلَ خطبٌ ما. سأذهب وحدي لأراقب في ساحة الكنيسة. وسيسر خاطري إذا لم تغادر هذه الميتة-الحية، الآنسة لوسي، الليلة، فربما تكونُ أشدّ حماسة ليلة الغد. لذلك سأضع بعض الأشياء التي لا تحبها -كالثوم وصليبٍ- وأقفل باب القبر. فهي تستعيد شبابها عندما تكون بحالة الموتى-الأحياء، وسوف تتنبَّه للأمر. زد على ذلك أن هذه الأشياء فقط لمنعها من الخروج من القبر، وربما لا تسيطر على رغبتها في البقاء فيه، لأن الموتى-الأحياء بهذه الحالة يكونون يائسين، ولا بد أن يجدو سبيلًا أقل مقاومة أيًا كان. سأبقى قرب القبر طوال الليل من غروب الشمس حتى ما بعد طلوعها، وإذا ما طرأ أمر عليَّ معرفته فإني سأعرفه. لستُ خائفًا على الآنسة لوسي أو منها، ولكني خائفٌ من ذلك الكائن الآخر الذي حولها إلى واحدة من الموتى-الأحياء، فلديه القوة للوصول إلى قبرها والالتجاء إليه. إنه ماكر، كما علمت من مذكَّرَات السيِّد جوناثان ومن الطريقة التي ظل يحتال فيها علينا طوال الوقت عندما لعب معنا لعبته على حياة الآنسة لوسي -اللعبة التي خسرنا فيها- كما أنَّ الموتى-الأحياء أقوياء بطرق مختلفة. إنه

يمتلك قوة عشرين رجلًا، وحتى نحن الأربعة الذين أعطينا قوتنا إلى الآنسة لوسي لا نعني شيئًا بالنسبة له. بالإضافة إلى قدرته على استدعاء ذئبه وأشياءَ أخرى لا نعلمها. ولذا لو حصل وحضر في هذه الليلة فسوف يَجِدُنِي، ولا أحد سواي، حتى يفوت الأوان. لكن وربما لن يفكر في القدوم الليلة. فما من سببٍ يدعوه لفعل ذلك، فميدان صيدِه مليءٌ بالطرائد أكثر من ساحة الكنيسة حيث تنام هذه الميتة-الحية، وحيث يراقب العجوز المشهد.

ولذلك فإني أكتبُ هذه الملحوظة في حالة حصل طارئ ما... فخذ الأوراق المُرْفَقَة بهذِهِ الملحوظة، ومذكَّرات هاركر وبقية الأوراق، واقرأها، ومن ثم اعثر على سيد الموتى-الأحياء العظيم، واقطع رأسه واحرق قلبه أو أدخل فيه وتدًا، فلربما يتيسَّر للعالم أن يرتاح منه.

وإذا كان الأمر كذلك، فالوداع

ڤان هيلسنغ

مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

٢٨ سبتمبر- كم هو رائع ما يفعله نومُ ليلةٍ هانئةٍ للإنسان! كنتُ البارحةَ على وشك التسليم بقبول أفكار ڤان هيلسنغ المُرِيعَة، ولكني الآن أراها كانتهاك واضح للمنطق السليم. لا يعتريني أي شكٍّ في أنه يصدِّقُهَا جميعها. وأتساءل ما إذا كان عقله قد أصيب بخلل ما. فلا بدَّ من وجود تفسيرٍ عقلانيٍّ لكلِّ هذه الأحداث الغامضة. أيمكن

أن يكون البروفسور فَعَلهَا بنفسه؟ إنه ذكي فوق العادة لدرجة أن بإمكانه إذا عزم على شيء، أن ينفذ كل ما في رأسه من أفكار وبطريقة مدهشة. كم أكره التفكير بذلك! وتكاد تكون احتمالية أنَّ ڤان هيلسنغ فقد عقله أعجوبةً مثل غيرها من الأعاجيب، ولكن ينبغي لي أن أراقبه مراقبةً دقيقة على أي حال. فربما أستهدي إلى نورٍ يرشدني لحلِّ هذا اللغز.

صباح ٢٩ سبتمبر... في الليلة الماضية، وقبل لحظاتٍ من الساعة العاشرة، دخَلَ أرثر وكوينسي غرفةَ ڤان هيلسنغ، أبلَغَنَا بكل ما يود منا فِعْله، ولكنه وجَّه حديثَه تحديدًا إلى أرثر، وكأنَّ كل إراداتنا تتمركز في إرادته. بدأ حديثه بالقول إنه يأمل أننا سنمضي معه في ما عزم عليه، وأتم قائلًا: «لدينا واجبٌ جسيم يجب القيام به هناك. كنتَ متفاجئًا بلا شك من رسالتي؟» وهذا السؤال كان موجهًا مباشرةً إلى اللورد غودالمنغ.

«نعم تفاجأت. بل بالأحرى أقْلَقَتْنِي الرسالةُ قليلًا. فقد عصف بعائلتي كم من الأهوال في الآونة الأخيرة حتى ضقتُ ذرعًا بتحمُّل المزيد منها. كما أن الفضول استبدَّ بي أيضًا بخصوص ما تعنيه. وقد بحثنا الأمر أنا وكوينسي، ولكن كلَّما تحدَّثنا زادت حيرتُنا، حتى إنني أستطيع الآن أن أقول بالأصالة عن نفسي إنني في موقفٍ حرجٍ فيما يخص أي معنىً فهِمْتُه من أي شيء».

«وأنا كذلك» قال كوينسي مُورِس مُختَصِرًا ما أراد قوله.

قال البروفسور ڤان هيلسنغ: «أوه، أنتما كلاكما قريبان من البداية

إذن، أقرب من صديقي جون الذي عليه أن يسلك مسارًا طويلًا إلى الوراء قبل أن يستطيع حتَّى أن يقترب من خط البداية».

كان جليًّا أنَّه لاحظ عودتي إلى أسلوبي السابق في التفكير التشكيكي، لكنه لم يتفوه بكلمة. ومن ثمَّ قال، إذِ التَفَتَ صوب أرثر وكوينسي، بجدية بالغة:

«أريد منكما الإذن لأفعل ما أحسبه مفيدًا هذه الليلة. فأنا أعرف أنَّ ما أطلبه منكما أمر عظيم، وعندما تعرفان ما أنوي فعله سوف تدركان حينها فقط مدى عظمة ذلك العمل. فهل لي أن أطلب منكما أن تعداني بأنكما لن تلقيا باللائمة على نفسيكما فيما بعد بخصوص أي شيء. وأعتقد أنكما ستغضبان منِّي مدَّةً من الوقت، ولا ينبغي أن أنحي هذه الاحتمالية عن بالي».

قال أرثر: «لم تقل سوى الصِّدق على أيِّ حال». فقاطعه كوينسي قائلًا: «سأفعل ما يقوله لي البروفسور. فأنا لم أعرف حتى الآن مغزى ما يريد، ولكني أقسم أنه رجل أمين، وتلك الخصلة تكفيني لأنفذ ما يقول».

قال ڤان هيلسنغ بفخر: «أشكرك يا سيِّدي. وإنَّه لشرفٌ لي أن أعدَّك صديقًا موثوقًا، ومثل هذه الشهَادة منك عزيزة علي». ثمَّ رفَعَ يدَه، وأمسكَ بها كوينسي مصافحًا.

ثم قال أرثر بصوتٍ عالٍ وواضح:

«دكتور ڤان هيلسنغ، أنا لا أحب كثيرًا أن «أشتري خنزيرًا

مغطًّى بجراب»[1] كما يقولون في سكوتلندا، وإذا كان الأمر له علاقة بما يمس شرفي كرجلٍ نبيل أو إيماني كمسيحي، فلا أستطيع أن أقطع عليك مثل هذا الوعد. وإذا استَطَعْتَ أنْ تطمئنني بأنَّ ما تنوي فعله لا يتعارض مع أيًا مما ذكرت من هاتين، فأنا أوافقك إذن في الحال، رغم أني لا أستطيع فهم مرادِك مهما بَذَلْتُ من محاولات لاستجلاء ما ترمي إليه».

قال ڤان هيلسنغ: «إنِّي أقبل تَحَفُّظَكَ الذي أبديتَه، وكل ما أطلبُه منك أنْ تقوم أولًا بتدقيق النظر في أي فعلٍ أقوم به تدقيقًا كاملًا وأنْ تقتنع بأنه لا يتعارض مع ما ذَكَرْتَ من تَحفُّظَاتٍ في حالِ شعرتَ أنه من الضروري إدانة ذلك الفعل».

قال أرثر: «اتفقنا! هذا عادل وحسب. والآن، وقد فَرَغْنَا من مسألة المفاوضات التمهيدية، هل لي أن أسألك عن الأمر الذي نحن بصدد فعله؟».

«أريدكما أن تأتيا معي وبصورة سرية، إلى ساحة الكنيسة في كِنْغِستِد».

امتقَعَ وجه أرثر بصورة المذهول وقال:

«إلى حيث دُفِنَتَ لوسي المسكينة؟» فأومأ البروفسور برأسِه بالإيجاب.

وأردف أرثر: «ومن ثَمَّ ماذا سنفعل بعد أن نصل إلى هناك؟».

---

(١) عِبَارة شعبية تعني أن تشتري شيئًا ما دون معاينته والنظر إلى حالته.

«سنَدْخُل القَبْرَ!» وهنا وقَفَ أرثر وقال:

«بروفسور، أأنتَ جادٌّ فيما تقول؟ أم أنَّ تلك نكتة مريعة؟ العفو، فأنا أرى أنك جادٌّ في كلامك». ثم جلس مرَّةً أخرى، ولكن بحزمٍ وكبرياء يليق بمن هو في مثل مكانته. وساد الصمت إلى أنْ سألَ مرَّةً أخرى:

«وماذا سنفعل بعد أن ندخل القبر؟».

«سنفتح التابوت».

«هذا كثير جدًا!» قال أرثر، ومن ثم نهض واقفًا مرة أخرى وأضاف: «أنا راغب في التحلي بالصبر في كافة الأمور التي تكون منطقية، ولكن في هذا الـ... هذا الانتهاك لحرمة القبر... قبر المرأة التي...». وكأنه اختنق بسخطه، فنظر إليه البروفسور نظرة إشفاق وقال:

«لو كان بإمكاني أنْ أجنِّبك غصَّةَ ألمٍ يا صديقي المسكين، يعلم الله أني سأفعل. ولكنْ هذه الليلة يجب أنَ تطأ أقدامنا الدروب المليئة بالأشواك، وإلَّا فإنَّ قدمي المرأة التي تحب، ستسيران بعد ذلك في مسالك الجحيم إلى الأبد!».

نظر أرثر إليه بوجهٍ شاحبٍ وقال:

«توخَّ الحذر يا سيِّدي، توخَّ الحذر!».

«أليس من الأفضل أن تسمع ما أقول؟» قال ڤان هيلسنغ ثم أردف: «وعندها ستعرف على الأقل حدود هدفي. أأتابعُ حديثي؟».

«إنَّ لفي ذلك ما يكفي من الإنصاف» قاطَعَه كوينسي مورِس.

بعد برهة تابَعَ ڤان هيلسنغ حديثه، وكان جليًّا أنَّ الكلمات كانت تصارعه:

«الآنسة لوسي ميتة، أليس الأمر على هذا النحو؟ نعم! فما من أذية تصيبها. ولكن إذا لم تكن ميتة...».

وهنا انتفض أرثر واقفًا وصاح:

«يا الله العظيم! ماذا تعني؟ أوقَعَ خطأٌ ما، أدُفِنَت وهي حيَّة؟» وتأوَّه في ضيقٍ شديدٍ لا يمكن حتى للأمل أن يخفِّفَ من حدَّته.

«لم أقل إنَّها حيَّة يا بني، فأنا لا أحسبها كذلك. ولا يسعني أن أزيد على ما قلْتُه لك إلّا بقولي إنَّهَا ربما تكون ميتة–حية».

«ميتة–حية! ليست حيَّة! ماذا تعني؟ أهذا كله كابوس، أو ماذا عساه يكون؟».

«هناك ألغازٌ لا يستطيع البشر إلا أن يخمنوا ماهيتها، ويمكن لهم أن يفكوا طلاسمها جيلًا إثر جيل بصورة جزئية فقط. صدِّقني، إننا الآن موشكون على حلِّ لغز منها. ولكني لم أفعل ذلك. أيمكنني أن أقطع رأس الآنسة لوسي؟».

«يا إله السماء والأرض، لا!» صاح أرثر في جيشانٍ من العاطفة. «حتَّى لو وضعتم العالم كلَّه بين يدي فلن أوافق على بترِ أي عضو من جثمانها. دكتور ڤان هيلسنغ إنك تبالغ في إيذائي. ماذا فعلتُ لكَ حتى تعذبني هذا العذاب؟ ما الذي فَعَلَتْهُ تلك الفتاة اللطيفة

المسكينة حتَّى ترغَبَ في أن تُلْحِقَ تلك الإهانة بقبرها؟ أأنت مجنونٌ حتَّى تتفوَّه بهذه الترهات، أم أنني أنا المجنون لأستمع إليها؟ إيَّاكَ أن تجرؤ على التفكير بعدُ في هذا الانتهاك لحرمتها، فلن أوافق على أي شيء تفعله. الواجب يملي عليَّ حماية قبرها من أن تنتهك حُرْمَتُه، وأقسم بالله إني لفاعل ذلك!».

نهض ڤان هيلسنغ من الموضع الذي كان جالسًا فيه طوال الوقت، وقال، بجدِّيةٍ وحزمٍ:

«أيها اللورد غودالمنغ، على كاهلي واجبٌ أنا أيضًا، واجبٌ إزاء الآخرين، واجبٌ إزاءك، وواجبٌ إزاء الفقيدة؛ وأقسم بالله إنِّي فاعله! وكلُّ ما أطلبه منك الآن هو أن تأتي معي، وأن ترى وتصغي، وإذا لم تصبح بعدها أكثرَ حماسةً مني لفعل ما طلبْتُه منك، فعندها سأقوم بما يمليه عليَّ واجبي، مهما بدا لي الأمر. ومن ثمَّ حتى أحقق أماني حضرتك، سأضع نفسي تحت تصرفك لتحاسبني عمَّا حصل في أيِّ زمانٍ ومكانٍ تشاء». اخشوشَن صوتُه قليلًا، وتابع حديثه بنبرةٍ تملؤها الشفقة:

«ولكني، أتوسَّل إليك، لا تبالغ في غضبك اتجاهي. ففي حياتي الطويلة التي أتيتُ فيها الكثير من الأفعال التي لم يكن الإقدام عليها يسرُّ الخاطر، وقد أدْمَتْ قلبي أحيانًا، لم تمر عليَّ قط مهمةٌ ثقيلةُ الوطأة مثل هذه التي سأقدم عليها الآن. وصدِّقْنِي، إذا ما حصل وجاء الوقت الذي ستغيِّر فيه رأيك فيَّ، فإن من شأنِ نظرةٍ واحدةٍ منك أن تزيل حزن كل هذه الساعة العظيم جدًا، لأني

سأفعل ما ينبغي لإنسان فعله حتى أنقذك من الأسى. فكِّر في الأمر وحسب. فلماذا أحمِّل نفسي كل هذا المقدار الكبير من التعب وكل هذا المقدار الكبير من الأسى؟ لقد جئتُ إلى هنا من بلادي لأفعل ما أستطيع فعله خدمةً للخير، جئتُ في البداية حتى أدخل السرور على قلب صديقي جون، ومن ثم لأساعد سيِّدةً شابةً لطيفةً، سيِّدةً أحبَبْتُها أنا أيضًا. لأني -وأشعر بالخجل لقول المزيد، ولكني أقوله بلطف- أعطيتُها ما أعطيتَها أنت؛ أعطيتُها دمي، أنا الذي لستُ مثلك، لستُ بحبيبها، بل طبيبها وصديقها لا أكثر. ومنَحْتُها لياليَّ وأيامي، قبل موتها وبعده، ولو كان في موتي خلاصٌ لها حتى في هذه اللحظة، وهي الميتة-الحياة المتوفاة، فسأموت فداءً لها عن طيبِ خاطر». قال ذلك بفخرٍ عظيم وبأسلوب لطيف جدًا، وتأثَّر به أرثر تأثرًا عظيمًا. فأخذ بيد العجوز وقال بصوتٍ منكسر:

«أوه، يشقُّ عليَّ التفكير بالأمر، ولا أستطيع أن أفهم ما يجري، ولكني على الأقل سأذهب معك وأتريَّث في الأمر».

الفصل السادس عشر

تتمة مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

لم يكن يفصلنا عن منتصف الليل سوى ربع ساعةٍ عندما نزلنا إلى ساحة الكنيسة من فوق جدارها المنخفض. الليلُ معتمٌ مع فترات سطوعٍ متقطِّعةٍ لنور القمر تظهر بين قطع الغيوم الكثيفة التي ساقَتَها الريح عبر السماء. بقينا قرب بعضنا البعض بطريقة ما، فيما تقدَّمَنا ڤان هيلسنغ بخطواتٍ قليلةٍ ليرشدنا إلى الطريق. عندما اقتربنا من المدفن نظرتُ بإمعانٍ إلى أرثر إذ خشيت أنَّ الاقتراب من مكانٍ محمّل بالذكريات الحزينة يمكن أن يقضَّ مضجَعه، ولكنَّه تمالَكَ نَفْسَه على أحسن ما يكون. استنتجتُ أنَّ حالة الغموض التي تكتنف ما نقوم به كانت تولد شعورًا مضادًّا ينسيه حزنه الشديد. فتح ڤان هيلسنغ قفل الباب، وحين رأى التردد الذي اعترانا بصورة طبيعية ولدوافع مختلفة، حلَّ الإشكالية بدخوله أولًا، فتبعناه. أغلق الباب ثم أشعل فانوسًا وأشار به إلى التابوت، فتقدَّم أرثر إلى الأمام مترددًا، ثم سألني ڤان هيلسنغ: «لقد كنتَ معي هنا البارحة. أكان جثمانُ الآنسة لوسي في ذلك التابوت؟».

«بلى قد كان». فالتفتَ ڤان هيلسنغ إلى بقية الرجال وقال:

«ها قد سمعتُم بآذانكم؛ ومع ذلك يوجد شخصٌ لا يصدِّقني». تناول مفكَّه ونزَع غطاء التابوت مرة ثانية. وقفَ أرثر يتفرَّج، وقد اجتاحه الشحوبُ ولكنه لاذ بالصمت، وعندما نُزِعَ الغطاء تقدَّم خطواتٍ إلى الأمام. كان واضحًا أنه لم يعرف أنه تابوتٌ مغلف بالرصاص، أو لم يخطر ذلك في باله على أي حال. عندما رأى الشق في الرصاص، اندفَعَ الدم في وجهه لحظةً، ولكنه انكفأ عنه بسرعة مرَّة أخرى، ولذا بقي وجهه ممتقعًا ببياض شاحب، وظل صامتًا. أزاح ڤان هيلسنغ حافة الرصاص الناتئة، ونظرنا جميعنا إلى داخل التابوت ثم رجعنا إلى الخلف مذهولين.

كان التابوت فارغًا!

لم يتفوه أحد بكلمة لعدَّة دقائق. كسر كوينسي مورِس الصمت قائلًا:

«يا بروفسور، لقد أجبتك فيما أردته! تكفيني كلمة شرف منك، وما كنتُ لأطرح مثل هذا السؤال في العادة، وما كنتُ لأهينك إلى حد أن أشكك فيك، لكن ما نراه لغزٌ يتجاوز الشرف أو الإهانة. قل لي؛ أهذا من صنع يديك؟».

«أقسم لكَ بكل ما أقدِّس أنِّي لم أُخْرِجِ الجثمان أو ألمسه، بل الحقيقة أنِّي جئتُ قبل ليلتين مع صديقي سيوِرْد إلى هنا، وصدِّقني أننا جئنا من أجل غاية نبيلة، وفتحتُ التابوت الذي كان مغلقًا حينها، ووجدناه كما تراه الآن؛ فارغًا. ومن ثَمَّ انتظرنا، ورأينا كائنًا

أبيضَ يخرج من بين الأشجار. عدنا إلى هنا في نهار اليوم الموالي، وألفيناها راقدةً هنا. أليس كذلك يا صديقي جون؟».

«نعم».

«لقد وصَلْنَا في الوقت المناسب تلك الليلة. طفلٌ صغير آخر كان قد فقد، لكن ولله الحمد وجدناه بين القبور دون أن يصاب بأذى. رجعت البارحة إلى هنا قبيل الغروب، لأنَّ الموتى-الأحياء يستطيعون الحركة عند الغروب. انتظرت هنا طوال الليل حتى طلعت الشمس، ولكني لم أرَ شيئًا. وعلى الأرجح أنَّ سبب ذلك هو أني وضعتُ الثوم فوق مفاصل تلك الأبواب، حيث لا يقدر الموتى-الأحياء على تحمُّله، إضافةً إلى أشياء أخرى يتجنبونها. لكنها لم تخرج من القبر الليلة الماضية، لذا جئت الليلة قبل الغروب وأبعدت الثوم والأشياء الأخرى التي وضعتها. وهكذا وجدنا هذا التابوت فارغًا. ولكن أعرني صبرك، فحتى الآن هناك الكثير من الأمور الغريبة. هلمَّ وانتظر معي في الخارج، دون أن يرانا أو يسمعنا أحد، وستحصل أشياء أغرب من هذا. ولذا...» -وهنا سد مصراع فانوسه- «هيَّا بنا الآن إلى الخارج». فتَحَ الباب، وخرَجْنَا يتبع أحدُنا الآخر، وكان هو آخر الخارجين ثم أوصد الباب خلفه.

أوه! كم جميلٌ أن يتنسَّم المرء هواءَ الليل المنعش الصافي بعد الرعب الذي شهدناه في ذلك السرداب! وكم لطيفٌ أن يرى السحب تمضي مسرعة مدفوعة بالرياح، فيما نور القمر يظهر بينها ويغيب بتعاقب كتعاقب الحزن والفرح في حياة الإنسان! وكم

عذبٌ أن يتنفَّس الهواء المنعش، الهواء الذي ليس فيه شائبة الموت والفناء! وكم هو بَشَرِيٌّ أن ترى الضوءَ الأحمر للسماء خلف التلة! وأن تسمع من بعيدِ الهدير المكتوم الذي يدل على وجود حياة مدينةٍ عظيمةٍ. بدا كلٌّ واحدٍ منا واجمًا ومغلوبًا على أمره بطريقته التي تميِّزه، بينما بقي أرثر صامتًا في صراعٍ مع نفسِه لكي يستوعب هذا اللغز ويلمَّ بالمعاني الكامنة فيه. تحلَّيْتُ بالصبر قدر المستطاع، وبتُّ أَمْيَلَ إلى نبذ الشك جانبًا وقبول استنتاجات ڤان هيلسنغ. كان كوينسي مورِس ثابتًا كرجلٍ يقبَل كل الأشياء، يقبَلُهَا بروح الشجاعة الهادئة، حتى لو اضطره الأمر إلى المراهنة عليها في مسالك الخطر. وحيث لم يكن من الممكن أن يدخن الآن، فقد اقتطع لنفسه قطعة جيدة الحجم من التبغ وبدأ مَضْغَها. أمَّا ڤان هيلسنغ، فقد كان انهماكه واضح للعيان، في البداية أخرج من حقيبته حفنةً من شيء يشبه البسكويت الهش، ملفوفةً بعناية في منديل أبيض، ومن ثم أخرج حفنةً مضاعفة من مادة ضاربة إلى البياض، كأنها صلصال أو معجون تثبيت الزجاج. طحن البسكويت الهش جيدًا وخلطه مع المادة بيديه. ثم أخذَ الناتج ورقرقه إلى شرائح رفيعة، وبدأ بوضعها داخل الشقوق الفاصلة بين باب القبر وإطاره. أصابتني الحيرة بعض الشيء مما فعله، ولأني قريب منه، سألته عما كان يفعل. كما اقترب أرثر وكوينسي أيضًا، واستبدَّ بهما كذلك فضول عظيم ليعرفا ما الذي كان يفعله. فأجاب:

«أنا أغلق القبر، حتى لا يستطيع أحد الموتى-الأحياء أن يدخله».

«وهل ستمنعه تلك المادة التي وضَعْتَهَا هناك من الدخول؟» سألهِ كوينسي ثم أردف: «يا إلهي! أهذه لعبة؟».

«هي كذلك».

«وما تلك المادة التي استخدَمْتَها؟» هذه المرة كان أرثر هو السائل. فرفع ڤان هيلسنغ قبَّعتَه احترامًا وهو يجيب:

«نسميها المادة المضيفة. وقد أحضرتُها من أمستردام. فأنا حاصل على صك غفران من الكنيسة». كان جوابًا أفزع أكثر المرتابين فينا، وشعرنا، كلٌ على حدة، بأنه في ظل وجود هذه الغاية الجدية لديه، حيث يستخدم فيها أقدس الأشياء إلى نفسه على هذا النحو، فإنه من المستحيل أن نشكك فيه. محفوفين بصمت مهيب، اتخذنا مواضعنا المخصصة لنا متحلِّقين حول القبر، ولكن متخفين عن أنظار أي أحد قد يقترب. أشفقتُ على الآخرين، وخصوصًا أرثر. فقد، تمرَّستُ على هذا الرعب الماثل أمامنا من خلال زياراتي السابقة، ومع ذلك، وأنا الذي ما فتئت أنكر الأدلة حتى ما قبل ساعة خلت، شعرت بارتعاشة قلبي بين ضلوعي. لم تبدُ القبورُ قط بيضاء بمثل هذه الصورة الشاحبة، ولم تبدُ أشجار السرو والطقسوس والعرعر هكذا من قبل كأنها تجسيد لكآبة الجنائز، ولم تتموَّج الأشجار أو الأعشاب أو تصدر حفيفًا على هذا النحو الذي ينذر بالشر، ولم تصر الغصون بمثل هذا الغموض الرهيب قط، ولم يخلق نباح الكلاب البعيد مثل هذا الفأل المفجع جدًا عبر الليل كما يفعل الآن.

مرت فترة طويلة من الصمت، خواء مؤلم وكبير، أعقبه همسة «إسسسس» قاطعة من البروفسور ڤان هيلسنغ الذي أشار بيده، فرأينا بعيدًا على جادة أشجار الطقسوس كائنًا أبيض باهت يتقدم حاملًا شيئًا داكنًا على صدره، ثم ما لبث أن توقَّفَ، وفي تلك اللحظة سقط شعاعٌ من نور القمر على كتلة الغيوم المندفعة وأظهر في وضوحٍ مرعب امرأةً سوداءَ الشعر ترتدي الأكفان. لم نستطع رؤية وجهها، إذ كان منحنيًا فوق ما تبيَّن أنه طفلٌ أشقرَ الشعر. ساد في الجو صمتٌ وتلاه بكاءٌ حاد لمدة قصيرة، كالبكاء الذي يصدر عن طفلٍ أثناء نومه، أو كصوت كلب مضطجع أمام الموقد وهو يحلم. كنَّا نتقدم إلى الأمام، ولكن يد البروفسور المحذِّرَة، التي رأيناها وهو واقف وراء شجرة طقسوس، ردَّتنا إلى الخلف. ومن ثمَّ وبينما كنا نراقب، تحرَّكَ الكائن الأبيض إلى الأمام مرَّة أخرى. بات الآن قريبًا بما يكفي لنا لكي نراه بوضوح إذ لا يزال نور القمر ساطعًا. جمد قلبي كالجليد، وسمعتُ نغبة أنفاس أرثر بينما كنا نرى في الكائن ملامح لوسي ويستينرا. إنها لوسي، ولكنها تغيَّرت كثيرًا. تحوَّلت العذوبة إلى قسوة شديدة عديمة المشاعر، والنقاء إلى خلاعة شهوانية. تقدَّم ڤان هيلسنغ بسرعة، وفي استجابة منا إلى إشارته، تقدَّمْنَا جميعنا أيضًا، مصطفين أربعتنا في صفٍّ أمام باب القبر. رفع ڤان هيلسنغ فانوسه وسحب المصراع، ومن خلال الضوء المركَّز الساقط على وجه لوسي استطعنا أن نرى أنَّ شفتيها كانتا قرمزيتين وعليهما دمٌ نَضِرٌ، كما تقاطرت الدماء فوق ذقنها ودنَّست نقاءَ كَفَنِهَا الكتاني.

ارتَعَدَتْ فرائصنا رعبًا، ومن خلال الضوء المرتعش رأيت ڤان هيلسنغ وقد انهارتْ أعصابُه الحديدية التي نعرفها. كان أرثر بجانبي، ولو لم أمسك ذراعه وأسنده، لسقط مغشيًا عليه.

عندما رأتنا لوسي -أسمِّي ذلك الشيء الواقف أمامنا لوسي لأنه يحمل شكلها- تراجعت مطلقة صيحة غضب كقطة جفلت فجأة، عندها سرحت عيناها محملقة إلينا. كانتا عيني لوسي شكلًا ولونًا، ولكنهما عينان مدنستان مليئتان بنار جحيم، وقد حلَّتا مكان هاتيك الناعمتين الصافيتين اللتين نعرفهما. تحوَّل ما بقي من حبٍّ لديَّ تجاهها إلى كرهٍ وبغضٍ في تلك اللحظة، وإذا كان لا بدَّ من قتلها، فسيسرني أن أفعل ذلك بكل وحشية. عندما نظَرَت إلينا قدحت عيناها بضوءٍ دَنِسٍ، واكتسى وجهُها بابتسامةٍ شهوانية. أوه، يا الله، كيف جعلني ذلك أرتجف لمرآها! ومن ثمَّ، وبحركةٍ لا مباليةٍ، ألقَتْ بنفسها بقوة على الأرض، جامدة القلب مثل شيطان، والطفل الذي تشبَّثتْ به بشدة لا يزال جاثمًا على صدرها، وهي تَهِرُّ فوقه مثلما يَهِرُّ كلبٌ فوق عظمة. أطلق الطفل صرخة حادة، واستلقى يئن في صدرها. بعد ذلك، وببرود مشاعر شديد، قامت بتصرف جعل أرثر يئن، فقد تقدَّمت نحوه بذراعين ممدودتين وابتسامة داعرة، فتراجع وغطَّى وجهه بيديه.

تابعت تقدمها على أي حال، وقالت بلطفٍ وشهوانيةٍ واهنة:

«تعال إليَّ يا أرثر. اترك هؤلاء القوم وتعال إليَّ. فذراعاي تتوق إليك. تعال ويمكننا أن نرقد معًا. تعال يا زوجي، تعال!».

كان هناك نفحةٌ شيطانية عذبة في نبراتها تشبه وخز الزجاج عندما يطرق عليه، وانتقلت آثارها عبر أذهاننا رغم أننا نعرف أن الكلمات موجهة إلى شخص آخر غيرنا. أما أرثر، فقد بدا وكأنه تحت تأثير تعويذة عندما حرّك يديه من على وجهه، ثم فتح ذراعيه على امتدادهما. وبينما وثبتْ حتى تصل إليهما، قفز ڤان هيلسنغ إلى الأمام ووضع بينهما صليبه الذهبي الصغير، فارتدَّتْ عنه بوجهٍ شاهت ملامحه فجأة وصار الغضب يملأه، ثم اندفعتْ وتجاوزت أرثر وكأنها أرادت دخول القبر.

عندما صارت على مسافة قدم أو قدمين من الباب توقَّفَتْ، وكأنَّ قوة لا تقاوم كبحت جماحها. ومن ثمَّ التفتَتْ، فظهر وجهها في التوهج الصافي لنور القمر وضوء الفانوس، الذي توقَّف الآن عن الارتعاش بفضل أعصاب ڤان هيلسنغ الحديدية. لم أرَ مثل هذه الحيرة الخبيثة على وجهٍ مخلوق قط، وأنا واثق أنَّ عيني إنسان لن تراه بعد الآن أبدًا مرَّة أخرى. أصبح اللون الجميل كامدًا، وبدت العينان وكأنهما تقذفان بشرر من نار الجحيم، والحاجبان متجعدان وكأنَّ انثناءات اللحم لفائف أفاعي ميدوزا، والفم الجميل الملطَّخ بالدم تحول إلى مربع مفتوح، كما في أقنعة الرعب عند الإغريق واليابانيين. وإذا ما قدِّرَ لوجه أن يجسّد الموت -إذا أمكن للنظرات أن تقتل- فهو هذا الوجه الذي رأيناه في تلك اللحظة.

وهكذا ولمدة نصف دقيقة كاملة، بدَتْ كلحظة أزلية، ظلت عالقةً بين الصليب المرفوع والسدِّ المقدَّس الذي أغلقَ سبيل دخولها إلى القبر، فما كان من ڤان هيلسنغ إلَّا وكسر الصمت بسؤاله أرثر:

«أجبني يا صديقي! أأتابعُ تنفيذ مهمتي؟».

ثمَّ جثا أرثر على ركبتيه، وخبَّأ وجهه بين يديه وهو يجيب:

«افعل ما تشاء يا صديقي، افعل ما تشاء. حتى لا يكون هناك بعد الآن سبيلٌ لرعبٍ مثل هذا أبدًا» وتأوهت روحُه كَمَدًا. ذهبتُ أنا وكوينسي في الوقت ذاته نحوه وأمسكنا بذراعيه. سمعنا نقرة الفانوس المقترِب بينما أمسكه ڤان هيلسنغ منزلًا إياه إلى الأسفل، وقد اقترب من القبر وشرع يزيل من الشقوق بعضًا من المادة المقدَّسة التي كان قد وضعها هناك. بينما كنا نتراجع إلى الوراء، نظرنا متفرجين في دهشة يشوبها الرعب إلى المرأة -التي لها جسدٌ مادي حقيقي مثل أجسادنا في تلك اللحظة- وهي تعبُر من خلال فُرْجَةٍ يكاد يستحيل أن يمر عبرها نصل سكين. شعرنا جميعًا بإحساس سعيدٍ من الطمأنينة عندما رأينا ڤان هيلسنغ يعيد بهدوءٍ شرائح المعجون إلى حواف الباب.

بعد أن فرغ من ذلك، رفع الطفل وقال:

«هيَّا بنا الآن يا أصدقائي، لا يمكننا أن نفعل أكثر من هذا حتى الغد، فيوجد جنازة عند الظهر، ولذلك ينبغي لنا أن نأتي إلى هنا قبل مدة طويلة، سيكون أصدقاء الميت قد ذهبوا جميعًا في الساعة الثانية، وعندما يُوْصِدُ خادم الكنيسة البوابة ينبغي لنا أن نبقى هنا. وبعدها سيكون هناك المزيد من الأشياء لنقوم بها، ولكنها لا تشبه ما فعلناه الليلة. أما هذا الطفل الصغير فلم يُصَبْ بأذى كبير، وسيكون في صحة جيدة مع حلول ليل الغد. ينبغي لنا أن نتركه في مكان

تستطيع الشرطة العثور عليه فيه، كما فَعَلْنَا في ليلة سابقة، ومن ثَمَّ سيتكفلون بأخذه إلى أسرته». ثم قال وهو يقترب من أرثر:

«يا صديقي أرثر، لقد مَرَرْتَ بتجربةٍ مؤلمة، ولكن عندما ستستذكرها فيما بعد، سترى كم كانت ضرورية. أنتَ الآن في شاطئ الأمان يا بني. وفي مثل هذا الوقت من يوم الغد، إن شاء الله، ستكون قد تجاوزْتَ اللحظات الصعبة، وستكون قد نلتَ مبتغاك من راحة البال، لذا لا تجزع كثيرًا جدًا. وحتى ذلك الحين لن أطلب منك أن تسامحني».

عاد أرثر وكوينسي معي إلى البيت، وحاوَلَ كلٌّ منا أن يدخل السرور على قلب رفيقيه في الطريق. وكنا قد تركنا الطفل في مأمنٍ، ونال منا التعب، ولذا نمنا جميعًا نومًا يكاد يكون عميقًا إلى حدٍّ كبيرٍ.

٢٩ سبتمبر، *في الليل*- قبيل لحظات من الثانية عشرة مضينا ثلاثتُنَا -أنا وأرثر وكوينسي- إلى البروفسور ڤان هيلسنغ. ومن الغريب أن لاحظنا بأننا ارتدينا كلنا ثيابًا سوداء وكأننا اتفقنا على ذلك. ارتدى أرثر الأسود بالطبع لأنه كان في حالة حزن وحداد، أما بقيتنا فقد ارتدينا الأسود بسلوك غريزي. وصَلنا ساحة الكنيسة في الواحدة والنصف، وتمشَّيْنَا متخفِّين عن عيون مسؤولي المقبرة، بحيث يتسنى لنا أن نبقى وحدنا في المكان بعد أن يفرغ حفَّارو القبور من مهمتهم ويوصد خادم الكنيسة البوابة بعد أن يظن أن الجميع قد غادروا. أحضر ڤان هيلسنغ معه، عوضًا عن حقيبته

السوداء الصغيرة، حقيبةً جلديةً طويلةً، تشبه حقيبة الكريكِت، وثقيلة بصورة لا تخفى على أحد.

عندما صرنا وحدَنا بعد أن سمعنا آخر وقع أقدام المشيعين تتوارى في الطريق، سرنا وراءَ البروفسور إلى المدفن صامِتيْن، وكأننا نفعل ذلك بوحيٍ من نية مبيتة. فَتَحَ قفل الباب، فدخلنا، ثم أغلقناه خلفنا. ومن ثمَّ أخرج من حقيبته الفانوس وأشعَله، وأخرَج أيضًا شمعتين ألصَقَهُما، بعد إشعالهما، من خلال تذويب نهايتيهما على التوابيت الأخرى، بحيث يمكن لهما أن يصدرا ضوءًا كافيًا لأداء المهمة. وعندما رفع مرَّة ثانية الغطاء عن تابوت لوسي نظرنا جميعنا -وأرثر يرتجف مثل شجرة حورٍ رجراجة- ورأينا جثمانها وهو يرقد هناك بكل بهائه الجنائزي. ولكن لم يكن هناك حبٌّ في قلبي تجاهها، لا شيء سوى البغض لذلك الشيء المدنَّس الذي اتخذ هيئة لوسي دون روحها. لا بل حتَّى إنِّي رأيت وجه أرثر يتجهَّم وهو ينظر إليه، ثم قال من فوره لفان هيلسنغ:

«أهذا حقًا جسدُ لوسي، أو أنه فقط شيطانٌ اتَّخَذَ شكلها؟».

«إنه جسدها، ومع ذلك ليس بجسدها. ولكن على رسلك لحظة، وسوف تراها كما كانت، وكما هي على حقيقتها».

بَدَتْ مثل نسخةٍ كابوسية عن لوسي وهي ترقد هناك؛ بأسنانها المدببة، وفمها الشهواني، الملطخ بالدماء -الذي يجعل الناظر إليه يرتجف- ومظهرها الجسدي غير الروحي، الذي يبدو مثل استهزاءٍ شيطاني بنقاء لوسي العذب. شرع فان هيلسنغ بإخراج المواد

المختلفة من حقيبته بمنهجيته المنظَّمَة المعهودة، ووضَعَها جاهزة للاستعمال. أخرَج أولًا كاوية لحام وبعض لحام السمكرة، ومن ثم أخرج سراجًا صغيرًا أصدَرَ غازًا احترَقَ بلهبٍ أزرق ذي حرارة شديدة عندما أشعله في إحدى زوايا القبر، بعدها أخرج مباضع الجراحة، التي وضعها على مقربة منه، وأخرج أخيرًا وتدًا خشبيًا مدوَّرًا، تبلغ ثخانتُه حوالي إنشين ونصف أو ثلاثة إنشات وطوله حوالي ثلاثة أقدام. إحدى نهايتيه مقسَّاة بإحمائها الشديد في النار، ومن ثم تم شحذها حتى صارت بشكل رأسٍ ناعم. ومع الوتد مطرقةٌ ثقيلةٌ، كالمطارق المستخدمة في المنازل لتقطيع الأخشاب. من وجهة نظري، فإن تحضيرات أي طبيب للقيام بعمل من أي نوع تعدُّ مسألة محفِّزة ومنشِّطة، ولكن منظر هذه الأشياء أصاب كلًّا من أرثر وكوينسي بنوعٍ من الهلع. غير أنهما احتفظا برباطة جأشهما، والتزمَا الصمت والهدوء.

عندما بات كل شيء جاهزًا، قال ڤان هيلسنغ:

«قبل أن نباشر فعل أي شيء، دعوني أخبركم أمرًا منبثقًا من المأثورات التقليدية وخبرة القدماء وكل من درس قوى الموتى-الأحياء. فعندما يصبح الموتى-الأحياء على هذه الحالة، تأتي مع التغيير لعنةُ الخلود، إذ لا يمكن أن يموتوا، ولكن يجب أن يستمروا جيلًا إثر جيل وهم يضيفون ضحايا جديدة ويضاعفون شرور العالم، لأن كل أولئك الذين يموتون جراء اقتناص الموتى-الأحياء لهم يصبحون هم ذاتهم موتى-أحياء، ويفترسون أبناء طينتهم. وهكذا تستمر الدائرة في اتساعها الدائم، مثل الأمواج

التي يخلفها حجرٌ على سطح الماء. يا صديقي أرثر، لو أنك حظيتَ بتلك القبلة التي تتذكر واقعتَها قبل أن تموت لوسي المسكينة، أو لو أنك قبلتها مرَّة أخرى في الليلة الماضية عندما فتحتَ ذراعيك لها، لكنت في ذلك الوقت، وبعد أن تموت، قد أصبحتَ نوسفيراتو[1]، كما يسمَّوْنَهم في أوروبا الشرقية، وكنتَ ستتسبب طوال الوقت في إنتاج المزيد من هؤلاء الموتى-الأحياء الذين ملؤوا قلوبنا رعبًا على النحو الذي تراه. فقد بدأت مسيرة هذه السيِّدة المسكينة التعيسة جدًا في ذلك الميدان للتو فحسب، وهؤلاء الأطفال الذين مصَّت دماءهم لم يبلغوا أسوأ مرحلةٍ بعد، ولكن لو بقيت حية بحالة الموتى-الأحياء، فإنهم سيفقدون المزيد والمزيد من الدم، وبسبب سيطرتها عليهم سيأتون إليها، وهكذا ستسحبُ دمَهُم بذلك الفم الموغل في الشرِّ. ولكنها إذا ماتت في الواقع، فسينتهي كل شيء، ستختفي الجروح الصغيرة من رِّقابهم، وسيعودون إلى ألعابهم غير عارفين بما حصل على الإطلاق. ولكن أفضل ما في ذلك كلِّه، هو أنه عندما ترقد هذه الميتة-الحية الآن كميِّتَة حقيقية، فستتحرَّر عندئذٍ روحُ السيدة المسكينة التي نحب. وبدلًا من إتيان الشرِّ في جنح الليل وزيادة الخسة في النهار من خلال الاستفادة من الدماء التي تمصها، فإنها ستتبوأ مقعدها مع الملائكة الآخرين. لذلك يا صديقي، ستكون يدًا مباركة بالنسبة لها تلك اليد التي ستضرب الضربة التي ستحرِّرُها. وإني لراغبٌ في أن أفعلها أنا، ولكن ألا

---

(١) كلمة رومانية تعني «الموتى-الأحياء».

يوجد بيننا من هو أحق بذلك؟ ألن يكون من غير المبهج التفكير بالآخرة في صمت الليل عندما يجافينا النوم: (كانت يدي هي التي أرسَلَتْهَا إلى النجوم، وكانت يده هي التي أحبتها أفضل حب، ما اليد التي كانت ستختارها من بين أيدي الجميع، لو ترك لها الخيار؟) أخبروني إنْ كان ثمة شخص بيننا يملك تلك اليد؟».

نظرنا جميعًا إلى أرثر. وقد أدرك الفضل غير المحدود الذي ستناله يده حيث ستُعيد لوسي إلينا كذكرى مبجَّلة لا شريرة، فتقدَّم إلى الأمام وقال بشجاعة، رغم أن يده كانت ترتجف، ووجهه شحب مثل الثلج:

«يا صديقي الوفي، إني لأشكرك من صميم فؤادي المنفطِر. قل لي ماذا عليَّ أن أفعل، ولن أتوانى عن فعله!». وضع ڤان هيلسنغ يده على كتفه وقال:

«ونِعْمَ الشاب الشجاع! ما هي إلَّا شجاعة لحظة وينتهي الأمر. عليكَ إدخال هذا الوتد في جسدها. ستكون تجربة قاسية مخيفة – لن أخدعك – ولكنها ستحتاج منك وقتًا قصيرًا فقط، وبعدها ستفوق بهجتك ألمك، وستخرج من هذا القبر المُعْتِم وكأنك تحلِّق في الهواء. ولكن عليك ألَّا تتوانَى حالما تبدأ. وتذكَّر فقط أننا نحن، أصدقاؤك الأوفياء، نشد من أزرك، وندعو لك طوال الوقت».

قال أرثر ببُحَّةٍ في صوته: «استمر. قلْ لي ماذا عليَّ أن أفعل».

«أمسك هذا الوتد بيسارك، واستعدَّ لتضع رأسه فوق قلبها، وأمسك بالمطرقة بيمينك. ومن ثمَّ وعندما نبدأ صلاتنا على الميِّتة –

وسأتلو أنا الصلاة عليها، لأن الكتابَ معي هنا، وسيردِّد الآخرون ورائي - اضرب باسم الله، بحيث تصير أمور السيِّدة الميتة التي نحب على خير ما يرام وتموت الميتة-الحية التي تسكن جسدها».

أمسك أرثر الوتدَ والمطرقة، وحالما ترسَّخ في ذهنه ما سيفعل لم ترتجف يداه أو ترتعش. فتح ڤان هيلسنغ كتاب صلوات القدَّاس وبدأ القراءة، وردَّدْنا وراءَه أنا وكوينسي قدر استطاعتنا. وضع أرثر رأس الوتد على قلبها، وبينما نَظَرْتُ رأيتُ النقرة التي أحدثها في اللحم الأبيض. ثمَّ ضرب بكل ما أوتي من قوة.

تلوَّى الشيء الراقد في التابوت، وصدرت عن الشفتين الحمراوين المفتوحتين زعقةٌ شنيعة تقشعرُّ لها الأبدان. اهتز الجسد وارتعش وتلوى في انقباضات مريعة، واصطكَّت الأسنان البيضاء الحادة ببعضها حتى جرحت الشفتين، وتلطَّخ الفم برغوةٍ قرمزية. ولكنَّ همَّة أرثر لم تفتر، فقد بدا مثل تجلٍ للإله ثُوْرْ[1] وذراعه الثابتة البأس تعلو وتهبط، بينما يدفع وتد الرحمة أعمقَ وأعمقَ، حتى فاض الدم من القلب المثقوب وتدفق حوله. كان وجهه صارمًا، وبدا أن الإحساس العالي بالمسؤولية يشع على محياه، فمنَحَنَا منظرُه الشجاعةَ حتى بدت أصواتُنَا ترن عبر السرداب الصغير.

بعد ذلك خفَّ تلوِّي جسد لوسي وارتعاشه، وبدا أن الأسنان ما زالت تصطك، والوجه يرتعش. وأخيرًا استلقى الجسد ساكنًا. وانتهت المهمة الرهيبة.

---

(١) إله الرعد في الأساطير النوردية القديمة في سكيندينافيا.

سقطت المطرقة من يد أرثر، وترنَّح وكاد يسقط لو لم نمسك به. سالت قطرات عظيمة من العرق من جبينه، وزفر أنفاسَه بصورة نغبات متكسرة. لقد كان ذلك إجهادًا مريعًا بالنسبة له، ولو لم يكن قد أجبرَ على مهمته بسبب اعتبارات إنسانية لما كان أقدم عليها ألبتة. انشغلنا به بضع دقائق حتى إنَّنَا لم ننظر نحو التابوت. وعندما نظرنا، عَبَرَتْ همهمة من الدهشة الجافلة من أحدنا إلى الآخر. وحملقنا بحماسة حتى إنَّ أرثر نهض -إذ كنا قد أجلسناه على الأرض- وجاء ينظر معنا، فاجتاح وجهَه ضوءٌ غريبٌ بهيٌّ أزال كآبة الرعب الجاثم فوقه تمامًا.

هناك، في التابوت قُضِيَ على الشيء الدنس الذي ملأ قلوبنا برعبٍ عظيم وبتنا نكرهه حتى أن مسألة التخلص منه صارت شرفًا لأرثر الذي حقَّ له القيام به أكثر من غيره، وحل مكانه جسد لوسي كما عرفناها في حياتها، بوجهها الذي يتميَّز بالعذوبة والنقاء اللذين لا مثيل لهما. صحيح أنه ارتسمت على الجسد آثار الألم وفقدان الدم، كما شهدناها في حياة لوسي، ولكن كل تلك الآثار عزيزة علينا، لأنها تدل على حقيقتها التي عرفناها. شعرنا بلا استثناء بأن الهدوء الجليل الذي يرقد مثل شعاع الشمس فوق الوجه والهيئة اللذين فقدناهما كان مجرد علامة دنيوية عن السكينة التي ستسود إلى الأبد.

جاء ڤان هيلسنغ ووضع يده على كتف أرثر، وقال له:

«والآن يا صديقي أرثر، أيها الشاب العزيز، ألم تسامحني؟».

كانت ردة فعل أرثر الناجمة عن الإجهاد الرهيب هي الإمساك

بيد البروفسور العجوز ڤان هيلسنغ، وقال وهو يرفعها نحو شفتيه ضاغطًا عليها:

«أسامحك! فليباركك الله لأنك منحتَ خطيبتي العزيزة روحَهَا مرة أخرى، وأنزلتَ الطمأنينة على قلبي». ثم وضع يديه على كتف البروفسور، ووضع رأسه على صدره وانتحب برهةً بصمت، بينما وقفنا نحن دون حراك. عندما رفع رأسه قال له ڤان هيلسنغ:

«والآن يا بنيَّ، يمكنك أن تقبِّلَهَا. قبِّل شفتيها الميتتين إذا شئت، كما كانت ستكون رغبتها لو تُرِكَ لها الخيار. فهي لم تعُدْ شيطانًا مكشِّرًا عن أنيابه الآن، ولم تَعُدْ شيئًا دنسًا إلى الأبد. كما لم تَعُدْ من شياطين الموتى-الأحياء. بل هي ميتة حقيقية من أموات الله، وروحها بين يديه!».

انحنى أرثر وقبَّلها، ومن ثم طلبنا منه ومن كوينسي أن يغادرا المدفن. نَشَرْتُ والبروفسور أعلى الوتد، وتركنا رأسَه داخل جسدها. ثم فَصَلْنَا الرأسَ وملأنا الفم بالثوم. ولَحَمْنَا طبقة الرصاص ثم ثبَّتْنَا غطاء التابوت وجمعنا حوائجنا ومضينا في سبيلنا. بعدما أوصد البروفسور الباب أعطى أرثر المفتاح.

كان الهواء في الخارج منعشًا، والشمس مشرقة، والطيور تشدو، وبدا وكأنَّ الطبيعة كلها نُغِّمَت على إيقاع مختلف. فهناك سرور وفرح وطمأنينة في كل مكان، لأننا نلنا نحن السكينة بسبب ما عملناه، وكنَّا مسرورين.

قبل أن ننطلق قال ڤان هيلسنغ:

«والآن يا أصدقائي، لقد فرَغنا من خطوة واحدة في مهمتنا، وهي الأكثر ترويعًا بالنسبة لنا. ولكن تبقَى هناك مهمة أعظم: أن نجد المتسبب في كل حزننا هذا وأن نضع حدًا له. وعندي قرائن يمكننا أن نستنير بها، ولكنها مهمة طويلة وصعبة، ومحملة بالخطر والألم. فهلا ساعدتموني جميعًا في تنفيذها؟ فلقد تعلَّمْنَا جميعنا أن نؤمن، أليس الأمر على ذلك النحو؟ وفي ضوء ذلك، ألا نعرف ما هو واجبنا؟ بلى! ألم نتعهد بأن نستمر حتى النهاية؟».

أمسكنا بيده، كلٌّ بدوره، وأقسمنا على ذلك. ثم قال ڤان هيلسنغ ونحن نفترق:

«بعد ليلتين من الآن ينبغي لكم أن تقابلوني وسنتناول العشاء معًا في الساعة السابعة مع الصديق جون. سأدعو إلى العشاء شخصين آخرين، شخصين لا تعرفونهما حتى الآن، وسأكون على استعدادٍ لأبيِّن لكم كل ما سنفعله وسأبلغكم بخططنا. يا صديقي جون، تعال معي إلى البيت، لأن في جعبتي الكثير من الأمور التي أريد التشاور فيها ويمكنك أن تساعدني. سأغادر الليلة إلى أمستردام، ولكني سأعود ليل الغد. ومن ثَمَّ يبدأ بحثُنا العظيم. ولكن في البداية ينبغي لي أن أقول الكثير من الأشياء، بحيث يتسنَّى لكم أن تعرفوا ماذا سنفعل وما هي المخاوف التي تنتظرنا. ومن ثم سنقسم على العهد أحدنا للآخر مجددًا، لأن هناك مهمة رهيبة تنتظرنا، فحالما نضع أقدامنا على سكَّة المحراث، يجب علينا ألَّا نتراجع».

الفصل السابع عشر

تتمة مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

عندما وصلنا فندق بيركلي، وجد ڤان هيلسنغ بانتظاره برقيةً هذا نصها:

«أنا قادمة بالقطار. جوناثان في وِتْبِي. هناك أخبار مهمة – مينا هاركر».

ابتهج ڤان هيلسنغ وقال: «آه، إنَّ تلك المرأة الرائعة السيِّدة مينا لؤلؤةٌ بين النساء! ستصل إلى هنا ولكني لا أستطيع البقاء. ينبغي لها أن تذهب إلى منزلك في المصحة يا صديقي جون. عليك أن تستقبلها في المحطة. أرسل لها برقية وهي في طريقها، بحيث يمكن لها أن تتهيّأ لذلك».

كان يحتسي كوبًا من الشاي عندما أُرْسِلَت البرقية، وحدَّثني وهو يشربه عن دفتر مذكَّرات كتبه جوناثان هاركر عندما كان خارج إنجلترا، وأعطاني نسخة منه مطبوعة على الآلة الكاتبة، وكذلك أعطاني نسخةً عن مذكرات السيدة هاركر التي كتبتها أثناء وجودها في وِتْبِي، ثمَّ قال: «خذ دفتري المذكَّرات هذين، واقرأهما

بإمعان شديد. وعندما أعود ستكون قد اطَّلعتَ على الوقائع كافة، ويمكننا عندئذٍ أن نباشر تحرِّياتنا. احفظهما في مكان آمن، ففيهما كنز كبير من المعلومات. وستحتاج كل إيمانك -حتَّى أنتَ الذي خضت مثل تلك التجربة الرهيبة التي رأيتَها اليوم- فما هو مكتوبٌ هنا...» ثم وضع يده بقوةٍ وإحكامٍ على رزمة الأوراق وتابع حديثه قائلًا: «...قد يكون بداية النهاية بالنسبة لكَ ولي ولعددٍ غير محدود من الناس غيرنا، أو قد يبدو ذلك إنذارًا بالفناء للموتى-الأحياء الذين سيجوبون الأرض. أرجو أن تقرأها كلَّهَا بذهن متفتح، وإذا استطعتَ أن تضيف أي شيء بأي طريقة إلى القصة المروية هنا فافعل ذلك، لأنها في غاية الأهمية. فقد دوَّنْتَ أنتَ مذكَّراتٍ بكل تلك الأشياء الغريبة جدًا، أليس الأمر على ذلك النحو؟ بلى! وعندئذٍ علينا أن نتصفَّح كل هذه المذكَّرات معًا عندما نلتقي». استعدَّ ڤان هيلسنغ لسفره، وبعد مدَّةٍ قصيرة انطلق بالعربة من شارع ليڤربول. اتجهتُ إلى پادنغتُن، حيث وصلتُ قبل حوالي خمس عشرة دقيقة من وصول القطار.

تلاشى الجَمْعُ بعد موجة الازدحام الشديد التي تميِّز الأرصفة التي ينزل عليها الركَّاب الواصلون، وعندما بدأتُ أشعر بالاضطراب خشية من أن أكون قد ضيَّعْتُ ضيفتي، تقدَّمتْ صوبي فتاةٌ أنيقة المنظر، جميلة الوجه، وبعد نظرةٍ سريعة قالت: «أنتَ الدكتور سيوِرْد، أليس كذلك؟».

«وأنتِ السيِّدة هاركر!» أجبتُ من فوري، فمدَّت يدَها لتصافحني.

«أنا أعرفكِ بناءً على وصف عزيزتي المسكينة لوسي؛ ولكن...» توقَّفْتُ عن الحديث فجأة، واجتاحَ وجهَهَا تورُّدٌ خاطف.

كما أنَّ التورُّدَ الذي اجتاح وجنتيَّ أيضًا بثَّ فينا كلانا الطمأنينة نوعًا ما، إذ كان تورُّدُ وجنتيَّ جوابًا ضمنيًا على تورُّد وجنتيها. حملتُ أمتعتها التي تحوي من بين ما تحويه آلةً كاتبةً، واستقلينا المترو إلى شارع فِنْتشرش، بعد أن أرسلتُ برقيَّةً إلى مدبِّرة منزلي حتى تجهِّز في الحال غرفة جلوسٍ وغرفة نوم خصيصًا للسيِّدة هاركَر.

وصلنا في الوقت المحدد. إنها تعرف بالطبع أن المنزل ليس سوى مصحة نفسيَّة، وقد لاحظت عدم قدرتها على كبح جماح رجفةٍ ألَمَّتْ بها عندما دَخَلْنَا.

قالت لي إنها ترغب، بعد إذني، في المجيء مباشرة إلى مكتبي، إذ لديها الكثير لتقوله. ولذا فسوف أفرغ من تسجيل باب المذكَّرات هذا على فونوغرافي وأنا أنتظرها. حتى الآن لم أحظَ بالفرصة للاطلاع على الأوراق التي تركَهَا معي ڤان هيلسنغ، رغم أنها مفتوحة أمامي. عليَّ أن أشغِلَهَا بشيء يبهجها، حتى تتسنَّى لي الفرصة لقراءة الأوراق. فهي لا تدرك كم هو ثمين الوقت، ولا تعرف أيضًا جسامةِ المهمة العظيمة التي بين أيدينا. وعليَّ أن أتوخَّى الحذر كي لا أخيفها. ها هي ذي تأتي!

٢٩ سبتمبر- بعد أن رتَّبْتُ هيئتي، نزلتُ إلى مكتب الدكتور سيوِرْد. وعند الباب توقَّفْتُ لحظة، لأني حسبت أني سمعته يتحدَّث إلى شخص ما. ونظرًا لأنَّه كان قد ضغط علي حتى أسرع بالمجيء، فقد طرقتُ الباب، وعندما سمعتُه يأذن لي بالدخول، دَخَلْتُ.

أثار دهشتي الشديدة عدمُ وجود أي شخصٍ عنده. بل كان وحده تمامًا، وعلى الطاولة قُبَالَتَه وُضِعَ جهازٌ عرفتُ من فوري أنه فونوغراف من خلال الوصف إذ لم أرَ واحدًا من قبل، وكنت سعيدة جدًا لذلك، ثم قلتُ له:

«أرجو ألا أكون قد جعلتُكَ تنتظرني، ولكني بقيت على الباب لأني سمعتك تتحدَّث، وظننتُ أنَّ عندَك أحدٌ ما هنا».

فأجاب بابتسامة: «أوه، كنتُ فقط أسجل مذكَّراتي».

«مذكراتك؟» سألتُه وقد اعترتني الدهشة، فأجاب:

«نعم، فأنا أسجِّلها على هذا». وبينما كان يتكلَّم وضع يده على الفونوغراف. شعرتُ بالبهجة لذلك، وقلتُ دونما تروٍّ:

«عجبًا، إنَّ هذه وسيلة تتفوَّق حتَّى على كتابة المذكَّرات بأسلوب الاختزال! أيمكنني أن أسمعه يقول شيئًا؟».

«بالتأكيد» أجابَ بحماسةٍ وانشراحٍ، ووقف ليشغِّل الفونوغراف على وضعية التحدُّث. ومن ثم توقَّف عن ذلك، واجتاحَت محيَّاه نظرةٌ مرتبكةٌ. وشرع يقول على حَرَج:

«الحقيقة أنِّي أسجل فقط مذكَّراتي عليه، ونظرًا لأنها كلها -أو أغلبها- مذكرات تتحدَّث عن قضايا تخصني، فربما يكون الأمر محرجًا -أقصد، أعني...» توقَّف، وحاولتُ أن أمدَّ له يد العون حتى يتجاوز ارتباكَه فقلتُ: «لقد ساعدتَ في العناية بلوسي العزيزة في النهاية. أريد أن أسمع منك تفاصيل موتها، إذ لا أعرف أكثر من أنها ماتت، وسأكون ممتنة جدًا لك. إن لوسي عزيزةٌ جدًا جدًا عليَّ».

دُهِشْتُ إذ أجابَنِي، وقد ارتسمت على وجهه نظرةٌ مذعورة:

«أُخْبِرْكِ عن موتها؟ ما كنتُ لأفعل ذلك مهما كلَّف الأمر!».

«ولم لا؟» سألتُه، إذ اعتراني قلق رهيب. توقَّفَ عن الحديث مرة ثانية، ورأيتُ أنه كان يحاول اختلاق عذر، ثم ما لبث أن قال متلجلجًا بعد انتظارٍ مديدٍ:

«كما ترين، فأنا لا أعرف كيف أختار أي جزء محدَّدٍ من مذكَّراتي». وبينما كان يتكلم لاحت له فكرة فقال ببساطة عفوية، بصوتٍ مختلفٍ، وبسذاجة طفل: «ذلك صحيح تمامًا، صدِّقيني، وأقسم على ذلك بشرفي!». لم يكن مني إلَّا وابتسمتُ ابتسامةً قابَلَهَا بجبينٍ مقطب وقال: «سأكون قد كشفْتُ أسراري حينها! ولكن أتعلمين أنَّه لم يخطر في بالي قط كيف يمكنني أن أجد مقطعًا معينًا في مذكراتي في حال أردت إيجاده، رغم أني ما فتئت أسجلها خلال الأشهر الماضية؟» في هذه اللحظة بتُّ جازمة بأنَّ مذكرات طبيبٍ قد اعتنى بلوسي يمكن أن تحوي شيئًا ما يضاف إلى جملة معرفتنا بالكائن الرهيب، فقلتُ له بجرأة:

«إذن، يا دكتور سيوِرْد، الأفضل لكَ أن تدعني أنسخ لكَ مذكراتك المسجَّلة وأطبعها على آلتي الكاتبة». نما في وجهه شحوب رهيب وقال:

«لا! لا! لا! لن أدعكِ تعرفين تلك القصة المريعة مهما تكن الأسباب!».

هي مريعةٌ إذن، وحدسي كان صحيحًا! فكَّرتُ لحظةً، وبينما جال بصري في أرجاء مكتبه، وأنا أبحث بصورة عفوية عن شيء أو فرصة تساعدني، وَقَعَتْ عيناي على رزمة ضخمة من الأوراق المطبوعة على الآلة الكاتبة موضوعة على الطاولة. ولاحظَتْ عيناه النظرةَ التي ارتسمت في عينيَّ، فتابعها دون تفكير في الاتجاه الذي كانتا تنظران فيه. وعندما وَقَعَتْ عيناه على رزمة الأوراق أدْرَك مُرَادي.

قلتُ له: «أنتَ لا تعرفني. وبعد أن تقرأ تلك الأوراق -وهي مذكَّراتي ومذكَّرات زوجي أيضًا، وقد طبعتُهُما على الآلة الكاتبة- فإنك ستعرفني بصورة أفضل. فأنا لم أتوانى عن إبداء كل فكرة حدَّثني بها قلبي في هذه القضية، ولكن بالطبع أنتَ لا تعرفني حتى الآن، وعليَّ ألَّا أتوقَّع أنك تثق بي حتى هذه اللحظة».

إنَّه بالتأكيد رجلٌ من معدن نفيس، وقد كانت عزيزتي المسكينة لوسي محقَّة في ما قالته عنه. وقَفَ وفتح دُرْجًا كبيرًا، وبطريقة منظمة جدًا رُتِّبَت فيه مجموعة من الأسطوانات الفارغة من المعدن المغطَّى بشمع أسودٍ، وقال:

«معك كل الحق. فأنا لم أثق بكِ لأنِّي لم أعرفك. ولكني أعرفكِ الآن، ودعيني أقلْ لكِ إنه كان ينبغي لي أن أعرفك منذ مدة طويلة. أعرف أن لوسي حدَّثَتْكِ عني، كما حدَّثتْنِي عنكِ أيضًا. أيمكنني أن أؤدي الكفَّارة الوحيدة التي أستطيع دفعها؟ خذي الأسطوانات واستمعي إليها، فنصف الدزينة الأولى منها تحوي تسجيلات شخصية لي، ولن ترعبك، وعندها ستعرفينني بصورة أفضل. سيكون العشاء جاهزًا بحلول ذلك الوقت. وأثناء ذلك سأقرأ بعضًا من هذه الأوراق قراءة متمعنة، حتى أكون أقدَرَ على فهم أمور معينة». حمل الفونوغراف بنفسه إلى غرفة جلوسي وجهَّزَهُ لي. والآن أنا متأكدة أنني سأطَّلع على شيء مسلٍ، وسأتعرف على الجانب الآخر من قصة حبٍّ حقيقية أعرف جانبَها الأول سلفًا...

مذكرات الدكتور سيوَرْد

٢٩ سبتمبر- كنتُ منهمكًا جدًا في قراءة تلك المذكرات الرائعة التي كتبها جوناثان هاركر والمذكرات الأخرى التي كتبَتْها زوجته حتى إنَّ الوقت مرَّ دون أن أنتبه. لم تكن السيِّدة هاركر قد نزلت عندما جاءت الخادمة مسرعة لتطلب منا التوجُّه إلى العشاء، ولذا فقد قلتُ: «على الأرجح أنها متعبة، فلنرجئ موعد العشاء ساعة». وهكذا تابعتُ القراءة. دخَلَتْ عليَّ المكتب وكنت قد فرغتُ للتو من قراءة المذكَّرات التي كتَبَتْهَا. بدَا جمالها عذبًا، ولكنها كانت حزينة جدًا، وعيناها محمرتان من البكاء. أثَّر فيَّ ذلك كثيرًا. قد صرت أمتلك مؤخرًا سببًا للبكاء، ويعلم الله ذلك! ولجَ منظرُ

هاتين العينين العذبتين، البراقتين بدموعٍ حديثة العهد، قلبي مباشرة الآن. ولذا قلتُ بألطف نبرة استطعتُها:

«أخشى كثيرًا أن أكون قد سبَّبْتُ لك الكدر».

فأجابت: «أوه، لا، لم تسبِّب لي الكدر، ولكني تأثَّرْتُ بصورة عصية على الوصف بسبب حزنك. فذلك الفونوغراف آلة عجيبة، ولكنَّه صادقٌ لدرجةٍ توجع القلب. فقد حدثني بنغماته المباشرة، بعذاب قلبك. كان مثل روح تبكي متضرِّعة إلى الله القدير. ولا ينبغي لأحدٍ أن يسمعها منطوقة مرة أخرى أبدًا! أترَى! لقد حاولت أن أكون ذات فائدة. فقد نسختُ مذكراتك على آلتي الكاتبة، ولن يحتاج أحد بعد الآن لأن يصغي إلى نبضات قلبك مثلما فعلتُ أنا».

«ما من حاجةٍ لأن يعرف أحد أبدًا، وما من أحد سيعرف إطلاقًا» قلتُ بصوت خافت. فوضَعَتْ يدَها على يدي وقالت بجديةٍ بالغةٍ:

«آه، ولكن ينبغي لهم أن يعرفوا!».

« ولماذا ينبغي ذلك؟». سألتُ.

«لأنه جزء من القصة الرهيبة، جزء من وفاة عزيزتي المسكينة لوسي وكل تلك الأحداث التي أدَّت إلى موتها، لأنه في خضم صراعنا لنخلِّصَ الأرض من هذا الوحش الرهيب، ينبغي لنا أن نحوز كل المعرفة وكل العون الذي يمكننا أن نحصل عليه. وأظن أن الأسطوانات التي أعطيتَنِي إياها تحوي معلوماتٍ تفوق ما

أرَدْتَ لي أن أعرف، وأعتقد أنه يوجد في مذكراتك المسجَّلة العديد من الإضاءات على هذا اللغز الغامض. ستدعني أقدم العون في القضية، أليس كذلك؟ فأنا أعرف كل شيء حتى تصل الأحداث إلى نقطة معينة، وقد رأيت سلفًا، رغم أن مذكراتك تشمل الفترة الممتدة فقط حتى ٧ سبتمبر، كيف أحدَقَ الكَرْبُ بلوسي المسكينة وكيف تبلوَرَ مصيرها الرهيب. ظللت وجوناثان نعمل ليل نهار منذ أن رآنا البروفسور ڤان هيلسنغ. وقد ذهب إلى وِتْبِي ليحصل على المزيد من المعلومات، وسيعود إلى هنا غدًا ليساعدنا. لا نحتاج لإخفاء الأسرار عن بعضنا، فإذا ما عملنا معًا بثقة مطلقة، يمكننا بالتأكيد أن نكون أقوى مما لو كان بعضٌ منا لا يعرفون شيئًا».

نَظَرَتْ إليَّ بهيئة المهتمة كثيرًا، وفي الوقت نفسه أظهَرَت الشجاعة والعزم في تحمُّلها، حتى إني رضختُ من فوري لرغباتها، فقلتُ: «ينبغي لك أن تفعلي ما تشائين في المسألة. وليسامحني الله إذا أخطأتُ! فهناك أمورٌ رهيبة ما زلتِ لا تعرفينها، ولكن كونك مضيِت حتى بلغتِ لحظة وفاة لوسي المسكينة، فإني أعلم أنه لن يسرك أن تظلي جاهلة ببعض الخفايا. لا داعي لأن تعرفي، فالنهاية -النهاية الأخيرة- ربما تمنَحُك وميضًا من طمأنينة. تفضَّلي العشاء جاهز. ويجب أن يبقي أحدنا الآخر قويًا لمواجهة ما ينتظرنا، فأمامنا مهمة قاسية ومروعة. بعد أن تفرغي من عشائك ستكونين قد عرفتِ بقيَّة القصة، وسأجيب عن أي أسئلة تطرحينها -إذا ما كان هناك أي شيء لم تفهميه- رغم أن الأمر كان واضحًا لنا نحن الذين حضرنا الواقعة».

٢٩ سبتمبر- ذهبت بعد العشاء مع الدكتور سيوِرْد إلى مكتبه. أعاد الفونوغراف من غرفتي، فيما حملتُ أنا آلتي الكاتبة. أجلَسَني في كرسي مَريح وجهَّزَ الفونوغراف بحيث يمكنني أن ألمسه دون أن أنهض، وعلَّمَنِي كيف أوقِفُه في حال رغبتُ في التوقف. ومن ثمَّ أخذ كرسيًا بعنايةٍ شديدةٍ، وجلس عليه وظهرُه باتجاهي، بحيث يتسنى لي أن أكون حرَّة قدر الإمكان، وشرع يقرأ بينما وضعتُ بوقَ الفونوغراف الملتوي قرب أذني وأصغيت.

عندما فرغتُ من الاستماع إلى قصة وفاة لوسي، وكل ما تلاها من أحداثٍ، استلقيت في كرسيي خائرة القوى. ولحسن الحظ لم يصل بي الحال إلى مرحلة الغيبوبة. عندما رآني الدكتور سيوِرْد وثبَ وهو يصيح مرتعبًا، وتناول بسرعة قنينة كبيرة من خزانة، وسقاني منها بعض البراندي والذي جعلني أصحو بدرجة ما خلال دقائق. كان دماغي بأكمله مثل دوامة، والبريق الوحيد الذي انبثق من بين كل هذا العدد الكبير من الأهوال هو الشعاع المقدَّس من الضوء الذي ذكَّرَني أن عزيزتي لوسي قد ارتاحت أخيرًا، ولا أظنني كنت قادرة على تحمُّل الأمر دون المشاركة فيه بطريقةٍ فعَّالة. كان الأمر كله مرعبًا، وغامضًا، وغريبًا جدًا حتى إنني لو لم أكن على دراية بتجربة جوناثان في ترانسلفينيا لما صدَّقت. وكما كانت عليه الحال، لم أعرف ماذا أصدِّق، ولذا خرجت من مأزقي من خلال الاهتمام بشيء آخر. نزعت الغطاءَ عن آلتي الكاتبة، وقلتُ للدكتور سيوِرْد:

«دعني أكتب هذا كله الآن. يجب أن نكون مستعدين لاستقبال الدكتور ڤان هيلسنغ عندما يأتي. لقد أرسلتُ برقية إلى جوناثان حتى يأتي إلى هنا عندما يصل إلى لندن عائدًا من وِتْبِي. التواريخ هي كل شيء في هذه القضية، وأظنّ أنه إذا جهزنا كل مادتنا، ووضعنا كل شيء وفق ترتيبه الزمني، فإننا سنكون قد أنجزنا عملًا كبيرًا. لقد أخبرتني أنَّ اللورد غودالمنغ والسيِّد مورِس قادمان أيضًا. فلنكن قادِرَيْن على إبلاغهما عندما يأتيان». ضبَطَ الفونوغراف وفقًا لذلك على السرعة البطيئة، وبدأتُ الطباعة على الآلة الكاتبة منذ بداية التسجيل الموجود على الأسطوانة السابعة. استخدمتُ عدَّة رزم من الورق، وهكذا طبعتُ ثلاثة نسخ من المذكرات، تمامًا مثلما كنت قد فعلتُ مع باقي الصفحات. كان الوقت قد تأخر عندما استكملتُ الطباعة، ولكن الدكتور سيوِرْد مضى في جولته يستطلع أحوال مرضاه، وعندما فرِغ من ذلك عاد وجلس يقرأ قربي حتَّى لا أشعر بالوحدة الشديدة بينما أطبع. يا له من إنسان طيب ورصين! يبدو أن العالم مليء بالطيِّبين، حتَّى وإن كان فيه وحوش. قبل أن أتركه تذكَّرْتُ ما قاله جوناثان في مذكراته عن اضطراب البروفسور عند قراءته خبرًا في صحيفة مسائية في محطة القطار في إكْسِتَر، ولذلك، وعندما رأيتُ أن الدكتور سيوِرْد يحتفظ بصحفه التي يقرؤها، استعرتُ أعداد صحف «ويستمينستر غازيت» و«ذا پول مول غازيت» وأخذتُها إلى غرفتي. أذكر جيدًا أن القصاصات التي قصصتها من صحيفتي «ذا ديليغراف» و«ذا وِتْبِي غازيت» قدَّمَت لنا عونًا كبيرًا في فهم الأحداث الرهيبة التي وقعت في وِتْبِي عندما حطَّ

الكونت دراكولا رحاله فيها، ولذا ينبغي لي الاطلاع على الصحف المسائية الصادرة منذ ذلك الحين، وربَّما يمكنني أن أستخلص بعض المعلومات الجديدة. لا أشعر بالنعاس، وسيساعدني العمل على أن أبقى هادئة.

مذكَّرات الدكتور سيوُرد

٣٠ سبتمبر- وصل السيِّد هاركر في الساعة التاسعة. وقد وصَلَتْه البرقيَّة التي أرسلَتْهَا زوجتُه قبل أن ينطلق في رحلته. إنه شخص ذكي فوق العادة، إذا ما جاز للمرء أن يحكم عليه من ملامح وجهه، كما أنه يفيض حيوية. ولو كانت هذه اليوميات التي كتبها صحيحة -ويجب أن يكون هذا الحكم صادرًا عن شخص خاض العديد من التجارب المذهلة- فهو أيضًا رجلٌ ذو أعصاب هائلة. فالذهاب إلى السرداب مرَّة ثانية كان مأثرة بارزة من مآثر الإقدام والجسارة. بعد قراءة ما كتبَه عن تجربته في القلعة بتُّ جاهزًا للقاء شخصٍ يمثِّل الرجولة في أبهى صورها، ولكن الشخص الذي جاء إلى هنا اليوم بالكاد يمثل صورة التاجر المحترم الهادئ.

لاحقًا- بعد الغداء عاد هاركر وزوجته إلى غرفتهما، وعندما مررْتُ قبل برهة سمعتُ صوت الضرب على الآلة الكاتبة. إنهما يبذلان أقصى جهد في ذلك. تقول السيدة هاركر إنهما يحبكان معًا وفق التسلسل الزمني كل ذرَّة من القرائن التي بحوزتهما. وقد حصل جوناثان هاركر على الرسائل الخاصة بالصناديق بين شركة

النقل في لندن والتي تولَّت مسؤولية نقلها، وبين الجهة المرسل إليها في وِتْبِي. وهو الآن يقرأ مذكراتي التي طبَعَتْهَا زوجته على الآلة الكاتبة. وأتساءل ما الذي استخرجاه منها. ها هو آتٍ...

من الغريب أنه لم يخطر في بالي قط أن المنزل المجاور للمصحة بالذات ربما يكون مخبأ الكونت! ويعلم الله أنه كان في حوزتنا أدلة كافية من سلوك المريض رينفيلد! فرزمة الرسائل المتعلقة بشراء المنزل كانت مع النصوص المكتوبة للمذكَّرات. أوه، لو أننا حصلنا عليها في وقت مبكِّر لربما أنقذنا حياة لوسي المسكينة! مهلًا، فهناك يكمن الجنون! لقد عاد هاركر، وها هو مرة ثانية يراجع مادته بدقة. يقول إنه بحلول وقت العشاء سيكونون قادرين على تقديم رواية مترابطة كاملة. وهو يظن أنه عليَّ في الوقت الحالي أن أزور رينفيلد، لأنه ما انفكَّ حتى الآن يشكِّل مؤشرًا على قدوم الكونت وذهابه. ولا يزال يشق عليَّ أن أقتنع بذلك حتى الآن، ولكن ربما أفعل حين أطَّلعُ على التواريخ. إنه لمن الجيد أن السيِّدة هاركر طبعت مذكراتي المسجَّلة على أسطوانات الفونوغراف! ولولا ذلك ما كنا لنستطيع أبدًا أن نجد التواريخ...

وجدتُ رينفيلد جالسًا بوداعة في حجرته ويداه مثنيتان، مبتسمًا ابتسامة لطيفة. بدا في تلك اللحظة عاقلًا مثل أي إنسانٍ أعرفه. جلستُ وتحدثت معه في العديد من المواضيع، وقد تحدَّث معي فيها كلها بصورة طبيعية. ومن ثمَّ، تحدَّث من تلقاء نفسه عن العودة إلى البيت، وهو موضوع لم يأتِ على ذكره قط حسب معلوماتي خلال

إقامته المؤقتة هنا. وقد تحدَّث في الواقع بثقة كبيرة عن خروجه من المصحة من فوره. أعتقد أنني، لو لم أتجاذب أطراف الحديث مع هاركر وأقرأ الرسائل وتواريخ نوبات اهتياجه، لكنت تهيأت الآن لأوقِّع له على شهادة الخروج من المصحة بعد وقتٍ وجيز من المراقبة. فطالما أن الحال كذلك، فأنا متشكك على نحوٍ ملتبس إزاء ذلك. كل تلك النوبات مرتبطة بطريقة ما بمجاوَرَة الكونت. ماذا يعني إذن هذا الشعور الكامل بالرضا؟ أيمكن أن يكون سببه أن غريزته أشبعت نتيجة الانتصار المطلق لمصَّاص الدماء؟ ومع ذلك، فهو نفسه آكل الحيوانات، وخلال نوبات اهتياجه المرعبة خارج باب الكنيسة الصغيرة في المنزل المهجور تكلَّم دائمًا عن «السيِّد». ويبدو أن ذلك كله يؤكِّد فكرتنا. ذهبتُ بعد برهة على أي حال، فصديقي رينفيلد عاقل جدًا في الوقت الحالي فقط ومن الآمن أن أسبر أغواره عميقًا بالأسئلة. فربما يبدأ في التفكير، ومن ثمَّ...! ولذا فقد تركته. لست أثق في حالات المزاج الهادئة التي تصيبه، ولذا أشرت للمساعد بأن يعتني به عناية لصيقة، وأن تكون الصدرية جاهزة عند الحاجة.

يوميات جوناثان هاركر

٢٩ *سبتمبر، في القطار إلى لندن*– عندما وصلتني رسالة السيِّد بيلنغتُن اللطيفة التي أبلغني فيها بأنه سيزودني بأي معلومات في حوزته، حسبت أنه من الأفضل أن أذهب إلى وِتْبِي وأن أقوم بتحريات على أرض الواقع كما أريد. شغلي الشاغل الآن هو تقفي

أثر تلك البضاعة الرهيبة التي أرسلها الكونت إلى منزله في لندن. وربما يمكننا لاحقًا، أن ننظر في أمرها. استقبلني في المحطة بيلنغْتُن الابن، وهو شاب لطيف، واصطحبني إلى منزل أبيه حيث قرَّرا أنه عليَّ قضاء الليلة هناك. إنهما كريمان ذلك الكرم الذي عُرف به أهالي يوركشاير والقائم على مبدأ أعطِ الضيف كل ما يريد، واترك له الحرية ليفعل ما يريحه. عرفا أني مشغول وأنَّ إقامتي قصيرة، ولذا جهَّز السيد بيلنغْتُن في مكتبه كل الأوراق المتعلقة بشحنة الصناديق المُرْسَلَة. منحني ذلك تقريبًا فرصة لأرى مرة أخرى رسالة من الرسائل التي كنتُ قد رأيتُها على طاولة الكونت قبل أن أعرف خططه الشيطانية. لقد فكَّر بكل شيء بحذر، وقام به بطريقة ممنهجة ودقيقة. يبدو وكأنه ظل يتهيَّأ لكل عقبة قد تعترض بالصدفة طريق تنفيذ نواياه. وكما يقولون في أمريكا «لم يتخذ أي مخاطرة»، والدقة المطلقة التي نفذت فيها تعليماته كانت ببساطة هي النتيجة المنطقية لحرصه. رأيتُ الفاتورة، واطَّلعتُ عليها وقد كُتِبَ فيها: «خمسون صندوقًا من التراب العادي، لاستخدامها في أغراض تجريبية». كما اطلعت أيضًا على نسخة من الرسالة المرسلة إلى شركة كارتر پاترسُنْ وردِّهم عليها، وحصلتُ على نسخٍ منهما. كانت هذه كل المعلومات التي استطاع السيِّد بيلنغتُن إعطاءها لي، ولذا ذهبت إلى الميناء وقابلت أفراد خفر السواحل، وموظفي الجمارك ومدير الميناء. وأدلوا جميعًا بدلوهم في موضوع دخول السفينة الغريب إلى الميناء، وهي الحادثة التي صارت سلفًا رواية تروى على ألسنة أهالي البلدة، ولكن لم يستطع أيٌّ ممن التقيتهم أن يضيف أي معلومة إلى الوصف

البسيط لعبارة «خمسون صندوقًا من التراب العادي». قابلتُ بعدئذٍ رئيس المحطة، الذي ساعدني بلطف في التواصل مع الرجال الذين استلموا الصناديق فعليًا. وقد تطابقَ كشفهم مع الفاتورة، وما من شيء أضافوه سوى أن الصناديق كانت «ثقيلة جدًا»، وأن نقلها كان عملًا يجفف الحلق. أضاف أحدُهم إنَّه من سوء الحظ أنه لم يكن هناك أي سيِّد «مثلك، أيها السيِّد» ليظهر نوعًا من التقدير لجهودهم بإعطائهم بعض المال، وأضاف آخر تعليقًا مفاده أنَّ العطش الذي أصابهم أثناء التحميل كان عظيمًا حتَّى أنَّهم ما يزالون عطاشى منذ ذلك الحين ولم يرتووا تمامًا. لا داعي لأن أضيف أني عالجتُ مصدر هذا العتاب معالجةً نهائية وبصورة كافية قبل أن أغادر إلى المحطة.

٣٠ سبتمبر- كان رئيس المحطة طيبًا بما يكفي ليسهِّل لي الاتصال برفيقه القديم رئيس محطة كنغز كرُس، وعندما وصلت هناك في الصباح استطعتُ أن أسأله عن وصول الصناديق. أحالني من فوره حتى أتواصل مع الموظَّفِين المُناسبِيْن، وتبيَّن لي أن كشفَهم متطابقٌ مع الفاتورة الأصلية. كانت احتمالية المعاناة من عطش غير اعتيادي قليلة هنا، ورغم ذلك تعاملت مع تلك الاحتمالات تعامُلا نبيلًا على أي حال، فقد اضطررت مرة أخرى لتولي الموضوع بأثرٍ رجعي.

ذهبتُ من هناك إلى المكتب المركزي لمؤسسة كارتر پيترسُنْ، حيث استقبلوني بحفاوة منقطعة النظير. بحثوا عن المعاملة في سجلهم اليومي وفي أرشيف الرسائل، واتصلوا من فورهم هاتفيًا

بمكتبهم في محطة كِنْغز كرُس للحصول على مزيد من المعلومات. لحسن الحظ، كان العمال الذين رفعوا صناديق التراب المحفور ينتظرون ليباشروا عملهم، فأرسلهم الموظف من فورهم، وأرسل مع أحدهم أيضًا كشفَ الشحن وكل الأوراق الخاصة بتسليم الصناديق في منزل كارفاكس. وهنا مرة أخرى وجدتُ الكشف مطابقًا بالضبط، وقد استطاع رجال شركة النقل استكمال ندرة الكلمات المكتوبة على الكشف بإضافة قليل من التفاصيل. وهذه الكلمات، كما تبيَّن لي بعد مدة وجيزة، ذات علاقة بشكل حصري بالطبيعة الغبراء لعملهم، وتتعلق بالعطش الذي أصاب العمال نتيجة عملهم. أفسحت لهم المجال للحديث لاحقًا بعد أن أعطيتهم بقشيشًا جراء معاتبتهم لي، وقد نفعني ذلك في أنْ أبدى أحد الرجال الملحوظة التالية:

«إن ذلك المنزل الذي هناك يا أخ، أغرب منزلٍ دخلتُه في حياتي على الإطلاق. صدِّقْني! بل إنه منزل لم يلمسه أحد منذ مئة عام. فيه غبارٌ بلغ من السماكة حدًا يمكنك أن تنام فوقه دون أن تصاب عظامك بأذى، كما أنه مُهْمَلٌ لدرجة أنه يمكنك أن تشم رائحة أورشليم العتيقة فيه. ولكن الكنيسة الصغيرة هي أسوأ مثال عن مصدر تلك الرائحة، فقد ظننت أنا وصاحبي فعليًا أننا لن نخرج بسرعة كافية قط. يا الله! لن آخذ أقل من جنيه إسترليني حتى أبقى هناك في العتمة للحظة واحدة».

ونظرًا لأنه دخل إلى المنزل، فإني أصدقه تمامًا. ولكنه لو عرف ما أعرف لزاد، حسب ظني، من شروطه المالية للدخول إلى هناك.

إن خاطري مسرور الآن من شيء واحد: وهو أن كل الصناديق التي وصلت إلى وِتْبِي قادمةً من ڤارنا في سفينة ديميتر قد وضعت بأمان في الكنيسة الصغيرة العتيقة في منزل كارفاكس. يفترض أن يكون عددُها خمسين صندوقًا هناك، ما لم يتم إخراج أي صندوق منها منذ ذلك الحين – وأخشى أن ذلك قد حصل بعد أن اطَّلَعْتُ على مذكرات الدكتور سيوِرْد.

ينبغي لي أن أقابل الحمَّال الذي نقل الصناديق من منزل كارفاكس عندما هاجمه رينفيلد هو وصاحبه. فمن خلال اقتفاء أثر هذا الدليل لربما عرفنا مقدارًا جيدًا من المعلومات.

لاحقًا – عملتُ ومينا طوال النهار، ورتَّبْنَا الأوراق كافة.

يوميات مينا هاركر

٣٠ *سبتمبر* – أنا سعيدة جدًا حتى إنني بالكاد أستطيع أن أعبِّر عن نفسي. أظنها ردَّة الفعل من الخوف المستبد الذي تملَّكَنِي: الخوف من أنَّ هذه القضية الرهيبة وإعادة فتح جرح جوناثان القديم ربما يكون له أثرٌ مضر به. رأيته يغادر إلى وِتْبِي بوجهٍ يفيض شجاعةً لم أرها من قبل، ولكن خوفي عليه أنهكني. وعلى أي حال، فالمحاولة حسَّنَتْ من حاله. لم يكن قط عاقد العزم جدًا كما هو الآن، ولم يكن قويًا هكذا، وما ألفته مفعمًا بهذه الطاقة الهائلة مثلما هو في الوقت الحالي. المسألة فقط هي مثلما قال ذلك البروفسور الطيب العزيز ڤان هيلسنغ: إنه شجاع جلد بحق، وهو يتحسن في ظل إجهادٍ كان من

شأنه أن يقتل إنسانًا أضعف. عاد مملوءًا بالحياة والأمل والإصرار؛ وقد رتَّبْنَا كل شيء من أجل اجتماع الليلة. أشعر أني مفعمة إلى حد كبير بالفرح. وأحسب أنه ينبغي للمرء أن يشفق على أي شيء تتم مطاردته بهذه الطريقة مثل الكونت. المسألة هي كما يلي بالضبط: إن هذا الشيء ليس ببشر، ولا حتَّى بوحش. فقراءة رواية الدكتور سيوِرْد في مذكراته لحادثة وفاة لوسي المسكينة وما تبعها، لكافية لتجفيف ينابيع الشفقة في قلب المرء.

لاحقًا- وصل اللورد غودالمنغ والسيِّد مورِس مبكِّرَين كما توقَّعنا. كان الدكتور سيوِرْد في الخارج يقوم ببعض الأشغال، وقد اصطحب معه جوناثان، ولذلك اضطررت لاستقبالهما. كان اللقاء مؤلمًا لي، لأنه فتَّح مواجعي على كل الآمال التي كانت تراود لوسي العزيزة المسكينة قبل بضعة أشهر وحسب. وبالطبع فقد سمعا لوسي وهي تتحدَّث عني، وبدَا أنَّ الدكتور ڤان هيلسنغ أيضًا ظل «يتحدَّث عنِّي بفخرٍ عظيم» مثلما عبَّر عن ذلك السيد مورِس. يا للصديقان المسكينان! فما من أحدٍ منهما يعلم أني أعرف كل شيء عن محاولاتهما خطبة لوسي. ولم يعرفا بالضبط ماذا يقولان أو يفعلان، لأنهما كانا يجهلان مقدار ما أعرفه من معلومات، ولذلك استمرَّا في الخوض في مواضيع عامة. لقد قلَّبْتُ المسألة على كافة وجوهها، واستنتجت أن أفضل ما أستطيع القيام به هو أن أخبرهما بكل ما جرى من حوادث حتى هذه اللحظة. عرفتُ من مذكرات الدكتور سيوِرْد بأنهما حضرا وفاة لوسي -وفاتها الحقيقية- وأنه ما من حاجة بي أن أخشى إفشاء أي سرٍّ قبل ذلك. ولذلك قلت لهما قدر ما استطعت، إني قرأتُ كل

الأوراق والمذكرات، وإنني فرغتُ مع زوجي للتو من ترتيبها بعد أن طبعناها على الآلة الكاتبة. أعطيتُ كلَّ واحد منهما نسخةً ليقرأها في مكتبة المصحة. عندما أخذ اللورد غودالمنغ نسخته وقَلَّبَهَا -وقد اتَّخَذَتْ شكل رزمة أوراق كبيرة نوعًا ما- قال:

«أوكَتَبْتِ كل هذا يا سيِّدة هاركر؟».

أومأتُ بالإيجاب، فأردف قائلًا:

«لا أرى ما الدافع إلى فعل كل ذلك، ولكنكما طيِّبان ولطيفان جدًا، وبقيتما تعملان بحماسة وطاقة هائلتين، وكل ما أستطيع فعله أن أقبل أفكاركما وأنا مغمض العينين وأحاول أن أساعدكما. فقد حصل وتعلَّمْتُ درسًا بقبول الحقائق التي ينبغي لها أن تجعل أي إنسانٍ متواضعًا إلى آخر ساعةٍ في حياته. زد على ذلك أني أعرف أَنَّكِ كُنْتِ تحبين خطيبتي لوسي المسكينة...». وهنا أشاح بوجهه ثم غطَّاه بيديه، وسمعتُ ترقرق الدموع في صوته. قام السيِّد مورِس، بلطافة فطرية، بوضع يده برهةً على كتفه، ومن ثم خرج بهدوء إلى خارج الحجرة. أظن أن هنالك شيئًا ما في طبيعة المرأة يجعل الرجل لا يمانع من أن ينهار أمامها ويعبِّر عن أحاسيسه ومشاعره العاطفية دون أن يشعر بأن في ذلك حطًا من رجولته، لأنَّ اللورد غودالمنغ جلس على الأريكة وانهار بشكل تام وصريح عندما ظلّ وحيدًا في الحجرة معي. جلستُ بجانبه وأمسكتُ يده. آمل أنه لم يفكر أن ذلك جرأة مبالغة مني، ولو أنه فكر على هذا النحو فسأضمن له أنه لن يستطيع أن يفكر مرة أخرى. ها أنا أظلمه، لأني أعرف أنه لن

يفعلها أبدًا، فهو سيِّدٌ حقيقي بكل معنى الكلمة. قلتُ له إذ رأيت أن قلبه كان ينفطر:

«أنا أحبُّ لوسي العزيزة، وأعرف ما كانت تعنيه لك، وماذا كنتَ تعني لها. كنا مثل أختين، وقد رحلت الآن، فهلَّا مانعتَ في أن أكون مثل أختك في محنتك؟ فأنا أعلم مقدار الأحزان التي ألَمَّتْ بكَ، رغم أني لا أستطيع قياس مدى عمقها. وإذا كان للتعاطف والشفقة أن تساعدك في كربك، ألن تجعلني أسدي لك ولو معروفًا قليلًا، كرمى لخاطر لوسي؟».

لم تمر سوى لحظةٍ إلَّا وكان الصديق العزيز المسكين قد اجتاحه الأسى. وبدا لي أن كل ما كان يعاني منه في الآونة الأخيرة بصمتٍ قد وجد له متنفسًا في الحال. انتابته حالة هستيرية إلى حدّ كبير، رفع يديه المفتوحتين، وضرب راحت إحداهما بالأخرى في ألم مطلق ناجمٍ عن الأسى. ثم وقَفَ وجلس مرة ثانية، وانهمرت الدموع على وجنتيه. شعرتُ إزاءه بشفقةٍ لا حدود لها، فتحتُ ذراعيَّ دونما تروٍّ. فوضع رأسَه منتحبًا على كتفي وبكى مثل طفلٍ هَدَّهُ التعب، وظل يرتجف وقد عصفت به المشاعر.

نحن النساء في داخلنا أم تسكننا وتجعلنا نترفَّع عن المسائل الصغيرة عندما تُسْتَدْعَى فينا روح الأمومة، وقد شعرتُ بهذا الرأس الغارق في بحار الحزن العظيم يرتاح على صدري، وكأنَّه مثل ذلك الطفل الذي قد ينام يومًا ما عليه، مرَّرْتُ أصابعي في شعره وكأنه ابني. ولم يخطر في بالي حينئذٍ كيف كان الأمر غريبًا برمته.

بعد مدة قصيرة هدَأَتْ عبراتُه، ورفع جسده عن صدري معتذرًا، رغم أنه لم يخف مشاعره. وقال لي إنه لأيامٍ وليالٍ مرَّت -أيامٍ مضنية وليالٍ لا نوم فيها- لم يكن قادرًا على التحدُّث مع أي شخص كما يجدر بإنسان أن يتكلم في وقت حزنه. لم يكن هناك ثمة امرأة يمكنها أن تجود عليه بتعاطفها، أو يمكنه أن يتكلَّم معها بأريحية بسبب الظروف الرهيبة التي كانت تكتنف حزنه. ثم قال وهو يمسح دموعه: «أنا أعرف الآن أني عانيت، ولكني لا أعرف حتى -ولا يمكن لأحد آخر أن يعرف بتاتًا- كيف أن تعاطفك اللطيف قد أثَّر فيَّ اليوم. ينبغي لي أن أعرف ذلك بصورة أفضل في الوقت المناسب، وصدِّقيني، فرغم أني ممتن لك الآن، فإن امتناني سيزداد مع فهمي للأمور. وستعدِّيني بمثابة أخٍ لكِ طوال حياتنا كرمى لخاطر لوسي العزيزة، أليس كذلك؟».

«كرمى لخاطر لوسي العزيزة» قلتُ وأحدُنا يشدُّ على يد الآخر. ثم أضاف: «نعم، وكرمى لخاطرك أنتِ، فإذا كان لأحد قط أن يظفر بتقدير رجلٍ وامتنانه، فقد ظفرت بتقديري وامتناني اليوم. وإذا ما قُدِّرَ لكِ أنْ يحمل لك المستقبل لحظات تحتاجين فيه إلى مساعدة رجل، فصدِّقيني، لن أخذل نداءك. وإني لأدعو الله ألا تعيشي مثل تلك اللحظات التي قد يخفت فيها النور في حياتك، ولكن إنْ حصل وحدث ذلك، فعديني أنك ستبلغيني بذلك». كان صادقًا جدًا، وحزنه حديث العهد، حتى شعرت أن ذلك سيدخل الطمأنينة في نفسه، ولذا قلتُ له:

«هذا وعد مني».

وبينما كنت أعبر الممر رأيتُ السيد مورِس ينظر إلى خارج نافذة. التفَتَ حالما سمع وقع خطواتي.

«كيف حال أرثر؟» قال لي. ثم، إذ لاحظ عيني المحمرتين، تابع قائلًا: «آه، أرى بأنك كنت تواسينه. يا للصاحب المسكين! فهو بحاجة للمواساة. لا يمكن سوى لامرأة أن تساعد رجلًا عندما يعتكر قلبه وليس لديه أحد يواسيه».

لقد تحمَّل معاناته بشجاعة بالغة حتى أدمى قلبي بسبب ذلك. رأيت المخطوط في يده، وعرفتُ بأنه عندما يقرؤه سيدرك مقدار المعلومات الكبير الذي أعرفه، ولذا قلتُ له:

«ليتني أستطيع من صميم قلبي مواساة كل أولئك الذين يعانون. هلَّا اتخذتني صديقةً لك، وقصدْتَنِي لنيل الطمأنينة إذا ما احتجتها؟ وستعرف لاحقًا لماذا أقول ذلك». ولمَّا رأى أني كنت جادة فيما أقول، انحنى وأمسك يدي، ورفعها إزاء شفتيه وقبَّلَهَا. لم يبد ذلك سوى مواساة بائسة لإنسان شجاع وغير أناني جدًا، ثم انحنيتُ دون تريُّثٍ وقبَّلتُه. ترقرقت الدموع في عينيه، واندفع اختناق من حنجرته؛ وقال بهدوء شديد:

«أيتها الفتاة الصغيرة، لن تندمي مدى حياتك على تلك اللطافة النابعة من القلب». ثم ذهب إلى المكتب للقاء صاحبه.

«أَيَّتُهَا الفتاة الصغيرة!» - تلك الكلمات ذاتها التي قالها للوسي، يا له من لطيف! ولكنه أثبت نفسه كصديق!

الفصل الثامن عشر
مذكّرات الدكتور سيوِرْد

٣٠ سپتمبر- وصلتُ المصحَّةَ في الخامسة، ووجدت أن غودالمنغ وموريس لم يصلا وحسب، ولكنهما قرءا بإمعانٍ مخطوط المذكرات والرسائل المتعددة التي طبعها جوناثان هاركر وزوجته الرائعة ورتَّبَاهَا. لم يكن هاركر قد عاد بعد من زيارته إلى مسؤولي شركة النقل الذين أرسَلَ لي الدكتور هينيسي رسالةً بخصوصهم. أحضرت لنا السيِّدة هاركر كوبًا من الشاي، ويمكنني أن أقول بأمانة بأنني مذ أقمت هنا، أشعر للمرة الأولى أن هذه المصحة العتيقة كأنها بيتي. عندما فرغنا، قالت السيِّدة هاركر:

«دكتور سيوِرْد، أيمكنني أن أطلب منك معروفًا؟ أريد أن أزور مريضك السيِّد رينفيلد. دعني أزره. فما قلته عنه في مذكَّراتك أثار اهتمامي بدرجة كبيرة جدًا!». بدت في قمة الجاذبية والجمال لدرجةٍ لم أستطع رفض طلبها، ولم يكن هناك ثمة سبب ممكن للرفض، لذا أخذتُها معي. لما دخلتُ حجرة رينفيلد، قلت له إنَّ هناك سيِّدةً ترغب في رؤيته، فما كان منه إلَّا أن سأل بكل بساطة: «ولماذا تريد أن تراني؟».

«إنها تقوم بجولة في المصحة، وتريد أن ترى كل من فيها» أجبته، فقال: «أوه، حسنًا جدًا، دعها تدخل بكل تأكيد، ولكن انتظر دقيقة حتى أرتب الحجرة». كان أسلوبه في الترتيب أسلوبًا غير مألوف: فقد ابتلع ببساطة كل الذباب والعناكب الموضوعة في العلب دون أن يتيح لي المجال حتى أمنعه من ذلك. كان واضحًا على نحوٍ كبير أنه يخشى، أو ربما يغار، من التدخّل في شؤونه. عندما فرغ من مهمته المقزِّزة، قال مبتهجًا: «فلتتفضَّل السيِّدة بالدخول» ثمَّ جلَس على حافة سريره مطأطئ الرأس، ولكن رموشه مرفوعة بحيث يمكن له أن يراها حالما تدخُل. حسبتُ لوهلةٍ أنَّه ربما تكمن فيه نزعَةٌ ميَّالةٌ إلى القتل، فقد تذكَّرته عندما كان هادئًا قبيل لحظات من هجومه عليَّ في مكتبي، ولذا توخَّيت الحذر بأن أقف في مكانٍ أستطيع فيه الإمساك به من فوري إذا ما حاول أن يهجم عليها. دَخَلَت الحجرة برشاقةٍ واثقة من شأنها أن تستدعي من فورها احترام أي مجنون، فالثقة هي إحدى المزايا التي يكنُّ لها المجانين أعلى درجات الاحترام. مشت نحوه وهي تبتسم بسرور، ومدَّت يدها مصافحة وقالت:

«مساء الخير سيِّد رينفيلد. كما ترى، فأنا أعرفك لأن الدكتور سيوِرْد حدَّثَنِي عنك». لم يصدر عنه أي ردٍّ مباشر، ولكنه رَمَقَها من رأسها إلى قدميها بعبوس يسود وجهه. ما لبثت هذه النظرة أن تراجعت لتحل محلها نظرة دهشةٍ امتزجت بالشك، ومن ثمَّ، اعترتني دهشة عارمة عندما قال لها:

«أنتِ لستِ الفتاة التي أراد الدكتور الزواج بها، أليس كذلك؟

لا يمكن أن تكوني هي، فهي ميتة كما تعلمين». ابتسمتْ السيِّدة هاركر بعذوبة وهي ترد قائلة:

«أوه لا! فأنا متزوجة، وقد تزوَّجتُ حتى قبل أن أرى الدكتور سيورد أو يراني. أنا السيِّدة هاركر».

«إذن ماذا تفعلين هنا؟».

«أنا وزوجي هنا في زيارة إلى الدكتور سيوِرْد».

«إذن لا تبقيا هنا».

«لم لا؟». حسبتُ أن هذا الأسلوب في الحديث قد لا يروق للسيِّدة هاركر، ولا حتَّى لي أيضًا، ولذا شاركتهما الحديث وقلتُ:

«وكيف عرفتَ بأني أردت أن أتزوج بامرأة، كائنة من تكون؟» كان ردُّه ببساطة ازدرائيًا، فقد أجاب بعد فترة صمت حوَّل فيها أنظاره من السيِّدة هاركر إليَّ، ثم أعاد أنظاره مرَّة أخرى إليها وهو يقول:

«يا له من سؤالٍ غبي!».

«لا أرى أنه سؤالٌ غبي على الإطلاق يا سيِّد رينفيلد». قالت السيدة هاركر على الفور، وهي تناصرني. فردَّ عليها بلطافة واحترام يعادلان الازدراء الذي ردَّ به عليَّ:

«ستفهمين بالطبع يا سيِّدة هاركر، بأنه عندما يكون إنسانٌ محبوب وشريف جدًا مثلما هو مضيفنا، فإن كل ما يتعلق به يكون مهمًا جدًا في مجتمعنا الصغير. فالدكتور سيورد لا يحظى بحب عائلته

وأصدقائه فحسب، بل إنه يحظى حتى بحب مرضاه، البارعين في تشويه العلل والنتائج، والذين بالكاد يكون البعض منهم في توازن عقلي. ونظرًا لأني مقيم معه في مصحة عقلية، فلا يمكنني إلا أن ألاحظ بأن الاتجاهات السفسطائية لنزلائها تميل نحو الأخطاء القائمة على المغالطات أو إطلاق الأحكام المبنية على الجهل».

فتحتُ عينيَّ دهشة على هذا التطور الجديد. فها هو ذا مجنوني المدلل -الأكثر تميزًا من نوعه- يتحدَّث بلغة الفلسفة الأولية، وبأسلوبِ سيِّد مهذَّب. وأتساءل فيما إذا كان وجود السيِّدة هاركر هو الذي أثَّر على بعض الأوتار في ذاكرته. وسواءٌ أكانت هذه مرحلة آنية، أو ناجمة بطريقة ما عن تأثيرها على لاوعيه، فلا بدَّ أنها تمتلك موهبة أو قوة فريدة.

تابعنا الحديث لبعض الوقت، ونظرًا لأنها رأت أنه يبدو منطقيًا في حديثه إلى حدٍّ كبير، فقد جازفَتْ، بينما رمقتني بنظرة استفسار، وبدأت باستدراجه إلى موضوعه المفضل. وهنا دُهِشتُ مرة أخرى، لأنه ركَّز حديثه على سؤالها بالحيادية التي تميز العقلانية الكاملة، لا بل إنه حتى ضرب مثالًا عن نفسه عندما تطرق إلى مواضيع بعينها:

«عجبًا! فأنا نفسي مثالٌ على إنسانٍ يساوره اعتقاد غريب. فلا عجب فعلًا أن أصدقائي توخَّوا الحيطة والحذر، وأصرُّوا أن أخضع لإشراف الأطباء. فقد اعتدتُ أن أتخيَّل الحياة وكأنَّها كينونةٌ إيجابية وأزلية، وأنه يمكن للمرء أن يطيل عمره بالتأكيد عن طريق استهلاك عدد كبير من الكائنات الحية، بصرف النظر عن تدني ترتيبها في ميزان المخلوقات. كما لازمني أحيانًا اعتقادٌ قوي جدًا

بذلك حتى إني حاولت فعليًا أن أظفر بحياة كائن بشري. فالدكتور الواقف هنا سيؤيد ما أقوله في أنني ذات مرة حاولت قتله بهدف تدعيم قواي الحيوية من خلال دمج حياته في جسدي عن طريق دمه، معتمدًا في الطبع، على مقولةٍ وردت في الكتاب المقدس وتقول: «لأن الدم هو الحياة». رغم أن بائع إكسير الجُهَّال قد تفَّه بالفعل الحقيقة البديهية وأنزلها إلى مصاف الازدراء الشديد. أليس ذلك بصحيح يا دكتور؟». أومأتُ موافقًا، لأني كنت مذهولًا جدًا حتى إني بالكاد عرفت بماذا أفكر أو أقول، فقد كان من الصعب أن أتخيَّل أني رأيته يأكل بسرعة عناكبه وذباباته قبل أقل من خمس دقائق. نظرت إلى ساعتي، وأدركت أنه ينبغي لي الذهاب إلى المحطة لاستقبال ڤان هيلسنغ، ولذا أبلغتُ السيِّدة هاركر بأنه حان موعد الذهاب. جاءت من فورها، بعد أن قالت بسرور للسيِّد رينفيلد: «إلى اللقاء، وآمل أن أراكَ بين الفينة والأخرى، وقد أحاطت بكَ هالةُ السرور»، وأصابتني الدهشة إذ ردَّ عليها قائلًا:

«بل وداعًا يا عزيزتي. إني أدعو الله ألَّا أرى أبدًا وجهك الجميل مرة أخرى. فليباركك الله ويحفظك!».

تركتُ أصحابي ومضيت إلى المحطة لاستقبال ڤان هيلسنغ. بدا أرثر المسكين أكثر ابتهاجًا مما كان عليه منذ أن وقعت لوسي ضحية المرض في أول مرة، وبدا كوينسي أقرب لشخصيته المرحة أكثر مما كان عليه لمدة طويلة.

خطا ڤان هيلسنغ من العربة برشاقة الشباب المتحمسة. رآني

من فوره فاندفع صوبي قائلًا: «ها يا صديقي جون، كيف هي الأمور؟ جيدة؟ إذن! لقد كنت مشغولًا، لأني جئت إلى هنا لأبقى إذا دعت الحاجة. وقد سوَّيتُ كل المسائل، ولدي الكثير من الأشياء لأقولها. هل السيِّدة مينا عندك؟ نعم. وزوجها اللطيف جدًا؟ وأرثر وصديقي كوينسي، هما عندك أيضًا؟ جيِّد».

بينما انطلقتُ بالعربة إلى المصحة أخبرته بما جرى، وكيف حصل أن مذكراتي قدمت بعض الفائدة من خلال اقتراح السيِّدة هاركر طباعتها، وعندها قاطعني البروفسور قائلًا:

«آه، يا لتلك الرائعة السيِّدة مينا! إنَّها تتمتع بقلب امرأة وعقل رجل -عقل يحوزه رجل أجزل الله له النعم-. صدِّقني أن الإله العظيم قد خلقها لغايةٍ، عندما خلق ذلك المزيج الرائع بين العقل والقلب. يا صديقي جون، لقد حالفنا الحظ حتى الآن في أن تكون تلك المرأة ذات فائدة لنا، فبعد هذه الليلة عليها ألا تتعامل مع هذه القضية الرهيبة. فليس من الجيِّد أن تخوض غمار خطرٍ عظيم كهذا. نحن الرجال عاقدو العزم على القضاء على هذا الوحش، أليس كذلك؟ أولم نقسم على ذلك؟ ولكن هذا دور لا يليق بامرأة أن تفعله. حتَّى لو لم تتعرَّض للأذى، فقد يخونها قلبها في هذه الأهوال التي لا تعد ولا تحصى، وبعد ذلك ربما تعاني من توتر أعصابها في اليقظة، ومن سوء أحلامها في النوم. بالإضافة إلى أنها امرأة شابة وقد تزوجت منذ مدة ليست ببعيدة، وقد يكون هناك آثار أخرى تخطر في البال وربما تحصل في وقت لاحق، إن لم يكن الآن. كنت

تخبرني أنها كتبت كل شيء، لذا فعليها أن تتشاور معنا، ولكنها ستودِّع في الغد هذه المهمة، ونمضي فيها وحدنا». وافقْتُه جملةً وتفصيلًا، ومن ثم أخبرته ماذا اكتشفنا أثناء وجوده في أمستردام: المنزل الذي اشتراه دراكولا هو المنزل المجاور مباشرة لمصحتي النفسية. اندَهش، وبدا أن قلقًا عظيمًا اجتاحه وقال: «أوه! ليتنا عرفنا ذلك من قبل! لكنا قد وصلنا إليه في الوقت المناسب لكي ننقذ لوسي المسكينة. ولكن، على أي حال، (لا يجدي البكاء على الحليب المسكوب) كما تقولون في أمثالكم. لا ينبغي لنا أن نفكر بذلك، وإنما المضي في طريقنا حتى النهاية». صمت بعد ذلك إلى أنْ دخلنا من بوابة مصحتي. وقبل أن نذهب لتحضير العشاء قال للسيِّدة هاركر:

«لقد أخبرني صديقي جون، يا سيِّدة مينا، بأنك وزوجك قد رتبتما كل الوقائع التي حدثت بالترتيب الزمني الصحيح حتى هذه اللحظة».

«ليس حتى هذه اللحظة يا بروفسور». قالت دون تروٍّ ثم أردَفَت: «ولكن حتى لحظة صباح اليوم».

«ولكن لماذا لم تدوِّني كل ما حصل حتى الآن؟ فقد رأينا حتى الآن كم هي فائدة التفاصيل الصغيرة. لقد أفشينا أسرارنا، ومع ذلك فما من سرٍّ من هذه الأسرار التي أُفْشِيَت يُعد الأسوأ».

بدأت السيِّدة هاركر تحمر خجلًا، وقالت وهي تخرج ورقةً من جيوبها:

«يا دكتور ڤان هيلسنغ هلَّا قرأتَ هذه، وقلتَ لي ما إذا كان لها أن تضاف إلى الأوراق. إنها سجل ما كتبته اليوم. فأنا أيضًا أرى مدى الحاجة لكتابة أي شيء في الوقت الحالي، مهما كان تافهًا، ولكن باستثناء ما هو شخصي، ليس في هذه الورقة سوى معلومات قليلة جدًا يمكن أن تفيدنا. فهل يجب أن نضيفها إلى الأوراق؟». قرأها البروفسور بجدية، ثم أعادها إليها، قائلًا:

«لا حاجة لإضافتها إذا لم ترغبي، ولكني أتمنى ذلك. فهي ستجعل زوجك يحبُّك أكثر، وستجعلنا نحن كلنا، أصدقاؤك، نزداد فخرًا بك، كما سنزداد اعتدادًا بك وحبًا لكِ». أخذَتْها منه بتورد وجنتين وابتسامة مشرقة.

وهكذا حتى الآن، حتى هذه الساعة بالتحديد، فقد اكتملت كل السجلات التي معنا ووضعت وفق ترتيبها الصحيح. أخذ البروفسور معه نسخة ليطلع عليها بإمعان بعد العشاء، قبل اجتماعنا، الذي حدد في الساعة التاسعة. قرأ بقيتنا سلفًا كل شيء، ولذا فعندما نجتمع في المكتب سنكون جميعنا قد اطلعنا على ما ورد فيها من وقائع، ويمكننا أن نرتب خطتنا للمعركة التي سنخوضها مع هذا العدو الرهيب والغامض.

يوميَّات مينا هاركر

٣٠ سبتمبر- عندما اجتمعنا في مكتب الدكتور سيوِرْد بعد ساعتين من العشاء الذي تناولناه في الساعة السادسة، شكَّلْنَا،

دون أن نعي ذلك، ما يشبه المجلس أو اللجنة. تولَّى البروفسور ڤان هيلسنغ رياسة الطاولة، التي طلب إليه الدكتور سيوِرْد التفضل بالجلوس إليها حالما دخل غرفة المكتب. جعلني أجلس على يمينه مباشرة، وطلَب مني أن أقوم بدور السكرتيرة، وجلس جوناثان إلى جانبي. مقابلنا جلس اللورد غودالمنغ، والدكتور سيوِرْد والسيِّد مورِس، حيث جلس اللورد غودالمنغ إلى جانب البروفسور، وجلس الدكتور سيوِرْد في المنتصف. قال ڤان هيلسنغ:

«أظنُّ أنه يحق لي أن أجزم بأننا كلنا نعرف الوقائع الواردة في هذه الأوراق». فوافقناه جميعًا على ذلك، ثم مضى يقول:

«إذن، فأظن أنه من الجيِّد أن أقول لكم بعض المعلومات عن طبيعة العدو الذي علينا مقارعته. وينبغي لي، إذن، أن أعرفكم بنبذة من تاريخ هذا الرجل، وهذه المعلومات مؤكدة بالنسبة لي، بحيث يتسنَّى لنا بعدئذٍ أن نناقش كيف ينبغي لنا التعامل مع المسألة، ويمكننا أن نُقْدِمَ على الخطوات التي سنتخذها بناءً على ذلك.

هنالك كائنات من أمثال مصاصي الدماء، ولدى البعض منَّا دليل على وجودها. وحتى لو لم يكن معنا دليل من خلال تجربتنا التعيسة، فإن الروايات والسجلات في الماضي تقدم دليلًا كافيًا لأصحاب العقول على وجودها. أعترف بأني كنت متشككًا أول الأمر. ولو لم أكن قد درَّبْتُ نفسي خلال سنوات طويلة على الاحتفاظ بعقل منفتح، لما كنت صدَّقْتُ وجودها حتى تلك اللحظة التي صعقت فيها الحقيقة مسامعي. (أرأيت! أرأيت! لقد

أثبتُّ ذلك؛ لقد أثبتُّ ذلك). وا أسفاه! لو عرفتُ منذ البداية ما أعرفه الآن –لا بل لو خمنت وجوده من الأساس– لكنا أنقذنا حياة إنسانة غالية جدًا على العديد منا ممن أحبُّوها حبًا عظيمًا. ولكن هذا مضى، وعلينا أن نعمل في ضوء ذلك حتى لا تفنى أرواحٌ تعيسة أخرى طالما نستطيع إنقاذها. إنَّ النوسفيراتو لا يموت مثل النحلة بعدما يلسع مرة. وما من سببٍ لذلك إلَّا لأنَّه أقوى، ولأنه أقوى، فلا تزال لديه قوة أكبر لإتيان الشرِّ. مصاص الدماء هذا الذي يعيش بيننا هو ذاته قوي جدًا، فقوته وحده تضاهي قوة عشرين رجلًا، وهو داهية أكثر من البشر، لأنَّ هذا الدهاء هو حصيلة تراكمت على مرِّ العصور. فهو لا يزال يحظى بتأييد أتباعٍ ممن يجيدون «استحضار الأرواح»، وهو مصطلح يعني، كما يدل علم الاشتقاق الذي يتبناه، كهانة الموتى، ويصير كل الموتى الذين يستطيع الاقتراب منهم طوع أمره، إنه شرسٌ وأكثر من شرس، وشيطان قاسي القلب. ويستطيع ضمن حدود معينة، أن يظهر متى يشاء، وأينما يشاء، وفي أي هيئة يريدها. وهو يستطيع، ضمن مجال قدرته، أن يوجِّه العناصر، والعواصف والضباب والرعد، ويمكنه أن يأمر كل المخلوقات الوضيعة: الجرذان والبوم والخفافيش، وكذا العثَّ والثعالب والذئاب، ويمكنه أن يكبر أو يصغر، ويمكنه أحيانًا أن يختفي ولا تراه العين. فكيف لنا إذن أن نبدأ هجومنا لتدميره؟ وكيف لنا أن نجد مكانه، وعندما نجده، كيف لنا أن نقضي عليه؟ يا أصدقائي، إنَّ هذا كثير، إنها لمهمَّة رهيبة تلك التي ألقيت على عاتقنا، وربما يكون لها عواقب تجعل الشجاع يرتجف. لأننا إذا فشلنا في هذه المعركة

ضده فإنه سينتصر بالتأكيد، ومن ثمَّ، أين سينتهي بنا المطاف؟ إن الحياة لا شيء، وإني لا أقيم لها وزنًا. ولكن الفشل في قضيتنا هذه، يتعدى مسألة الحياة أو الموت. إذ أننا سنصير مثله كائنات دنسة تسري في الليل، بلا قلبٍ أو ضمير، نفترس أجسادَ أغلى من نحب وأرواحهم. وستُغْلَقُ في وجوهنا أبواب الجنة إلى الأبد، ومن ذا الذي سيفتحها لنا مرة أخرى؟ سنمضي في سبيلنا حتى لا تأتي لحظات يبغضها الجميع، نصير فيها لطخة سوداء في شمس الإله المشرقة، أو سهم في خاصرته. وهو الذي ضحى بنفسه من أجل الإنسان. ولكننا أيضًا في مواجهةٍ مع واجبنا، وفي مثل هذه الحالة أينبغي لنا أن نتقاعس عن أدائه؟ بالأصالة عن نفسي، أقول: لا، لن أتقاعس، ولكني فوق ذلك كبير السن، والحياة، بأشعة شمسها، وأماكنها الجميلة، وغناء طيورها، وموسيقاها وحبِّها، باتت وراء ظهري بسنوات عديدة. أما أنتم فشبابٌ. وبعضكم رأى الحزن، ولكن ورغم ذلك ما زالت تنتظركم أيامٌ جميلة. فما قولكم؟».

بينما كان البروفسور يتكلَّم، أمسك جوناثان يدي. خشيتُ، أوه خشيت كثيرًا جدًا، بأن الطبيعة المروِّعة للخطر المحدق بنا قد تغلَّبَتْ عليه عندما رأيتُ يده تمتد نحوي، ولكن شعوري بلمستها بعث في جسدي الحياة، فقد شعرتُ بأني قويةً جدًا، وأستطيع الاعتماد على نفسي كثيرًا، وأن الهمَّة العالية تسكنني. فَيَدُ رجلٍ شجاعٍ بمقدورها التحدث، وهي لا تحتاج حتى حب امرأةٍ لكي تسمع موسيقاها.

عندما فرغ البروفسور من حديثه تبادَلْتُ وزوجي النظرات، فلم يكن ثمة حاجة للكلام بيننا. قال:

«أنا وزوجتي معك».

«وأنا أيضًا يا بروفسور» قال كوينسي مورِس بإيجازٍ كالعادة.

ثم قال اللورد غودالمنغ: «وأنا معك من أجل خاطر لوسي، إن لم يكن هناك أي سبب آخر».

اكتفى الدكتور سيورْد بإيماءة موافقة برأسه. وقَفَ ڤان هيلسنغ وبعد أن وضع صليبه الذهبي على الطاولة، رفع يديه على كلا جانبيه. أمسكتُ يدَه اليمنى، فيما أمسك اللورد غودالمنغ يده اليسرى، وأمسك جوناثان يدي اليمنى بيده اليسرى فيما مدَّ يده نحو السيِّد مورِس. وهكذا بينما أمسك أحدُنا بيد الآخر عقدنا اتفاقنا المهيب. شعرتُ بقلبي باردًا كالجليد، ولكن لم يخطر في بالي حتى أنْ أتراجع. جلسنا في أماكننا، وتابع الدكتور ڤان هيلسنغ حديثه بنبرةٍ من البهجة التي أظهرت أن عملنا الخطر قد بدأ. وعلينا أن نأخذه على محمل الجد، بطريقة تشابه الأعمال التجارية، كأي معاملة أخرى نجريها في الحياة:

«حسنًا، تعرفون طبيعة الكائن الذي علينا مقارعته، ولكننا كذلك لسنا ضعفاء. في صفنا قوة الاتحاد، وهي ما لا يملكه جنس مصاصي الدِّماء، ومعنا مصادر العِلْم، ولنا حرية الفعل والتفكير، ونمتلك ساعات الليل والنهار بصورة متساوية. في الحقيقة، إننا أحرار حتى الآن في استعمال قوانا طالما بقينا مسيطرين عليها، وهي قوىً غير مقيَّدة. كما نمتلك فضيلة التضحية بالنفس في سبيل قضيتنا، ولدينا غاية نحققها وهي ليست غاية أنانية. وهذه أمور ليست بسيطة.

والآن دعونا نرى إلى أي حد هذه القوى العامة المحتشدة ضدنا مقيدة، وكيف لا نستطيع أن نواجهها متفرقين. وختامًا، دعونا نبحث في نقاط ضعف مصاصي الدماء عمومًا، ونقاط ضعف هذا المصَّاص على وجه الخصوص.

كل ما يجب علينا فعله هو أن نتجه إلى التراث والخرافات. ولا يبدو أول الأمر أن هذا مقنع خصوصًا عندما تكون المسألة متعلقة بالحياة والموت، لا بل هي أكثر من قضية حياة أو موت. ومع هذا علينا أن نقتنع بذلك لعدة أسباب؛ أولًا، لأنه علينا أن نكون كذلك -فما من وسيلةٍ أخرى بين أيدينا- وثانيًا، لأن هذه الأشياء في نهاية المطاف، وأعني التراث والخرافات، هي كل شيء. أوليس إيمان الآخرين بوجود مصاصي الدماء -وإيماننا كذلك مع الأسف- يستند إلى هذه الخرافات ؟ فقبل سنة، من منَّا كان سيقبل مثل هذه الاحتمالية في ظل النظريات العلمية والمناهج الشكية التي ميزت قرننا التاسع عشر؟ حتى إننا صرنا نتحرى في معتقداتٍ رأيناها مثبتة أمام أعيننا مباشرة. سلِّموا إذن بأنَّ وجود مصاصي الدماء، والاعتقاد بنقاط ضعفها وكيفية التخلص منها، تستند في هذه اللحظة على الأساس ذاته. واسمحوا لي أن أخبركم بأن مصاصي الدماء متواجدون في كل بقعة يعيش فيها الإنسان. في اليونان القديمة، وروما القديمة، كما انتشرت قصصهم في ألمانيا بطولها وعرضها، وفرنسا، والهند، وحتى في كيرسونيس[1]؛ وفي الصين، وفي مختلف الأماكن البعيدة جدًا عنا،

(١) شبه جزيرة في اليونان.

إنه موجود هناك، والبشر يخشونه حتى يومنا هذا. لقد رافق نهضة الآيسلنديين الشماليين الأقوياء، والهون أبناء الشيطان، والسلاف، والساكسونيين، والمجريين. حتى الآن إذن، لدينا كل ما يمكننا أن نشتغل عليه، ودعوني أخبركم بأن الكثير من المعتقدات يثبتها ما رأيناه من أمور في تجربتنا التعيسة التي شهدناها. لا يموت مصاص الدماء بمجرد مرور الزمن، إذ يزداد قوة وحيوية طالما ظل يتغذى على دماء الأحياء. والأدهى من ذلك أن بإمكانه حتى أن يعود شابًا مثلما رأينا، وبأن قدراته الحيوية تزداد نشاطًا، وتبدو وكأنها تجدِّد نفسها طالما غذاؤه الخاص كان متوافرًا. لكنه لا يستطيع أن يعيش دون هذا الغذاء الخاص، فهو لا يأكل مثل الآخرين. حتى صديقنا جوناثان، الذي عاش معه لأسابيع، لم يره قط وهو يأكل.. بتاتًا! كما أن صورته لا تنعكس في المرآة وليس له ظل، وقد لاحظ جوناثان ذلك أيضًا. يمتلك وحده قوة مجموعة من الرجال، وقد شهد جوناثان ذلك أيضًا عندما أغلق الباب في وجه الذئاب، وعندما ساعده في النزول من العربة كذلك. كما يستطيع أن يحول نفسه إلى ذئب، وهو ما تبيَّن لنا من المعلومات التي جمعناها عن وصول السفينة إلى وِتْبِي، عندما مزَّق الكلب إربًا، ويمكنه أن يتحول إلى خفَّاش، على الحال التي رأته فيها السيِّدة مينا على نافذة حجرة الآنسة لوسي. ويقدر أن يأتي وسط الضباب الذي يرسله هو بنفسه، وقد أثبت القبطان النبيل ذلك، ولكن بناء على ما نمتلك من معلومات، فإنَّ المسافة التي يستطيع هذا الضباب أن يغطيها محدودة، ويمكنه أن ينتشر فقط حول المنطقة التي يوجد

فيها. وفي ضوء أشعة القمر، يمكنه أن يأتي بشكل غبارٍ دقيق، مثلما رأى جوناثان أيضًا هاتيك الأخوات في قلعة دراكولا. ويمكن أن يتضاءل حجمه، وقد رأينا بأنفسنا الآنسة لوسي -قبل أن ترقد بسلام- وهي تنسل من باب القبر عبر فجوةٍ بمقاس الشعرة. كما يمكنه، حالما يجد سبيلًا إلى ذلك، أن يخرج من أي شيء أو يدخل إلى أي شيء، بصرف النظر عن الكيفية التي تم إقفاله بها، بل حتى لو تم صهره بالنار التي تسمونها أنتم نار اللِّحَام. وباستطاعته أن يرى في الظلام، وهو ليس بالأمر البسيط في عالمٍ يقضي نصف زمنه بلا ضوء. آه، ولكن اسمعوا ما أقول. بمقدرته فعل كل هذه الأشياء، ورغم ذلك فهو ليس حرًا. لا بل هو حبيسٌ أكثر حتى من العبيد الذين يجدفون في السفن، ومن المجانين في زنازينهم. إذ لا يمكنه الذهاب حيثما يشاء، فهو، وإن لمن يكن من الطبيعة، إلا أنه ملزم بإطاعة بعض قوانينها والتي لا نعرفها ربما. إنه غير قادر على أن يدخل مكانًا قبل أن تتم دعوته من قبل أحد أصحاب هذا المكان، لكنه يستطيع أن يأتي بعد ذلك كما يشاء. أما قوته فتتعطل مع طلوع النهار، شأنها شأن كل الأشياء الشريرة الأخرى. وقد يتمتع بحرية محدودة في أوقات معينة فقط. وإذا لم يكن في المكان الذي تحتم عليه التواجد فيه، فيمكنه فقط أن يغير هيئته وقت الزوال أو لحظة طلوع الشمس بالضبط أو غروبها. هذه الأمور التي قيلت عنه، وفي هذا السجل الذي بين أيدينا نمتلك الاستنتاجات التي تثبت ذلك. وبناء على ذلك، ورغم أنه يستطيع أن يفعل ما يشاء ضمن حدود قدراته طالما كان ضمن نطاق بيته الأرضي.. بيته الجنائزي..

بيته الجهنمي.. أو الأماكن الشريرة الأخرى، كما رأينا عندما ذهب إلى قبر الشاب المُنتحر في وِتْبِي. غير أنه في الحالات الأخرى لا يستطيع أن يتحول إلا في أوقات معينة. ويقال أيضًا، إنه يستطيع عبور المياه الجارية لكن فقط في وقت ركودها أو مع اندفاع المد. هناك أيضًا أمور تعذِّبه كثيرًا ولا طاقة له بها؛ مثل الثوم كما نعلم، أو الأشياء المقدَّسة كهذا الصليب -المتواجد بيننا حتى هذه اللحظة التي نتناقش فيها- فهو يغدو لا شيء أمامها، وفي ظل وجودها فهو يبتعد ويلوذ بالصمت احترامًا. وهناك أشياء أخرى أيضًا، وينبغي لي أن أخبركم عنها لربما احتجناها ونحن نسعى للقضاء عليه. إنَّ وضع غصن زهرة الثوم البرية على تابوتِه يجعله لا يخرج منه، ويمكن لرصاصةٍ مُقدَّسَةٍ تطلق على التابوت أن تقتله بحيث يموت فعلًا، وأما بخصوص إدخال الوتد في جسده، فنحن نعلم سلفًا السلام الذي يصنعه، كما أن حز رأسه ينشر الراحة. وقد رأينا ذلك بأمِّ أعيننا.

وهكذا، حين نجد مأوى هذا المخلوق، يمكننا أن نحبسه في تابوته ونقضي عليه طالما التزمنا بما نعرفه. ولكنه ذكي. فقد سألتُ صديقي أرمينيوس في جامعة بودابست، أن يزودني بمعرفته فيما يخص تاريخ مصاص الدماء هذا، وقد حكى لي عن ماضيه من خلال كل الوسائل المتاحة. لا بدَّ أنه بالفعل ذلك القويفودي دراكولا الذي حظي بسمعة كبيرة في قتاله الأتراك، فوق النهر العظيم على الحدود المباشرة للأراضي التركية. وإذا كان الأمر كذلك، فهو لم يكن شخصًا عاديًا، لأنه في ذلك الزمان، ولقرون تلت ذلك، تحدَّث

عنه الناس على أنه الأذكى والأكثر دهاءً، وكذلك الأشجع من بين أبناء «الأرض الواقعة وراء الغابة». وقد أخذ ذكاءه الخارق وإرادته الصلبه إلى القبر معه، وهما الآن مجتمعان ضدنا. كان الدراكوليُّون، كما يقول أرمينيوس، عرقًا عظيمًا ونبيلًا، رغم أن أفرادًا من الأسرة ضبطوا من قبل معاصيرهم وهم يتعاملون مع الشَّيْطَان بين الحين والآخر. لقد تعلَّموا أسراره في السكولومانس[1]، بين الجبال الواقعة فوق بحيرة هيرمانستات، حيث يدَّعي الشيطان أن الطالب العاشر في المدرسة من نصيبه. وترد في السجلات كلمات من مثل «ستريجويكا» وتعني الساحر، و«أوردوغ» وتعني الشيطان و«پوكول» وتعني الجحيم؛ وفي إحدى المخطوطات يرد اسم هذا الدراكولا بالذات على أنه «ڤامپير» وهي كلمة جميعنا يدرك معناها جيدًا. وقد وُلِدَ من صلب هذا الشخص بالذات رجالٌ عظماء ونساء عظيمات، وقبورهم تضفي القداسة على الأرض التي دفنوا فيها حيث لا شيء سوى الدناسة يقيم هناك. وأكثر ما يثير الرعب أنَّ هذا الشر متجذر بعمق في كل أرض طيبة، ولا يقدر أن يرقد في بقعة يخلو ترابها من الذكريات المقدسة».

بينما كانوا يتحدَّثون كان السيِّد مورِس ينظر بصورة ثابتة إلى النافذة، وها هو الآن ينهض بهدوء، ويخرج خارج المكتب. تلا ذلك صمتُ قصير، ومن ثم تابع البروفسور ڤان هيلسنغ قائلًا:

---

(١) وهي مدرسة لتعليم طقوس السحر الأسود يديرها الشيطان، وذلك وفقًا للروايات الشعبية في ترانسلڤينيا.

«والآن علينا أن نقرِّر بصورة نهائية ما نحن فاعلون. لدينا هنا الكثير من المعطيات، وعلينا أن نستمر في التخطيط لحملتنا. إننا نعرف من تحرِّيات جوناثان أنَّ خمسين صندوقًا من التراب أُرْسِلَتْ من قلعة دراكولا إلى وِتْبِي، وسُلِّمَتْ جميعها في منزل كارفاكس، ونعلم أيضًا أنَّ بعضًا من هذه الصناديق على الأقل أخرِجَت من المنزل. يبدو لي، بأن خطوتنا الأولى هي أن نتأكَّد فيما إذا ظلت بقية الصناديق في المنزل وراء ذلك الجدار حيث نظرنا اليوم، أو أنها أُخرِجَتْ بعد ذلك. وإن كانت قد أخرجت، فيجب علينا أن نتتبع مسار...».

وهنا قاطَعَنَا صوتٌ مفزعٌ جدًا. من خارج المصحة دوى صوت طلقة مسدس، وتهشَّم زجاج النافذة إذ اخترقته رصاصة، وارتطمت بجدار المكتب البعيد بعد أن ارتدَّت من أعلى فرجة النافذة. أخشى أني جبانة في الصميم، لأني ارتجفت. انتفض الرجال كلُّهم واقفين، وهبَّ اللورد غودالمنغ إلى النافذة ورفع إطارها. بينما فعل ذلك سمعنا صوت مورِس في الخارج وهو يقول:

«المعذرة! أخشى أن أكون قد أفزعتُكم. سأدخل وأخبركم ماذا جرى». بعد دقيقة دخَل وقال:

«كان تصرفًا أحمقَ أن أفعل ذلك، وأرجو منكِ المعذرة يا سيِّدة هاركر، أخشى أني أخفتُكِ وأفزعتك. لكن الحقيقة أنه بينما كان البروفسور يتحدَّث في المكتب جاء خفَّاشٌ كبير وجثم على عتبة النافذة. لقد أصابني الرعب من هذه المخلوقات اللعينة منذ وقوع الأحداث الأخيرة لدرجةٍ لم أعد أطيقها، وقد خرجتُ لأطلق النار

عليه كما اعتدتُ أن أفعل في أواخر الليل كلَّما رأيت خفاشًا. وكان من عادتك أن تضحك عليَّ عندئذٍ يا أرثر».

«وهل أصبْتَه؟» سأله الدكتور ڤان هيلسنغ.

«لا أعرف، ولا أظن ذلك، لأنه طار مبتعدًا إلى الغابة». ودون أن يقول أي كلمة إضافية جلس مورِس في مكانه، واستأنف ڤان هيلسنغ حديثه:

«يجب أن نتتبع مسار كل صندوقٍ من تلك الصناديق، وعندما نكون جاهزين، علينا إمَّا أن نمسك بهذا الوحش أو نقتله في مخبئه، أو ينبغي لنا، إذا ما جاز القول، أن نطهّر التراب الذي في الصناديق، بحيث لن يتسنى له طلب الأمان فيها. وهكذا، ربما نعثر عليه في النهاية في هيئة آدمي بين ساعات الظهر والغروب، وبهذا نهجم عليه عندما يكون في أشد لحظاته ضعفًا.

أما أنتِ يا سيِّدة مينا، فهذه ليلتك الأخيرة معنا إلى أن يغدو كل شيء على ما يرام. إنك أعز علينا من أن نسمح لك خوض مثل هذه المخاطرة. عندما نفترق الليلة، يجب عليكِ ألَّا تطرحي مزيدًا من الأسئلة. سوف نخبركِ كل شيءٍ في الوقت المناسب. إننا رجالٌ وقادرون على التحمُّل، ولكن ينبغي لكِ أن تكوني كالنجمة والأمل لنا، وسنتصرف بحرية أكبر حين لا تكوني في قلب الخطر مثلنا».

بدا أن كل الرجال، وحتى جوناثان، تنفَّسُوا الصعداء، ولكنني لم أشعر بالراحة لكونهم سيخوضون غمار الخطر، مما يقلل من فرص سلامتهم من خلال الاهتمام بأمري -لأن القوة هي أفضل

سبل السلامة-، ولكنهم حزموا أمرهم على ذلك، ورغم أن قبول قرارهم كان كتجرع العلقم بالنسبة لي، فلم يكن بوسعي أن أقول شيئًا إلا أن أقبل منهم هذه الشهامة.

استأنف السيد مورِس النقاش قائلًا:

«نظرًا لأنه لا يوجد وقت نضيِّعه، أقترح أن نلقي نظرة على منزله الآنَ. فالوقت كل شيء بالنسبة للتعامل معه، وتحركٌ سريع من قبلنا يمكن أن ينقذ ضحية أخرى».

أعترفُ بأن قلبي بدأ يرتجف عندما اقترب وقت البدء بهذه المهمة، ولكني لم أقل أي كلمة، إذ خشيت أن أبدو كعائق أو عقبة في طريق عملهم فيخرجوني من اجتماعاتهم بالكامل. لقد ذهبوا الآن إلى كارفاكس، وهم عازمون على دخول المنزل.

وكعادة الرِّجال، فقد طلبوا مني الذهاب إلى السرير والخلود إلى النوم، وكأنه يمكن لامرأة أن تنام عندما يكون مَنْ تحبُّهم في خطر! ينبغي لي أن أضطجع وأتظاهر بالنوم، لكي لا يعتري جوناثان المزيد من القلق عليَّ عندما يعود.

مذكرات الدكتور سيوِرد

١ أكتوبر، الساعة الرابعة صباحًا- في اللحظة التي كنا نوشك فيها على مغادرة المنزل، جاءتني رسالة طارئة من رينفيلد يطلب فيها إمكانية لقائي في الحال، إذ لديه شيء ذو أهمية قصوى يقوله لي. أخبرت المساعد أن يقول له بأني سأحضرُ بناءً على طلبه في الصباح،

فأنا مشغول في هذه اللحظة. ولكن المساعد أضاف: «يبدو ملحًا جدًا يا سيِّدي. لم أره قط متحمسًا هكذا. لا أدري.. لكن إذا لم تَرَه في الحال، فسوف يدخل في واحدة من نوباته العنيفة». أعرف أنه ما كان ليقول هذا دون سبب محدد، ولذا قلتُ له: «لا بأس، سأذهب الآن»، وطلبتُ من الآخرِيْن أن ينتظروني بضع دقائق، إذ كنت مضطرًا للذهاب ورؤية «مريضي».

قال البروفسور: «خذني معك يا صديقي جون، فحالته التي ذكرتَها في مذكراتك أثارت اهتمامي كثيرًا، ولها تأثير على قضيتنا من حين لآخر. أنا راغب بشدة في رؤيته، وخصوصًا عندما يكون عقله مضطربًا».

«أيمكنني المجيء أيضًا؟» سأل اللورد غودالمنغ.

«وأنا أيضًا؟» قال كوينسي مورِس. «أيمكنني أن آتي؟» قال هاركر. أومأتُ موافقًا، ونزلنا جميعنا عبر الممر.

ألفيناه في حالة رهيبة من الاهتياج، ولكنه أكثر عقلانية في حديثه وسلوكه مما رأيته في أي مرة من قبل. كان لديه وعي غير اعتيادي بذاته، وهو شيء لم يسبق أن شهدته لدى أي مختل على الإطلاق، وقد بدا من المسلم به أن دوافعه سوف تتسق مع دوافع أي عاقل آخر. دخلنا أربعتنا إلى حجرته، ولكن لم يتفوه أي من الآخرين بكلمة. طلبَ مني أن أطلقه على الفور من المصحة وأرسله إلى البيت. ودعم طلبه هذا بحجج تتعلق بشفائه التام، كما قدَّم دليلًا على سلامته العقلية الحالية وقال: «إني أتوسل إلى أصدقائك، فهم

ربما لن يمانعوا في الحكم على حالتي. وبالمناسبة، أنتَ لم تعرِّفهم بي».
أصابني ذهولٌ عظيم، فغرابة التعريف بمجنونٍ يقيم في مصحة عقلية لم تخطر في بالي في تلك اللحظة، علاوة على أن أسلوبه كان فيه قدر هائل من الكبرياء والندِّية، حتى إني عرَّفتُه بأصدقائي على الفور قائلًا: «أعرِّفك باللورد غودالمنغ، والبروفسور ڤان هيلسنغ، والسيِّد كوينسي مورِس من تِكْسَسْ.. أعرِّفُكُمْ بالسيِّد رينفيلد».
صافحهم واحدًا واحدًا، وقال بدوره:

«أيها اللورد غودالمنغ، تشرَّفْتُ بأني انتدبتُ بالنيابة عن والدك في نادي وندهام، ويحزنني أن أعرف -إذ أرى أنَّك بتَّ تحمل لقبه- بأنه توفي. فقد كان رجلًا محبوبًا وحظي باحترام كل من عرفوه. وكان في شبابه، حسبما سمعت، مخترعًا لشراب الرَّم الحارق، المفضَّل كثيرًا في ليلة الديربي. وأنتَ يا سيد مورِس، ينبغي لكَ أن تفخر بولايتك العظيمة تكسس. فانضمامُها إلى الاتحاد سابقةٌ ربما يكون لها آثارٌ بعيدة المدى في المستقبل، عندما تنضم ولايتا هاواي وألاسكا تحت راية الاتحاد. إن قوة المعاهدة قد تثبت مع ذلك أنها محرك كبير للتوسع، عندما يحتل مبدأ مونرو[1] مكانته كأسطورة سياسية. وماذا عسى أي رجل يقول لتشرفه بلقاء ڤان هيلسنغ؟ يا سيِّدي، لن أقدِّم أي اعتذار عن إسقاط كل أشكال الألقاب التقليدية. فعندما يُحْدِثُ فردٌ ثورةً في الطب باكتشافه للتطور المستمر للمادة الدماغية، فإن الأشكال التقليدية للمخاطبة لا تناسبه، نظرًا

---

(١) وهو بيان أعلنه الرئيس الأمريكي جيمس مونرو عام ١٨٢٣ وحذَّر فيه القوى الأوروبية من التدخل في تقرير مصير دول نصف الكرة الأرضية الغربي أو محاولة السيطرة عليها.

لأنها ستبدو وكأنها تحدِّده كعنصر من مجموعةٍ بعينها. اسمح لي أيها الرجل النبيل، يا من نلت مكانَتَك المرموقة في العالم المتغير بسبب جنسيتك، أو بالوراثة، أو بامتلاكك ناصية المواهب الطبيعية، أن أنتهز هذه الفرصة لأشهد بأني عاقلٌ مثل غالبية البشر الذين يملكون حرياتهم بالكامل. كما أني متأكِّدٌ بأنك يا دكتور سيوِرْد، وأنت الباحث في العلوم الإنسانية والعلوم الطبية-القضائية إضافة إلى كونك عالمًا، ستعدُّ التعاملَ معي كشخص يمر بظروف استثنائية واجبًا أخلاقيًا». وقدَّم هذا التوسُّلُ الأخير بنفحة مؤدبة من الثقة التي لم يفارقه سحرها.

أعتقد أننا ذهلنا جميعًا. فمن ناحيتي، ساورني الاعتقاد بأنه استعاد سلامته العقلية رغم معرفتي بشخصيته وتاريخه، كما انتابني شعورٌ قوي بأن أقول له إنِّي مسرورٌ من سلامته العقلية، وسأباشر النظر في الإجراءات الرسمية الضرورية لإخراجه من المصحة في الصباح. ثم حسبتُ أنه من الأفضل أن أتريث قبل إصدار بيان خطرٍ مثل هذا، لأني أعرف منذ مدة طويلة التغيرات المفاجئة التي يصاب بها هذا المريض بالذات. ولذا ارتضيتُ لنفسي أن أصدر تعليقًا عامًا قلتُ فيه إن علامات التحسن السريع بادية عليه، وإني سأتجاذب معه أطراف الحديث مدة أطول في الصباح، وسأرى وقتها ما يمكنني فعله لتحقيق رغباته. لم يرضه ذلك على الإطلاق إذ قال بسرعة:

«ولكني أخشى يا دكتور سيوِرْد، بأنك بالكاد استوعبتَ رغبتي. فأنا أرغب في الخروج من هنا فورًا .. هذه الساعة بالذات..

هذه اللحظة بالذات، بعد إذنك. الوقت ضيِّق جدًا، وكما تعلم فإن الوقت هو جوهر الاتفاق الضمني الذي عقدناه مع عزرائيل. وأنا على يقين من أنني ما إنْ أطلب فقط من طبيب محبوب جدًا مثل الدكتور سيوِرْد رغبةً بسيطة جدًا -رغم أهميتها الكبيرة مع ذلك- إلَّا وسيلبيها حتمًا».

نظر إليَّ نظرة ثاقبة، وعندما لاحظ السلبية في وجهي، التفتَ نحو الآخرين، وتفحَّصَهم بإمعان شديد. وعندما لم يتلق أي رد وافٍ، تابع حديثه قائلًا:

«أيمكن أنْ أكون قد أخطأتُ في افتراضي؟».

«لقد أخطأت» أجبته بصراحة، ولكن في الوقت نفسه، شعرتُ أني قلتها بقسوة. سادَ صمت طويل، ومن ثمَّ قال ببطء:

«أظنُّ أنه عليَّ إذن تغيير الدافع الذي حدا بي إلى التقدم بطلبي. اسمح لي أن أطلب هذا الامتياز، أو الفضل.. سمِّه ما شئت. فيسرُّني أن أتوسَّل في مثل هذه الحالة، وهو ليس توسُّل قائم على دوافع شخصية، ولكني أتوسل كرمى لخاطر الآخرين. لا أمتلك مُطْلَقَ الحرية كي أقدِّم لك كل أسبابي، ولكن يمكنك، وأنا أؤكد لك ذلك، أن تتقبَّلها مني على أنها أسباب منطقية، ووجيهة وغير أنانية، كما أنها نابعة من أعلى درجات الإحساس بالواجب. لو نظرت إلى مكنونات قلبي يا سيدي، لتيقنت من كل الأحاسيس التي تحركني. لا بل إنك ستفعل ما هو أكثر من ذلك؛ ستصنِّفُنِي في خانة أفضل أصدقائك وأصدقهم». ومرة أخرى نظر إلينا بكل

جدية. تأكدت أكثر أنَّ هذا التغيُّر المفاجئ في أسلوبه الفكري برمته لم يكن سوى شكلٍ أو تعبير آخر من أشكال جنونه أو تعبيراته، ولذا عقدت العزم على أن أدعه يستمر في حديثه مدة أطول، فأنا أعرف من التجربة بأنه سيبوح بما في صدره في النهاية مثلما يفعل كل المجانين. كان ڤان هيلسنغ يرمقه بنظرةٍ حادةٍ جدًا، وحاجباه الكثيفان يكادان يتناغمان مع تركيز نظرته الثابت. قال لرينفيلد بنبرة صوتٍ لم تفاجئني عندئذٍ، ولكنها فاجئتني فقط عندما أمعنتُ التفكير فيها فيما بعد، لأنها بدت وكأنها صادرة من شخصٍ يخاطب شخصًا مساويًا له في سلامة العقل:

«ألا يمكنك أن تقول لنا بصدق السبب الحقيقي لرغبتك في الخروج من المصحة الليلة؟ وإذا ما أقنعتني أنا شخصيًا، كوني غريب وغير متحيز لأحد، بالإضافة إلى ما يميزني من عقل متفتح، فإني أتعهد لكَ بأنَّ الدكتور سيوِرْد سيخاطر بنفسه وسيمنحك الامتياز الذي ترغب به، وعلى مسؤوليته الخاصة». هزَّ رينفيلد رأسه بحزن، ونظرة من الحسرة الشديدة ترتسم على وجهه. تابع ڤان هيلسنغ حديثه قائلًا:

«هيَّا، يا سيِّدي، تفكَّر في الأمر بنفسك. فأنت تدَّعِي امتلاك مكرمة العقل في أعلى درجاته، نظرًا لأنك تريد أن تدهشنا بسلامتك العقلية التامة. قل لنا لماذا تريد الخروج، لأن لدينا أسبابنا التي تدعونا للشك في سلامتك العقلية، ووجود هذا الخلل الشديد هو ما يمنع حتى الآن إخلاء سبيلك. إذا لم تقلل من جهدنا في اختيار أكثر السبل حكمة، فكيف لنا أن نؤدي الواجب الذي أنت نفسك

تضعه على كاهلنا؟ تحلَّ بالحكمة وساعدنا، وإذا استطعنا سنساعدك في تحقيق رغبتك». هزَّ رينفيلد رأسه مع ذلك وقال:

«دكتور ڤان هيلسنغ، ليس لدي ما أقوله. حجَّتُك دامغة، ولو كنتُ حرًا في الكلام لما تردَّدْتُ لحظة، ولكني لست سيِّد نفسي في المسألة. يمكنني فقط أن أطلب منك أن تثق بي. وإذا رُفِضَ طلبي، فالمسؤولية لا تقع على كاهلي». ظننتُ أن الأوان قد حان الآن لأنهي المشهد الذي أصبح خطرًا بصورة هزلية، ولذا ذهبتُ نحو الباب، وقلت ببساطة: «هيا يا أصدقاء، فأمامنا عمل نقوم بها. تُصبِح على خير».

بينما اقتربتُ من الباب، اعترى رينفيلد تغيُّرٌ جديد. تحرَّك صوبي بسرعة كبيرة حتى إني خشيتُ لحظتها أنه موشكٌ على شنِّ هجومٍ قاتل آخر عليَّ. ولكن مخاوفي على أي حال لم يكن لها أساس لأنه رفَع كلتا يديه متوسلًا، وقدَّمَ التماسه بأسلوب مؤثِّر. وإذ رأى بأن المبالغة في عاطفته بدأت تقف ضده، بسبب عودة الأمور إلى ما كانت عليه وفق علاقتنا المعهودة السابقة، فقد أصبح مع ذلك أكثر إفصاحًا عن مشاعره. ألقيت نظرة على ڤان هيلسنغ، ورأيت الإدانة منعكسة في عينيه، لذا أصبحتُ أكثر ثباتًا في أسلوبي، إن لم أكن أكثر جدية، وأشرتُ له بأن جهوده لم تكن مجدية. فقد كنتُ قد رأيتُ في السابق شيئًا من الإثارة ذاتها التي تزداد لديه باستمرار عندما يضطر لتقديم طلب كان فكَّر فيه جيدًا، كما حصل على سبيل المثال، عندما طلبَ قطة، وكنتُ مستعدًا لأن أرى التقهقر إلى حالة الإذعان ذاته في هذه الحالة. لم يكن توقُّعي في محله، لأنه عندما رأى بأن التماسَه لن

ينجح، اضطرب كثيرًا. جثا على ركبتيه، ورفع يديه وهو يفركهما في تضرُّعٍ حزين، ثم انهال بوابلٍ من عبارات التوسُّل والدموع تسيل على وجنتيه، ووجهه وهيئته يعبران عن أعمق المشاعر:

«إني أتضرَّع إليك يا دكتور سيوِرْد، أوه، إني أتوسَّل إليك أن تخرجني من هذه المصحة على الفور. أرسلني كيفما تشاء وحيثما تشاء، وأرسل معي الحرَّاس بسياطهم وسلاسلهم، دعهم يأخذوني مقيَّداً بالصدرية، مصفَّد اليدين ومكبَّل القدمين بالحديد، دعهم يأخذوني حتى إلى السجن، ولكن دعني أخرج من هذا المكان. فأنتَ لا تدري ماذا تفعل بإبقائي هنا. إني أتكلَّم من أعماق قلبي، بل من أعماق روحي ذاتها. إنك لا تعرف مَنْ تظلم، أو كيف، وربما لن أخبرك. ويل لي! ربما لن أخبرك. أناشدُك بكل ما تقدِّسه، بكل ما هو عزيز عليك، بحبك الضائع، بأملك الذي يعيش، لخاطر الرب أخرجني من هذا المكان وأنقذ روحي من الإثم! ألا تسمعني، يا رجل؟ ألا تستطيع أن تفهم؟ ألن تتعلَّم أبدًا؟ ألا تعلم أني سليم العقل وجاد فيما أقول الآن، وأني لم أعد مختلًا في نوبةٍ جنون، إنما أنا رجل عاقل يقاتل من أجل روحه؟ أوه، اسمعني! دعني أذهب! دعني أذهب! دعني أذهب!».

حسبتُ أنه كلَّما طال حديثه زاد هياجه، وهذا سيدخله في نوبة اهتياج، ولذا أمسكتُ يده وأنْهَضْتُه وقلتُ له بحزم:

«هيَّا، لا مزيد من هذا، فقد نلنا منه ما يكفينا. امضِ إلى سريرك وحاول أن تنتهج سلوكًا أكثر فطنة».

توقَّفَ فجأةً ونظر إليَّ بإمعان عدَّة لحظات. ثم، ودون أي كلمة، نهض ومشى وجلس على حافة السرير. هو ذا يستسلم كما حصل في المرة السابقة، تمامًا مثلما توقَّعْتُ.

أثناء مغادرتي الحجرة، وكنتُ آخر من غادرها من صحبي، قال لي بصوت هادئ شديد التهذيب:

«يا دكتور سيوِرْد، أنا واثق من أنك ستكون منصفًا معي عندما تتذكَّر لاحقًا أنِّي فعلت ما أستطيع لأقنعك هذه الليلة».

الفصل التاسع عشر

يوميات جوناثان هاركر

١ *أكتوبر، الساعة الخامسة صباحًا-* ذهبت مع المجموعة لنبحث الأمر بترو، وأظنني لم أرَ مينا بهذا القدر من القوة والصحة قط. سرني جدًا أنها وافقت أن تترك هذه القضية وتدعنا نحن الرجال نتولى المهمة. وجودها في هذه القضية المخيفة من الأساس شكَّل مبعثَ خوفٍ لي نوعًا ما، لكن الآن وبعد أن انتهى دورها، ونظرًا لأن الفضل يرجع إلى طاقتها وعقلها ورؤيتها في جمع كافة عناصر القصة بطريقة يمكن الاستفادة من كل نقطة واردة فيها، فربما تشعر بالرضا لإتمام مهمتها، وبأنها تستطيعُ من الآن فصاعدًا ترك باقي القضية لنا. أعتقد أن جميعنا كنا منزعجين قليلًا بسبب ما حدث مع السيِّد رينفيلد. فعندما خرجنا من حجرته بقينا صامتين حتى عدنا إلى مكتب الدكتور سيوِرْد. حينها قال السيد مورِس للدكتور سيوِرْد:

«لنفرض مثلًا يا جاك، أنَّ ذلك الرجل لم يكن يحاول الاحتيال علينا، فهو يكاد يكون أعقل مجنون رأيته في حياتي. لست متأكدًا، ولكني أعتقد أن لديه غايةً جدية، وإن كان الأمر كذلك، فمن القسوة

ألا يحظى بفرصة لتحقيقها». لذتُ واللورد غودالمنغ بالصمت، ولكن الدكتور ڤان هيلسنغ أضاف:

«يا صديقي جون، أنتَ أدرى مني بالمجانين، وهذا أمر يسعدني، لأني أخشى أنه لو كان الأمر بيدي لقرَّرْتُ أن أطلق سراحه قبل تلك النوبة الهستيرية الأخيرة. ولكننا نعيش ونتعلم، وفي مهمتنا الملقاة على عاتقنا علينا ألّا نتخذ أي مجازفة، كما اعتاد صديقي كوينسي مورِس القول. الأمور أفضل كما هي عليه الآن». بدا أن الدكتور سيورد أجابها بطريقة حالمة:

«لا يمكنني إلا أن أتفق معك. فلو كان ذلك الرجل مجنونًا عاديًا لجازفت ووثقت به، لكن يبدو أن تصرفاته تشير إلى تواطؤ كبير مع الكونت إلى درجة أني بتُّ أخاف من ارتكاب أي خطأ من خلال الاستجابة لنزواته. لست أنسى كيف ظل يتوسل بإلحاح متواصل على وتيرةٍ واحدة من أجل الحصول على قطة، بعدها حاول أن يقتلع حنجرتي بأسنانه. أضف إلى ذلك أنه دعا الكونت «سيِّدًا ومعلمًا»، وربما يريد الخروج حتى يساعده بطريقة شيطانية ما. ذلك الكائن الرهيب معه الذئاب والجرذان وبني جنسه ليساعدوه، وأفترض بأنه لن يتوانى عن محاولة استخدام مجنون محترم. ومع ذلك فهو يبدو جادًا بالتأكيد. وآمل فقط أننا اتخذنا أفضل حلٍّ ممكن. فهذه الأشياء، إضافة إلى المهمة الرهيبة التي بين أيدينا، تساعد في أن توهن عزيمة أي إنسان». خطى البروفسور ڤان هيلسنغ إلى الأمام، واضعًا يده على كتف الدكتور سيورد، وقال بأسلوبه اللطيف الجِدِّي:

«يا صديقي جون، لا تخش شيئًا، فنحن نحاول أن نؤدي واجبنا في قضية رهيبة ومحزنة جدًا، ويمكننا فقط أن نفعل ما نراه مناسبًا. ما الذي ظل لنأمله سوى رحمة الله ؟». كان اللورد غودالمنغ قد انسلَّ خارجًا بضع دقائق، ولكنه عاد الآن، ثم رفع صفَّارة فضية صغيرة، وقال:

«قد يكون ذلك المنزل القديم مليئًا بالجرذان، وإن كان كذلك فمعي ترياق جاهز للاستعمال عند اللزوم». بعد أن عبرنا الجدار، سلكنا سبيلنا إلى داخل المنزل، وقد حرصنا أن نظل متخفين في ظلال الأشجار الساقطة على المرج عند بزوغ نور القمر. حين وصلنا شرفة المنزل الأمامية فتح البروفسور حقيبَتَه وأَخْرَجَ منها العديد من الأشياء التي وضعها على إحدى درجات الباب، ومن ثمَّ وزَّعَها في أربع مجموعاتٍ صغيرة، وواضح أن لكل واحدٍ منا مجموعة منها. ثم قال:

«يا أصدقائي، إننا مقبلون على خطر رهيب، ونحن بحاجة إلى مُختَلَف أنواع الأسلحة. فعدوُّنا ليس مجرد كائن روحي. تذكَّروا أنَّ له قوة عشرين رجلًا، وأن رقبته وقصبته الهوائية لا تتأثران بالقوة المجرَّدة، على خلاف رقابنا القابلة للكسر أو التهشيم. بإمكان رجل قوي، أو مجموعة رجال تفوق قوتهم مجتمعين قوته وحده، أن يمسكوا به أحيانًا، ولكنهم لا يستطيعون إيذاءه مثلما يمكنه إيذاءنا. وبناءً على ذلك علينا أن نحمي أنفسنا من لمسته. أبقِ هذا قريبًا من قلبك»، وبينما قال ذلك، رفع صليبًا فضيًا صغيرًا

وأعطاني إيَّاه، لأني كنتُ أقرب شخصٍ إليه، ثم أردف قائلًا: «ضع هذه الزهور حول رقبتك» وأعطاني إكليلًا من زهور الثوم الذابلة، وأضاف: «أما هذا المسدَّس وهذه السكِّين فللأعداء الآخرين الأكثر دنيوية. وخذوا هذه المصابيح الكهربائية الصغيرة والتي يمكنكم تثبيتها على صدوركم، ستنفعكم لكافة الأحوال. أما آخر الأمور وأهمها، فسأعطيكم هذا السلاح الذي يجب ألَّا ندنسه ما لم نضطر إلى ذلك». وكان يشير إلى قطعةٍ من الخبز المقدَّس، ثم وضعها في مظروف وأعطاني إياه. كما أعطى كل واحد نفس الأدوات بالضبط. ثم قال: «والآن يا صديقي جون، أين المفاتيح الخاصة التي يمكنها أن تفتح أبوابًا متعددة؟ إذا استطعنا أن نفتح الباب، فلا حاجة بنا لاقتحام المنزل من النافذة، مثلما فعلنا من قبل مع الآنسة لوسي».

جرَّب الدكتور سيوِرْد مفتاحًا أو اثنين من تلك المفاتيح، ويبدو أن مهارته اليدوية كجرَّاح قد نفعته وقت الحاجة. تمكن مباشرة من انتقاء مفتاح مناسب، ومع بعض التحريك إلى الخلف والأمام استجاب المزلاج واندفع مصدرًا صليلًا مزعجًا. ضغطنا على الباب، فصرَّت المفاصل الصدئة، ثم انفتح ببطء. كان الأمر يشبه على نحو مفزعٍ الصورة التي نُقِلَتْ إليَّ في مذكَّرات الدكتور سيوِرْد عن فتح مدفن الآنسة لوسي ويستينرا، وأتصوَّرُ أن الفكرة ذاتها قد طرقت مخيَّلة الآخرين، إذ تراجعوا سوية مذعورين. كان البروفسور أول مَنْ تقدَّم إلى الأمام وخطا عبر الباب المفتوح قائلًا:

«يا أبتاهُ، في يديك أستودع روحي»[1] راسماً إشارة الصليب أثناء عبوره فوق عتبة الباب. أغلقنا الباب وراءنا، خشية أن نلفت انتباه أحد المارة في الطريق عندما نضيء مصابيحنا. أعاد البروفسور القفل بحذر، حتى نكون قادرين على فتحه من الداخل في حال كنَّا في عجلة من أمرنا أثناء الخروج من المنزل. ومن ثم أشعلنا مصابيحنا وباشرنا بحثنا.

سقط الضوء الصادر من المصابيح الصغيرة ورسم أشكالًا غريبةً متنوعة، ربما لأن أضواء المصابيح تقاطعت ببعضها، أو لأن عتمة أجسامنا شكَّلتْ ظلالًا هائلة. خالجني شعور لم أستطع التخلص منه، بأن شخصًا آخر كان بيننا. وأحسب أن السبب في ذلك هو استرجاعي لتجربتي الرهيبة في ترانسلڤينيا، وقد عادت إلي بصورة قوية جدًا بسبب الأجواء المتجهِّمة المحيطة بنا. أظن أن الشعور راودَنَا جميعًا، لأنِّي لاحَظْتُ بأن الآخرين بدوا قلقين من كل صوت ومن كل ظل جديد يرتسم، مثلما شعرتُ تمامًا.

كان الغبار يغطي الأرضية بأكملها حتى بدت أنها تغيب تحتنا بعمق إنشات وقد تخللتها آثار أقدام حديثة، ولما سلطت عليها ضوء مصباحي استطعت أن أرى آثار دبابيس الحذاء وقد اخترقت الغبار. الجدران منتفشة والغبار يكسوها بأكملها. تجمعت في الزوايا كتلٌ من شبكات العناكب والغبار متراكم فوقها، حتى بدت كخِرقٍ

---

(١) (وَنَادَى يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: «يَا أَبَتَاهُ، فِي يَدَيْكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي». وَلَمَّا قَالَ هذَا أَسْلَمَ الرُّوحَ). (إنجيل لوقا: ٢٣:٤٦).

قديمة ممزقة وقد تدلت نحو الأسفل بفعل ثقل الغبار. وعلى طاولةٍ في الصالة وُضعت مجموعة كبيرة من المفاتيح، يحمل كل واحد منها علامةً تعريفيةً اِصْفَرَّ لونها بفعل الزمن. واضح أن المفاتيح استخدمت عدة مرات، إذ خلّف استخدامها آثارًا كالخدوش على غبار الطاولة، وهي تشبه تلك التي تشكلت توًا حين قام البروفسور برفع المفاتيح. التفت إليَّ وقال:

«أنتَ تعرف هذا المكان يا جوناثان. لقد نسخْتَ خرائط عنه، ومعرفتك به على الأقل أفضل من معرفتنا. أين الطريق إلى الكنيسة الصغيرة؟» رغم أني في زيارتي السابقة لم أقدر على الدخول إليها، غير أنه كانت عندي فكرة عن الجهة التي تقع فيها، ولذا تقدَّمْتُ الآخرين، وبعد عدة انعطافات خاطئة ألفيتُ نفسي مقابل بابٍ من السنديان منخفض ومقوس، وتطوقه أحزمة حديدية. «هذا هو المكان» قال البروفسور وهو يسلِّط ضوءَ مصباحه على خريطة صغيرة للمنزل، نُسِخَتْ من ملف رسالتي الأصليَّة المتعلقة بعملية البيع. بعد شيء من المعاناة، وجدنا المفتاح من بين المجموعة الكبيرة وفتحنا الباب. كنا مستعدين لأي مفاجأة بغيضة، إذ بدا وكأنَّ هواءً نتنًا تسلل عبر الفجوات، ولكن أيًا منا لم يتوقع قط مثل هذه الرائحة التي شمَمْنَاها. لم يلتق أحدهم الكونتَ من مسافة قريبة على الإطلاق، وحتى أنا عندما رأيتُه في القلعة كان إمَّا في حالة صوم أثناء تواجده في غرفته، أو عندما كان مبتهجًا بالدم الطازج في مبناه المتهالك المفتوح على الهواء، لكنَّ المكان هنا صغيرٌ ومغلق، وقد جعل الإهمالُ الهواءَ راكدًا وملوثًا. شممنا أيضًا رائحة ترابية،

وكأن أبخرة جافة عفنة انتشرت عبر الهواء الملوث. ولكن فيما يخص الرائحة ذاتها، كيف لي أن أصفها؟ فالأمر لم يقتصر على أنها رائحةٌ تتضمن كل أمراض البشر وقد امتزجت مع رائحة الدم اللاذعة الزنخة، ولكن بدا وكأن التعفن ذاته أصابه العفن. أف! إنَّ التفكير بها يصيبني بالغثيان. بدا أن كل نَفَسٍ زفَرَه ذلك الوحش التصق متشبثًا بالمكان وزادَه قرفًا على قرف.

في ظل ظروف اعتيادية فإن مثل هذه الرائحة الخبيثة كانت ستضع حدًا لمغامرتنا، ولكن هذه القضية ليست قضية عادية، والغاية السامية والرهيبة التي انخرطنا فيها أعطتنا قوة تسامت فوق الاعتبارات المادية المحضة. وبعد الانكماش اللاإرادي الذي أعقب النفحَة المقرفة الأولى، باشرنا جميعنا عملنا وكأن ذلك المكان المقرف حديقةٌ من الورود.

أجرينا فحصًا دقيقًا للمكان، وقال البروفسور حالما بدأنا ذلك:

«إن الخطوة الأولى هي أن نرى كم عدد الصناديق الباقية، وعلينا بعدها أن نتفحَّص كل فتحة وزاوية وشق، ونرى فيما إذا عجزنا عن العثور على بعض القرائن عن المصير الذي آلت إليه بقيَّة الصناديق». لم نحتج غير نظرة خاطفة كانت كافية لنتبين كم بقي منها، لأن صناديق التراب العظيمة ضخمة، ولا يمكن للعين أن تخطئها.

بقي فقط تسعة وعشرون صندوقًا من الخمسين! انتابني الذعر عندما رأيتُ اللورد غودالمنغ يلتفتُ فجأةً وينظر عبر الباب المقوس

صوب الممرِّ المعتم خلفه، نظرتُ معه وتجمَّد قلبي لوهلة. في موضع ما، وأنا أنظر من خلال الظل، تهيأ لي أني رأيت الملامح المميزة لوجه الكونت الشرير، أنفه الدقيق، عينيه وشفتيه الحمراوين، وشحوبه الفظيع. كان ذلك للحظة فقط، لأنَّه، وبينما قال اللورد غودالمنغ: «حسبت أني رأيتُ وجهًا، ولكنها ليست سوى الظلال» ومن ثم استأنف بحثَه، وجَّهْتُ مصباحي في ذلك الاتجاه، وخطوت إلى داخل الممر. لم يكن هناك ما يدل على وجود أي شخص، ونظرًا لعدم وجود زوايا، ولا أبواب، ولا فتحات من أي نوعٍ كان، ولا شيء سوى جدران الممر المصمتة، ولا يمكن أن يكون هناك أي مخبأ حتى له، فقد عزوت الأمرَ إلى أن الخوف قد ألهب مخيلتي ولذا لم أنطق بكلمة.

بعد بضع دقائق رأيتُ مورِس يتراجع فجأة إلى الوراء من إحدى الزوايا التي كان يبحث فيها. تَتبَعْنَا تحركاته بنظراتنا، وكان التوتر بلا شك يتفاقم فينا. لاحت كتلة من الوميض الفوسفوري الذي التمع مثل النجوم. تراجعنا بطريقة لا إرادية. وغدا المكان برمته يموج بالجرذان.

بقينا للحظة أو اثنتين مرتاعين، باستثناء اللورد غودالمنغ الذي كان على ما يبدو مستعدًا لمثل هذه الحالة الطارئة. ما كان منه إلَّا واندفع نحو الباب السندياني الضخم المطوق بالحديد، الذي كان الدكتور سيوِرْد قد وصَفَه من الخارج، والذي رأيته بنفسي، وأدار المفتاح في القفل ثم سحب المزاليج الضخمة، فتأرجح الباب

وانفتح. بعد ذلك أخرج من جيبه صفَّارتَه الفضية الصغيرة، ونفخ فيها مطلقًا صفيرًا حادًا ومنخفضًا. استجابت له الكلاب نابحة من وراء مصحة الدكتور سيورد، وبعد حوالي دقيقة اندفعت ثلاثة كلاب تيرير عند زاوية المنزل. كنا قد توجهنا جميعنا لاإراديًا نحو الباب، وأثناء مشينا لاحظتُ أنَّ الغبار ثار على نحوٍ كبير، لا بد أن الصناديق التي أُخْرِجَت من المنزل قد مرَّت عبر هذا الطريق. وحتى هذه اللحظة لا زال عدد الجرذان يتزايد بشكل هائل. بدت وكأنها تحتشد في المكان جميعها في وقت واحد، وحين وقع ضوء المصباح على أجسامها الداكنة المتحرِّكة وعيونها الشريرة المتلئلئة، صار المكان كقطعة أرض تملؤها حشرة اليراع المضيئة. اندفَعَت الكلاب، ولكن حين بلغت عتبة الباب توقَّفَتْ فجأةً وبدأت تزجمر، ومن ثمَّ، رفَعَتْ أنوفَها وأخذت تنبح بطريقة كئيبة جدًا. تضاعف عدد الجرذان ألوفًا، فخرجنا من المكان.

رفع اللورد غودالمنغ أحد الكلاب، وحمله إلى الداخل، ثم وضعه على الأرض. ما إن لامست أقدامه الأرض إلا واستعاد شجاعته، وانقَّض على أعدائه الطبيعيين، فهربت الجرذان أمامه بسرعة كبيرة لدرجة أن الكلبين الآخرين -واللذان رُفِعَا في هذه الأثناء بالطريقة ذاتها- لم يجدا أمامهما سوى القليل من الفرائس قبل أن تختفي مجموعة الجرذان عن بكرة أبيها.

بمجرد اختفائها شعرنا وكأن وجودًا شريرًا غادر المكان، إذ قفزت الكلاب فرحًا ونبحت مبتهجة وهي تنقض فجأة على

خصومها المطروحين أرضًا، وتقلّبُها المرة تلو الأخرى ثم ترجّها بعنف وتقذفها في الهواء. بدت علينا جميعًا علامات السرور، سواء كان ذلك بسبب تنقية الهواء الخانق بعدما فتحنا باب الكنيسة الصغيرة، أو بسبب الطمأنينة التي استشعرناها عندما وجدنا أنفسنا في الهواء الطلق، لا أدري، لكن ظلال الرعب بلا شك قد انسلت منًّا مثلما ينسل الحبل، ودوافع قدومنا إلى هنا فقدت بلا ريب شيئًا من تزمت جديتها، رغم أننا لم نتراخى ولو مقدارَ شعرة في عزمنا. أغلقنا الباب الخارجي وأنزلنا المزلاج وأقفلناه، وقد أدخلنا الكلاب معنا وبدأنا بحثَنَا في داخل المنزل. لم نجد في أرجائه سوى الغبار الذي انتشرَ بكمياتٍ هائلة، وما زال على حاله تمامًا باستثناء المواضع التي أحدثَتْها آثار أقدامي عندما زرت المنزل أول مرة. لم تُظْهِرِ الكلابُ أي علامة من علامات الاضطراب، وحتى عندما عدنا إلى الكنيسة الصغيرة تقافزَت فرحًا وكأنها كانت تصيد الأرانب ذات صيفٍ في الغابة.

كان الصُّبْح يلوح مسرعًا في الشرق عندما خرجنا من واجهة المنزل. أخذ الدكتور ڤان هيلسنغ مفتاح باب الصالة من مجموعة المفاتيح وأقفل الباب، ثم وضع المفتاح في جيبه وقال:

«حتى الآن، كان نجاح ليلتنا بارزًا. لم نُصَبْ بأذى كما خشيتُ أن يحصل، ومع ذلك تأكّدنا من عدد الصناديق المفقودة. وأكثر ما أبهجني هو أن خطوتنا الأولى -وربما الأصعب والأخطر- قد أنجزت دون أن نُقْحِمَ فيها صديقتنا اللطيفة جدًا السيِّدة مينا أو

نقلق أفكار يقظتها أو أحلام نومها بمناظر الرعب وأصواته وروائحه التي قد لا تنساها أبدًا. كما تعلَّمْنَا أيضًا درسًا مهمًا -إن كان من الممكن أن نحاجج في هذه النقطة تحديدًا- وهو أنَّ الضواري الشرسة التي يسيطر عليها الكونت وتتحرك بإمرته، هي رغم ذلك ليست منقادة لقواه الروحية، انظروا مثلًا إلى هذه الجرذان التي تأتي تلبيةً لندائه، بالطريقة ذاتها التي استدعى فيها الذئاب من أعلى قلعته حتى تمنع خروجك وتتسبب في بكاء تلك الأم المسكينة، فرغم أنَّها لبَّت نداءه، إلا أنها هربَتْ باضطراب شديد أمام كلاب صديقي أرثر القليلة. لا تزال أمامنا مسائل وأخطار وأهوال أخرى تنتظرنا، كما أنَّ أمامنا مواجهة ذلك الوحش بنفسه، ولن تكون هذه هي المرة الوحيدة أو الأخيرة التي سيستخدم فيها سطوته على الكائنات المتوحشة كما فعل الليلة. ولذا فقد رحل إلى مكان آخر. وهذا أمر جيد! فذلك أعطانا الفرصة بطريقة ما لكي نصيح «كش ملك» في لعبة الشطرنج هذه، والتي نلعبها لإنقاذ أرواح البشر. الآن دعونا نعود إلى المصحة، فالفجر يكاد ينبلج، ولدينا مسوغ لنفرح فيما أنجزناه في ليلتنا الأولى. ربما من المقدر لنا أن نعيش العديد من الليالي والأيام القادمة، حتى وإن كانت مليئة بالأخطار المهلكة، لكن يجب أن نستمر وألَّا نتراجع مذعورين».

كانت المصحة هادئة عندما عدنا إليها، ما خلا مريضٍ مسكينٍ يصرخ في أحد الأجنحة البعيدة، وصوت أنين خافت قادمٍ من حجرة رينفيلد. كان البائس المسكين بلا شك يعذِّب نفسه بأساليب المجانين، من خلال أفكار عن الألم هو في غنى عنها.

دخلتُ غرفتَنَا على رؤوس أصابعي، ووجدتُ مينا نائمة، وهي تتنفَّس برقةٍ بالغةٍ لدرجة أنني قربت أذني منها حتى أسمع أنفاسها. كانت تبدو أشد شحوبًا من المعتاد. وآمل ألا يكون اجتماع الليلة قد أرهقَهَا. إنني ممتنٌّ فعلًا لأنها ستبقى خارج نطاق مهمتنا المستقبلية، وحتى خارج نقاشاتنا التي نجريها. فهذا إجهادٌ هائل جدًا حتى تتحمَّله امرأة. لم أحسب أن الأمر كذلك في البداية، ولكني أعرف ذلك على نحو أفضل الآن. ولذا فأنا مسرورٌ لأننا حسمنا هذا الأمر. ربما هناك أشياء من شأنها أن تخاف سماعها، ومع ذلك فإن إخفاءها عنها ربما يكون أسوأ من إخبارها بها إذا ما شكَّت ذات مرة بوجود أشياء أخفيت عنها. من الآن فصاعدًا فإن مهمتنا ستصير مثل كتاب مُقْفَلٍ في وجهها، حتى على الأقل يحين الوقت الذي نستطيع فيه أن نخبرها بأننا فرغنا من كل جزء من مهمتنا. أخشى أنه من الصعب الالتزام بالتكتم بعد تلك الثقة التي بيننا، ولكن عليَّ أن أكون ثابت العزيمة، وفي الغد لن أتحدث عن ما فعلناه الليلة أو عن أي شيء حصل فيها. استرخيتُ على الأريكة كي لا أزعجها.

١ أكتوبر، لاحقًا- أفترض أنه من الطبيعي أننا تأخرنا جميعنا في النوم، إذ كان نهارنا مزدحمًا، ولم ننعم بالراحة في الليل على الإطلاق. ولا بدَّ أن مينا أيضًا شعرت بإرهاقِ تلك المهمة، فرغم أني نمتُ حتى ارتفعت الشمس في كبد السماء، فقد استيقظْتُ قبلَهَا، واضطررتُ أن أنادي عليها مرتين أو ثلاث قبل أن تستيقظ. وقد كانت بالفعل تغط في نومٍ عميق لدرجة أنها لم تميِّزْنِي لبضع ثوان،

إنما نظرت إليَّ بشيء من الجمود المرعب، كنظرة شخص قد استيقظ للتو من حلم سيء. اشتكت قليلًا من أنها متعبة، ولذا تركْتُها ترتاح حتى وقتٍ لاحق في النهار. نحن نعلم الآن بأن واحدًا وعشرين صندوقًا قد نقلت، وإذا كان العديد منها قد نُقِلَ خارج المنزل فربما نستطيع أن نتتبعَها كلها. وسوف يسهِّل ذلك بالطبع عملنا بصورة كبيرة، وكلما حسمنا المسألة كان ذلك أفضل. يجب أن أزور تومَس سنيلِنْغ اليوم.

مذكرات الدكتور سيوِرْد

١ *أكتوبر*- قارَب الوقتُ الظهيرة عندما أيقظني دخول البروفسور ڤان هيلسنغ إلى غرفتي. كان أكثر بشاشةً وابتهاجًا من المعتاد، وواضح إلى حدٍّ كبير أن عمل الليلة الفائتة قد ساعد في إزالة بعض الهموم الثقيلة من فكره. بعد استذكار أحداث مغامرة الليلة الفائتة قال على نحوٍ مفاجئٍ:

«إنَّ مريضك يثير اهتمامي كثيرًا. أيمكنني أن أزوره معك هذا الصباح؟ وإذا كنتَ مشغولًا جدًا، يمكنني أن أزوره وحدي بعد إذنك. إنها لتجربة جديدة لي أن أجد مجنونًا يتحدَّث في الفلسفة، ويفكر بهذا العمق الشديد». كان عندي بعض الأعمال المتراكمة التي عليَّ إنجازها، ولذا قلت له إنني سأكون مسرورًا لو ذهب وحده إذا شاء، لأني بذلك لن أجبره على انتظاري، ولذلك استدعيتُ أحد المساعدين وزوَّدْتُهُ بالتعليمات الضرورية. قبل أن يغادر البروفسور

الغرفة حذرته من مغبَّة الحصول على أي انطباع مزيف من مريضي، فأجابني: «ولكني أريده أن يتحدَّث عن نفسه وعن توهمه فيما يخص أكل الكائنات الحية. فقد قال للسيِّدة مينا، كما رأيتُ في مذكراتك البارحة، إنَّ مثل هذا الاعتقاد ساوره ذات مرة. لماذا أراكَ تبتسم يا صديقي جون»؟.

قلتُ له: «المعذرة، ولكن الجوابَ موجود هنا». ثمَّ وضعتُ يدي على المادة التي طبعت على الآلة الكاتبة، وأضفتُ قائلًا: «عندما نطَقَ مجنوننا العاقل المثقَّف تلك العبارة بالذات عن كيفية تعوده على أكل الكائنات وهي حية، فقد كان فمه فعليًا يفوح برائحة مقززة من الذباب والعناكب التي كان قد أكلها قبل لحظات فحسب من دخول السيِّدة هاركر إلى حجرته». فابتسم ڤان هيلسنغ بدوره وقال: «جيِّد! ذاكرتك جيِّدة يا صديقي جون. كان ينبغي لي أن أتذكَّر ذلك. ومع ذلك فإنَّ ما يجعل دراسة الأمراض النفسية دراسة مدهشة هو هذا الانحراف ذاته في الفكر والذاكرة. فربما لي أن أحوز معرفةً من حماقة هذا المجنون أكثر مما أجنيه من تدريس أكثر بني البشر حكمة. فمن يدري؟». ثم تابعتُ عملي، ولم تمر مدة طويلة إلَّا وفرغت منه. ورغم أن الوقت الذي مرَّ بدا قصيرًا جدًا، غير أن ڤان هيلسنغ عاد إلى مكتبي وسألني بأدبٍ وهو يقف بالباب: «أجئتُ في وقتٍ غير مناسب؟» فأجبتُه:

«لا، على الإطلاق. تفضَّل. فقد أنهيت عملي، وأنا متفرِّغ الآن. يمكنني أن أذهب معك إذا أحببت».

«ما من حاجة لذلك، فقد زرتُه وانتهى الأمر!».

«وما رأيك بحالته؟».

«أخشى أنه لم يقدِّرْني كثيرًا. كان لقاؤنا قصيرًا. عندما دخلتُ حجرته كان جالسًا على كرسي دائري في منتصفها، مرفقاه على ركبتيه، ووجهه كأنه لوحةٌ من البؤس والتعاسة. تحدَّثتُ معه بأبهج طريقة استطعتها، وبكمية من الاحترام قدر ما استطعت. لم يقدم أية إجابة. ثم سألتُه: «ألا تعرفني؟». ولكن جوابه لم يكن مطمئنًا إذ قال: «أنا أعرفك جيدًا بما يكفي، أنتَ الأحمق العجوز ڤان هيلسنغ. وأتمنَّى منك أن تَحْمِلَ نَفْسَكَ ونظرياتك الحمقاء الخاصة بالدماغ وتأخذها معك إلى مكان آخر. اللعنة على كل الهولنديين الأغبياء!» لم يزد على ما قاله كلمةً واحدةً، بل جلس في عبوسه العنيد غير مكترثٍ بي وكأني لم أكن موجودًا في الحجرة على الإطلاق. وهكذا أفلَتَتْ مني هذه المرة فرصتي في تعلُّم الكثير من هذا المجنون الذكي جدًا، ولذا فإني سأذهب، بعد إذنك، وأشرح صدري ببضع كلمات سعيدات مع تلك الروح العذبة السيِّدة مينا. يا صديقي جون، إنَّ أكثر ما يسر خاطري بصورة لا توصف أنها لم تعد تتألَّم، ولم يعد القلق ليعتريها بسبب قصصنا الرهيبة. وهذا أفضل لها رغم أننا سنفتقد مساعدتها كثيرًا».

«أوافقُكَ من كل قلبي» أجبتُه بجدية، لأني لم أشأ له أن يضعف في هذا الجانب. ثم أردفتُ قائلًا: «الأفضل أن تكون السيِّدة هاركر خارج إطار هذه القضية. فالأمور سيئة إلى حدٍّ كبير بما يكفينا ويزيد،

نحن الرجال الخبيرون بأمور الحياة، نحن الذين خضنا العديد من المواقف الصعبة في زماننا، ولكنها مواقف لا يمكن لامرأة أن تكون فيها، ولو بَقِيَتْ على اتصال بالقضية لأهلكتها مباشرة».

وهكذا ذهب ڤان هيلسنغ لكي يتحادث مع السيدة هاركر، بينما كان كوينسي وأرثر خارج المصحة يتابعان أمور الدلائل التي تقودنا إلى صناديق التراب. سوف أنهي جولة العمل ثم سنجتمع الليلة.

يوميات مينا هاركر

١ أكتوبر- إنَّ إبقائي جاهلةً بما يجري مثلما حصل اليوم، لهو أمرٌ غريبٌ عليَّ. وبعد كل هذه الثقة المطلقة التي منحني إياها جوناثان طوال سنوات، صار الآن يتجنَّبُ بصورةٍ واضحةٍ الخوض معي في بعض المسائل، وبخاصة المسائل الجوهرية. نمتُ هذا الصباح حتَّى وقتٍ متأخرٍ بسبب تعب البارحة، ورغم أن جوناثان تأخَّر في النوم أيضًا، إلَّا أنَّه استيقظ قبلي. تحدَّث معي قبل أن يخرج بحديث ليس في الكون أعذب أو ألطف منه، لكنه لم يذكر ولا كلمةً واحدة عما حصل في زيارتهم إلى منزل الكونت. ومع ذلك فلا بدَّ أنه عرف مقدار القلق الرهيب الذي يعتريني. مسكين زوجي العزيز! أظن المسألة ستعكر مزاجه أكثر مما ستعكِّر مزاجي بلا شك. لقد اتفقوا جميعهم على أنه من الأفضل ألا أنجرَّ أكثر إلى هذا العمل الفظيع، وقد رضخت لطلبهم. لكن تؤرقني فكرة أنه يخفي أي شيء عنِّي!

وأنا الآن أبكي مثل حمقاءَ تافهة، إذ أدركتُ بأن ذلك نابعٌ من الحب العظيم الذي يكنه زوجي لي ومن الأمنيات الطيِّبة لأولئك الرجال الأقوياء.

نفعني ذلك. لا بأس، فيومًا ما سيقول لي جوناثان كل شيء، وكي لا يظن أبدًا ولو لحظة بأني أخفيتُ أي شيء عنه، فإني ما أزال أكتب يوميَّاتي كالعادة. وبهذا فإني سأثبت له ثقتي به إذا ما ساورته المخاوف بشأنها، سأثبتها له مع كل فكرة من أفكار قلبي التي أدوِّنُها على الورق لكي تقرأَها عيناه العزيزتان. أشعر اليوم بالحزن وانخفاض في الروح المعنوية على نحوٍ غريب. وأحسب أنَّ سبب ذلك ردُّ الفعل الناجم عن الاضطراب الرهيب.

في الليلة الماضية ذهبتُ إلى النوم بعد أن غادر الرجال، وقد فعلتُ ذلك ببساطة لأنهم طلبوا مني ذلك. لم أشعر بالنعاس، وشعرت بأني ممتلئة بالقلق الذي كان ينهشني. لم أتوقف عن التفكير في كل الأحداث التي وقَعَتْ منذ جاء جوناثان ليراني في لندن، وبدت كلُّها مثل مأساةٍ رهيبة يضغط القَدَرُ فيها بلا هوادة ليبلغ نهاية معينة. يبدو أن كل ما يفعله المرء، سواء كان فعلًا صحيحًا أم لا، سيؤدي في النهاية إلى أكثر شيء يسبب له الحسرة. فلو لم أذهب إلى وِتْبِي، لربَّما كانت لوسي الغالية المسكينة معنا الآن. فهي لم تكن قد اعتادت زيارة ساحة الكنيسة حتى جئتُ أنا، ولو لم تأتِ معي في النهار لما مَشَتْ إلى هناك أثناء نومها، ولو لم تذهب في الليل وهي نائمة، لما قَضَى عليها ذلك الوحش مثلما فعل بها. أوه، لماذا ذَهَبْتُ

إلى وِتْبِي أساسًا؟ ها أنا الآن أبكي مرة أخرى! وأستغرب ما الذي اعتراني اليوم؟ عليَّ أن أخفي ذلك عن جوناثان، فلو عرَف أنني كنت أبكي مرتين في صباح يوم واحد فإن القلق سينهش قلبه- وأنا التي لم تبكِ قطُّ من تلقاء نفسها، وهو الذي لم يتسبب قط في انهيار دموعي -. عليّ أن أظْهِرَ رباطة الجأش دون أن أخشى شيئًا، وإذا شعرتُ بأنَّ دموعي على وشك النزول، فلا ينبغي له أن يرى ذلك بتاتًا. أحسب أن ذلك درسٌ من الدروس التي علينا أنْ نتعلَّمَها نحن النساء المسكينات...

لا أستطيع أن أتذكَّر تمامًا كيف نمتُ الليلة الماضية. كل ما أتذكَّره سماع نباح الكلاب المفاجئ وكثيرٍ من الأصوات الغريبة، مثل صوت صلاة بصوتٍ صاخب جدًا من حجرة السيِّد رينفيلد، التي تقع في مكان ما تحت مصدر النباح. وتلا ذلك صمتٌ خيَّم على كل شيء، صمتٌ مطبقٌ لدرجةٍ أفزعتني، فنهضتُ ونظرتُ من النافذة. لا شيء سوى الظلام والصمت، بدت الظلال السوداء التي شكَّلها نور القمر مملوءة بصمت غامض من تلقاءِ ذاتها. لم يبدُ أنَّ أي شيء كان يتحرَّك، بل كان كل شيء مظلمًا وساكنًا مثل الموت أو القدر، حتَّى إن خطًّا رفيعًا من ضباب أبيض زحَفَ ببطء لا يكاد يُدْرَك عبر العشب صوب المنزل، وبدا أنه يمتلك نوعًا من الإحساس أو الحياة الخاصة فيه. وأظن أنَّ استطراد أفكاري لا بدَّ كان في مصلحتي، لأني عندما عدتُ إلى السرير أحسستُ بخمولٍ يَسْرِيْ في جسدي. اضطجعتُ برهة، ولكني لم أستطع النوم تمامًا، ولذا تركتُ السريرَ ونظرت من النافذة مرة أخرى. كان الضباب

ينتشر، وبات الآن قريبًا من المصحَّة، ولذا استطعتُ رؤيته وهو يلاصق الجدار بطبقة كثيفة، وكأنه كان يتسلَّل صاعدًا إلى النوافذ. علا صوت المسكين رينفيلد أكثر من قبل، ورغم أني لم أستطع أن أميِّز أيَّ كلمة مما قاله، فقد استطعتُ بطريقةٍ ما، أن أميِّز في نبراته بعضًا من توسُّلٍ مشوبٍ بالعاطفة. ثم تلا ذلك صوتُ مقاومة، فعرفتُ بأن المساعدين كانوا يتعاملون معه. تملَّكَني خوفٌ شديدٌ حتى إني تسلَّلتُ إلى السرير، وسحبتُ أغطيتَه وغطَّيْتُ بها رأسي، ووضعتُ أصابعي في أذني. لم أكن حينها أشعر بشيء من النعاس، على الأقل هكذا ظننت، ولكن لا بدَّ أنِّي خررت نائمة، وباستثناء الأحلام لا أتذكر شيئًا مما حدث معي حتى الصباح عندما أيقظني جوناثان. أظنني احتجتُ إلى جهدٍ وبعض الوقت حتى أدرك أين كنتُ، وأنَّ الشخص الذي كان ينحني فوقي ليوقظني لم يكن سوى جوناثان. كان حلمي غريبًا جدًا، وكان تقريبًا أنموذجًا عن الطريقة التي تندمج فيها أفكار اليقظة مع الأحلام أو تستمر أثناءها.

ظننتُ أني كنتُ نائمة، وكنت أنتظر جوناثان حتى يعود لأني قلقة جدًا عليه، وكنت عاجزة عن فعل أي شيء، شعرت بثقل في قدميَّ، ويديَّ، وعقلي ولم يكن أيٌّ منها يعمل بالسرعة العادية. ولذلك فقد نمتُ باضطراب وداهمني التفكير. ثم بدأ يحيق بي شعورٌ بأنَّ الهواء ثقيل الوطأة، رطب، وبارد. أزحتُ أغطية السرير عن وجهي لأجدَ بأن كل ما حولي بات معتمًا فغمرتني دهشة شديدة. كان ضوء مصباح الغاز الذي تركته من أجل جوناثان وقللت من إضاءته، قد تحول إلى مجرد وميض أحمر ضئيل عبر الضباب الذي تدفَّق إلى داخل

الغرفة وزادت كثافته بشكل واضح. ثم خطر في بالي أنِّي كنت قد أغلقتُ النافذة قبل أن أعود إلى السرير. عقدتُ العزمَ على النهوض من السرير حتى أتأكَّد من هذه النقطة، ولكن بدا أن بعض الخمول الثقيل كبَّل أطرافي لا بل إنه حتى كبَّل عزيمتي. اضطجعت ساكنة وصبرت، لا شيء أكثر من ذلك. أغمضتُ عيني، ولكني كنت ما أزال أرى من خلال رموشي. (يا للحيل المدهشة التي تمارسها أحلامنا علينا، ويا لقدرتنا على التخيُّل بالصورة التي تلائمنا!). زادت سماكة الضباب تدريجيًا وبت أراه الآن وهو يدخل إلى الغرفة، كان مثل الدخان –أو مثل البخار الأبيض الصاعد من الماء المغلي– وهو يتدفق إلى داخل الغرفة عبر مفاصل الباب لا النافذة. وما لبث أن زادَ سماكةً إثر سماكة، حتى بدا وكأنه صار متركزًا في ما يشبه عمودًا من السُّحُب في الغرفة، واستطعتُ أن أرى عبر قمته ضوءَ الغاز يشع مثل عين حمراء. بدأت الأشياءُ تدور داخل رأسي مثلما دار عمود السُّحُب في الغرفة كدوامة، وفي معمعة ذلك كله طرَقتْ مسامعي الكلمات الإنجيلية «عمود من سحابة في النهار ونار في الليل»[1]. أكان ذلك حقًا ضربٌ من ضروب الهدي الروحي الذي جاء إليَّ في نومي؟ ولكن العمود كان يحوي النهار والليل، لأن النار كانت في العين الحمراء التي منحتني سحرًا جديدًا عندما فكَّرْت فيها إلى أن انقَسَمَت وأنا أنظر إليها، وبدت وكأنها تشع عليَّ عبر الضباب مثل عينين حمراوين، مثل العينين اللتين حدَّثَتْنِي لوسي

(١) «لأَنَّ سَحَابَةَ الرَّبِّ كَانَتْ عَلَى الْمَسْكَنِ نَهَارًا. وَكَانَتْ فِيهَا نَارٌ لَيْلاً أَمَامَ عُيُونِ كُلِّ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ فِي جَمِيعِ رِحْلاَتِهِمْ» (سفر الخروج ٤٠: ٣٨).

عنهما لما سرح ذهنها لحظيًا عندما سقط ضوء الشمس الغاربة على نوافذ كنيسة القدِّيسة ميري عند الجرف في وِتْبِي. وفجأةً انفجرَتْ في ذهني فكرةٌ مرعبةٌ بأن جوناثان إذن قد رأى تلكم النساء الرهيبات وقد تحوَّلن إلى حقيقة من خلال الضباب الدائر في نور القمر، ولا بدَّ أني سقطتُ مغشيًا عليَّ في حلمي، لأن كل شيء أصبح ظلامًا أسود. وكان آخر جهد واعٍ بذَلَه الخيال قد أظهر لي وجهًا كامدًا أبيض ينحني فوقي خارجًا من الضباب. عليَّ أن أتوخَّى الحذر من مثل هذه الأحلام لأنها ستطيح بعقل المرء إذا داهمته بمقدارٍ كبير. سأطلب من الدكتور ڤان هيلسنغ أو الدكتور سيوِرْد أن يصفا لي دواءً يجعلني أنام، بيد أن ما يمنعني من ذلك هو خشيتي من أن أثير فزعهما. فمثل هذا الحلم في الوقت الحالي من شأنه أن يتداخل مع مخاوفهم عليَّ. ينبغي لي الليلة أن أحاول جاهدةً أن أنام بصورة طبيعية. وإذا لم أفعل، فينبغي لي ليلة الغد أن أطلب منهما أن يعطياني جرعةً من الكلورال، جرعةً لا يمكن أن تؤذيني لمرة واحدة على الأقل، وسوف تمنحني نوم ليلة هانئة. فالليلة الماضية أتعبَتْنِي أكثر مما لو أني قضيتها دون نومٍ على الإطلاق.

٢ أكتوبر، الساعة العاشرة مساء- نمتُ الليلة الماضية، ولكن الأحلام لم تراودني. لا بدَّ أني نمتُ بعمق، إذ إنَّ مجيء جوناثان إلى السرير لم يوقظني، ولكن النوم لم ينعشني، لأني أشعر اليوم بالضعف وانعدام المعنويات على نحوٍ فظيع. أمضيت البارحة بأكملها ما بين محاولة القراءة، أو الاضطجاع في نومٍ خفيف. وعند الظهيرة طلب السيِّد رينفيلد رؤيتي إذا سمح لي المَجال. يا له من

رجل مسكين! فقد كان لطيفًا جدًا، وعندما خرجْتُ من حجرته قبَّل يَدِيْ ودعا الله أن يباركني. أثرَّ ذلك فيَّ كثيرًا، وصرت أبكي عندما أفكِّر فيه. هذه نقطة ضعف جديدة، وعليَّ أن أكون حذرة منها، لأنَّ التعاسة ستحيقُ بجوناثان إذا عرَف أنني كنت أبكي. ظل مع الآخرين خارج المصحَّة حتَّى موعد العشاء، ودخلوا جميعًا وهم متعبون. فعلت ما بوسعي لكي أُدْخِلَ السرور على نفوسهم، وأظنُّ بأنَّ المحاولة أفادَتْني، فقد نسيتُ مقدار تعبي الشديد. بعد العشاء طلبوا مني الذهاب إلى النوم، وذهبوا لكي يدخِّنُوا معًا، كما قالوا، ولكني أعرف بأنهم أرادوا أن يحكي أحدهم للآخر ماذا حصل معه أثناء النهار، إذ أستطيع القول من تصرُّفات جوناثان بأن لديه شيئًا مهمًا يقولُه لهم. لم أكن نعسانة كما يفترض، ولذا طلبتُ من الدكتور سيوِرْد أن يعطيني قليلًا من مخدِّرٍ من نوعٍ ما قبل أن يذهبوا، لأني لم أنم جيدًا في الليلة الماضية. فحضَّر لي بلطفٍ كبيرٍ شربَةً منوِّمة، وأعطاني إياها، وقال إنها لن تؤذيني لأنَّهَا خفيفة جدًا... فشربتها، وأنا أنتظر النوم حتى يأتيني، النوم الذي ما يزال يجافيني. آمل ألا أكون قد ارتكبتُ خطأً، لأنَّ خوفًا جديدًا داهمني حالما بدأ النوم يداعب جفوني، خوفًا من أنني ربما كنت حمقاء في حرمان نفسي من قوة اليقظة بفعلي هذا. ربما أريد ذلك. ها قد أتى النوم. طابت ليلتكم.

الفصل العشرون

يوميَّات جوناثان هاركر

مساء ١ أكتوبر- وجدتُ تومَسْ سنيلِنغ في منزله في بيثنَل غرين، ولكن لسوء الحظ، لم يكن في حالةٍ تتيح له تذكُّرَ أي شيء. كان قدومي المرتقب سببًا دفعه للإسراف في شرب البيرة التي أثرت عليه كثيرًا، إذ دخل مبكرًا في حالة سكر متوقعة. علمتُ، على أي حال، من زوجته التي بدت إنسانةً مسكينة ومحترمة بأنه لم يكن سوى مساعدٍ لسمُولِت، الذي تولَّى المسؤولية أثناء نقلهما الصناديق. ولذا انطلقتُ بالعربة صوب وُولْوِرْث، ووجدتُ السيِّد جوزِف سمُولِت في بيتِه وقد خَلَعَ جاكيته وبقي في القميص، وهو يشرب الشاي متأخرًا عن وقته المعتاد. سمولِتْ إنسانٌ ذكيٌّ ومحترمٌ، كما أنَّه بلا شكٍّ طيِّبٌ، وينتمي إلى فئة العمَّال الثقات. تذكَّر كل شيء عن واقعة الصناديق، وذكر لي أسماء الأماكن التي نُقِلَتْ إليها بعد أن استخرجها من دفتر ملحوظاتٍ رائع انثنت أطراف صفحاته، وقد أخرجه من حافظة غريبة في بنطاله، ويحتوي على أبواب مكتوبة بقلم رصاص سميك شبه مطموس الرأس بخطٍ لا

يكاد يُقْرَأ. قال لي إنَّه نَقَلَ ستَّةَ صناديق في حمولة العربة من منزل كارفاكس وسلَّمَها في منزل رقمه ١٩٧، في شارع تشِكْسَاند، في حيِّ مايل إند نيو تاون، كما نقَلَ ستَّة صناديق أخرى وسلَّمَهَا في موضعٍ في شارع جامايكا لين في منطقة بيرمونزي. لو كان الكونت ينوي إذن تفريق هذه الملاجئ المريعة في أنحاء لندن، فقد اختار هذين المكانين كنقطة تسليمٍ أولى، بحيث يتسنَّى له لاحقًا توزيع الصناديق بصورة أكمل. وقد جعلني الأسلوبُ المنهجي الذي جرى به هذا التوزيع أفكِّر بأنه ينوي ألا يحصر نفسه في جهتين فقط من جهات لندن. إنه الآن متمركزٌ في أقصى شرقي الساحل الشمالي، وفي شرقي الساحل الجنوبي، وفي الجنوب. ولم يكن ينوي بالتأكيد استثناء الشمال والغرب أبدًا من مخططه الشيطاني - تاركًا وسط لندن ذاته ومراكزها الراقية في الجنوب-الغربي والغرب. عدتُ إلى سمولِت، وسألته إذا كان يمكنه أن يقول لنا إذا نُقِلَتْ أي صناديقُ أخرى من منزل كارفاكس، فأجاب:

«حسنًا، يا أخ، لقد عاملتَنِي معاملة سخيَّة» -لأني كنت قد أعطيتُه نصف جنيه- «وسأقول لكَ كل ما أعرف. لقد سمعتُ رجلًا يقال له بلوكْسَم قبل أربع ليالٍ في حانة إير أن أوندز في بينشرز ألي، وكان يقول كيف أنه وصاحبه أديا عملًا فريدًا يملؤه التراب في منزلٍ قديم في بيورفِكْت. مثل هذه الأعمال لا تتوفر كثيرًا هنا، وأظن أن سام بلوكْسَم قد يخبرك شيئًا عن ذلك». سألتُه إذا كان يمكن أن يقول لي أين أجده. وقلتُ له إنه يستحق نصف جنيه آخر إذا أعطاني عنوانه. ولذا فقد ارتشف ما بقي من شاي في كوبه

ثم وقف وقال إنه سيباشر البحث من فوره. ثم توقَّف عند الباب، وقال:

«اسمعني يا أخ، لا معنى من أنْ أبقيك تنتظرني هنا. فربما أجد سام قريبًا، وربما لا، ولكن على أي حال فمن غير المرجَّح أن يكون في حالٍ تسمح له أن يقول لك الكثير الليلة. فسام يصبح شخصًا فريدًا من نوعه عندما يُسْرِفُ في الشرب. و إذا كنت تستطيع أن تعطيني مظروفًا وعليه ختمٌ، وتضع عنوانك عليه، فسأتحرَّى عن مكان وجود سام وأُبْلِغُكَ الليلة. لكن عليك أن تقصده من فورك في الصباح وإلَّا فلن تلتقي به، لأنَّ سام يغادر مبكرًا جدًا، بصرف النظر عن درجة السُّكرِ التي بَلَغَهَا الليلة الفائتة».

كان ذلك حلًّا عمليًا، ولذا فقد ذَهَبَتْ إحدى البنات ومعها بنسًا لتشتري مظروفًا وورقة، على أن تحتفظ بباقي المبلغ لها. عندما عادَتْ، كتبتُ العنوانَ على المظروف وختمتُه، وعدتُ راجعًا إلى البيت بعد أن قطع لي سمولِت وعد شرفٍ مرَّة أخرى أن يرسل لي العنوان عندما يجده. نحن في الطريق الصحيح على أي حال. إنني متعب الليلة وأرغب في النوم. مينا سريعة النوم، تبدو الليلة أكثر شحوبًا نوعًا ما، كما أن عينيها تبدوان وكأنَّها كانت تبكي. يا عزيزتي المسكينة! لا شك أن إخفاء ما يجري عنها يضايقُها، وربما يضاعف ذلك قلقها عليَّ وعلى الآخرين. لكنَّ الوضع بات كأحسن ما يمكن. ومن الأفضل أن تكون قلقة ومحبطة كما هي الآن بدلًا من أن تنهار أعصابها. لقد كان الطبيبان على حق تمامًا في إصرارهما على أن تبقى خارج نطاق هذه المهمة المرعبة. عليَّ أن أكون حازمًا،

إذ إن تحمل عبء هذا الكتمان واقع على كاهلي شخصيًا. لا ينبغي لي أن أفتح معها الموضوع في أي ظرف. فربما لا تكون المهمة صعبة بالفعل في نهاية المطاف، لأنها هي نفسُها باتت عازفةً عن الكلام في الموضوع، ولم تأتِ على سيرة الكونت أو أفعاله منذ أن أبلغنَاها بقرارنا.

مساء ٢ أكتوبر– يوم طويل ومرهق ومثير. إذ تلقَّيْتُ مع أول بريدٍ، مظروفي الذي كتبتُ عليه عنواني مرفقة به قصاصةٌ ورقية قذرة، كُتِبَ عليها كلمات مترامية بقلمٍ مسطَّحٍ وعريض:

«سام بلوكْسَم، كوركرانس، ٤، پوترز كورت، شارع بارتِل، وُولْوِرْث. ثم إسأل عن المنذوب»[1].

استلمتُ الرسالة وأنا في السرير، ونهضتُ دون أن أوقظ مينا. تبدو مهمومة ونَعْسَى وشاحبة، وصحتها متردية. قررتُ ألا أوقظها، ولكني عزمتُ أيضًا على ترتيب أمر عودتها إلى إِكْسِتَر عندما أعود من رحلة بحثي الجديدة. أظنُّها ستكون أسعد في بيتنا، تسلِّي نفسها بأداء واجباتها اليومية، وذلك أفضل لها من البقاء بيننا هنا دون أن تعرف ما يجري. رأيتُ الدكتور سيوِرْد للحظة فقط، وأبلغْتُه فيها بالمكان الذي أقصده، ووعدته أن أعود وأخبر بقية الأصدقاء بمجرد أن أتوصل لأي شيء. انطلقتُ بالعربة إلى وُولْوِرْث ووجدتُ بمشقة قليلة ساحة پوتِّرز كورت بعد أن ضلَّلتني تهجئة السيد سمولِت للاسم، فقد كنتُ أسأل عن پوتِرز

(١) كتبها هكذا خاطئة بدل أن يكتب المندوب

كورت بدلًا من پوتِّرز كورت. لم أواجه صعوبةً في العثور على منزل كوركوران للغرف المؤجَّرة بعد أن وجدتُ الساحة. وعندما سألتُ الرجل الذي جاء إلى الباب عن «المنذوب»، هزَّ رأسه وقال: «لا أعرفه. ولا يوجد شخص بهذا الاسم هنا، ولم أسمع به طوال حياتي اللعينة. ولا تصدِّق أنه يوجد أحدٌ من ذلك النوع من البشر يعيش هنا أو في أي مكان آخر». ثمَّ أخرجتُ رسالة سمولِتْ، وبينما قرأتُهَا اكتشفت أنني كان يجب أن أتعظ من درس كتابته الخاطئة لاسم الساحة، فسألتُه: «ومن تكون أنت؟».

فأجابني: «أنا المندوب». رأيتُ من فوري أني بتُّ في الطريق الصحيح؛ فقد ضلَّلَتْنِي مرة أخرى التهجئة اللفظية الخاطئة للكلمة. وكان لبقشيشٍ قيمته نصف كراون أن يضع معلومات المندوب تحت تصرفي، وقد علِمْتُ أن السيد بلوكْسَم، الذي صحا من آثار بيرته التي شربها الليلة الماضية في بيت كوركوران للغرف المؤجَّرَة قد غادر إلى عمله في پوپلَر في الخامسة من صباح ذلك اليوم. لم يستطع أن يخبرني أين يقع مكان عمله، ولكن لديه فكرة غير واضحة عن أنه يعمل في مكانٍ قد يكون «مستودعًا يُبْنَى حديثًا»، واعتمادًا على هذا النزر اليسير من المعلومات اضطررتُ للذهاب إلى پوپلَر. لم أعثر على علامةٍ واضحةٍ تدل على هذا المكان إلَّا في الساعة الثانية عشرة، وقد عرفت ذلك في أحد المقاهي حيث وجدتُ بعض العمَّال يتناولون غداءَهم. قال أحدهم إنَّه يجري إنشاء مبنى «مخزن تبريد» جديد في شارع كرُس إنْجِل؛ ونظرًا لأن هذا الوصف يتناسب مع عبارة «مستودع يُبْنَى حديثًا»، فقد توجَّهْتُ إليه من فوري.

والتقيتُ مع بوَّابٍ جلفٍ ورئيسِ عمَّالٍ أشد جلافة، وبعد أن طيَّبْتُ خاطرهما بالمال أرشداني إلى بلوكْسَم، وقد أُرْسِلَ في طلبه بعد أن أخبرته بأني راغب في دفع أجره اليومي إلى رئيسه في العمل مقابل أن أحظى بشرف طرح بضعة أسئلة عليه في مسألة خاصة. كان ذكيًا بما يكفي، رغم أنه فظ الكلام والهيئة. وعندما وعدته بأني سأدفع له مقابل معلوماته وأعطيتُه عربونًا، قال لي إنَّه ذهب مرتين بين منزل كارفاكس ومنزلٍ يقع في البيكاديللي، وقد نَقَل من المنزل الأول إلى الثاني تسعة صناديق ضخمة -«تسعة صناديق ثقيلة»- بعربةٍ وحصانٍ استأجرَهما بنفسه لهذه الغاية. فطلبتُ منه أن يعطيني رقم المنزل في البيكاديللي إذا كان ذلك ممكنًا، فأجاب:

«حسنًا يا أخ، لقد نسيتُ الرقم، ولكنه لا يبعد سوى بضع بيوت عن كنيسة بيضاء كبيرة أو شيء من هذا القبيل، ولم يمضِ على بنائها وقت طويل. كان منزلًا قديمًا يملؤه الغبار أيضًا، رغم أنه لا يقارن بالغبار الموجود في المنزل الذي نقلنا منه الصناديق اللعينة».

«وكيف دخلتَ إلى المنزلين إذا كانا كلاهما فارغين؟».

«كان هناك عجوزٌ ينتظرني في منزل كارفاكس في بيورفليت. ساعَدَني في رفع الصناديق ووضعها في العربة. وليلعني الله إن كنت أكذب، ولكنه أقوى شخصٍ رأيتُه في حياتي، إنه عجوزٌ بشاربين أبيضين، كما أنه نحيف بصورةٍ كنت ستحسبه فيها وكأنَّه لا ظل له على الأرض.

كم أصابتني هذه العبارة بسعادة غامرة!

«واعجباه! فقد رفع الصناديق من ناحيته وكأنه يرفع أرطالًا من الشاي، وأنا ألهث وأنفخ قبل أن أستطيع رفع الصندوق من ناحيتي مع أني لست ضعيفًا كالدجاج على أي حال».

ثم سألته: «وكيف دخلتَ إلى المنزل الواقع في البيكاديللي؟».

«كان العجوز هناك أيضًا. ولا بد أنه انطلق إلى هناك ووصَل قبلي، لأني عندما قرعت الجرس جاء وفتح الباب بنفسه وساعدني في حمل الصناديق إلى القاعة».

«الصناديق التسعة؟» سألتُه.

«نعم؛ فقد كان هناك خمسة صناديق في الحمولة الأولى وأربعة في الثانية. كان عملًا يجفف الحلْق، ولا أتذكر على نحو جيِّدٍ جدًا كيف عدتُ إلى البيت». وهنا قاطَعْتُه قائلًا:

«وهل تُرِكَتْ الصناديق في الصالة؟».

«نعم، وهي صالة كبيرة، ولم يكن فيها أي شيء آخر».

ثم قمتُ بمحاولة إضافية لأستجلي الأمور وسألته:

«ولم يكن معكَ أي مفتاح؟».

«لم أستخدم مفتاحًا ولا أي شي آخر. فقد فتح السيِّد العجوز الباب بنفسه وأغلَقَه مرَّة أخرى عندما غادرتُ في عربتي. لا أتذكَّر متى حصل ذلك، وما سبب ذلك النسيان إلا تأثير البيرة».

«ولا تستطيع أن تتذكر رقم المنزل؟».

«لا يا سيِّدي. ولكنك لن تواجه أي صعوبة في معرفته. إنه منزل عالٍ له واجهة حجرية وعليها قوس، ويوجد دَرَجٌ عالٍ يفضي إلى الباب. أنا أعرف الدَّرَجَ، لأني اضطررت لصعوده حاملًا الصناديق مع ثلاثة عمال كسالى جاؤوا ليكسبوا قليلًا من المال. أعطاهم السيِّد العجوز شلنات، وبعد أن رأوا أنهم كسبوا مالًا كثيرًا طلبوا منه المزيد، لكنه أمسك أحدهم من كتفه وهمَّ برميه من فوق الدَّرَج، فهرَب الآخران وهما يشتمان». ظننتُ أني أستطيع العثور على المنزل من خلال هذا الوصف، ولذا انطلقت صوب الپيكاديللي بعد أن دفعتُ لصديقي مقابل معلوماته. اكتسبت معرفة أليمة جديدة، إذ بات واضحًا لي أن الكونت يستطيع التعامل مع صناديق التراب بنفسه. باتت كل دقيقة من وقتنا لا تقدر بثمن، إذ استطاع الكونت أن ينتهي من توزيع عدد معين من الصناديق، وبإمكانه أن ينجز هذه المهمة متخفيًا وفي الوقت الذي يحدده. ترجَّلتُ من عربتي في منطقة پيكاديللي سيركُس، ومشيت غربًا، حتى وجدت المنزل الموصوف خلف نادي جونيور كونستيتيوشنال، وتيقنتُ أن هذا المنزل هو ثاني الأوكار التي أعدَّها دراكولا. بدا المنزل وكأنَّ أحدًا لم يسكنه منذ مدة طويلة. فقد علت النوافذَ طبقاتٌ من الغبار، وكانت ستائرها مرفوعة. اسودَّت كافة الإطارات بمرور الزمن، وتقشَّر معظم الدهان عن الحديد. كان من الواضح أنه حتى وقت قريب جدًا كان للمنزل لوحة إرشادية ضخمة أمام الشرفة، ولكنها تآكلت تقريبًا ولم يبقَ منها سوى القوائم التي تسندها. خلف درابزون الشرفة رأيت بعض الألواح الرخوة، وحوافها غير المدهونة بدت

بيضاء. تمنيت لو أني وجدت اللوحة في حال سليمة، حيث أن من شأن ذلك أن يعطيني ربما بعض القرائن عن اسم صاحب المنزل. تذكَّرتُ تجربتي في البحث عن منزل كارفاكس وشرائه، ولم أستطع مقاومة الشعور بأنني إذا استطعت أن أجد المالك السابق فربما أجد وسيلةً للدخول إلى المنزل.

لا شيء يمكن معرفته في الوقت الحاضر بهذا الجانب من شارع البيكاديللي، ولا شيء يمكن عمله، لذا استدرت عائدًا إلى الخلف لأرى إذا ما كان بإمكاني الحصول على أي معلومات من هذا الحي. عج المكان بمواء القطط، ومنازل البيكاديللي في معظمها مشغولة بساكنيها. سألتُ واحدًا أو اثنين من سائسي الخيل ومعاونيهم ممن رأيتهم في المنطقة إذا ما كانوا يستطيعون أن يعطوني أي معلومات عن المنزل الفارغ. قال أحدُهم إنه سمع بأنَّ المنزل بيع مؤخَّرًا، ولكنه لا يعرف اسم البائع. وقال لي إنَّ المنزل كان معروضًا للبيع قبل مدة قريبة جدًا حيث علقت عليه يافطة «المنزل للبيع»، وربما يمكن لمؤسسة ميتشل، صنز آند كاندي، وهي المكتب العقاري المسؤول عن المنزل، أن تفيدني في معلومة ما، نظرًا لأنه تذكَّر أنه رأى اسم المؤسسة على اليافطة. لم أرغب في أن أبدو متحمسًا جدًا، أو أن أدع محدِّثي يعرف أو يخمن مقاصدي، ولذا شكرته بالطريقة المعتادة ورحلت ومضيت مبتعدًا. حلَّ المغيب وها هو ليل الخريف يقترب، ولذا لم أضيِّع أي وقت. فبعد أن عرفت عنوان مؤسسة ميتشل، صنز آند كاندي من دليل موجود في فندق بيركلي، وصلتُ في الحال إلى مكتبها في شارع ساكڤِل.

كان السيِّد الذي استقبلني مهذب السلوك على نحو خاص، ولكنه قليل الكلام بدرجة مساوية. بعد أن قال لي مرة واحدة إنَّ منزل البيكاديللي -الذي سماه أثناء حديثنا «المنزل الكبير»- قد بيع، عدَّ أنَّ مهمتي انتهت عند هذا الحد. وعندما سألتُه عن اسم المشتري، فتح عينيه على اتساعهما مفكِّرًا في الأمر، وصمت بضع ثوانٍ قبل أن يجيب قائلًا:

«لقد بيع يا سيدي وحسب».

فقلتُ بالمقدار ذاته من الأدب: «المعذرة، لكن عندي سببًا خاصًا يجعلني أرغب في معرفة الشخص الذي اشتراه».

فما لبث أن صمت ثانية لمدة أطول، ورفع حاجبيه مَدة أطول كذلك، وكان جوابه مرة أخرى بإيجاز: «إنه مباع يا سيدي».

فقلت: «أنتَ لا تمانع بالتأكيد أن تعطيني اسم المشتري ولا شيء سوى ذلك».

فأجاب: «بل أمانع. شؤون الزبائن أمانة مطلقة بين أيدي مؤسسة ميتشل، صنز آند كاندي». من الواضح أنه متزمتٌ من الطراز الرفيع، ولا جدوى من الجدال معه. فخطر في بالي أنه من الأفضل لي أن أجابهه بأسلوبه وشروطه هو، ولذا قلت له:

«إن زبائنك يا سيِّدي، يسعدهم أن يحظوا بشخص حازم يحمي ثقتهم. وأنا نفسي رجل أمتهن بيع العقارات وشرائها». وهنا أعطيته بطاقتي التعريفية ثم أردفتُ: «وفي هذه الحالة فإني لا أسألك بدافع

الفضول، فأنا أشتغل بالنيابة عن اللورد غودالمنغ، الذي يرغب في معرفة شيء عن المنزل الذي عرض مؤخرًا للبيع كما فهم». أضفَتْ هذه الكلمات طابعًا مختلفًا على سير الحديث فقال:

«أود أن أخدمك إذا استطعت، يا سيِّد هاركر، وأود على وجه الخصوص أن أخدم حضرة اللورد. فقد قمنا ذات مرة بتنفيذ معاملة صغيرة له بتأجير بعض الغرف قبل أن ينال لقب اللورد غودالمنغ. لو أعطيتني عنوان حضرته فسأتشاور مع المؤسسة في الأمر، وسوف أتواصل بكل الأحوال مع حضرته في بريد الليلة. ويسرُّنا أننا نستطيع إلى حد ما أن نحيدَ عن القواعد التي نتبعها فيما يخص تقديم المعلومات المطلوبة إلى حضرته».

أردتُ أن أكسب صديقًا لا أن أصنع عدوًا، ولذا شكرته وأعطيتُه عنوان مصحة الدكتور سيوِرْد ومضيت في طريقي. حل الظلام الآن، وأنهكني التعب والجوع، فابتعتُ كوبًا من الشاي من شركة إراتِدْ برِدْ وعدت إلى پيورفليت في القطار التالي.

وجدتُ الآخرين جميعًا في المصحَّة. بدت على مينا علامات التعب والشحوب، ولكنها قاومت بشجاعة حتى تبدو مشرقة ومبتهجة. يعتصر الألمُ قلبي كلما فكرت بأني مضطر لإخفاء أي معلومةٍ عنها مما يعني أن أسبِّب لها القلق نتيجة ذلك. الحمد لله، ستكون هذه آخر ليلة تبقى فيها متفرِّجة على اجتماعاتنا، ويضايقها شعورها بأننا لا نظهر الثقة بها. لقد تطلَّب الأمر مني كلَّ شجاعتي حتى ألتزم بالقرار الحكيم في إبقائها خارج نطاق مهمتنا المروِّعة.

تبدو نوعًا ما أكثر رضا وقناعة، أو يبدو أنَّ الموضوع ذاته أصبح بغيضًا عليها، فقد كانت ترتعد فعليًا كلَّما حصل أي تلميح عابر إليه. إنني سعيد أننا اتخذنا قرارنا في الوقت المناسب، لأنَّه كلَّما زادت معلوماتنا الخاصة بهذه القضية زاد عذابها.

لم أستطع إبلاغ الآخرين باكتشاف اليوم حتى صرنا وحدنا، ولذا فبعد العشاء -الذي تلاه القليل من الموسيقى حتى نحافظ على بشاشة وجوهنا حتى أمام بعضنا- اصطحبتُ مينا إلى حجرتها وتركتُها تذهب إلى النوم. كانت فتاتي العزيزة أكثر حنانًا معي من قبل، تشبَّثَتْ بي وكأنها ترغب باحتجازي، ولكن هناك الكثير للحديث عنه فمضيت في سبيلي. الحمد لله، عدم إخبارها بالمعلومات لم يؤد إلى أي خلافٍ بيننا.

عندما عدتُ مرة أخرى وجدت أصحابي متحلِّقين جميعًا حول الموقد في غرفة المكتب. كنت قد كتبتُ في القطار في دفتر يومياتي ما حصل معي حتى الآن، وقد قرأتُها عليهم بكل بساطةٍ كأفضل وسيلة لأجعلهم يواكبون ما لدي من معلومات، وبعد أن فرغت من القراءة قال ڤان هيلسنغ:

«لقد قمتَ بعملٍ عظيم هذا اليوم يا صديقي جوناثان. نحن من دون شك في الطريق الصحيح لمعرفة مصير الصناديق المفقودة. لو وجدناها كلها في ذلك المنزل، فعندها تكون مهمة بحثنا عنها قد شارفت على الانتهاء. ولكن إذا كان هناك صناديق مفقودة، فعلينا البحث حتى نجدها. ثم يكون بمقدورنا أن نضرب ضربتنا المفاجئة

الأخيرة، ونقبض على ذلك التعيس حتى يلقى موته الحقيقي».
جلسنا جميعًا صامتين برهةً ومن ثم قال السيد مورِس فجأةً:

«طيِّب! كيف سندخل إلى ذلك المنزل؟».

«لقد دخلنا إلى المنزل الآخر» أجاب اللورد غودالمنغ بسرعة.

«ولكن هذا المنزل مختلف يا أرثر. فقد اقتحمنا منزل كارفاكس متسترين بالليل والحديقة المسوَّرَة. سيكون اقتحام منزل الپيكاديللي مختلفًا تمامًا، سواء أحصل ذلك في النهار أم في الليل. وأعترف بأني لا أعرف كيف سندخله ما لم تستطع تلك البطّة المراوغة في المكتب العقاري أن تجد لنا مفتاحًا بطريقة ما، وقد نعرف ماذا سنفعل عندما تصلكَ رسالتُه في الصباح». عقد اللورد غودالمنغ حاجبيه، ونهض ومشى في المكتب. توقَّف بعد برهة وقال، بينما كان يلتفت إلينا واحدًا إثر آخر: «إن رأي كوينسي سديد. صارت مسألة الاقتحام هذه خطرة. في المرة الأولى خرجنا على مايرام، ولكن الآن مهمتنا شبه مستحيلة ما لم نستطع أن نجد أين يترك الكونت مفاتيحه».

بما أنه لا يمكننا فعل شيء قبل الصباح، ناهيك عن أنه من الأفضل أن ننتظر على الأقل حتى موعد وصول الرسالة إلى اللورد غودالمنغ من مؤسسة ميتشل، فقد قرَّرنا ألّا نُقْدِمَ على أي خطوة عملية قبل الفطور. جلسنا لفترة لا بأس بها ودخنَّا بينما نناقش المسألة مسلطين الضوء على مختلف أوجهها. انتهزتُ الفرصة لأتوقَّفَ عند هذه اللحظة عن الكتابة في هذه المذكرات. إني نعسان جدًا وينبغي لي أن أخلد إلى النوم...

سطر أخير لا غير: مينا نائمة بعمق وتنفسها منتظم، وجبينُها متغضِّن بشكل تجاعيد صغيرة، وكأنها تفكِّر حتى أثناء نومها. لا تزال شاحبة جدًا، ولكنها لا تبدو بقدر الإنهاك الذي بان عليها صباح اليوم. أرجو أن تنصلح الأحوال كلها في الغد، عندما تعود إلى البيت في إكستر. يا إلهي! إني نعسان!

مذكرات الدكتور سيوِرْد

١ *أكتوبر*- أصابتني الحيرة من جديد بخصوص رينفيلد. فحالته النفسية تتغيَّر بتواتر كبير يشق عليَّ فيه أن أبقى على تواصلٍ معها، وإذ تشير حالته دائمًا إلى أشياء أبعد من مجرد سلامته الشخصية، فهي تشكل موضوعًا مثيرًا جدًا للدراسة. هذا الصباح، وبعد أن ذهبتُ لأراه بعد صدِّه لڤان هيلسنغ، كان سلوكُه سلوك رجلٍ يقود القَدَر. كان في الواقع، يقودُ القَدَر بصورة ذاتية. لم يكترث فعليًا بأيٍّ من الأشياء الموجودة على سطح الأرض، بل كان يحلِّق في السحب ناظرًا إلى الأسفل نحو ضعفنا ورغباتنا نحن البشر المساكين. فكرت أن أغتنم الفرصة وأتعلَّم شيئًا ما، ولذلك سألته:

«وماذا حلَّ بالذبابات في هذه الأيام؟» ابتسم بتعالٍ -كابتسامة مالڤوليو[1]- وأجاب قائلاً: «إن للذبابة يا سيِّدي العزيز ميزة عجيبة، فأجنحتها أنموذج عن القوى الهوائية للمَلَكَات النفسيَّة. وقد أحسن القدماء صنعًا عندما وصفوا الروح بأنها فراشة!».

---

(١) خادم أوڤيليا في مسرحية وليم شكسبير «الليلة الثانية عشرة».

فكَّرتُ في أن أدفع منطقيًا بهذا التشبيه إلى أقصى درجة، ولذا قلتُ له بسرعة:

«أوه، إذن فهي روحٌ تلك التي تسعى إليها الآن، أليس كذلك؟». شتَّتَ جنونُه منطقَه، واجتاحت الحيرة محيَّاه، فقال، وهو يهز رأسه بإصرارٍ قلَّما رأيتُه فيه:

«أوه، لا، أوه لا! لا أريد أرواحًا. بل الحياة هي كل ما أريد». وهنا انفرَجَت أساريره وأردفَ قائلًا: «أنا لا أبالي بها حاليًا. الحياة على ما يرام، فعندي كل ما أريد. وعليك أن تحظى بمريض جديد يا دكتور، إن كنت ترغب في دراسة العلم المهتم بتناول الحيوانات لبعضها!».

حيَّرني هذا قليلًا، ولذا تابعتُ استدراجه قائلًا:

«إذن فأنتَ تقود الحياة، أنت إله على ما أظن؟» فابتسم باستعلاءٍ يستعصي وصف لطافته.

«أوه لا! بعيدٌ عني أن أنسب إلى نفسي سمات الإله. ولستُ حتى مهتمًا بأفعاله الروحية المميزة. وإذا جاز لي أن أحدِّد مكانتي الفكرية فيما يخص الأشياء الدنيوية الصرفة، فأنا نوعًا ما أشغل المكانة التي شغلها أخنوخ[1] روحيًا!». كانتْ هذه مسألة مربكة لي. فلم أستطع لحظتها أن أربط علاقة أخنوخ في السياق، ولذا اضطررتُ أن أسأله

---

(١) الابن الأكبر من أبناء قابيل، ووالد متوشالح وفق ما ورد في الإنجيل. وقيل إنَّه إدريس بن يارد بن مهلائيل وينتهي نسبه إلى شيث بن آدم.

سؤالًا بسيطًا، رغم شعوري بأن فعل ذلك سيحط من قدري في نظر هذا المجنون:

«ولماذا تضع نفسك في مقام أخنوخ؟».

«لأنه سار مع الله»[1]. لم أرَ وجهًا من وجوه التشابه بين الحالتين، ولكني لم أشأ أن أعترف بذلك، ولذا عدتُ إلى الحديث الذي كان قد أنكَرَه:

«إذن فأنتَ لا تكترث بالحياة ولا تريد أرواحًا. ولكن لماذا؟» طرحتُ سؤالي بسرعة وبصورة جدية نوعًا ما بهدف إرباكه. وقد نجَحَت المحاولة، فما هي سوى لحظةٍ إلَّا وانتكس راجعًا لا شعوريًا إلى سلوكه الخانع المعتاد، فانحنى أمامي، وتزلَّف إليَّ فعليًا وهو يجيب:

«لا أريد أي أرواح، فعلًا، فعلًا! لا أريد. لا يمكنني أن أستفيد منها إذا حصلتُ عليها، إذ لا منفعة ترتجى منها. فلن أستطيع أن آكلها أو أن...» وهنا توقَّفَ عن الحديث فجأة واجتاحت النظرة الماكرة المعهودة محيَّاه، مثلما تجتاح الرياح سطح الماء، ثم قال: «ثمَّ يا دكتور، بخصوص الحياة، ما هي في نهاية المطاف؟ فعندما تحصل على كل ما تحتاجه، وتعرف بأنك لا تريد شيئًا أبدًا، فالحياة هي كذلك وانتهى الأمر. فلدي أصدقاء -أصدقاء أوفياء- مثلك يا دكتور سيوِرْد» قال ذلك بنظرة خبيثة من المكر الذي يفوق الوصف ثم أضاف: «وأنا أعرف بأن وسائل الحياة لا تنقصني بتاتًا!».

---

(١) «وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنَّ اللهَ أَخَذَهُ». (سفر التكوين ٢٤:٥).

أظنه استشعر فيَّ بعض العداوة متأثرًا بتشويش جنونه، إذ تقهقر من فوره متراجعًا إلى ملاذه الأخير؛ الصمت العنيد. بعد وقتٍ قصير عرفت أن لا جدوى من الحديث معه في الوقت الحالي. فقد كان متجهمًا مستاءً، ولذا تركتُه وذهبتُ.

لاحقًا في نفس اليوم، أرسل في طلبي. ما كنت لآتي في العادة دون سببٍ محدَّد، ولكني في الوقت الراهن مهتم جدًا به لدرجة أنني سأبذل أي جهد بكل سرور. زد على ذلك أنني مسرور لوجود ما يساعدني على تزجية الوقت. فقد ذهب هاركر للبحث عن القرائن، وكذا حال اللورد غودالمنغ وكوينسي. أما ڤان هيلسنغ فهو جالسٌ في مكتبي منكبًا على دراسة الوثائق التي حضَّرها جوناثان ومينا هاركر، وهو يعتقد أنَّه سيهتدي إلى دليلٍ ما من خلال الإلمام الدقيق بالتفاصيل كافة. كما أنَّه لا يحب أن يزعجه أحد أثناء عمله دون سبب. كان يمكنني أن آخذه معي لزيارة رينفيلد لولا أني تذكَّرت بأنه قد لا يكون مهتمًا بزيارته مرَّة أخرى بعد الصدِّ الأخير الذي استقبله به. كما أن هنالك أيضًا سببًا آخر: فربما لا يتكلم رينفيلد بحرية كبيرة أمام شخصٍ ثالث مثلما يتكلم عندما نكون وحدنا أنا وإيَّاه.

وجدتُه جالسًا في منتصف الغرفة على كرسيه، في وضعية تدل عمومًا على بعض الطاقة العقلية لديه. عندما دخلتُ قال من فوره، وكأن السؤال كان ينتظر بين شفتيه:

«وماذا عن الأرواح؟» كان واضحًا حينئذٍ بأن حدسي في محله. اللاوعي يؤدِّي وظيفته حتى مع هذا المجنون. عقدتُ العزم على

استجلاء المسألة صراحة. فسألته: «ماذا عنها برأيك؟» لم يرد للحظة ولكنه نظر حواليه في كل الاتجاهات، وإلى الأعلى والأسفل، وكأنه توقَّع أن يجد بعض الإلهام حتى يأتيه بجواب.

فقال بطريقة تبريرية ضعيفة: «لا أريد أي أرواح!». بدت المسألة وكأنها أتلفت تفكيره، ولذا عقدت العزم على الاستفادة من ذلك لأنِّي «يجب أن أقسو كي أكون رحيمًا»[1]. ولذا قلتُ له:

«إنك تحب الحياة، وترغب فيها أيضًا؟».

«أوه نعم، ولكن لا بأس في ذلك، لا داعي لأن تقلق من هذه الناحية!».

فسألتُه: «ولكن، كيف لنا أن نحصل على الحياة دون الحصول على الروح أيضًا؟» وبدا أن ذلك أربكَه، ولذلك أتبعتُه بقولي:

«يومًا ما ستقضي وقتًا ممتعًا وأنتَ تحلِّق هناك، مع أرواح آلاف الذباب والعناكب والطيور والقطط وهي تطن وتغرِّد وتموء حولك من كل حدب وصوب. فقد حصلْتَ على حياتها، كما تعلم، وعليكَ أن تلحق بأرواحها!». بدا أن شيئًا ما أثر على خياله، إذ وضع أصابعه في أذنيه وأغمض عينيه، وأطبقَهُما بشدة مثلما يفعل بالضبط صبي صغير عند غسل وجهه بالصابون. سرت في وجهه مسحةٌ مثيرةٌ للشفقة أثّرتَ فيَّ، وعلمتني درسًا بنفس الوقت. فقد بدا أنَّ الواقف أمامي ليس سوى طفلٍ، طفلٍ لا أكثر ولا أقل، رغم أن ملامحه قد

---

(١) هذه الجملة قالها هاملت في مسرحية وليم شكسبير الشهيرة «هاملت»: ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠.

أبلاها الزمان، وابيَّضَت اللحية القصيرة الخشنة على فكيه. واضحٌ أنَّه يمرُّ بمرحلة اضطراب عقلي، ونظرًا لأني أعرف كيف فسَّرَتْ الحالات النفسية السابقة التي مرَّ بها الأشياء التي تبدو غريبة عليه، لذا ظننت أنه يمكنني الولوج إلى عقله بقدر ما أستطيع وأسايره. وتتمثَّل الخطوة الأولى في استعادة الثقة، ولذا سألتُه متحدثًا بصوت عالٍ نوعًا ما بحيث يمكنه أن يسمعني عبر أذنيه المغلقتين:

«أتريد بعض السُّكَّر حتى تجذب إليكَ ذباباتك مرة أخرى؟» بدا وكأنه استفاق فجأة، وهزَّ رأسه. وأجاب وهو يضحك:

«ليست لديَّ رغبةٌ كبيرةٌ في ذلك! فالذباب كائنات مسكينة في نهاية المطاف!». ثم أضاف بعد أن صمتَ برهةً: «ولكني رغم ذلك، لا أريد لأرواحها أن تطنَّ حولي».

«وما رأيك بالعناكب؟» تابعتُ قائلًا.

«اضربوا العناكب! فما الفائدة التي ترتجى منها؟ فلا شيء فيها يؤكل أو...» ثم توقف فجأة، وكأن ذلك ذكَّرَه بموضوعٍ محرَّمٍ.

فقلتُ في قرارة نفسي: «إذن، إذن! هذه هي المرة الثانية التي يتوقف فيها عن الكلام قبل أن يلفظ كلمة «يُشْرَب»، فماذا يعني ذلك؟». وبدا رينفيلد ذاته مدركًا بأنه ارتكب زلَّةَ لسان، لأنه أسرع بالكلام، وكأنه أراد أن يشتت انتباهي عن زلته:

«أنا لا أقيم وزنًا على الإطلاق لمثل هذه المسائل. إنَّ (الفئران والجرذان والصيد الدنيء) كما يقول شكسبير، يمكن أن نسميها

(سقط متاع اللحوم). ولا يهمني كل ذلك النوع من الهراء. يمكنك أيضًا أن تطلب من إنسان أن يأكل الجزيئات بزوجٍ من عيدان الأكل الصينية، مثلما تحاول أن تثير اهتمامي في آكلات اللحوم الدنيا، عندما أعرف ما هو الشي الذي أمامي».

قلت له: «فهمتُ عليك. فأنت تريد كائنات كبيرة بحيث يمكنك أن تغرس أسنانك فيها بقوة؟ كيف تريد أن تتناول فطورك بأكلِ فيل؟».

«ما هذا الهراء السخيف الذي تتفوَّه به!» بدأ يستفيق بالكامل، ولذا فكَّرتُ أن أضغط عليه بشدة، فقلتُ بصورة تتأمل ما قاله: «أتعجب كيف يكون شكل روح الفيل!».

حصلتُ على التأثير الذي رغبت فيه، لأنه سقط من فوره من علياء تكبُّره وصار طفلًا مرَّةً أخرى، ثم قال:

«لا أريد روح فيل، أو أي روح على الإطلاق!» ثم جلس قانطًا بضع دقائق. وفجأة وثب واقفًا على قدميه، وعيناه تتأجَّجان وقد بدت عليه كل علامات الاهتياج الدماغي الشديد، ثم صاح: «إلى الجحيم أنتَ وأرواحك! لماذا تنكِّدُنِي بسيرة الأرواح؟ أليس عندي ما يكفيني من هموم تقلقني، ومواجع تؤلمني وتشتت فكري سلفًا دون التفكير في الأرواح!» بدا عدوانيًا جدًا حتى إني ظننت أنه موشك على الدخول في نوبة أخرى يغدو فيها ميَّالًا إلى القتل، ولذا أطلقت صوت صفَّارتي. وما إن فعلتُ ذلك على أي حال إلَّا وهدأ، وقال معتذرًا:

«سامحني يا دكتور، فقد نسيتُ نفسي. ولستَ بحاجة لطلب أي مساعدة. فقد استبد القلق بذهني حتى إني بت أنفعل سريعًا. لو عرفتَ فقط المشكلة التي عليَّ مواجهتها، والتي أفكر في حلها، لكنتَ أشفقت علي، وتحمَّلْتَنِي وعذَرْتَنِي. وآمل أنك لن تقيدني في الصدرية. فأنا أريد التفكير ولا أستطيع أن أفكر بحرية عندما يكون جسدي محبوسًا. وأنا متأكد من أنك ستتفهم الأمر!». واضحٌ أنه يتحلَّى بضبط النفس، وهكذا عندما جاء المساعدون قلتُ لهم ألا يهتموا للأمر، فعادوا من حيث أتوا. راقبَهم رينفيلد وهم يذهبون، وعندما أُغْلِقَ البابُ قال بكبرياءٍ ولطافة بالغتين:

«دكتور سيوِرْد، لقد كنتَ مراعيًا جدًا لمشاعري. وصدِّقني أني ممتن جدًا جدًا لك!». حسبتُ أنه من المناسب أن أتركه وهو في هذا المزاج، ولذا رحلت. لا ريبَ أنَّ في حالة هذا الإنسان أمورًا ينبغي التوقف عندها بإمعان. إذ يبدو أن هناك عدة نقاط تشكل ما يدعوه أحد المراسلين الأمريكان «قصة» إذا ما استطاع المرء أن يوردها بالترتيب الصحيح. وهاكم تلك النقاط:

- لن يذكر كلمة «الشرب».
- يخشى التفكير في أن تثقله أعباء «روح» أي شيء.
- ليس عنده خشية من الرغبة في «الحياة» في المستقبل.
- يزدري الأشكال الدنيا من الكائنات الحية، رغم أنه يخشى أن تسكنَه أرواحُها.

إن كل هذه النقاط تدلُّ منطقيًا إلى نتيجة واحدة! لديه ضمان

من نوع ما بأنه سيظفر بكائن حي أعلى، ولكنه يخشى العواقب، يخشى أن يحمل على كاهله عبء روحه. إذن فهو يتطلَّع إلى الحصول على كائن بشري!

وهذا الضمان حصل عليه منـ...؟

يا أيها الرب الرحيم! إن الكونت على تواصل معه، وثمَّة مخطط مرعب قيد الإعداد!

لاحقًا- ذهبتُ بعد جولتي في المصحة إلى ڤان هيلسنغ وبثثتُه شكوكي، فتجهم وجهه بدرجة كبيرة، وبعد أن قلَّب المسألة على وجوهها كافة لبعض الوقت، طلب مني أن آخذه إلى رينفيلد ففعلتُ ذلك. وعندما اقتربنا من باب حجرته سمعناه يغني في الداخل بمرح، مثلما اعتاد أن يفعل في زمنٍ بات الآن بعيدًا جدًا. عندما دَخَلْنَا رأينَا بدهشة أنه نثر السكر كما اعتاد سابقًا، وقد بدأ الذباب المتكاسل بفعل الخريف، يطنُّ داخلًا الحجرة. حاولنا أن نستدرجه إلى الحديث في موضوع نقاشنا الفائت، ولكنه لم يكن ليتجاوب معنا. بل مضى في غنائه، وكأننا لم نكن موجودين وحسب. وقد أمسك بقصاصة من ورق وكان يطويها داخل دفتر ملحوظات. فاضطررنا أن نخرج جاهلين بالأمور مثلما دخلنا.

إن حالته تثير الفضول فعلًا، وعلينا أن نراقبه الليلة.

رسالة من مؤسسة ميتشل، صنز آند كاندي إلى اللورد غودالمنغ

١ أكتوبر

سيِّدي اللورد،

لا يسعنا سوى أن نكون في منتهى السعادة دائمًا لكي نلبي لكم ما طلبتموه. واسمحوا لنا أنْ نضع بين أيديكم المعلومات التالية المتعلقة ببيع وشراء العقار رقم ٣٤٧ في شارع الپيكاديللي، بناءً على رغبة حضرتكم، التي عبَّر عنها السيِّد هاركر بالنيابة عنكم. إنَّ البائعين الأصليين هم منفِّذُو وصية المرحوم السيِّد أرتشيبالد وينتر-سَفِلْد. أما المشتري فنبيلٌ أجنبي، اسمه الكونت دي ڤيل، الذي نفذ عملية الشراء بنفسه من خلال دفع ثمن المنزل نقدًا «فوق الطاولة»، إذا ما أذن لنا حضرتكم استخدام تعبيرٍ فظٍّ جدًا مثل هذا. ولا نعرف أي معلومات عنه أكثر من ذلك.

ونحن، يا سيِّدي اللورد، خُدَّام حضرتكم المتواضعون

مؤسسة ميتشل، صنز آند كاندي

مذكرات الدكتور سيوِرْد

٢ أكتوبر– وضعت رجلًا في الممر الليلة الفائتة وكلفته بالمراقبة، وأبلغْتُه أن يسجِّل بدقة أي صوتٍ قد يسمعه صادرًا عن حجرة رينفيلد، وزودته بالتعليمات التي تفيد بضرورة استدعائي في حال حصل أي أمر غريب. بعد العشاء، وعندما اجتمعنا كلنا حول الموقد

في المكتب -بعد أن ذهبَتْ السيدة هاركر إلى النوم- ناقشنا الجهود التي بذلناها أثناء النهار وما نجم عنها. كان هاركر الوحيد الذي أتى بنتيجة مفيدة، ويغمرنا الأمل في أن يكون الدليل الذي عثر عليه دليلًا مهمًا.

قبل الذهاب إلى النوم ذهبتُ في جولةٍ إلى حجرة رينفيلد واستطلعت أحوال طريدتنا. كان ينام بعمق، وصدره يرتفع ويهبط في تنفس منتظم.

صباح اليوم قال لي الشخص المناوب إن رينفيلد اضطرب بعد منتصف الليل بقليل ولم ينقطع عن تلاوة صلواته بصوت مرتفع نوعًا ما. سألته إذا كان ذلك كل ما جرى، فأجاب إن ذلك هو كل ما سمعه. كان هناك شيئ ما مثير للشكوك في سلوكه ولذا سألتُه دون مواربةٍ إذا كان قد نام أثناء مهمته، فأنكر، ولكنه أقرَّ بأنه «غفى» لبرهة قصيرة. من السيء جدًا ألّا يستطيع المرء الثقة بالرجال ما لم يوضعوا تحت المراقبة.

خرج هاركر اليوم ليتابع بحثه عن الأدلة، بينما كان أرثر وكوينسي يعتنيان بالخيل. يظن غودالمنغ أنه من الجيد أن تظل الخيل دائمًا على أهبة الاستعداد، لأننا عندما نحصل على المعلومات التي نريد فلن يكون هناك وقت نضيعه. علينا أن نطهر كل التراب الذي في الصناديق بين شروق الشمس وغروبها، وبهذا ستتمكن من القبض على الكونت وهو في أضعف حالاته، ودون أن يكون عنده ملجأٌ يفرُّ إليه. أما ڤان هيلسنغ فقد ذهب إلى المتحف البريطاني ليبحث

عن بعض المراجع الأساسية في الطب القديم. فالأطباء القدماء أخذوا بعين الاعتبار أشياء لا يقبل بها أتباعهم، والبروفسور يبحث عن علاجات سحرية وشيطانية ربما تكون مفيدة لنا لاحقًا.

يخطر في بالي أحيانًا أننا لا بد وقد جننا كلنا، وسوف نستيقظ يومًا مرتدين صدريات كتلك التي يرتديها رينفيلد.

لاحقًا- اجتمعنا مرة أخرى. ويبدو أخيرًا أننا في الاتجاه الصحيح، وربما يكون عملنا في الغد بداية النهاية. أتساءل فيما إذا كان هدوء رينفيلد له أي علاقة بهذا. فقد تَبِعَتْ حالتُه النفسية أفعال الكونت إذن، وبأن القضاء الوشيك على الوحش ربما أُوحِيَ إليه بطريقة بارعة. لو استطعنا فقط أن نحصل على إشارة تدل على ما يدور في ذهنه، بين وقت محاجتي معه اليوم ولحظة معاودته استئناف صيد الذباب، فلربما لذلك أن يقدم لنا دليلًا قيمًا. يبدو الآن في نوبة هدوء... أهو كذلك؟ إذ أن هذه الصرخة الرهيبة تبدو قادمة من حجرته...

اندفع المساعد فجأةً إلى غرفتي وأبلغني بأن رينفيلد قد وقع له حادث ما. سمعه يصرخ، وعندما ذهب إليه وجده مستلقيًا على وجهه على الأرض، والدماء تغطيه من كل جانب. يجب عليَّ أن أذهب من فوري...

الفصل الحادي والعشرون

مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

٣ أكتوبر- سأدوِّن بدقةٍ كل الأحداث التي وقَعَتْ بقدر ما أستطيع أن أتذكر منذ آخر مرَّة سجَّلْتُ فيها مذكَّرَاتي. وعليَّ ألَّا أنسى تسجيل أي معلومةٍ أستطيع استحضارها في ذاكرتي، وأن أفعل ذلك بكل هدوءٍ.

عندما وصلتُ حجرةَ رينفيلد وجدتُه مرميًا على الأرض على جنبه الأيسر في بركة متلألئة من الدم. لما ذهبتُ لكي أحرِّكه، بدا جليًا لي على الفور أنَّه أُصيبَ ببعض الإصابات المروِّعة، ولم يبدُ أن هناك أي اتساق وظيفي بين أعضاء جسده، وهي السمة التي تميِّز حتى جسد العاقل إذا ما كان خاملًا. وحيث كان وجهه مكشوفًا فقد رأيتُ رضوضًا مرعبة فيه وكأنَّه ضُرِبَ بالأرض، وقد تجمَّعتْ بركة الدم من جرَّاء الجروح التي أصيب بها في وجهه. قال لي المساعد الذي كان جاثيًا بجانب الجسد عندما قَلَبْنَاه:

«أظنُّ، يا سيِّدي، أن ظهره مكسور. انظر، لقد أصيبت ذراعه اليمنى وساقه اليمنى ونصف وجهه بكامله بالشلل». اجتاح المساعد

ذهولٌ لا يُوصف جراء الكيفية التي وقعت فيها هذه الحادثة، فقد بدا في حيرةٍ كبيرةٍ من أمره، وانعقد حاجباه وهو يقول:

«لا أستطيع أن أفهم كيف أصيب بهاتين الإصابتين معًا. بإمكانه أن يضر وجهه هكذا من خلال ضربه بالأرض. ذات مرة رأيتُ امرأةً شابةً تفعل ذلك في مصحة إيڤرسفيلد قبل أن يتمكَّن أحدُ المساعدين من الإمساك بها. أظنه قد كَسَرَ عنقه نتيجة سقوطه عن السرير، إذا ما حدَث معه تشنُّجٌ غريب. ولكن بحياتي لا أستطيع أن أتخيَّل كيف حدثت الإصابتان معًا؛ فإن كان ظهره قد كُسِرَ أولًا، فإنه لن يستطيع أن يضرب رأسه بالأرض، وإذا كان وجهه على تلك الحالة قبل السقوط عن السرير، فلا بد أن يكون هناك علامة على ذلك». قلت له:

«اذهب إلى الدكتور ڤان هيلسنغ، واطلب منه أن يتفضَّل بالمجيء إلى هنا في الحال. لا أريده أن يتأخر ولو لحظة». جَرَى المساعد ولم تمضِ سوى بضع دقائق إلَّا وجاء البروفسور ڤان هيسلنغ معه، مرتديًا رداء المنزل وخُفَّيْه. حين رأى رينفيلد على الأرض، نظر إليه بإمعانٍ للحظة، ومن ثمَّ التفَتَ نحوي. وأظنه عرف ما يدور في خلدي من نظرة عينيَّ، لأنه قال بصوت خفيض جدًا، إذ بدا واضحًا أنَّه لم يُرِدْ للمرافق أن يسمع:

«آه، يا له من حادث محزن! سيحتاج إلى مراقبة دقيقة وانتباه كبير. سأبقى معكَ بنفسي، ولكن عليَّ أنْ أرتدي ثيابي أولًا. أرجو منك البقاء معه وسأعود خلال بضع دقائق».

كان رينفيلد يتنفَّس الآن بصوتٍ شاخرٍ ومن السهل ملاحظة أنه أصيب إصابةً فظيعة. عاد ڤان هيلسنغ بسرعة فائقة، حاملًا معه حقيبة معدَّاتٍ جراحية. ومن الواضح أنَّه فكّر في حالته واتَّخَذَ قرارَه بخصوص ذلك، لأنه همس لي قائلًا قبل حتَّى أن ينظر إلى رينفيلد:

«مُر المساعد بالخروج من هنا. علينا أن نكون وحدنا معه عندما يستفيق بعد العملية». ولذا قلتُ للمرافق:

«أظن أن ذلك سيفي بالغرض الآن يا سيمونز. لقد فعلنا كل ما نستطيع حاليًا. والأفضل لكَ أن تمضي وتقوم بجولتك، وسيُجْرِي الدكتور ڤان هيلسنغ عملية جراحية له. أبْلِغْنِي على الفور في حال وجود أي شيء غير اعتيادي في أي مكان في المصحَّة».

مضى المساعد، وباشَرَنا إجراء فحصٍ دقيقٍ لرينفيلد. كانت جروح وجهه سطحية، أما الإصابة الفعلية فهي كَسرٌ منخسفٌ في الجمجمة يمتد حتَّى المنطقة الحركية. فكَّر البروفسور ڤان هيلسنغ لحظةً وقال:

«يجب أن نخفف الضغط ونعيده إلى أحواله الطبيعية قدر ما نستطيع، فسرعة تدفق الدم إلى الأنسجة تكشف الطبيعةَ الفظيعةَ لإصابته. تبدو المنطقة الحركية بأكملها متأثرة بالإصابة. وسيزداد تدفق الدم إلى أنسجة الدماغ بسرعة، لذا ينبغي لنا أن نثقب الجمجمة في الحال وإلَّا سيفوت الأوان». بينما كان يقول ذلك سمِعْنَا صوتَ طرقٍ ناعمٍ على الباب. ذهبْتُ صوبَ البابَ وفتحتُه ووجدتُ في الممرِّ في الخارج أرثر وكوينسي بثياب نوميهما وخُفَّيْهِمَا، قال أرثر:

«لقد سمعتُ المساعد يستدعي الدكتور ڤان هيلسنغ ويبلغه بوقوع حادث. ولذلك أيقظتُ كوينسي، أو بالأحرى دعوتُه للمجيء معي لأنه لم يكن نائمًا. الأحداث تتسارَعُ باطرادٍ كبير وبغرابة شديدة حتى بات كل واحد منا عاجزًا عن الاستمتاع بالنوم هذه الأيام. كنت أفكر بأنَّ ليلة الغد لن تظل الأمور فيها كما هي عليه. علينا أن نلقي نظرة على ما حدث وما سيحدث، بدرجة أكثر بقليل مما فعلنا. أيمكننا الدخول؟» أومأتُ غير ممانعٍ، وأمسكتُ الباب المفتوح حتى دخلا، ثم أغلقْتُه مرَّة ثانية. عندما رأى كوينسي وضع المريض وحالته، ولاحظ بركة الدم المرعبة فوق الأرض، قال بصوتٍ خافت:

«يا إلهي! ماذا جرى له؟ يا للشيطان التعيس المسكين!» أخبرتُه ما حصل بإيجاز، وأضفتُ بأننا نتوقَّع أنه سيستعيد وعيه بعد العملية، سيستعيده لفترة قصيرة على أي حال. ذهب من فوره وجلس على طرف السرير، وغودالمنغ بجانبه، وراقبنا المشهد جميعنا بصبر.

قال ڤان هيلسنغ: «علينا أن نتريَّث لمدة كافية لتحديد أفضل موضعٍ في الجمجمة لإحداث الثقب، بحيث يتسنى لنا أن نزيل الجلطةَ الدموية بأسرع الطرق وأفضلها، لأنه واضحٌ أنَّ النزيف يزداد».

مرَّت دقائق الانتظار ببطءٍ مخيف. شعرت برجفة رهيبة في قلبي، واستنتجتُ من ملامح ڤان هيلسنغ أنَّه يشعر ببعض الخوف أو التوجُّس مما سيحصل. خفتُ من الكلمات التي قد يتفوَّه بها

رينفيلد. وكنت خائفًا بالتأكيد من التفكير بالأمر، ولكن اليقين بما هو قادم ألقى بظلاله عليَّ، لأني قرأتُ عن أناس سمعوا أصواتًا تنبئهم بميعاد موتهم. تنفَّس رينفيلد المسكين بنُغْبَاتٍ متقطعة. وبدا في كل لحظة وكأنَّه سيفتح عينيه ويتكلم، ولكن يأتي بعد ذلك نفسٌ شاخرٌ مديدٌ، وينتكس داخلًا في غيبوبةٍ أكثر ثباتًا. رغم أني معتادٌ على أسرَّة المرضى ومشاهد الموت، غير أن هذا التوجس ظل يتضخم داخلي. بتُّ أكادُ أسمعُ ضربات قلبي، وبدا الدم المندفع عبر صدغيَّ وكأنه يطرق بمطرقة فيهما. غدا الصمتُ في آخر الأمر مؤلمًا جدًا، فنظرت إلى أصحابي واحدًا إثر آخر، ورأيتُ في وجوههم المنتشية بالترقب وحواجبهم المتعرِّقة الدرجة ذاتها من المعاناة التي كانت تُعذِّبُنِي. سرت في المكان إثارةٌ اجتاحَت أعصابنا جميعًا، وكأنَّ فوق رؤوسنا ناقوسٌ يدقُّ بقوةٍ هائلةٍ في لحظة لم نتوقَّعهَا قط.

في آخر الأمر وصلنا مرحلةً اتَّضَحَ فيها أن حالة رينفيلد كانت تزداد سوءًا بسرعة، وربما يموت في أي لحظة. نظرتُ إلى البروفسور وإذا بعينيه تحملقان في عينيَّ. قال والصرامة تعلو وجهه:

«ما من وقتٍ نضيعه، وما سيقولُه لنا ذو قيمة تساوي حياةَ خلقٍ كثيرين، ما كففت عن التفكير في ذلك وأنا واقفٌ هنا. ربما تكون هناك روحٌ في خطر! علينا أن نجري العملية فوق الأذن بالضبط».

ودون كلمة أخرى أجرَى العملية. استمرَّ تنفُّسُ رينفيلد شاخرًا بضع دقائق. ومن ثم شخرَ نَفَسًا طويلًا جدًا حتى بدا وكأنه سيشق صدره. فجأة فتح عينيه ثم حدق بثبات بنظرة شرسة ويائسة.

استمرَّت هذه النظرة بضع لحظات، ثم رقَّتْ وتحوَّلتْ إلى دهشةٍ سعيدةٍ، وصدرت عن الشفتين تنهيدةٌ تنفَّسَ بها رينفيلد الصعداء. ثم تحرَّك باختلاج، وقال وهو يفعل ذلك:

«سأكون هادئًا يا دكتور. مُرْهُمْ أن ينزعوا عني الصدرية. فقد رأيتُ حلمًا مريعًا، وقد تركني ضعيفًا جدًا حتى بتُّ غير قادر على الحركة. ما خطبُ وجهي؟ فأنا أشعر أنه متورِّم جدًا، ويؤلمني ألمًا فظيعًا». حاولَ أن يلتفتَ برأسِه؛ ولكن حتَّى مع الجهد الذي بذله زاغت عيناه مرَّة أخرى ولذا أرْجَعْتُ رأسَه برفقٍ إلى موضعه. قال ڤان هيلسنغ بنبرة جدية هادئة:

«اسرُدْ علينا حلمك يا سيِّد رينفيلد». وما إن سمع الصوت إلَّا وأشرق وجهُه إشراقةً اجتاحَت الجروحَ التي شوَّهتْ منظرَه، وقال:

«هذا صوت الدكتور ڤان هيلسنغ. إنَّه لأمْر طيِّبٌ منك أن تكون هنا. إليَّ ببعض الماء فشفتاي ناشفتان، وسأحاول أن أحكي لكم ماذا رأيت، لقد حلمت...» ثم توقَّف وبدا أنه أغمي عليه، فناديتُ بهدوء على كوينسي قائلًا: «إليَّ بالبراندي، ستجدها في مكتبي، أسرع!» هرع ثم عاد حاملًا كأسًا، وإناءَ البراندي وإبريقَ ماء. رطَّبْنَا الشفتين الظامئتين، فأفاق رينفيلد بسرعة. وبدا أنَّ دماغه المصاب المسكين لم يتوقَّف عن العمل أثناء فترة إغماءته، لأنَّه نظر إليَّ، عندما استعاد وعيه كاملًا، نظرةً ثاقبةً باضطراب مشوب بالألم، نظرةً لن أنساها ما حييت، ثم قال:

«عليَّ ألَّا أخدع نفسي فما رأيتُه لم يكن حلمًا، بل حقيقة مروعة من أولها إلى آخرها». ثم حامت عيناه في أرجاء الحجرة، وعندما وقع نظره على الشخصين الجالسين بأناة على طرف السرير تابع حديثه قائلًا:

«لو لم أكن متأكدًا سلفًا، لكنتُ عرفت منهما». ثمَّ أغمضَ عينيه لحظة، لم تكن إغماضة بسبب الألم أو بدافع النوم ولكنها حصلت بصورة طوعية، وكأنَّه كان يستجمع كل ملكاته حتى يركز، وعندما فتحهما قال في عجالة، وبقوة أكبر من القوة التي أظْهَرَهَا حتى الآن:

«أسرع يا دكتور، أسرع، إنني أموت! أشعر أنَّه لم يعد أمامي سوى بضع دقائق، ومن ثم سأعود إلى الموت أو إلى ما هو أسوأ منه! رطِّب شفتي بالبراندي مرَّة أخرى. فعندي شيءٌ يتحتَّم عليَّ قوله قبل أن أموت، أو قبل أن يموت دماغي المهشَّم المسكين على أي حال. شكرًا لك! حدث ذلك في تلك الليلةِ بعد أن تَرَكْتَنِي وذَهبْتَ، الليلةِ التي توسَّلْتُ إليكَ فيها أن تُخْرِجَنِي من المصحَّة. لم أستطع الكلام وقتها، إذ شعرتُ أنَّ لساني انعقَد، ولكني كنْتُ سليم العقل مثلما أنا الآن، باستثناء أني لم أحكِ لكَ ما رغبت في قوله. لقد عانيتُ كروبَ اليأس مدةً طويلةً بعد أن تَرَكْتَنِي، بدت وكأنَّها ساعات طوال. ثم أقْبَلَتْ عليَّ طمأنينةٌ مفاجئة. وبدا أن عقلي استعاد سكينَتَهُ مرَّة أخرى، وأدركتُ أين كُنْت. ثمَّ سمعتُ الكلاب تنبح وراء المصحَّة، ولكنها لم تكن تنبح في المكان الذي كان هو فيه!». وبينما كان رينفيلد يتكلم، لم تطرف عينا ڤان هيلسنغ

ألبتة، ولكنَّه مدَّ يده وأمسك بها يدِي وشدَّ عليها بإحكام. لم يفضح نفسه على أي حال، أومأ إيماءَةً خفيفةً وقال بصوتٍ خافت: «تابع حديثك». فمضى رينفيلد يقول:

«لقد اقترب من النافذة في الضباب، مثلما كنْتُ أراه يفعل في الغالب من قبل، ولكنَّه كان جسمًا ماديًا وليس شبحًا، وكانت عيناه شرستان مثل عيني إنسانٍ غاضب. كان يضحك بفمه الأحمر، والتَمَعَتْ أسنانه البيضاء الحادة في نور القمر عندما التَفَتَ لينظر وراءه متمعنًا في صفِّ الأشجار، إلى الموضع الذي كانت الكلاب تنبح منه. ما كُنْتُ لأطلب منه الدخول أول الأمر، رغم معرفتي برغبته في ذلك، مثلما رغب تمامًا منذ بداية تردُّدِه على نافذتي. ومن ثم بدأ يُمْطِرُني بالوعود، لم تكن كلامًا إنما أفعال». وهنا قاطَعَه البروفسور ڤان هيلسنغ قائلًا بكلمةٍ واحدةٍ:

«كيف؟».

«عن طريق تنفيذ تلك الوعود، ومن ذلك مثلًا أنَّه اعتاد أن يرسل إليَّ الذباب عندما تشرق الشمس. ذبابٌ سمينٌ كبيرٌ عظيمٌ على أجنحته فولاذٌ وياقوتٌ أزرق، وكان يرسل إليَّ في الليل عُثًّا كبيرًا، على ظهوره جمجمةٌ وعظمتان متصالبتان». أومَأَ له ڤان هيلسنغ برأسه بينما همَسَ لي لاشعوريًا:

«تلك *عُثَّةُ أبو الهول من نوع أشيرونيتا إيتيتروپوس* - تلك التي تسمونها (عُثَّة رأس الموت)». ثمَّ تابع رينفيلد حديثَه دون توقُّفٍ قائلًا:

«ومن ثم بدأ يهمس لي: (جرذان، جرذان، جرذان! سأهبكَ مئاتٍ، بل ألوف، بل ملايين الجرذان، كلها حية، وكلابًا تأكلها، وقططًا أيضًا. كلها حية! دمها أحمر، فيها سنين مديدة من الحياة، وليست مجرَّد ذبابِ يطن). ضحكتُ على ما قاله، إذ أردت أن أرى ما يمكنه أن يفعل. ثم نَبَحَت الكلاب بعيدًا وراء الأشجار المعتمة في منزله. وأشار إليَّ بالذهاب إلى النافذة. فنهضتُ ونظرتُ منها، فرفع يديه، وبدا أنه ينادي على أحدٍ دون أن يستخدم أي كلمات. انتشرت فوق العشب كتلة سوداء، وجاءت على شكل لهب من نار، ومن ثمَّ حرَّك الضباب يمنةً ويسرةً، فرأيتُ الآلاف من الجرذان بعيونها المتوهِّجة حُمرةً مثل عينيه، بخلاف أنها أصغر فقط. رفَع يده، وتوقَّفَت الجرذان جميعها، وحسبتُ أنه بدا وكأنه يقول: «سأهبكَ حيوات كل هذه الجرذان، بلى، وغيرها الكثير أكبر منها، من أعمارٍ لا تعد ولا تحصى، إذا ما سجدتَ لي وعَبَدْتَنِي!». ثمَّ بدا أنَّ سحابة حمراء كحمرة الدم غطَّت عينيَّ، وقبل أن أعي ما كنت أفعل، وجدتُ نفسي أفتحُ إطارَ النافذة وأقول له: «تفضَّل، أيُّها المعلِّم والسيِّد!». ذَهَبَت كل الجرذان، وكما ينسل نور القمر عبر أصغر الشقوق، انسلَّ إلى الحجرة عبر إطار النافذة، رغم أنها كانت مفتوحة بعرض إنش واحد فقط، ووقف أمامي بكامل حجمه وبهائه».

وَهَنَ صوتُ رينفيلد، فرطَّبْتُ شفتيه بالبراندي مرة أخرى وتابع حديثه، ولكن بدا وكأن ذاكرته استمرت في عملها أثناء الفاصل الزمني لأنَّه تجاوز زمنيًا تسلسل أحداث القصة. وكنت

على وشك تذكيره بأن يتابع الحديث من النقطة التي توقَّف عندها، ولكن ڤان هيلسنغ همس لي قائلًا: «دعه يكمل لا تقاطعه، إذ لا يمكنه أن يعود في حديثه إلى الوراء، وربما لا يستطيع المتابعة حالما يفقد تسلسل حبل أفكاره»، فتابع رينفيلد:

«انتظرتُ طوال النهار أن يعاود التواصل معي، ولكنه لم يرسل لي أي شيء، ولا حتى ذبابة عادية، وعندما طلع القمرُ كنتُ غاضبًا منه غضبًا عظيمًا. جن جنوني منه حين انسلَّ عبر النافذة، رغم أنها كانت مغلقة، ولم يطرق حتى عليها. ضحك هازئًا بي وبان وجُهُه الأبيض من داخل الضباب وعيناه الحمراوان تلتمعان، واستمر وكأنَّه يملك المكان برمته بينما أنا لست سوى نكرة. بل إنَّ رائحته حتَّى لم تكن ذاتها عندما مرَّ قربي. ولم أستطع أن أمسكه. وظننتُ نوعًا ما، أن السيِّدة هاركر أَتَتْ إلى الحجرة».

نهض الرجلان الجالسان على السرير واقتربا، وقَفَا خلف رينفيلد بحيث لا يمكن أن يراهما، ولكنهما يستطيعان سماعه بصورة أفضل. التزم كلاهما الصمت، ولكن البروفسور نظَرَ وارتعش ووجهه ما يزال يزداد تجهُّمًا وصرامة على أي حال. تابع رينفيلد حديثه دون أن ينتبه:

«عندما جاءت السيدة هاركر لزيارتي بعد ظهر هذا اليوم لم تكن كما هي، بل كانت مثل أوراق الشاي بعد أن يسكب عليها الماء المغلي في الإبريق». وهنا اقتَرَبْنَا كلُّنا منه ولكن لم يتفوه أحدنا بكلمة، ومضى يقول:

«لم أعرف أنَّها كانت هنا حتى تكلَّمَتْ، ولم تبدُ على الحال الذي كانت عليه. لست أكترث بالأشخاص الشاحبين، بل أحبُّهم ممتلئين بالدم، وبدا أن كل دمها قد نفد منها. لم أفكِّر في الأمر في تلك اللحظة، ولكني فعلت عندما ذهَبَتْ فجنَّ جنوني إذ عرفتُ أنَّه قد أخَذَ الحياةَ منها». شعرْتُ بالآخرين وقد ارتجفوا مثلما ارتجفْتُ، لكننا حافظنا على ثباتنا، ثم أردَفَ رينفيلد: «وعندما حلَّ الليل كنتُ مستعدًا له. رأيت الضباب يتسلَّل إلى الحجرة، فأمسكْتُه على حين غرة بإحكام. إذ سمعتُ أنَّ للمجانين قوة غير عادية، ونظرًا لأني أعرف أني مجنون -أحيانًا وبطريقة ما- فقد قررتُ أن أستعمل قوتي. لكنه شعر بها أيضًا، إذ اضطر للخروج من الضباب حتى يقاومني، فأحكمتُ قبضة يدي، وظننت أنني على وشك إلحاق الهزيمة به، لأني لم أشأ له أن ينتزع المزيد من حياتها، حتى رأيتُ عينيه واخترقني تأجُّجُهما، فخارتْ قواي كالماء. ثم انسلَّ عبر الضباب، وعندما حاولتُ أن أتشبَّثَ به، رفَعَنِي ورماني إلى الأسفل. كانت هناك سحابة حمراء أمامي، وضجيج مثل الرعد، وبدا أن الضباب انسلَّ خارجًا من تحت الباب». أصبح صوت رينفيلد أشد خفوتًا وزاد شخير نَفَسِه. فوقف ڤان هيلسنغ دونما سابق تفكير وقال:

«بتْنَا نعرف الآن أسوأ ما في القضية. إنه هنا وصرنا نعرف غايته. وقد لا يكون الأوان قد فات. فلنتقلَّد أسلحتنا مثلما فعلنا في تلك الليلة، ولكن دون أن نضيع أي وقت، لسنا نمتلك ولا لحظة إضافية». لم يكن ثمة حاجة لأن نعبر بالكلمات عن خوفنا أو اقتناعنا بما حصل، فقد كان الشعور مشتركًا. هرعنا جميعًا وأخذنا

من غرفنا الأشياء ذاتها التي كانت معنا عندما دخلنا منزل الكونت. كانت أدوات البروفسور جاهزة معه، وعندما التقينا في الممر أشار إلى أدواته على نحو ظاهر وهو يقول:

«إنها لا تفارقني ألبتة، ولن تفارقني حتى تنتهي هذه القضية الحزينة. تحلّوا بالحكمة يا أصدقائي. فمن نتعامل معه ليس بالعدو العادي. وا أسفاه! وا أسفاه أنَّ السيِّدة مينا العزيزة ستعاني!» ثم توقَّف عن الكلام وصوته يتقطع، ولا أعرف إذا ما كان الغضب أو الذعر هو الشعور الذي سيطر على قلبي.

توقَّفْنَا خارج غرفة جوناثان ومينا. تراجع أرثر وكوينسي، في حين قال كوينسي:

«أينبغي لنا أن نقلق راحتها؟».

فقال ڤان هيلسنغ متجهمًا:

«لا مفر أمامنا من ذلك. ولو كان الباب مقفلًا، فسأكسره». ثم أضاف بجدية بالغة:

«ألن يرعبها ذلك بشدة؟ فمن غير المقبول اقتحام حجرة سيِّدة!».

«أنتَ دائمًا على حق؛ ولكن هذه مسألة حياة وموت. كل الغرف سواءٌ أمام الطبيب، وحتى لو لم تكن كذلك.. إنها كذلك بالنسبة لي هذه الليلة. يا صديقي جون، إذا لم يفتح الباب عندما أدير قبضته، فضع كتفك وادفعه بقوة، وأنتما أيضًا يا صديقيَّ. الآن!».

أدار قبضة الباب بينما كان يتحدث، لكنه لم يفتح. رمينا بأنفسنا عليه فانفتح من أثر الاصطدام، وكِدْنَا نسقُط على رؤوسنا داخل الحجرة. بل إن البروفسور سقط بالفعل، ونظرت إليه يستجمع نفسه ناهضًا على يديه وركبتيه. أفزَعَنِي ما رأيت. وشعرتُ بأن شعري انتصب كفرشاة على قفا رقبتي، وبدا قلبي وكأنه توقف عن الحركة.

كان نور القمر ساطعًا جدًا بحيث دخل إلى الحجرة عبر الستارة الصفراء السميكة ما يكفي منه ليرى المرء ما فيها. على السرير قرب النافذة يستلقي جوناثان هاركر، وجهُهُ محمرٌّ ويتنفس بصعوبة وكأنه في شبه غيبوبة. وجثا على طرف السرير القريب منا جسد زوجته مواجهًا الأعلى واكتسى لونًا أبيض. وقف إلى جانبها رجل نحيف طويل مجلل بالسَّواد. كان يواجه الجانب الآخر، ولكن في اللحظة التي رأيناه عرَفْنَا جميعًا أنه الكونت، في كل تفصيل من تفاصيله، حتى في الندبة التي على جبينه. كان يمسك بيده اليسرى يديَّ السيِّدة هاركر، مبعدًا إياهما بذراعيه في أقصى امتداد لهما، وقد أحْكَمَ قبضته اليمنى على مؤخرة رقبتها، دافعًا وجهها نحو الأسفل على صدره. منامتها البيضاء ملطخة بالدم، وخيطٌ رفيعٌ من الدم يسيل على صدره العاري الذي بان من خلال ردائه المفتوح في عجالة. منظرُهما يشبه بصورةٍ مرعبةٍ مشهدَ طفلٍ يحشر أنف قطة صغيرة في صحن حليب ليرغمها على شربه عنوة. ما إن اندفعنا داخل الحجرة إلّا والتَفَتَ الكونت صوبنا، وبدا أن النظرة الجهنمية التي سَمِعْتُ وصفًا لها اجتاحت وجهه. فقد تأجَّجَتْ عيناه الحمراوان بمشاعر

شيطانية، واتسع المنخران الضخمان في أنفه الأبيض المعقوف واهتزَّت حوافهما، واصطكت أسنانه الحادة البيضاء ببعضها مثل أسنان حيوانٍ ضارٍ خلف الشفتين المكتنزتين في فمه الذي يقطر دمًا. وبحركةٍ مفاجئةٍ، رمى ضحيته فوق السرير وكأنَّها رُمِيَتْ من شاهق، والتفتَ ووثب علينا. لكن هذه المرة كان البروفسور له بالمرصاد، ورفع نحوه المظروف الذي يحوي الخبز المقدَّس. توقَّف الكونت فجأة، تمامًا مثلما فَعَلَتْ لوسي المسكينة خارج القبر، وتراجع خائفًا. ثم تراجع أكثر وأكثر بينما تقدَّمْنَا ونحن نرفع صلباننا. حُجب نور القمر فجأة، حيث مرت غيمة سوداء ضخمة عبر السماء، وعندما أشعل كوينسي المصباح بعود ثقاب، لم نرَ إلا بخارًا خافتًا ما لبث أن انسحَبَ، من تحت الباب الذي كان قد تأرجح راجعًا إلى وضعيته السابقة بعد ارتداده العنيف. مشيتُ وفان هيلسنغ وأرثر إلى الأمام صوب السيِّدة هاركر، التي استردَّت أنفاسها في هذه اللحظة وأطلقت صرخة مرعبة جدًا تصم الآذان، صرخة يائسة سيرنُّ صداها في أذني حتى آخر يومٍ في حياتي. استلقَتْ لبضع ثوان في حالة من العجز والشتات. كان وجهها مرتاعًا، وكساه شحوب أبرَزَته حمرة الدَّم الذي لطَّخ شفتيها وخدَّيْهَا وذقنها. من حنجرتها يسيل خيط رفيع من الدم، وعيناها مهتاجتان رعبًا. ثم وضعت يديها على وجهها، وقد شابت بياضَهمَا الآثارُ الحمراء الناجمة عن قبضة الكونت الرهيبة، وأطلقت نحيبًا كئيبًا خافتًا جعل من الصرخة الرهيبة التي أطلقَتَها مجرَّد تعبيرٍ سريعٍ عن حزن لا نهاية له. خطا فان هيلسنغ إلى الأمام وسحب مفرش السرير برفقٍ فوق

جسدها، بينما جرى أرثر خارجًا من الحجرة بعد أن نظر إلى وجهها نظرة يائسة لم تدم سوى لحظة. همس لي ڤان هيلسنغ قائلًا:

«إنَّ جوناثان تحت وطأة غيبوبةٍ يمكن أن يتسبَّب بها مصَّاص الدماء كما نعلم. ولا يمكننا فعل شيء للسيِّدة مينا المسكينة لبضع لحظات إلى أن تستجمع قواها، عليَّ أن أوقظه!». غَمَسَ طرف منشفةٍ في الماء البارد وبدأ ينفض بها على وجهه، بينما كانت زوجته أثناء ذلك تمسك وجهها بين يديها وتنتحب بطريقة تفطر قلب كل من يسمعها. رَفَعْتُ الستارة وأخذت أنظر من النافذة. ازداد سطوع ضوء القمر، وبينما كنت أنظر رأيْتُ كوينسي مورِس يركض فوق المرج ويختبئ في ظل شجرة طقسوس عملاقة. أصابني ما فَعَلَه بالحيرة، ولكن في اللحظة ذاتها سمعتُ صيحة جوناثان وقد استفاق واستردَّ وعيَه جزئيًا، ثم استدار ناحية السرير. ارتَسَمَتْ على وجهه، كما كان واضحًا، نظرةُ دهشةٍ عارمةٍ. بدا دائخًا لبضع ثوان، ثم كأنه استعاد وعيه بالكامل فجأة، فوقف مذعورًا. تأثَّرَت زوجتُه بالحركة السريعة، فالتفَتَتْ إليه بذراعين ممدودتين وكأنَّها تريد أن تعانقه، ولكنَّهَا سرعان ما سحبتهما مرَّة أخرى وجمعتْ مرفقيها معًا، ثم رفعت كفيها ووضعتهما على وجهها، وارتَجَفَتْ حتى اهتزَّ السرير تحتها. ثم صاح جوناثان هاركر:

«بالله عليكم ماذا يعني هذا؟ دكتور سيوِرْد، دكتور ڤان هيلسنغ، ما الأمر؟ ما الذي جرى؟ ما المشكلة؟ مينا يا عزيزتي، ما الأمر؟ ماذا يعني وجود الدم؟ يا إلهي! يا إلهي! أوصل الأمر إلى هذا الحد!»

رفع جسده وجثا على ركبتيه، وضرب يديه ببعضهما بشدَّةٍ وأردف قائلًا: «ساعدنا يا الله! كن في عونها! يا إلهي، كن في عونها!». ثم قفز في حركة سريعة عن السرير، وبدأ ارتداء ملابسه على عجل، وقد انفجرت فيه قيم الرجولة حين تطلب الأمر منه تصرفًا فوريًا. صاح دون توقُّفٍ: «ماذا جرى؟ أخبروني ماذا حصل! دكتور ڤان هيلسنغ، أعرف أنَّك تحب مينا. يا إلهي! افعل شيئًا لتنقذها. لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيرًا حتى هذه اللحظة. احرسوها وسأبحث عنه!». وفي خضم رعبها وخوفها وكربها، حين رأت مينا وجود خطر محدق بزوجها نسيت على الفور حزنها، وأمسكت بها وصاحت:

«لا! لا يا جوناثان! عليكَ ألا تتركني. يعلم الله أنِّي عانيتُ بما فيه الكفاية الليلة، ولا طاقة لي بحزن إضافي نتيجة خوفي عليك. عليكَ أن تبقى معي. ابقَ مع هؤلاء الأصدقاء الذين سيولونك الرعاية!». اهتاجت تعابيرها وهي تتكلم، وبعد أن رضخ لطلبها، جَذَبَتْهُ ناحيتها ليجلس على جانب السرير، وتشبَّثَتْ به بشدَّة.

حاولتُ وڤان هيلسنغ أن نهدِّئ من روعها. رفع البروفسور صليبه الذهبي الصغير، وقال بهدوءٍ مذهلٍ:

«لا تخافي يا عزيزتي. فنحن هنا، وطالما أن الصليب قريبٌ منكِ فما من شيءٍ دَنِسٍ يمكنه الاقتراب. أنتِ بأمانٍ الليلة، وعلينا أن نتحلَّى بالهدوء ونتشاور في الأمر معًا». ارتجفتْ ولاذت بالصمت، وقد ألقت برأسها في حِجْرِ زوجها. عندما رَفَعَتْهُ، كانت منامته البيضاء ملطخة بالدم في الموضع الذي لمسته شفتاها، وفي الموضع

الذي سالت فيه قطرات الدم من الجرحِ الرفيع المفتوح في رقبتها. ما إن رأت الدم إلا وتراجَعَتْ مصدرة نحيبًا خافتًا. همست، وهي تختنق بتنهداتها، قائلة:

«دَنِسَةٌ، دَنِسَةٌ! عليَّ ألَّا ألمسه أو أقبِّلُه بعد الآن. أوه، لقا. صرت الآن ألدَّ أعدائه، وأكثر ما يجب أن يخافه».

أجاب ذلك بحزم قائلًا:

«ما هذا الهراء يا مينا! يحرجني أن أسمع مثل هذه الكلمات. وما كنتُ لأسمع ذلك منك، ولن أسمعه. وليجازيني الله، ويعاقبني بمعاناة أمرّ حتَّى مما نحن فيه هذه الساعة، إذا فرَّق بيننا أي شيء بسبب فعلٍ مني أو رغبة!». مدَّ ذراعيه وضمَّها إلى صدره، وظلت هكذا برهة وهي تنتحب. ثم نظر إلينا من فوق رأسها المحني، بعينين طرفتا بوهنٍ فوق منخاريه المرتعشين، وفمه متصلب كالفولاذ. بعد فترة خفت أنينها، فقال لي وهو يتحدَّثُ بهدوءٍ مُتَعمَّدٍ شعرتُ بأنه استنزف كامل طاقته العصبية:

«والآن يا دكتور سيوِرْد، احكِ لي تفاصيل كل ما حصل. فأنا أعرف جيدًا الخطوط العريضة للموضوع، لذا أخبرني بكل ما حصل». أخبرتُه بالضبط ماذا حدث، وأصغى إليَّ بأناةٍ واضحة، ولكنَّ منخريه اختلَجَا وعيناه برَقَتَا وأنا أقول له أنَّ يديَّ الكونت القاسيتين أوصلتا زوجته إلى ذلك الوضع الرهيب والمروِّع، وقد وضع فمها على الجرح المفتوح في صدره. أثار اهتمامي رؤية يديه، حتى في مثل هذه اللحظة، وقد ظلتا تمسدان على الشعر المبعثر بلطف

ومحبة، رغم أن وجهه الشاحب كان مضطربًا وهو منحنٍ على رأسها.
بمجرد أن انتهيت من سرد ما جرى له، طرَق كوينسي وغودالمنغ على الباب. ثم دخلا استجابةً لاستدعائنا لهما. نظر ڤان هيلسنغ إليَّ مستفسرًا. وفهمتُ أنه يقصد أننا يجب أن نستغل قدومهما إن أمكن، لصرف انتباه الزوجين التعيسين عن بعضهما وعن أنفسهما، ولذا عندما أومأتُ له بالقبول سألَهُمَا عما شاهداه أو فعلاه. فأجاب اللورد غودالمنغ على سؤاله قائلًا:

«لم أستطع أن أعثر عليه في أي مكان في الممر، أو في أيٍّ من الغرف. وقد نظرْتُ داخل المكتب، ولكنه رحل رغم أنه كان هناك. وقد كان على أي حال...» وتوقَّف فجأة، وهو ينظر إلى السيِّدة المسكينة الذاوية فوق السرير. فقال ڤان هيلسنغ بتجهمٍ:

«تابع حديثك، يا صديقي أرثر. فنحن لا نريد هنا مزيدًا من الأسرار. أملنا الآن في أن نعرف كل شيء. قل ما تريد بلا حرج!».
وهكذا تابع أرثر حديثه قائلًا:

«لقد كان هناك، ورغم أن بقاءه استمر لبضع ثوان فقط، إلَّا أنه استغل الفرصة جيدًا. كل الوثائق أُحرقت، وكانت ألسنة اللهب الزرقاء تومض بين ذرات الرماد الأبيض، كما رُمِيَتْ أسطوانات فونوغرافك أيضًا في النار، وساعد الشمع المصنوعة منه في تأجيج ألسنة اللهب». هنا قاطَعْتُه قائلًا: «حمدًا لله أنَّ هناك نسخة أخرى من الوثائق في مكانٍ أمينٍ في الخزانة الحديدية!». أشرَقَ وجهُه لحظةً، ولكنه تجهَّم مرَّةً أخرى وهو يقول: «ركضتُ إلى الطابق السفلي،

ولكني لم أعثر على أي أثر له. ثمَّ نظرْتُ في حجرة رينفيلد، ولكن ما من أثر هناك سوى...!» وتوقَّفَ عن الحديث مرَّة أخرى. «تابع حديثك» قال جوناثان بصوت مبحوح، فطأطأ أرثر رأسَه ورطَّب شفتيه بلسانه وأضاف: «سوى أنَّ رينفيلد المسكين كان ميتًا». رفَعَت السيِّدة مينا رأسَهَا، ناظرة إلينا الواحد تلو الآخر وقالت بجدية:

«إنَّهَا مشيئة الله!» لم يسعني سوى أن أشعر بأن أرثر كان يخفي أمرًا ما، ولكن ولأني فهمتُ أنَّه إنما يفعل ذلك لغاية في نفسه، فلم أقل شيئًا. التَفَتَ ڤان هيلسنغ إلى كوينسي مورِس وسألَه:

«وأنتَ، يا صديقي كوينسي، ألديك ما تخبرنا به؟». فأجاب:

«ليس في جعبتي سوى القليل، وربما يكون له قيمة كبيرة في نهاية المطاف، لكن لا أستطيع أن أدعي ذلك الآن. ظننتُ أنَّه من الجيِّد أن نعرف، إن أمكن، إلى أين سيذهب الكونت بعد أن غادر المصحَّة. لم أرَه، لكني رأيتُ خفَّاشًا يطير من حجرة رينفيلد، ويرفرف بجناحيه متجهًا غربًا. توقَّعْتُ أن أراه في هيئةٍ ما راجعًا إلى منزل كارفاكس، ولكن من الواضح أنه قصد وكرًا آخر. لن يرجع الليلة، لأنَّ السماء بدأت تحمرُّ في الشرق، والفجر قريب. علينا أن نعمل غدًا!»

قال كلماته الأخيرة عبر أسنانه المغلقة. خيَّمَ صمتٌ ربما استمر بضع دقائق، تهيأ لي أنه يمكنني أن استمع لضربات قلوبنا وهي تدق. بعدها قال ڤان هيلسنغ، وهو يضع يده بلطف شديد على رأس السيِّدة مينا هاركر:

«والآن، يا سيِّدة مينا -أيتها السيدة العزيزة الغالية المسكينة- أخبرينا بالضبط ماذا حدث. ويعلم الله أني لا أريد لكِ أن تتألمي، ولكننا بحاجة لأن نعرف كل شيء. إذ ينبغي لنا الآن وأكثر من أي وقت على الإطلاق، تنفيذ المهمة بأكملها بسرعة ودقة، وبجدية بالغة. فاليوم الذي ينتهي فيه كل شيء بات قريبًا إذا ما كتب لمساعينا أن تنجح، والآن أمامنا الفرصة في أن نحيا ونتعلم».

ارتجفَت السيِّدة العزيزة المسكينة، ورأيتُ توتر أعصابها إذ ضمت إليها زوجها مقتربة منه وأحنت رأسها على صدره أكثر وأكثر. ثم رَفَعَتْ رأسَها بفخر، ومدَّت يدَها إلى ڤان هيلسنغ الذي أمسكها بيده، وبعد أن انحنى وقبَّلها باحترام، رفعها بسرعة. أما يدها الأخرى فكانت ممسكة بإحكام بيد زوجها، الذي أحاطها بذراعه الأخرى وكأنه يحميها. اتَّضَحَ بعد صمتٍ أنها كانت ترتِّب أفكارها، وقالت:

«لقد تناولتُ الشربة المنومة التي تفضَّلتَ وأعطيتني إيَّاها، ولكن وقتًا طويلًا مر ولم تؤد مفعولها. شعرت وكأنني متيقظة أكثر، وبدأ عددٌ هائلٌ من التخيلات الفظيعة يتجمع في رأسي، وكلها مرتبطة بالموت، ومصَّاصي الدِّماء؛ والدم، والألم، والقلق». تأوَّه زوجُها لا إراديًا فالتفتت إليه وقالت بحبٍّ: «لا تقلق يا عزيزي. عليكَ أن تكون شجاعًا وقويًا، وأن تساعدني أثناء أداء هذه المهمة الرهيبة. فلو عرَفْتَ فقط ما الجهد الذي أحتاجه لكي أحكي عن هذا الشيء المخيف من الأساس، لتفهَّمْتَ مقدار حاجتي الكبيرة لمساعدتك. حسنًا، رأيتُ أنني يجب أن أحاول بإرادتي مساعدة

الدواء المنوِّم في أداء عمله، إذا كان في ذلك أي فائدة لي، ولذا فقد هيَّأتُ نفسي للنوم. كنت متأكدة أن النوم سيأتي قريبًا، لأني لم أعد أتذكر المزيد. لم يوقظني مجيء جوناثان، لأني أتذكر بعد ذلك أنه استلقى بجانبي. ثم تدفَّقَ إلى الحجرة الضباب الأبيض الرقيق ذاته الذي كنتُ قد لاحظته من قبل. ولكني نسيت الآن إذا كنتم تعرفون بهذا الأمر، وسوف تجدون إشارة إلى ذلك في دفتر يوميَّاتي الذي سأريكم إيَّاه لاحقًا. شعرتُ بنفس الغموض المرعب الذي شعرت به من قبل وراودَني الإحساس ذاته بوجود شخصٍ ما في الحجرة. التفتُّ حتى أوقظ جوناثان، ولكني وجدتُه نائمًا بعمق وكأنه هو من تناول الشربة المنوِّمة وليس أنا. حاولتُ، ولم أستطع إيقاظه. وسبَّب لي هذا خوفًا عظيمًا، ونظرتُ حولي مذعورة. ثم بالفعل، غار قلبي في صدري إذ رأيتُ بجانب السرير يقف رجل نحيل طويل، مجلَّل بالسواد، وكأنه خرج من الضباب، أو بالأحرى وكأن الضباب تحوَّل إلى جسده إذ تلاشى تمامًا. لقد عرفته مباشرة من خلال وصف الآخرين: وجه شمعي وأنف معقوف مرتفع، وقد سقط الضوء عليه على شكل خط أبيض رفيع. وشفتاه الحمراوان المتباعدتان، ومن بينهما تبرز أسنانه البيضاء الحادة، وعيناه الحمراوان اللتان بدا أني رأيتُهما في الغروب على نوافذ كنيسة القديسة ميري في وِتْبِي. كما أعرف أيضًا الندبة الحمراء على جبينه في الموضع الذي ضربَه جوناثان. جمد قلبي ذعرًا للحظة، ولم يمنعني من الصراخ الشديد سوى أني أصبْتُ بالعجز. وفي فترة الصمت تكلَّم بما يشبه همسٍ حاد لاذع، مشيرًا أثناء كلامه إلى جوناثان:

«صمتًا! إذا أصدَرْتِ أي صوت فسآخذه وأخرج دماغه من رأسه أمام ناظريك». ذُعِرْتُ وتحيرت فيما يمكن أن أقول أو أفعل. وبابتسامة ساخرة، وضع يدًا على كتفي ممسكًا بي بإحكام، وكشفَ عن رقبتي بيده الأخرى، وقال وهو يفعل ذلك: «أولًا، قليلٌ من مشروبٍ منعش مكافأةً على جهودي. عليكِ أن تتحلي بالهدوء أيضًا؛ فهذه ليست المرَّة الأولى أو الثانية التي تُهدِّئ فيها عروقك عطشي!». ذهلت، ومما يدعو إلى الغرابة بما يكفي أنني لم أرغب بمنعه. وأظن أن ذلك جزء من اللعنة الرهيبة التي تنزل بضحيته عندما يلمسها. وأوه، يا إلهي، يا إلهي، الرأفة بي! وضَع شفتيه اللتين فاحت منهما رائحةٌ كريهةٌ على رقبتي». تأوَّه زوجُها مرة أخرى، فأمسَكَتْ يده بقوة أكبر، ونظرَتْ إليه نظرة شفقة وكأنه هو المجروح، وتابَعَتْ حديثها قائلة:

«شعرتُ بقوتي تذوي، وكنتُ في شبه إغماءة. لا أعرف المدة التي استغرقها هذا الشيء الرهيب، ولكن بدا أنَّ وقتًا طويلًا لا بد مرَّ قبل أن يسحب فمه الحقير القذر الدنس. رأيته يقطر دمًا نضرًا!» بدا أن تذكُّر ذلك يوهن من عزيمتها، فارتَخَتْ وكادَتْ تسقط أرضًا لولا أن زوجها سندها بذراعه التي شدَّت من أزرها. وبجهد عظيم استعادت قوتها ومضت تقول:

«ثم قال لي باستهزاء: (فأنت إذن مثل الآخرين، تحيكين الدسائس ضدي. وترغبين في مساعدة هؤلاء الرجال على الإيقاع بي وإفشال مخطَّطَاتي! بتِّ تعرفين الآن، وهم يعرفون معرفة جزئية

سلفًا، ولن تمر مدة طويلة حتى يعرفوا تمامًا ماذا يعني أن يعيقوا طريقي. كان ينبغي لهم الاحتفاظ بطاقاتهم ليستخدموها هنا في المنزل. فبينما سيستخدمون كل ذكاءهم ضدي -أنا الذي قُدْتُ الأممَ، ودبَّرت المكائد لصالحهم، وقاتلتُ من أجلهم، لمئات السنين قبل أن يولدوا- كنتُ أدبر المؤامرات لأفشل مؤامرتهم. وأنتِ، أكثر امرأة يحبونها، بتِّ الآن جزءًا مني، لحمك من لحمي، ودمك من دمي، وواحدة من أقربائي، وستكونين معصرة خمري السخية لبرهة، وستصبحين لاحقًا رفيقتي ومساعدتي. ينبغي لكِ أن تنتقمي بدورِك، لأنهم جميعًا سيكونون طوع أمرك. لكن الآن ستُعَاقَبِين على ما فعلتيه. فقد ساعدتِ في عرقلة مسعاي، والآن ينبغي لكِ أن تلبي ندائي. فعندما يقول عقلي لكِ «تعالي!»، فعليك عبور الأرض أو البحر لتلبِّي لي مطلبي، ولتحقيق تلك الغاية عليك أن تفعلي هذا!) وهو يقول ذلك فتَح قميصه، وفتَح عِرْقًا في صدره بأظافره الطويلة الحادة. وعندما بدأ الدم ينبجس، أخذ يديَّ بإحدى يديه وأمسكهما بإحكام، وأمسك بيده الأخرى رقبتي وضغط بفمي فوق جُرْحِه، بحيث لم يعد أمامي خيار سوى أن أختنق أو أن أبلع بعضًا من الـ... أوه يا إلهي! يا إلهي! ما الذي فعلْتُه؟ ما الذي فعلته حتى أستحق مثل هذا المصير، أنا التي ما فتئت أحاول السير في طريق الوداعة والاستقامة طوال حياتي. فليرأف الله بحالي! وليشمل بعطفه روحًا مسكينة في حالةٍ أسوأ من خطر مميت، وليشمل بعطفه ورحمته أولئك الذين يُعزونها!». ثم راحت تفرك شفتيها وكأنها كانت تنظِّفهما من الدَّنَس.

بينما كانت تقص علينا قصتها المروعة، بدأت سماء الشروق تعجل بقدومها، وغدا كل شيء أصفى وأصفى. وأثناء استمرار الرواية المفزعة، كان جوناثان هاركر صامتًا وهادئًا، لكن ارتسمت على وجهه ملامح شاحبة ازدادت عمقًا في ضوء الصباح. ظل هكذا إلى أن ظهر أول خط أحمر من الفجر المنبلج، فبرَزَ لون اللحم غامقًا بتباين مع شعره المبيض.

رتَّبْنَا أمورنا بأن يقوم واحد منا بالبقاء بموضع قريب من نداء الزوجين التعيسين إلى أن نتمكن من الاجتماع كلنا ونتفق على الإجراءات التي سنتخذها.

بتُّ متأكدًا من شيء واحد؛ لن تشرق الشمس اليوم على منزلٍ أكثر تعاسة من هذا طوال مسيرتها اليومية العظيمة.

الفصل الثاني والعشرون

يوميّات جوناثان هاركر

٣ أكتوبر- نظرًا لأنه صار لزامًا عليَّ أن أفعل شيئًا ما أو أجن، فقد كتبتُ هذه اليوميَّات. الساعة الآن السادسة، ومن المقرَّر أن نجتمع في المكتب في غضون نصف ساعة ونأكل بعض الطعام، إذ اتفق الدكتور ڤان هيلسنغ والدكتور سيوِرْد بأننا إذا لم نأكل فإننا لن نستطيع أن نعمل بأقصى طاقتنا. ويعلم الله أننا سنحتاج اليوم أقصى طاقتنا. يجب أن أواصل الكتابة كلَّما سنحت لي الفرصة، فأنا لا أجرؤ على التوقف عن التفكير في المسألة. وينبغي كتابة كل التفاصيل؛ صغيرها وكبيرها، فربما للتفاصيل الصغيرة في النهاية أن تقدم فائدة أكبر. فالمعرفة، صغيرة أم كبيرة، ما كانت لتضعني أو تضع مينا في وضع أسوأ من الذي نحن فيه اليوم. على أي حال، علينا أن نتحلى بالإيمان والأمل. فقد قالت لي المسكينة مينا للتو، والدموع تسيل على وجنتيها العزيزتين، إنّماَ إيماننا يُخْتَبَرُ في الشدائد والمحن، وبأننا يجب أن نحافظ عليه، وسيمدنا الله بالعون حتى بلوغ النهاية. النهاية! أوه يا إلهي! أي نهاية؟... إلى العمل! إلى العمل!

بعد أن عاد الدكتور ڤان هيلسنغ والدكتور سيورد من زيارة رينفيلد المسكين، تطرَّقنا بصورة جدية إلى ما ينبغي عمله. في البداية، قال لنا الدكتور سيورد إنَّه عندما نزل والدكتور ڤان هيلسنغ إلى الحجرة التي في الأسفل فقد وجدا رينفيلد مضطجعًا على الأرض، وجسده كله كومة واحدة. وجهه مملوء بالرضوض وقد تهشَّم، وعظام رقبته مكسورة.

وقد سأل الدكتور سيوِرْد المساعد الذي كان مكلفًا بالمراقبة في الممر إذا كان قد سمع أي شيء. فقال إنه كان جالسًا -حيث اعترف أنه كان شبه غافٍ- عندما سمع أصواتًا مرتفعة في الحجرة، وصاح رينفيلد بعدها بصوت مرتفعٍ عدة مرات قائلًا: «يا الله! يا الله! يا الله!» وبعد ذلك سمع صوت سقوط، وعندما دخل الحجرة وجَده ملقىً على الأرض، ووجهه إلى الأسفل، على الوضعية ذاتها التي رآه فيها الطبيبان. سأله ڤان هيلسنغ إذا كان ما سمعه «أصوات» أو «صوت واحد»، فقال إنَّه لا يستطيع أن يحدد، وإنه تهيأ له في البداية وكأنَّ هناك شخصين، لكن ونظرًا لعدم وجود أحد في الحجرة سوى المريض، فلا بد أن يكون صوتًا واحدًا وحسب. ولو تطلَّب الأمر لأقْسَم بأن المريض هو من صاح «يا الله». حين بقينا وحدنا قال لنا الدكتور سيوِرْد إنَّه لا يود الخوض في هذه الواقعة، ويجب أن تتم مناقشة مسألة التحقيق هذه فهي لن تثمر قط في التوصل إلى الحقيقة، لأنه ما من أحد سيصدِّقها. وطالما أن الحال كذلك، فقد فكَّر بأنه يمكنه بناءً على القرائن التي قدَّمها المساعد أن يصدر شهادة بأن الوفاة وقعت قضاء وقدرًا نتيجة السقوط عن السرير.

وفي حال طلب قاضي التحقيق تلك القرائن، فسيكون هناك تحقيق رسمي، وهو ما سيؤدي بالضرورة إلى النتيجة ذاتها.

عندما بدأنا النقاش في موضوع خطوتنا التالية، فأول شيء قرَّرناه هو مَنْحُ مينا ثقتنا المطلقة، وعدم إخفاء أي معلومة عنها مهما كانت مؤلمة. وافَقَتْ هي نفسها على حكمة ذلك القرار، وكان من المثير للشفقة أن تراها في قمة الشجاعة ولكنها غارقة في الغم الشديد، وتكتنفها هذه الحالة من اليأس العميق. قالت: «يجب ألَّا نخفي أي سر، فمع الأسف، لقد أخفينا عددًا كبيرًا من التفاصيل سلفًا. زد على ذلك أنه ما من شيء في العالم كله يمكنه أن يسبب لي المزيد من الألم أكثر مما عانيتُ منه سلفًا، وأكثر مما أعاني منه الآن! ومهما كان الذي سيحصل، فلا بد أنه سيمنحني أملًا جديدًا أو يمدني بشجاعةٍ جديدة!» كان ڤان هيلسنغ ينظر إليها بتركيز وهي تتكلم، ثم قال فجأة ولكن بهدوء:

«لكن يا سيِّدة مينا، ألستِ خائفة، ليس على نفسك، ولكن من نفسك على الآخرين، بعد ما حدث؟». بانت التجاعيد في وجهها، لكنَّ عينيها ائتلقتا بإخلاص الضحايا وهي تجيب:

«آه لا! لأني حزمت أمري!».

«على ماذا؟» سألَها بلطف، وبينما لذنا جميعًا بالصمت، إذ تشكلت لدى كل واحد منا بطريقته الخاصة، فكرة غامضة عما قصدته من قولها. جاء جوابُهَا ببساطة مباشرة، وكأنها كانت تشير ببساطة إلى حقيقةٍ واقعة:

«لأني إذا وجدْتُ في نفسي -وعليَّ أن أراقب ذلك بحرصٍ- مؤشِّرًا على التسبب بأذى لأي شخص من أحبتي، فسأموت!».

«لن تقتلي نفسك؟» سألَها بصوت أجش.

«بل سأفعل، إذا لم يكن هناك صديق يحبني، صديق يوفر عليَّ مثل هذا الألم، ويوفِّر عليَّ مثل هذه المحاولة اليائسة!». ونظَرَتْ إليه نظرةً ذات معانٍ وهي تقول ذلك. كان جالسًا، ولكنه نهض الآن واقترب منها ووضع يده على رأسها وهو يقول بجدية بالغة:

«يا ابنتي، بل هناك واحد إذا كان ذلك في مصلحتك. إذ أستطيع أن أحمِّل نفسي المسؤولية أمام الله في أن أجد لكِ سبيلًا لموتٍ رحيمٍ، بل حتَّى في هذه اللحظة لو كان ذلك هو الأفضل، أو حتى الأكثر سلامة! ولكن يا ابنتي...» بدا صوته مخنوقًا للحظات، وصدر من حنجرته نشيج عظيم، فبلَع ريقَه ومضى يقول:

«ثمة بعض الأشخاص هنا ممن سيحولون بينك وبين الموت. يجب ألا تموتي. يجب ألا تموتي على يد أحد، وعلى الأخص بيدك أنتِ. لا ينبغي أن تموتي قبل أن يموت فعليًا ذلك الذي دنَّس حياتك اللطيفة، لأنه إذا بقي على حاله من الموتى-الأحياء، فإن موتك سيجعلك كذلك من الموتى-الأحياء مثله. لا، بل يجب أن تحيي! يجب عليك أن تكافحي وتسعي للحياة، رغم أن الموت سيكون نعمة لا توصف. عليك أن تقاتلي الموت ذاته، سواء أجاء إليك ساعة الألم أو الفرح، في النهار أو الليل، في لحظات الطمأنينة أو الخطر! وأسألكِ بروحك الحية ألَّا تموتي - لا، ولا تفكِّري بالموت

حتى - إلى أن يصير هذ الشر العظيم جزءًا من الماضي». صار وجه عزيزتي المسكينة مينا أبيض مثل الموت، وارتعش مثل الرمال لحظة قدوم المد. لذنا جميعًا بالصمت، فلم يكن بوسعنا فعل شيء. ثم هدَأَتْ أخيرًا وقالت وهي تلتفت إليه، قالت بعذوبة، ولكن أوه! عذوبة يملؤها الحزن الشديد، إذ رفعت يدها:

«أعدك يا صديقي العزيز، إذا منَّ الله عليَّ بالحياة، فإني سأسعى لفعل ذلك، حتى يشاء الله وفق إرادته لهذا الرعب أن يزول عني». كانت طيبة وشجاعة جدًا حتى إننا شعرنا جميعًا بأن قلوبنا قد قويت على العمل والتحمل في سبيلها، وبدأنا مناقشة ما كنا سنفعله. قلتُ لها إن عليها أن تضع كافة الأوراق واليوميات والفونوغرافات التي ربما نستعملها لاحقًا في مكان آمن في الخزانة، وأن عليها أن تحتفظ بسجِّل الوثائق كما فعلت من قبل. كانت مسرورة من فرصة القيام بأي شيء، إذا جاز لي استخدام كلمة «مسرورة» في سياق الحديث عن قضية مريعة كالتي نحن فيها.

وكعادته، كان ڤان هيلسنغ قد فكَّر مسبقًا بدور كلِّ واحد منا، وجهَّز تنظيمًا دقيقًا لمهمتنا وقال:

«ربما يكون أمرًا حسنًا أننا قررنا في اجتماعنا الذي أعقب زيارتنا إلى منزل كارفاكس ألا نفعل شيئًا بصناديق التراب الموضوعة هناك. فلو فعلنا بها أي شيء، لعرف الكونت غايتنا، وكان سيتخذ سلفًا، بلا شك، الإجراءات التي من شأنها أن تفشل ما سنفعله بالصناديق الأخرى، ولكنه الآن لا يعرف نوايانا. بل الأكثر من هذا، أنه في

كافة الاحتمالاتِ، لا يعرف بأننا نملك بين أيدينا قوة تطهير تلك الأوكار، بحيث لا يستطيع أن يلجأ إليها كما اعتاد سابقًا. ونحن الآن متقدمون أكثر بمعرفتنا كيفية التخلص منها حتى إننا ربما نتتبع آخر صندوق بعد أن نتفحص المنزل الواقع في شارع الپيكاديللي. اليوم يومنا إذن، وآمالنا معقودة به. والشمس التي طلعت على حزننا هذا الصباح ستحرسنا في مسارها. وإلى أن تغرب الليلة، فإنه ينبغي لذلك الوحش أن يحتفظ بأي هيئة يكون عليها الآن أيًا كانت. فهو محصور ضمن حدود محيطه الأرضي. ولا يمكنه أن يتماهى مع الهواء أو يختفي عبر الشقوق أو الفجوات أو الصدوع. وإذا مرَّ بباب، فعليه أن يفتحه مثلما يفعل أي إنسان. وهكذا فإن معنا هذا النهار لكي نقتحم كل أوكاره ونعقِّمَها. وإذا لم نقبض عليه بعد وندمره، فينبغي أن نستدرجه حتى يلوذ بمكان يكون الإمساك به والقضاء عليه لا بد في الوقت المناسب تمامًا». وهنا وثبتُ واقفًا لأني لم أستطع أن أضبط نفسي وأنا أفكر بأن الدقائق والثواني التي تحمل قيمة كبيرة جدًا على حياة مينا وسعادتها كانت تضيع منا، لأنه كان من المستحيل فعل أي شيء ونحن نتحدَّث. ولكن ڤان هيلسنغ رفع يده محذِّرًا وقال: «لا، يا صديقي جوناثان، إن أسرع الدروب إلى المنزل أطولُها، في مثل هذه الحالة، كما يقول المثل عندكم. ينبغي لنا كلنا أن نعمل بسرعة مستميتة، عندما يحين الوقت. ولكن تَذَكَّر أنَّ كل الاحتمالات تشير إلى أن مفتاح القضية إنما في ذلك المنزل في الپيكاديللي. ربما يملك الكونت عدَّة منازل اشتراها. ولذا فسيكون في حوزته عقود شرائها ومفاتيحها وغيرها

من الأشياء، وكذلك أوراق ليكتب عليها، ودفتر شيكاته. هناك عدة مقتنيات ينبغي له أن يحتفظ بها في مكان ما، فما الذي يدعوه إلى الاحتفاظ بها في هذا المنزل الذي يتميَّز بموقع متوسط وهدوء كبير، حيث يدخله أو يغادره من بابه الأمامي أو الخلفي في أي ساعة، بينما يمكنه أن يحتفظ بها في ذلك المنزل الواقع وسط الكثافة المرورية الشديدة حيث لا يستطيع ملاحظته أحد. ينبغي لنا أن نذهب إلى هناك ونبحث في ذلك المنزل، وعندما نعرف ماذا يوجد فيه، فعلينا عندئذٍ أن نقوم بما يسميه صديقنا أرثر، وفق مصطلحات الصيد التي يستعملها، «سد وكر الثعلب» وبهذا نصيد ثعلبنا العجوز... ما رأيكم؟ أليس كذلك؟».

صحتُ: «دعونا إذن نذهب من فورنا، فنحن نضيع وقتنا الثمين جدًا!». لم يتحرك البروفسور، ولكنه اكتفى بالقول:

«وكيف سندخل إلى المنزل الذي في البيكاديللي؟».

صحتُ: «سوف نقتحمه إذا دعت الحاجة في كل الأحوال!».

«وماذا عن الشرطة؟ أين سيكونون، وماذا سيقولون؟».

بُهِتُّ! ولكني أعرف أنه إذا أراد أن يؤجل فلديه سبب منطقي لذلك. لهذا قلتُ، بأقصى ما استطعت من هدوء:

«لا تنتظر مدة أكثر مما يحتاجه الأمر، فأنا على يقين أنك تعرف مقدار العذاب الذي أنا فيه».

«آه، يا بني، أعرف ذلك، وبالفعل فلا رغبة لدي في أن أزيد

كربكَ. ولكن فكِّر في ما يمكننا أن نفعل حين يكون العالم كله ضاجًا بالحركة. عندها يحين دورنا. لقد فكَّرتُ في الأمر مليًا، وتبين لي أن أفضل الطرق أبسطها. إننا الآن نرغب في دخول المنزل ولكن ليس معنا مفتاح، أليس الأمر على ذلك النحو؟» أومأتُ موافقًا.

«والآن لنفترض أنك أنت، في الحقيقة، صاحب ذلك المنزل، ومع ذلك لم تستطع الدخول إليه، ولم تضمر في نفسك أن تقتحم المنزل، فماذا كنت ستفعل؟».

«ينبغي لي عندئذٍ أن أبحث عن صانع أقفال حسن السمعة، وأكلِّفُه بأن يفتح لي القفل بطريقته».

«والشرطة؟ سوف يتدخلون، أليس كذلك؟».

«أوه، لا! فلن يتدخلوا إذا ما عرفوا أن الرجل مكلَّفٌ بفتح قفل الباب بطريقة قانونية».

نظر إليَّ بإمعان وهو يتحدَّث وقال: «إذن، فمَوَاطِنُ الريبة تنحصر في نية الشخص الذي كلَّف صانع الأقفال بالمهمة، وكذلك اقتناع أفراد الشرطة فيما إذا كان ذلك الشخص صاحب نية طيبة أو شنيعة. لا بد أن أفراد شرطتكم بالفعل رجال متحمسون وأذكياء - أوه، أذكياء جدًا! - في قراءة نوايا القلوب، حتى يزعجوا أنفسهم بهكذا مسألة. لا، لا، يا صديقي جوناثان، اذهب واخلع أقفال مئة منزل فارغ من ساكنيه في لندنكم هذه، أو في أي مدينة أخرى في العالم، وإذا ما فعلتَ ذلك بالطريقة الصحيحة التي تُفْعَلُ بها مثل هذه الأشياء، وفي الوقت المناسب، فما من أحد سيتدخل. لقد قرأت عن

سيِّدٍ كان يملك منزلًا جميلًا جدًا في لندن، وعندما ذهب في أشهر الصيف إلى سويسرا وأغلق منزله، جاءَ لصٌّ وكسر النافذة من الجهة الخلفية ودخله. ثم ذهب وفتح درفات النوافذ في واجهة المنزل وخرج من الباب ودخل منه أمام أعين الشرطة. ومن ثم أعْلَنَ عن مزادٍ في ذلك المنزل، ورفع يافطة كبيرة، وعندما جاء موعد المزاد باع عن طريق وكيل مزادات معروف كل الأغراض التي تعود ملكيتها لصاحب المنزل الأصلي. ثم ذهب إلى مقاولِ بِنَاء وباعه المنزل، وأبرم معه عقدًا يقوم بموجبه بهدمه ونقل كل نواتج الهدم ضمن مدة معينة. وشرطتك والسلطات الأخرى تساعده قدر استطاعتها. عندما عاد صاحب المنزل الأصلي من عطلته في سويسرا لم يجد سوى حفرة فارغة مكان منزله. وقد جرى ذلك كله بطريقة منظَّمَة، وفي مهمتنا ينبغي لنا أن نكون منظَّمين كذلك. لا ينبغي أن نذهب في وقت مبكر جدًا كي لا نثير استغراب أفراد الشرطة الذين يكون بالهم غير منشغل بكثير من القضايا ذلك الحين، ولكن ينبغي لنا أن نذهب بعد الساعة العاشرة، عندما يكون هناك الكثير من الخلق في الشارع، وسوف نقوم بهذه الأشياء كما لو كنا بالفعل أصحاب المنزل».

لم يكن بوسعي إلا أن أتفق مع صحة ما قاله، انفرجت أسارير مينا وزال عنها القلق الفظيع بدرجة خفيفة، فهناك أملٌ في مثل هذا الرأي السديد. تابع ڤان هيلسنغ قائلًا:

«وحالما نعثر في ذلك المنزل على أي قرائن إضافية، يمكن للبعض منا البقاء هناك بينما يجد الباقون الأماكن الأخرى التي وضَعَ فيها باقي صناديق التراب في بيرمونزي ومايل إند».

وقف اللورد غودالمنغ وقال: «يمكنني أن أفيدكم في هذه الناحية، سأرسل برقيات إلى أتباعي وأطلب منهم تجهيز الخيل والعربات في موضع تكون فيه في متناول أيدينا». فقال كوينسي مورِس:

«اسمعني يا صاحبي، إنها لفكرة خطرة أن تجهِّز كل الخيل والعربات في حال أردنا الذهاب على ظهور الخيل، ألا تظن بأن إحدى عرباتك عندما تسير وهي تتبارق بزينتها التي تحمل شعارات أسرتك في طريق فرعي في وُولوِرْث أو مايل إند ستثير مقدارًا كبيرًا من الانتباه وتفشل مهمتنا؟ يبدو لي أنه علينا أن نستعين بعربات عمومية مستأجرة عندما نذهب جنوبًا أو شرقًا في لندن، وأن نتركها حتَّى في مكان قريبٍ من الحي الذي نتوجَّه إليه».

قال البروفسور: «صديقَنا كوينسي محق! إن عقله يحلق في الأفق كما يقال. الأمر الذي سنقوم به صعب جدًا، ولكننا نريد للناس أن يرونا وكأننا نفعل ذلك بصورة طبيعية».

زاد اهتمام مينا في كل تفصيل، وأفرَحني أن أرى استعجالنا في بدء المهمة وقد ساعدها على نسيان التجربة الرهيبة التي مرَّت بها في الليل. فقد كانت شاحبة جدًا، وهزيلة لدرجة أنَّ شفتيها اللتين تراجعتا إلى الخلف كشفتا عن أسنان بارزة بطريقة ما. لم أذكر هذه الملاحظة الأخيرة، كيلا تسبب لها ألمًا هي في غنى عنه، ولكن الدم برد في عروقي إذ تذكَّرتُ ما حصل مع لوسي المسكينة عندما مصَّ الكونت دمها. وحتى الآن لا يوجد علامة على احتداد أسنان مينا، ولكن الوقت مع ذلك ما يزال قصيرًا، وهناك وقت للخوف.

عندما وصلنا إلى مناقشة تسلسل مهامنا وتنسيق قوانا، ظهرت عوامل تشكيك جديدة. وقد وافقنا في نهاية الأمر بأنه ينبغي لنا القَضَاء على أوكار الكونت القريبة منا قبل أن ننطلق إلى منزل شارع البيكاديللي. وفي حال اكتَشَفَ أننا فعلنا ذلك في القريب العاجل، فإننا نكون رغم ذلك قد سبقناه في عملية قضائنا عليها، ومن ثم فإنَّ حضوره بشكله المادي الصرف، وهو في أضعف حالاته، قد يوفر لنا بعض الدلائل الجديدة.

أما بالنسبة لتنسيق قوانا، فقد اقترح البروفسور ڤان هيلسنغ أنه ينبغي لنا بعد التوجُّه إلى منزل كارفاكس أن ندخل جميعًا إلى منزل البيكاديللي، وأن أبقى أنا وڤان هيلسنغ وسيورد هناك، بينما يذهب اللورد غودالمنغ وكوينسي للبحث عن الأوكار الأخرى في وُولوِرْث ومايل إند ويتخلَّصا منها. وأكَّد البروفسور أنه من الممكن، إن لم يكن على الأرجح، أن الكونت قد يظهر في منزل البيكاديللي أثناء النهار، وأنه إذا حصل ذلك فإنه يمكننا أن نواجهه ونتغلب عليه فورًا. وعلى أي حال، ربما نكون قادرين على أن نوازيه في قوتنا جميعًا. اعترضتُ على هذه الخطة بشدة، وخصوصًا على مسألة ذهابي معهم إلى البيكاديللي، لأني قلتُ بأني أنوي البقاء وحماية مينا، وقد حسبت أني حزمت أمري في هذا الجانب، ولكن مينا ما كانت لتصغي لاعتراضي. قالت إنه ربَّما يكون هناك بعض المسائل القانونية التي يمكن أن أفيدهم فيها، فربَّما يوجد ضمن أوراق الكونت بعض القرائن التي أستطيع أن أفهمها نتيجةَ تجربتي في ترانسلڤينيا، وأننا، كما هو الحال، نحتاج إلى كل القوة التي نستطيع أن نحشدها لمواجهة

قوة الكونت غير العادية. اضطررت لأن أذعن، إذ كان قرار مينا صارمًا، وقالت إن أملها الأخير يتمثل في أن نعمل كلنا معًا. وأضافت: «من ناحيتي، لست خائفة. فلا يمكن للأمور أن تكون أسوأ مما حصل حتى الآن، وأيًا يكن ما سيحدث فلا بدَّ أن يكون فيه عنصر من عناصر الأمل أو الطمأنينة. امض، يا زوجي! فالله قادرٌ، إذا شاء، على أن يحميني وحدي مثلما يحميني لو كان معي أي شخص آخر». لذا نهضتُ وأنا أصيح: «إذن دعونا باسم الله نذهب من فورنا، لأن الوقت ليس في صالحنا. فربما يأتي الكونت إلى منزل البيكاديللي أبكر مما نظن».

«الأمر ليس كذلك!» قال ڤان هيلسنغ وهو يرفع يده. فسألتُه:

«ولكن لماذا؟»، فقال بابتسامة فعلية:

«أنسيتَ أنه تناول في الليلة الفائتة وليمةً دسمةً، وسينام حتى وقت متأخِّر؟».

أنسيتُ! وهل لي أن أنسى ما حييت، بل هل أستطيع أن أنسى ما حييت! أيمكن لأحدٍ منَّا أن ينسى بقية عمره ذلك المشهد الرهيب! واجهت مينا صعوبةً حتى تحافظ على ملامح الشَّجَاعة على محيَّاها، بيد أن الألم غلبها ووضعت يديها على وجهها، وارتجفت وهي تئن. لم يكن ڤان هيلسنغ ينوي أن يذكِّرَها بتجربتها المخيفة. فقد كان ببساطة قد نسيها ونسي دورها في القضية في ظل انشغاله بالتفكير في الخطة القادمة. وعندما صَعَقَه ما قالَتْه، ارتعب بسبب عدم اكتراثه وحاول أن يطمئنها وقال: «أوه يا سيِّدة مينا، يا عزيزتي

الغالية السيدة مينا، وا أسفاه! وا أسفاه أن أكون أنا من بين أولئك الذين يكنُّون لكِ كل الإجلال من يقول شيئًا ينبغي لكِ أن تنسيه تمامًا. إنَّ شفتيَّ الهرمتين الغبيتين هاتين وهذا الرأس العجوز الأحمق لا يستحقان ذلك، ولكنك ستنسين ما قلتُه، أليس كذلك؟». ثم انحنى قربها وهو يتكلم، وأمسكَتْ يده، وقالت ببحة وهي تنظر إليه وقد ترقرقت عيناها بالدموع:

«لا، لن أنسى، بل إنه لأمر حسن أن أتذكر، ورغم ما قُلْتَه فلدي الكثير الكثير في ذاكرتي من الذكريات العطرة عنك، حتى إني أقبل منك الحلو والمر معًا. والآن، عليكم أن تذهبوا جميعًا في الحال، فالفطور جاهز، وعلينا أن نأكل حتى نكون أقوياء».

كان الفطور وجبة غريبة لنا جميعًا. حاولنا أن نكون فرحين وأن يشجِّع أحدنا الآخر، وكانت مينا أكثرنا إشراقًا وبهجة. وعندما فرغنا، وقف ڤان هيلسنغ وقال:

«والآن يا أصدقائي الأعزاء، فلنمضِ إلى مهمتنا الرهيبة. أكلنا مسلحون، كما كنا في تلك الليلة التي ذهبنا فيها أول مرة إلى وكر عدوِّنا، ضد هجوم عدو مخيف وبه شهوة لدمائنا؟» فأكَّدْنَا له جميعًا أننا تسلَّحْنَا، فقال: «حسنًا إذن. والآن يا سيِّدة مينا، أنتِ بكل الأحوال في مأمن تام هنا حتى الغروب، وسوف نعود قبيل ذلك - هذا إذا عدنا! ولكن قبل أن نذهب دعيني أراكِ وقد تسلَّحتِ لتحمي نفسكِ. فقد هيَّأتُ حجرَتَك بنفسي منذ أن سقطتِ، ووضعتُ فيها الأشياء التي نعرفها، بحيث لن يستطيع أن يدخل

إليها. والآن دعيني أمدُّك بأسباب حمايتك. فسألمس جبينك بهذه القطعة من الخبز المقدَّس باسم الآب، والابن، والر...».

سمِعْنَا صوتَ صرخةٍ مخيفةٍ كادتْ تُجمِّدُ قلوبَنَا من شدَّتِهَا. فلما وَضَعَ قطعة الخبز على جبهة مينا، كوتها، واحترقت في اللحم وكأنها قطعة من المعدن المحمَّى. لقد أوحَى عقل عزيزتي المسكينة مينا لها بأهمية ما حصل بسرعة حالما استقبَلَتْ أعصابُها الألمَ الذي أحدثته قطعة الخبز، واجتاحها الألم الذي تنبَّه له عقلُها وأعصابُها بصورة شديدة إلى أن أطلَقَتْ طبيعتُها المنهكة العنان لصوتها في تلك الصرخة الرهيبة. ولكن الكلمات جاءت إلى عقلها بسرعة، ولم يتوقف صدى الصرخة عن الرنين في الجو عندما جاءت ردة الفعل، وجثت على ركبتيها على الأرض في خنوع كئيب. ثم انتحَبَتْ وهي تسحب شعرها الجميل فوق وجهها، كما اعتاد المجذوم في الأيام الغابرة أن يسحب عباءته ليغطي بها وجهه، وقالت:

«دَنِسةٌ! دَنِسةٌ! فحتى الله القدير يتحاشَى جسدي المدنَّس! وعليَّ أن أحمل وصمة العار هذه على جبيني حتى يوم القيامة». صمَتُوا جميعًا. رميتُ نفسي قربها يعتصرني الألم في حزنٍ يائسٍ، وأمسكْتُهَا بإحكامٍ واضعًا ذراعي حولها. نبض قلبانا المليئان بالحزن معًا بضع دقائق، بينما أشاح الأصدقاءُ عنا بوجوههم وقد سالت دموعهم بصمت. التفتَ ڤان هيلسنغ وقال بجدية بالغة جدًا حتى إني لم أستطع سوى أن أشعر بأنه كان يُوحَى إليه بطريقة ما، وأنه كان يقول أشياء ليست صادرة عنه:

«قد يكون الأمر أنك ربما ستحملين تلك الوصمة إلى أن يشاء الله ويقرر مصيرها، كما يفعل بالتأكيد في يوم القيامة، لإصلاح كل أخطاء الأرض وأخطاء أبنائه الذين وضعهم عليها. وأوه، يا سيدة مينا، يا عزيزتي، يا عزيزتي، وربما نكون نحن أحباؤك هناك لنشهد اختفاء تلك الندبة الحمراء، العلامة التي تعد برهانًا على معرفة الله بما حصل، وستترك جبينك صافيًا صفاء قلبك الذي نعرف. لأنه بالتأكيد ونحن لا نزال أحياء، فإنَّ تلْك الندبة ستختفي عندما يساعد الله في رفع العبء الصعب عن ظهورنا. وحتى ذلك الحين فإننا سنحمل صليبنا، كما فعل ابنُه ذلك طاعةً لمشيئته. وربما نكونُ نحن وسائل اصطفانا بفضله العظيم، وسننصاع إلى أوامره مثلما فعل ابنُه من خلال آثار السياط وعار الخيانة، من خلال الدموع والدم، من خلال الشكوك والمخاوف وكل الأمور التي تجعل من الله مختلفًا عن الإنسان».

بثت كلماته الأمل والطمأنينة، وأرست السكينة في النفس. شعرتُ ومينا بذلك، وفي الوقت نفسه أمسك كل منا بإحدى يدي العجوز وانحنينا وقبَّلناهما. ومن ثم ودون أن ننطق بكلمة ركعنا جميعًا، ممسكين أيدي بعضنا البعض، وأقسمنا على أن نكون صادقين أحدُنا مع الآخر. وأقسمنا، نحن الرجال، على أن نرفع غشاوة الحزن عن رأس هذه السيدة التي نحبها كلٌّ بطريقته الخاصة، ودعونا الله طلبًا للعون والإرشاد في المهمة الرهيبة التي تنتظرنا.

حان وقت بدء مهمتنا إذن. ولذا فقد ودَّعتُ مينا وداعًا لن ننساه كلانا حتى يوم مماتنا، وانطلقنا.

حزمت أمري على شيء واحد: إذا تبيَّن لنا بأنه لا مناص من تحوُّل مينا إلى مصاص دماء في نهاية الأمر، فعندئذٍ لن تذهب إلى تلك الديار المجهولة والرهيبة وحدها. ولذا فإني أظن أن وجود مصاص دماء واحد في الزمن الغابر يعني وجود العديد منهم، ونظرًا لأنَّ أجسادهم الشنيعة تستطيع أن ترقد فقط في ترابٍ مقدَّس، ولذا فإن الحب الأقدس كان العامل المحدِّد لمراتبهم المفزعة.

دخلنا منزل كارفاكس دون مشاكل ووجدنا كل الأشياء على حالها مثلما كانت في أول مرة دخلناه فيها. كان من الصعب أن نصدِّق أنه في هذا المكان المبتذل جدًا الذي يعج بالإهمال والغبار والتعفن يكمن سر ذلك الخوف الذي نعرفه سلفًا. ولو لم نكن قد اتخذنا قرارنا، ولو لم يكن هناك ذكريات فظيعة تحثنا على الاستمرار، لكنا بالكاد تابعنا مهمتنا. لم نعثر على أي أوراق، أو أي علامة على استخدام المنزل، وفي الكنيسة الصغيرة العتيقة بدت الصناديق الضخمة على حالها تمامًا مثلما رأيناها آخر مرة. قال لنا الدكتور ڤان هيلسنغ بجدية بالغة ونحن نقف أمام الصناديق:

«والآن يا أصدقائي، لدينا واجب نؤديه هنا. علينا أن نطهِّر هذا التراب المحمل بالذكريات المقدسة والذي أحْضَرَه من أرض بعيدة جدًا ليستغله في سبيل غايته الدنيئة. لقد اختار هذا التراب لأنه تراب مقدَّس. ولذا فنحن نهزمه بسلاحه ذاته، لأننا سنجعله أقدس مما هو عليه. لقد طُهِّر هذا التراب لفائدة الإنسان، وها نحن الآن نطهِّره لله». بينما قال ذلك أخرج من حقيبته مفكًا ومفتاح ربطٍ، وما هي إلَّا لحظات وفتح الغطاء العلوي لصندوق من الصناديق. ففاحت

من التراب رائحةٌ عفنة وخانقة، ولكن لم يبدُ علينا أي علامةٍ من علامات الاكتراث، لأن انتباهنا كان متركزًا على البروفسور الذي أخرج من حقيبته قطعة من الخبز المقدَّس ووضعها بإجلال على التراب، ومن ثم أغلق الغطاء وبدأ يثبته في موضعه بالمفك، ونحن نساعده أثناء عمله.

تعاملنا واحدًا إثر آخر بالطريقة ذاتها مع كل صندوق من الصناديق الضخمة، وتركناها مثلما وجدناها على ظاهرها، ولكن في كل واحد منها وضعنا قطعة من الخبز المقدَّس.

وبعد أن أغلقنا الباب وراءنا، قال البروفسور بجدية بالغة:

«لقد أنجزنا الكثير الكثير حتى الآن. وإذا حصل أن حققنا نجاحًا كبيرًا نحن وأصحابنا في المنازل الأخرى، فعندها قد تغرب الشمس مساء اليوم وقد أشرق جبين السيدة مينا وهو أبيض مثل العاج ودونها لطخة من دنسٍ!».

وبينما عبرنا المرج ونحن في طريقنا إلى المحطة لنلحق بالقطار رأينا واجهة المصحة. فنظرتُ بحماسة، ورأيتُ مينا في نافذة غرفتي. لوَّحتُ لها بيدي، وأومأت لها لأبلغها بأن مهمتنا هناك أنجزت بنجاح. فأومأتْ ردًا عليَّ لتظهر لي أنها فهمت إشارتي. كان آخر ما رأيت هو منظرها وهي تلوح بيدها مودعة. وبقلوب مثقلة هرعنا إلى المحطة ولحقنا في آخر لحظة بالقطار الذي كان يدخل مطلقًا زفير محركه البخاري لحظة وصولنا الرصيف.

وقد كتبتُ هذه المذكرات في القطار.

بيكاديللي، الساعة ١٢:٣٠ - قبل لحظات من وصولنا إلى شارع فِنْتشرش قال لي اللورد غودالمنغ:

«سأبحث أنا وكوينسي عن صانع أقفال. ويفضَّل ألَّا تأتي معنا في حال واجَهَت مهمَّتَنَا أيُّ معيقات، لأنه في ظل مثل تلك الظروف فلن يبدو منظرنا سيئًا جدًا ونحن نقتحمُ منزلًا فارغًا. ولكنك محامٍ وربما يقول لكَ اتحاد المحامين إنه كان ينبغي لكَ أن تعرف القانونَ أكثر». اعترضتُ على عدم إشراكي في أي مهمة خطرة، ورغم الاعتراض مضى يقول: «بالإضافة إلى ذلك، فلن نثير الانتباه كثيرًا إذا كان عددنا قليلًا. إن مكانتي الاجتماعية كلورد ستيِّسر الأمور مع صانع الأقفال، ومع أي شرطي قد يعترض طريقنا. والأفضل لكَ أنْ تذهب مع جاك والبروفسور والبقاء في متنزَّه غرين پارك، في موقع لا يغيب منه المنزل عن ناظريك، وعندما ترون الباب مفتوحًا بعد خروج صانع الأقفال، تعالوا جميعًا. سوف نترقب قدومكم، ونفتح لكم الباب حتى تدخلوا».

«ونِعْمَ الرأي!» قال ڤان هيلسنغ، ولذا لم نزد على ما قاله. أسرع غودالمنغ وكوينسي مورِس في عربة أجرة، وتبعناهما في أخرى. نزَلَتْ مجموعتنا من العربة عند زاوية شارع آرْلِنْغتُنْ وتمشَّينا إلى داخل متنزَّه غرين پارك. تسارعت دقَّات قلبي إذ رأيتُ المنزل الذي نعلِّقُ عليه مقدارًا كبيرًا من آمالنا، وهو ينتصب متجهمًا وصامتًا ومهجورًا وسط المنازل المجاورة له الأكثر حيوية وذات المظهر الأكثر أناقة منه. جلسنا على مقعدٍ ذي إطلالة جيِّدة على المنزل، وبدأنا تدخين السيجارات حتى نلفت أقل انتباه ممكن.

بَدَت الدقائق وكأنها تسير بأقدام ثقيلة الوطأة ونحن ننتظر مجيء الآخرين.

بعد طول انتظار، رأينا عربةً رباعية العجلات تصل إلى المكان، ونزل منها بأسلوبٍ متأنٍ، اللورد غودالمنغ وكوينسي مورِس، كما نزل من صندوقها صانع أقفال مكتنز الجسم يحمل سلةً وقد وضع فيها أدواته. دفع كوينسي مورِس أجرة العربة للحوذي الذي شكَرَهُ واضعًا يده على قبَّعَته ثمَّ انطلق. صعد كلاهما الدَّرَج، وأوضَحَ اللورد غودالمنغ لصانع الأقفال ما المطلوب منه. فخلع معطفه بصورة متأنية وعلَّقَه على إحدى قضبان الدرابزون، وقال كلماتٍ ما لشرطيٍّ كان يتمشَّى في تلك اللحظة بالتحديد. أومأ الشرطي برأسه موافقًا، ووضع الرجل سلته بجانبه وجثا. وبعد أن بحث فيها، أخرج منها مجموعة أدوات وضعها بجانبه بأسلوب منظَّم. ومن ثم وقَفَ، ونظر في ثقب مفتاح الباب، وضرب عليه ضربة خفيفة، ثم نظر إلى اللورد غودالمنغ وكوينسي مورِس، وأبدى ملحوظة ما. ابتسم اللورد غودالمنغ، ورفع الرجل مجموعةً كبيرة الحجم من المفاتيح، وانتقى منها واحدًا، وبدأ يفحص القفل وكأنه يتلمَّس طريقه به. وبعد أن تلمس على غير هدى لقليل من الوقت جرَّب مفتاحًا ثانيًا، ومن ثم ثالثًا. ثم فتح الباب بتأثير دفعة خفيفة منه، ودخل الصالة ومعه اللورد غودالمنغ وكوينسي مورِس. جلَسْنَا صامِتِيْن وسيجاري يشتعل بشدة، ولكن سيجار ڤان هيلسنغ انطفأ تمامًا. انتظرنا بصبر إلى أن رأينا العامل يخرج محضرًا سلَّته. ثم أبقى الباب مفتوحًا بصورة جزئية، وثبَّتَه بركبتيه، بينما انتقى مفتاحًا متناسبًا مع القفل. وأخيرًا

سلَّم هذا المفتاح للورد غودالمنغ، الذي أخرج محفظة نقوده وأعطاه مبلغًا ما. وضع صانع الأقفال يده على قبعته، وحمل سلَّته ثم ارتدى معطَفه على عجل وغادر، عدّت العملية كلها دون أن ينتبه عليها ولو مخلوق واحد.

بعد أن غادر الرجل بمدة لا بأس بها، عبرنا ثلاثتُنَا الشارع وقرعنا الباب. فتحه كوينسي مورِس في الحال، ووقف بجانبه اللورد غودالمنغ وهو يشعل سيجارًا وقال ونحن ندخل:

«تفوح من المكان رائحة كريهة جدًا». كانت الرائحة كريهة جدًا بالفعل، مثل رائحة الكنيسة الصغيرة في منزل كارفاكس. وكان واضحًا لنا من خلال خبرتنا السابقة أن الكونت ظل يستخدم المنزل بكامل حريته نوعًا ما. باشرنا استكشاف المنزل، وكلُّنا قريبون من بعضنا تحسبًا للتعرُّض لهجوم، حيث ندرك أننا نواجه عدوًا قويًا وماكرًا، وحتى الآن لا نعرف إذا كان الكونت في المنزل أم لا. وجدنا ثمانية صناديق من التراب في غرفة الطعام التي تقع في آخر الصالة، ثمانية صناديق فقط من أصل تسعة! لم تنتهِ مهمتنا، ولن تنتهي أبدًا حتى نجد الصندوق المفقود. فتحنا أولًا ستائر النافذة التي تطل على ساحةٍ مرصوفة بالحجارة عند واجهة إسطبل شاغرة ومدببة بحيث بدت على شكل واجهة مجسَّم منزل صغير. لم يكن فيها أي نوافذ، لذا لم نخشَ أن يرانا أحد. لم نضيِّع أيَّ وقتٍ في فحص الصناديق. فتحناها صندوقًا صندوقًا بالأدوات التي كنَّا قد أحضرناها معنا، وتعاملنا معها مثلما تعاملنا مع الصناديق الأخرى في الكنيسة الصغيرة العتيقة في

منزل كارفاكس. كان من الواضح لنا أن الكونت لم يكن حينئذٍ في المنزل، فتابعنا البحث عن مقتنياته.

بعد نظرة عابرة على بقية الغرف، من القبو حتى العلية، استنتجنا أنَّ غرفة الطعام تحتوي المقتنيات التي تخص الكونت، لذا باشرنا فحصَ ما فيها فحصًا دقيقًا، وقد وُضِعَتْ في فوضى منظَّمة على المائدة الضخمة في غرفة الطعام. كان من بين المقتنيات صكوك ملكية منزل الپكاديللي في رزمة ضخمة، وعقود شراء المنزلين في مايل إند وبيرمونزي، وأوراق كتابة ملحوظات، ومظاريف، وأقلام وحبر. كانت جميعها مغطاة بورق تغليف رقيق حتى يحميها من الغبار. كما كان هناك أيضًا فرشاة ثياب، وفرشاة شعر ومشط، وإبريق وطست، وفي الطست ماءٌ متَّسخٌ بحمرة وكأنها حمرة دم. آخر ما وجدناه من مقتنياته كومة صغيرة من المفاتيح من مختلف الأنواع والقياسات، وهي على الأرجح مفاتيح المنازل الأخرى. وبعد أن تفحَّصْنَا كومة المفاتيح حفظ اللورد غودالمنغ وكوينسي مورِس بدقة العناوين المختلفة للمنزلين الواقعين في شرق لندن وجنوبها، وأخذا معهما المفاتيح في مجموعة كبيرة، وانطلقا للتخلُّص من الصناديق في هذين المنزلين. أما بقيتنا فبقينا بكل ما أوتينا من صبر ننتظر عودتهما أو مجيء الكونت.

الفصل الثالث والعشرون

مذكِّرات الدكتور سيوِرْد

٣ أكتوبر- بدَا الوقتُ طويلًا على نحوٍ رهيب حينما كنا ننتظر قدوم اللورد غودالمنغ وكوينسي مورِس. حاول البروفسور أثناء ذلك أن يبقي أذهاننا مُتَّقِدَةً من خلال حثنا على استخدامها طوال الوقت. وقد أدركتُ الغاية النبيلة لنظراته الجانبية التي رَمَقَ بها جوناثان هاركر من وقتٍ لآخر. إذ طغى على صاحبَنا المسكين، بؤسٌ يفزع الناظر إليه. كان البارحة منطلق اللسان، طلق المحيًّا، يفيض طاقةً، ويشع وجهه قوة وحيوية، كما يعلو رأسه شعر داكن بني. أما اليوم فبدا عجوزًا شاحبًا متعبًا، وقد تلاءم شعرُه الأبيض مع عينيه المحمرَّتين الغائرتين، والتجاعيد التي خطَّهَا الحزن في وجهه. لا تزال طاقته سليمة، بل في الواقع إنه مثل نارٍ مشتعلة. وقد يكون في طاقته هذه خلاصه، لأنَّهَا سوف تساعده على تجاوز هذه المرحلة اليائسة إذا جرت الأمور على ما يرام. بعد ذلك، وبطريقة ما، سوف يستيقظ مرة أخرى علىَ واقعية الحياة. يا لصاحبي المسكين! لقد ظننتُ أنَّ همومي فيها ما يكفي من السوء ويزيد، ولكنَّ همومه...! يعرف البروفسور ذلك جيدًا، وهو يبذل أقصى جهوده ليبقى عقله

متيقظًا. كانت الأشياء التي يقولها في ظل الظروف الراهنة مثيرة للاهتمام. وهذا ما أسعفتني ذاكرتي على استحضاره من حديثه:

«لقد درستُ كلَّ وثائق اليوميَّات المتعلِّقة بهذا الوحش مرارًا وتكرارًا منذ أن وصَلتْ إلى يدي، وكلَّما تعمَّقْتُ فيها، عَظُمَتْ في ذهني ضرورة سحقه. كل ذلك يشير إلى وجود علاماتٍ تدل على تفوقه علينا، ليس في قوته وحسب، بل حتى في معرفته بهذه القوة. وكما علمتُ من أبحاث صديقي أرمينيوس في بودا-بست، فقد كان أثناء حياته إنسانًا من أروع الناس. إذ كان جنديًا، ورجل دولة، وخيميائيًا، دون أن يغيب عن بالنا أنَّ حرفة الخيميائي كانت أعلى درجات التطوُّر في المعرفة العلمية في زمانه. كان يمتلك عقلًا خارقًا ومعرفة تفوق الوصف، كما كان ذا قلبٍ لم يعرف الخوف أو الندم. لا بل إنَّه بلغ من الجرأة مبلغًا جعله يدرس في مدرسة سكولومانس، ولم يبقَ فرعٌ من فروع المعرفة في زمانه إلَّا وخاض فيه. وقد نَجَتْ قدراته الذهنية من الفناء الجسدي في واقع الحال، رغم أن ذاكرته لا تبدو مكتملة. ففي بعض قدراته العقلية، كان ولا يزال طفلًا فحسب، ولكنه ينمو، وتنمو بعض هذه القدرات التي كانت طفولية في البداية وثم انتقلت إلى طور الرجولة الآن. وهو يجرِّبها ويبلي فيها بلاءً حسنًا، ولو لم نقف عائقًا في طريقه فإنه كان سيصير مع ذلك -وسيصير إذا فشلنا في مهمتنا- الأب أو السَّلَف لرُتْبَةٍ جديدة من الكائنات، دروبها تؤدي إلى الموت لا الحياة».

أنَّ هاركر وقال: «وكل هذه القدرات اصطفَّتْ ضد غاليتي مينا! ولكن كيف يجرِّبها؟ فمعرفتنا بذلك قد تساعدنا على هزيمته!».

«ظل طوال المدة منذ مجيئه يجربها بتأنٍ ولكن بثقة، فذلك العقل الطفولي الكبير الذي يملكه يؤدِّي وظيفته. فمن صالحنا حتى الآن أنه عقل طفولي، فلو أنه تجرَّأ منذ البداية على تجريب مهاراتٍ معيَّنة لكَان تفوَّق على قوتنا منذ زمن طويل. وهو يضع النجاح في محاولاته هذه نصب عينيه، فليس بإمكان رجلٍ أمامه قرون يعيشُها سوى أن يتريَّث وينفِّذ مخططاته ببطء. وربما اتَّخَذ شعار «أَسْرِعْ بتروٍ» شعارًا له.

قال جوناثان هاركر متثاقلًا: «لم أفهم ما قُلْتَه، أوه! هلَّا أوضحتَ لي أكثر! فربَّما أتْعَبَ الحزنُ والهمُّ قدرتي على الفهم».

وضع البروفسور يده بلطف على كتفه وهو يقول:

«نعم يا بنيَّ، سأكون واضحًا. ألم ترَ مؤخرًا كيف أن هذا الوحش يزحف نحو المعرفة بطريقة تجريبية! وكيف استفاد من المريض، آكل الحيوانات الحيَّة، كي ينجح في الدخول إلى مصحَّة صديقنا جون، لأن مصَّاص الدِّماء هذا لكي يدخل إلى أي مكانٍ أول مرة فيجب أن تتم دعوته من قبل شخص مقيم فيه، رغم أنه يستطيع بعد ذلك أن يأتي متى يشاء وكيفما يريد. ولكنَّ هذه ليست أهم التجارب التي قام بها. ألمْ نرَ كيف نَقَلَ أشخاصٌ آخرون الصناديق الضخمة في البداية، لأنَّه لم يكن يعرِف أن نَقْلَهَا يمكن أن يتم بطريقة سوى ذلك. ولكن عقله الطفولي العظيم جدًا والذي استمر في النمو، بدأ يدرك إمكانية قيامه بنقل الصندوق بنفسه. لذا في البداية قام بمساعدة الحمَّالين، ومن ثمَّ، عندما وجد بأنه يستطيع

ذلك بصورة جيدة، حاول أن ينقلها وحده. وهكذا تطوَّر تفكيرُه، فنشَرَ هذه القبور التي يمكث فيها، والتي لا يعرف أحدٌ سواه أين مخابئها. وربما عمد إلى دفنها في أعماق الأرض، بحيث يتسنَّى له أن يستخدمها فقط في الليل، أو في أي وقت يستطيع فيه تغيير هيئته، وهي تفيدُه بدرجة مساوية، ولا يمكن لأحدٍ أن يعرف أنَّهَا مخبأه! ولكن لا تيأس يا بنيَّ، فهذه المعرفة لم تأتِهِ إلا بعد أن فات الأوان كثيرًا! فقد طُهّرت كل أوكاره سلفًا ولم يبقَ منها سوى وكر واحد يلجأ إليه، وسيتم تطهيره قبل الغروب. وعندئذٍ لن يكون أمامه مكانٌ يمكنه أن يذهب إليه ويختبئ فيه. وقد أجَّلْتُ ذلك هذا الصباح حتى يتسنى لنا أن نكون على بيِّنَة. أولَسْنَا معرضين للخطر أكثر منه؟ فلماذا لا نتوخى الحذر أكثر منه؟ الساعة الآن الواحدة كما تشير ساعتي، والصديقان أرثر وكوينسي في طريقهما إلينا لو جرى كل شيء على ما يرام. اليوم يومنا، ويجب أن نمضي في مهمتنا مطمئنين وألا نضيع أي فرصة، حتَّى ولو كان تقدُّمُنَا بطيئًا. أترون! سنصير خمسة رجال عندما يعود هذان الغائبان».

بينما كان يتكلم أفزَعَتْنَا طرقةٌ على باب الصالة، الدقة المزدوجة المعروفة لساعي البريد حامل البرقيَّات. ذهبنا جميعًا إلى الصالة دُفْعَةً واحدة، وخطا ڤان هيلسنغ نحو الباب وهو يرفَعُ يده مشيرًا لنا بالتزام الصمت، ثم فتحه. سلَّمَه الفتى البرقية. أغلق ڤان هيلسنغ البابَ مرة أخرى، وبعد أن نظر إلى الاسم والعنوان على البرقية، فتَحَها وقرأها بصوت مسموع:

«حذارِ من (د) فقد خرج الآن بالضبط، أي في الساعة ١٢:٤٥

من منزل كارفاكس على عَجَلٍ ومضى مسرعًا نحو الجنوب. يبدو أنه يقوم بجولته وربما يريد أن يراكم: مينا».

خيَّم صمتٌ ما لبث أن كسره صوت جوناثان هاركر وهو يقول:

«الحمد لله، سنلتقي أخيرًا الآن!» فالتفتَ إليه ڤان هيلسنغ بسرعة وقال:

«إن الله ينفذ أمره بطريقته التي يشاء وميعاده الذي يختار. لا تخف، ولا تفرح بعد، فقد يكون ما نتمنَّاه في هذه اللحظة سبب هلاكنا».

فأجاب جوناثان بحماسة: «لستُ أكترث بشيء الآن، ولا يهمني سوى محو هذا الوحش عن وجه الأرض. وسأبيع روحي لقاء ذلك!».

قال ڤان هيلسنغ: «أوه، صه! صه! يا بني! إن الله لا يشتري الأرواح بهذه الطريقة. أما الشيطان، رغم أنه قد يشتري الأرواح، لكنه لا يفي بوعوده. لكن الله رحيم وعادل، ويعرف مقدار أَلَمِكَ وإخلاصك لتلك السيِّدة العزيزة مينا. فكِّر كيف سيتضاعف ألمها إذا ما سَمِعَتْ كلماتك المتهوِّرَة. لا تخشَ أيَّ واحدٍ منا، فكلنا مخلصون لهذه القضية، وسوف نشهد نهايتها اليوم. حان وقت العمل، فاليوم قُلِّصَتْ قدرات مصَّاص الدماء هذا وباتت تساوي قدرات إنسان عادي، وسيبقى على هذه الحال حتى الغروب. سيستغرق وقتًا لكي يصل إلى هنا، أترى؟ فالساعة الآن الواحدة وعشرون دقيقة، وما يزال هناك بعض الوقت قبل أن يتمكن من الوصول إلى هنا،

فهو ليس سريعًا جدًا. وما علينا سوى أن نأمل وصول اللورد أرثر وكوينسي قبله».

بعد مرور نصف ساعة على استلامنا برقية السيِّدة مينا هاركر، سمعنا صوت طرقة ثابتةٍ وهادئة على باب الصالة. لم تكن سوى طرقة عادية، كتلك التي يطرقها كل ساعة آلاف الرجال المحترمين، ولكنها جعلت قلب البروفسور وقلبي يدقَّان بصوت مرتفع. نظر أحدنا إلى الآخر، وذهبنا معًا إلى داخل الصالة، متأهبين لاستخدام أسلحتنا المختلفة، أسلحتنا الروحيَّة في يسارنا، وأسلحتنا الحربية في يميننا. سَحَبَ ڤان هيلسنغ المزلاج، وترك الباب نصف مفتوح، ثم تراجع إلى الوراء مهيئًا كلتا يديه للانقضاض على الطارق. لا بد أن سرور قلوبنا قد بان في وجوهنا عندما رأينا على الدَّرَج قريبًا من الباب، اللورد غودالمنغ وكوينسي موريس. دخلا سريعًا وأغلقا الباب وراءهما، قال اللورد غودالمنغ، وهما يسيران عبر الصالة:

«الأمور على خير ما يرام. وجَدْنَا كلا المنزلين، وعثرنا على ستَّة صناديق في كل منزل، وتخلَّصْنَا منها جميعها!».

«تخلَّصتُم منها؟» سأل البروفسور.

«جميعها!» لذنا بالصمت دقيقة، ومن ثم قال كوينسي:

«ما من شيء يمكننا القيام به سوى الانتظار هنا. وإذا لم يأتِ، على أي حال، مع حلول الساعة الخامسة، فعلينا أن نرحل، فما من فائدة ترتجى من ترك السيِّدة مينا وحدها بعد الغروب». ثم قال ڤان هيلسنغ الذي ما انفك ينظر في مفكرة جيبه:

«سيصل إلى هنا عمّا قريبٍ. فكِّروا في الأمر مليًا، فوفق برقية السيِّدة مينا ذهب جنوبًا من منزل كارفاكس، وهذا يعني أنه ذهب ليعبر النهر، ولا يمكنه أن يفعل ذلك سوى مع ركود المد، وهو ما يحصل قبل الساعة الواحدة. إن ذهابه جنوبًا يعني أنه حتى الآن مرتاب وحسب، وسيخرج من منزل كارفاكس ويذهب أولًا إلى المنزل الذي يشتبه باقتحامنا له بدرجة أقل من غيره. ولا بد أنكما كنتما في بيرمونزي قبل مدة قصيرة فقط من وصوله. وعدم وصوله إلى هنا بعد إنما يدل على أنه ذهب إلى منزل مايل إند بعد ذلك. وقد استغرق ذلك منه بعض الوقت، لأنه سيضطر بعدئذٍ إلى عبور النهر بطريقة ما. صدِّقوني يا أصدقائي، لن نضطر إلى الانتظار مدة طويلة الآن. ينبغي لنا أن نجهز خطةً للهجوم عليه، حتى نستبعد أي فرصة له بالنجاة. اششش، لم يعد لدينا وقت، تقلدوا كافة أسلحَتكم! استعدوا!». ثم رفع يده منبِّهًا أثناء حديثه، لأننا سمعنا جميعًا صوت مفتاحٍ يوضع برفق في قفل باب القاعة.

حتَّى في لحظةٍ عصيبةٍ مثل هذه، لا يسعني سوى الإعجاب بالطريقة التي يُثبت فيها المرء قدرته على السيطرة والتحكم بزمام الأمور. في كل رحلاتنا ومغامرات صيدنا في شتَّى بقاع العالم، كان كوينسي مورِس على الدوام الشخص الذي يجهِّز خطة العمل، واعتدنا أنا وأرثر على طاعته دون تردُّد. ويبدو الآن أنَّ تلك العادة القديمة تجدِّد عهدها دون سابق تفكير. فما هي إلَّا نظرة خاطفة في أرجاء المكان إلَّا ونظَّم خطة هجومنا، ودون أن ينطق بكلمةٍ، وزعنا كلٌّ في موقعه بإيماءةٍ منه. تمركزتُ أنا وڤان هيلسنغ وجوناثان

هاركر خلف الباب تمامًا، بحيث يستطيع ڤان هيلسنغ أن يحرس الباب لحظةَ فتحه، بينما نتقدَّم أنا وجوناثان ما بين الشخص القادم والباب. وقف غودالمنغ في الخلف وكوينسي في الأمام في مكانين غير ظاهرين وهما على أهبة الاستعداد للتحرك أمام النافذة. انتَظَرْنَا بتشويق جعل الثواني تمر بطيئة كالكوابيس. تردَّد صدى الخطوات الحذرة البطيئة في أرجاء القاعة، واضحٌ أن الكونت كان مستعدًا لأي مفاجأة، أو على الأقل كان متخوفًا منها.

فجأة وبقفزة واحدة دخل الغرفة، وكسب مسافة أمامنا قبل أن يتمكن أي منَّا من رفع يده ليوقفه. في حركته شيء يشبه حركة النمر، شيء ما غير بشري، حتى بدا أنه جعلنا نستفيق جميعًا من الصدمة التي اعترتنا من مجيئه. أول من تصرف كان جوناثان، رمى نفسه بحركة سريعة أمام الباب المؤدي إلى داخل الغرفة الواقعة في مقدِّمة المنزل. وعندما رآنا الكونت، أطلقَ زمجرةً رهيبةً اكتسحت وجهه، وكشَّر فيها عن أسنانه العلوية الطويلة الحادة، ولكن الابتسامة الشريرة تحولت بسرعة إلى نظرة ازدراء جامدة كنظرة الأسد. تغيَّرَتْ ملامحه مرَّة أخرى عندما تقدَّمنَا كلنا باتجاهه دفعة واحدة. من المؤسف أننا لم ننتهج خطة هجوم منظَّمَة بصورة أفضل، لأني تساءلتُ حتى في هذه اللحظة ما الذي علينا فعله. لم أعرف أنا نفسي إذا ما كانت أسلحتنا القاتلة ستفيدنا في أي شيء. وقد قصَد جوناثان هاركر بصورة واضحة أن يجرب ذلك، إذ كان قد هيَّأ خنجره المعقوف الضخم وانهال عليه بضربةٍ عنيفةٍ مباغتةٍ. كانت ضربة رهيبة، ولم ينقذ الكونت منها سوى سرعة وثبته الشيطانية إلى الوراء. في أقل من

ثانية جزَّ نصل الخنجر القاطع ناحية قلبه. وتبيَّن من نتيجة الضربة أن رأس الخنجر مزَّق قماش معطفه، محدثًا شقًا عريضًا سقطت منه رزمة من الأوراق النقدية وسيلٌ من الذهب. اكتست وجه الكونت ملامح شيطانية رهيبة، حتَّى إني خفتُ للحظة على جوناثان، رغم أني رأيتُه يرفع الخنجر الرهيب عاليًا مرة أخرى ليضربه ثانية. تقدَّمتُ إلى الأمام بصورة غريزية في هجمة وقائية، حاملًا الصليب والخبز المقدَّس في يدي اليسرى، وشعرتُ بقوة جبَّارة تسري بسرعة في ذراعي، ولم أتفاجئ وأنا أرى الوحش ينكمش خوفًا قبل أن يقوم كل واحد منَّا بحركة مماثلة في الوقت نفسه. ومن المستحيل وصف تعابير الكراهية والحيرة الخبيثة – للغضب والسخط الشيطاني التي اجتاحت وجه الكونت، اصفرَّ لونُه الباهت واقترب من درجة الاخضرار نتيجة التباين مع عينيه المتأججتين، وظهرت الندبة الحمراء التي في جبينه مثل جرح نابضٍ فوق بشرته الشاحبة. وفي اللحظة التي تلت ذلك، انسلَّ من تحت ذراع جوناثان في انقضاضة متلوِّية قبل أن تدركه الضربة، وأمسك حفنة من النقود من الأرض، واندفع عبر الغرفة ملقيًا بنفسه من النافذة. ووسط الارتطام ولمعان الزجاج الساقط، تشقلب إلى الساحة المرصوفة في الأسفل. ومن خلال صوت الزجاج المتشظي سمعت «رنين» الذهب إذ سقطت منه بعض الجنيهات على المساحة المرصوفة.

هرعنا فرأيناه يثب عن الأرض دون أن يصاب بأذى. ومن ثم أسرع صاعدًا الدَّرَج، وعَبَرَ الساحة المرصوفة، ثم فتح باب الإسطبل بعنف. وهناك التَفَتَ إلينا وقال:

«تظنون أنكم ستحصرونني مثل نعجة في محل جزَّار، أنتم، يا ذوي الوجوه الشاحبة. ستندمون على ذلك، ستندمون واحدًا واحدًا! تظنون أنكم تركتموني بلا مكان أرقد فيه، ولكن لدي المزيد. بدأ انتقامي للتو! لقد نشرته على مر القرون، والزمن في صفي. فتياتكم اللاتي تحبونهن أصبحن ملكي سلفًا، وعن طريقهن ستصبحون أنتم وغيركم ملكي، ستصبحون مخلوقاتي التي تنفذ أوامري وبنات آوى التي تقتنص لي عندما أريد أن أتغذّى. سحقًا لكم!». وبابتسامة ساخرة مزدرية، اجتاز الباب بسرعة، وسمعنا صرير المزلاج الصدئ وهو يثبِّتُه بعد أن دخل. ومن ثم سمعنا صوت باب يفتح ويغلق. كان البروفسور أول من تكلَّم أثناء سيرنا نحو الصالة بعد أن أدركنا صعوبة اللحاق بالكونت عبر الإسطبل:

«لقد عرَفْنَا معلومة عنه، بل هي معلومة مهمة جدًا! فبالرغم من كلماته الشجاعة، إلا أنه يخافنا، ويخاف مرور الوقت، ويخاف الحاجة! وإذا لم يكن ما أقوله صحيحًا، فلماذا أسرع على هذا النحو؟ إن نبرته المباشرة تفضحه، أو أن أذنيَّ تخدعانني. لماذا أخذ معه ذلك المال؟ افهموها بسرعة، فأنتم صيَّادو حيوانات برية ضارية، وتفهمونها على هذا النحو. من ناحيتي، أنا على يقين بأنه لا يوجد شيء هنا ذو فائدة له، وإذا كان ذلك صحيحًا فإنه سيعود». بينما كان يتكلم وضع المال المتبقي في جيبه، وأخذ صكوك الملكية التي في الرزمة كما تركها جوناثان، وألقى بالأشياء الباقية في الموقد المفتوح، حيث أضرم النار فيها بعود ثقاب.

في أثناء ذلك كان غودالمنغ وموريس قد هرعا إلى الساحة،

ونزل جوناثان هاركر عبر النافذة ليلحق بالكونت. ولكنه كان، على أي حال، قد أغلق مفتاح الإسطبل بالمزلاج، وفي الوقت الذي استطاعوا فيه فتح الباب عنوة لم يعثروا على أي أثر له. حاولتُ وڤان هيلسنغ التحقق في الجزء الخلفي من المنزل، ولكن حوش الإسطبل كان خاويًا ولم يرَه أحدٌ يغادر.

بتنا الآن في أواخر فترة العصر والغروب ليس بعيدًا. علينا أن نعترف بأن لعبتنا انتهت، وبقلوبٍ مُثْقَلةٍ بالخيبة وافَقْنَا البروفسور الرأي عندما قال:

«فلنعد أدراجنا إلى السيِّدة مينا المسكينة التعيسة. فقد فَعَلْنَا الآن كل ما نستطيع، ويمكننا ونحن هناك أن نحميها على الأقل. ولكن لا حاجة بنا إلى اليأس. فما يزال هناك صندوق تراب واحد باق، وعلينا أن نحاول العثور عليه، وعندما نحقق ذلك فإن الأمور ستغدو جيدة». رأيتُ أنه قال ذلك بأعلى درجة من درجات الشجاعة التي أمكنه الوصول إليها ليواسي جوناثان هاركر. فقد كان صاحبنا المسكين منهارًا إلى حدٍّ كبيرٍ، ومن حينٍ لآخر كان يئن أَنَّةً خافتة لم يستطع كبحها؛ كان يفكِّر في زوجته.

عدنا إلى المصحة بقلوبٍ حزينة، ووجدنا السيِّدة مينا هاركر بانتظارنا، تظهر عليها البهجة التي زادت شجاعتها وإيثارها شرفًا. وعندما رأتْ وجوهَنَا، شحب وجهها كالموت: ولثانية أو ثانيتين أغمضت عينيها وكأنها كانت تصلي صلاة سرية، ومن ثم قالت بفرح:

«لن أفيكم جميعًا حقَّكم من الشكر أبدًا، أوه، يا عزيزي المسكين!» بينما كانت تتكلم، أمسكَتْ رأس زوجها الأشيب بين يديها وقبَّلَتْه ثم أردفت قائلة: «ضع رأسك المتعب هنا وأرحه. سيكون كل شيء على ما يرام يا عزيزي! فالله سيحمينا إذا شاءت إرادته الطيبة». تأوَّه صاحبنا جوناثان المسكين، إذ لا مُقَامَ للكلمات في بؤسه الذي لا يداني.

تناولنا سويَّةً عشاءً حُضِّر بلا أي اهتمام، وأحسب أنه أدخل قليلًا من البهجة في نفوسنا نوعًا ما. وقد نكون تناولناه لمجرد الرغبة الحيوانية التي تجتاح الإنسان الجائع -لأن أيًّا منا لم يأكل أي طعام منذ الفطور- أو ربما يكون الإحساس بالصحبة قد ساعدنا على ذلك، ولكننا كنا جميعًا أقل بؤسًا على أي حال، ولم ننظر إلى الغد على أنه بلا أمل نهائيًا. وفينا بما تعاهدنا عليه، وأبلَغْنَا السيِّدة مينا بكل الأحداث التي حصلت معنا، وقد أصْغَتْ بشجاعةٍ وبهدوءٍ ورغم أنها شحبت كبياض الثلج أحيانًا عندما بدا في حديثنا أن الخطر يهدِّد زوجها، وتورَّدَت وجنتاها أحيانًا أخرى عندما ظهر في حديثنا ما يشي بإخلاصه لها. وعندما وصلنا إلى إخبارها باللحظة التي اندفع فيها جوناثان صوب الكونت غير عابئ بالخطر على الإطلاق، تشبَّثَتْ بذراع زوجها، وأمسكتها بقوة وكأن ذلك سيحميه من أي أذى قد يحصل. لم تنطق بكلمة، حتى فرغنا من إبلاغها بكل شيء، ووصَلْنَا في سرد مجريات الأحداث إلى اللحظة الحالية. ومن ثمَّ ودون أن تترك يد زوجها وقفت بيننا وتكلمت. يا إلهي! كيف لي أن أجد العبارات لأصف المشهد، لأصف تلك المرأة الطيِّبَة العذبة

في كل جمالها المتألق المنبعث من شبابها وحيويتها، بندبتها الحمراء على جبينها والتي تعي وجودها، الندبة التي جعلت أسناننا تصر فَزَعًا عندما رأيناها واستذكرنا اللحظة والكيفية التي حصلت فيها. كيف أصف لطافتها الودودة مقابل تجهم الكراهية في وجوهنا، وإيمانها المنبعث من رقة شعورها مقابل كل مخاوفنا وريبتنا. ونحن الذين نعرف -بناء على ما أثبتته العلامات- أنها رغم كل طيبتها وطهرها وإيمانها، سينبذها الإله.

«جوناثان» قالت، ورنَّت الكلمة مفعمة بالحب والحنو كالموسيقا على شفتيها «يا جوناثان يا عزيزي، وأنتم يا أصدقائي الأوفياء المخلصين، أريدكم أن تتذكَّرُوا أمرًا في خضم كل هذه اللحظات المرعبة. أعلم أنه عليكم أن تحاربوه، وأن تقضوا عليه حتَّى مثلما قضيتم على لوسي المزيَّفَة لكي يتسنَّى للوسي الحقيقية أن تحيا بعد ذلك، ولكنه ليس عملًا نابعًا من الكره. فتلك الروح المسكينة التي أوجَعَهَا كل هذا البؤس هي الحالة الأكثر حزنًا من بين كل الحالات. فكِّرُوا فحسب كيف ستكون فرحتُه عندما يُقْضَى أيضًا على جانبه الشرير وربما ينال جانبه الخيِّر الخلود الروحي. يجب أن تأخذكم الرأفة به أيضًا، رغم أن ذلك قد لا يمنع أيديكم عن القضاء عليه».

بينما كانت تتكلَّم رأيتُ وجه زوجها وقد اكفهرَّ وانكمش، وكأنَّ مشاعره أذْبَلَتْ كيانه حتى الصميم. زاد تشبُّثُه بيد زوجته بطريقة لا إرادية، حتى بدت مفاصل أصابعه بيضاء. لم تفزع مينا من الألَم الذي أعرف أنها لا بد وكانت تعانيه، بل نَظَرَتْ إليه بعينين

بدتا أكثر جاذبية من قبل. وعندما توقَّفَت عن الكلام نهض واقفًا على قدميه، وانتزع يده بعنف من يدها وهو يقول:

«أرجو من الله أن يقع في قبضتي لمدة تكفيني للقضاء على تلك الحياة المادية التي تسكنه والتي نستهدفها. ولو استطعتُ بعد ذلك أن أرسل روحَه إلى الجحيم المستعر أبد الآبدين لفَعَلْتُهَا!».

«أوه، صه! أوه، صه! أسألك أن تصمت باسم الله العظيم. لا تتفوَّه بهذه الأشياء يا جوناثان، يا زوجي، وإلَّا حطَّمْتَنِي من الخوف والرعب. فكِّر في الأمر فقط يا عزيزي، إذ لم أنقطع عن التفكير على مدى هذا النهار الطويل جدًا في المسألة، في أنه... ربما... يومًا ما... قد أحتاج أنا مثل هذه الرأفة، وأن شخصًا آخر مثلك -وللسبب ذاته المتعلق بالغضب- قد يرفض منحي إياها! أوه، يا زوجي! يا زوجي!، بالفعل، كنت أود أن أجنبك مثل هذه الفكرة لو كان هناك من سبيل آخر، ولكني أدعو الله ألَّا يؤاخذك على كلماتك المتهوِّرة، وألَّا يعدها سوى نحيبٍ لقلب منفطر لرجل طيِّبٍ جدًا صفعته يدُ النكبات بشدة. أوه، يا الله، فليكن هذا الشعر الأبيض المُتْعَب كدليلٍ على ما مرَّ بصاحبه من معاناة، صاحبه الذي لم يرتكب خطيئة طوال حياته، وتوالت عليه أحزان كثيرة».

انفجرنا نحن الرجال جميعنا في البكاء الآن، ولم يكن من شيء ليقاوم انهار الدموع، فبكينا علانية. وبكت هي أيضًا إذ رأت أن مرشديها اللطفاء غالبتهم دموعهم. ألقى زوجها بنفسه جاثيًا على ركبتيه قربها، وأحاطها بذراعيه، مخبئًا وجهه في ثنايا ثوبها. أشار

لنا ڤان هيلسنغ فانسللنا خارجين من الغرفة، تاركين العاشقين وحدَهُما مع ربهما.

قبل أن يذهبا إلى النوم جهَّز البروفسور ڤان هيلسنغ الغرفة بما يمنع دخول مصَّاص الدماء إليها، وطَمْأَنَ السيِّدة مينا بأنه يمكن لها النوم بسلام. حاوَلَت أن تطوِّع نفسها على الاقتناع بذلك، وكان واضحًا أنها حاولت أن تبدو سعيدة كرمى لخاطر زوجها. لقد استبسلت في صراعها، وأعتقد، بل أؤمن أن ذلك لن يكون بلا مقابل. وضع ڤان هيلسنغ جرَسًا في متناولهما يمكن لأي منهما أن يقرعه في حال وقوع أي طارئ. وبعد أن ذهبا إلى النوم، نظَّمْتُ مع كوينسي وغودالمنغ أمرنا على أن نسهر على راحة السيدة المنكوبة المسكينة ولذلك قسَّمْنَا الليلة بيننا، وكانت نوبة الحراسة الأولى من نصيب كوينسي، لذا اضطررت أنا وغودالمنغ أن نخلد إلى النوم بأسرع ما يمكن. نام غودالمنغ سلفًا، لأنَّ نوبة الحراسة الثانية من نصيبه. بعد أن أفرغ من كتابة هذه المذكَّرَات ينبغي لي أيضًا أن أخلد إلى النوم.

يوميَّات جوناثان هاركر

٣ - ٤ *أكتوبر، حوالي منتصف الليل*- ظننتُ أنَّ الليلة الماضية لن تنتهي أبدًا. فقد عصف بي توق للنوم، وداهمني نوع من الإيمان الأعمى بأني سأستيقظ وأجد الأحوال وقد تبدَّلت، وأن أي تغيير سيحصل فلا بد أن يكون الآن نحو الأفضل. وقبل أن

نفترق، ناقَشْنَا ما هي خطوتنا التالية، ولكننا لم نصل إلى أي نتيجة. فكل ما نعرِفُه أنَّه ما يزال هناك صندوق تراب واحد مفقود، وأنَّ الكونت هو الوحيد الذي يعرف مكانَه. وإذا ارتأى أن يرقد مختبئًا فيه، فيمكنه أن يربكنا لسنوات، كما سيفعل خصوصًا في الوقت الراهن!... إنها فكرة مفزعة، ولا أجرؤ على التفكير فيها حتى في هذه اللحظة. ولكن ما أعرفه هو أنه إذا قُيِّضَ لامرأةٍ أنْ تبلغ الكمال، فما تلك سوى زوجتي العزيزة المظلومة المسكينة. إنَّ حبِّي لها زاد ألف مرة بسبب رأفتها النبيلة بالوحش الليلة الفائتة، رأفة جعلت كرهي له يبدو دنيئًا. ومن المؤكد أن الله لن يكتب مزيدًا من التعاسة على العالم إذا ما تخلَّصنا من هذا المخلوق. ذلك يمنحني الأمل. إننا جميعًا ننجرف نحو الصخور الوعرة الآن، والإيمان ملاذنا الوحيد. الحمد لله! مينا تنام الآن بلا أحلام سيئة. إنني خائف مما يمكن أن تكون عليه أحلامها بوجود كل تلك الذكريات الرهيبة التي ستنغرس فيها. وحسبما رأيت، ألمَّ بها بعض الاضطراب منذ الغروب. وبعدئذٍ، ولبرهة، غمرت وجْهَهَا سَكِيْنَةٌ مثل ربيعٍ يأتي بعد عواصف شهر مارس. ظننتُ حينها أن ما اكتسى وجهها إنَّما نعومة الغروب الأحمر، ولكني أظن الآن نوعًا ما أن ذلك يحمل معنىً أعمق. لَسْتُ بنعسان، رغم أني مرهق حتى الموت. وعلى أي حال، يجب عليَّ أن أحاول النوم، فلدينا الغد لنفكر فيه، ولن يهنأ لي بالٌ إلى أن...

لاحقًا- لا بدَّ أني نِمْتُ، إذ أيقظتني مينا ووجدتها جالسةً على السرير تلوح بوجهها نظرة فزع. وإذ أننا لم نترك الغرفة مظلمة

بالكامل، فقد رأيتها بسهولة وهي تضع يدَها محذرة فوق فمي، وهي الآن تهمس في أذني:

«اهدأ! فهناك شخصٌ في الممر!» نهضْتُ برفق، ثم عبرْت الغرفة، وفتحتُ الباب.

في خارج الغرفة بالضبط، رأيتُ فرشة ممدودة وقد اضطجع عليها السيد كوينسي مورِس مستيقظًا. فرفع يده طالبًا مني الصمت وهو يهمس لي:

«اهدأ! وإرجع إلى النوم، فالأمور بخير. سيبقى واحدٌ منا هنا طوال الليل. لا نريد أن نقدم على أي مخاطرة!».

ونظرًا لأنَّ نظرَتَه وإشارَتَه وضعتا حدًّا للنقاش، فقد عدتُ وأخبرتُ مينا بما جرى. فتنهَّدَتْ وتسلَّل ظلُّ ابتسامةٍ إلى وجهها الشاحب المسكين وهي تحيطني بذراعيها وتقول برقَّة:

«أوه، الحمد لله على نعمة الرجال الشجعان الطيِّبين!» ثمَّ تنهَّدَتْ وغطَّت في النوم من جديد. وأنا جالسٌ أكتب هذه اليوميَّات الآن لأنِّي لستُ بنعسان، رغم أنه عليَّ محاولة النوم مرة أخرى.

صباح ٤ أكتوبر – أيقَظَتْنِي مينا مرَّةً أخرى في الليل. في هذه المرة كنا قد استغرقنا في نوم هانىء، إذ أن بوادر الفجر الرمادي القريب جعلت النوافذ على شكل مستطيلات حادَّة، وصار لهب مصباح الغاز مثل بقعة صغيرة بعد أن كان في الليل قرصًا من الضوء. قالت لي في عجالة:

«اذهب واستدعِ البروفسور. أريد أن أراه في الحال».

«لماذا؟» سألتُها.

«لدي فكرة. وأظنها لا بد جاءتني في الليل، ونَضَجَت دون أن أعرف ذلك. عليه أن ينوِّمَني مغناطيسيًا قبل الفجر، وسأكون عندئذٍ قادرة على الكلام. أسرِع يا عزيزي، فالفجر يقترب». ذهبتُ إلى الباب فوجَدْتُ الدكتور سيوِرْد مستلقيًا على الفرشة، وما إنْ رآني إلَّا ووثب واقفًا على قدميه، وسألني فَزِعًا:

«أهناك خطب ما؟».

فأجبتُ: «لا، ولكنَّ مينا تريد رؤية الدكتور ڤان هيلسنغ في الحال».

«سأذهب لإبلاغه» قال وأسرع إلى غرفة البروفسور ڤان هيلسنغ.

في دقيقتين أو ثلاث بعد ذلك جاء ڤان هيلسنغ إلى الغرفة برداء النوم، وكان السيد كوينسي مورِس واللورد غودالمنغ مع الدكتور سيوِرْد عند الباب يستفسرون عن الأمر. وعندما رأى البروفسور مينا تبتسم طار القلق عن وجهه وفرك يديه وهو يقول:

«أوه، يا عزيزتي السيِّدة مينا، إن هذا تغيُّر فعلي. أترى! يا صديقي جوناثان، لقد عادَت إلينا سيِّدتنا مينا العزيزة اليوم كما كانت في سابق عهدها!». ومن ثم قال، وهو يلتفتُ إليها فرحًا: «وما الذي ينبغي لي أن أفعله تلبية لندائك؟ لأنك لم تطلبي رؤيتي في هذه الساعة بلا سبب».

فقالت: «أريدك أن تنوِّمَني مغناطيسيًا. وأريدك أن تفعل ذلك قبل الفجر، لأني أشعر أني أستطيع حينئذٍ أن أتكلم بصراحة. أسرع، فالوقت يكاد يداهمنا!». ودون كلمةٍ أشار لها بأن تجلس في السرير.

بينما كان ينظر إليها بتركيز، بدأ يحرِّك يديه أمامها، من أعلى رأسها نزولًا إلى الأسفل، مستخدمًا يمينه تارة ويساره تارة أخرى بتعاقب. حدقت فيه مينا بتركيز لبضع دقائق، وفي كل دقيقة منها دقَّ قلبي مثل مطرقةِ معملٍ ضخمة، لأني شعرت بوجود أزمة بين أيدينا. أغْمَضَتْ عينيها تدريجيًا، ثم جلَسَتْ ساكنة دون حراك، ولا يمكن للمرء أن يعرف أنها حيَّة سوى من الاهتزاز الرقيق لصدرها. حرَّك البروفسور يديه لبضع مرات إضافية أمامها ثم توقَّف، رأيتُ جبينَه وقد غطته حبَّات هائلة من العرق. فَتَحَتْ مينا عينيها، ولكنها لم تبدُ المرأة ذاتها. اجتاحت عينيها نظرةٌ شاردةٌ، وفي صوتِها توَهَانٌ حزين لم أره من قبل. رافعًا يده لفرض الصمت، أشار لي البروفسور بأن أستدعي الآخرين إلى الغرفة. جاؤوا على رؤوس أصابعهم، وأغلقوا الباب خلفهم، ووقفوا عند طرف السرير يتفرَّجون. بدا أن مينا لم ترَهم. كسر الصمتَ صوتُ ڤان هيلسنغ وهو يتحدَّث في نبرة خافتة لا تقطع عليها تسلسل أفكارها:

«أين أنتِ؟» وجاء جوابها بنبرةٍ لا يعرف مغزاها:

«لا أعرف. فليس للنوم مكان يحكمه». ساد صمتٌ لعدة دقائق بينما جلست مينا متصلبة، ووقف البروفسور محدقًا فيها بتركيز، وبالكاد جرؤنا نحن الباقون على التقاط أنفاسنا. ازدادت

الغرفة نورًا، ودون أن يزيح عينيه عن وجه مينا، أشار إلي الدكتور ڤان هيلسنغ برفع الستارة. ففعلت ذلك، وأطلَّ علينا ضوء النهار مباشرة. اندفع خط أحمر، وبدا أن ضوءًا ورديًا نَشَر نفسه عبر الغرفة. فقال البروفسور من فوره مرة ثانية:

«أين أنتِ الآن؟» فجاءه الجواب بطريقة حالمة، ولكنَّه يحمل معنى ما، فقد بدا وكأنَّها كانت تفسِّر شيئًا. وقد سبق لي أن سمعْتُها تستخدم النبرة ذاتها أثناء قراءتها مذكَّراتها المكتوبة بأسلوب الاختزال.

«لا أعرف. فكل شيء غريب!».

«ماذا ترين؟».

«لا أستطيع أن أرى شيئًا، فلا شيء سوى الظلام».

«ماذا تسمعين؟» ولاحظتُ الإجهادَ في نبرة صوت البروفسور الصابرة.

«صوت تلاطم الماء وهو يغرغر، وصوت أمواجٍ صغيرة واثبة. أستطيع أن أسمعها قادمة من الخارج».

«إذن فأنتِ على متن سفينة؟». نظرنا جميعًا أحدنا إلى الآخر، وكل منا يحاول أن يستوضح معنىً ما من الآخر. انتابتنا الخشية مما قد يجول في بالنا، فجاء الجواب سريعًا:

«أوه، نعم!».

«وماذا تسمعين أيضًا؟».

«صوت أناسٍ يخبطون بأقدامهم في الأعلى وهم يتراكضون من مكان إلى آخر. كما أسمع صرير سلسلة، وصليلًا عاليًا وكأنَّ رافعة المرساة تدير تروسها».

«وما الذي تفعلينه؟».

«أنا ساكنة، أوه، ساكنة جدًا. ساكنة مثل الموت!». وذوى صوتها متحولًا إلى نَفَسٍ خافت مثل نَفَسِ شخص نائم، وأغمضت عينيها مرَّة ثانية.

كانت الشمس قد طلعت في غضون ذلك، وكنا جميعنا تحت أشعة ضوء النهار. وضع الدكتور ڤان هيلسنغ يديه على كتفي مينا، وأراح رأسها برفق على وسادتها. استلقت مثل طفلة نائمة بضع لحظات، ومن ثم، وبتنهيدة طويلة، استيقظت وحدقت في دهشة لترى ما حولها، وكان كل ما قالته: «أكنتُ أحكي أثناء نومي؟». بدت على أي حال وكأنها تعرف الوضع دون أن تقول ذلك، رغم أنها كانت متحمسة لتعرف ما الذي قالته. ثم أعاد البروفسور على مسامعها سرد الحديث الذي دار بينهما وهي منوَّمة فقالت:

«إذن ليس هناك لحظة نضيِّعُها، وربما لم يفت الأوان كثيرًا بعد!». فانطلق السيِّد كوينسي مورِس واللورد غودالمنغ صوب الباب ولكن البروفسور ڤان هيلسنغ ناداهم قائلًا بصوته الهادئ:

«على رسلكم يا أصدقاء، فتلك السفينة، وأيا يكن المكان الذي هي فيه، كانت ترفَع مرساتها أثناء حديث مينا معي. هناك العديد من السفن التي ترفع مراسيها في هذه اللحظة مغادرة ميناءكم

العظيم، ميناء لندن. فأي سفينة منها ستقصدون؟ فحمدًا لله أن لدينا دليلًا مرة أخرى، رغم أننا لا نعرف إلى أين يقودنا. لقد كنا عُمْيان بطريقة ما، عُمْيان فيما يخص سلوك البشر، لأنه إذا استطعنا أن نرجع بالزمن إلى الوراء فإننا نستطيع أن نرى ما الذي كان ينتظرنا في المستقبل لو كنا قادرين على رؤية ما قد رأيناه! ولكن للأسف، كلامي يشبه التخبط في الوحل، أليس كذلك؟ إذ يمكننا أن نعرف الآن ماذا كان يدور في ذهن الكونت عندما أمسك ذلك المال، رغم أن خنجر جوناثان العنيف وضعه في دائرة الخطر الذي كان يخشاه حتى. لقد تعمَّد الهرب. اسمعوا ما قلته: لقد تعمَّد الهرب! فقد رأى بأنه وبعد أن بقي لديه صندوق تراب واحد، وثلة من الرجال تلاحقة مثلما تلاحق الكلاب ثعلبًا، فإن لندنَ هذه لم تعد مقامًا له. لقد أخذ معه صندوقه الترابي الأخير على ظهر السفينة، وها هو يغادر إنجلترا. إنَّه يفكر بالهرب، ولكن لا! سوف نتبعه. تالي هو[1]! كما يقول صديقنا أرثر عندما يرتدي رداءَه الأحمر. إن ثعلبنا العجوز لماكر، أوه! ماكر جدًا، ويجب أن نلحق به بالحيلة. وأنا أيضًا ماكر وأفكر مثلما يفكر نوعا ما. وفي أثناء ذلك يمكن لنا أن ننام بأمان، إذ تفصلنا عنه بحار لا يريد لنا عبورها، ولا يستطيع منعنا لو أراد ذلك ما لم تصل السفينة اليابسة ويكون المدُّ في أوجه أو تكون المياه راكدة. أترون، ها قد طلعت الشمس للتو، ومعنا النهار بطوله حتى المغيب. فلنستحم، ونرتدي ثيابنا، ونتناول الفطور

---

(١) كلمة عامية ينادي بها الصيَّادون على كلاب الصيد عند رؤية الطريدة. في الأصل الإنجليزي (Tally-Ho).

الذي نحتاجه كلنا، الفطور الذي نستطيع أن نتناوله بصورة مريحة لأنه لم يعد موجودًا في المكان ذاته الذي نحن فيه». نظرت إليه مينا باهتمام وهي تسأل:

«ولكن ما حاجتنا لملاحقته بعيدًا وقد هرب منا؟» فأمسك يدها وربَّتَ عليها وهو يجيب:

«لا تسأليني أي سؤال الآن. بعد أن نتناول الفطور سأجيب عن كل الأسئلة». لم يضف على ما قاله، فافترقنا حتى نبدِّل ثيابنا.

بعد الفطور كرَّرَتْ مينا سؤالها. فنظر إليها بجدية للحظات ومن ثم قال بنبرة ملؤها الحزن:

«لأنه يا عزيزتي السيدة مينا، ينبغي لنا الآن، وأكثر من أي وقتٍ مضى، أن نجده حتى لو تبعناه إلى أبواب الجحيم!». فزاد شحوبها وهي تسأله بوَهنٍ:

«لماذا؟».

فأجابها بجدية بالغة: «لأنه يستطيع أن يعيش قرونًا، وأنتِ لست سوى إنسانة فانية. وقد حان الوقت ليدبَّ فينا الخوف منذ أن وضع تلك العلامة على حلقك».

أمسَكتُ بها في الوقت المناسب وهي تسقط إلى الأمام مغشيًا عليها.

الفصل الرابع والعشرون

رسالة تركَها ڤان هيلسنغ مسجَّلةً بصوته على فونوغراف الدكتور سيوِرْد ضمن مذكراته

هذه الرسالة موجَّهَة إلى جوناثان هاركر

عليكَ أن تبقى مع زوجتك العزيزة السيِّدة مينا. سوف نمضي نحن لنقوم ببحثنا -إذا ما جاز لي أن أسميه بحثًا- لأنه ليس بحثًا وإنَّما معلومات نعرفها، ونحن نسعى إلى تأكيدها فقط. ولكن ابقَ معها وأوْلِهَا كل الرعاية هذا اليوم. هذه أفضل المهام التي تؤدِّيها وأقدسها. لا شيء يمكن أن تجده هنا هذا اليوم. دعني أخبركَ بذلك حتى تعرف ما الذي نعرفه نحن الأربعة سلفًا، لأني أخبرتُهُم. لقد فرَّ عدوُّنا وعاد إلى قلعته في ترانسلڤينيا وأنا متأكد من ذلك جيدًا، وكأنَّ يدًا ضخمة من نار كتبَتْ هذا على الجدار. لقد هيَّأ نفسه لذلك، وكان صندوق التراب الأخير جاهزًا للشحن إلى مكان ما. ولذلك فقد أخذ معه المال، وأسرع في آخر لحظة، حتى لا نمسك به قبل غروب الشمس. كان ذلك أملُه الأخير، رغم أنه كان بإمكانه أن يختبئ في القبر الذي ظن بأن الآنسة لوسي المسكينة تركته مفتوحًا له، لأنه

يحسبها صارَت مصَّاصة دماء مثله. ولكنَّ الوقت لم يسعفه. عندما فشل في مسعاه ذاك اتَّجه مباشرةً إلى ملاذه الأخير؛ أو إلى ترابه الأخير إذا ما أردت استخدام تعبير مزدوج الدلالة. إنه ذكي، يا إلهي! ذكي جدًا! وهو يعرف أن لعبته هنا انتهت، ولذا قرَّر العودة إلى دياره. لقد وجد سفينةً راجعة في الطريق ذاته الذي جاء عبره، فأبحر فيها. انطلقنا الآن لنعثر على تلك السفينة ونعرف وجهتها، وعندما نعرف ذلك سنعود ونخبركَ بكل شيء. ومن ثمَّ سوف نريح بالك أنتَ والسيِّدة مينا المسكينة بأمل جديد. لأنك ستجد الأمل إذا ما فكَّرْتَ في الأمر مرة أخرى، إذ أننا لم نخسر كل شيء. هذا المخلوق الذي نطارده بالتحديد، استغرق مئات السنين حتى وصل مؤخرًا إلى لندن، ومع ذلك وفي يومٍ واحدٍ، عندما عرَفْنَا كيفية التخلص منه طردناه منها. إنه محدود القدرات، رغم أنه على درجةٍ هائلة من القوة التي تجعله يُحدِثُ الكثير من الأذى ولا يعاني مثلما نعاني نحن. لكننا أقوياء، كلٌّ من أجل غايته، وأقوياء باتحادنا معًا. تشجَّع من جديد، يا زوج السيِّدة مينا العزيز. إنَّ هذه المعركة لم تبدأ سوى الآن، ولسوف ننتصر في النهاية، ويقيني بالنصرِ عظيمٌ مثل يقيني بأن الله يجلس في علياء سمَوَاتِه ليرعى أبناءه. لذلك ابق مطمئنًا حتى نعود.

ڤان هيلسنغ

يوميَّات جوناثان هاركر

٤ أكتوبر- عندما قرأتُ على مسامع مينا رسالة ڤان هيلسنغ المسجَّلة على الفونوغراف، أشرقَ وجهُ المسكينة كثيرًا. فقد منَحَهَا

اليقينُ بأن الكونت صار خارج إنجلترا الطمأنينةَ سلفًا؛ والطمأنينة قوة لها. أما من ناحيتي، وحيث أننا لم نعد نواجه خطره وجهًا لوجه، فيكاد يبدو من المستحيل أن أصدق ذلك. لا بل حتى إنَّ تجاربي الرهيبة في قلعة دراكولا تبدو لي مثل حلم طواه النسيان منذ زمن بعيد. وقد صرت الآن هنا أنعم بهواء الخريف المنعش في ضوء الشمس المشرقة...

يا للأسف! كيف يمكن لي ألَّا أصدِّق ما حصل! ففي خضم أفكاري وقَعَ بصري على الندبة الحمراء على الجبين الأبيض لزوجتي العزيزة المسكينة. وطالما أن الندبة في جبينها، فلا مجال للنكران. وفيما بعد، ستحفظ هذه الذكرى الإيمانَ وتبقيه صافيًا كالشمس. نخشى أنا ومينا أن نصاب بالخمول، ولذا اطَّلَعْنَا على كل المذكَّرات المرَّة تلو الأخرى. ورغم أن حقيقة ما فيها تبدو أعظم في كل مرة نقرؤها، إلا أن الألم والخوف كانا أقل نوعًا ما. إنها تحمل معانيَ توجيهية واضحة بشكل ما، وهي تبعث الطمأنينة في النفس. تقول مينا إننا ربَّما نكون أدوات الخير المُطْلَق. ربَّما يكون ذلك! ينبغي لي أن أفكر بالطريقة ذاتها التي تفكِّر بها. لم يحدث أن تكلمنا عن المستقبل قط. ومن الأفضل أن ننتظر إلى أن نرى البروفسور والآخرين بعد تحرياتهم.

لقد مرَّ النهارُ عليَّ بسرعة كبيرة لم أتخيَّل قط أن أشهدها مرة ثانية بعد كل تلك النهارات الثقيلة الوطأة التي عشتُها. الساعة الآن الثالثة.

٥ أكتوبر، الساعة الخامسة عصرًا- اجتمعنا للتشاور في آخر المستجدَّات. أسماء الحاضرين: البروفسور ڤان هيلسنغ، واللورد غودالمنغ، والدكتور سيوِرْد، والسيِّد كوينسي مورِس، وجوناثان هاركر ومينا هاركر.

وصَفَ الدكتور ڤان هيلسنغ الإجراءات التي اتُّخِذَتْ أثناء النهار لمعرفة السفينة التي صعد على متنها الكونت دراكولا والجهة التي هرب إليها:

«نظَرًا لأنِّي أعرف أنه أراد العودة إلى ترانسلڤينيا، فقد شعرتُ يقينًا أنه لا بدَّ سيعود عن طريق مدخل نهر الدانوب، أو عن طريق موضعٍ ما في البحر الأسود، لأنه جاء عبر ذلك الطريق. كان الأمر مثل فراغٍ مرعبٍ أمامنا. *كل ما هو مجهول رائع*.. وهكذا وبقلوبٍ ثقيلة بدأنا نبحث عن السفن التي غادرَت إلى البحر الأسود في الليلة الماضية. لقد غادَرَ على متن سفينة شراعية، لأنَّ السيِّدة مينا تحدَّثتْ عن أشرعة مرفوعة. والسفن الشراعية لا تحظى بأهميَّةٍ كبيرةٍ حتى يتم إدراج مواعيد سفرها في قائمة رحلات السفن في صحيفة التايمز، وهكذا ذهبنا بناءً على اقتراح من اللورد غودالمنغ إلى مؤسسة لويدس، حيث يوجد لديها قائمة بكل السفن العاملة، مهما صَغُرَ حجمها. وجدْنَا هناك سفينةً واحدةً فقط أبحرَت إلى البحر الأسود مع المدِّ. اسمُها *زارينا كاثرين*، وقد أبْحَرَتْ من رصيف ميناء دولتلز وُرْف إلى ڤارنا، ومن هناك ستنطلق إلى الموانئ الأخرى المنتشرة على

ضفتي نهر الدانوب. قلتُ: إذنن! هذه هي السفينة التي هرب على متنها الكونت. ولذا انطلقنا إلى ميناء دولتلز وُرْف، حيث وجدنا هناك رجلًا في مكتب خشبي صغير جدًا حتى أنَّ الرجل بدا أكبر من المكتب. واستفسرنا منه عن سجل دخول السفينة زارينا كاثرين وخروجها. انهال بأقذع الشتائم، واحمرَّ وجهُه وعلا صوتُه، ولكنه كان مع ذلك رجلًا طيبًا، وعندما ناوَلَه كوينسي شيئًا ما من جيبه، شيئًا أحدث خشخشةً وهو يلفه بين يديه ثم يضعه في كيس صغير كان يخبئه عميقًا في ملابسه، صار رجلًا أطيب وخادمًا أشد تواضعًا لنا. جاءَ معنا، وسأل العديد من الرجال ممن يتميَّزُون بالغلظة وحدة الطباع، ممن يصيرون أكثر طيبة أيضًا إذا ما روى المرء عطشهم. وقد شاب حديثَهُم كثيرٌ من السباب والشتائم، وكلماتٍ أخرى لم أفهمها، رغم أني خمَّنْتُ ماذا يعنون، ولكن مع ذلك فقد قالوا لنا كل ما نريد معرفته.

أخبرونا وهم يتبادلون الحديث فيما بينهم، كيف أنه جاء عصر اليوم المنصرم في حوالي الساعة الخامسة رجلٌ في عجلةٍ كبيرة من أمره. رجلٌ طويلٌ، هزيلٌ وشاحبٌ، ذو أنفٍ متبجِّحٍ وأسنان شديدة البياض، وعينين بدوتا حمراوين، رجلٌ مجلَّلٌ بالسواد، باستثناء أنه كان يعتمر قبعة من القش غير متلائمة معه أو مع الزمن الذي يعيش فيه. وأنه نثر ماله وهو يستفسر سريعًا عن أي سفينة مبحرة صوب البحر الأسود وإلى أي ميناء فيه. أخذه بعض الرجال إلى المكتب ومن ثم إلى السفينة، حيث لم يصعد على ظهرها ولكنه توقَّف من جهة الشاطئ عند طرف جسر صعود الركاب إلى السفينة، وطلب

من القبطان أن يأتي إليه، فجاء القبطان عندما أبلغوه بأنه سيجزل له العطاء، ورغم أنه انهالَ بوابلٍ من الشتائم في البداية إلَّا أنه وافَق على شروطه. ثم مضى الرجل النحيل ودلَّهُ أحدُهم على مكانٍ يستأجر منه حصانًا وعربة. فذهب إلى هناك ثم عاد من فوره مرَّة ثانية، وكان يسوق بنفسه العربة التي كان فيها صندوق ضخم، ثم أنزَله بنفسه، رغم أنه احتاج عدَّة رجال لوضعه في العربة لنقله إلى السفينة. وقد تحدَّث مع القبطان مليًا في مسألة كيفية وضع صندوقه والمكان الذي سيوضع فيه، ولكن القبطان لم يعجبه ذلك وأمطره بوابلٍ من الشتائم بعدَّة لغات، وقال له إذا رغب فيمكنه أن يأتي ويرى أين سيوضع الصندوق. لكنَّ الرجل رفض ذلك وقال إنه لن يأتي معه الآن، فما زال أمامه الكثير من الأمور ليقوم بها. وعلى إثر ذلك قال له القبطان إنَّ من الأفضل له أن يسرع -وأرفق ذلك بشتيمةٍ- لأنَّ سفينته ستغادر الميناء -وأرفق ذلك بشتيمةٍ ثانية- قبل تحوُّل المد -وأرفق ذلك بشتيمة ثالثة. فابتسم الرجل النحيل وقال إنه سيذهب بالطبع عندما يرى الوقت مناسبًا، ولكنه سيتفاجئ إذا رحل في موعد قريب جدًا. انهال القبطان بأقذع الشتائم مرَّة أخرى، وبعدة لغات، فطلب منه الرجل النحيل أن ينحني، وشكره، وقال له إنه سيزعج لطفه ويصعد ظهر السفينة قبل أن تبحر بلحظات. وفي قرار نهائي من القبطان، وقد احمرَّ وجهه أكثر من السابق بمرَّات، قال له، وبلغات أكثر، إنَّه لا يريد فرنسيين -وأرْفَقَ ذلك باللَّعَنات عليهم والشتائم -في سفينته- وشتمها أيضًا. وهكذا غادَرَ الرجل بعد أن سأل أين يمكن له أن يجد سفينةً قريبةً حتَّى يشتري منها استمارات تأمين بحرية.

لم يعرف أحدٌ إلى أين ذَهَبَ أو حتَّى اكترث (وهم يلعنون)، كما قالوا، لأنَّ لديهم أمورًا أخرى تشغلهم، ولا بأس أنهم أرفقوا جملتهم تلك بالشتائم مرة أخرى، لأنه أصبح من الواضح على الفور للجميع بأن السفينة زارينا كاثرين لن تبحر مثلما كان متوقعًا لها. فقد بدأ ضبابٌ رقيقٌ يتسلل إليها من النهر، وزادَ تدريجيًا حتى أحاط بالسفينة وكل ما حولها في الحال. انهال القبطان بوابلٍ من الشتائم واللعنات بشتَّى اللغات -لغاتٍ عديدة جدًا- ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئًا. ثم ارتفع الماء تدريجيًا، وبدأت تراوده الخشية من أنَّ المدَّ سيفوته كلية. لم يكن في مزاجٍ هانئ عندما جاء الرجل النحيل في اللحظة التي بلغ فيها المد ذروته بالضبط، عبر جسر الركَّاب مرة أخرى وطلب أن يرى المكان الذي رُصَّ فيه صندوقه. عندئذٍ ردَّ القبطان عليه متمنيًا له أن يذهب هو وصندوقه إلى الجحيم ليخلدا فيه، وأرْفَقَ أمنيته تلك بكثيرٍ من الشتائم واللعنات. لكن الرجل النحيل لم يكترث بالإهانة، ونزل إلى الجزء السفلي من السفينة مع مساعد القبطان وتفقَّد مكان صندوقه، ثم صعد ووقف برهة على سطح السفينة في الضباب. ولا بدَّ أنه صعد بنفسه، لأن أحدًا لم ينتبه له. وبالفعل لم يأبهوا به، لأن الضباب بدأ ينقشع على الفور، وصفا الجو تمامًا مرة أخرى. هنا ضحك أصدقائي العطاشى أصحاب لغة الشتائم واللعنات، وهم يقولون كيف أن شتائم القبطان تجاوزت حتى لغاته العديدة المعهودة، وصارت مملوءة بصور بيانية بديعة أكثر من قبل، عندما سأل البحَّارة الآخرين الصاعدين إلى النهر والنازلين منه في تلك الساعة، وقد تبيَّن له بأن القليل منهم رأوا

الضباب أصلًا، وهؤلاء لم يروه إلا في الموضع الذي ظهر فيه حول رصيف الميناء. وعلى أي حال، انطلقت السفينة مع انحسار المد عن الشاطئ، وقد وصلت بلا شك مع حلول الصباح إلى مدخل النهر. لا شك أنها صارت في عرض البحر أثناء ما كانوا يحكون لنا تلك الوقائع.

وهكذا يا عزيزتي السيِّدة مينا سوف نرتاح مدَّة، لأن عدونا صار في عرض البحر والضباب تحت إمرته، وهو في طريقه إلى مدخل نهر الدانوب. إن الإبحار في سفينة يستغرق وقتًا، فهي لا تسير بسرعة كبيرة، وعندما نبدأ مهمتنا سنسافر برًا بسرعة أكبر ونلاقيه هناك. إن أفضل أمل لدينا هو أن نعثر عليه راقدًا في الصندوق بين طلوع الشمس وغروبها، لأنه حينئذٍ لا يستطيع المقاومة ويمكننا أن نتعامل معه كما نريد. أمامنا أيام يمكننا فيها تجهيز خطتنا. إننا نعرف كل شيء عن الجهة التي ذهب إليها، إذ قابلنا مالك السفينة الذي أطْلَعَنَا على الفواتير وكل الوثائق الممكنة. سيتم إنزال الصندوق الذي نسعى في أثره في ڤارنا، وسيسلَّم إلى وكيل، وهو شخصٌ يدعى ريستكش سيقدِّم أوراقه الرسمية، وهكذا أدَّى صديقنا التاجر الدَّور المنوط به. وعندما سأل إذا كان هناك مشكلة ما، فإنه يمكنه بخصوص ذلك أن يرسل برقية ويستفسر من ڤارنا، قلنا له «لا»، لأن ما ينبغي عمله ليس من شأن الشرطة ولا الجمارك. بل يجب أن نقوم به نحن وحدنا وبطريقتنا الخاصة».

عندما فرغ الدكتور ڤان هيلسنغ من حديثه، سألتُه إذا كان على يقين من أنَّ الكونت قد بقي على سطح السفينة. فردَّ قائلًا: «الدينا

دليلٌ دامغٌ على ذلك: دليلكِ أنتِ، عندما كنتِ في غيبوبتك أثناء تنويمك مغناطيسيًا صباح اليوم». ثم سألتُه مرَّةً أخرى إذا ما كانت ملاحقة الكونت ضرورية بالفعل، لأنِّي، يا إلهي! خشيتُ أن يتركني جوناثان، فأنا أعرف أنه سيذهب بالتأكيد إذا ذهب الآخرون. أجابني بعاطفة ظلت تتضاعف تدريجيا؛ حيث كان جوابه هادئًا في البداية، وبينما تابَع حديثه، زادَ غضبُه وقويت حجته، حتى لم يسعنا في نهاية المطاف سوى أن نرى فيما قاله على الأقل بعضًا من تلك السطوة الشخصية التي جعلته لمدة طويلة سيدًا بين الرجال:

«نعم، ذلك ضروري.. ضروري.. ضروري! من أجل خاطرك في المقام الأول، ومن ثمَّ من أجل خاطر البشرية. فقد تسبَّبَ هذا الوحش بالكثير من الأذى سلفًا في الميدان الضيِّق الذي وجد نفسه فيه، وفي المدة القصيرة عندما كان لا يزال مجرد شخص يتلمَّسُ قدراته الضئيلة جدًا في العتمة دون أن يدري. وقد أبلغتُ الآخرين بكل هذا، وأنتِ يا عزيزتي السيِّدة مينا، ستعرفين ذلك من فونوغراف صديقي جون، أو من يوميَّات زوجك. لقد أخبرتُهم كيف أنَّ قيامه بمغادرة أرضه القاحلة -القاحلة من البشر- والمجيء إلى أرض جديدة تعج بالناس حتى غدت مثل حقولٍ شاسعة من شجيرات الذرة المنتصبة، كل هذا لم يحصل بين عشية وضحاها، بل هو حصيلة عملٍ دام قرونًا. ولو حاوَلَ أحد الموتى-الأحياء مثله، أن يفعل ما فَعَلَه، فربَّما لن تكفيه كل قرون العالم التي مرَّت، أو التي ستأتي. ففي حالة هذا الوحش، لا بدَّ أن كل قوى الطبيعة الغيبية والعميقة والقوية جدًا قد عملت مع بعضها بطريقة مذهلة. فالمكان

ذاته، الذي ما فتئ يعيش فيه كأحد الموتى-الأحياء طوال كلِّ هذه القرون، يعجُّ بغرائب العالم الجيولوجية والكيميائية، إذ تنتشر فيه كهوفٌ واسعةٌ وشقوق لا يعرف أحدٌ امتدادها. كما أنَّ فيه براكين، لا تزال فوَّهات بعضها تنفثُ مياهً ذات خصائص عجيبة، وغازات تحيي أو تميت. بلا شك هنالك شيءٌ ما مغناطيسي أو كهربائي في هذا المزيج من القوى الغيبية التي ساعدت جسده المادي بطريقة غريبة، كما كانت فيه نفسُه بعض الخصائص العظيمة منذ البداية. ففي زمنٍ صعبٍ انتشرت فيه الحروب، كان يحتفي بامتلاكه أعصابًا أشد، وعقلًا أدهى، وقلبًا أشجع من أي إنسان. وقد وَجَدَتْ فيه بعضُ المبادئ الحيوية أقصى طاقتها وبطريقة غريبة؛ فبينما حافظ جسده على قوته ونموه وبهائه، كذلك نما عقلُه أيضًا. كل هذا دون تلك المساعدة الشيطانية التي يمتلكها بالتأكيد، والتي عليها أن تخضع إلى القوى التي جاءت منها، القوى التي تعدُّ رمزًا للخير. هذا ما هو عليه بالنسبة لنا. لقد أصابكِ بالعدوى، أوه، سامحيني يا عزيزتي لأنه عليَّ قول ذلك، ولكنني أقول ذلك لما فيه خيركِ، لقد نقل لك العدوى بدهاء، فحتى لو لم يفعل شيئًا أكثر من ذلك، فعليك أن تعيشي فقط، تعيشي بطبيعتك العذبة المعهودة. وهكذا، وعندما يحين الوقت المناسب سيجعلك الموت مثله، الموت الذي يعد المُشْتَرَكَ الأكبر بين البشر، والذي يحصل بمشيئة الله. يجب ألَّا يحصل هذا! وقد أقسمنا معًا على أن ذلك لن يحصل. وهكذا فنحن أولياء الله بمشيئته: ونقسم بأن العَالَم، والبشر الذين مات ابنه في سبيلهم، لن يسلَّمُوا للوحوش، إذ سيشوِّه وجودُهم صورةَ الله

ذاته. لقد أباح لنا أن نخلّص روحًا من قبل، وسنمضي في سبيلنا مثل فرسان الصليب القدماء لنخلّص مزيدًا من الأرواح. ينبغي لنا أن نرتحل مِثْلَهُم صوب مشرق الشمس، وإذا متنا كما ماتوا، فسنموت في سبيل قضية نبيلة». ثم توقَّف عن الكلام فقلتُ:

«ولكن ألَنْ يتخذ الكونت سبيله للردِّ بحكمة؟ فبعد أن طُرِدَ من إنجلترا، ألن يتحاشى المجيء إليها كما يتحاشى نمرٌ دخول القرية التي لاحقه فيها أهلها ليصطادوه؟».

فقال: «آها! لشدَّ ما أعجَبَني تشبيهك إيَّاه بالنمر! وسأتبنَّى تشبيهك. إن نمرك الآكل للبشر، كما يطلق الناس في الهند على النمر الذي تذوَّق دماء البشر ذات مرة، لا يكترث بتاتًا بفريسته القادمة، بل إنَّه يجول خلسةً بلا انقطاع حتى يعثر عليها. وما هذا الذي طاردناه في مدينتنا سوى نمرٍ أيضًا؛ نمرٍ آكل للبشر، وهو لا يتوقَّف عن التجوُّل خلسةً. لا، فهو ليس من النوع الذي يتراجع أو يبتعد. فأثناء حياته، حياته الدنيوية أقصد، مضى إلى حدود تركيًا وهاجم عدوَّه في عقر داره، وقد ردُّوه على أعقابه، ولكن هل نَكَصَ؟ لا! فقد هَجَمَ عليهم المرة تلو الأخرى دون كلل أو ملل. تأمَّلي إصراره وصبره. وبهذا العقل الطفولي الذي يمتلكه، خطرت له منذ مدة طويلة فكرة المجيء إلى مدينة ضخمة. فما الذي فَعَله؟ لقد عثر على مكانٍ يبشره بالنجاح في مسعاه أكثر من كل الأماكن الأخرى في العالم. ومن ثمَّ عقد العزم بتروٍّ على تجهيز نفسه للمهمة. واكتشف بصبرٍ وأناةٍ كبيرين مقدار القوة الذي يملك، والطاقات التي لديه.

تعلَّم لغات جديدة، كما تعلَّم أسلوب حياة اجتماعية جديدة، وتعلَّم السياسة، والقانون، وشؤون المال، والعلم، وعادات أرض جديدة وأناس جدد وُجِدُوا منذ أن وُجِد هو. ولم تسهم النظرة الخاطفة التي اكتسبها من جراء ذلك سوى في إثارة شهيته وتأجيج رغبته. ليس ذلك فحسب، بل ساعده ذلك في النمو العقلي، لأن كل ذلك أثبَتَ له أنه كان مصيبًا منذ البداية في ظنونه. وقد فعل ذلك وحده، فعل كل شيء وحده! من قبرٍ خَرِبٍ في أرض منسيَّة. وكيف لا يفعل أكثر من ذلك إذا كان عالَمَ الفكر والمعرفة العظيم قد فتح أمامه؟ هو الذي يسخر من الموت، كما نعرفه، هو الذي يستطيع أن يترعرع وسط الأمراض التي تبيد الناس كافة. أوه، لو أنَّ هذا الوحش جاء من عند الله، وليس من عند الشيطان، فأي قوة خيِّرة كان سيصبح في هذا العالم الأزلي! ولكننا أقسمنا على تحرير العالم منه. ويجب أن نؤدي عملنا الدؤوب بصمت، وأن تكون كل جهودنا طي الكتمان، لأنه في هذا العصر المتنور، الذي لا يصدِّقُ البشر فيه حتى ما يرونه بأعينهم، فإن الرِّيبة التي تساور الحكماء ستكون نقطة قوته الأشد. ستكون الريبة على الفور غمد سيفه ودرع حربه، وأسلحته التي يقضي بها علينا، نحن أعداؤه، نحن الراغبون حتى في تعريض أرواحنا للخطر لتحقيق السلامة لأحبتنا، ولتحقيق خير البشر، وإجلالًا لله وإعلاءً لمجده».

بعد مناقشة عامة قرَّرنا أنَّه لا ينبغي لنا الليلة اتخاذ قرار نهائي وحاسم، وأننا يجب أن نكتفي بما لدينا من حقائق، وأن نحاول التفكير كي نستخلص الاستنتاجات الصحيحة. سوف نجتمع في

الغد على الفطور مرة أخرى، وبعد أن يعرض كلٌّ منَّا استنتاجاته على الآخرين، سوف نقرر وسيلة محدَّدة للقيام بمهمتنا.

. . . .

أشعر الليلة بطمأنينة وراحةٍ مذهلتين. وكأنَّ شبحًا يسكنني أزيل عن كاهلي. ربما...

لم يصل ظنِّي بالطمأنينة والراحة حدَّ الكمال، ولا يمكن له ذلك، إذ لمحتُ في المرآة العلامةَ الحمراء على جبيني، وعرفت أني لا أزال دنسة.

مذكَّرات الدكتور سيوِرْد

٥ أكتوبر- نهضْنَا جميعًا مبكِّرين، وأظنُّ أن النوم بعث فينا الراحة كلنا بلا استثناء. وعندما اجتمعنا على مائدة فطور مبكِّر اعتلت وجوهَنا بشاشةٌ شاملة بصورةٍ لم يتوقَّع أي منا قط أنها سترتسم على وجهه مرة أخرى.

إنه لمذهل حقًا مقدار المرونة الموجودة في الطبيعة البشرية. فما إن يتلاشى أي عائق، مهما يكن، بأي طريقة -حتى ولو عن طريق الموت- إلا وحلَّقْنَا راجعين إلى جوهر طبائعنا الأول المتمثِّل في الأمل والسرور. لأكثر من مرَّة ونحن جالسون حول المائدة، فتحتُ عيني في دهشة متسائلًا فيما إذا لم تكن الأيام الماضية برمتها حلمًا. ولم أرجع إلى الواقع إلَّا عندما وقعت عيناي على البقعة الحمراء على

جبين السيِّدة مينا هاركر. وحتى في هذه اللحظة، وأنا أقلِّب المسألة على وجوهها بجدية بالغة، يكاد يكون من المستحيل أن أدرك بأن سبب كل اضطرابنا ما يزال موجودًا. بل يبدو حتَّى أن السيِّدة مينا نسيت قلقها طوال الفترة الماضية، ولكن يحدث فقط من حين لآخر أن شيئًا يذكرها، فتبدأ في التفكير في ندبتها الرهيبة مرَّة ثانية. من المقرَّر أن نجتمع هنا في مكتبي في غضون نصف ساعة ونقرِّر الخطة التي سنتبعها في مهمتنا. أرى عائقًا مباشرًا واحدًا فقط، وقد هَدَتْنِي إليه فطرتي وليس عقلي: ينبغي لنا جميعًا أن نتكلَّم بصراحة، ومع ذلك أخشى أن ينعقد لسان السيِّدة مينا هاركر المسكينة بطريقة غامضة. إنني أعلم أنها تصوغ استنتاجات تميِّزُها وحدَها، ومن كل ما جرى أستطيع أن أخمِّن أن استنتاجاتها لا بدَّ بالغة الذكاء وصحيحة جدًا، ولكنَّها لن تنطق بها صراحةً، أو بالأحرى لن تستطيع. لقد ذَكَرْتُ ذلك لڤان هيلسنغ، وسوف أتحدَّث معه في هذا الأمر مرَّة أخرى عندما نكون وحدَنا. أظن أن بعضًا من ذلك السم الفظيع الذي دخل إلى عروقها قد بدأ يفعل فعله. فقد كان للكونت مآربه الخاصة عندما منَحَهَا ما يسميه ڤان هيلسنغ «تعميدًا بالدَّم من مصاص الدماء». لا بأس، فربما يكون هناك ضربٌ من ضروب السم يستقطر نفسه من الأشياء الطيبة، ولا ينبغي لنا أن نتعجَّب من أي شيء في زمنٍ بات فيه وجود التومين[1] أمرًا محيِّرًا! أعرف أمرًا واحدًا: أعرف أنه إذا كان حدسي في محله فيما يخص فترات الصمت التي تمرُّ بها السيِّدة مينا هاركر، فثمَّة إذن عائقٌ

(١) مركَّبات نيتروجينية سامَّة تَنْتُجُ أثناء تحلُّل البروتينات النباتية أو الحيوانية.

رهيب -بل خطر مجهول- في المهمة التي تنتظرنا. فالقوة نفسها التي ترغمها على الصمت ربما ترغمها على الكلام. ولا أجرؤ على التفكير فيما هو أبعد من ذلك، لأني إن فعلتُ فإنما أهينُ في طريقة تفكيري امرأةً نبيلةً!

سيأتي ڤان هيلسنغ إلى مكتبي قبل الآخرين بمدةٍ قصيرةٍ. وينبغي لي أن أحاول فتح الموضوع معه.

لاحقًا- عندما دخل البروفسور ڤان هيلسنغ، تحدَّثْنَا في ما آلت إليه الأمور. لاحظتُ أنَّ هناك شيئًا ما يدور في خلدِه وأردتُ له أن يقوله، ولكنه شعر ببعض التردُّد إزاء مفاتحتي في الموضوع. وبعد قليل من اللف والدوران، قال فجأة:

«يا صديقي جون، هناك أمرٌ يجب أن نتحدَّث فيه أنا وأنت وحدَنا، حديثًا مبدأيًا فقط على أي حال. وربما لنا لاحقًا أن نفضي بسرِّنا إلى الآخرين ونستأمنهم عليه» توقَّف عن الكلام، فانتظرْتُه، ثم مضى يقول:

«إنَّ السيِّدة مينا، صديقتنا السيِّدة مينا العزيزة المسكينة تتغيَّر». اعتَرَتْنِي ارتعاشة باردة إذ وجدتُ ما يؤكِّد مخاوفي الفظيعة. وتابع ڤان هيلسنغ قائلًا:

«في ضوء التجربة المحزنة التي مرَّت بها الآنسة لوسي، علينا هذه المرة أن نتنبَّه للأمر قبل فوات الأوان كثيرًا. في الواقع إن مهمتنا الآن أصعب من قبل، وهذه المشكلة الجديدة تجعل كل ساعة ذات أهمية قصوى. إني لأرى علامات مصَّاص الدماء تظهر

على وجهها. ولكنها الآن ليست سوى علامات خفيفة جدًا جدًا، ولكن يمكن رؤيتها إذا لاحظناها ببصيرةٍ لا تشوبها العواطف. فقد صارت أسنانُها أحدَّ نوعًا ما، وتبدو عيناها أكثر تجهمًا أحيانًا. ولكن هذه العلامات ليست كل شيء، إذ هناك هذا الصمت الذي صار الآن يلازمها أغلب الأحيان، كما كان الحال مع الآنسة لوسي. إنها لم تتحدث، حتى عندما كتبَتْ بعض الأمور التي ودَّت أن نعرفها لاحقًا. وتتمثل خشيتي الآن فيما يلي: إذا كان باستطاعتها أن تقول لنا، عن طريق تنويمها مغناطيسيًا، ما الذي يراه الكونت ويسمعه، أوليس صحيحًا بدرجة أكبر أن الشخص الذي نوَّمَها مغناطيسيًا أول مرة، والذي شرب من دمها مباشرة وجعلها تشرب من دمه، أن يستطيع إذا شاء أن يجبر عقلها على أن يكشف له ما تعرف؟»
أومأتُ موافقًا ثم مضى قائلًا:

«إذن، ما ينبغي لنا فعله هو أن نَحُولَ دون هذا، ينبغي لنا أن نبقيها جاهلةً بنوايانا، وبهذا لا تستطيع أن تقول ما لا تعرف. إن هذا إجراءٌ مؤلم! أوه، مؤلم جدًا حتى أن قلبي ينفطر عندما أفكِّر فيه، ولكن لا بد منه. عندما نجتمع اليوم، ينبغي لي أن أبلغها بأنَّ عليها ألَّا تجتمع معنا لسببٍ لن نفصح عنه، ولكننا ببساطة سنحميها».
ثم مسح جبينه، الذي كان قد سال عليه العرق الشديد عند التفكير في الألم الذي قد يسببه لهذه الروح المسكينة المعذَّبة. أعرف أنه سيكون هناك نوع من الطمأنينة إذا قلتُ له بأني قد توصَّلتُ أيضًا إلى الاستنتاج ذاته، لأنه على أي حال سيزيل ألم الريبة من نفوسنا. فأخبرته، وكان تأثير ذلك كما توقَّعْت.

ها قد اقترَب الآن موعد اجتماعنا العام. وقد ذهب ڤان هيلسنغ لكي يحضِّر للاجتماع ولدورِه المؤلم فيه. أظن بأن غايته الحقيقية من الذهاب هي رغبته في أنْ يكون قادرًا على أن يصلِّي بمفرده.

لاحقًا- في مستهل اجتماعنا عبَّرْتُ وڤان هيلسنغ عن ارتياحنا الشخصي البالغ لأن السيِّدة مينا هاركر أرسلتْ رسالةً عن طريق زوجها تقول فيها إنَّها لن تنضَّم إلى اجتماعنا في الوقت الحالي، نظرًا لأنها تظن أنه من الأفضل لنا أن يكون لنا مطلق الحرية في مناقشة خطواتنا القادمة دون أن يربكنا حضورها. تَبَادَلْتُ النظرات مع البرفسور ڤان هيلسنغ لحظة، وبدت على كلينا معالم الارتياح نوعًا ما. فمن ناحيتي، فكَّرتُ أنه إذا أدركت السيدة مينا هاركر الخطر بنفسها، فقد تفادينا الكثير من الألم وكذلك الكثير من الخطر. ففي ظل الظروف الحالية اتفقنا -بنظرة استفهامية وجواب من خلال وضع الإصبع على الشفة- على أن نبقي شكوكنا طيَّ الكتمان، إلى أن يتيسر لنا أمر التشاور في ذلك وحدنا مرة أخرى. ثم بدأنا من فورنا مناقشة تفاصيل خطة حملتنا. عَرَض ڤان هيلسنغ بإيجاز الوقائع أمامنا أولًا قائلًا:

«لقد أبحَرَت السفينة زارينا كاثرين من نهر التيمز صباح البارحة. وستستغرق ثلاثة أسابيع على الأقل إذا انطلقت بأقصى سرعة سارت بها في تاريخها لكي تصل إلى ڤارنا، ولكننا نستطيع السفر إلى المكان عينه برًا في ثلاثة أيام. والآن، إذا وضعنا في الحسبان أن السفينة ستصل في مدة تقل يومين عن المدَّة المقررة

بسبب العوامل الجويَّة التي نعرف أنَّ الكونت قادرٌ على توظيفها، وإذا أخذنا في الحسبان نهارًا كاملًا وليلة لأي تأخيرات قد تعترض طريقنا، فيكون عندئذٍ في جعبتنا هامشٌ زمنيٌّ يبلغ أسبوعين تقريبًا. ولذلك، وتوخيًا للسلامة الكاملة، علينا أن نغادر من هنا في السابع عشر من الشهر الحالي كحدٍّ أقصى. ومن ثمَّ ينبغي لنا أن نصل إلى ڤارنا على أي حال قبل وصول السفينة بيوم، وأن نكون قادرين على اتخاذ الاستعدادات حسبما تمليه الضرورة. ينبغي لنا بالطبع أن نذهب مسلَّحين، مسلَّحين ضد الأخطار الشريرة، الروحيَّة منها والمادية». وهنا أضاف كوينسي مورِس قائلًا:

«مما فَهِمْتُه أن الكونت ينحدر من بلدٍ مشهورٍ بالذئاب، وأنه ربَّما يصل إلى هناك قبلنا. ولذا أقترح أن نضيف بنادق الوِنْشِسْتر إلى أسلحتنا. فعندي ثقة ببندقية الوِنْشِسْتر عندما يعترضني مأزقٌ من هذا النوع. ألا تتذكر يا أرثر عندما طارَدْنَا قطيع الذئاب في توبولسك؟ فما الذي سنخسره إذا ما كرَّرنا استخدام تلك البنادق في مهمتنا!». فقال ڤان هيلسنغ:

«جيِّد!، علينا ببنادق الوِنْشِسْتر. إن تفكير كوينسي يصيب الحقيقة بدقة طوال الوقت، ولكنه يكون أكثر دقة في مواضيع الصيد، رغم أن المجاز يهين العلم أكثر مما تشكل الذئاب خطرًا على الإنسان. وفي الوقت الحالي لا يمكننا أن نفعل أي شيء هنا، ونظرًا لأني أعتقد أنَّ أيًّا منا لا يعرف شيئًا عن ڤارنا، فلمَ لا نذهب إليها في موعدٍ أقرب؟ فمدة الانتظار هنا مساوية للمدَّة التي سننتظره فيها

هناك. ويمكننا أن نستعد الليلة وغدًا للسفر، ومن ثمَّ، إذا جرى كل شيء على ما يرام، فيمكننا نحن الأربعة أن ننطلق في رحلتنا».

«نحن الأربعة؟» قال جوناثان هاركر مستفسرًا، وهو ينظر إلينا واحدًا إثر آخر. أجاب البروفسور ڤان هيلسنغ بسرعة:

«بالطبع! فعليكَ أن تبقى لتعتني بزوجتك اللطيفة!». لاذ جوناثان بالصمت لوهلةٍ ثم قال بصوتٍ أجوفٍ:

«دعونا نبحث في هذه الجزئية من نقاشنا في الصباح. فأنا أريد التشاور مع مينا». حسبتُ أن هذه هي اللحظة المناسبة لڤان هيلسنغ حتى ينبِّه جوناثان لكيلا يبوحَ لها بخططنا، ولكنه لم يفعل ذلك. فنظرتُ إليه نظرة ذات معنى وسَعَلتُ. أجابني بوَضع إصبَعَه على شفتيه وأشاح بوجهه عنِّي.

يوميَّات جوناثان هاركر

٥ أكتوبر، بعد الظهر- بتُّ عاجزًا عن التفكير لبعض الوقت بعد اجتماعنا صباح اليوم. الأطوار الجديدة لتغيُّر الأحداث تَرَكَتْ عقلي في حالة من الدهشة لم تتح معها مجالًا للتفكير الفعَّال. فإصرار مينا على عدم المشاركة في النقاش أطلقت العنان لأفكاري، ونظرًا لأني لا أستطيع محاججتها في الأمر، لم يكن بإمكاني سوى أن أخمِّن ما الذي يحصل. أنا الآن أبعد ما أكون عن التوصُّل إلى حل. كما أن الطريقة التي استقبل بها الآخرون الأمر حيَّرَتْنِي أيضًا، فقد اتفقنا في آخر مرة بحثنا فيها الموضوع على ألَّا يخفي أحدنا أيَّ سرٍّ عن

الآخرين. مينا نائمة الآن بهدوء وعذوبة مثل طفلة صغيرة. شفتاها مقوَّسَتَان ووجهها يشرق سعادةً. الحمد لله، فلا تزال هناك لحظات هانئة تنعم بها مثلما هو حالها الآن.

لاحقًا- يا لغرابة كل ما جرى! فقد جلستُ أراقب نوم مينا الهانئ، وشعرت أنني سأبلغ من السعادة درجة الكمال التي أظنها. وما إن اقترب المساء، وانتشرت الظلال على الأرض بفعل الشمس الغاربة، إلَّا وزاد الصمتُ في الغرفة وغدا أكثر وأكثر رزانةً بالنسبة لي. ثمَّ فتَحت مينا عينيها فجأة، وقالت، وهي تنظر إلى برقَّة:

«جوناثان، أريدكَ أن تقطع عليَّ عهدًا وتعطيني كلمة شرف على ذلك. صحيحٌ أنك ستتعهد أمامي، ولكنه عهد تقطعه بصورة مقدَّسة والله يسمعنا، وأريدك ألَّا تحنث بهذا العهد حتى لو اضطررتُ لأن أجثو على ركبتيَّ وأتوسَّلُ إليكَ بدموعي المرَّة. أسرع، فعليك أن تقطع عليَّ ذلك العهد في الحال». فقلتُ:

«يا مينا، لا يمكنني أن أقطع عليكِ عهدًا مثل ذاك من فوري. فربما ليس لي الحق في أن أقطع ذلك العهد». فقالت وروحها تتوهج حتى أنَّ عينيها لمعتا مثل نجم القطب:

«ولكن يا عزيزي، أنا من يرغب بذلك، ولست أطلبه لنفسي. ويمكنك أن تسأل الدكتور ڤان هيلسنغ إذا لم أكن صادقة، فإذا لم يوافق فيمكنك أن تفعل كما تشاء. ليس ذلك فحسب، بل إذا وافقتم جميعًا لاحقًا، فأنتم في حلٍّ من ذلك العهد».

«أتعهَّد لكِ بذلك» قلتُ، وبدتْ للحظةٍ في قمة السعادة، رغم

أن الندبة الحمراء على جبينها تنافي كل هذه السعادة كما أظن. ثم قالت:

«اقطع على نفسك عهدًا بأنك لن تقول لي أي شيء عن الخطط الموضوعة للحملة ضد الكونت. ولا حتى كلمة، أو استنتاج، أو تلميح، ولا في أي وقت طالما بقيت هذه على جبيني!» وأشارت بجديةٍ بالغة إلى الندبة. رأيتُ أنها كانت جادَّة فيما قالته، ولذا قلتُ لها بجدية أيضًا:

«أتعهَّد لكِ بذلك!» وبينما قلتُ ذلك شعرتُ بأنَّ بابًا أوصد بيني وبينها في تلك اللحظة.

لاحقًا، منتصف الليل– بقيت مينا مشرقةً ومبتهجةً طوال المساء. وقد بلغ ذلك درجةً كبيرة جعلت بقية الأصدقاء يتشجَّعُون، وكأن عدوى فرحها انتقلت إليهم، ونتيجة لذلك حتى أنا شَعرتُ بأن غمامة الحزن التي أثقَلَتْ صدورَنا قد أزيحت عنَّا نوعًا ما. ذهبنا جميعًا إلى النوم باكرًا. وها هي مينا تنام الآن مثل طفلة صغيرة، إنه لأمر مذهل أن قدرتها على النوم بقيت ملازمة لها وسط غمار همِّها الرهيب. حمدًا لله على تلك النعمة، لأنها بذلك تستطيع على الأقل نسيان انشغالها بهمِّها. ربما تكون في ذلك قدوةً لي أَتَّبِعُهَا مثلما فَعَلَ فيَّ فرَحُهَا الليلة. ينبغي لي أن أحاول النوم. أوه! كم أود أن أنام نومًا بلا أحلام.

صباح ٦ أكتوبر– حصلت مفاجأة أخرى. أيقظتني مينا باكرًا، في الوقت نفسه الذي أيقظتني فيه البارحة، وطلبَتْ مني أن أستدعي

الدكتور ڤان هيلسنغ. حسبتُ أن تلك ستكون مناسبة أخرى لإجراء التنويم المغاطيسي، فذهبت إلى البروفسور دون أن أسأل عن شيء. من الواضح أنه توقَّع أن نستدعيه على هذا النحو، لأني وجدْتُه مرتديًا ثيابه في غرفته، وكان بابه مواربًا، حتى يتسنى له سماع فتح باب غرفتنا. جاء من فوره، وبينما دخل غرفتنا، سأل مينا إذا ما كان يمكن للآخرين أن يأتوا أيضًا. فقالت بكل بساطة:

«لا، لا ضرورة لمجيئهم. يمكنك أن تقول لهم ماذا حصل. عليَّ أن أذهب معكم في رحلتكم».

فزع الدكتور ڤان هيلسنغ مثلما فزِعْتُ. فسألها بعد لحظة صمت:

«ولكن لماذا؟»

«عليكم أن تأخذوني معكَم. فأنا أشعر بالأمان أكثر معكم، وستكونون أنتَم بأمان أكثر أيضًا».

«ولكن لماذا يا عزيزتي السيِّدة مينا؟ أنتِ تعرفين أن الحفاظ على سلامتك أقدس واجباتنا. نحن ذاهبون إلى الخطر الذي أنتِ معرَّضة له، أو ربَّما وقعتي فيه، أكثر من أي واحد منا في ظل الظروف والوقائع التي حدثت». ثم توقَّف عن الكلام مرتبكًا.

وبينما كان يردُّ عليها، رفعتَ إصبعها وأشارت به إلى جبينها وقالت:

«أعرف. ولذلك يجب أن أذهب. أستطيع أن أقول لكَ ذلك الآن بينما تشرق الشمس، وقد لا أكون قادرة على ذلك مرة أخرى.

أعرف أنه عندما يريد لي الكونت الذهاب فعليَّ أن أذهب. أعلم أنه إذا طَلَبَ مني أن أذهب سرًا، فإنه عليَّ أن أذهب بالحيلة بأي وسيلة ماكرة، وحتَّى جوناثان يجب أن يذهب». ويشهد الله على النظرة التي رمَقَتْنِي بها وهي تتكلم، ولو كان هناك بالفعل ملاك يسجل أعمال المرء فإن تلك النظرة تحسب في سجل مكرماتها الدائمة التي لا تزول. لم يكن بوسعي سوى أن أشبك يدي بيدها، فقد عجزْتُ عن الكلام، وتأجَّجتْ مشاعري بشدة حتى فاقَت قدرتي على ذرف الدموع. ثم تابَعَتْ تقول:

«أنتم الرجال شجعان وأقوياء. وأنتم أقوياء بكثرة عددكم، إذ تستطيعون التصدِّي لذلك الذي يستطيع أن يهزم أشد الرجال تحملًا إذا ما كان وحده. إضافة إلى ذلك، فقد أكون مفيدة لكم، لأنك تستطيع أن تنومني مغناطيسيًا وبذلك تعلم أشياء حتى أنا نفسي لا أعلمها». فقال الدكتور ڤان هيلسنغ بجدية بالغة:

«إنك يا سيدة مينا، شديدة الحكمة كعادتك. وينبغي للكِ أن تأتي معنا، ومعًا سوف نمضي لبلوغ مرادنا». بعد أن فرغ من كلامه، جعَلَتْنِي نوبة الصمت الطويلة التي دخلت فيها مينا أنظر إليها. سقَطَتْ على وسادتها نائمة، ولم تستيقظ حتَّى عندما رفعتُ الستارة وسمحت لضوء الشمس بالدخول ليعمَّ أرجاء الغرفة. أشار لي ڤان هيلسنغ بأن أذهب معه بهدوء. ذهبنا إلى غرفته، وما هي سوى دقيقة إلَّا وانضم إلينا اللورد غودالمنغ، والدكتور سيوِرْد والسيد كوينسي مورِس. فحدَّثهم بما قالته له مينا، ومضى يقول:

«سنغادر في الصباح إلى ڤارنا. فنحن مضطرون الآن للتعامل مع عنصرٍ جديدٍ في مهمتنا، وأعني السيِّدة مينا. أوه، ولكن روحها صادقة. إن هذا القدر الكبير الذي أخبَرَتْنَا به إنما يزيد كربها مثلما فَعَلَت، ولكنه صحيح تمامًا، وقد نُبِّهْنَا إلى ذلك في الوقت المناسب. علينا ألَّا نضيع أي فرصة، وعلينا أن نكون جاهزين في ڤارنا لنتصرف على الفور عندما تصل تلك السفينة».

«ماذا ينبغي لنا أن نفعل بالضبط؟». سأل السيِّد كوينسي مورِس بإيجاز. فصمت البروفسور ثم أجاب:

«ينبغي لنا في البداية أن نصعد على ظهر تلك السفينة، ومن ثمَّ، عندما نحدِّد مكان الصندوق، علينا أن نضع غصن وردة برية فوقه. وعلينا أن نسرع في هذا الإجراء، لأنه ما إن توضع الوردة البرية على الصندوق فلا يمكن لأحدٍ أن يخرج منه، هذا ما تقوله الأسطورة على الأقل. ويجب علينا أن نثق بالأسطورة أولًا، فهي نابعة من إيمان الإنسان في القديم، وجذورها ممتدة فيه حتى وقتنا الحالي. بعدها، حين تلوح لنا الفرصة التي نسعى إليها، عندما لا يكون هناك أحدٌ قربنا ليرى ماذا سيحصل، ينبغي لنا أن نفتح الصندوق، و... وسيكون كل شيء على ما يرام». فقال كوينسي مورِس:

«لن أنتظر أي فرصة. فعندما أرى الصندوق سأفتحه وأقضي على الوحش، حتى لو كان هناك ألف رجل يتفرَّجون، وحتى لو كان في ذلك هلاكي في اللحظة التالية!». أمسكتُ يده لاإراديًا

فوجدتُها شديدة مثل قطعة من الفولاذ. وأظنُّه فهم مغزى نظرتي، آمل أنه فهم. قال الدكتور ڤان هيلسنغ:

«ونعم الشاب الطيب! ونعم الشاب الشجاع! إن كوينسي رجل لم تلد مثله النساء. فليباركه الله على ذلك. يا بني، صدِّقني بأنَّه ما من أحد منَّا سيتراخى أو يردعه أي خوف. ولكني لا أقول سوى ما يمكن أن نفعله، ما يجب أن نفعله. ولكن، بالفعل، بالفعل لا نستطيع أن نقول ماذا ينبغي لنا أن نفعل. هناك عدد كبير من الأمور التي قد تحدث، وسبلها ونهاياتها متعددة جدًا بحيث لا نستطيع حتى هذه اللحظة أن نحدد ما تكون. ينبغي لنا أن نتقلَّد أسلحتنا جميعًا، بكافة الوسائل، وعندما يحين موعد النهاية، فلن يعتري جهدنا أي نقص. والآن دعونا اليوم نرتب شؤوننا بصورة منظَّمَة. ولتكتمل كل الأشياء التي تؤثر على أعزاءنا الآخرين الذين يعتمدون علينا، لأنه لا أحد منا يمكنه أن يعرف ماذا، ومتى، وكيف قد تكون النهاية. أمَّا من ناحيتي، فإن شؤوني منظَّمَة، ونظرًا لأنه ليس عندي شيء آخر أفعله، فسأذهب وأتخذ الترتيبات الخاصة بالسفر. وسوف أبتاع التذاكر وباقي الأمور استعدادًا لرحلتنا».

لم يبق هناك أي كلام يضاف، ولذا افترقنا. ينبغي لي الآن أن أسوي كل شؤوني الحياتية اليومية، وأكون مستعدًا لما قد يأتي...

لاحقًا- سويَّتُ أموري كافة، وكتبتُ وصيتي، واستكملت كل شيء. ستكون مينا وريثتي الوحيدة إذا كتبت لها النجاة. وإذا

كان مصيرها غير ذلك، فعندئذٍ سيكون للآخرين الذين كانوا طيبين جدًا معنا نصيبٌ من الميراث.

تميل الشمس الآن نحو الغروب، واضطراب مينا يثير اهتمامي به. أنا متأكد من وجود شيء ما في بالها سيكشفه وقت الغروب الدقيق. لقد باتت هذه الوقائع لحظاتٍ تدمي قلوبنا جميعًا، فمع كل شروق وغروب تُفْتَحُ الأبواب على خطر جديد، على ألم جديد، ألمٍ سيكون، على أي حال، وبمشيئة الله، وسيلة للوصول إلى غايةٍ نبيلةٍ. إني أكتب كل هذه التفاصيل في المذكَّرات لأنَّ زوجتي العزيزة يجب ألَّا تسمعها، ولكن إذا حصل وسنحت الفرصة لها لكي تطَّلِع عليها مرة أخرى، فسوف تكون في متناول يدها.

ها هي تنادي عليَّ.

الفصل الخامس والعشرون

مذكَّرات الدكتور سيورد

مساء ١١ أكتوبر- لقد طلب إليَّ جوناثان هاركر أن أدوِّن هذه المذكرات، إذ قال إنَّه بالكاد قادرٌ على القيام بهذه المهمَّة، كما أنَّه يريد حفظ سجلٍّ دقيق بالأحداث.

لا أظنُّ أنَّ أيًا منَّا تفاجَئَ عندما طُلِبَ إلينا أن نرى السيِّدة مينا هاركر قبيل موعد الغروب بقليل. فقد انتهى بنا المطاف مؤخرًا بأن أدركنا أنَّ الشروق والغروب هما موعدا شعورها بانعتاقٍ غريبٍ، حيث تستطيع شخصيتها المعهودة حينها أن تَظْهَرَ دون أي قوة مسيطرة تُخْضِعُهَا أو تقيِّدُها أو تحرِّضها على إتيانِ فعلٍ ما. يبدأ هذا المزاج أو الحالة قبل حوالي نصف ساعة أو أكثر من الموعد الفعلي للشروق أو الغروب، ويستمر حتَّى ارتفاع الشمس في كبد السماء، أو بينما تكون السحب ما تزال متوهِّجَةً بفعل الأشعة المتدفقة فوق الأفق. في البداية كان يصيبها ضربٌ من حالة سلبية، وكأنَّ رباطًا قد أرخي، بعد ذلك وبسرعة يأتي الانعتاقُ المطلقُ؛ حيث يتسبب بإيقاف حالة التغير التي كانت تمر

بها أو يؤدي لانتكاستها سريعًا، ويحدث كل هذا مسبوقًا بفترة من الصمت المُنْذِرِ بالخطر.

عندما اجتمعنا الليلة كانت تبدو متكلفة شيئًا ما، وبانت عليها كل علامات الصراع الداخلي. عزوتُ ذلك إلى أنَّها كانت تبذل جهدًا مضنيًا في أقربِ فرصة تسنح لها لفعل ذلك. وعلى أي حال، فقد كان هنالك بعض الدقائق القليلة التي أحكمت فيها السيطرة على نفسها بالكامل، إذَّاك، وبينما كانت تشير إلى زوجها بالجلوس قربها على الأريكة حيث كانت شبه مستلقية، طلَبَت منَّا أنْ نقترب بكراسينا نحوها. بدأت حديثَها وهي تمسكُ بيد زوجها قائلة:

«جميعنا أحرارٌ هنا، وربَّما للمرة الأخيرة! وأنا أعرف يا عزيزي، أعرف أنَّك ستبقى دائمًا معي حتى النهاية». كان هذا الكلام موجَّهًا إلى زوجها الذي شدَّ يدَه في يديها، كما رأينا. ثم أرْدَفَتْ: «سنمضي في الصباح لتنفيذ مهمتنا، والله وحدَه يعلم ماذا يخبِّئ لنا الغيب. وستكونون بغاية الإحسان لي إذ تصطحبونني معكم. وأنا أعرف أنكم ستفعلون كل ما يمكن للرجال الشجعان المخلصين أن يفعلوه لامرأة ضعيفة مسكينة، ربَّما فقدت روحَها، -لا، ليس بعد، ولكنَّها معرضة للخطر على أي حال-. ولكن عليكم أن تتذكَّروا أنني لَسْتُ مثلكم. فثمة سمٌّ في دمي، في روحي، وربَّما يقضي عليَّ، بل سيقضي عليَّ ما لم يأتنا بعض الغوث. أوه يا أصدقائي، فأنتم تعلمون كما أعلم، أنَّ روحي في خطر، ورغم أني أعرف أن هناك

سبيلًا واحدًا لي للخلاص، فلا ينبغي لكم ولا لي سلوكه!». ثم نظرتْ إلينا واحدًا إثر آخر باهتمام، ابتداءً بزوجها وانتهاءً به مرة أخرى. فسألها ڤان هيلسنغ بصوتٍ أجش:

«وما ذاك؟ ما ذاك السبيل الذي لا ينبغي لنا -أو ربَّما لا ينبغي لنا- أنْ نسلكه؟».

«أنه يمكنني أن أموت الآن، إما بيدي أو بيد غيري، قبل القضاء تمامًا على الشر الأكبر. فأنا أعلم، وأنتم تعلمون، أنه حالما أموت فإنه يمكنكم عتق روحي الخالدة، وستفعلون ذلك، مثلما أعتقتم روح صديقتي المسكينة لوسي. فلو أن الموت، أو الخوف منه، هو العقبة الوحيدة الماثلة في الطريق لما تَرَاجَعْتُ عن الموت هنا، الآن، وسط أصدقائي الذين يحبونني. بَيْدَ أنَّ الموت ليس كل شيء. فأنا لا يمكنني أن أصدِّق أنَّ مشيئة الله تقتضي أن أموت في مثل هذه الحالة عندما يكون هناك أمامنا أملٌ ومهمة صعبة الاحتمال ينبغي القيام بها. وبناءً على ذلك، فأنا من ناحيتي، أتخلَّى هنا عن يقين الراحة الأبدية، وأنطلق إلى العتمة حيث ربما تكون هناك الأشياء الأشد ظلمةً والتي يحملها العالم أو العالم السفلي!». صمَتْنَا جميعًا، إذ أدركنا غريزيًا أنَّ هذا ليس سوى مقدِّمة لما ستقوله لاحقًا. كانت وجوه الآخرين متجهمة، وغدا وجه جوناثان كالرماد، فربما أنبأه حدسه أكثر من أيٍّ منَّا بما هي موشكة على قوله. ثم تابَعَتْ:

«هذا ما أستطيع أن أقدمه من خلال دمج الممتلكات وإعادة تقسيمها بالتساوي». لم يسعني سوى الانتباه إلى المصطلح القانوني

الغريب الذي استخدَمَتْه في هذا المقام بكل جديَّة. ثم تابَعَتْ بسرعة: «ماذا سيعطي كل واحد منكم؟ أعرف أنكم ستجودون بحياتكم، فذلك سهل على الشجعان. فحيواتكم ملك لله، ويمكنكم أن تعيدوها إليه، لكن ماذا ستعطونني أنا؟». نَظَرَتْ مرَّةً أخرى مستفسرة، ولكنها تحاشَتْ هذه المرَّة وجه زوجها. وبدا أن كوينسي فهم الأمر، أومأ برأسه، فأشرق وجهُهَا وأضافت: «إذنْ سأقول لكم بصراحة ماذا أريد، لأنه لا يجب أن يكون هناك موضع للشكِّ في هذا الاجتماع بيننا الآن. وعليكم أن تعدوني جميعًا بلا استثناء، وحتى أنتَ يا زوجي الحبيب، بأنكم ستقتلونني عندما يحين الوقت».

«ومتى يحين ذلك الوقت؟» كان السائل كوينسي مورِس، وإن بصوتٍ خفيضٍ ومُتْعَبٍ.

«عندما تقتنعون بأني تغيَّرتُ كثيرًا لدرجةٍ بات فيها موتي أفضل من استمراري في العيش. وهكذا عندما أموت جسدًا، عندها، ودون تأخيرٍ ولو لحظة، ستدخلون في جسدي وتدًا وتقطعون رأسي، أو اعملوا أي شيء آخر قد يلزم لتمنحوني الراحة!».

كان كوينسي أول من نهض بعد الصمت الذي خيَّم. وجثا أمامها وقال برزانة وهو يمسك يدها بيده:

«لستُ سوى شخص فظ، شخصٍ لم يعش ربَّما كما يليق برجل أن يعيش ليحظى بمثل هذا الشرف، ولكنِّي أقسم لكِ بكل ما أعدُّه مقدَّسًا وغاليًا عليَّ بأنه ما إن يحين ذلك الوقت، فإني لن أتراجع عن الواجب الذي وضعتِه على كاهلنا. وأنا أعدكِ أيضًا بأني سأجعل

الجميع على يقين من ذلك، لأنَّه إذا ما ساورني الشك فقط في الأمر فإني سأعدتبر أنَّ الوقت قد حان!».

«يا صديقي الوفي!» كان ذلك كل ما استطاعت قوله وسط دموعها سريعة الانهار، ثم انحنت وقبلت يده.

«وأنا أقسم القسم ذاته، يا عزيزتي السيدة مينا!» قال ڤان هيلسنغ.

«وكذلك أنا!» قال اللورد غودالمنغ، وجثا كل منهم بالدَّور ليقسموا على ما قالوه. تَبِعْتُهُم أنا في ذلك. ومن ثمَّ التَفَتَ إليها زوجُها بعينين يميل شحوبهما إلى اخضرار غلب بياض شعره الثلجي، وسألَهَا:

«وهل عليَّ أنْ أقسم أنا أيضًا مثل هذا القسم يا زوجتي؟» أجابت وقد شابَ صوتَها وعينيها حنوٌّ لا حدود له؛ حنوٌّ خالطَتْه الرأفة: «وأنتَ أيضًا يا عزيزي الغالي. عليكَ ألا تتراجع خائفًا. فأنتَ الأقربُ والأعزُّ وأنت عالِمِي كلّه، وقد توحدت روحي وروحك في هذه الحياة وإلى الأبد. وتذكَّر يا عزيزي، بأنَّه ثمَّة أوقاتٌ أقدَم فيها رجال شجعان على قتل زوجاتهم وقريباتهم ليحموهنَّ من السقوط بين يدي العدو. ولم تتوانَ سواعدهم ألبتة عن فعل ذلك، لأن أولئك النساء اللاتي يحبونهنَّ توسلنَ إليهم حتى يذبحوهن. إنَّه واجب الرجال تجاه من يحبون في مثل هذه المحن المؤلمة! أوه يا عزيزي، لو كُتِبَ عليَّ أن ألقى الموت على يد أي إنسان، فلتكن إذن يد ذلك الذي يعشقني. دكتور ڤان هيلسنغ، لم أنسَ ما

فعلتَه في قضية لوسي المسكينة عندما رَأفْتَ بحال ذلك الذي أحبَّتْه» ثم صمتَتْ وقد تسلل توردٌ إلى وجنتيها، وبدَّلَتْ عبارَتَها لتقول: «بحال ذلك الذي يحقُّ له دون غيره أن يمنحها الراحة. وإذا قُدِّرَ وأن عادت تلك اللحظة مرَّةً أخرى، فإني آمل منك أن تجعلها ذكرى سعيدة في حياة زوجي بجعل يده الحانية هي التي تحررني من هذه الفظاعة الواقعة على عاتقي».

«أُقْسِمُ على ذلك مرة أخرى!» قال البروفسور بصوته الرنَّان. ابتسمت السيِّدة مينا هاركر ابتسامة فرح، واسترْخَتْ وهي تتنفس الصعداء وقالت:

«والآن أريد أن أنبِّهكم تنبيهًا ينبغي لكم ألَّا تنسوه أبدًا: إن تلك اللحظة، إذا حدث وجاءت أساسًا، ربما تأتي بسرعة وبصورة غير متوقعة، وفي مثل هذه الحالة عليكم ألَّا تضيعوا الوقت في استغلال فرصتكم. ففي تلك اللحظة ربَّما أكون أنا نفسي -ولِمَ أقول ربَّما! بل إنني سأفعل، إذا حدث وجاءت تلك اللحظة أساسًا- قد تحالفتُ مع عدوكم ضدكم».

«عندي طلبٌ آخر أطلبه إليكم» غدت بغاية الجدية وهي تقول ذلك: «إنه ليس بطلب أساسي وضروري مثل الطلب الأول، ولكني أريدكم أن تفعلوا شيئًا واحدًا من أجلي، إذا سمحتم». وافقنَاها جميعًا، ولكن لم يتكلم أحد، فلم يكن هناك ثمة حاجة إلى الكلام:

«أريدكم أن تتلوا عليَّ مراسيم الدفن». وهنا قاطَعَتْهَا تنهيدة

عميقة من زوجها، فأخذت يده ورفَعَتْهَا ووضَعَتْها فوق قلبها، وتابعَتْ حديثها: «عليكَ أن تتلو علي مراسيم الدفن يومًا ما. ومهما يكن مآل هذه القضية بتفاصيلها المخيفة، فستكون هذه فكرة عذبة لنا جميعًا أو للبعض منا. وآمل أن تتلوها علي أنت شخصيًا يا عزيزي إذ ستكون ذكراها مخلدة لدي بصوتك إلى الأبد، ومهما يكن من أمر!». فقال متوسلًا:

«ولكن أوه يا عزيزتي، إن الموت بعيد عنك ». فقالت وهي ترفع يدها منبِّهةً:

«لا، إنني غارقةٌ في الموت في هذه اللحظة أكثر مما لو كان قبرٌ يرزح بثقله فوقي!».

«أوه يا زوجتي، أيجب عليَّ تلاوتها؟» قال جوناثان قبل أن يبدأ.

«إن ذلك سيطمئنني يا زوجي!» ولم تزد على ذلك قولًا، وشرع يقرأ بعد أن جهَّزت له الكتاب.

«كيف يمكنني -بل كيف يمكن لأي امرءٍ كان- أن يصف ذلك المشهد الغريب؛ كآبته، وظلمته، وحزنه، ورعبه، وحلاوته أيضًا. فحتَّى المتشكِّك، المتشكِّك الذي لا يرى في أي شيءٍ مقدس أو عاطفي سوى محاكاة ساخرة لحقيقة مرَّة، سيذوب قلبه لو أنه رأى تلك الثلة الصغيرة من الأصدقاء المحبين والمخلصين وهم يركعون حول تلك السيِّدة المرتاعة المحزونة، أو سمع العواطف الرقيقة في صوت زوجها، وهو يقرأ بنبرات منكسرة جدًا تشوبها مشاعر اضطرته إلى التوقف والصمت في أغلب الأحيان، ردد

الكلمات الجميلة والبسيطة من مراسيم الدفن. أنا... أنا لا أستطيع أن أكمل... فالكلمات تخونني... وصـ...صوتي...يخذلني!».

لقد كان حدسها في محله. رغم الغرابة التي حصل فيها الأمر، وعلى كونه قد يبدو مستغربًا فيما بعد حتى بالنسبة لنا نحن الذين شعرنا بتأثيره الفعال حينئذٍ، فقد بثت الصلاة فينا كثيرًا من الطمأنينة، كما أن الصمت، الذي كان يشي بالانتكاسة الموشكة للسيِّدة مينا هاركر من انعتاق روحها، لم يبدُ مليئًا جدًا باليأس لأيٍّ منا كما كنا نخشى.

يوميات جوناثان هاركر

١٥ أكتوبر، ڤارنا- غادَرْنَا شيرينغ كرُس في صباح الثاني عشر من أكتوبر، ووصلنا باريس في ليل اليوم ذاته، وجلسنا في مقاعدنا المحجوزة لنا في قطار الشرق السريع. سافرنا ليلًا ونهارًا، ووصلنا إلى هنا في حوالي الساعة الخامسة. ذهب اللورد غودالمنغ إلى القنصلية ليستطلع إذا ما وصلته أي برقية، بينما جاء الباقون إلى هذا الفندق؛ فندق أوديسُس. تخللت الرحلة بعض الحوادث؛ وكنت متحمسًا جدًا لأن أتدبر الأمور، وأن أحل تلك الإشكاليات. لا شيء يشغلني الآن في هذا العالم الشاسع سوى وصول السفينة زارينا كاثرين إلى الميناء. الحمد لله! إنَّ مينا في صحة جيدة، ويبدو أنَّها تزداد قوة، كما استعادت نضَارة بشرتها. إنها تنام كثيرًا، فقد نامت طوال الرحلة تقريبًا. قبل

الشروق والغروب تكون مستيقظة ومتنبهة جدًا، وصار من عادة ڤان هيلسنغ أن ينوِّمَها مغناطيسيًا في تلك الأوقات. في البداية، تطلَّب الأمر منه بعض الجهد، مما اضطرَّه أن يحرِّك يديه أمامها عدة مرَّات، أما الآن فيبدو أنها تستسلم مباشرة للنوم وكأنَّها اعتادت ذلك، ونادرًا ما تكون هناك حاجة إلى اتخاذ إجراء ما. يبدو أنه يملك سطوة عليها في هذه اللحظات بالذات ليطلب منها النوم ببساطة، فتطيعه أفكارها. وهو يسألها دائمًا ما الذي يمكنها أن تراه وتسمعه. فتجيب على ذلك في البداية:

«لا شيء، لا شيء سوى الظلام». ثم تجيبه عندما يسألها للمرَّة الثانية:

«أستطيع سماع الأمواج وهي تتلاطم ضاربة بدن السفينة، واندفاع المياه حواليها. الأشرعة والحبال تشدُّ بقوة والسواري وعوارضها تصر. الريح عاتية، وأستطيع سماعها وهي تمر عبر أغطية الحبال، ومقدم السفينة يردُّ الزبد أمامه». واضحٌ أنَّ السفينة زارينا كاثرين لا تزال في عرض البحر، وهي تحث السير مسرعة في طريقها إلى ڤارنا. ها قد عاد اللورد غودالمنغ للتو. وصلته أربع برقيات، برقية في كل يوم منذ أن بدأنا رحلتنا، وكلها ذات نتيجة واحدة وهي أنه لم يرد إلى مؤسسة لويدس أي نبأ عن مرور السفينة زارينا كاثرين من أي ميناء. كان قد رتَّبَ قبل مغادرة لندن بأن يرسل له وكيله كل يوم برقية يبلغه فيها إذا ما كانت السفينة قد وصلت إلى مكان ما. وستصله برقية حتى في حال لم يرد أي خبر عن وصولها إلى أي مكان، بحيث يمكنه أن يكون متأكدًا من أنَّ

هناك عيناً ساهرة لم يفتها شيء في الجانب الآخر الذي أرسل له البرقية.

تناولنا العشاء وذهبنا إلى النوم باكرًا. سنجتمع في الغد مع نائب القنصل، ونرتِّب، إن استطعنا، مسألة صعودنا على متن السفينة حال وصولها. يقول ڤان هيلسنغ إن فرصتنا تتمثَّل في الصعود على السفينة بين طلوع الشمس وغروبها. فالكونت، وحتى لو اتخذ هيئة خفَّاش، لا يستطيع أن يعبر الماء الجاري بمحض إرادته، ولذا فإنه لا يستطيع مغادرة السفينة. ونظرًا لأنه لا يجرؤ على التحول إلى هيئة إنسان دون إثارة الشكوك -وذلك ما يتمنى تجنبه بصورة واضحة- فعليه أن يبقى في الصندوق. فإذا استطعنا عندها الصعود على ظهر السفينة بعد شروق الشمس، فسيكون تحت رحمتنا، لأننا نستطيع أن نفتح الصندوق ونتأكد من وجوده فيه، كما فعلنا مع لوسي المسكينة قبل أن يستيقظ. لن تكون الرحمة التي سينالها منّا بذلك القدر الكبير. نعتقد أننا لن نواجه كثيرًا من الصعاب مع مسؤولي الميناء أو البحَّارة. الحمد لله! فهذه هي البلد التي تستطيع فيها الرشوة أن تفعل أي شيء، ومعنا من المال الشيء الكثير. علينا فقط أن نتأكد من أن السفينة لن تدخل إلى الميناء بين شروق الشمس وغروبها دون أن نعرف، وسنكون بأمان. والقاضي بهذه المسألة -أعني حقيبة الأموال- سيستطيع تسوية الأمور على ما أظن!

١٦ *أكتوبر*- لا تزال مينا تبلغنا بالقصة ذاتها: أمواج متلاطمة وماء مندفع، وظلمة ورياح مواتية. وصلنا إلى هنا بالتأكيد في الوقت المناسب، وإذا سمعنا بوصول السفينة زارينا كاثرين سنكون

مستعدين. وعندما تعبر مضيق الدردنيل فنحن على يقين بأنه ستصلنا برقية بنبأ مرورها.

. . . .

١٧ أكتوبر- رُتِّبَ كلُّ شيء على أحسن وجهِ الآن، حسب ما أظن، للترحيب بالكونت لدى عودته من رحلته. لقد أبلَغَ غودالمنغ مؤسسة الشحن بأنَّه يظن بأن الصندوق ربما يحوي شيئًا مسروقًا من أحد أصدقائه، وأنه حصل على شبه موافقة منه بأنه يمكن له أن يفتحه على مسؤوليته ويكون مسؤولًا عن عاقبة ذلك. أعطاه مالك السفينة وثيقة يبلغ فيها القبطان بأن يضع بين يديه التسهيلات كافة لعمل ما يشاء على سطح السفينة، كما أعطاه أيضًا تفويضًا مماثلًا إلى وكيله في ڤارنا. وقد التقينا الوكيل، الذي تأثر كثيرًا بسلوك غودالمنغ اللطيف معه، واطمأنَّ بالُنَا إلى أنه سيفعل كل ما في وسعه لمساعدتنا. وقد رتبنا أمورنا سلفًا إزاء ما سنفعله في حال عثرنا على الصندوق مفتوحًا. فإذا وجدنا الكونت فيه، فإن ڤان هيلسنغ وسيوِرْد سيقطعان رأسه في الحال ويدخلا وتدًا يمرُّ عبر قلبه. وسأقوم أنا وموريِس وغودالمنغ بالحيلولة دون تدخل أحد، حتى لو اضطررنا إلى اللجوء إلى الأسلحة التي يجب أن تكون جاهزة للاستخدام. قال البروفسور إنَّه إذا استطعنا التعامل مع جسد الكونت على النحو الموصوف، فإنه سيتحول فورًا بعد ذلك إلى غبار. وفي هذه الحالة لن يكون هناك أي دليل ضدنا، في حال أثير أي شكٍّ بخصوص ارتكاب جريمة. ولكن حتى ولو لم يحصل

ذلك، ينبغي لنا أن نحظى بالمديح أو الذم على ما فعلناه، وربما تكون هذه اليوميات المكتوبة بالذات دليلًا يحول بين بعضنا وبين حبل المشنقة في يوم من الأيام. من ناحيتي، ينبغي لي أن أستغل الفرصة بامتنان كبير لو أتيحت لي. وقد عقدنا العزم على ألَّا ندخر أي جهد ولا نعدم أي وسيلة لتنفيذ مرادنا. وقد نسَّقْنَا مع مسؤولين بعينهم بأن يبلغونا عن طريق رسول خاص حال مشاهدتهم السفينة زارينا كاثرين.

٢٤ أكتوبر– مرَّ أسبوعٌ كامل ونحن ننتظر. واستمرت البرقيات في الوصول إلى غودالمنغ، وليس فيها سوى الرسالة ذاتها: «لم تصل السفينة إلى أي ميناء على خط رحلتها بعد». ولم يتبدَّل جواب مينا وهي منوَّمةً مغناطيسيًا في الصباح والمساء: أمواج تتلاطم، وماء يندفع، وسوارٍ تَصِرُّ.

برقيَّة مُرْسَلَة في الرابع والعشرين من أكتوبر

من روفوس سمِثْ من مؤسسة لويدس في لندن، إلى اللورد غودالمنغ، عن طريق نائب القنصل الممِّثل لجلالة ملكة بريطانيا في ڤارنا

«شوهدت السفينة زارينا كاثرين صباح اليوم في مضيق الدردنيل».

٢٥ *أكتوبر*- ما أشدَّ اشتياقي لفونوغرافي! فكتابة المذكَّرات بالقلم أمرٌ مزعج لي، ولكن ڤان هيلسنغ يقول إنه يتحتَّم عليَّ فعل ذلك. مَلَأَتْنَا البهجةُ العارمة البارحة عندما تلقَّى غودالمنغ برقيته المرسلة من مؤسسة لويدس. وأعرف الآن ما هو شعور الرجال في المعركة عندما يَسمَعُونَ الدَّعوة إلى القتال. من بين مجموعتنا، وحدَها السيِّدة مينا هاركر لم تظهر أي علاماتٍ من المشاعر. ليس غريبًا عليها هذا التصرف بعد كل ما جرى، إذ توخَّيْنَا الحذَر الشديد في جعلها لا تعرف أي شيء عن وصول البرقيَّة، وحاولنا جميعًا ألا نُظْهِرَ أيَّ حماسة عندما نكون معها. لو حدث الأمر معنا في الأيام الغابرة لكنتُ متأكدًا من أنها ستلاحظ ذلك، بصرف النظر عن محاولتنا إخفاء الأمر، ولكن ما يحول دون ذلك هو أنها تغيَّرتْ تغيرًا كبيرًا خلال الأسابيع الثلاثة الفائتة وباتَتْ ما هي عليه الآن. إنها تزداد خُمولًا، ورغم أنها تبدو قوية وفي صحةٍ جيِّدةٍ، وتستعيد بعضًا من نضارة بشرتها، فأنا وڤان هيلسنغ غير راضيين عن ذلك. غالبًا ما نتحدَّث في أمرها، ولكننا لم نقل أي كلمة للآخرين. سينفطر قلب جوناثان هاركر المسكين -وستنهار أعصابه بالتأكيد- إذا عرف مجرد معرفةٍ بأنه يساورنا شكٌّ في الموضوع. أخبرني ڤان هيلسنغ إنَّه فَحَصَ أسنانَها فحصًا دقيقًا بينما كانت منوَّمةٌ مغناطيسيًا، ويقول إنَّه طالما أنَّها لم تصبح حادة فما من خطر فعلي من حصول تغيُّرٍ يطرأ على شخصيتها. وإذا ما حَصَل هذا التغيُّر، فسيكون من الضروري اتخاذ الإجراءات المناسبة! ... ويعرف كلانا ماهية هذه الإجراءات، رغم

أنَّ أحدنا لم يصارح الآخر بما يجول في ذهنه إزاء ذلك. ولا ينبغي لأي منَّا أن يتراجع عن أداء المهمَّة - رغم أنه من الفظاعة تأملها. إنَّ مصطلح «القتل الرحيم» مصطلح ممتازٌ ويبعث الطمأنينة في النفس! وأنا ممتنٌّ للشخص الذي ابتكره.

المسألة فقط مسألة أربعٍ وعشرين ساعة في البحر من مضيق الدردنيل إلى هنا، بنفس السرعة التي أبحرت فيها السفينة زارينا كاثرين عند انطلاقها من لندن. وينبغي لها أن تصل في وقت ما في الصباح؛ ولكن لأنه من غير الممكن أن تصل قبل ذلك، فقد عقدنا العزمَ جميعًا على الذهاب إلى النوم باكرًا. وينبغي لنا أن ننهض في الواحدة لكي نكون مستعدِّين.

ظهيرة ٢٥ أكتوبر - ما من أنباءٍ حتَّى الآن عن وصول السفينة. وكان ما قالتْه السيِّدة مينا هاركر أثناء تنويمها مغناطيسيًا صباح اليوم نفس الشيء كالعادة، ولذا فمن المحتمل أننا قد نتلقَّى أيَّ أخبار في أي لحظة. فنحن الرجال جميعًا نعيش حمَّى الحماسة، باستثناء جوناثان، الذي كان هادئًا ويداه باردتان كالجليد، ومنذ ساعة وجدْتُه يشحذ طرف خنجر الغوركا[1] الضخم الذي بات الآن يحمله معه دائماً. سيكون منظرًا سيئًا للكونت إذا ما لمست حافة خنجر الككري ذاك رقبته، مدفوعة بتلك اليد الصارمة الباردة كالجليد!

أصابني قليل من الفزع أنا وڤان هيلسنغ بخصوص السيِّدة مينا هاركر اليوم. فحوالي الظهيرة دَخَلَت في حالة من الخمول لم

---

(١) مجموعة من محاربي شمال الهند من النيباليين الذين اعتادوا استخدام خنجر الكُكري.

يَرُقْ لنا، ورغم أننا أخفينا الأمر عن الآخرين، فلم يكن أيٌّ منَّا نحن الاثنان سعيدًا بذلك. لم يبارحها القلق طوال الصباح، ولذلك خامَرَنا السرور إذ عرفنا أنها كانت نائمة. وعلى أي حال، عندما ذكَر زوجُها عَرَضًا بأنها كانت نائمة نومًا عميقًا حتى أنه لم يستطع أن يوقظها، ذهبنا إلى حجرتها لنستطلع الأمرَ بأنفسنا، فوجدناها تتنفَّس بصورة طبيعية وبدت في صحة جيدة وفي راحة بال فاتقفنا بأن النوم أفضل لها من أي شيء آخر. يا للفتاة المسكينة! لديها الكثير لتنساه حتى بات غير مستغربٍ أن النوم سيكون في صالحها إذا ما أنعمَ عليها بالنسيان.

لاحقًا- كان رأينا مُبَرَّرًا، لأنها بعد نومٍ منعش لبعض الساعات استيقَظَتْ، وبدَت أكثر إشراقًا وأفضل مما كانت على مدى عدَّة أيام. وعند الغروب أدلت بذات المعلومات المعتادة وهي منوَّمة مغناطيسيًا. وأينما يكُنْ في البحر الأسود، فإن الكونت يعجِّل في المجيء إلى وجهته. إلى قدره المحتوم، وأنا واثق من ذلك!

٢٦ *أكتوبر*- مرَّ يوم آخر ولا أنباء عن السفينة زارينا كاثرين. ويفترض أن تصل إلى هنا في هذا الوقت. لكن من الواضح أنها لا تزال مبحرةً في مكان ما، لأنَّ إفادة السيِّدة هاركر أثناء تنويمها المغناطيسي عند الشروق ما زالت نفسها. من المحتمل أن السفينة ربما يعوقها الضباب عن الحركة أحيانًا، فقد تحدَّثَ بعضُ بحَّارة البواخر التي رَسَت مساء البارحة عن وجود كتلٍ من الضباب شمالي الميناء وجنوبه. ينبغي لنا مواصلة ترقب وصولها، نظرًا لأنه يمكن للسفينة الآن أن ترسل إشارات عن وصولها في أي لحظة.

ظهيرة ٢٧ أكتوبر- إنه لأمرٌ في منتهى الغرابة، فلا أنباء حتى الآن عن السفينة التي نترقَّب وصولها. وقد أفادت السيِّدة مينا هاركر الليلة الفائتة وصباح اليوم إفادتها المعتادة: «أمواج تتلاطم وماء يندفع»، رغم أنها أضافت بأن «الأمواج كانت ضعيفة جدًا». كما أن البرقيَّات الواردة من لندن لم تأتِ بجديد وما انفكت تحوي النص ذاته: «لم يرَها أحدٌ تمرُّ بأي ميناء حتى الآن». استبدَّ القلق الرهيب بڤان هيلسنغ، وأخبرني للتو أنَّه يخشى بأن الكونت يهرب منَّا. وأضاف بما يحمل العديد من الدلالات:

«لم تعجبني حالة الخمول التي أصابت السيِّدة مينا. فالأرواح والذكريات يمكنها أن تفعل أشياء غريبة أثناء الغيبوبة». كنت على وشك أن أستفسر منه المزيد من المعلومات، ولكن جوناثان هاركر دخل في تلك اللحظة بالذات، ورفع يده مُنبِّهًا. علينا أن نحاول الليلة عند الغروب أن نجعلها تتكلَّم بصراحة أكبر أثناء تنويمها مغناطيسيًا.

٢٨ أكتوبر- برقية من روفُس سمِث في لندن إلى اللورد غودالمنغ، عن طريق نائب القنصل المُمثِّل لجلالة ملكة بريطانيا في ڤارنا

«شوهدت السفينة زارينا كاثرين تدخل غالاتس في الساعة الواحدة اليوم».

٢٨ *أكتوبر*- لا أعتقد أنَّ وصول البرقية التي أنبأَتْنَا بوصول السفينة إلى غالاتس شكَّلت صدمةً لأي منَّا مثلما قد يتوقَّع المرء. فصحيحٌ أننا لم نعرف من أين، أو كيف، أو متى حصلت هذه المفاجأة، ولكنني أظن أننا جميعنا توقعنا حدوث أمر غريب. وقد جَعَلَنَا التأخير الحاصل في وصول السفينة إلى ڤارنا مقتنعين بأن الأمور لن تكون مثلما توقَّعْنَا بالضبط، وانتظرنا فقط حتى نعرف أين سيحدث التغير في مسار الأحداث. مع ذلك فقد كان في ما حصل مفاجأة لنا. أظنُّ أنَّ الطبيعة تعمل وفق قاعدة تبعث على الأمل حتى يبلغ بنا الحال لأن يعتقد المرء بأن الأمور ستكون كما ينبغي لها أن تكون، وليس مثلما ينبغي لنا أن نعرف أنها ستكون. إن مذهب الفلسفة المتعالية منارةٌ للملائكة، حتى وإن كان سرابًا للإنسان. كانت تجربةً غريبةً وقد اختلفت ردة فعل كلٍّ منَّا عليها. فقد رفع ڤان هيلسنغ يده فوق رأسه لحظة، وكأنَّه يعترض على حكم الله، ولكنَّه لم يتفوه بكلمة، وما هي سوى بضع ثوانٍ إلَّا ووقف ووجهه متصلِّبٌ بصورة صارمة. ازداد شحوب اللورد غودالمنغ بدرجة كبيرة، وجلس يتنفَّس بشدَّة. أما أنا فكنتُ شبه مصعوقٍ ونظرت إليهم مندهشًا واحدًا إثر آخر. وشدَّ كوينسي مورس حزامه بتلك الحركة السريعة التي أعرفها جيدًا، التي كانت تعني في أيام تجوالنا السالفة في أرجاء العالم «هيَّا إلى العمل». وابيضَّت السيِّدة هاركر بياضًا شاحبًا، حتى بدت الندبة على جبينها وكأنها تحترق، لكنها ثنت يديها باستكانة ورفعت عينيها وهي تصلي. وابتسم جوناثان

-ابتسم فعلا- ابتسامة مُرَّةَ واجمة، ابتسامة شخص بلا أمل، ولكن في الوقت ذاته فقد كذَّبت حركاتُه كلماته، لأنَّ يديه اتَّجهَتا غريزيًا صوب مقبض خنجر الكُكْري الضخم واستقرت هناك. ثم قال ڤان هيلسنغ وهو يوجِّه كلامه إلينا عمومًا:

«ومتى ينطلق أقرب قطار إلى غالاتس؟».

«في الساعة السادسة والنصف من صباح الغد!». ذُهِلْنَا جميعًا، لأن الجواب جاء على لسان السيِّدة مينا هاركر. فقال أرثر:

«وكيف تعرفين ذلك بالله عليكِ؟».

«أنسيتَ - أو ربَّما أنَّك لا تعرف، رغم أن جوناثان والدكتور ڤان هيلسنغ يعرفان - أنِّي مولعةٌ بالقطارات. فقد اعتدت دائمًا أثناء وجودي في البيت في إكستر على ترتيب مواعيد القطارات، حتى أساعد زوجي. وقد وجدت ذلك مفيدًا جدًا أحيانًا، ولذلك فأنا دائمًا أرتب مواعيد القطارات ونحن هنا الآن. أعرف أنه لا سبيل أمامنا للذهاب إلى قلعة دراكولا سوى بالذهاب إلى غالاتس، أو بالمرور عبر بخارست على أي حال، ولذلك سجَّلْتُ مواعيد القطارات بدقة بالغة. ولسوء الحظ ليس هناك الكثير من المعلومات، لأنَّ القطار الوحيد الذي يغادر في الغد ينطلق في الساعة التي ذكرت لكم».

«يا للمرأة المذهلة!» هَمْهَمَ البروفسور ڤان هيلسنغ. ثم سألَه اللورد غودالمنغ:

«ألا يمكننا استئجار قطار خاص؟». فهزَّ ڤان هيلسنغ رأسه وقال: «أخشى أنه لا يمكننا ذلك. فهذه البلاد مختلفة كليَّة عن بلادك

أو بلادي، وحتَّى لو حظينا بقطار خاص، فإنه لن يصل على الأرجح بسرعة تقارب سرعة القطار النظامي الذي سنستقله. أضف إلى ذلك أن لدينا أمرًا نجهِّزُه. علينا أن نفكر. والآن دعوني أنظم المهام. أنتَ يا صديقي أرثر، اذهب إلى القطار وأحضر التذاكر ورتِّبْ كل شيء حتى نكون جاهزين للانطلاق في الصباح. أما أنتَ يا صديقي جوناثان فاذهب إلى وكيل السفينة وأحضر من عنده الرسائل الخاصة بنظيره الآخر في غالاتس، مع التفويض بالبحث في السفينة حالما تصل إلى هنا. وأنتَ يا كوينسي مورِس، عليك لقاء نائب القنصل، واطلب منه أن يطلب من نظيره في غالاتس المساعدة وكل ما في وسعه حتى يسهِّلَ مهمتنا، كي لا نضيع أي وقت عندما ننطلق عبر نهر الدانوب. سيبقى جون مع السيِّدة مينا ومعي، وسوف نتشاور في الأمر. ولذلك إذا كان الوقت طويلًا فيمكنكم أن تتأخروا، وما من مشكلة عندما تغرب الشمس، لأنني هنا مع السيدة مينا لأبلغكم بأي طارئ». قالت السيِّدة مينا هاركر ببشاشة، وبهيئة أقرب إلى هيئتها المعهودة التي فارَقَتْهَا منذ مدة طويلة:

«وأنا سأحاول أن أكون ذات فائدة بكل السبل، وسوف أفكر في المسألة وأكتب لك كما اعتدت أن أفعل. فثمة شيء ما يتبدل فيَّ بطريقة غريبة، وأشعر بأني حرَّة أكثر مما كنتُ في الآونة الأخيرة!».

بدا الشباب الثلاثة أسعد في هذه اللحظة وبدا وأنهم أدركوا قيمة كلماتها، ولكنِّي وڤان هيلسنغ، ونحن نلتفت، رمَق أحدُنا الآخر بنظرة متجهمة مضطربة. ولم نقل شيئًا حينئذٍ، على أي حال.

بعد أن غادر الشباب الثلاثة لأداء مهامهم طلب ڤان هيلسنغ من السيِّدة مينا هاركر البحث عن نسخة المذكَّرات وأن تعثر له على الجزء الخاص من يوميَّات جوناثان أثناء وجوده في القلعة. ذهبتْ لتحضره، وبعد أن أغلقت الباب وراءها قال لي ڤان هيلسنغ:

«إن مقصدنا واحد! بُحْ بما في صدرك!».

«هناك بعض التغيُّر. وهو أملٌ يجعلني أصاب بالكدر، لأنه أملٌ قد يضلِّلنا».

«صحيح تمامًا. هل تعرف لماذا طلبْتُ منها أن تحضر مخطوط المذكَّرات؟».

فقلت له: «لا، ما لم يكن هدفك أن تحظى بالفرصة للحديث معي على انفراد».

«أنتَ مصيبٌ جزئيًا يا صديقي جون، جزئيًا فقط. أريد أن أخبرك شيئًا ما. وأوه يا صديقي، إني أخاطر بذلك مخاطرةً رهيبةً، فظيعةً، ولكني أظن أن ذلك صحيح. ففي اللحظة التي تلفَّظَتْ فيها السيدة مينا بتلك الكلمات التي أثارت فهْمَنَا، جاءتني فكرة ملهمة. أثناء غيبوبتها قبل ثلاثة أيام أرسل لها الكونت روحَه ليقرأ أفكارها، أو لنقل إنَّه أخَذَهَا لكي تراه في صندوقه الترابي في السفينة مع اندفاع الماء، تمامًا مثلما تنعتق روحها عند شروق الشمس وغروبها. وقد عرف حينئذٍ أننا هنا، لأنَّ في جعبتها الكثير من المعلومات لتدلي بها وهي في حياتها غير المقيَّدة حيث تستطيع أن ترى بعينيها وتسمع بأذنيها أكثر منه، هو المحبوس، كما هو حاله، في

تابوته. والآن يحاول أقصى جهوده لكي يهرب منَّا. وهو لا يريدها في الوقت الحالي.

إنه متأكد ومعه كل هذه المعلومات الهائلة جدًا من أنها ستلبِّي نداءَه، ولكنَّه سيقطع عليها الطريق، فقد أخرَجَهَا من نطاق سطوته، بحيث لن تأتي إليه، وهو بمقدوره فعل ذلك. آه! وحينئذٍ يحدوني الأمل في أن عقولنا الناضجة التي أُنْعِمَ بها على الإنسان منذ زمن طويل ولم تفقد نعمة الله، ستكون أذكى من عقله الطفولي الذي رَقَدَ في قبره لقرون، ذلك العقل الذي لم ينمُ بعد ليبلغ مكانة عقولنا، العقل الذي يعمل فقط بصورة أنانية وبالتالي فهو عقل صغير. هي ذي السيِّدة مينا قادمة، لا تبح لها بأي كلمة عمَّا تقولُه أثناء غيبوبتها وهي منوَّمة مغناطيسيًا! فهي لا تدري بذلك، وسوف تُصْعَقُ إذا عرفت ما قالت وسيتملكها اليأس في الوقت الذي نحتاج فيها كل أملها، وكل شجاعتها، وفي وقت نحن فيه بأمسِّ الحاجة إلى كل عقلها العظيم الخبير مثل عقول الرجال، ولكنها امرأة لطيفة ولها قوة خاصة أعطاها إياها الكونت، قوة لا يمكنه أن ينتزعها منها كليَّة، رغم أنه يعتقد خلاف ذلك. اششش! دعني أتكلَّم، وسوف تعلم ما أقول. أوه، يا جون يا صديقي، إننا في موقفٍ عسيرٍ. وأنا خائف، كما لم أخف قط من قبل. لا يسعنا سوى أن نثق بالله القدير. صمتًا! ها قد وَصَلَتْ!».

حسبت أن البروفسور كان على وشك الانهيار والإصابة بنوباتٍ من الهستيريا، مثلما أصابه تمامًا عندما ماتت لوسي، ولكنه بذل جهدًا هائلًا وضَبَطَ نفسَه وكان في توازنٍ عصبي تام عندما

دخلتْ السيِّدة مينا هاركر بسرعة إلى الغرفة، مشرقة وطَلْقَة المحيَّا، وأثناء انهماكها بالعمل، بدت وأنها نسيت تعاستها. بينما دَخَلَتْ، ناولت ڤان هيلسنغ عددًا من الأوراق المطبوعة على الآلة الكاتبة. فنظر إلى الأوراق بجدية بالغة، ووجهه مشرق وهو يقرأ. ومن ثم قال وهو يمسك الأوراق بين سبَّابته وإبهامه:

«يا صديقي جون، إليكَ وأنت صاحب الباع الطويل جدًا من الخبرة سلفًا -وإليكِ أنتِ أيضًا يا سيِّدة مينا، أنتِ الشابة- هذا الدرس: لا تخشيا أبدًا من التفكير. فغالبًا ما كانت نصف فكرة تحوم في داخل رأسي، ولكني خشيتُ عليها أن تفقد جناحيها أثناء تحليقها. وهنا الآن، وبالمزيد من المعرفة، رجعتُ إلى الموضع الذي انبثقت منه نصف الفكرة ووجدتُ أنها لم تكن نصف فكرة على الإطلاق، إنما هي فكرة مكتملة، رغم أنها فكرة فتية جدًا وما زالت أضعف من أن تستطيع التحليق بأجنحتها الصغيرة. لا، فهي مثل «البطة القبيحة» لصديقي هانس أندرسن، بل هذه الفكرة ليست بطة، إنما إوزة كبيرة تحلِّق بنبل بجناحين كبيرين، عندما يحين لها الوقت لتجريب جناحيها. اسمعا معي ماذا كتب جوناثان هنا:

«ذلك الآخر من بني جلدته الذي ما انفك في عصر لاحق، المرة تلو الأخرى، يهجم بقواته فوق النهر العظيم إلى الأراضي التركية، ذلك الفرد الذي ما انفك يهجم بعد أن رُدَّ على أعقابه، مرة أخرى، وثانية، وثالثة، رغم أنه اضطر للمجيء وحيدًا من الميدان الدموي الذي ذُبِحَتْ فيه قواته، لأنه عرف بأنه وحده يمكن أن ينتصر في النهاية.

ماذا نستنتج من ذلك؟ ليس فيه استنتاجات كثيرة؟ لا! إنَّ فكر الكونت الطفولي لا يرى شيئًا، ولذلك فهو يتكلم في منتهى الصراحة. إن تفكيريكما الناضجين لا يريان شيئًا، وتفكيري الناضج لا يرى شيئًا حتى الآن بالضبط. لا! ولكن هنا تأتي كلمة أخرى من إنسانة تتكلم دون تفكير لأنها هي أيضًا لا تعرف ما الذي يعنيه كلامها، أو ما قد يعنيه. الأمر يشبه تمامًا وجود عناصر ساكنة، ومع ذلك فهي في مسار الطبيعة تتحرك في طريقها وتلمس بعضها، ومن ثمَّ فجأةً! يصدر وميض من الضوء، واسع اتساع السماء، ووميضٌ يعمي ويقتل ويقضي على البعض، ولكنه يُظْهِرُ كل الأرض تحته لمسافات تمتد فراسخ وفراسخ. أليس الأمر على هذه النحو؟ لا بأس، سأشرح الأمر. أقول بدايةً، هل سبق لكما ودرستما فلسفة الجريمة؟ إن الجواب «نعم» و«لا»، فأنتَ يا جون درستَ ذلك، فدراسة الجنون ليست سوى دراسةٍ لفلسفة الجريمة. أما أنتِ يا سيِّدة مينا، فلم تدرسيها، الجريمة لم تلمسك سوى مرة واحدة. ومع ذلك، فعقلاكما لا يزالان يعملان بحالة سليمة، ولا ينتقلان جدليًا من الحقائق الخاصة إلى الكلية. وثمَّة هذه الخصوصية في المجرمين. وهي مستمرة كثيرًا في كافة البلاد والأزمنة، حتى أن الشرطة التي لا يعرف أفرادها الكثير من الفلسفة، يعرفون من خلال التجربة إنها كذلك. وهذا معنى أن يعتمد المرء المبدأ التجريبي. فالمجرم يعمل دائمًا في جريمة واحدة، ذلك هو المجرم الحقيقي الذي يبدو أنه مقدَّرٌ له سلفًا أن يرتكب جريمة محددة، ولن يفكر في جريمة أخرى. وهذا المجرم ليس لديه عقل امرئ ناضج. إنه ذكي ومحتال وداهية،

ولكنه لم يبلغ مرحلة النضوج العقلي. إنه ذو عقل طفولي في الغالب. والآن، إنَّ هذا المجرم الذي نطارد، مقدَّرٌ له سلفًا أن يجرم أيضًا، فهو أيضًا ذو عقل طفولي، ولا يفعل فعلته سوى الأطفال. فصغار الطير والسمك والحيوانات لا تتعلَّم نظريًا، بل تجريبيًا. وعندما تتعلَّم ماذا تفعل، تبدأ بعدئذٍ اعتمادًا على هذا الأساس فعل أشياء أكثر. وقد قال أرخميدس: (أعطني نقطة أرتكز عليها، وسأحرِّك العالم!) وفِعْلُ ذلك مرة واحدة هو نقطة الارتكاز التي يصير فيها العقل الطفولي عقلًا ناضجًا، وما إن حاز ذلك العقل الغاية لفعل المزيد، فقد استمر في تكرار فعل الشيء نفسه كل مرة، تمامًا مثلما فعله من قبل! أو يا عزيزتي، إنِّي أرى بأن عينيك مفتوحتان، وبأن وميضَ الضوء يكشف لكِ كل تلك الفراسخ» لأن السيدة مينا هاركر بدأت تصفق بيديها وبرقت عيناها. ومضى ڤان هيلسنغ يقول:

«والآن ينبغي لكِ أن تتكلَّمي. قولي لنا نحن، رجلا العلم الباردا الشعور، ماذا ترين بهاتين العينين الوضائتين جدًا». ثم أخذ يدها وأمسكها بينما كانت تتكلم. وأطبق بسبابته وإبهامه على نبض يدها، مثلما حسبْتُ لاشعوريًا ولا إراديًا وهي تقول:

«إن الكونت مجرم وينتمي إلى نمطٍ إجرامي. وسوف يصنِّفه نورداو[1] ولومبروزو[2] وفق ذلك التصنيف، وكمجرم فهو ذو

---

(١) ماكس نورداو (١٨٤٩ - ١٩٢٣): طبيب وروائي هنغاري وأحد زعماء الحركة الصهيونية.

(٢) سيزار لومبروزو (١٨٣٦ - ١٩٠٩): عالم إيطالي ويعرف أحيانًا باسم «أبو علم الجريمة الحديث».

عقلٍ غير مكتمل النشوء. وبناءً على ذلك، فهو مضطر إذا ما واجه عائقًا لأن يسعى للحصول على ملاذ باللجوء إلى سلوك عادة ألفها. وماضيه دليل على ذلك، والصفحة الواحدة التي نعرفها عن ماضيه -والتي تلفَّظَ بها بعظمة لسانه- تقول بأنه ذات مرة من قبل، عندما كان في ما يسميه السيد مورِس «مكانًا ضيِّقًا»، فقد رجع إلى بلاده من الأرض التي حاول غزوها، ومنذ ذلك الحين، ودون أن يفقد الهدف، هيأ نفسه لمهمة جديدة. فقد جاء مرة أخرى مسلحًا أفضل من أجل مهمته، وانتصر. وهكذا فقد جاء إلى لندن ليغزو أرضًا جديدة. وقد رُدَّ على أعقابه، وعندما فقد كل أمل في النجاح، وبات وجوده في خطر، فرَّ هاربًا عبر البحر إلى موطنه، تمامًا مثلما فرَّ سابقًا راجعًا عبر الدانوب من الأراضي التركية».

«جيد، جيد! أوه، يا لكِ من سيدة ذكية!» قال ڤان هيلسنغ بحماسة، وهو ينحني ويقبِّل يدَها. وقال لي بعد لحظة فيما بعد، بنبرة هادئة وكأننا كنا نجري استشارات طبية في حجرة مريض:

«عمري اثنتان وسبعون سنة فقط، وأنا لا أزال بكل هذه الحيوية. لدي أمل». بينما التفت إليها مرة أخرى، قال بتوقع حذق:

«ولكن استمري.. استمري! هناك المزيد لتقوليه إذا أردتِ. لا تخافي، فأنا وجون نعرف. أنا أعرف بكل الأحوال، وسأقول لكِ إذا كنتِ مصيبة. تكلَّمي دون خوف!».

«سأحاول ذلك، ولكنك ستسامحني إذا ما بدوتُ مزهوة بنفسي».

«لا! لا تخافي، عليكِ أن تكوني معجبة بنفسك، فنحن لا نفكر سوى في مصلحتك».

«إذن، كما أنه مجرم فهو أناني، ونظرًا لأن ملكاته الفكرية محدودة وفعله قائم على الأنانية، فهو يحصر نفسه في تحقيق غاية واحدة. وتلك الغاية لا يؤنبه عليها ضميره. فعندما فرَّ راجعًا عبر الدانوب، تاركًا قواته لكي تتمزق إربًا إربًا، فقصده عندئذٍ أن يتوخى السلامة دون اكتراث بأي أحد. ولذلك فإن أنانيته تعتُق روحي نوعًا ما من السيطرة الرهيبة التي حازها عليَّ في تلك الليلة الرهيبة. لقد شعرت بها! أوه، شعرت بها! وإني لأحمد الله على رحمته الواسعة! فروحي الآن باتت أكثر انعتاقًا مما كانت عليه منذ تلك الساعة المقرفة، وكل ما يضايقني هو خشيتي من أن يكون أثناء بعض حالات الغيبوبة وأنا منومة مغناطيسيًا أو أثناء الحلم قد استخدم معلوماتي في سبيل غاياته». وقف البروفسور وقال:

«لقد استخدم عقلكِ حتى الآن، وبفعله ذلك فقد تركنا هنا في ڤارنا، بينما اندفعت السفينة التي حملته عبر الضباب المدلهم صوب غالاتس، حيث اتخذ، بلا شك، ترتيباته حتى يهرب منَّا. لكن عقله الطفولي لم يرَ حتى الآن أبعد من ذلك، وربما يحدث، كما تقتضي العناية الإلهية دائمًا، أن الشيء الذي يعتمد عليه فاعل الشر كثيرًا من أجل مصلحته الأنانية يتحول ليصير أكبر متسبب في أذيته. يقع الصيَّاد في مصيدته، كما يقول المزمور العظيم. لأنه يحسب الآن أنه في حرز من مطاردتنا له، وأنه نجا منا وسبقنا في ذلك بعدة ساعات، وعندها سيهمس له عقله الطفولي الأناني في

أن ينام. فهو يظن أيضًا أنه بينما يعزل نفسَه عن معرفة ما في عقلكِ، فأنت لا تستطيعين أن تعرفي شيئًا عنه، وقد خاب ظنه هنا! فذلك التعميد الرهيب بالدم الذي منحكِ إيَّاه يجعلكِ حرَّة في الذهاب إليه روحًا، كما كنتِ تفعلين حتى الآن في أوقات انعتاقك، عندما تشرق الشمس وتغرب. في هذه الأوقات أنتِ تسيرين بمحض إرادتي وليس إرادته هو، وهذه السلطة فيها خيرٌ لكِ ولغيركِ، فقد فزتِ من جراء معاناتك على يديه. وهذه السلطة الآن برمتها أكثر قيمة مما كنا نجهله عنها، ولكي يحمي نفسه فقد عزلها حتى عن معرفته بمكان وجودنا. ونحن، على أي حال، لسنا أنانيين، ونحن نؤمن بأن الله معنا في كل ما مررنا به أثناء هذه العتمة، وكل تلك الساعات المظلمة. ينبغي لنا أن نتبعه، وينبغي لنا ألَّا نتراجع، حتى لو خاطرنا بأنفسنا في أن نصبح مثله. يا صديقي جون، لقد كانت هذه ساعة عظيمة، وقد أسهَمَت إسهامًا كبيرًا في دفعنا للتقدم في طريقنا. عليك أن تنسخ وتدون كل شيء، بحيث تستطيع أن تعطي ما كتبتَه للآخرين عندما يعودون من مهامهم، وعندها سيعرفون ما نعرف».

وهكذا فقد كتبتُ كل ذلك بينما انتظرنا عودتهم، كما طبَعَت السيدة مينا هاركر على آلتها الكاتبة كل شيء منذ اللحظة التي تسبَّبَت فيها بإصابتنا بداء التصلب المتعدد.

الفصل السادس والعشرون

مذكَّرات الدكتور سيورد

٢٩ أكتوبر- كُتِبَتْ هذه المذكَّرات في القطار المُتَّجِه من ڤارنا إلى غالاتس. وقد اجتمعنا كلُّنا الليلة الفائتة قبل موعد الغروب بقليل بعد أن أدَّى كل واحد منا المهمة الملقاة على عاتِقِه بأفضل ما استطاع. من الناحية الذهنية، والبدنية، والاستفادة من الفرص، نحن مستعدون لرحلتنا من أولها إلى آخرها، ومستعدون لتنفيذ مهمتنا عندما نصل غالاتس. وعندما حان الموعد المعتاد لجلسة التنويم المغناطيسي هيَّأت السيِّدة مينا هاركر نفسها لبذل الجهد المطلوب، وبعد جهدٍ أطول وأكثر جدية مما كان يلزم ڤان هيلسنغ في العادة لتنويمها، غطَّت في غيبوبتها. وعادةً ما كانت تتكلَّم بناءً على إشارة منه، ولكنَّه في هذه المرَّة اضطر لسؤالها بعض الأسئلة، وقد سألَهَا بصورة حازمة جدًا، قبل أن نتمكَّن من الحصول على أي معلومات منها، وبعد انتظار نطق لسانها بالجواب:

«لا يمكنني أن أرى شيئًا، فنحن في حالة سكون، لا أمواج متلاطمة، ولكن ثمَّة فقط دوامة ثابتة من الماء تجري برفقٍ مصطدمة

بحبل مرساة السفينة. ويمكنني سماع أصوات الرجال ينادون، أصوات قريبة وبعيدة، وصوت تحريك المجاذيف وصريرها في مساندها. ثمة صوت طلقة بندقية في مكان ما، ويتردَّد صداها في مكان بعيد. وثمَّةَ وقع أقدام تروح وتجيء في الأعلى، وجرُّ حبالٍ وسلاسل على ظهر السفينة. ما هذا؟ هناك وميضٌ من ضوءٍ، وأشعرُ بأنَّ الهواء يهبُّ في اتجاهي».

هنا صمَتَتْ، ونهضَتْ باندفاع من الموضع الذي كانت مضطجعة فيه على الأريكة، ورفَعَتْ كلتا يديها وراحتاهما مبسوطتان نحو الأعلى، كأنها ترفع وزنًا. تبادَلْتُ مع ڤان هيلسنغ بصورةٍ تَشِيْ بأن فهم أحدنا الآخر. رفع كوينسي مورِس حاجبيه قليلًا ونظر إليها بإمعان، بينما اقترَبَتْ يد جوناثان هاركر غريزيًا من مقبض خنجره. خيَّم صمتٌ طويل. وعرفنا جميعًا بأن الوقت الذي تستطيع أن تتكلم فيه كان يمرُّ، ولكننا شعرنا بأنه لا جدوى من قول أي كلمة. فجأةً اعتَدَلَت في جلستها، وقالت بلطافة وهي تفتح عينيها:

«ألا يرغب أحدٌ منكم بشرب كوبٍ من الشاي؟ لا بدَّ أنكم متعبون جدًا جميعًا!» لم يكن بوسعنا سوى إدخال السرور على نفسها، ولذا وافَقْنَا. انطلقت بسرعة لتحضر الشاي، وبعد أن ذهَبَتْ قال ڤان هيلسنغ:

«أترون يا أصدقائي. إنه قريبٌ من اليابسة، فقد غادَرَ صندوقَه الترابي. ولكن عليه أن يصل إلى الشاطئ. في الليل ربما يستلقي مختبئًا في مكان ما، ولكن ما لم يُحْمَل إلى الشَّاطئ، أو لم تصل السفينة إلى

الشاطئ وتصير بمحاذاته، فلن يستطيع بلوغ اليابسة. إنه يستطيع في مثل هذه الحالة، لو كان ذلك في الليل، أن يغيِّر هيئته ويمكنه أن يقفز أو يطير صوب الشاطئ، كما فعل في وِتْبِي. ولكن إذا طلع النهار قبل أن يبلغ الشاطئ، فحينها لن يستطيع الهرب ما لم يُحْمَل في الصندوق. وإذا ما حُمِلَ في الصندوق، فعندئذٍ يمكن لموظفي الجمارك أن يكتشفوا مكانه. ولذا، يمكن القول باختصار إنَّه إذا لم يهرب إلى الشاطئ الليلة، أو قبل الفجر، فإنه سيخْسَر النهارَ بكامله. ويمكننا عندها أن نصل في الوقت المناسب، لأنه إذا لم يهرب في الليل فينبغي لنا أن نعثر عليه في النهار، محبوسًا في صندوقه وتحت رحمتنا، فهو لا يجرؤ على أن يُظْهِرَ شخصيته الحقيقية، مستيقظًا وعلى مرأى من الجميع، حتى لا يكتشف أمره».

لم يكن هناك المزيد من الكلام ليقال، ولذا فقد انتظرنا صابرين حتى الفجر، حيث يمكن لنا أن نعرف المزيد من المعلومات من السيِّدة مينا هاركر.

في الصباح الباكر اليوم، أصغينا بقلقٍ يحبس الأنفاس إلى ردِّها أثناء غيبوبتها. وقد تأخرّ طورُ دخولها في حالة النوم المغناطيسي حتَّى أكثر من قبل، وعندما بلَغَت طور الغيبوبة كان الوقت المتبقي حتى شروق الشمس الكامل قصيرًا حيث بدأ اليأس يتسلَّل إلى نفوسنا. بدا أنَّ ڤان هليسنغ ألقَى بكامل روحه باذلًا الجهد لتنويمها، وردَّت، أخيرًا، في خضوعٍ لإرادته قائلة:

«كل شيء معتم. أسمع تلاطم الماء في مستوى جسدي، وبعض

الصرير وكأنه صرير خشب». ثم صمَتَتْ، فانبلَجَتْ الشمس الحمراء. علينا أن ننتظر حتى غروب الليلة.

وهكذا اقتضت مجريات الأحداث أن نسافر إلى غالاتس وألَمُ الترقُّب يوجعنا. من المقرَّر أن نصل هناك بين الثانية والثالثة فجرًا، ولكننا تأخَّرْنَا سلفًا ثلاث ساعات في بخارست، ولذا فمن المحتمل أنه لا يمكننا الوصول إلَّا بعد ارتفاع الشمس في كبد السماء. هكذا سيكون أمامنا فرصة الحصول على رسالتين إضافيتين من رسائل السيِّدة مينا أثناء تنويمها مغناطيسيًا، وربما لإحداهما أو كليهما أن تلقي مزيدًا من الضوء على ما يحدث.

لاحقًا- حلَّ الغروبُ وانقضى موعدُه. لحسن الحظ أنه حلَّ في وقتٍ لم يكن فيه ما يشتِّت الذهن، لأنه لو حلَّ بينما كنا في محطة من محطات القطار، لما كنا نعمنا بالهدوء والعزلة الضروريتين لإجراء التنويم المغناطيسي. استجابَت السيِّدة مينا هاركر لتأثير التنويم المغناطيسي بدرجة أقل رغبةً مما فعلت صباح اليوم. وإني أخشى أن تكون قدرتها على قراءة إحساسات الكونت ربما تتلاشى في الوقت الذي بتنا فيه بأمس الحاجة إليها. ويبدو لي بأن خيالها بدأ بالعمل. بينما كانت في الغيبوبة وحتى الآن، فقد حصرت نفسها بإخبارنا بأبسط الوقائع. وإذا استمرَّت على هذا المنوال فقد تضلِّلُنَا. وإذ ظننتُ أن سيطرة الكونت عليها سوف تتلاشى بالتساوي مع قوة معرفتها لكانت تلك فكرة تسعد قلبي، ولكني أخشى أنها ربما لا تكون كذلك. عندما تكلَّمَتْ فعليًا، كانت كلماتها مُبْهَمَة:

«ثمَّة شيء ما يَخْرُج، ويمكنني أن أشعر به يمرُّ بي مثل ريح باردة. يمكنني أن أسمع أصواتًا مرتبكة تأتي من بعيد، وكأنها أصوات رجالٍ يتحدَّثون لغات غريبة، وصوت ماء يسقط بقوة، وعواء ذئاب». ثم صمتَت واجتاحتْهَا ارتعاشةٌ، زادت شدَّتُها بضع ثوانٍ، حتى ارتجَفَت في نهاية المطاف مثل المشلولة. لم تزد على ما قالتْه، حتَّى إنها لم تُجِب على أسئلة البروفسور الآمرة. وعندما صحَت من الغيبوبة، كانت باردة، ومنهكة، وفاترة الهمة، ولكنَّ ذهنها كان متأهبًا جدًا. لم تستطع أن تتذكر أي شيء، ولكنها سألَتْ عمّا قالته أثناء غيبوبتها، وعندما أخْبِرَتْ بما قالت، تأمَّلَتْ ذلك بعمقٍ مدَّةً طويلةً وهي صامتة.

٣٠ أكتوبر، الساعة السابعة صباحًا- نحن على مقربة من غالاتس الآن، وربما لن يتسنَّى لي الوقت لأكتب في المذكَّرات لاحقًا. وقد ترقَّبْنَا جميعًا شروق الشمس هذا الصباح بقلق. يعرف ڤان هيلسنغ الصعوبة المتزايدة في تنفيذ استحضار غيبوبة التنويم المغناطيسي ولذا فقد بدأ في تمرير يديه أمام وجهها في وقتٍ أبكر مما اعتاد. ولم يثمر ذلك عن نتيجةٍ على أي حال حتى حلول الوقت المعتاد، عندما استجابت مع ذلك بصعوبة بالغة، قبل دقيقةٍ واحدةٍ فقط من شروق الشمس. ولم يضيِّع البروفسور أي لحظة في سؤالها، وجاء جوابها بسرعة متسقة: «كل شيء معتم. أسمع الماء يدور كدوَّامة قربي، بمستوى ارتفاع أذني، وصرير خشب فوق الخشب. وثمَّة صوت ماشية خفيض في البعيد. وثمَّة صوت آخر، صوت غريب مثل...»، ثمَّ صمتَتْ وابيضَّ وجهُها، ثم ازداد بياضًا.

«استمرِّي؛ استمرِّي! تكلَّمِي، إني آمركِ بذلك!» قال ڤان هيلسنغ بصوت متألم. وفي الوقت نفسه ظَهَرَ يأس في عينيه، لأن الشمس الطالعة أضفت حمرَتها حتَّى على وجه السيِّدة مينا هاركر الشاحب. ثم فتَحَت عينيها، وأصابنا الفزع جميعًا وهي تقول بنبرةٍ رقيقةٍ وبأقصى درجات الاهتمام مثلما بدا عليها:

«أوه يا بروفسور، لماذا تطلب مني أن أفعل شيئًا تعرفُ أني لا أستطيع فعله؟ إني لا أتذكر أي شيء». ومن ثمَّ، إذ رأتْ نظرات الدهشة باديةً على وجوهنا، قالَت وهي تلتفت من واحد إلى آخر بنظرة مرتبكة:

«ما الذي قلتُه؟ ما الذي فعلتُه؟ إني لا أعرف شيئًا، سوى أني كنتُ مستلقية هنا، شبه نائمة، وسمعتكَ تقول: (استمرِّي! تكلَّمي، إني آمركِ بذلك!). وبدا مضحكًا جدًا أنْ أسمعك تأمرني، وكأنني بنت سيئة!». فقال بحزنٍ:

«أوه يا سيِّدة مينا، إن ذلك لدليل، لو كان هناك ثمة حاجة إلى دليل، على مقدار حبي واحترامي العظيم لكِ، عندما يمكن لكلمة فيها صالحك، وقد لُفِظَت بحماسة تفوق المعتاد، أن تبدو غريبة جدًا لأنها تهدف إلى إصدار أمر لإنسانةٍ أفخر بأنْ أؤدي لها فروض الطاعة!».

هي ذي صافرات القطار تصدح، نحن نقترب من غالاتس. إننا نغلي على نيرانٍ من القلق والتوق.

يوميَّات مينا هاركر

٣٠ *أكتوبر*- اصطحبني السيد كوينسي موريس إلى الفندق حيث كنا قد حجزنا غُرَفَنَا فيه عن طريق برقية أرسلناها، وكوينسي موريس أكثر شخصٍ يمكن تكليفه بهكذا مهام، لأنه لا يتحدَّث أيَّ لغة أجنبية. وزِّعَت المهام بذات الطريقة التي وُزِّعت فيها في ڤارنا، باستثناء أنَّ اللورد غودالمنغ ذهب إلى نائب القنصل، نظرًا لأن مكانته قد تفيد في أن تكون بمثابة ضمانة فورية لدى نائب القنصل، لأننا في عجالةٍ شديدة من أمرنا. ذهب جوناثان والطبيبان إلى وكيل مؤسسة الشحن ليطَّلِعَا على تفاصيل وصول السفينة زارينا كاثرين.

لاحقًا- عاد اللورد غودالمنغ. القنصل مسافر، ونائبه مريض، ولذا قام أحد موظفي القنصلية بالعمل الروتيني. كان خدومًا، وعرَضَ علينا أن يفعل أي شيء يمكنه ويقع في نطاق صلاحيته.

يوميَّات جوناثان هاركر

٣٠ *أكتوبر*- زرتُ في الساعة التاسعة مع الدكتور ڤان هيلسنغ والدكتور سيورد مؤسسة السَّادة ماكينزي آند ستاينكُف، وكلاء مؤسسة هاپغُد اللندنية. لقد وصلتْهُم برقيةٌ من لندن، كردٍّ على طلب اللورد غودالمنغ المُرْسَل برقيًا، والذي طلب فيه منهم أن يقدموا لنا أي مساعدة في نطاق صلاحياتهم. كانوا في قمَّة اللطافة والأدب، وأخذونا من فورهم لنصعد على متن السفينة زارينا كاثرين الراسية في ميناء النهر. قابَلْنَا هناك القبطان، واسمه دونِلْسُن، الذي حكى

لنا عن رحلته. وقال إنَّه لم بشهد طوال حياته رحلة مواتية جدًا مثل هذه. ثم أردف:

«يا رجل! ولكنها رحلةٌ زرَعت فينا الخوف، لأننا توقَّعْنَا أنه ينبغي لنا أن ندفع ثمن ذلك عملةً نادرة من الحظ السيء، وذلك للحفاظ على متوسط السرعة. ليس من المهارة في شيء أن تبحر من لندن إلى البحر الأسود والرياح وراءك، وكأن الشيطان نفسه كان ينفخ الرياح على شراع سفينتك لتحقيق مآربه الخاصة. في ذلك الوقت لم نستطع أن نرى شيئًا. وعندما كنا نقترب من سفينة، أو ميناء، أو رأسٍ برِّي، كان يهبط علينا ضبابٌ ويرتَحِل معنا، وبعد أن ينقشع وننظر من السفينة، لم نكن نرى شيئًا. مرَرْنَا بسرعة عبر مضيق جبل طارق دون أن نكون قادرين على إرسال إشارة إلى أن وصلنا مضيق الدردنيل واضطررنا أن ننتظر للحصول على إذنٍ بالعبور، ولم نلقَ ترحيبًا كثيرًا ألبتة. في البداية رغبتُ في إنزال الشراع والتجوُّل في المنطقة حتى ينقشع الضباب، ولكن عندئذٍ، حسبت أنه إذا مانع الشيطان وصولنا بسرعة إلى البحر الأسود، فإنه يجب أن يفعل ذلك سواء أأنزلنا الشراع أم لا. وإذا كانت رحلتنا سريعة فإن ذلك سيؤثر على مصداقيتنا مع أصحاب البضائع المشحونة معنا، ولن يضر ذلك بحركة سيرنا، وسيكون الشيطان الذي حقَّق مآربه الخاصة ممتنًا لنا بصورة محترمة لأننا لم نعق مسيره». أثار هذا الخلط بين البساطة والدهاء، بين الخرافة والمنطق التجاري، ڤان هيلسنغ الذي قال:

«يا صديقي، إن ذلك الشيطان أذكى مما يظن البعض، وهو يعلم عندما يلتقي نظيره!». سرَّ القبطان من الثناء، ثم تابع قائلًا:

«عندما عبرنا مضيق البوسفور بدأ البحَّارة يتذمَّرُون، وجاء بعضٌ منهم، وهم الرومانيون، وطلبوا إليَّ أن نرفع إلى سطح السفينة صندوقًا كبيرًا كان قد وضعه في السفينة عجوزٌ غريب الهيئة قبل أن ننطلق بلحظات من لندن. وكنت قد رأيتهم ينظرون إلى الرجل، ويرفعون اثنين من أصابعهما عندما رأوه، اتِّقاءً للعين الشريرة. شيء عجيب! لكن خرافة الرومانيين سخيفة بكل ما في الكلمة من معنى! لذا أرسلتُهم ليقوموا بأعمالهم بسرعة كبيرة، ولكن ما إن أطبق علينا الضباب إلَّا وشعرتُ بعض الشيء بأنهم كانوا موشكين على فعل أمر ما، رغم أني لن أقول إنه كان يتعلق بالصندوق الكبير. لا بأس، فقد تابعنا رحلَتنا، ونظرًا لأنَّ الضباب لم ينقشع خمسة أيَّام فقد اكتفيتُ بأن جَعَلْتُ الريح تحملنا، لأنه إذا أراد الشيطان للسفينة الوصول إلى مكان ما.. فلا بأس، لأنه سيجعلها تصل إليه بسلام. وإذا لم يرد ذلك، فلا بأس، علينا أن نبقي عيوننا ساهرة على أي حال. ومن دون ريب، فقد كانت طريقنا انسيابية وأبحرْنَا في مياه عميقة طوال الوقت، ومنذ يومين، عندما اخترقت شمسُ الصباح الضباب، وجدنا أنفسنا فجأة في النهر مقابل غالاتس. اهتاج الرُّومانيون، وأرادوا مني حقًا أو باطلًا أن أخرج الصندوق وأرمي به في النهر. واضطررت إلى محاججتهم في الأمر وأنا أحمل في يدي عتلة حديدية، وعندما أنزلتُ آخرَ واحدٍ منهم عن سطح السفينة وهو يغطِّي رأسه بيديه هربًا مني، كنتُ قد أقنعتهم بأنه من الأفضل أن تكون حمولة السفينة وثقة أصحابها بين يدي لا في نهر الدانوب، سواء أكان الصندوق عينًا شريرة أو غير شريرة. ودعوني أذكِّركُم إنهم

كانوا قد أخذوا الصندوقَ ووضعوه على سطح السفينة واستعدُّوا لرميه، ونظرًا لأنَّه كُتِبَ عليه «مُرْسَلٌ من غالاتس مرورًا بڤارنا»، فقد فكَّرْتُ في أن أدعه مكانَه حتى نُفْرِغَ حمولَتَنا في الميناء ومن ثم سأتخلَّص منه كليَّةً. لم نقم بكثير من التخليص التجاري في ذلك اليوم، واضطررنا لقضاء الليلة في المرسى، ولكن في الصباح، وقبل ساعة من شروق الشمس، صعد رجلٌ بشوش الوجه حسن الهندام ظَهْر السفينة ومعه أمرٌ مرسلٌ له خطيًا من إنجلترا ليستلم صندوقًا مرسلًا إلى شخص اسمه الكونت دراكولا. ومن دون ريب، كان الأمر جاهزًا في يده. فقد كانت معه أوراقه على أي حال، وكنتُ مسرورًا لأن يخلِّصني أحدهم من هذا الشيء اللعين، لأني بدأتُ أنا نفسي أشعر بعدم الطمأنينة بخصوصه. لو كان للشيطان حمولةٌ على سطح السفينة، فإني لا أظنها سوى ذلك الصندوق!».

«ما اسم الرجل الذي أخذ الصندوق؟» سأل ڤان هيلسنغ بحرصٍ متَّزنٍ، فأجاب القبطان: «سأخبرك في لحظات!» ومن ثم نزل إلى قمرته، وأحضر منها فاتورة موقعة باسم «إيمانويل هيلداشايم». وعنوانه بِرْغِن – شارع ١٦. وقد تبيَّن لنا أن هذا كل ما يعرفه القبطان، ولذا شكَرنَاه وذهبنَا.

وجدْنَا هيلداشايم في مكتبه، وهو يهودي من نمط الشخصيات التي نشاهدها في مسرح أديلفي، ذو أنفٍ كأنف نعجة، ويعتمر طاقية. أدركنا من محاججاته وفترات صمته أنَّه يريد مالًا لقاء معلوماته، فكان له ما أراد، وبقليل من المساومة قال لنا كل ما يعرف. تبيَّن أنَّ المعلومات التي أدلى لنا بها كانت بسيطة ولكنها

مهمة. فقد تلقَّى رسالة من السيِّد دي ڤيل من لندن، يطلب فيها منه أن يستلم صندوقًا سيصل إلى غالاتس على متن السفينة زارينا كاثرين، وأن يفعل ذلك إن أمكنه قبل شروق الشمس حتى يتجنَّب الجمارك. وسوف يعهد بهذا الصندوق إلى شخص بعينه اسمه پتروف سكينسكي، الذي يتعامل مع السلوڤاك الذين يتاجرون عبر النهر الواصل إلى الميناء. دُفِعَتْ له أجرة عمله بعملةٍ ورقية إنجليزية، وقد استبدلت أصولًا بالذهب في بنك الدانوب الدولي. وعندما جاء إليه سكينسكي، أخذه إلى السفينة وسلَّمَه الصندوق، لكي يوفِّر أجرة الحمالين. ذلك كل ما عَرَفه.

اتَّجهنا بعدئذٍ للبحث عن سكينسكي، ولكننا لم نستطع العثور عليه. قال لنا أحدُ جيرانه -ولم يبدُ عليه أنه يكنُّ له أي محبة- بأنه غادر بيته قبل يومين، ولا أحد يعرف إلى أين ذهب. وقد أيدَّ كلام الجار صاحبُ البيت، الذي كان قد تلقَّى من رسولٍ مفتاح المنزل ومعه الأجرة المستحقة بعملة إنجليزية. حدث ذلك بين العاشرة والحادية عشرة في الليلة الفائتة. وهكذا نصل إلى طريق مسدود مرة أخرى.

بينما كنا نتحدَّث جاء أحدُهم راكضًا وقال لاهثًا بأنفاس متقطعة إنَّه عُثِرَ على جثة سكينسكي داخل سور ساحة كنيسة القديس بطرس، وأن عنقه قد فُتِحَ وكأنَّ حيوانًا ضاريًا فعل به ذلك. فما كان من هؤلاء الذين كنا نتحدث معهم إلَّا وهرعوا راكضين لمشاهدة المنظر المرعب، وصاحت النساء «لا يفعل ذلك سوى السلوڤاك!» أسرعنا وغادَرْنَا المكان حتى لا تتم جرجرتنا في القضية، ونتأخَّر عن مهمتنا.

عندما وصَلْنَا الفندقَ لم نستطع التوصل إلى استنتاج محدد. فقد كنا جميعًا على قناعة بأنَّ الصندوق كان في طريقه فوق الماء إلى مكان ما، ولكن علينا أن نكتشف أين يمكن أن يكون ذلك المكان. وبقلوب مثقلة بالهمِّ عدنا إلى الفندق للقاء مينا.

عندما اجتمعنا معًا، كان أول ما فعلناه التشاور في أن نفضي بأسرارنا إلى مينا مرَّة أخرى. فالأمور تزداد يأسًا، وهذه على الأقل فرصة، رغم أنها فرصة خطرة. وكخطوة أولية، صرتُ في حلٍّ من عهدي الذي قطعته عليها.

يوميات مينا هاركر

مساء ٣٠ أكتوبر - كانوا في قمة التعب والإنهاك وانخفاض الروح المعنوية، لأنه ما من شيء يمكن عمله إلى أن ينالوا قسطًا من الراحة، ولذا طلبتُ منهم جميعهم أن يضطجعوا نصف ساعة بينما أدوِّن كل الوقائع التي حصلت وصولًا إلى اللحظة الحالية. إني لأشعر بعظيم الامتنان للشخص الذي اخترع الآلة الكاتبة «المحمولة»، وللسيِّد كوينسي مورِس لأنه ابتاع هذه الآلة لي. وكنت سأشعر بالضياع إلى حدٍّ كبير لو كنت أقوم بعملي من خلال الكتابة بالقلم...

تمَّ كل شيء، ما أشدَّ ما عانى عزيزي المسكين جوناثان، وما أشدَّ ما يعانيه الآن. إنه يستلقي على الأريكة وبالكاد يبدو قادرًا على التنفس، والانهيار ظاهر على جسمه كلِّه. حاجباه منعقدان، وجهه شاحبٌ من الألم. ربما يكون التفكير قد أهمَّ زوجي المسكين،

وأستطيع أن أرى كل وجهه مجعدًا نتيجة تركيز أفكاره. أوه! يا ليتني أستطيع فقط أن أساعده أساسًا... ينبغي لي أن أفعل ما أستطيع.

طلبتُ من الدكتور ڤان هيلسنغ الأوراق، فأعطاني كل الأوراق التي لم أطَّلِع عليها حتى الآن... فبينما ينالون قسطًا من الراحة، ينبغي لي أن أراجع كل الأوراق بتأنٍّ، وربَّما يمكنني التوصُّل إلى بعض الاستنتاجات. وينبغي لي أن أتخذ من البروفسور قدوةً لي، وأن أفكِّر دون تحيُّزٍ في الوقائع الماثلة أمامي...

أعتقد بأنني اكتشفتُ أمرًا وقد ساعدَتْنِي العناية الإلهية في ذلك. عليَّ أن أُحضر الخرائط وأطَّلع عليها...

أنا على يقين أكثر من قبل بأني على صوابٍ. استنتاجي الجديد بات جاهزًا، ولذا عليَّ أن أستدعيهم جميعًا وأقرؤه لهم. ويمكنهم أن يحكموا عليه، ومن المهم أن أتوخَّى الدقة، فكل دقيقة لها ثمنها.

مذكَّرة استنتاجية كَتَبَتْهَا مينا هاركر

(وقد طبَعَتْهَا في يوميَّاتها على الآلة الكاتبة)

أساس الاستقصاء- مشكلة الكونت دراكولا المتمثِّلة في العودة إلى موطنه الأصلي.

(أ) يجب أن يعيده إلى موطنه شخصٌ ما. وهذا واضح، لأنه لو كانت لديه القدرة على نقل نفسه كما يشاء فيمكنه أن يذهب بهيئة إمَّا إنسان، أو ذئب، أو خفَّاش، أو في أي هيئة أخرى. فهو يخشى بصورة واضحة أن ينكشف أمره أو أن يعترض سبيله أحد، وهو

في حالة العجز التي لا بد أنه فيها، محبوس كما هو حاله بين الفجر وغروب الشمس في صندوقه الخشبي.

(ب) *ما الوسيلة التي سينقل بها؟* قد تساعدنا هنا عملية استبعاد الخيارات المحتملة. هل سينقل عبر طريق برية، أو بالقطار، أو بحرًا؟

١. *عبر طريق برية*- هناك معيقات لا حصر لها، وخصوصًا أثناء مغادرة المدينة، ومنها:

(س) هناك الناس؛ والناس فضوليون، ويتحرَّون الأمور. ويمكن لتلميحة أو ظنٍّ أو شكٍّ في ما قد يحويه الصندوق أن يقضي عليه.

(ع) هناك، أو ربَّما هناك، موظَّفُو الجمارك وجباية رسوم البضائع الذين ينبغي عبور نقاط تفتيشهم.

(ص) يمكن لمطارديه أن يلاحقوه. وهذا مَبْعَثُ خوفِهِ الأساسي، ولكي يحول دون تعرُّضِه للخيانة فقد نفَّر منه، قدر ما يستطيع حتى ضحيته، التي هي أنا!

٢. *بالقطار*- لن يكون هناك أحد يتولى الإشراف على الصندوق. وثمة فرصة في أن يتأخر، والتأخر سيكون قاتلًا في ظل وجود أعداءٍ يطاردونه. صحيح أنه ربما يهرب ليلًا، ولكن ماذا سيحلُّ به إذا ما تُرِكَ في مكانٍ غريب دون ملتجأ يستطيع أن يفر إليه مسرعًا؟ وهذا ليس ما ينوي فعله، بل لا يريد أنْ يخاطر بذلك.

٣. *بحرًا*– هذه أكثر السبل أمانًا من ناحية، ولكنها أشدها خطرًا من الناحية الأخرى. فهو يغدو عاجزًا عندما يكون فوق الماء ما عدا في الليل، وفي تلك الحالة فإنه يستطيع فقط استدعاء الضباب والعاصفة والثلج وذئابه. ولكن إذا تحطَّمَتْ به السفينة، فإن الماء سيغمره وهو بلا حول ولا قوة، وسوف يبتلعه بالفعل. ويمكن أن يأخذه المركب إلى اليابسة، ولكن إذا كانت اليابسة أرضًا من أراضي أعدائه، أرضًا لن تتاح له فيها حرية الحركة، فإن وضعه سيبقى ميؤوسًا منه.

إننا نعرف من السجلات بأنه في البحر، ولذا فإن ما علينا معرفته هو أن نتأكَّد أيَّ بحرٍ ذاك.

وأول نقطة تتمثل في أن نعرف بالضبط ما الذي فعله حتى الآن، ويمكننا عندئذٍ أن نستنير بخصوص آخر مهمة قام بها.

أولا، ينبغي لنا أن نميِّز بين ما فعله في لندن على أنَّه جزء من خطة أفعاله العامة، عندما ضُغِطَ للحظات واضطر لترتيب أموره بأفضل ما استطاع.

ثانيًا، ينبغي لنا أن نتحرَّى ما الذي فعله هنا، بالإضافة إلى ذلك يمكننا أن نخمِّن أفعاله تلك من الوقائع التي نعرف.

وفيما يخص النقطة الأولى، فمن الواضح أنه عقد العزم على الوصول إلى غالاتس، وأن يرسل فاتورة إلى ڤارنا لكي يضللنا حتى لا نستطيع التأكُّد من وسيلة خروجه من إنجلترا، فغايته المباشرة والوحيدة حينها كانت الهروب. والدليل على هذا رسالة التعليمات

المرسلة إلى إيمانويل هيلداشايم حتى يستلم الصندوق ويأخذه قبل شروق الشمس. وهناك أيضًا التعليمات المرسلة إلى پتروف سكينسكي. وما علينا سوى أن نلجأ إلى حدسنا فقط لاستنتاج وجود هذه الأدلة، ولكن لا بد من وجود رسالة أو بلاغ ما، لأن سكينسكي جاء إلى هيلداشايم.

نعرف حتى الآن أن خططه حالفها النجاح. فقد قامت السفينة زارينا كاثرين برحلة سريعة تفوق التصور -تفوق التصور بدرجة كبيرة جدًا أثارت شكوك القبطان دونِلسُن- ولكن معتقداته الخرافية إذ اجتمعت مع دهائه أسهمت في نجاح خطة الكونت، فأسرع مع ريحه المواتية عبر الضباب وبقية ما في القصة من عناصر حتى وصل وكأنه معصوب العينين إلى غالاتس. وقد ثبت لدينا بأن ترتيبات الكونت جرت على أحسن ما يكون. فقد استلم هيلداشايم الصندوق بصورة نظامية، وأنزله عن السفينة، وسلَّمه إلى سكينسكي. ثم أخذه سكينسكي.. وهنا فقَدْنَا الأثر. نحن نعرف فقط بأن الصندوق في مكان ما فوق الماء يتابع رحلته. وقد تحاشى الصندوق المرور عبر نقاط موظفي الجمارك وجباية رسوم البضائع في حال اعترض أي منهم طريقَه.

والآن نصل إلى الإجراء الذي تحتَّم على الكونت فعله بعد وصوله اليابسة في غالاتس.

سُلِّمَ الصندوق إلى سكينسكي قبل شروق الشمس. فعند شروقها يستطيع الكونت الظهور في هيئته الحقيقية. وهنا نسأل

لماذا وقع الاختيار على سكينسكي أساسًا ليساعد في تنفيذ المهمة؟ في مذكرات زوجي، ذُكِرَ بأنَّ سكينسكي يتعامل مع السلوڤاك الذي يتاجرون عبر النهر وصولًا إلى الميناء، والصيحة التي أطلقها الرجل[1] بأن الجريمة كانت من فعل سلوڤاكي، عبرَّت عن الشعور العام الذي يكتنف بني جلدته. فقد أراد الكونت العزلة.

إن حدسي يقول لي ما يلي: لقد قرَّر الكونت في لندن العودة إلى قلعته بحرًا، نظرًا لأنها الوسيلة الأكثر أمانًا وسرية. فقد جاء به غجرُ الزَّغاني من القلعة، وعلى الأرجح أنهم سلَّموا الحمولة إلى السلوڤاك الذين أخذوا الصناديق إلى ڤارنا، لأنها شُحِنَت من هناك بحرًا إلى لندن. ولهذا فالكونت على دراية بالأشخاص الذين يستطيعون ترتيب شؤون هذه الخدمة له. وعندما كان الصندوق على اليابسة، قبل شروق الشمس أو بعد غروبها، خرج من صندوقه، والتقى سكينسكي وأرشده بخصوص ماذا يفعل من أجل ترتيب نقل الصندوق عبر نهر من الأنهار. وعندما تمَّ ذلك، وعرف أن كل تفاصيل الخطة كانت قيد التنفيذ، أخفى آثارَه، كما ظن، عن طريق قتله وكيله.

لقد تفحَّصْتُ الخريطة ووجدتُ أن النهر الأنسب للسلوڤاك لسلوكه كان إما نهر پروت أو نهر سيريت. وقد قرأتُ في النسخة المطبوعة على الآلة الكاتبة بأنني سمعتُ أثناء غيبوبتي وأنا منوَّمة مغناطيسيًا خوارَ بقر خفيض وخرير ماء يدور بشكل دوامة وصل مستوى أذناي وصرير خشب. لقد كان الكونت إذن في صندوقه في

---

(١) هذا خطأ في النص الأصلي، إذ نعرف أن من قال ذلك امرأة وليس رجل.

نهرٍ على قاربٍ مكشوف، وعلى الأرجح أنه قاربٌ مسيَّر بالمجاذيف أو عصي الدفع الطويلة، لأنَّ ضفتي النهر قريبتان وهو يبحر ضد التيار. إذ لا يمكن أن يصدر مثل هذا الصوت لو كان القارب يبحر مع التيار.

وبالطبع ربما لا يكون النهر المقصود نهر سيريت أو پروت، ولكن يمكننا أن نتحرَّى الأمر بإسهاب أكثر. والآن من بين هذين النهرين، فإن نهر پروت هو الأسهل للملاحة، ولكن نهر سيريت، في فوندو، يلتقي نهر بستريتزا الذي يجري حول معبر بورغو. وواضحٌ أن الحَلْقَة التي يشكِّلها قريبةٌ من قلعة دراكولا التي يمكن الوصول إليها عبر الماء.

تتمة يوميات مينا هاركر

عندما فرغتُ من القراءة، حضَنَنِي جوناثان بين ذراعيه وقبَّلَنِي. بينما واصل الآخرون التربيت على كتفي بكلتا يديهم، وقال الدكتور ڤان هيلسنغ:

«هي ذي عزيزتنا السيِّدة مينا تغدو معلِّمتنا مرة أخرى. فقد فتحت عيناها في الموضع الذي كنا فيه عميانًا. ونحن الآن في الطريق الصحيح مرة أخرى، وربما ننجح هذه المرَّة. عدوُّنا في أشد لحظات يأسه، وإذا استطعنا أن نعثر عليه في النهار وهو فوق الماء، فإن مهمتنا ستصل فصلَها الأخير. لقد كسب الجولة الأولى، ولكنه عاجز عن الإسراع، إذ إنه لا يستطيع أن يغادر صندوقه لكي لا يثير شكوك

أولئك الذين ينقلون الصندوق، لأنَّ شكهم به سيحثهم على رميه في النهر حيث سيلقى حتفه. إنه يعرف هذا، ولذا فلن يخرج من الصندوق. والآن أيها الرجال فلنعقد مجلس حربنا، لأنه علينا أن نخطِّط بين الفينة والأخرى لما ينبغي لكل واحدٍ منا أن يفعله».

«ينبغي لي الحصول على قارب بخاري واللحاق به» قال اللورد غودالمنغ، وقال كوينسي مورِس:

«وأنا سأحضر الخيل حتى نتبعك على ضفة النهر لكيلا لا تكون هناك فرصة في أن ينزل من القارب». فقال البروفسور:

«جيِّد! ونعمَ الفكرتان! ولكن لا ينبغي لأي منكما أن يذهب وحدَه. يجب أن نمتلك القوة لمواجهة القوة إن لزم الأمر، فالسلوفاكي قوي وفظ ويحمل أسلحة قاتلة». ابتسم الرجال كافة، لأنهم يحملون معهم ترسانة أسلحة صغيرة. وقال السيد كوينسي مورِس:

«لقد أحضرتُ بعض بنادق الونشستر، وهي سهلة الاستخدام في حشد من الناس، وربَّما نصادف في طريقنا ذئابًا. فقد اتَّخَذَ الكونت إذا كنتم تتذكرون بعض الاحتياطات الأخرى، وقد وضع حجابًا على بعضها حتى لا تستطيع السيِّدة مينا هاركر سماعها أو فهمها بالصورة المثلى. يجب أن نكون جاهزين على جميع الجبهات». ثم قال الدكتور سيورد:

«أعتقد أنه من الأفضل لي الذهاب مع كوينسي. فقد اعتدنا على الصيد سوية، ونحن الاثنان المدججان بالأسلحة؛ سنكون ندًا لأي شيء قد يعترض طريقنا. وعليك ألا تكون وحدَك يا أرثر. فربما من

الضروري قتال السلوفاك، ويمكن لهجوم مباغت -لأني لا أظن أن هؤلاء القوم يحملون بنادق- أن يطيح بكل خططنا. علينا ألَّا نقدم على أي مخاطرة هذه المرَّة، ولن يرتاح بالنا حتى نفصل رأس الكونت عن جسده، ونحن على يقين أنه غير قادر على التناسخ».
نظَرَ إلى جوناثان وهو يتكلَّم، بينما نظر جوناثان إليَّ. واستطعتُ أن أرى بأن العزيز المسكين كان شارد الذهن. فقد أراد بالطبع أن يظلَّ معي، ولكن حينئذٍ فإن الذهاب في مهمة القارب سيكون، على الأغلب، الوسيلة التي ستقضي على مصَّاص الدِّ... الدِّ... الدِّماء. (لماذا تردَّدتُ في كتابة الكلمة؟). صمتَ هنيهة، وأثناء صمته قال الدكتور ڤان هيلسنغ:

«يا صديقي جوناثان، تقع على عاتقك هذه المهمَّة لسببين. السبب الأول أنك شابٌّ وشجاعٌ وقادرٌ على القتال، وربَّما سنكون بحاجة إلى كل طاقاتنا في آخر المطاف، والسبب الثاني أنه من حقِّكَ أن تقضي عليه، ذلك الذي أوجَعَك وجلب لكَ ولزوجتك البلاء. لا تخشَ على السيِّدة مينا، فسوف تكون في رعايتي، بعد إذنك. أنا عجوز، وساقاي ليستا سريعتان جدًا للركض كما كنتُ في سابق عهدي، ولستُ معتادًا على ركوب الخيل لمسافة طويلة أو على المطاردة إذا دعت الحاجة، أو على القتال بأسلحة فتَّاكة. ولكنِّي أستطيع أن أؤدي مهام أخرى، ويمكنني أن أقاتل بطرقٍ أخرى. أستطيع الموت، إذا دعت الحاجة، مثلما يموت الشباب. والآن دعوني أقول إنني أرغب في فعل ما يلي: بينما تذهبا أنتما، يا عزيزي اللورد غودالمنغ وصديقي جوناثان في قاربكما البخاري الصغير

السريع جدًا عبر النهر، وبينما يحرس جون وكوينسي ضفة النهر لعلَّه ينزل عليها من القارب، سأصطحب السيدة مينا مباشرة إلى قلب بلاد العدو. وبينما يكون الثعلب العجوز مختبئًا في صندوقه، طافيًا فوق الماء الجاري حيث لا يستطيع الهروب إلى اليابسة -وحيث لا يجرؤ على رفع غطاء ناووسه حتى لا يتركه ناقلوه السلوڤاك ليلقى مصيره بسبب خوفهم منه- ينبغي لنا أن نسير في المسار الذي سلكه جوناثان، من بسترتز إلى بورغو، وأن نجد طريقنا إلى قلعة دراكولا. وهنا، سوف تساعدنا بالتأكيد قوة السيِّدة مينا أثناء تنويمها مغناطيسيًا، وسنجد طريقنا -التي لا نعرف عنها سوى أنها مظلمة ومجهولة كلية- بعد أول شروقٍ للشمس ونحن قريبان من ذلك المكان المشؤوم. هناك الكثير مما ينبغي لنا فعله، وثمة أماكن أخرى ينبغي تطهيرها، حتى يتم بذلك القضاء على وكر الأفاعي السامة». وهنا قاطعه جوناثان بحدَّة قائلًا:

«أتقصد أن تقول يا بروفسور ڤان هيلسنغ، بأنَّك ستأخذ مينا، وهي في حالتها الحزينة والملوَّثة كما هو حالها بوباء ذلك الشيطان، مباشرة إلى فكي مصيدته المميتة؟ هذا مستحيل! مستحيلٌ أن أسمح لك بذلك حتى لو أرسلْتَنِي إلى الجنَّة أو رميتني في النار!» باتَ شبه عاجز عن الكلام للحظات، ومن ثمَّ تابع قائلًا:

«أتعرف أيَّ مكانٍ تكونه تلك القلعة؟ هل سبق لكَ ورأيتَ ذلك الوكر الفظيع ذا السمعة الشيطانية المخزية، حيث نور القمر يعج بالأطياف المخيفة، وكل ذرَّة من ذرات الغبار التي تدور في الريح ليست سوى وحشٍ مفترسٍ في طور التكوين؟ هل سبق

لكَ وشعرتَ بشفتي مصاص الدماء على رقبتك؟». وهنا التَفَتَ صوبي، وبينما التمع بريق عينيه على جبيني رمى أسلحته وأطلق صيحة وقال: «أوه يا إلهي! ما الذي فعلنَاه حتى يُلْقَى هذا الرعب على كواهلنا!». ثمَّ ألقى بنفسه على الأريكة وقد انهار يائسًا. هدَّأ صوتُ البروفسور من روعنا جميعًا، بنبراته الواضحة الناعمة التي بدت وكأنها تتأرجح في الهواء، وهو يقول:

«يا صديقي، إنما أريد الذهاب إلى ذلك المكان الرهيب رغبةً في إنقاذ السيِّدة مينا منه. وحاشى لله أن آخذها إلى ذلك المكان دون غاية. فثمَّة مهمَّةٌ - مهمَّةٌ رهيبة - ينبغي القيام بها هناك، مهمَّةٌ قد لا يجوز لها أن تراها بعينيها. فنحن الرجال هنا، كلنا باستثناء جوناثان، رأينا بأمِّ أعيننا ما الذي ينبغي عمله قبل أن يتم تطهير ذلك المكان. تذكَّروا أننا في موقفٍ عسير. وإذا أفلَتَ منَّا الكونت هذه المرة -وهو قوي وبارع وماكر- فربما يقرر أن ينوِّم نفسه مدة قرن، ومن ثمَّ، ومن دون أي تأخير، فإنَّ صديقَتَنَا العزيزة...» -وهنا أمسك يدي- «ستأتي إليه لترافقه، وستصير مثل هاتيك النساء التي رأيتَهنَّ يا جوناثان. النساء اللاتي حكيتَ لنا عن شفاههن الشامتة، وسمعتَ ضحكاتهن الماجنة وهن يتشبثنَ بالكيس ذي الكائن المتحرِّك الذي رماه لهنَّ الكونت. إنك ترتجف، وليكن! سامحني لأني أسبِّب لك هذا القدر الكبير جدًا من الألم، ولكن ذلك ضروري. يا صديقي، أوليست حاجة ماسَّة تلك التي ربما سأهب من أجلها حياتي؟ ولو قدِّر لأحدٍ أن يذهب إلى داخل ذلك المكان ليمكث فيه، فهو أنا من يجب عليه الذهاب لكي يرافقهن».

«افعل ما تشاء» قال جوناثان بنشيجٍ هزَّ كيانَه بأكمله، ثم أضاف: «نحن بين يدي الله!».

لاحقًا- كم كان مفيدًا لي أن أرى الطريقة التي عمل بها هؤلاء الشجعان! فكيف يمكن للنساء ألا يقعن في حب الرجال إذا ما كانوا في قمة الحماسة، والصدق، والشجاعة! كما أن ذلك أيضًا جعلني أفكِّر بالقوة العجيبة للمال! ما الذي لا يستطيع المال فعله عندما يُسْتَخْدَم بالصورة الصحيحة، وما الذي قد يفعله عندما يستخدم بخسَّة. شعرتُ بعظيم الامتنان لأن اللورد غودالمنغ غني، وبأنه هو والسيد كوينسي مورِس، الذي يملك أيضًا الكثير من المال، يودَّان أن ينفقاه بسخاءٍ كبير. لأنهما لو لم يفعلا ذلك، فما كان لحملتنا الصغيرة أن تنطلق، سواءً بهذه السرعة أو بهذه الاستعدادات الجيدة العالية التجهيز، كما سيحصل خلال ساعة من الآن. لم تمر أكثر من ثلاث ساعات منذ أن وزعت المهام المنوطة بكل واحد منا، إلَّا وصار الآن مع اللورد غودالمنغ وجوناثان قارب بخاري جميل، ومحرِّكه البخاري جاهز للعمل في لحظات. ومع الدكتور سيورد والسيِّد كوينسي مورِس نصف دزينة من الخيل الأصيلة، المجهَّزة أفضل التجهيز. ومعنا كل الخرائط والمعدَّات من شتى الأنواع الثمينة. من المقرَّر أن أغادر والدكتور ڤان هيلسنغ في قطار الساعة ١١:٤٠ الليلة إلى ڤيريستي، حيث سنشتري عربة تقودنا إلى معبر بورغو. وقد أحضرنا معنا مقدارًا كبيرًا من النقود الجاهزة لأننا سنشتري العربة والخيل. وسوف نقود العربة بأنفسنا، لأنه لا يوجد أحدٌ يمكن أن نستأمنه على هذه المسألة. لدى البروفسور حصيلة

كبيرة جدًا من لغاتٍ عدَّة، ولذا ستتدبر أمورنا على أحسن ما يكون. جميعنا مسلَّحُون، بل حتى يوجد معي مسدَّسٌ ذو سبطانة عريضة، ولن يكون جوناثان سعيدًا ما لم أكن مسلَّحَة مثل البقية. للأسف! لا أستطيع أن أحمل سلاحًا واحدًا مما يستطيع الآخرون حمله، فالندبة التي على جبيني تحولُ دون ذلك. طمأنني الدكتور العزيز ڤان هيلسنغ إذ أخبرني بأنني مسلَّحَة بالكامل لأنه ربما نصادف ذئابًا، والطقس يزداد برودةً كل ساعة، فثمة هبَّات من الثلج تأتي وتروح منذرة بما هو قادم.

لاحقًا- لزمتني كل شجاعتي حتى أودِّع زوجي العزيز. فربَّما لن نلتقي مرة أخرى أبدًا. فالشَّجَاعة الشَّجَاعة يا مينا! إنَّ البروفسور ينظر إليكِ باهتمام بالغ، وما نظرته سوى نظرة محذرة. يجب ألَّا يكون هناك دموع الآن، ما لم تكن دموع فرحٍ يرسلها الله على خدودي.

يوميات جوناثان هاركر

ليلة ٣٠ أكتوبر- أنا أكتب هذه اليوميَّات في الضوء الصادر عن باب المرجل في القارب البخاري الذي يقوم اللورد غودالمنغ بتغذيته بالفحم. إنه شخص خبير في العمل، لأنه امتلك لسنوات قاربًا بخاريًا على نهر التيمز، وقاربًا آخر في نورفُلك برودس. وفيما يخص خططنا، لقد قرَّرنا أخيرًا بأن حدْس مينا كان في محله، وإنه إذا اختار الكونت أن يهرب عبر أي ممر مائي ليعود إلى قلعته، فإن

ذلك الخيار لن يكون سوى نهر سيريت ومن ثمَّ نهر بستريتزا عند نقطة التقائهما. وقد سلَّمْنَا بداهةً، أنه في مكان ما حوالي درجة خط العرض ٤٧ شمالًا، سيكون المكان المختار لعبور البلاد بين النهر وجبال الكاراپات. ما من خوفٍ يعترينا من السير بسرعة لا بأس بها عبر النهر في الليل، فالنهر غزير المياه، والضفتان بعيدتان عن بعضهما بحيث يكفي اتساعه لجعل إبحار قارب بخاري فيه سهلًا حتى في عتمة الليل. طلب مني اللورد غودالمنغ أن أنام لبرهة، لأنه يكفي في الوقت الراهن أن يتولى قيادة القارب شخص واحد. لكني لا أستطيع النوم، كيف لي أن أنام والخطر الرهيب يحدق بزوجتي العزيزة، وذهابها إلى ذلك المكان الرهيب... إن عزائي الوحيد هو أننا بين يدي الله. هذا الإيمان فقط هو ما يجعل الموت أسهل من الحياة، وبذلك يرتاح المرء من كل هذا العناء. انطلق قبلنا السيد كوينسي مورِس والدكتور سيورد في رحلتهما الطويلة على ظهور الخيل، وسوف يبقيان ملازِمَين لضفة النهر اليمنى، بَعيدَيْن مسافة تكفيهما للسير فوق الأراضي المرتفعة حيث يستطيعان رؤية مساحة كبيرة من النهر ويتجنَّبا اتِّبَاع انثناءاته. رافقهما في المراحل الأولى رجلان ليركبا الخيل ويقودا الجياد الاحتياطية -أي أنهم كانوا أربعة إجمالًا- درءًا للشبهات. عندما يأمرا الرجلين بالانصراف، وسيحصل ذلك خلال مدة قصيرة، سيتوليَّان بنفسيهما رعاية الخيل. وقد يكون من الضروري لنا أن نوِّحد قوانا، وإذا ما حصل ذلك فإن من شأن هذا أن يراكم قوة مجموعتنا برمتها. لأحد السروج قرنة متحركة، ويمكن بسهولة تعديله حتى تمتطيه مينا عند اللزوم.

إننا مقبلون على مغامرة مثيرة. فهنا، ونحن نندفع عبر العتمة، يبدو أن البرد سينبثق من النهر ويلسعنا، وتحيط بنا كل أصوات الليل المبهمة. يبدو أننا ننجرف إلى أماكن مجهولة ودروبٍ مخفية، إلى عالم كامل من العتمة والأشياء المرعبة. هو ذا غودالمنغ يغلق باب المرجل...

٣١ أكتوبر- ما نزال نبحر بسرعة عبر النهر. طلع النهار وغودالمنغ نائم. وأنا أقوم بقيادة القارب. برودة الصبح مريرة، وكنا ممتنين لحرارة المرجل، رغم أننا نرتدي معاطف فروٍ سميكة. مررنا حتى الآن ببضعة قوارب مكشوفة، ولكن لا يوجد على سطح أي منها أي صندوق أو حمولة من أي شيء بحجم الصندوق الذي نسعى وراءه. دبَّ الفزع في قلوب بحّارة المراكب في كل مرّة وجّهْنَا فيها ضوء مصباحنا الكهربائي عليهم، وجثوا على ركبهم يصلُّون.

مساء ١ نوفمبر- ما من أنباء طوال النهار، ولم نعثر على أي شيء له علاقة ببغيتنا التي نريد. عبرنا الآن إلى نهر بستريتزا، وإذا كنا مخطئين في حدسنا فقد فاتتنا الفرصة. لقد لحقنا بالمراكب كافة، صغيرها وكبيرها. وفي وقت مبكر من صباح هذا اليوم، ظنَّ طاقم أحد المراكب أننا قاربٌ حكومي، وعاملونا بناءً على ظنهم ذاك. وقد رأينا في هذا وسيلة لتلطيف الأمور، وهكذا في فوندو، حيث يصب نهر بستريتزا في نهر سيريت، حصلنا على علمٍ روماني نرفعه الآن بصورة بارزة للعيان. نجَحَت هذه الحيلة مذّاك مع كل المراكب التي لحقنا بها، فقد أظهرت لنا طواقمها كل الامتثال، ولم يعترضوا ولا مرَّة على أسئلتنا أو أفعالنا. أخبَرَنا بعض السلوفاك أنَّ قاربًا كبيرًا

مرَّ بهم، وهو يسير بسرعة أكبر من المعتاد نظرًا لوجود طاقمين من البحَّارة على متنه. وقد حصل هذا قبل أن يأتوا إلى فوندو، ولم يستطيعوا أن يحدِّدُوا فيما إذا كان القارب قد انعطف إلى نهر بستريتزا أو تابع مساره عبر نهر سيريت. وفي فوندو لم نسمع بمرور مثل هذا القارب ولذا لا بد أنه مرَّ من هناك في الليل. أشعر بالنعاس الشديد، وربما بدأ البرد يفعل فعله فيَّ، ولا بد للطبيعة أن ترتاح بعض الوقت. يصر غودالمنغ على أن تكون نوبة الحراسة الأولى من نصيبه. فليباركه الله على كل طيبته مع مينا العزيزة المسكينة ومعي.

صباح ٢ نوفمبر– انتشر ضوء النهار. ولم يوقظني ذلك الصديق الطيب. يقول إن إيقاظي سيكون بمثابة ارتكاب إثمٍ، لأني نمتُ بهناءة ونسيت كل همومي. يبدو لي من باب الأنانية المفرطة أن أنام هذه المدة الطويلة، وأن أتركه يقود القارب طوال الليل، ولكنه كان على صوابٍ تمامًا. فأنا أشعر أني إنسان جديد هذا الصباح، وبينما أجلس هنا وأراقبه وهو نائم، أستطيع أن أفعل كل ما هو ضروري بخصوص الانتباه إلى المحرِّك وتوجيه القارب والمراقبة. أستطيع أن أشعر بقوتي وطاقتي وهما تعودان إليَّ. أين صارت مينا الآن يا ترى؟ وكذلك ڤان هيلسنغ؟ ينبغي أن يكونا قد وصلا إلى ڤيريستي بحدود ظهر يوم الأربعاء. وسيحتاجان بعض الوقت لشراء العربة والخيل، وهكذا إذا كانا قد انطلقا في رحلتهما وأسرعا فيها، فإنهما سيكونان الآن تقريبًا في معبر بورغو. ليرشدهما الله ويعينهما! أنا خائف من التفكير فيما قد يحدث. ليتنا نسرع وحسب! ولكننا لا نستطيع، فالمحرِّكات ترتجُّ وتشتغل بأقصى طاقتها. كيف هي يا

ترى أحوال الدكتور سيورد والسيد كوينسي مورِس؟ إذ يبدو أن هناك جداول لا تعد ولا تحصى تجري بين الجبال وتصبُّ في هذا النهر، ولكن لأنَّه لا يوجد في الوقت الحالي أي منها كبير جدًا -رغم أنها جداول مهولة بلا شك في الشتاء وعندما يذوب الثلج- فإنَّ صاحبينا المتطيين صهوات خيلهما ربما لم يواجها مثل هذه العقَبة. آمل أن نراهما قبل أن نصل ستراسبا، لأنه بحلول ذلك الوقت إن لم نكن قد لحقنا بالكونت، فربما يكون من الضروري أن نتشاور فيما بيننا بخصوص الخطوة التي سنقدم عليها بعد ذلك.

مذكرات الدكتور سيورد

٢ نوفمبر- قضينا ثلاثة أيام مرتحلين برًا على صهوات خيلنا. لم تصلنا أي أنباء، ولو كان هناك أي أنباء فلا وقت لأدوِّنها، لأن كل لحظةٍ أثمن من الأخرى. لم ننعم بأي قسط من الراحة إلا من أجل استراحة الخيل، ولكننا كلينا نتحمَّل الأمر بصورة عجيبة. علينا أن نتابع مسيرتنا، ويجب ألَّا نشعر بالسعادة أبدًا حتى نرى القارب البخاري مرَّة أخرى.

٣ نوفمبر- سمعنا في فوندو بأن القارب البخاري ذهب عبر نهر بستريتزا. وتمنيت لو لم يكن الجو باردًا جدًا. فهناك علامات تنبئ بقدوم الثلج، وإذا ما سقط بغزارة فسوف يوقفنا. في مثل هذه الحالة علينا أن نحصل على مزلجة ونتابع رحلتنا، رحلةً على الطريقة الروسية.

٤ *نوفمبر*- سمعنا اليوم بأن القارب البخاري علق بسبب تعرضه لحادث أثناء محاولته فتح طريق له عبر المنحدرات المائية. وقد نجحت مراكب السلوفاك في العبور بصورة سليمة، نتيجة استعانتهم بحبل ونتيجة خبرتهم في الملاحة. وقد تابع بعضٌ منهم مشواره قبل بضع ساعات فقط. وغودالمنغ نفسه ميكانيكي هاوٍ، ومن الواضح أنه هو من أعاد القارب إلى حالته السليمة مرة ثانية. أخيرًا تجاوزا المنحدرات المائية بسلام، بمساعدة السكان المحليين، وانطلقوا في مطاردتهم من جديد. أخشى أن يكون القارب غير صالح للملاحة بعد تعرضه للحادث، فقد أبلَغَنَا القرويون بأنه بعد أن وصل القارب إلى المياه الهادئة مرة أخرى، لم يكف عن التوقف بين الفينة والأخرى وهو لا يزال في مجال رؤيتهم. علينا أن نندفع بقوة أكثر من قبل، فهناك من قد يكون بحاجة إلى مساعدتنا قريبًا.

يومِّيات مينا هاركر

٣١ *أكتوبر*- وَصَلْنَا ڤيريستي ظهرًا قال لي البروفسور إنّه بالكاد استطاع هذا الصباح ابتداءً من الفجر أن ينوِّمني مغناطيسيًا، وأن كل ما استطعت قوله له: «لا أرى سوى العتمة ولا أسمع سوى السكون». وقد انطلق الآن ليشتري عربةً وخيلًا. يقول إنه سيحاول لاحقًا أن يشتري جيادًا إضافية، بحيث يتسنى لنا أن نبدِّلها لاحقًا في الطريق. أمامنا مسافةٌ تصل إلى حوالي أكثر من ٧٠ ميلًا. إنَّ هذا البلد لرائعٌ، ومبهجٌ جدًا، وليتنا فقط كنا في ظل ظروف مختلفة، لكم سيكون من المفرح عندئذٍ أن نراه كله. ويا للروعة لو كنْتُ

وجوناثان نسير بعربتنا في أرجائه وحدنا! وأن نتوقف ونتحدَّث مع الناس، ونتعلم شيئًا ما عن حياتهم، وأن نملأ عقولنا وذكرياتنا بكل الألوان والصور البديعة عن كامل هذه البلاد الجميلة المثيرة وأهلها قديمي الطراز! ولكن، وا أسفاه!...

لاحقًا- عاد الدكتور ڤان هيلسنغ وقد ابتاع العربة والخيل؛ وسوف نتناول بعض الغداء، وننطلق في غضون ساعة. جهَّزَت لنا صاحبة الفندق سلَّة ضخمة من الزاد، ويبدو أنَّها تكفي سرية من الجنود. وقد شجَّعها البروفسور، وهمس لي بأننا ربما سنقضي أسبوعًا قبل أن نستطيع أن نحظى بطعام لذيذ مرة أخرى. كان قد تسوَّق أيضًا، وأرسل إلى الفندق مجموعة رائعة من معاطف وشالات الفرو، وكل صنوف المواد الدافئة. ولن يكون هناك ثمة أي فرصة لأن نشعر بالبرد.

. . . . . .

سوف ننطلق قريبًا. إني خائفة من التفكير فيما قد يحصل لنا. فنحن بحق بين يدي الله. ولا أحد سواه يعرف ماذا يمكن أن يحصل، وأنا أدعوه، بكل القوة التي في روحي الحزينة المتواضعة، أن يشمل برعايته زوجي الحبيب، ومهما يحصل، فجوناثان ربما يعرف أني أحبُّه وأجلُّه بصورة تعجز كلماتي عن وصفها، وأنَّ كل أفكاري وأصدق مشاعري ستكون دائمًا معه.

الفصل السابع والعشرون

يوميَّات مينا هاركر

١ نوڤمبر- قضَّينا النهار بطوله مُرْتَحِلَيْن بسرعة كبيرة. ويبدو أن الخيل تدرك أنَّها تحظى بمعاملةٍ طيِّبةٍ، إذ إنها تنطلق من طوعٍ نفسها وقد قطَعَت المسافة كاملة بأقصى سرعة. بدَّلنا الخيل عدَّة مرات ومررنا بالتضاريس ذاتها بصورة مستمرة حتَّى واتتنا الشجاعة كي نظن بأن الرحلة ستكون سهلة. الدكتور ڤان هيلسنغ مُقْتَضِبٌ في كلامه، يقول للمزارعين إنه متَّجِهٌ في عجلةٍ من أمره إلى بِسْتْرِتز، ويجزل لهم العطاء حتى يبدِّلوا الخيل التي تجر العربة. نحصل على بعض الحساء الساخن أو القهوة أو الشاي الدافئ، ومن ثمَّ ننطلق. يا له من بلدٍ جميل! بلدٍ يفيض بشتَّى صنوف الجَمال التي قد تخطر في بال المرء، وأهلُه شجعان، أقوياء، وبسطاء، ويبدو أن الخصال الحسنة تغمرهم. إنهم يؤمنون بالخرافات إلى درجةٍ تفوق التصوُّر. ففي أول منزلٍ توقَّفْنَا فيه، عندما رأت المرأة التي أشرَفَتْ على خدمتنا الندبة على جبيني، رسَمَتْ إشارة الصليب على جسدِها ورفعت إصبعين نحوي، لكي تطرد عنها العين الشريرة. أظن أنَّهُم تجشَّمُوا عناء وضع كمية إضافية من الثوم في طعامنا، وأنا

لا أستطيع تَحَمُّله. ومنذ ذلك الحين كنت حذرة ولم أنزع قبعتي أو غطاء وجهي، وكذا تحاشيتُ إثارة شكوكهم. إننا ننطلق بسرعة، ونظرًا لأنَّه ليس معنا سائق يبث الإشاعاتِ عن رحلتنا، فإننا نمضي دون أن يرافقنا القيل والقال، ولكني أخشى أن الخوف من العين الشريرة سيتبعنا بقوة على طول مسار رحلتنا. يبدو أنَّ البروفسور لا يعرف معنى التعب. فهو لم ينل أيَّ قسطٍ من الرَّاحة طوال النهار، رغم أَنَّه تركني أنام مدَّةً طويلة. عند الغروب نوَّمني مغناطيسيًا، ويقول إني أجبتُ على أسئلته الأجوبة المعتادة ذاتها: «ثمَّة عتمةٌ، وماءٌ يتلاطم وخشبٌ يَصِرُّ»؛ ما يزال عدوُّنا في النهر إذن. إنِّي أخشى التفكير بجوناثان، ولكنِّي نوعًا ما لستُ خائفةً عليه، أو على نفسي. أكتُب هذه اليوميَّات ونحن ننتظر تجهيز الخيل في بيت ريفي داخل مزرعة. الدكتور ڤان هيلسنغ نائم. يا للعزيز المسكين! فهو يبدو في قمَّة التعب وقد أضناه الهرمُ ونال منه الشحوب، ولكن فمَه حازمٌ بعزمٍ مثل فمِ صنديدٍ من الفاتحين، فهو يفيض بالعزم حتَّى أثناء نومه. وبعد أن نقطع مسافةً لا بأس بها في مسيرنا عليَّ أن أتركه يرتاح بينما أقود العربة بنفسي. عليَّ أن أقنعه بالقول إنَّ هناك أيامًا أمامنا، وإنَّه علينا ألَّا ننهار عندما سنكون بحاجةٍ إلى قوَّتِه كلِّها... بات كلُّ شيءٍ جاهزًا، وسننطلق بعد قليل.

صباح ٢ نوفمبر – نجحتُ في إقناعِه، وتناوَبْنَا على قيادة العربة طوال الليل، وقد طَلَع النهار علينا الآن؛ نهارًا مشرقًا رغم برودته. ثمَّةَ ثقلٌ غريب في الهواء – وأقول ثقلٌ إذ لا أجد كلمة أفضل تصف الحال، وأقصد بذلك أنَّه أتْعَبَنَا نحنُ الاثنين. فهو بارد جدًا، ولا

يجعلنا في حرزٍ منه سوى ثياب الفرو الدافئة التي نرتديها. نوَّمَنِي ڤان هيلسنغ عند الفجر، ويقول إنني أجبته على سؤاله قائلة: «ثمَّة عتمةٌ، وصريرُ خشب وهديرُ ماء»، إذن فصوت ماء النهر يتغيَّر وهم يخوضون فيه صعودًا. وتحدوني الآمال العريضة بأنَّ زوجي العزيز لن يغامر في المخاطر أكثر مما تدعو إليه الحاجة، ومع ذلك فنحن بين يدي الله.

٢ نوڤمبر، في الليل – قدنا العربةَ طوال النهار. ازداد إقفار البلد كلَّما مضينا في طريقنا، وتبدو النتوءات الضخمة لجبال الكاراپات الآن وهي تتجمَّع حولنا وترتفع أمامنا، بعد أن بدت لنا ونحن في ڤيريستي بعيدة جدًا وقد انخفضت بحدَّة فوق الأفق. يبدو كلانا في معنويات عالية، وأظن أنَّ أحدنا يبذل جهده حتى يدخل البهجة على قلب الآخر، وأثناء قيامه بذلك فهو يدخل البهجة على نفسه. يقول الدكتور ڤان هيلسنغ إنه ينبغي لنا الوصول إلى معبر بورغو مع حلول الصباح. المنازل قليلة جدًا هنا الآن، ويقول البروفسور إنَّ آخر حصان بدَّلناه سيضطر لمتابعة الرحلة معنا، نظرًا لأننا قد لا نكون قادرين على تبديله مرة أخرى. وقد حصل على حصانين إضافة إلى الحصانين الآخرين اللَّذين بدلنَاهما سلفًا، وهكذا فمعنا الآن أربعة جيادٍ قوية يمكن لشخص واحد أن يمسك بناصيتها. الجياد العزيزة صبورة وقوية، ولا تسبِّب لنا أي متاعب. ولا يراودنا القلق بخصوص وجود مسافرين آخرين على الطريق ولذا فإني أستطيع قيادة العربة بنفسي. ينبغي لنا الوصول إلى المعبر في ضوء النهار، ولا نريد الوصول قبل ذلك. ولذا فقد هوَّنَّا الأمر على أنفسنا، وتناوبنا

على نيل قسط وافر من الراحة. يا إلهي! ما الذي يحمله لنا الغد؟ إننا ذاهبان للبحث عن المكان الذي عانى فيه زوجي العزيز المسكين معاناة كبيرة جدًا. فليهدنا الله سواءَ السبيل، وليتلطَّف بأن يحفظ بعنايته زوجي وأصحابه الأعزَّاء وهم يخوضون غمار تلك المخاطرة الرهيبة. أمَّا من ناحيتي، فأنا لا أستحقُّ عناية الله. وا أسفاه! أنا لستُ طاهرةً أمام عينيه، وسأبقى على ذي الحال حتى يتلطَّفَ بي ويدعني أقفُ في حضرته كمن لم يثر سخطه.

مذكَّرة كَتَبَهَا أبراهام ڤان هيلسنغ

٤ نوڤمبر- أكتبُ هذه المذكَّرة إلى صديقي المخلص الوفي الدكتور جون سيورد، المقيم في پيورفليت في لندن، في حال لم أرَه. فلعلَّها توضِّح بعضًا من الوقائع. لقد حلَّ الصبَّاح، وأنا أكتبُهَا جالسًا قربَ موقدٍ أبقيتُ ناره متَّقدَةً طوال الليل، وقد مدَّت لي السيِّدة مينا العون في ذلك. الجو باردٌ جدًا حتى باتت السماء الرمادية الثقيلة الوطأة ممتلئة بالثلج الذي سيمكث إثر تساقطه طوال الشتاء، وقساوة الأرضَ تعني زيادة صلاحيتها لاستقباله. يبدو أنَّ ذلك تركَ أثره على السيِّدة مينا؛ فما انفكَّ صداعٌ شديدٌ يلازمها طوال النهار حتى إنَّها بدت إنسانةً مختلفةً عن شخصيتها الحقيقية. إنها تنام، وتنام، وتنام! وهي التي عادةً ما تكون شديدة التيقُّظ، حيث لم تفعَل، وأقول «لم تفعل» حرفيًا، أي شيءٍ طوال النهار، لا بل إنَّهَا حتَّى فقدت شهيتها للأكل. كما لم تكتب أي جملةٍ في مفكرتها الصغيرة، وهي التي تكتب بكل إخلاص كلَّما سنحت

لها الفرصة. كأن شيئًا همسَ لي بأنَّ الأمور ليست على ما يُرَام. مع ذلك فهي أكثر حيوية هذه الليلة. فقد أنعشَها نومُهَا الدائم طوال النهار وردَّ عليها عافيتها، وهي الآن في قمة اللطافة والبِشْر كما كان عهدها سابقًا. حاولتُ أن أنوِّمَهَا مغناطيسيًا عند الغروب، ولكنني للأسف لم أفلح في ذلك، فقوة تأثيري عليها تزداد ضعفًا يومًا بعد يوم، ولم أفلح في تنويمها الليلة نهائيًا. لا بأس، فلا رادَّ لمشيئة الله، مهما تكن مشيئته، وحيثما كان المصير الذي قد تفضي إليه!

أما بخصوص كتابة المذكَّرات وتأريخها، فعليَّ أن أدوِّنَها بأسلوبي القديم المتثاقل نظرًا لأن السيِّدة مينا لا تواظب على كتابة مذكراتها وفق طريقتها المعتادة في الاختزال، حتى لا يمر أيُّ يومٍ من أيام رحلتنا دونها توثيق.

وَصَلْنَا صباح البارحة معبرَ بورغو بعد لحيظات قليلة من شروق الشمس. وكنتُ قد تأهَّبْتُ لإجراء التنويم المغناطيسي عندما رأيتُ علامات الفجر. لذا أوقَفْنَا عربَتَنَا، ونزلنا منها بحيث لا يكون هناك ما يعيقنا. صنعتُ أريكةً من الفرو، واستجابت السيِّدة مينا كعادتها للتنويم المغناطيسي وهي مستلقية، ولكن في مدةٍ أبطء وأقصر من السابق. ومثلما حصل من قبل، جاء الجواب ذاته: «ثمَّة عتمةٌ ودورانٌ للماء بشكل دوامة». ومن ثم صَحَتْ، مشرقةً ويانعةً وتابعنا طريقَنَا ووصَلنَا المعبر في الحال. وفي هذا الزمان والمكان، أصبَحَتْ كأنها على نارٍ وهي تغلي حماسة، وقد ظهرت عليها ملامح قوة جديدة توجِّهُهَا، لأنها أشارت إلى أحد الطرق وقالت:

«هذا هو الطريق».

«وكيف عرفتِ؟» سألتُها.

«بالطبع أعرفه». أجابت، ومن ثم أضافت بعد صمت: «أولَمْ يسافر زوجي جوناثان عليه ويدوِّن يوميَّات رحلته؟».

في البدايةِ حسبتُ ما قالتْه غريبًا، ولكني في الحال رأيتُ بأنَّ هناك طريق جانبي واحد فقط، طريقٌ قليل الاستخدام، كما أنَّه مختلفٌ جدًا عن طريق العربات الواصل بين بوكوفينا وبِستْرتز الذي كان طريقًا أوسع وأشدُّ وعورة، وأكثر استخدامًا.

وهكذا سرنا عبر هذا الطريق، وعندما صادَفْنَا دروبًا أخرى -ولم نكن متأكِّدين دائمًا بأنَّهَا طُرُقٌ من الأساس، لأنَّهَا مُهْمَلَةٌ وسقط عليها ثلجٌ خفيف- فقد عَرَفَت الخيلُ وحدَها أيَّ طريق تسلك. سلَّمْتُها زمام القيادة، وتابَعَت طريقها بجَلَدٍ عظيم. وبعد برهة قصيرة وجدنا كل الأشياء التي دوَّنهَا جوناثان في يوميَّاته الرائعة حين كان هنا. ومن ثم تابعنا مسيرنا لساعاتٍ، ساعاتٍ طويلة جدًا. في البداية، طلبت من السيِّدة مينا أن تنام، فحاوَلَتْ، ونجَحَتْ في ذلك. نامت طوال الوقت، حتى شعرتُ أخيرًا بازدياد شكوكي، فحاولتُ إيقاظها. ولكنها تابعت نومها، ولم أستطع إيقاظها رغم محاولاتي. لم أشأ محاولةَ إيقاظِهَا بصورة صاخبة جدًا حتَّى لا أضايقها، لأني أعرف أنها عانت كثيرًا، وأنَّ النوم أحيانًا كل شيءٍ بالنسبة لها. أظن أني غفوت قليلًا، إذ شعرت بغتة بالنَّدم، وكأنِّي ارتكبتُ إثمًا، فألفيتُ نفسي معتدلًا في جلستي، والأعنَّة

في يدي، والجياد القوية تمضي وهي تخبُّ خبًا لم تنقطع عنه ألبتة. نظرتُ فوجدتُ السيِّدة مينا ما تزال نائمة. إن موعد الغروب الآن ليس ببعيدٍ، وضوء الشمس يتدفق فوق الثلج كطوفان أصفر كبير، فامتدَّت ظلالُنَا الضخمة الطويلة في الموضع الذي يرتفعُ فيه الجبل ارتفاعًا حادًا. إذ كنا نصعد ونصعد ونصعد، وكل شيء... يا إلهي! كل شيء قفرٌ وصخري، وكأننا بلغنا نهاية العالَم.

ومن ثمَّ أيقظْتُ السيدة مينا، ولم تستيقظ هذه المرَّة بصعوبة بالغة، بعد ذلك حاولتُ أن أنوِّمها مغناطيسيًا. ولكنها لم تنم، وكأني ما فَعَلْتُ لها ذلك يومًا. ومع ذلك فقد حاولتُ وحاولتُ، حتَّى وجدتُها ووجدتُ نفسي من فورنا في الظلام، ولذا نظرتُ حولي، ووجدتُ أن الشمس قد غربت. فضحكت السيدة مينا، والتفتُّ ونظرتُ إليها. فهي الآن مستيقظة تمامًا، وتبدو في صحة ممتازة كما لم أرها منذ تلك الليلة في كارفاكس عندما دَخَلْنَا منزل الكونت أوَّل مرة. اعترتني الدهشة، ولم أشعر بالاطمئنان بعد ذلك، ولكنها في قمة الإشراق والنعومة واللطافة معي حتى إنِّي نسيتُ كل الخوف. ثم أوقدتُ نارًا، إذ أحضرنا معنا مؤونَتَنَا من الحطب، وحضَّرَت مينا الطعام بينما حلت رباط الخيل عن العربة وأَرَحْتُهَا، وعقلتها في موضعٍ آمنٍ حتى تأكل. بعدها، وعندما عدتُ إلى موضع النار ألفيت السيِّدة مينا وقد جهَّزت لي العشاء. ذهبتُ حتى أساعدها، ولكنها ابتسمت، وقالت لي إنها أكَلَتْ سلفًا، وإنها كانت جائعة جدًا لدرجة لم تستطع معها الانتظار. لم يعجبني ذلك، وساورتني شكوكٌ أثارت قلقي، ولكني خشيت أن أخيفها، ولذا لذتُ بالصمت على

فعلتها. وَضَعَتْ لي الطعام وأكلتُ بمفردي، وبعدئذٍ تدثَّرْنَا بالفرو واضطَجَعْنَا قرب النار، وطلبتُ منها أن تنام وسأتولى أنا الحراسة. وقد نسيت الآن أمر الحراسة، وعندما تذكَّرْتُ فجأة أنني في حالة حراسة، وجدتُها تستلقي بهدوء، ولكنها مستيقظة، وهي تنظر إليَّ بعينين وضاءتين جدًا. جرت الأمور على الشاكلة ذاتها مرَّة، ثم مرَّتين، ونمتُ مرَّاتٍ كثيرةٍ حتى ما قبل الصباح. عندما استيقظتُ حاولتُ تنويمها مغناطيسيًا، ولكنني لم أنجح مع الأسف! فرغم أنَّها أغلقت عينيها طائعة، ما كانت لتنام. ارتَفَعَت الشمس أعلى وأعلى وأعلى، إلى أن جاءَها النوم متأخرًا جدًا، ولكنه نومٌ عميق لم تستطع الاستيقاظ منه. فاضطررت إلى حملها، ووضَعْتُهَا وهي نائمة في العربة بعد أن شددت عدة الخيل وجهَّزت كل شيء. ما تزال السيدة نائمة، وهي تبدو في نومها أكثر صحة وأشدُّ حمرَةً من قبل. لم يرق لي ذلك. وأنا خائف، خائف، خائف! -أنا خائفٌ من كل شيء- خائفٌ حتى من التفكير ولكن عليَّ أن أمضي في طريقي. فالقضية التي نقامر بها هي مسألة حياة وموت، لا بل إنها أكثر من ذلك، وعلينا ألَّا نتراجع.

صباح ٥ نوفمبر- فلأكن دقيقًا في كل ما أكتبُه، فرغم أنَّكم رأيتُم معي بعض الأشياء الغريبة، فربما تظنون للوهلة الأولى بأني أنا، ڤان هيلسنغ، مجنون، وبأن الأهوال العديدة والإعياء الطويل جدًا الذي تعرَّضت له أعصابي قد قلب لي مُخِّي في نهاية المطاف.

ارتحلنا طوال يوم الأمس، واقتربنا من الجبال أكثر من قبل،

وانتقلنا إلى أرضٍ ازداد إقفارها وعَظُمَتْ قحولتها شيئًا فشيئًا. فثمَّة جروفٌ عظيمة فاغرة فاها والكثير من الماء الساقط، ويبدو أنَّ الطبيعة تقيم كرنفالها أحيانًا. ولا تزال السيِّدة مينا تغطُّ في نومٍ عميقٍ، رغم إني شعرت بالجوع وتجاهلته، لم أستطع أن أوقظها حتى لكي تأكل. بدأتُ أخشى أن تكون تعويذة المكان القاتلة قد تلبَّسَتْهَا، وهي ملتاثةٌ كما هو حالها بتعميد مصاص الدماء لها. فقلت في قرارة نفسي: «حسنًا، إذا نامت طوال النهار على هذه الشاكلة، فذلك يعني أيضًا أني لن أنام في الليل». ونظرًا لأننا نسير على طريق وعر، لأنه كان طريقًا قديمًا ومليئًا بالنتوءات، فقد أخفضتُ رأسي ونمتُ. واستيقظت مرة ثانية وقد داهمني شعورٌ بالندم وبأنَّ الوقت قد مرَّ، ووجدتُ السيدة مينا لا تزال نائمة، والشمس قد انخفضت إلى الأسفل. ولكن كل شيء تغيَّر فعليًا، إذ بدت الجبال العابسة أبعد مسافة، وكنَّا قريبَيْن من قمة تلة ذات ارتفاع شديد الانحدار، تعلوها قلعة تشبه القلعة التي ذكرها جوناثان في يوميَّاته. ومن فوري فرحتُ وشعرت بالخوف، فقد باتت النهايةُ وشيكةً الآن، خيرًا كانت أم شرًا.. إنها وشيكة.

أيقظتُ السيِّدة مينا، وحاولتُ مرَّة أخرى أن أنوِّمها مغناطيسيًا، ولكن دون جدوى! باءت المحاولات بالفشل حتى فات الأوان كثيرًا. ومن ثمَّ، وقبل أن يحل علينا الظلام الدامس -لأنه حتى بعد غروب الشمس فقد عَكَسَت السماءُ ضوء الشمس الغاربة على الثلج، وبات كل شيء للحظات في شفق عظيم- أخرجتُ الخيلَ وتركتها ترعى في أي ملاذ استطعت العثور عليه. بعد ذلك أوقدتُ

نارًا وأجلستُ قربَها السيِّدة مينا، وهي الآن مستيقظة وأكثر سحرًا من قبل، مرتاحةً وسط بطانياتها. ثم جهَّزْتُ الطعام، ولكنها ما كانت لتأكل، وقالت ببساطةٍ إنها ليست بجائعة. لم أضغط عليها، عارفًا عدم جدوى الخوض معها في ذلك. أما أنا فأكلتُ، لأنَّه عليَّ أن أكون الآن قويًا استعدادًا لكل شيء. وبعدئذٍ، والخوف يسكنني مما قد يحدث، رسمتُ دائرةً كبيرة جدًا حول الموضع الذي جلست فيه السيِّدة مينا عسَاها تبثُّ فيها الطمأنينة، ومرَّرْتُ فوق الدائرة بعضًا من الخبز المقدَّس، ثم فتَّتُّه إلى قطعٍ ناعمةٍ بحيث يوفر أكبر قدر من الحماية الجيِّدة. جَلَسَتْ دون حراك طوال الوقت. ساكنةً مثل الموتى، وازداد بياضها أكثر من قبل حتى فَاقَتْ في شحوبها بياض الثلج، ولم تنطق بكلمة. ولكن عندما دنوتُ منها، تشبَّثَتْ بي، فعرفتُ أنَّ روحها المسكينة ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ارتجافةً ترسل الألم في كل من يشعر بها. فقلت لها مباشرة عندما باتت أكثر هدوءًا:

«هلَّا تفضَّلتِ بالاقتراب من النار؟» لأني رغبتُ في إجراء اختبارٍ على ما تستطيع فعله. فنهَضَت طائعة، ولكن ما إن خطت خطوتها الأولى إلَّا وتوقَّفَت، ووَقَفَت كالمصعوقة. فسألتُها:

«لمَ لا تتقدَّمين؟». فهزَّت رأسَها، وعادت وجلست حيث كانت. ومن ثمَّ، وهي تنظر إليَّ بعينين واسعتين، كعيني شخص استيقظ من النوم، قالت دون تكلُّفٍ:

«لا أستطيع!» وجَلَسَتْ صامتة. فرِحْتُ، لأنِّي عرَفْتُ ذلك

الذي لا تستطيع فعله، ولا يستطيع فعله أحدٌ من أولئك الذين نخشاهم. فرغم وجود خطر على جسدها، فإن روحها ما تزال في أمان!

اهتاجَت الخيل في الحال، ومزَّقَت أربطتَها إلى أن ذهبْتُ إليها وهدَّأتُ من روعها. وعندما شَعرَتْ بيديَّ تربِّتُ عليها، صَهلتْ بصوت خافت وكأنَّها فرحة، ولعَقَتْ يَدَيَّ وهدَأتْ بعضَ الوقت. عدتُ لأتفقَّد أحوالَهَا عدَّة مرَّاتٍ أثناء الليل، حتَّى حلَّت الساعة التي يبلغ فيها البردُ أوجَه أثناء الليل عندما تكون أصوات الطبيعة برمَّتِها في أهدَأ حالاتِهَا، وكلَّما جئتُ إليها هدَّأ مجيئي من روعها. وفي لحظة البرد الشديد تلك بدأت النار تخبو، وكنتُ على وشك التقدُّم إلى الأمام لكي أمدَّها بالحطب، لأن الثلج بدأ في هذه اللحظة يتساقط بشكل زخَّاتٍ سريعة مصحوبةٍ بضبابٍ زمهريرٍ. وحتَّى في العتمة كان هناك ضوءٌ من نوع ما، كالضوء الذي يكون دومًا فوق الثلج، وبدا وكأن زخَّات الثلج وحَلْقَات الضباب اتَّخَذَت هيئة نساءٍ بأثوابٍ ذات أذيال طويلة. خيَّم على كل شيء صمتٌ مطبقٌ متجهِّمٌ لا يقطعه شيء سوى صهيل الخيل وارتعادها خوفًا، وكأنها مذعورةٌ من أمرٍ أسوأَ على وشك الحدوث. ثم بدأ الخوفُ يتسلل إليَّ، فقد اكتنفتني مخاوفُ رهيبة، ولكن راودني بعدئذٍ الإحساس بالأمان في تلك الدائرة التي وقَفْتُ داخلها. وبدأتُ أظن أن سبب تخيُّلاتي إنَّما الليل، والظلمة، والاضطراب الذي مررتُ به، وكل القلق الفظيع. بدا الأمر وكأنَّ ذكرياتي عن تجربة جوناثان المخيفة غرَّرَتْ بي؛ لأن ندف الثلج والضباب بدأت تبرُم وتتحرَّك بشكل دوائر، حتى

استطعتُ أن أتبيَّن فيها ما يشبه لمحة ظلِّية من أولئك النساء اللاتي هَمَمْنَ بتقبيله. بعد ذلك انكَمَشَت الخيل خوفًا أكثر وأكثر، وأَنَّت في ذعرها مثلَمَا يئنُّ إنسانٌ يتلوَّى من الألم. حتى جنون الذعر لم يدفعها لأن تهيمَ على وجوهها هاربة. تملَّكَنِي الخوفُ على عزيزتي السيِّدة مينا عندما اقتَرَبت تلك الأشكال الغريبة وهي تدور. فنظرتُ إليها، ولكنِّي وجدتها جالسةً بهدوء تبتسم لي، وعندما تقدَّمْتُ إلى الأمام صوب النار لكي أزيدَهٰا حطبًا، أمسكَتْ بي وأعادَتْني من حيث جئت، وهمسَت بصوت خافت جدًا كالذي يسمعه المرء في حلم:

«لا! لا! لا تخرج من الدائرة. فأنتَ بأمانٍ هنا!». فالتفتُّ إليها، وقلتُ لها وأنا أنظر في عينيها:

«ولكن أنتِ؟ أنا لست خائفًا سوى عليك!» فقالت بعد أن ضحكت على مقالتي ضحكةً خفيضةً ومتكلِّفَة:

«تخاف عليَّ! ولماذا تخاف عليَّ؟ فما من أحدٍ في هذا العالم ينعم بالأمان من شرورهنَّ أكثر مني»، وبينما تساءَلتُ عما قصَدَتْه بكلماتها، تسبَّبَتْ هبَّةٌ من الريح في تقافز لهب النار إلى الأعلى، فرأيتُ الندبة الحمراء على جبينها. ومن ثمَّ، وا أسفاه! كنت أعرف ذلك. ولو لم أكن أعرف، فكنت سأعرف قريبًا، لأن الأشكال الضبابية الثلجية اقتربت، ولكنها بقيت خارج الدائرة المقدَّسة. وأرجو ألَّا يكون الله قد سلبَنِي عقلي، لأني رأيتُ ذلك بأمِّ عينيَّ؛ فقد بدَأت الأشكال بعدئذٍ تتحوَّل إلى أجسامٍ مادية حتَّى تخلَّقَت أمامي من لحمٍ حقيقي النسوةُ الثلاث ذاتهن اللاتي رآهن جوناثان في الغرفة

عندما همَّمن بتقبيل رقبته. فأنا أتذكَّر الأشكال الدائرية المتأرجِحَة، والعيون الجامدة البرَّاقة، والأسنان البيضاء، والبشرة النضرة، والشفاه الشهوانية. ولم يتورَّعن عن الابتسامة للسيِّدة مينا العزيزة المسكينة؛ وبينما اخترقت ضحكتهنَّ سكون الليل، لففن أذرعهن وأشرْنَ إليها، وقُلْنَ لها بتلك النبرات الناعمة جدًا ذات الرنين الخفيف التي وصفها جوناثان بأنها نبرات ذات عذوبةٍ لا يمكن احتمالها، وتشبه رنين كؤوس الماء:

«تعالي يا أختنا. تعالي إلينا. تعالي! تعالي!». والتفتُّ مذعورًا صوب السيِّدة مينا المسكينة، ووثَبَ قلبي من الفرحة مثل لهب النار المتراقص؛ لأنَّه... يا إلهي! لأنَّ الرعب الذي في عينيها الحلوتين، وكذا النفور والخوف، باحَتْ بحكايةٍ لقلبي، حكايةٍ كلُّها أمل. حمدًا لله على أنها لم تصبح بعد واحدةً منهنَّ. حمَلْتُ بعضًا من الحطب الذي بجانبي، وتقدَّمْتُ صوبهن باتجاه النار وأنا أرفع بعضًا من الخبز المقدَّس. فتراجَعْنَ أمامي، وأطلقن ضحكتهن الخفيضة الشنيعة. ثم أضرمتُ النار، ولم أخشاهنَّ، لأنني أعرف أننا سنكون في أمانٍ ونحن نلوذ بها يحمينا. فلم يكن بإمكانهنَّ الاقتراب مني، وأنا متسلِّحٌ بالخبز المُقدَّس، ولا من السيِّدة مينا طالما بقيت ضمن الدائرة التي لا تستطيع أن تغادِرَها طالما أن ذلك يحول دون دخولهنَّ إليها. كانت الخيل قد توقَّفَت عن الأنين، واستلقَت على الأرض ساكنة؛ وسقَطَ الثلج عليها بنعومة، وازدادت بياضًا. وقد عرَفْتُ بأنَّه لم يعد هناك أي ذعر يكتنف هذه الحيوانات المسكينة.

بقينا كذلك حتى هبَطَت حمرة الفجر عبر العتمة المكتسية

بالثلج. كنتُ مكتئبًا وخائفًا، وملأني الهمُّ والرعب، ولكن عندما بدأت تلك الشمس الجميلة بالارتفاع عبر الأفق انبعثت فيَّ الحياة مجدَّدًا. ومع أول انبلاج للفجر تلاشت الأشكال المرعبة في الضباب والثلج الدَّائِرَيين، وابتعدت حَلْقَات العتمة الشفَّافة نحو القلعة، ثم اختَفَت.

مع انبلاج الفجر، التفتُّ بصورة لا إرادية صوب السيِّدة مينا، وقد عزمتُ على أن أنوِّمَها مغناطيسيًا، ولكنها استلقت في نومٍ مفاجئ وعميق لم أستطع إيقاظها منه. فحاولتُ أن أنوِّمَها مغناطيسيًا خلال نومها العادي، ولكنها لم تستجب، ولم تبدر منها أي استجابة على الإطلاق.. ثمَّ طلع النهار. ما زلت أخشى أن أوقظها. فأوقدتُ ناري واستطلعت أحوال الخيل، فوجدتُها ميتة جميعها. اليوم عندي الكثير من العمل لأقوم به هنا، وسأنتظر حتى ترتفع الشمس في كبد السماء، لأنه ربما يكون هناك أماكن ينبغي لي الذهاب إليها، حيث سيكون ضوء الشمس ذاك بمنزلة أمانٍ لي، رغم أن الثلج والضباب يحجبانه.

سأتقوى بتناول الفطور، ومن ثم سأمضي إلى مهمَّتي الرهيبة. ما تزال السيِّدة مينا نائمة، والحمد لله! فهي هادئة في نومها...

يوميّات جوناثان هاركر

مساء ٤ نوفمبر– كان للحادث الذي وقع للقارب البخاري وقعٌ رهيبٌ علينا. ولولا ذلك لكنَّا لحقنا بقارب الكونت منذ وقت

طويلٍ، ولكانت الآن عزيزتي مينا قد انعتَقَتْ من دَنَسِهَا. أخشى التفكير بها وهي في تلك القفار قرب ذلك المكان المخيف. حصلنا على خيل، ولا زلنا نتبع الطريق. وقد كتبتُ هذه اليوميَّات عندما كان اللورد غودالمنغ يستعدُّ. كما أنَّ أسلحتنا معنا. وعلى غجر الزَّغاني أن يأخذوا حذرهم إذا قصدوا القتال. أوه، لكم أتمنَّى أن يكون كوينسي مورِس وسيورد معنا فحسب. ليس علينا سوى أن نأمل ذلك! وإذا لم يُقَدَّرَ لي أن أكتبَ أي سطر آخر، فالوداع يا مينا! وليباركك الله ويحفظكِ.

مذكَّرات الدكتور سيورد

٥ نوفمبر- رأينا مع الفجر مجموعة غجر الزَّغاني أمامنا وهم ينطلقون بعيدًا عن النهر مع عربتهم. وقد أحاطوها على هيئةِ سُرْبَةٍ ملتفِّينَ حولها، وهرعوا مسرعين وكأنَّهُم يحاصرونها. الثلج يتساقط بصورة خفيفة وثمَّة إثارةٌ غريبة في الجو. ربما يكون سبب ذلك مشاعرنا نحن، ولكن الاكتئاب غريبٌ. سمعتُ عواء الذئاب قادمًا من بعيد، فالثلج يجبِرُها على النزول من الجبال، وثمَّة أخطار تحدق بنا جميعًا حيثما نظرنا. الخيل شبه جاهزة، وسننطلق من فورنا. إننا نمتطي صهوات خيلنا ذاهبين إلى موعدٍ يلقى فيه شخصٌ حتفه. والله وحدَه يعلم من يكون، وأين ومتى وكيف سيحصل ذلك...

ظهيرة ٥ نوڤمبر– إنني على الأقل لا أزال عاقلًا. والحمد لله على تلك النعمة في كل الأحوال، رغم أن اختبار صحة ذلك بات مخيفًا. فبعد أن تركْتُ السيِّدة مينا نائمةً داخل الدائرة المقدَّسة، مضيْتُ في طريقي صوب القلعة. كانت مطرقة الحِدَادَة التي جلبْتُها معي في العربة من ڤيريستي مفيدة، فرغم أن الأبواب كانت كلها مفتوحة فقد خَلَعْتُهَا بضربها على مفاصلها الصدئة، تحسبًا من أن تنغلق بفعلِ سوء النية أو سوء الحظ، وربما لا يتسنَّى لي الخروج بعد أن أصير في الداخل. وقد استفدتُ من تجربة جوناثان المُرَّة في هذه النقطة. فمن خلال تذكُّري ما كتبه في مذكراته اهتديتُ السبيل إلى الكنيسة الصغيرة العتيقة، لأني أعلم أنَّ مهمتي إنَّما تكمن هنا. كان الهواء خانقًا، وبدا وكأنَّ في المكان بخارًا كبريتيًا جعلني أدوخ مع الوقت. وأخالُنِي إمَّا سمعتُ طنينًا في أذنيَّ أو سمعت عواء الذئاب قادمًا من بعيد. ومن ثمَّ عصفت في بالي ذكرى عزيزتي السيِّدة مينا، فألمَّ بي كربٌ فظيع. وأنهكَتْنِي الحيرة للاختيار ما بين أمرين أحلاهما مرٌّ.

فأنا لم أجرؤ على أن آتي بمينا إلى هذا المكان، بل تركْتُها في مأمنٍ من مصَّاص الدماء في تلك الدائرة المقدَّسة، ومع ذلك فحتَّى خطر الذئاب ما زال يهدِّدُها وهي هناك! وقد حزمتُ أمري على أنَّ مهمتي تكمن هنا، وأنه علينا أن نقبل مشيئة الله إذا اقتضت أن تهاجم الذئاب مينا. وعلى أي حال لم يكن ينتظرها سوى الموت والانعتاق. وهذا ما اصطفيتُه لها. ولو تُرِكَ الأمر لي حتَّى أختار

الخيار السهل، فإن بطن الذئب يبقى أفضل مقامًا للمرء من قبر مصَّاص الدماء! ولذا اخترتُ المضيَّ في مهمَّتي.

وكنت أعرف أنه يوجد على الأقل ثلاثة قبور ينبغي لي العثور عليها؛ وهي قبورٌ مسكونة بهاتيك النسوة؛ ولذا بحثتُ وبحثتُ حتى عثرتُ على قبرٍ واحدة منهن. ووجدتُها نائمةً نوم مصَّاصي الدماء، وهي تفيض بالحياة والجمال الشهواني حتى إنِّي ارتعشتُ وكأني كنت على وشك ارتكاب جريمة. آه، لا يساورني شكٌّ أنه في الزمن الغابر، الذي صالت فيه هذه الكائنات وجالت، ربَّ رجل من كثيرٍ من الرجال الذين عزموا على فعل ما كنت موشكًا على فعله، وجدَ في آخر لحظةٍ أنَّ قلبه لم يطاوعه، ومن ثم خذلَتْه رباطة جأشه. ولذا فقد أجَّل تنفيذ المهمة، ثم أجَّل، وأجَّل، حتى نوَّمَه مغناطيسيًا الجمالُ والسحرُ الخالصان لهذه الفاجرة من الموتى-الأحياء، وبقي على هذا المنوال حتى جاء الغروب. وبعد أن تنقضي مدة النوم الخاصة بمصاص الدِّماء، تفتح المرأة الجميلة عينيها وتبدوان في غاية الجمال، ويعرض الفم الشهواني تقديم قبلة، والرجل على حالته تلك من الضعف. وعندها تنضوي ضحيَّةٌ إضافية تحت جناحي مصَّاص الدماء، تزيدُ من أعداد من الموتى-الأحياء المرعبين!...

ثمَّة بعض السحر، حتمًا، عندما يفتنني الحضور المحض لامرأة بهذه الصفات، حتى وهي راقدة كما كان حالها في قبرٍ أبلاه الدَّهر وأثقله غبار القرون، على الرغم من وجود تلك الرائحة الفظيعة

كتلك التي شممناها منبعثة من أوكار الكونت في لندن. نعم، لقد فُتِنْتُ - أنا، ڤان هيلسنغ، أنا الذي أفيض عزمًا وتصميمًا ويحكمني دافع كره هذه المخلوقات - فُتِنْتُ باتجاه توقٍ إلى تأجيل مهمتي، تأجيلٍ بدا أنه سيشلُّ ملَكَاتِي ويخنق روحي خنقًا. فربما تكون قد بدأت تتغلب عليَّ الحاجة إلى النوم الطبيعي، والاختناق الغريب الساكن في الهواء. وبالتأكيد كنتُ أجنح باتجاه النوم، نومٍ مفتوح العينين لامْرِءٍ يستسلم لسحرٍ عذب، عندما اخترقَ الهواءَ المسكونَ بالثلج عويلٌ خفيض مديد، مملوء بعظيم الأسى والشفقة حتى إنه أيقظني مثل صوت بوق. لأن الصوت الذي سمعْتُه لم يكن سوى صوتُ عزيزتي السيدة مينا.

ومن ثمَّ استجمعتُ قواي مرة أخرى لتنفيذ مهمتي المرعبة، ووجدتُ وأنا أُزيحُ أغطية القبور إحدى الأخوات الثلاثة، وهي الأخت السمراء الأخرى. ولم أجرؤ على التوقُّف والنظر إليها كما فعلتُ مع أختها، حتى لا أبدأ مرة أخرى في الافتتان بها، ولكني تابعتُ بحثي حتَّى وجدتُ في الحال في قبر ضخم مرتفع وكأنه صنِعَ لامرأة محبوبة جدًا تلك الأخت الجميلة الأخرى التي رأيتُها، مثلما رآها جوناثان، وهي تكوِّنُ نفسَها من ذرَّات الضباب. كانت جميلة جدًا وتغوي المرء بالنظر إليها، وشهوانية بصورة رائعة، حتى إن غريزة الرجل التي تسكنني، التي تدعو بعضًا من أبناء جنسي إلى الحب وأن يحموا واحدة مثلها، من بنات جنسها، جعلت رأسي يدور بمشاعر جديدة. ولكن الحمد لله، لم تبارح أذناي صرخة الروح التي أطلقتها العزيزة السيدة مينا، وقبل أن تنال مني تلك

التعويذة وتستحكمني، استعدتُ رباطة جأشي وانطلقت لأداء مهمتي الفظيعة. وكنتُ قد فرغت في هذه اللحظات من البحث في كل القبور في الكنيسة الصغيرة، إذا ما جاز لي القول؛ ونظرًا لوجود ثلاثة فقط من أشباح الموتى-الأحياء التي حامت حولنا في الليل، فقد استنتجتُ أنه لا يوجد مزيدٌ من الموتى-الأحياء. وكان هناك قبرٌ عظيم أكثر فخامة من بقية القبور كلِّها، قبرٌ ضخمٌ، ومتناسق تناسقًا نبيلًا. وكتبت عليه كلمة واحدة لا ثاني لها:

دراكولا

هذا إذن الموضع الذي يرقد فيه ملك مصَّاصي الدِّماء، الذي يدين له بالولاء عددٌ كبير من الموتى-الأحياء الآخرين. وتحدَّثَ خواء القبر بفصيح البيان ليؤكد ما أعرفه سلفًا. وقبل أن أبدأ في إعادة أولئك النساء إلى حالاتهن الميتة تنفيذًا لمهمَّتي الفظيعة، وضعتُ في قبر دراكولا بعض الخبز المقدَّس، ولذا فقد حرمتُه من النوم فيه بحالة الموتى-الأحياء إلى الأبد.

ومن ثَمَّ ابتدَأَتْ مهمتي الرهيبة التي زرَعت فيَّ الخوف. ولو أنَّهَا مصاصة دماء واحدة، لسهل الأمر عليَّ، نسبيًا. ولكنهنَّ ثلاث! ما أشدَّ فظاعة أن أبدأ مرَّتين إضافيتين بعد أن مررت بعملية الرعب الأولى، فإذا كانت العملية فظيعة في حالة الآنسة لوسي اللطيفة، فكيف سيكون حالها مع أولئك النساء الغريبات اللاتي بقين على قيد الحياة على مرِّ القرون، وقد زادت قوتهنَّ مع مرور السنين، واللاتي كنَّ، لو استطعن، سيقاتلن في سبيل أرواحهنَّ الدنسة.

أوه يا صديقي جون، ولكنها كانت مهمة تشبه ما يفعله الجزَّارون، ولو لم توتِّرْني أفكار الموتى الآخرين، وأولئك الأحياء الذين يحيق بهم حجابٌ قاتم من الخوف، لما استطعتُ متابعة مهمتي. وما زلت أرتجف وأرتجف، على الرغم من أن كل شيء انتهى، والحمد لله أن شجاعتي لم تخذلني. فلو لم أرَ السَّكينة في المقام الأول، والسرور الذي تسلَّل إليها قبل لحظات من أن يدركها الموت، في إدراكٍ منها بأنها ظفرت بروحها، لما استطعت أن أمضي في عملية الذبح. ولم أكن لأستطيع أن أتحمَّل الصرير الفظيع للوتد وهو يخترق قلبها، وسقوط الجسد وهو يتلوَّى من الألم، والشفتين الممتلئتين بالزبَّد المختلط بالدماء. كان ينبغي لي أن أفرَّ مذعورًا وأترك مهمتي دون أن أكملها. ولكن قُضي الأمر! يا للأرواح المسكينة! إذ أستطيع الآن أن أرثي لحالهن وأبكي عليهن، وأنا أتخيَّل صورة كل واحدة منهن في هدوئها أثناء نومها العميق في فترة موتها القصيرة قبل أن تذوي. لأنه يا صديقي جون، بالكاد كانت سكيني قد حزَّت رأس كل واحدة منهن إلَّا وبدأ الجسد يذوي كاملًا وينكمش متحولًا إلى غباره الأصلي، وكأنَّ الموت الذي ينبغي له أن يدركهنَّ منذ عدة قرون قد أكَّد نفْسَه أخيرًا وقال على الفور بالصوت العالي «ها أنا ذا هنا!».

وقبل أن أغادر القلعة أغلقتُ مداخلَهَا بإحكام حتى لا يستطيع الكونت أبدًا الدخول إلى هناك في حالة الموتى-الأحياء.

عندما تقدَّمْتُ إلى داخل الدائرة التي كانت السيدة مينا تنام

فيها، استيقَظَت من نومها، وما إنْ رأتْنِي حتى صِحْتُ من الألم الذي كنت قد تحمَّلته كما لا تتحمَّلُه الجبال. وقالت:

«تعال! تعال نخرج من هذا المكان الفظيع! فلنذهب للقاء زوجي الذي أعرف أنه قادم إلينا». وقد بانت عليها علامات الهزال والشحوب والضعف، ولكنَّ عينيها صافيتان ومؤتلقتان بحماسةٍ متقدة. وقد سرَّنِي أن رأيتُ شحوبَها وسقَمَهَا، لأن ذهني كان مملوءًا بذلك الرعب الحديث العهد لمصَّاصَة الدِّماء المتورِّدة الخدَّين أثناء نومها.

وهكذا وبثقة وأمل، والخوف يملؤنا أيضًا، اتَّجَهْنَا شرقًا للقاء أصدقائنا، ولقائه هو، أصدقائنا الذين تعرف السيِّدة مينا أنهم قادمون إلينا.

يوميات مينا هاركر

٦ *نوفمبر*- كان وقت انطلاقنا قد تأخَّر حتى الظهر عندما مضيتُ في طريقي مع البروفسور نحو الشرق حيث عرفت أن جوناثان قادم من هناك. لم نسرع في مسيرنا، رغم أن الطريق كان منحدرًا بشدة، وقد اضطررنا أن نأخذ معنا بطانيات وأغطية سميكة، إذ لم نجرؤ على مواجهة احتمالية البقاء دون دفء تحت رحمة البرد والثلج. كما اضطررنا لأخذ بعض من زادنا أيضًا، لأننا كنا في منطقة جدباء مقفرة، وبقدر ما استطعنا أن نرى من خلال الثلج، لم يكن هناك حتَّى علامة على وجود أي بيوت هنا. بعد أن قطعنا

حوالي الميل، تعبتُ من المشي الثقيل وجلستُ لكي أرتاح. ومن ثم نظَرْنَا إلى الخلف ورأينا الموضع الذي قطع فيه الخط الواضح لقلعة دراكولا السماء، لأننا كنا قد صرنا في نقطة عميقة جدًا تحت التلة التي انتصبت عليها حتى إن زاوية الرؤية لجبال الكاراپات كانت بعيدةً جدًا تحتها. وقد رأيناها وهي بكل فخامتها، جاثمة على ارتفاع ألف قدم فوق قمة جرفٍ شديد الانحدار، مع وجود فجوة عظيمة واضحة تفصلها عن الجبل المحاذي لها من كل جهاتها. كان هناك شيء موحش وغريب يكتنف المكان. استطعنا سماع عواء الذئاب قادمًا من بعيد. كانت الذئاب بعيدة جدًا، ولكن عواءها يكتنفه الرعب، رغم أنه جاء مكتومًا عبر سقوط الثلج الذي خفَّف من حدته. عرفتُ من الطريقة التي بَحَثَ فيها الدكتور ڤان هيلسنغ بأنه كان يحاول أن يعثر على موقعٍ استراتيجي، بحيث نكون فيه أقل عرضة للخطر في حال تعرَّضْنَا إلى هجوم. طريق العربات الوعر ما يزال يمتد مفضيًا إلى الأسفل، واستطعنا أن نتبع أثره عبر الثلج المنجرف.

لم تمضِ سوى برهة قصيرة إلَّا وأشار لي البروفسور ڤان هيلسنغ، ولذا فقد صعدتُ وانضممتُ إليه. لقد وجد موضعًا رائعًا، وهو أشبه ما يكون بتجويفٍ طبيعي داخل صخرة، له مدخل مثل باب، ويقع بين صخرتين. أمسكني من يدي وسحبني إلى الداخل قائلًا: «أترين! ستكونين هنا في أمان، وإذا ما هاجمتنا الذئاب فيمكنني أن أواجهَهَا واحدًا تلو الآخر». أحضر أغطية الفرو التي جلبناها معنا، وصنع لي منها ما يشبه العش الوثير، وأخرج بعض الزَّاد وأجبرني

على أكله. لكني لم أستطع الأكل، بل حتى إن محاولة فعل ذلك أثارت فيَّ الاشمئزاز، وبقدر ما كنت راغبة بإسعاده، إلا أنني لم أتمكن من إجبار نفسي على المحاولة. بدا حزينًا جدًا، ولكنَّه لم يعاتبني على ذلك. أخرج منظاره من العلبة، ووقف في أعلى الصخرة، وبدأ يبحث في الأفق. ثمَّ صاح فجأة:

«انظري! يا سيِّدة مينا، انظري! انظري!». وَثَبْتُ من مكاني ووقفتُ قربَه على الصخرة، فأعطاني منظاره وأشارَ بيده. كان الثلج يتساقط الآن بغزارة أكبر، وكان يدور بشدَّة، لأن ريحًا عاتية بدأت تهب. وعلى أي حال، كان هناك لحظات توقَّفَتْ فيها زخَّات الثلج واستطعتُ أن أرى أثناءها طريقًا طويلًا يحيط بنا. ومن الارتفاع الذي كنا فيه أمكننا الرؤية لمسافة هائلة، وفي البعيد وراء القفار الثلجية البيضاء، رأيتُ النهر مستلقيًا مثل شريطٍ أسود بعقده والتواءاته المتكوِّنة وهو يشق طريقه. وأمامنا مباشرة وليس عنا ببعيد - في الواقع، كان ما رأيناه قريبًا جدًا منا حتى إني استغربتُ أننا لم نكن قد لاحظنا ذلك من قبل - جاءت مجموعة من الرجال يعتلون صهوات خيلهم مسرعين. وفي وسطهم عربة طويلة تتأرجَح من جهة إلى أخرى مثل كلب يهز ذيله كلَّما عبرَت موضعًا قاسيًا غير مستوٍ في الطريق. ومن خلال ارتسام ثيابهم في بياض الثلج كما هو حالهم، استنتجت أنَّهُم فلاحون أو غجرٌ من نوع ما.

فوق العربة صندوقٌ مربَّع ضخم. تراقص قلبي فرحًا عندما رأيتُه، لأني شعرت بأن النهاية باتت وشيكة. كان المساء الآن يدنو

منا، وكنت أعرف تمام المعرفة بأنه عند الغروب، فإن الشيء الذي كان محبوسًا هناك في الصندوق، سينال انعتاقًا جديدًا ويمكنه بأي طريقة من الطرق العديدة أن يهرب من كل هذه المطاردة. التفتُّ مذعورة إلى البروفسور ڤان هيلسنغ، وقد زاد فزعي إذ لم أجده هناك. ولكني رأيته بعد لحظات وقد صار في الأسفل. كان قد رسم دائرة حول الصخرة، كتلك التي وجدنا فيها الأمان الليلة الفائتة. وبعد أن أكْمَلَ رسم الدائرة وقف قربي مرة أخرى وقال:

«ستأمنين شرَّه على الأقل وأنتِ هنا!». ثم أخذ مني المنظار، ومع الهدأة الموالية للثلج أجرى به مسحًا شاملًا لكامل المكان الواقع في الأسفل وقال لي: «أرأيتِ! لقد جاؤوا مسرعين، إنهم ينهالون بالسياط على الخيل، وهي تعدو بأقصى ما تستطيع». ثم صَمَت وتابع قائلًا بصوت أجوف:

«إنهم يسرعون حتَّى يلحقوا الغروب. ربما نكون قد تأخَّرْنَا كثيرًا. فلا رادَّ لمشيئة الله!». وفي الأسفل هبَّت زخَّةُ ثلجٍ شديدة أخرى تعمي الأبصار، فحجَبَت معالم المشهد برمته. ومع ذلك فقد عدَّت زخَّة الثلج في الحال، ومرَّة أخرى ثبَّتَ منظاره صوب السهل. ومن ثم أطلَقَ صيحةً مفاجئة:

«انظري! انظري! انظري! أترين! ثمَّة فارسان يلحقان بهم بسرعة، وهما قادمان من الجنوب. لا بدَّ أنهما كوينسي وجون. إليكِ المنظار. انظري قبل أن يحجب الثلج المشهد كله!». فأخذتُ المنظار ونظرتُ فيه. رُبَّمَا يكون الفارسان الدكتور سيورد والسيِّد كوينسي

مورِس. وأعرف في كل الأحوال أنَّ جوناثان ليس أيًا منهما. وفي الوقت نفسه أعرف أنَّ جوناثان ليس ببعيدٍ، وبينما أنظر، وفي الجهة الشمالية من مجموعة الغجر القادمة، رأيت رجلين آخرين ينطلقان بخيلهما بسرعة رهيبة. وقد عرفت أنَّ جوناثان واحدٌ منهما، وسلَّمْتُ بداهة بأنَّ الآخر بالطبع هو اللورد غودالمنغ. وكانا أيضًا يلاحقا مجموعة الغجر التي تسوق العربة. عندما أنبأتُ البروفسور بذلك صاح فرحًا مثل تلاميذ المدارس، وظلَّ يراقب بإمعانٍ إلى أن صارت الرؤية مستحيلة بسبب تساقط الثلج، ثمَّ لقَّمَ بندقيَّته على وضعية الإطلاق وأسندَها إلى الجلمود عند فتحة مخبئنا وقال: «إنَّ أصحابنا جميعًا يقتربون من الغجر، وعندما يحين الأوان سنطبق عليهم من كل الجهات». فأخرجتُ مسدَّسي وهيَّأْتُه للاستعمال، إذ علا عواء الذئاب ودنا منا ونحن نتحدَّث. عندما خفَّت العاصفة الثلجية لحظةً نظرنا مرَّة أخرى. أثارت استغرابنا رؤية الثلج يتساقط بشكل ندفٍ ضخمةٍ قريبًا منا، أما فيما عدا ذلك، فقد كانت الشمس تلقي بسطوع يزداد اطِّرادًا وهي تنزل نحو ذرى الجبال البعيدة. وأنا أستطلع بالمنظار كل ما حولنا رأيتُ هنا وهناك نقاطًا تتحرَّكُ آحاد ومثنى وثلاث وفي أعدادٍ أكبر، ها هي الذئاب تتجمَّع للظفر بفريستها.

بدت كل لحظة من لحظات الانتظار وكأنَّها دهرٌ. هبَّت الريح وكأنها رشقات نار شرسة، وانهمرَ الثلج بشدَّة وكأنَّه يكتسحنا بصورة دوَّاماتٍ دائرية، ولم نتمكن أحيانًا من رؤية مسافة ذراعٍ أمامنا، ولكن في أحايين أخرى، وبينما اجتاحتْنَا الريح بصوتها

الأجوف، بدا وكأنَّها أفسَحَت الفضاء المحيط بنا بحيث استطعنا أن نرى لمسافة بعيدة. لقد اعتدنا مؤخرًا على ترقُّب الشروق والغروب، حتى بتنا نعرف بدقَّة متناهية متى يحين موعدهما، واعتدنا معرفة موعد غروب الشمس قبل حلوله بمدة طويلة. كان من الصعب التصديق بأننا انتظرنا في ذلك الملجأ الصخري أقلَّ من ساعة - وفق ساعات يدنا - قبل أن يبدأ الرِّجال القادمون من الشمال والجنوب بالاقتراب من بعضهم ويلتقون في موضع قريبٍ منَّا. عصفت الريح الآن أعنف وأشد من قبل، وكانت في الشمال أكثر ثباتًا. ويبدو أنها أزاحت سحُبَ الثلج عن كاهلنا، لأن الثلج صار يتساقط متقطعًا. استطعنا أن نميِّز بوضوح أفراد كل مجموعة، المُطَارَدُون والمُطارِدُون. ومن الغرابة بما يكفي أنَّه لم يبدُ أنَّ المُطَارَدِين لاحَظُوا، أو حتى اكترثوا على الأقل، بأن هناك من يلاحقهم، وبدا أنهم يضاعفون سرعتهم بينما تهبط الشمس أكثر وأكثر على قمم الجبال.

اقتربوا منَّا أكثر من قبل. انحنيتُ أنا والبروفسور وراء صخرتنا، وقبضنا على أسلحتنا متأهِّبين، ورأيتُ أنَّه كان قد عقد العزم على ألَّا يمرُّوا. فقد كانوا جميعًا بلا استثناء غير مدركين لوجودنا بدرجة كبيرة.

وفجأةً صاح صوتان معًا: «توقَّفُوا!». أحدُ الصوتين صوت جوناثان، وقد صاح بمقدارٍ كبيرٍ من الشجاعة، أما الصوت الآخر فصوت السيِّد كوينسي مورِس، بنبرة حازمة قوية من قائد واثق. ربَّما لم يفهم الغجر معنى تلك الكلمة، ولكن لا يمكن لهم أن يخطؤوا

فهم نبرتها، بصرف النظر عن أي لغة قيلت بها. شدُّوا أعنَّة خيلهم لا إراديًا وتوقَّفُوا، وفي تلك اللحظة انقضَّ عليهم اللورد غودالمنغ وجوناثان من جهة بينما انقضَّ عليهم الدكتور سيورد والسيِّد كوينسي مورِس من الجهة الأخرى. فما كان من زعيم الغجر، وهو رجل بهيُّ الملامح جلس على صهوة حصانِه مثل القنطُور[1]، إلا أن أشار لهم بالرجوع، وأصدَرَ بصوتٍ شرسٍ بعض الكلمات إلى أصحابه لكي يتقدَّموا. فضربوا بسياطهم خيلَهُم التي وثبت إلى الأمام، ولكن الرِّجال الأربعة رفعوا بنادقهم، وبطريقة لا يمكن إساءة فهمها أمرُوْهم بالتوقُّف. في اللحظة ذاتها نهضتُ والدكتور ڤان هيلسنغ من وراء الصخرة ونحن نصوِّب أسلحتنا نحوهم. وما إن رأوا أنَّهُم محاصرون إلَّا وشدُّوا أعنة خيلهم وتوقَّفُوا. التفتَ الزعيم إلى جماعته وقال لهم كلامًا ما إن سمعه كل واحد منهم إلَّا وأخرج أيَّ سلاحٍ كان في جعبته، خنجرًا كان أم مسدسًا، وهيَّأ نفسَه للهجوم. وما هي سوى لحظات إلَّا ونشب القتال.

ألجم الزعيم حصانه بحركةٍ سريعةٍ، وقفز من أمامه وأشار أولًا صوب الشمس -التي باتت الآن قريبةً من قمم الجبال- ومن ثم أشار صوب القلعة، وتفوَّه بكلماتٍ لم أفهمها. وفي ردٍّ عليه، وثب الرجال الأربعة من جماعتنا من على صهوات خيلهم وانقضُّوا على العربة. لا ريب أني شعرت بخوفٍ رهيبٍ عند رؤية جوناثان في مثل هذا الخطر الداهم، ولكن لا بدَّ أن حماسة القتال قد اجتاحتني

---

(١) بحسب الميثولوجية الإغريقية، مخلوقٌ نصفه الأعلى جسد إنسان (رأسه وذراعاه وجذعه)، ونصفه السفلي جسد حصان (بدنه وقوائمه).

مثلما اجتاحت بقية الرجال فلم أشعر بالخوف، ولكني شعرت فقط برغبة هائلة جامحة في أن أفعل شيئًا. وعند رؤيته الحركة السريعة لأفراد جماعتنا، أصدَرَ زعيم الغجر أمرًا، فتحلَّق رجاله فورًا حول العربة في نوعٍ من المحاولة غير المنظَّمَة لحمايتها، كل واحدٍ يكاتف الآخر ويدفعه بحماسته لينفذ أمر الزعيم.

وسط هذه المعمعة رأيتُ جوناثان في إحدى جهتي الحَلْقَة التي شكَّلها الغجر، وكوينسي مورِس من الجهة الأخرى، يشقان طريقهما نحو العربة؛ وكان واضحًا بأنهما عازمان على الانتهاء من مهمتهما قبل غروب الشمس. وما من شيء بدا أنه سيوقفهما أو حتى يعيقهما. ولم يبدُ أن الأسلحة التي كان يلوِّحُ بها الغجر ولا خناجرهم اللامعة، ولا عواء الذئاب خلفهما، أثارت انتباههما حتَّى. وبدا أنَّ حميَّةَ جوناثان، ورغبته الجامحة لتحقيق غايته، قد أدخلت الرهبة في قلوب الغجر الذين كانوا أمامه، فانكمشوا ذعرًا بصورة لا إرادية إلى الجانب وتركوه يمر. وفي لحظة وثب إلى العربة، وبقوَّةٍ بدت لا تصدَّق، رفع الصندوق الضخم، ورماه من فوق الدولاب صوب الأرض. في أثناء ذلك، اضطر السيِّد كوينسي مورس إلى استخدام القوة للمرور عبر جانب الحَلْقة التي شكَّلها غجر الزَّغاني. طوال الوقت الذي كنت أراقب فيه جوناثان بأنفاسٍ محبوسةٍ كنت أدير طرف عيني لأرى السيِّد كوينسي مورِس، وهو يحثُّ الخطى إلى الأمام مستعجلًا غير عابئٍ بالخطر، يشق صفوف الغجر وقد التمعت خناجرهم وهم ينهالون بها عليه. وقد تفادى طعناتهم بمديته الطويلة القوية، وظننتُ في البداية أنه أيضًا اخترق صفوفهم

دون أن يصاب بأذى، ولكن ما إن وثب ووقف قرب جوناثان، الذي كان في هذا الوقت قد قفز عن العربة، إلّا ورأيتُه يتشبَّثُ بجنبه بيده اليسرى، وقد انبجس الدم من بين أصابعه. ولكنه لم يتوانى عن القتال رغم ذلك، فبينما هاجم جوناثان بقوةٍ لا تلين أحد طرفي الصندوق، محاولًا رفع الغطاء بخنجره الكُكْري الضخم، هجم كوينسي بحدَّة على طرفه الآخر بمديته الطويلة. ونتيجةً لتضافر جهديهما معًا، بدأ غطاء الصندوق يتحرَّك، فاندَفَعَت مساميره مصدرة صوتَ صريرٍ سريع، وسقط الغطاء عن الصندوق.

في هذا الوقت، وبعد أن رأى الغجر أنفسهم محاصرين ببنادق الونشستر، وقد صاروا تحت رحمة اللورد غودالمنغ والدكتور سيورد، استسلموا ولم يبدوا أي مقاومة إضافية. كانت الشمس قد أوشكت على الغروب فوق قمم الجبل، وامتدت ظلال الرِّجال جميعًا فوق الثلج. رأيتُ الكونت مستلقيًا داخل الصندوق فوق التراب، وقد تناثر بعضه فوق جسده نتيجة سقوط الصندوق العنيف عن العربة. كان شاحبًا شحوبًا مريعًا، تمامًا مثل صورة شمعية، وتوهَّجَت العينان الحمراوان بالنظرة الرهيبة الحقودة التي أعرِفُهَا عزَّ المعرفة.

بينما كنت أنظر إليه، رأَتْ عيناه الشمس الغاربة، وتحوَّلت نظرة الكره فيهما إلى نظرة انتصار.

ولكن، وعلى الفور، هوى عليه جوناثان بضربة من خنجره الضخم الذي التمعَ بريقُه. فصرختُ وأنا أرى الخنجر يجزُّ عنقه، وفي اللحظة ذاتها انغرَست مدية السيِّد كوينسي مورِس في قلبه.

كان الأمر مثل معجزة، ولكن أمام عيوننا مباشرة، وبحركة أسرع تقريبًا من لحظة سحب النَفَس، تفتَّتَ جسدُه كاملًا وتحوَّل إلى غبارٍ واختفى عن أنظارنا. ينبغي لي أن أكون سعيدة طوال حياتي لأنه حتَّى في تلك اللحظة أثناء هلاكه الأخير، حمل وجهه نظرة اطمئنان، نظرة لم أتخيَّل ألبتة أن أراها ترتسم على ذلك الوجه.

هي ذي قلعة دراكولا بارزة في السماء الحمراء، وكل حجر من أحجار أسوارها الدفاعية المتكسِّرة واضحٌ بتفاصيله وقد سقط عليه ضوء الشمس الغاربة.

أمَّا الغجر، وقد عدُّوْنَا بطريقة ما السبب في الاختفاء العجيب للرجل الميت، فقد استداروا دون كلمة، وفرُّوا بخيلهم كمن يريد النجاة بحياته. أما الذين كانوا بلا خيلٍ فقد قفزوا فوق عربتهم وصرخوا بأصحابهم من راكبي الخيل ألَّا يتركوهم وحدهم. وفي أعقابهم سارت الذئاب، التي كانت قد انسحبت إلى مسافة آمنة، وتركتنا وحدَنا. اتكأ السيِّد كوينسي مورِس، الذي سقط على الأرض، على مرفقه، وهو يضع يده ويضغط بها على جنبه، والدَّم ما يزال ينبجس من بين أصابعه. فهرعتُ مسرعة إليه، لأنَّ الدائرة المقدَّسة لم تعد الآن تمنعني من التقدُّم إلى الأمام، وفعل مثلي الدكتور ڤان هيلسنغ والدكتور سيورد. جثا جوناثان خلفه ووضع كوينسي مورِس المصاب رأسَه على كتف جوناثان. وأمسك متنهدًا، بجهد جهيد، يدي بيده التي لم تكن مغمورة بالدماء. ولا بدَّ أنه رأى حسرة قلبي بادية على وجهي، لأنه ابتسم وقال:

«إني سعيد جدًا فحسب لأني كنتُ ذا فائدة! أوه يا الله!» وصاح فجأةً، وهو يعاني الأمرين محاولًا الجلوس، وأشار إليَّ قائلًا: «كم جدير أن يموت المرء في سبيل تحقيق هذا الهدف! انظروا! انظروا!».

كانت الشمس الآن تلامس قمة الجبل بالضبط، وسقطت الأشعة الحمراء على وجهي، ولذا فقد غمر وجهي ضوءٌ وردي. وبحركة واحدة ركع الرجال على ركبهم وقالوا بصوت خافت وحماسي جميعهم: «آمين» بينما تابَعَتْ نظرات عيونهم إشارة إصبعه. ثم قال كوينسي المحتضر:

«والآن الحمد لله أنَّ كل جهودنا لم تذهب عبثًا! أترون! إنَّ جبينَها أطهرُ من بياض الثلج! فقد زالت عنها اللعنة!».

حزنُنَا مرٌّ كالعلقم، فقد مات كوينسي مورِس مبتسمًا، مات بصمت، مثلما يموت رجلٌ نبيل مقدام.

ملحوظة

قبل سبع سنوات تلظَّينا جميعًا بلهيب الجمر؛ ونظنُّ أنَّ سعادة البعض منا منذ ذلك الحين تستحق الألم الذي تحمَّلنَا أشواكه. إنها لفرحةٌ إضافية لمينا ولي أن يصادف يوم مولد ابننا ذكرى اليوم ذاته الذي مات فيه كوينسي مورِس. وأنا أعرف أن أمَّه تؤمن إيمانًا خفيًا بأن بعضًا من روح صديقنا الشجاع قد انتقلت إليه. فمجموعة أسمائه تربط بين كل أفراد مجموعتنا الصغيرة، ولكننا نناديه كوينسي.

في صيف هذا العام سافرنا في رحلة إلى ترانسلڤينيا، وذهبنا إلى الأرض العتيقة التي كانت في نظرنا، ولا تزال، مليئة بالذكريات الحيَّة والفظيعة. كان من شبه المستحيل أن نصدِّق بأن الأشياء التي رأيناها بأم أعيننا وسمعناها بأذنينا كانت حقائق فعلية. فقد انطمست آثار كل ما جرى من وقائع. أما القلعة فجاثمة كما كانت من قبل، شامخةً عاليًا فوق قفارٍ من العُزلة.

عندما عدنا إلى إنجلترا كنَّا نحكي عن الأيام الخوالي، الأيام التي نستطيع كلنا أن نستذكرها دون يأس، لأن غودالمنغ وسيورد تزوَّجَا وعاشا بهناءة. أخرجْتُ الأوراق من الخزانة حيث كانت قد وُضِعَت منذ عودتنا منذ زمن بعيد جدًا. وصُعِقْنَا من أنه بالكاد توجد وثيقة أصلية بين كل الوثائق التي تشكل سجلَّ قصتنا، إذ لا شيء فيها سوى الأوراق المطبوعة على الآلة الكاتبة، باستثناء دفاتر المذكَّرات التي كتبتُها أنا لاحقًا وكذلك مينا وسيورد، ومذكَّرةُ ڤان هيلسنغ. وبالكاد نستطيع أن نطلب من أي شخص كان، حتى لو

منَّيْنَا أنفسنا بفعل ذلك، أن يصدِّق هذه الدفاتر كأدلَّة على قصتنا المخيفة جدًا. وقد لخَّص ڤان هيلسنغ القصة برمتها عندما قال، وطفلنا جاثمٌ على ركبته:

«لسنا بحاجة إلى أدلة، ولا نطلب من أحدٍ أن يصدِّقنا! فهذا الطفل سيعرف يومًا ما مقدار شجاعة أمه وبسالتها. لقد عرف سلفًا لطافتها ورعايتها الحنونة، وسيفهم لاحقًا لماذا وقع في غرامها الشديد بعض الرجال، لدرجةٍ بلغوا فيها مبلغًا من الجرأة فعلوا فيه الكثير كرمى لخاطرها».

جوناثان هاركر

النهاية

دراكولا واحد من أشهر الشخصيات الأدبية التي تمردت على نصها الأصلي واكتسبت تجلياتها الخاصة في نصوص أخرى بالإضافة إلى العديد من الأعمال السينمائية والمسرحية والكارتونية.

وقد ترتب على ذلك أن تشكلت صورة نمطية في مخيلة الناس عن دراكولا كقصة رعب مخيفة يغلب عليها طابع "الكومكس". لكن إذا ما عدنا إلى هذه الرواية؛ رواية دراكولا لبرام ستوكر، والتي تعتبر الخلق الأول لهذه الشخصية، سنجد عالمًا مختلفًا كثيرًا عما تشكل بأذهاننا عن هذه القصة. هذه الرواية التي حظيت بمئات الدراسات النقدية والتحليلات المختلفة لما تحمله من رمزية عميقة، تقدم لنا بنية سردية متكاملة ومعقدة في مواجهة مباشرة بين فكرتي الخير والشر، كاشفة عن الأنساق الاجتماعية لعصرها وحافرة بغزارة في النفس البشرية بما يخالجها من غرائز ودوافع، علاوة على الطرح الفكري للعديد من القضايا المتمحورة حول ما كان متعارفًا عليه في تلك الحقبة بمفهوم "الحداثة". وكل ذلك لم يصادر التشويق القصصي الذي كتبت به الحكاية بأسلوب عبقري يتنوع ما بين المذكرات والرسائل من منظور أكثر من خمس شخصيات مختلفة.

في لحظة ما في بدايات الرواية سيستقبلك دراكولا بنفسه قائلًا: «أهلًا بكَ في منزلي. ادخله طواعية، وغادره آمنًا، واترك فيه أثرًا من السعادة التي جلبتها معك!»

وهنا ستجد نفسك متورطًا في الصراع..









www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com